

هجر القرآن العظيم

أنواعه وأحكامه

تأليف

د. محمود بن أحمد بن صالح الدوسري

الدرعية بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

٢٢٩٠١
١٤٢٨/٣١١٩

١٤٢٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اندوسري، محمود أحمد

هجر القرآن العظيم: أنواعه وأحكامه. / محمود أحمد اندوسري -

الرياض، ١٤٢٨ هـ

٧٩٠ ص؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٤ - ٨٠٥ - ٥٧ - ٩٩٦٠

١ - قراءة القرآن أ - العنوان

١٤٢٨/٣١١٩

دبوي ٢٢٩٠١

بِجَمِيعِ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةً

الطبعة الأولى

مج ٢٠٠٨ - ١٤٢٩ هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٩ هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي
نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته
إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

للتشرو والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣. صر ب: ٢٩٨٢ -

الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الإحصاء - ت: ٥٨٨٢١٢٢ - جدة - ت: ٢٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٢٧٠٦ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٢٧٨٢ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: www.aljawzi.com - aljawzi@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصل هذا الكتاب أطروحة علمية
نال بها المؤلف درجة العالمية (الدكتوراه)
بتقليد: ممتاز سنة ١٤٢٧هـ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ.
 وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ رِجْلَيْكُمْ مِنْ عِظَامٍ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].
 أما بعد:

أهمية الموضوع:

إنَّ فَضْلَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَشَرَفَهُ وَرَفِيعَ قَدْرِهِ وَعَلُوَ مَكَانَتِهِ أَمْرٌ لَا يَخْفَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَلَامُ خَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبَلْنَا، وَخَبْرُ مَا بَعَدْنَا، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَنَا، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْعَضَى الْهَدْيَ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبِهِ، مَنْ قَانَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجْرَ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدًى إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ. أَلَا وَإِنَّ كِتَابًا لَهُ كُلُّ هَذِهِ الْخِصَائِرِ لِنِعْمَةِ كَبِيرِي، تَقَاضَانَا شُكْرًا بِحَسَنِ تَلْقِيهَا، وَتَطْبِيقِ الْمَبَادِي وَالْقِيمِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا هَذَا الْكِتَابُ الْمَجِيدُ.
 ولقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يكون أتباعهم القرآن العظيم سبباً

لنجاتهم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا بَأْيُكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

فالبشريّة الحائرة بأسرها في حاجة إلى نور القرآن؛ لثّمان كرامة الإنسان، ولتخرج من هذا الضنك الذي تحياه، نعم العالم في حاجة إلى القرآن ليكون الحق والعدل أساساً في معاملة الإنسان للإنسان.

وأشدّ الناس احتياجاً إليه هم المسلمون؛ ذلك أنهم لا يستطيعون أن يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلا بالقرآن العظيم، يعتصمون به في روابطهم، ويقيّمون أحكامه في حياتهم، ويجاهدون به أعداءهم ويصلحون به دنياهم، ويستقبلون به آخرتهم.

من هنا كانت أهميّة هذا الموضوع، فإن أفضل ما يُفتى فيه العمر، ويُعطى له الكثير من الوقت دراسة القرآن العظيم، وهذه الدّراسة لم تتوقّف ولن تتوقّف أبداً بإذن الله تعالى؛ لأنّه يُتلى ويكفي أن يُتلى، لكنّ الذي يتوقّف أحياناً هو التّطبيق، وبه يتباين جيلٌ عن جيلٍ، ويبرزُ ناسٌ ويذبلُ آخرون.

واقع المسلمين اليوم:

وإنّنا اليوم نشهد هجراً للقرآن العظيم في أنحاء شتى، فالى الله - وحده - المشتكى.

لقد هجَرَ القرآن الحكيم تلاوةً، وزهد الكثير في مذاكرته وحفظه وتدارسه على الرّغم من حرصهم الشّديد على متابعة وسائل الإعلام بشتى طرقها المشروعة وغير المشروعة؛ ليتابعوا بلهفٍ وشوق أخبار مَنْ لا خلاق لهم عند الله تعالى.

وهجَرَ القرآن المجيد استماعاً، وارتبط استماع القرآن في أذهان كثير من الناس بالأحزان والسّرادقات التي تقام للماتم! بل أقبل الناس على سمع اللّهُو والغناء ومزمار الشّيطان، وهجروا قرآن الرّحيم الرّحمن!.

وهجَرَ القرآن العزيز تدبّراً، ولو أنزله الله تعالى على الجبال الرّواسي السّامخات لتصدّعت من خشيته، فقسمت القلوب، وتحجّرت العيون، فلا قلب يتدبّر فيخشع، ولا جوارح تنقاد فتخضع، ولا عين تتحرّك فتدفع!.

وهُجِرَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمَ عَمَلًا، فَبَدَلَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُجَ حَيَاةٍ مُتَكَامِلٍ يَصْبِحُ فِي وَاقِعِ النَّاسِ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ - آيَاتٍ تَقْرَأُ عِنْدَ الْقُبُورِ، وَيُهْدَى ثَوَابُهَا لِلْأَمْوَاتِ، مَعَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَحْيَاءِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَى ثَوَابِهَا وَاتِّخَاذِهَا مِنْهُجًا لِحَيَاتِهِمْ بِشَيْءٍ أَشْكَالِهَا وَصُورِهَا، أَوْ تَصْنَعُ مِنْهُ الثَّمَانِمَ وَالْأَحْجَبَةَ فَتُعَلِّقُ عَلَى صُدُورِ الْغُلَّامَانِ، أَوْ يُوَضَعُ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَحَلَّاتِ وَالسِّيَّارَاتِ لِلْحَفِظِ وَالْبَرَكَةِ، زَعَمُوا!!.

وهُجِرَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمَ تَحَاكِمًا، وَوَقَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمُنْكَرِ الْأَعْظَمِ، بِتَنْحِيَةِ كِتَابِ اللَّهِ عَنِ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنْتَهُمْ شَرَعُوا اللَّهُ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ وَالتَّخَلُّفِ عَنِ رَكْبِ الْحَضَارَةِ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْقَانُونُ الْوَضْعِيُّ الضَّعِيفُ الْقَاصِرُ، يَحْكُمُ فِي الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ!

وهُجِرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ اسْتِشْفَاءً وَتَدَاوِيًا، وَلَجَأَ النَّاسُ إِلَى الشُّحْرَةِ وَالْمَعْرَافِينَ وَالدَّجَالِينَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ الشِّفَاءَ وَالدَّوَاءَ لِأَمْرَاضِهِمْ!.

فَهَلْ مِنْ عَوْدَةٍ، وَهَلْ مِنْ أَوْبَةٍ؟ نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

أوجب الواجبات:

والاعتناء بدراسة القرآن العظيم ومعرفة أسراره لئلا أوجب الواجبات على من يتفرغ للدراسة علومه؛ ولا سيما إذا كانت الدراسة مركزة، وكانت مجالاً بحثياً أكاديمياً، في زمان تدعو كل أمة إلى كتابها، كيف لا، وقد بات في عداد الأمور المسلمة: أن آية أمة تُشرف بشرف كتابها المنزل، أو رسولها المرسل، فكيف إذا اجتمع الشرفان، فقد وجب البحث، ووجب الاتباع.

أسباب اختيار الموضوع:

إن مما حدا بي إلى اختيار هذا الموضوع أموراً عديدة وأسباباً كثيرة، كان في مقدمتها:

١ - القناعة الراسخة بأن هذا الموضوع لم يُدرَس دراسةً متخصصةً تجمع

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن، (ص ٥).

متفرقة، وتلُمُّ أشتاته وجزئياته، وتُعنى به استقراء واستنباطاً وتحليلاً.

٢ - تبيين المسلمين من الغفلة عن القرآن العظيم؛ ليستمسكوا به ويجتهدوا في تعلمه وتعليمه وتلاوته وحفظه وتدبره والعمل به.

٣ - أن سواداً كبيراً من العالم الإسلامي لا يزال يعيش بعيداً عن القرآن الكريم، وهو في أمس الحاجة إليه؛ لينقذه من الضلالة إلى الهدى.

٤ - النظر فيما يبذله أعداء القرآن من تفنن وتبجح في عرض كتبهم المحرّفة، وعقائدهم الباطلة، وأخلاقهم الفاسدة، وقوانينهم الجائرة، في قوالب حديثة مقبولة، ووسائل فنيّة إعلامية، بأفضل الطرق أعلاها.

٥ - تصحيح النظرة الخاطئة والقاهرة التي لا تليق بالقرآن العظيم.

خطّة البحث:

لقد سار البحث في هذا الموضوع في مقدّمة، وباين، وخاتمة، وذلك كما

يلي:

* المقدّمة: وتشتمل على أهميّة الموضوع، وأسباب اختياره، وواقع المسلمين اليوم، وخطّة البحث ومنهجه.

الباب الاول

معنى (الهجر) وذمّ فاعله

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى (هجر القرآن). وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف (الهجر) لغة.

المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر.

المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر.

المبحث الرابع: المقصود بـ (هجر القرآن).

المبحث الخامس: حُكْم هجر القرآن.

الفصل الثاني: ذمّ هجر القرآن. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الدالة على ذمّ هجر القرآن.

المبحث الثاني: الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن.

المبحث الثالث: آثار السلف في ذم هجر القرآن.

الباب الثاني

انواع الهجر

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به). وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.

المبحث الثاني: الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن.

المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.

المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن.

المبحث الخامس: حكم التكذيب بالقرآن.

المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن.

الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به). وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء.

المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن.

المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن.

المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف.

الفصل الثالث: هجر استماع القرآن. وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف السَّماع وأنواعه.

المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن.

المبحث الثالث: آداب استماع القرآن.

المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن.

المبحث الخامس: حكم الاستماع للقرآن وحكم الإعراض عنه.

المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن.

الفصل الرابع: هجر تعلُّم القرآن وتعليمه. وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: مظاهر هجر تعلّم القرآن وتعليمه .
- المبحث الثاني: آداب مُعلّم القرآن ومُتعلّمه .
- المبحث الثالث: فضائل تعلّم القرآن وتعليمه .
- المبحث الرابع: أحكام تعلّم القرآن وتعليمه .
- المبحث الخامس: همّة السّلف في تعلّم القرآن وتعليمه .
- الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن . وفيه أربعة مباحث:
- المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن .
- المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة .
- المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن .
- المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن .
- الفصل السادس: هجر حفظ القرآن . وفيه أربعة مباحث:
- المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره .
- المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن .
- المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن .
- المبحث الرابع: حُكم حفظ القرآن ونسيانه .
- الفصل السابع: هجر تدبير القرآن . وفيه أربعة مباحث:
- المبحث الأول: تعريف التدبير وأهميته وحُكمه .
- المبحث الثاني: أسباب هجر تدبير القرآن .
- المبحث الثالث: الأمور المعينة على تدبير القرآن .
- المبحث الرابع: ثمرات تدبير القرآن .
- الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن . وفيه خمسة مباحث:
- المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن .
- المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن .
- المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن .
- المبحث الرابع: الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم يتواصون بالعمل بالقرآن .

المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن.

الفصل التاسع: هجر التحاكم إلى القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن.

المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

* الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث، ختم الله لنا بالحسنى.

* الفهارس: وتشتمل على فهارس للأحاديث، والآثار، وتراجم الأعلام، والألفاظ ومعانيها، والفروق اللغوية، والأشعار، والأماكن، والأحكام الفقهية، والآداب، والفضائل، والبدع، وثبتت المصادر والمراجع، والمحتوى. وقد تم استثناء (فهرس الآيات)؛ لكثرتها وامتلاء صفحات البحث بها.

منهج البحث:

تيسيراً على القارئ الكريم أُبَيِّنُ طريقة عملي في هذا البحث، وهي كالآتي:

١ - يسير هذا البحث على الطريقة الاستقرائية^(١) في تتبع كل ما يدخل تحت مسمى «هجر القرآن العظيم» من الآيات، والأحاديث، وأقوال أهل العلم. ويسير كذلك على الطريقة الاستنباطية^(٢) في تحليل الآيات؛ والأحاديث، وسائر النصوص المتعلقة بموضوع البحث.

٢ - الإفادة من المصادر والمراجع القديمة لأصالتها، وكذلك اللجوء إلى المصادر الحديثة عند تعذر الحصول على المطلوب من المصادر القديمة.

٣ - عزو الآيات القرآنية بأرقامها إلى سورها.

(١) المنهج الاستقرائي: هو «تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعاً».

«ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني (ص ١٨٨)».

(٢) المنهج الاستنباطي: هو «ما يقوم على التأمل في أمور جزئية ثابتة لاستنتاج أحكام منها».

«البحث العلمي، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعه (١/١٧٨)».

٤ - تخريج الأحاديث والآثار وعزوها إلى مراجعها من كتب السنة، مع ذكر أقوال أهل العلم في درجتها ما أمكن، ما لم تكن في الصحيحين أو أحدهما.

٥ - إثبات أسماء المصادر والمراجع في الهامش بما اشتهرت به. نحو: «تفسير أبي السعود» بدلاً من «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، و«تفسير ابن كثير» بدلاً من «تفسير القرآن العظيم» وهكذا... مع إثبات الاسم الحقيقي والاسم المشهور في ثبت المصادر والمراجع.

٦ - التعريف بكل علم - في الهامش - عند وروده أول مرة في صلب البحث، مستثياً الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ فإنهم أرفع من التعريف بهم، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم؛ لشهرتهم.

٧ - العناية بشرح الألفاظ الغريبة، أو المصطلحات الواردة في البحث ما أمكن.

٨ - التفريق - في الهامش - بين عبارة: (المصدر نفسه)، وبين عبارة: (المصدر السابق). على النحو الآتي:

أ - إذا أطلقت عبارة: (المصدر نفسه) فالمقصود بذلك: المصدر الأخير المتكرر مباشرة بدون فاصل.

ب - إذا أطلقت عبارة: (المصدر السابق) فالمقصود بذلك: المصدر قبل الأخير، أي بينهما فاصل.

وإني إذ أقوم بهذه الدراسة عن «مَجْر القرآن العظيم» لا أدعي بلوغ الكمال؛ لأنَّ النقص من طبيعة البشر، والكمال لله وحده، وإنما حسبي أنني حاولت - قدر المستطاع - أن يأخذ هذا الموضوع مكانه اللائق به في الدراسات القرآنية.

شكر وتقدير:

ويطيب لي: أن أشكر كُلَّ مَنْ مَدَّ لِي يَدَ العون والمساعدة في هذا العمل العلمي، ووَفَّرَ لي من جهده ووقته، وما أسدى إليَّ من ملاحظاتٍ وتوجيهات. فجزى الله الجميع عني كُلَّ خير.

وأستأنس في نهاية هذه المقدمة بما جاء عن ابن الوردي بثلاثة حيث قال:
«فالتاس لم يُصنّفوا في العلم لكي يصيروا هدفاً للذمّ، ما صنّفوا إلا رجاء الأجر،
والدّعوات، وجميل الذّكر، لكن فديتُ جنساً بلا حسدٍ، ولا يُضيع الله حقاً
لأحد، والله عند قول كلِّ قائلٍ، وذو الحجا من نفسه في شاغلٍ، فإذا ظفرت أيّها
الطالب بمسألةٍ فاحمةٍ، فادعُ لي بحُسن الخاتمة، وإذا ظفرت بعثرةٍ، فادعُ لي
بالتجاوز والمغفرة»^(١).

وكتبه

د. معمود بن أحمد النوسري

الدّاعية بوزارة الشؤون الإسلامية

والأوقاف والدّهوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

Donary33@botmail.com

الدمام ص.ب: ٢٧٧٩ - ر.ب: ٣١٤٦١

(١) نقلًا عن: إعانة الطالبين على حلّ ألفاظ فتح المعين، للسيد البكري النبطي (٤/٣٤٤).

الباب الأول

معنى (الهجر) وذمُّ فاعليه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى (هجر القرآن).

الفصل الثاني: ذمُّ هجر القرآن.

الفصل الأول

معنى «هجر القرآن»

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف «الهجر» لغة.

المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر.

المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر.

المبحث الرابع: المقصود بهجر القرآن.

المبحث الخامس: حُكْم هجر القرآن.

المبحث الأول

تعريف «الهجر» لغة

الهجر في اللغة مصدر مشتق من الفعل «هَجَرَ»، وقد ذكر عدد من علماء اللغة لهذا الفعلٍ ومشتقاته استعمالات عديدة، وسوف نعرضُ المعاني التي تتعلق بموضوع البحث على النحو التالي:

- * قال ابن فارس **بَلَّغَةَ**^(١): «الهاء والجيم والراء أصلان، يدلُّ أحدهما على قطعية وقطع، والآخر: على شدُّ شيءٍ وزبيطه»^(٢).
- * **والهَجْرُ: ضدُّ الوضَل، والتَّهَجُرُ: التَّمَاطُع**^(٣).
- * **وهَجْرَه يَهْجُرُه هَجْرًا وهَجْرَانًا بالكسر: صَرَمَه وقَطَعَه.**
- * **وهَجَرَ الشَّيْءَ يَهْجُرُه هَجْرًا: تَرَكَه وأَقْفَلَه وأَعْرَضَ عنه**^(٤).
- * **يُقَال: هَجَرَ زَوْجَه: اعتزل عنها ولم يطلقها**^(٥).
- * **«وهاجر القومُ من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة»**^(٦).

- (١) هو إمام اللغة المحدث أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي المالكي، كان مناظرًا متكلمًا، بصيرًا بالأدب والفقه المالكي. من مصنفاته: «معجم مقاييس اللغة»، و«المجمل». توفي سنة (٣٩٥هـ).
- انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧/١٠٣).
- (٢) معجم مقاييس اللغة (٢/٦٠٠)، مادة: (هجر).
- (٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/٣١ - ٣٢)، مادة: (هجر)، مختار الصحاح، للرازي (ص ٣٢٤)، مادة: (هجر).
- (٤) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي (١٤/٣٩٦)، مادة: (هجر).
- (٥) انظر: المعجم الوسيط، لجماعة من الباحثين (ص ٩٧٢)، مادة: (هجر).
- (٦) معجم مقاييس اللغة (٢/٦٠٠).

والمهاجرة في الأصل: مُصارمة الغير ومُتاركة^(١).

* ويكون الهجر: بالبدن وباللسان وبالقلب، كما ذكر ذلك الراغب الأصفهاني^(٢) تَفَلُّهُ بقوله: «الهِجْرُ وَالهِجْرَانُ مُفَارَقَةُ الْإِنْسَانِ غَيْرَهُ إِثْمًا بِالْبَدَنِ أَوْ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلْبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَفْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]. كنايةً عن عدم قُرْبِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. فهذا هجر بالقلب أو باللسان واللسان. وقوله: «وَأَفْجُرْتُمْ هَبْرًا جَبِيلًا» [المزمل: ١٠]. يحتمل الثلاثة، ومدعوًا إلى أن يتحرى أي الثلاثة إن أمكنه مع تحري المُجَامَلَةِ، وكذا قوله تعالى: «وَأَهْجُرِي مَلِيًّا» [مريم: ٤٦]. وقوله تعالى: «وَالْأَجْرُ نَافِرٌ» [المدثر: ٥]. فَحَثَّ عَلَى الْمُفَارَقَةِ بِالْوُجُوهِ كُلِّهَا^(٣).

* ومن معاني الهجر: الفُحْشُ فِي الْكَلَامِ وَالْهَلْذِيانُ يُقَالُ: أَهْجَرَ فِي مَنْطِقِهِ يُهْجَرُ إِفْجَارًا، إِذَا أَفْحَشَ. وكذلك إذا أَكْثَرَ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يَنْبَغِي. وَالاسْمُ: الْهَجْرُ، بِالضَّمِّ.

* وَهَجَرَ يُهْجِرُ هَجْرًا، بِالْفَتْحِ، إِذَا خَلَطَ فِي كَلَامِهِ، وَإِذَا هَذَى^(٤).

* وَالْمُهَاجِرَاتُ: هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي فِيهَا فُحْشٌ.

ويشهد له قوله تعالى: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ» [المؤمنون: ٦٧].

* ومن معاني الهجر: الاستهزاء. يقال: أهجرت بالرجل: استهزأت به، وقلت فيه قولاً قبيحاً^(٥).

* وَأَهْجَرَ فَلَانٌ: إِذَا أَتَى بِهَجْرٍ مِنَ الْكَلَامِ عَنْ قَصْدٍ.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٥١٤)، مادة: (هجر).

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب، توفي سنة (٥٠٢هـ). قال الذهبي عنه: «كان من أذكى المتكلمين». ومن مصنفاته: «المفردات في غريب القرآن»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة»، و«محاضرات الأدباء».

انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٣/٣٨٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠).

(٣) المصدر السابق (ص ٥١٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/٢٤٥)، مادة: (هجر).

(٥) انظر: المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي (ص ٣٢٦)، مادة: (هجر).

* وَهَجَرَ الْمَرِيضُ: إِذَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ قَضِيٍّ^(١).

* وَالهِجِيرُ وَالْهَاجِرَةُ: يَنْصَفُ النَّهَارَ فِي الْقَيْظِ خَاصَّةً، وَهَجَرَ تَهْجِيرًا: سَارَ فِي الْهَاجِرَةِ^(٢).

* وَسُمِّيَتْ هَاجِرَةً: لِأَنَّ النَّاسَ يَسْتَكْبِتُونَ فِي بَيْوتِهِمْ، كَأَنَّهُمْ قَدْ تَهَاجَرُوا^(٣). وَكَأَنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ هَجَرَتْ النَّاسَ وَهَجَرَتْ لَذَلِكَ^(٤).

* وَالهِجِيرُ: الْمَهْجُورُ الْمَتْرُوكُ^(٥).

* وَالهِجِيرُ: يَبِيسُ الثَّبَتِ الَّذِي كَسَرَتْهُ الْمَاشِيَةُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ: لِأَنَّ الرَّاعِي يَهْجِرُهُ^(٦).

* وَالهِجَارُ: حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ الْفَخْلُ فَيَصِيرُ سَبَبًا لِهَجْرَانِهِ الْإِبِلَ، وَقَوْلُ مَهْجُورٍ: أَي مَشْدُودٌ بِهِ، وَهِيَ جَارُ الْقُرْسِ: وَتَرُهَا، وَذَلِكَ تَشْبِيهُ بِهَجَارِ الْفَخْلِ^(٧).

خلاصة القول:

على ضوء ما تقدم فإن مادة «هَجَرَ» ومشتقاتها في لغة العرب تدور حول معانٍ عدَّة، وهي على النحو الآتي:

١ - البُعْدُ عَنِ الْوَصْلِ الَّذِي يَنْبَغِي، مِنَ الْأَلْفَةِ، وَجَمِيلِ الصُّحْبَةِ.

٢ - الْفَحْشُ فِي الْكَلَامِ وَمَا لَا يَنْبَغِي مِنَ الْقَوْلِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ الصَّوَابِ.

٣ - مَجَانِبَةُ الشَّيْءِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنْهُ، وَأَخَذَ فِي جَانِبِ آخَرَ عَنْهُ.

٤ - هَذْيَانُ الْمَرِيضِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ نِظَامِ الْكَلَامِ.

٥ - انْتِصَافُ النَّهَارِ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ طَرَفِيهِ الْمَحْمُودِينَ، فِي اعْتِدَالِ الْهَوَاءِ وَإِمْكَانِ التَّصَرُّفِ.

٦ - الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْبَعِيرُ: وَهُوَ الَّذِي أْبْعَدَهُ عَنِ اسْتِرْسَالِهِ فِي تَصَرُّفِهِ.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

(٢) انظر: المصباح المنير (ص ٣٢٦).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٦٠٠)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص ٦٣٨).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

(٥) انظر: المعجم الوسيط (ص ٩٧٣). (٦) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٦٠٠).

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

٧ - النَّبَاتُ الْيَابِسُ: وَهُوَ بُعْدٌ عَنِ الرَّعِيِّ فِيهِ مِنَ الْمَاشِيَةِ وَصَاحِبِهَا.

فَالْجَامِعُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي هُوَ: الْبُعْدُ عَنِ الشَّيْءِ، سِوَاهُ أَكَّانَ بُعْدًا عَنِ شَيْءٍ مَادِيٍّ، أَمْ عَنِ شَيْءٍ مَعْنَوِيٍّ^(١).

(١) انظر: أحكام القرآن، لمحمد بن عبد الله ابن العربي (١/٥٣٤).

المبحث الثاني

ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر

وردت مادة «هجر» وما يُشتقُّ منها في الآيات القرآنية في مواطن كثيرة، نأخذ منها ما يدلُّ على المقصود:

١ - التَّرك والإعراض :

* وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. «والمهجور: المتروك والمفارق»^(١).

والمعنى: أنهم تركوا القرآن فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه^(٢).

* وأيضاً في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِرِينَ بِهِ سَبِيحًا مَّهْجُورًا﴾ [المؤمنون: ٦٧].

أي: تُعرضون عن النبي ﷺ، أو الإيمان، أو القرآن، وتتركون ذلك كله^(٣).

٢ - الإفحاش في القول :

* وذلك في قراءة نافع^(٤) تَكَلَّفَةً ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضمّ التاء وكسر الجيم، في

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤٣/١٩).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٣/٣٦٨)، تفسير الشوكاني (٤/٧٣).

وسياقي بسط الأقوال في تفسير الآية في «المبحث الأول» من «الفصل الثاني» تحت عنوان: (الآيات الثلاثة على ذم هجر القرآن).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/٤١)، تفسير البغوي (٣/٣١٣).

وفي الآية أقوال آخر، وهي من اختلاف التنوع لا التضاد. وسياقي بسطها عند الحديث عن: (الآيات الثلاثة على ذم هجر القرآن).

(٤) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم الأصبهاني، مولى جعمونة بن شعوب =

من الإهجار وهو الإفحاش في القول، بمعنى: تُفحشون في الكلام،
وتقولون الحُنا. يُقال: أهجرَ الرجلُ: إذا أفحشَ في القول.
وذكر أنهم كانوا يسبون النبي ﷺ وأصحابه^(٢).

٣ - الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ لأجل الدين:

وفي ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، منها:

* قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ لُوطًا وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْنَا رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

فقوله: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ لُوطًا﴾: أي صدق إبراهيم لوطاً، وأتبعه وهاجر معه.
والضمير في ﴿قَالَ﴾ عائد إلى إبراهيم ﷺ، أي: أعلن أنه مهاجرٌ ديار قومه؛
وذلك لأن الله تعالى أمره بمفارقة ديار أهل الكفر، وهو أوّل مَنْ هاجر في
سبيل الله تعالى^(٣).

قال ابن عاشور^(٤) رحمه الله: «وهذه أوّل هجرة لأجل الدين؛ ولذلك جعلها
هجرةً إلى ربّه. والمُهَاجِرَةُ مفاعلةٌ من الهَجْر: وهو ترك شيء كان مُلَازِمًا له،

= الشَّجْمِي. صدوق ثبت في القراءة، قال مالك: «نافع إمام الناس في القراءة، وقال:
قراءة نافع سنة». وقال عنه أحمد بن حنبل: «كان يؤخذ عنه القرآن، وليس بشيء في
الحديث». وقال أبو عبيد: «والى نافع صارت قراءة أهل المدينة وبها تمسكوا إلى
اليوم». كان محتسباً فيه ذعابة، وكان أسود شديد السواد. من أظهر الناس خلقاً، زاهداً
جواداً، صلى في مسجد النبي ﷺ ستين سنة. توفي سنة (١٦٩هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣٦/٧)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٧/٧)،
تقريب التهذيب، لابن حجر (ص ٩٩٥).

(١) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، لعبد الفتاح القاضي (ص ٢٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٠/١٨)، تفسير البغوي (٣/٣١٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٣٩)، تفسير البغوي (٣/٤٦٥).

(٤) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، وهو
من أعضاء المنجعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، وتوفي سنة
(١٣٩٣هـ). من مصنفاته: «مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«تفسير التحرير والتنوير»،
وأصول الإنشاء والخطابة». انظر: الأعلام، للزركلي (١٧٤/٦).

والمُفاعلة للمبالغة، أو لأنَّ الذي يهجر قومه يكونون هم قد هجروه أيضاً^(١).

* قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِثْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَهَنًا كَبِيرًا وَسَمَةٌ وَمَنْ يَخْرُجْ بِهَا بُيُوتَهُ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوَيْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

هذا في بيان الحثِّ على الهجرة، والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده، أنَّ مَنْ هاجر في سبيله، ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة، فالمرافهم: مشتملٌ على مصالح الدِّين، والسُّعة: على مصالح الدُّنيا.

وذلك أنَّ كثيراً من النَّاس يتوهم أنَّ في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وقرراً بعد الغنى، وذلّاً بعد العزِّ، وشدّةً بعد الرِّخاء. والأمر ليس كذلك، فإنَّ المؤمن، ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص؛ لا في العبادات القاصرة عليه؛ كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية؛ كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكُّنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً. فإذا هاجر في سبيل الله، تمكَّن من إقامة دين الله، وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم.

فإنَّ المراغمة اسم جامع لكلِّ ما يحصل به إغاظة لأعداء الله، من قولٍ وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصُّحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم، وأولادهم، وأموالهم لله، كملَ بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام، والجهاد العظيم، والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمةً لمن بعدهم. وكذلك حصل لهم، ما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى النَّاس.

وهكذا كُلُّ مَنْ فعل فعلهم، يحصل له ما حصل لهم، إلى يوم القيامة^(٢).

(٢) تفسير السعدي (١/٣٩٣ - ٣٩٤).

(١) التحرير والتنوير (٢٠/١٦٠).

٤ - هجر الزوجة في الفراش :

* قوله تعالى: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

اختلف أهل التأويل في المراد بهجر الزوجة في المضجع على أقوال:

١ - الهجر في المضجع: بترك الجماع، وترك الكلام في شأنه.

٢ - ترك النوم معها في فراش واحد.

٣ - أَنْ يُكَلِّمَهَا هُجْرًا وَفُحْشًا وَسُوءًا مِنَ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ^(١).

٥ - الانفراد والعزلة والابتعاد:

وذلك في عدة آيات، منها:

* قوله تعالى: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

هذه الآية - عند المفسرين كافة - منسوخة بآية السيف^(٢)، غير أن العبرة هنا

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالهجر الجميل: هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك

المخالطة، فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بغض

المهجور، أو كراهية أعماله، كان معرضاً لأن يتعلق به أذى من سب أو ضرب

أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أن يهجرهم ولا

يزيد على هجرهم سباً أو انتقاماً^(٣).

* قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَنْبِزُهُمْ لَبِنٌ لَرَجْمَتِكَ

وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾.

١ - فقال بعضهم: المعنى: اهجرني حيناً طويلاً ودهراً. والمليُّ عندهم هو

الملاوة من الزمان؛ وهو الزمن الطويل، وهذا قول مجاهد، والحسن، وسعيد بن

جبير، والسدي، وابن إسحاق.

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٣/٥ - ٦٤).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٣٩٢/٨)، تفسير الشوكاني (٣١٨/٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩٠/٢٩٠).

٢ - وقال آخرون: المعنى: اهجرني سالماً من عقوبتي لك. والمليّ عندهم: هو السلامة. يُقال: فلانٌ مليٌّ بهذا الأمر: إذا كان مضطلعاً به غنياً فيه. أي: اهجرني، وعِرْضُكَ وافِرٌ من عقوبتي، وجسْمُكَ معافى من أذاي.

وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك.

وقد رجح الطبري^(١) كَلِمَةَ القولِ الثَّانِي. أي: اهجرني سويّاً سليماً من عقوبتي؛ لأنه عقب قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَوِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فهو وعيدٌ له، بأنه إن لم ينته، فسوف يَرْجُمُهُ بالقول، والأولى له أن ينتهي عن كلامه معه، قبل أن تناله عقوبته^(٢).

* قوله تعالى: ﴿وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

هذه الآية فيها قراءتان^(٣):

الأولى: قراءة حفص عن عاصم: ﴿وَالرَّجَزَ﴾ بضم الرَّاء، على أنه اسمُ صنم. أي: اهجر عبادة الأصنام، واترك خدمتها.

الثانية: قراءة الباقرين: ﴿وَالرَّجَزَ﴾ بكسر الرَّاء. بمعنى العذاب. أي: اهجر ما يوجبُ لك العذاب من الأقوال والأعمال.

وبناء على ذلك: اختلف أهل التأويل في معنى الرجز:

١ - فقال بعضهم: هو الأصنام. فأبى أن يهجر عبادة الأصنام.

وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزُّهري، وابن زيد.

٢ - وقال آخرون: هو المعصية والإثم، فأبى أن يهجر المعصية والإثم.

وهذا قول إبراهيم النخعي، والضحاك^(٤).

وهكذا نرى أن الأصل في الهجر: التَّركُ فعلاً كان أو قولاً، وهو المعنى المشترك بين الآيات جميعاً.

(١) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام العلامة القارئ، المحدث، المفسر، المؤرخ، الفقيه صالح الثصانيف، ولد بأمل سنة (٢٢٤هـ)، ألف كتباً لم يُصنَّف مثلها ومنها: «تفسيره جامع البيان»، و«تهذيب الآثار»، و«تاريخ الأمم والملوك»، توفي ببغداد سنة (٣١٠هـ). انظر: طبقات المفسرين، للذَّوْدِي (١١٠/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩١/١٦ - ٩٢).

(٣) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص ٣٣٩).

(٤) انظر: المصدر نفسه (١٤٧/٢٩ - ١٤٨).

ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر

وردت مادة «هجر» وما يُشتقُّ منها في الأحاديث النبوية بألفاظ كثيرة، وصيغ عديدة، نأخذ منها ما يدلُّ على المقصود:

١ - التهاجر بين المسلمين:

* عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ» الحديث^(١).

قال النووي^(٢) رحمته الله: «في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليالٍ، وإباحتها في الثلاث، الأوّل: بنصّ الحديث. والثاني: بمفهومه. قالوا: وإنما عُفِيَ عنها في الثلاث؛ لأنّ الأدمي مجبول على الغضب، وسوء الخلق، ونحو ذلك، فَعُفِيَ عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض»^(٣).

٢ - الهجرة لأجل الدين:

* عن ابن عباسي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَفْرَنْتُمْ فَأَنْفِرُوا»^(٤).

(١) رواه مسلم، كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب: تحريم الهجر فوق ثلاث، بلا عذر شرعي (٤/١٩٨٤) (ح ٢٥٦٠).

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن (أبو زكريا)، الفقيه الشافعي النمشقي الحافظ الزاهد القدوة، ولد سنة (٦٣١هـ)، كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، من تصانيفه: «شرح صحيح مسلم»، و«المجموع شرح المذهب»، و«الأذكار»، و«رياض الصالحين»، و«التقريب والتيسير في مختصر الإرشاد»، توفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: شذرات الذهب (٥/٣٥٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/١١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٢/٨٦١) (ح ٢٧٨٣).

* وعن معاوية رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَقَطِّعَ التَّوْبَةَ، وَلَا تَقَطِّعَ التَّوْبَةَ حَتَّى تَطَّلِعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

وقد جَمَعَ العلماء - رحمهم الله - بين هذين الحديثين ممَّا أزال التَّعارض الظَّاهر بينهما بقولهم: إنَّ الهجرة من مكَّة إلى المدينة مع الإقامة بها مع النبي ﷺ، والجهاد بين يديه، قد انقطعت، ولا تكون أبداً.

وأما غيرها من أنواع الهجرة، فذلك باقٍ، لم يزل، ولزَّ ينقطع حَتَّى تطلع الشَّمس من مغربها، وذلك مثل الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، وكذلك الخروج من موضع غَلَبَ عليه المنكر، إلى موضع ليس فيه ذلك^(٢).

٣ - ترك ما نهى الله عنه:

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٣).

الهجرة في هذا الحديث: باطنة: وهي لازمة للعباد لا تنفك عنهم أبداً، بترك ما نهى الله عنه، وظاهرة: وهي هجرة مَنْ قَرَّ بدينه من الكفر أو الفتن.

وقد أشار ابن حجر^(٤) رحمته الله إلى هذين التَّوعين فقال:

«الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة.

= وياب: لا هجرة بعد الفتح (٢/٨٧٤) (ح ٢٨٢٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب: المبايعه بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (٣/١٤٨٧) (ح ١٨٦٣).

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب: في الهجرة هل انقطعت (٣/٣) (ح ٢٤٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/٤٧٠) (ح ٢١٦٦).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٦/١٩٠) (٧/٢٢٩ - ٢٣٠)؛ تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري (٥/٢٣٣)؛ معالم السنن، للخطابي (٢/٢٣٤ - ٢٣٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلَّم المسلمون من لسانه ويده (١/٢٩) (ح ١٠)؛ وكتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٤/٢٠٣٤) (ح ٦٤٨٤).

(٤) هو الإمام الحافظ الشهير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده بمصر سنة (٧٧٣هـ)، له تصانيف لا تحصى، من أشهرها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«لسان الميزان»، و«تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب»، و«بلوغ المرام من أدلة الأحكام» وغيرها. توفي سنة (٨٥٢هـ).

فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان.

والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن.

وكان المهاجرين خوطبوا بذلك، لئلا يتكلموا على مجرد التحول من دارهم، حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيته، ويحتمل أن يكون ذلك بعد انقطاع الهجرة، لما فتحت مكة، تطيباً لقلوب من لم يدرك ذلك، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه، فاشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحكيم والأحكام^(١).

٤ - القول الباطل:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَهْجُرُوا، وَلَا تَذَابِرُوا، وَلَا تَحَسُّوا» الحديث^(٢).

قوله ﷺ: (لا تهجروا): يحتمل أحد معنيين:

الأول: النهي عن التهاجر ومقاطعة الكلام.

الثاني: النهي عن التكلم بالهجر - بضم الهاء - وهو الكلام القبيح^(٣).

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِلَّا فَرُودُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتَذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا مُجْرَأً»^(٤).

قال النووي رحمته الله: «والهجر: الكلام الباطل، وكان النهي أولاً لقرب عهدهم من الجاهلية فربما كانوا يتكلمون بكلام الجاهلية الباطل، فلما استقرت قواعد الإسلام، وتمهدت أحكامه، واشتهرت معالمه أبيع لهم الزيارة،

= انظر: البدر الطالع (١/٨٧).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٧٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجس ونحوها (٤/١٩٨٥) (ح ٢٥٦٣).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٣٣٦).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرک»، كتاب الجنائز (١/٥٣٢) (ح ١٣٩٣).

وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/٨٤١) (ح ٤٥٨٤).

واحْتِاطٌ ﷺ بقوله: (وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا) (١).

وقد وقع في زماننا هذا عينُ ما حذّر منه أنصح الخلق ﷺ، ذلك أنّ بعض عوامّ المسلمين لدى زيارتهم للقبور يتوسّلون بالموتى ويدعونهم من دون الله ويستغيثون بهم، وهذا من أكبر الهُجر والكلام الباطل (٢).

٥ - ترك فراش الزّوج:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ مُهَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ» (٣).

هذا الحديث ليس على ظاهره في لفظ المفاعلة، بل المراد أنّ المرأة هي التي هجرت، وقد تأتي لفظة المفاعلة ويراد بها نفس الفعل، كما ذكر ذلك ابن حجر رحمه الله (٤).

* ويبدل على ذلك رواية مسلم: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» (٥) فجاء بلفظ اسم الفاعل.

ومعنى الحديث: أنّ اللّعة تستمرّ عليها حتى تزول المعصية بطلوع الفجر، والاستغناء عنها، أو بتوبتها، ورجوعها إلى الفراش (٦).

«وَلَا يَتَّجِعْ عَلَيْهَا اللَّوْمُ إِلَّا إِذَا بَدَأَتْ هِيَ بِالْهَجْرِ فَغَضِبَ هُوَ لِذَلِكَ، أَوْ هَجَّرَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَلَمْ تَسْتَنْصِلْ مِنْ ذَنْبِهَا وَهَجَّرَتْهُ، أَمَّا لَوْ بَدَأَ هُوَ بِهَجْرِهَا ظَالِمًا لَهَا فَلَا» (٧).

(١) المجموع (٥/٢٧٧).

(٢) انظر: أحكام الجنائز وبدعها، للآباني (ص ١٧٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها (٣/١٦٧١) (ح ٥١٩٤).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٣٦٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب: تحريم امتناعها من فراش زوجها (٢/١٠٥٩) (ح ١٤٣٦).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/٢٤٩).

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٣٦٥).

٦ - ترك اسم الحبيب:

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي». قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أَمَّا إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكَ تَقُولِينَ: لَا وَدَّ مُحَمَّدٌ، وَإِذَا كُنْتُ غَضَبِي، قُلْتُ: لَا وَدَّ إِبْرَاهِيمَ» قالت: قلت: أجل، والله يا رسول الله، ما أُهْجِرُ إِلَّا اسْمَكَ^(١).

«مغاضبة عائشة رضي الله عنها هي من الغيرة، التي غفي عنها للنساء، ولولا ذلك، لكان عليها في ذلك من الحرج ما فيه؛ لأن الغضب على النبي ﷺ كبيرة عظيمة. وفي قولها: (إِلَّا اسْمَكَ) دلالة على أن قلبها مملوءة من المحبة، وإنما الغيرة في النساء من المحبة^(٢).

وجاء في (فتح الباري) عن الطيبي^(٣) رحمته الله: «وهذا الحصر لطيف جداً؛ لأنها أخبرت أنها إذا كانت في حال الغضب، الذي يسلب العاقل اختياره، لا تتغير عن المحبة المستقرة^(٤)». عبرت عائشة رضي الله عنها عن التُّرك بالهَجْر؛ لتدل به على أنها تتألم من هذا التُّرك، الذي لا اختيار لها فيه، وهذا من الهجر الطيبي الجائز.

وكما مرَّ معنا سابقاً في الآيات: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْهَجْرِ: التُّرْكُ فَعَلًا كَانَ أَوْ قَوْلًا، فَكَذَلِكَ هُنَا هُوَ الْمَعْنَى الْمَشْرُوكَ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ جَمِيعًا.

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: غيرة النساء وَوَجِدِهِنَّ (٣/١٦٨١) (ح٥٢٢٨)، وكتاب الأدب، باب: ما يجوز من الهجران لمن عصى (٤/١٩١٨) (ح٦٠٧٨)؛ والأدب المفرد (١/١٤٦) (ح٤٠٣)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة و (٤/١٨٩٠) (ح٢٤٣٩).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لمحمود بن أحمد العيني (٢٢/١٤٤)، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٢٠٣).

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (شرف الدين): من أهل توريث، من عراق المعجم. من علماء الحديث والتفسير والبيان، قال ابن حجر عنه: «أبى في استخراج الدقائق من القرآن والسُّنن». كانت له ثروة طائلة من الإرث والتجارة، فأنفقها في وجوه الخير، حتى افتقر في آخر عمره. من مصنفاته: «التبيان في المعاني والبيان»، و«أسماء الرجال»، و«فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرُّيب»، و«شرح مشكاة المصابيح» وغيرها. توفي سنة (٥٧٤٣هـ)؛ انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر (٤/١٥٦).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٤٠٥)؛ وانظر: فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، لفضل الله الجيلاني (٢/٧٠ - ٧١).

المبحث الرابع

المقصود بـ «هَجْر القرآن»

لم تذكر كتب المصطلحات «هَجْر القرآن» مصطلحاً، ولكن هناك بعض العلماء الأجلاء من تطرّق إلى الحديث عن هجر القرآن وأنواعه، ومن ذلك:

* ما ذكره ابن كثير^(١) نَقَلَهُ حيث قال: «كان الكفّار إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللَّغَط والكلام في غيره، حتّى لا يسمعه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبّره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذة من غيره من هجرانه»^(٢).

* وما ذكره ابن القيم^(٣) نَقَلَهُ حيث قال: «هَجْر القرآن أنواع:

(١) هو الحافظ أبو الفداء عماد الدّين، إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوه البصري ثم الدّمشقي، الشافعي، ولد سنة (٧٠٠هـ)، وقدم دمشق وصاهر الحافظ المزي، وصحب ابن تيمية، وتبعه في كثير من آرائه، وامتنح بسبب ذلك وأوذى، كان كثير الحفظ، سهل الاستحضار، انتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. له التفسير المشهور، ثاني كتاب في التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير، وله موسوعة التاريخ: «البداية والنهاية» توفي سنة (٧٧٤هـ). انظر: شذرات الذهب (٦/٢٣٠)؛ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (١/١٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/١٢٠).

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزّرععي ثم الدّمشقي، شمس الدّين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، تفقّه في مذهب الإمام أحمد وبرع وأفتى، لازم ابن تيمية وأخذ عنه، وتفنّن في علوم الإسلام، وله في كُُلِّ فن اليد الطولى. وكان ذا عبادة وتهجد، وقد امتحن وأوذى مرات، وصنّف تصانيف كثيرة، منها: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطّلة». توفي سنة (٧٥١هـ). انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢/٤٤٧).

أحدهما: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لا تفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَنْزِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهنجر أهون من بعض.

والسادس: الحرج الذي في الصدور منه؛ فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالاته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مُستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق، وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضربٍ من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدون في صدورهم. ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تُخالف بدعته. كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته^(١).

* وجاء في موسوعة نضرة النعيم في بيان «هجر القرآن» ما نصه:

«إن هجر القرآن له جانبان: أحدهما: يتعلّق بالقرآن دون أخذ له، وهذا صنيع الكفار والمنافقين، والآخر: يتعلّق به بعد الإقرار بأنه كلام الله الذي لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا صنيع بعض المسلمين الذين لا يقرؤون القرآن، أو يقرؤون لا يجاوز حناجرهم، فلا يعملون به، ومن هؤلاء صنف يحفظ القرآن أو شيئاً منه، ثم يهجر القراءة حتى ينسى ما قد يكون حفظه منه^(١).

المقصود بـ «هجر القرآن»:

من خلال الاستعراض اللغوي لمادة «هجر»، ومشتقاتها في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وما ذكره بعض أهل العلم في هذا الشأن، نستطيع أن نُقرر: بأن «هجر القرآن» يعني الأمور الآتية:

- ١ - ترك الإيمان به، وعدم الالتفات إليه كليتة.
- ٢ - القول السّين في القرآن، والزّعم الباطل بأنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين، وهذا القول القبيح في حقّ القرآن من الاستهزاء به.
- ٣ - الإعراض والبُعد عن القرآن، وعدم سماعه، ورفع الأصوات بالهذيان إذا قرئ لتلاً يُسمع.
- ٤ - ترك العمل به وعدم امتثال أوامره وعدم اجتناب زواجره.
- ٥ - ترك تحكيمه والاحتكام إليه.
- ٦ - ترك تدبّره وتفهمه.
- ٧ - ترك تلاوته وحفظه أو نسيانه بعد حفظه.
- ٨ - ترك الاستشفاء والتداوي به.
- ٩ - الحرج الذي في الصدور منه.

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، لمجموعة من المختصين (٥٦٩١/١١).

المبحث الخامس

حُكْم هَجْر الْقُرْآن

يختلف حُكْمُ هَجْر الْقُرْآن الْكَرِيمِ بِاخْتِلَافِ نَوْعِ الْهَجْرِ، وَحَالِ الْهَاجِرِ، وَقَدْ سَبَقَ كَلَامٌ لَابِنِ الْقَيْمِ تَلَفُّهُ حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْهَجْرِ أَهْوَنَ مِنْ بَعْضٍ»^(١).

وَقَدْ ذَكَرَ الْأَلُوسِيُّ^(٢) تَلَفُّهُ اخْتِلَافَ الْمَفْسَّرِينَ فِي مَعْنَى الْهَجْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» [الفرقان: ٣٠].

وَهَلِ الْمُرَادُ بِهَجْرِهِ: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِ وَتَرْكُهُ تَكْذِيبًا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْهَجْرَ - بفتح الهاء - بِمَعْنَى التَّرْكِ وَالْإِعْرَاضِ، أَوْ أَنَّ الْهَجْرَ: بِمَعْنَى الْهَذْيَانِ فِيهِ وَاللُّغُو مِنْ الْهَجْرِ بِضَمِّ الْهَاءِ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْهَجْرِ: تَعْطِيلُ الْقُرْآنِ وَعَدَمُ النَّظَرِ فِيهِ وَتَعَاهِدِهِ.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: «وَالْحَقُّ: أَنَّهُ مَتَى كَانَ هَذَا مُبْخَلًا بِاحْتِرَامِ الْقُرْآنِ كُرْهًا، بَلْ حَرْمًا، وَإِلَّا فَلَا»^(٣).

وَجَاءَ فِي فِتَاوَى اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْإِفْتَاءِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ مَا نَصَّهُ:

(١) الفوائد (ص ١٢٤).

(٢) هو أبو الثناء، شهاب الدين، محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، نسبة إلى قرية اسمها «ألوس»، وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات، بين الشام وبغداد، كانت موطن أجداده. ولد سنة (١٢١٧هـ) في جانب الكرخ من بغداد، جَمَعَ كَثِيرًا مِنَ الْعِلْمِ، فَكَانَ مَفْسِّرًا وَمُحَدِّثًا، وَأَصُولِيًّا فَقِيهًا، اشْتَغَلَ بِالتَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ رِثَاةُ الْمَذْهَبِ الْحَنْفِيِّ وَوَلِّيَ الْمَدْرَسَةَ الْمَرْجَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ مَشْرُوعَةً لِأَعْلَمِ أَهْلِ الْبَلَدِ، انْفَصَلَ مِنْ مَنْسَبِ الْإِفْتَاءِ وَأَكْبَدَ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ حَتَّى أَمْتَهُ - وَهُوَ رُوحُ الْمَعَانِي - تَوَفِّيَ سَنَةَ (١٢٧٠هـ).

انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي (١/٣٦٠ - ٣٦٢)؛ معجم المؤلفين، لكخاله (٣/٨١٥).
(٣) روح المعاني، للألويسي (١٩/١٣ - ١٤).

«والإنسان قد يهجر القرآن فلا يؤمن به ولا يسمعه ولا يُصغي إليه، وقد يؤمن به ولكن لا يتعلمه، وقد يتعلمه ولكن لا يتلوه، وقد يتلوه ولكن لا يتدبره، وقد يحصل التدبر ولكن لا يعمل به، فلا يُجلّ حلاله ولا يُحرّم حرامه، ولا يُحكّمه ولا يتحاكم إليه، ولا يستشفي به ممّا فيه من أمراض في قلبه وبدنه، فيحصل الهجر للقرآن من الشخص بقدر ما يحصل منه من الإعراض»^(١).

وبناء على ذلك: فإن كان هجر القرآن بترك الإيمان به، أو الإعراض عنه، وعدم التّحاكم إليه بالكليّة، أو اللّغو فيه، فهذا كفر صّراح.

قال النووي **تَلَفُّة**: «أجمعت الأئمة على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتزيهه وصيانته. وأجمعوا على أنّ مَنْ جحد منه حرفاً مُجَمَّعاً عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد وهو عالم بذلك فهو كافر، وأجمعوا على أنّ مَنْ استخف بالقرآن أو بشيء منه، أو بالمصحف أو لقاءه في قاذورة، أو كذّب بشيء مما جاء به من حُكم أو خبر، أو نفى ما أثبتته أو أثبت ما نفاه، أو شكّ في شيء من ذلك، وهو به عالم كَفَر»^(٢).

وإن كان هجر القرآن بمعنى التّرك المؤدّي إلى النسيان بعد الحفظ، فقد ذكر ابن حجر الهيثمي^(٣) **تَلَفُّة** أنه من الكبائر، وقال بأنّ ذلك هو ما ذهب إليه الرّافعي^(٤) وغيره، ونقل عن بعض العلماء أنّ محلّ كون نسيان القرآن كبيرة - عند

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤/١٠٣ - ١٠٤)، من الفتوى رقم (٨٨٤٤).

(٢) المجموع (٢/١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٨).

(٣) هو أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي، السعدي، الأنصاري، الشافعي، ولد بمصر سنة (٩٠٩هـ) في محلة أبي الهيثم المنسوب إليها، برع في علوم كثيرة، وازدحم الناس على الأخذ منه، له مصنفات كثيرة منها: «شرح المشكاة»، و«شرح المنهاج»، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر». توفي بمكة سنة (٩٧٣هـ).

انظر: مقدمة كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٨ - ١٠).

(٤) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل الرافعي، القزويني، الشافعي، ولد سنة (٥٥٥هـ) فقيه، محدث، مفسر، مؤرخ. قال أبو عبد الله الإسفرايني: «كان أوحد عصره في العلوم الدنيوية أصولاً وفروعاً، ومجتهد زمانه في المذهب، وفريد وقته في التفسير». وكان زاهداً ورعاً متواضعاً. ومن مصنفاته: «فتح العزيز على كتاب

مَنْ قَالَ بِهِ - مشروطاً بأن يكون عن تكاسل وتهاون، وهذا احترازٌ عما لو اشتغل عن القرآن بمرضٍ مانعٍ من القراءة، وعدم التأنيم بالنسيان حينئذٍ واضح؛ لأنه مغلوبٌ عليه لا اختيار له فيه^(١).

وأما إن كان الهجر مُتعلّقاً بعدم العمل به - مع الإيمان به، والإقرار بأنه كلام الله تعالى يجب اتّباعه - فذلك معصية يتوقّف كونها كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها.

وأما إن كان الهجر بمعنى ترك التلاوة، أو ترك التدبر، أو ترك الاستشفاء به - مع القدرة على ذلك - ولم يفعل، فهو مُؤاخَذٌ على فعله بحسب نوع تقصيره في ذلك، وإن لم يكن قادراً على ذلك فإن الله تعالى لا يُكَلِّفُ نفساً إلاّ وسعها وما آتاها، ويُستثنى في تلاوة القرآن فيما تصحُّ به صلاته كقراءة الفاتحة مثلاً، فإنها واجبة على كلِّ مسلم، ولا يجوز تركها بحال^(٢) وسيأتي تفصيل ذلك كلِّ بِحَسْبِهِ في أنواع هجر القرآن.

-
- = الوجيز للغزالي^(١)، وشرح المحرر^(٢) وسماه الوضوح، وشرح مسند الشافعي^(٣). توفي بقزوين سنة (٦٢٣هـ) ودفن بها.
- انظر: طبقات المفسرين (١/٢٢٥).
- (١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٥٧ - ٢٥٨)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٦/٩).
- (٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١١/٥٦٩٢)، المُتخف في أحكام المصحف، د. صالح بن محمد الرشيد (ص٧٤٦ - ٧٥٠).

الفصل الثاني

ذم هجر القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الدالة على ذم هجر القرآن.

المبحث الثاني: الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن.

المبحث الثالث: آثار السلف في ذم هجر القرآن.

المبحث الأوّل

الآيات الدّالة على ذم هجر القرآن

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الشُّكوى العظيمة.

المطلب الثاني: السَّمَر الفاجِس.

المطلب الثالث: الإحراض عن القرآن.

المطلب الرابع: الظُّلم الأعظم.

المطلب الخامس: الوجوه العابسة.

المطلب السادس: الاستكبار عن القرآن.

المطلب السابع: اللُّغو الباطل.

المطلب الثامن: التَّقسيم الجائر.

الآيات الدالة على ذم هجر القرآن

تمهيد:

عانى النبي الكريم ﷺ ما عاناه من جفاء قومه الذين لم يتبعوه ولم ينقادوا لدعوته المباركة، وكانت لهم أساليبهم التي واجهوا بها النبي ﷺ؛ من ذلك: إعراضهم عن كتاب الله، فكانوا إذا نلت عليهم الآيات القرآنية في مختلف الأماكن العامة والخاصة ونوا وأعرضوا عنها وتصامموا - وما بهم من صمم - مستكبرين عن قبولها والانقياد لها.

بل أدى بهم الحال إلى أن يوصي كبيرهم صغيرهم، وغنيهم فقيرهم، وحاضرهم باديهم بعدم الاستماع لهذا القرآن ابتداءً؛ لأنهم على يقين أن كل من استمع لهذا القرآن متجرداً من الموانع والهوى سيقوده استماعه إلى الإيمان بالقرآن العظيم والانقياد له، وهذا ما لا يُريدونه ولا يتمنونه.

ومن شدة كراهيتهم للآيات التي تُلَى عليهم أحياناً يتملكهم الغضب والكراهية المؤدية إلى عبوس الوجوه وتقطيعها، ويكاد أن يتحوّل هذا الشعور إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن الكريم.

وهناك آيات تتحدّث عن جفاء الكفار وإعراضهم عن كتاب الله تعالى، حتى وصل الحال إلى شكوى عظيمة يبثها النبي ﷺ إلى ربه عز وجل بسبب هجر قومه للقرآن العظيم، وهذا ما ستناوله في هذه المطالب:

المطلب الأول الشكوى العظيمة

* قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شكا الرسول ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى ما يُعانيه من عناد قومه واستكبارهم، وإعراضهم عن قبول دعوته، والإيمان بالكتاب الذي جاءهم به. فقد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم، الإيمان به، والانقياد لحكمه^(١).

والمقصود من حكاية هذه الشكوى العظيمة: إنذار كل من هجر القرآن الكريم إلى يوم الدين، بأن صاحب الرسالة ﷺ قد توجه في هذا الشأن إلى ربه عز وجل يشكو هجر قومه القرآن العظيم.

وقد أكدت هذه الشكوى بـ ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾: للاهتمام بها؛ ليكون التشكي أقوى. والتعبير عن قريش بـ ﴿قَوْمِي﴾: لزيادة التذمر من فعلهم معه؛ لأن من شأن قوم الرجل أن يوافقوه.

وقوله ﴿اتَّخَذُوا﴾: يدل دلالة واضحة على أن هذا هو دينهم وشأنهم وحالهم مع نبيهم المرسل إليهم.

بمعنى: أن الهجر لم يقع عرضاً مرة أو مرتين، إنما وقع مراراً وتكراراً، فهو أشد مبالغة - في هجر القرآن - من أن يُقال: إن قومي هجروا القرآن. كأنما اتخذوا هذا الهجر صنعةً وجرفة، وعقدوا العزم في ذلك الاتخاذ، فهو قرار قرور، ومنهج اختطوه لأنفسهم وللأجيال من بعدهم.

واسم الإشارة في ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾: لتعظيمه، وأن مثله لا يتخذ مهجوراً بل هو جدير بالإيمان به، والإقبال عليه، والانتفاع به^(٢). والتعبير باسم الإشارة

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٤٢/١٩).

(١) انظر: تفسير السعدي (٤٣٨/٣).

أيضاً؛ لبيان أنه مُتَّاحٌ لهم تعظيمه، فهو بين أيديهم، بالإضافة أنه نزل بلسانهم. فهذه «شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لِمَنْ هَجَرَ هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال»^(١).

* وقد اختلف أهل التأويل في معنى وكيفية اتِّخَاذِهِم القرآن مهجوراً على عدة أقوال، وهي على النحو الآتي:

١ - التَّركُ كلياً:

بمعنى أن المشركين تركوا الإيمان بالقرآن، ولم يلتفتوا إليه أبداً، قال ابن الجوزي: «وهذا معنى قول ابن عباس ومقاتل»^(٢).

٢ - الإعراض والبعد عن القرآن وعدم سماعه:

قال ابن زيد في معنى الآية: لا يريدون أن يسمعوها، وإن دُعوا إلى الله قالوا: لا. وقرأ: ﴿وَمَنْ يَهْجُرْهُمْ هَجْرَهُ وَيَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٦]، قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه.

ورجح ابن جرير الطبري تَكْلُفَهُ هذا القول؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِنَا أَلْفَاكِي وَآلْفَاكِي فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُقْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وذلك هجرهم إِيَّاهُ^(٣).

٣ - القول السَّيِّئُ في القرآن، والزَّعمُ الباطلُ بأنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين:

قال مجاهد^(٤) تَكْلُفَهُ في معنى الآية: يهَجُرُونَ فيه بالقول، يقولون:

(١) أضواء البيان، للشنيطي (٣١٧/٦). (٢) زاد المسير (١٤/٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/١١).

(٤) هو شيخ الفراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، مجاهد بن جبر، مولى الثائب بن أبي الثائب المخزومي - وقيل غيره - أشهر تلاميذ ابن عباس، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول: «عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أقبه عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت». قال عنه قتادة: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد». توفي وهو ساجد سنة (١٠٣هـ)، وقد بلغ: (٨٣) سنة.

انظر: طبقات ابن سعد (٤٦٦/٥)؛ سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤).

٤ - الْهَلْدِيَانُ وَفُحْشُ الْقَوْلِ:

بمعنى أنهم: هجروا فيه، أي: جعلوه كالهذيان، ومنه يقال: فلان يَهْجُرُ في منامه، أي: يهذي، والهُجْرُ: ما لا يتنفع به من القول^(٢).

وتشهد له قراءة نافع: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم، في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]. وهو الإفحاش في القول، وقول الخنا يقال: أهُجِرَ الرَّجُلُ إذا أفحش في القول^(٣).

وفي هذه الشكوى من التخويف والتحذير ما لا يخفى؛ فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا^(٤).

وهذه الآية وإن كانت في المشركين، إلا أن العبرة بعموم لفظها، فنظمها الكريم مما يُرهب عموم المعرضين عن العمل بالقرآن، والأخذ بأدابه، وفي الآية كذلك التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه^(٥).

لذا ينبغي لكل مسلم - يخاف الغرض على ربه عز وجل يوم القيامة - أن يتأمل هذه الآية الكريمة، ويؤمن النظر فيها مراراً وتكراراً؛ ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطامة الكبرى التي عمت جُل بلاد المسلمين من هذه المعمورة، وهي: هجر القرآن الكريم^(٦).

شبهة:

قد يقول قائل: إن شكوى النبي ﷺ هذه، تُشبه من ذي قبل شكوى نوح عليه السلام من قومه، قال تعالى حكاية عن هذه الشكوى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبًّا وَتَكَرَّرًا ﴿٥﴾ لَمْ يَزِدْهُمْ مَعَايَ إِلَّا بُرْءًا﴾ [نوح: ٥ - ٦]. فكما أن نوحاً عليه السلام قصد أن ينزل الله

(١) انظر: المصدر السابق (١٤/١١).

(٢) انظر: زاد المسير (١٥/٦)؛ روح المعاني (١٤/١٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤٠/١٨)؛ تفسير البغوي (٣/٣١٣).

(٤) روح المعاني (١٤/١٩).

(٥) انظر: تفسير القاسمي (٥/٣٤١ - ٣٤٢).

(٦) انظر: أضواء البيان (٧/٢٦٢).

تعالى العذاب على قومه بسبب عصيانهم له، فكذلك هنا. فكيف يليق ذلك بمنز
وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الانبياء:
١٠٧]؟

ردّها:

إن نوحاً عليه السلام لما شكوا قومه إلى ربه دعا عليهم بالهلاك، كما جاء في
السورة نفسها: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ
يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

وأما محمد عليه السلام لما بث شكواه إلى ربه ما دعا عليهم بل انتظر، فلما
عزاه الله تعالى وسلاه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:
٣١]. كان ذلك كالأمر له بالصبر على جفاء قومه، فترك الدعاء عليهم، فظهر
الفرق بين الموقفين^(١).

المطلب الثاني

السَّمْرُ الْفَاحِشُ

* قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ مَآئِيحُ نَارٍ عَلَىٰ خَبَابٍ فَكَيْفَ يُحْمَرُّ عَلَىٰ غَفْلَةٍ كَذِبُهَا﴾ [المؤمنون: ٦٦ - ٦٧].

لما بين تبارك وتعالى أن المشرفين من الكفار إذا أخذوا بالعذاب ضجوا
وصاحوا واستغاثوا، وبين أنهم لا يغاثون، بين سبب ذلك كله: أن آيات كتاب الله
كانت تتلى وتقرأ عليهم في الدنيا، واضحة مفصلة، فكانوا يكذبون بها.
بل رجعوا عنها القهقري، مؤلّين مدبرين عنها، كراهية منهم لسماعها.
والعقب: مؤخر انقدم. والنكوص: الرجوع عن الأمر^(٢). ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا
رَأَتْ أَلْوَشْتَانَ كَفَرَ عَلَىٰ غَفْوَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فهذا هو حال الإنسان إذا لم يؤمن بالقرآن، أنه يتراجع القهقري إلى

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٦٨/٢٤).

(٢) انظر: أضواء البيان (٧٩٩/٥).

الخلف؛ وذلك لأنه باتباعه للقرآن العظيم يتقدم إلى الأمام، وإذا أعرض عنه تأخر، ونزل إلى أسفل سافلين^(١).

فبدل أن يمشي إلى الأمام - كما خلقه الله تعالى - إذا به يمشي للخلف على عقبه، وكأنه أخذ أخذاً غير عنده دولاب سيره؛ لأنه عمي عن أسباب هدايته، فصار يتخبط في مآهات الحياة على غير هدى، كمن يسير بظهوره لا يعرف مواقع قدميه^(٢).

وقد بين الله تعالى - في موضع آخر من القرآن - أن هؤلاء الكفار إذا تتلى عليهم آياته لم يقتصروا على النكوص عنها على أعقابهم، بل يكادون يبطنون بالذي يتلوها عليهم؛ لشدة بغضهم لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِآيَاتِنَا تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ بِأَسْمَانِهِمْ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢].

* وسبب كفرهم بالقرآن: هو استكبارهم، ولذا قال الله تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ [سورة سبأ: ٢١]؛ ولأنه يُذَكِّرهم بعبوبهم أيضاً.

فقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ منصوب على الحال.

والضمير في: ﴿بِهِ﴾ «قال الجمهور^(٣)»: هو عائد على الحرم، أو المسجد، أو البلد الذي هو مكة، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته في الأمر؛ أي يقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف. وقيل: المعنى: أنهم يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل، فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق.

وقالت فرقة: الضمير عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات؛ والمعنى: يُحدث لكم سماع آياتي كثيراً وطغياناً فلا تؤمنوا به. قال ابن عطية^(٤): «وهذا قول جيد»^(٥).

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/٣٦٤).

(٢) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/١٠٠٨١).

(٣) أي: جمهور المفسرين. وانظر: تفسير الشوكاني (٣/٧٠٣).

(٤) انظر: المحرر الوجيز (١١/٢٤٢).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/١٤٣).

وقال الزُّجاج^(١) ثَلَاثَةٌ: ويجوز أن تكون الهاء في ﴿يَهِي﴾ للكتاب، فيكون المعنى: تُحدث لكم تلاوته عليكم استكباراً^(٢).

• وقوله: ﴿سَيِّراً تَهْجُرُونَ﴾^(٣) منصوب على الحال، معناه: تَهْجُرُونَ سُمَّاراً، فالسَّامر هنا بمعنى السُّمَّار، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ لِغَلَا﴾ [الحج: ٥]. أي: أطفالاً.

فالسُّمَّار: هم الجماعة الذين يتحدثون بالليل، مأخوذ من السَّمَر، وهو: ظلُّ القمر؛ ومنه سُمرة اللُّون. وكانوا يتحدثون حول الكعبة في سَمَر القمر؛ فسُمِّي التحدُّث به.

إذا كانت قريش تَسْمُرُ حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، فعابهم الله بذلك^(٤). «وكان عامة سَمَرهم ذِكْر القرآن والطَّعن فيه»^(٥)، وتسميته سحراً وشعراً ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قراءة ثان^(٦):

الأولى: قراءة نافع: ﴿تَهْجُرُونَ﴾: بضمَّ التاء. بمعنى: تُفجِّشون في الكلام، وتقولون الحُنا. يقال: أهُجِرَ الرَّجُلُ: إذا أفضَحَ في القول.

الثانية: قراءة الباقيين: ﴿تَهْجُرُونَ﴾. بفتح التاء.

(١) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السري، الزُّجاج، البغدادي، نحويٌّ زمانه، لزم الميزد، فكان يعطيه من عمل الزُّجاج كل يوم درهماً، له تأليف جمَّة منها: «معاني القرآن»، و«القروض»، و«الاشتقاق». توفي سنة (٣١١هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٠).

(٢) زاد المسير (٥/٣٥٠).

(٣) • قرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وابن محيصن: «سُمَّاراً» بضم السين، وتشديد الميم وفتحها، جمع سامر.

• وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «سُمَّاراً» برفع السين، وتشديد الميم، وألف بعدها. انظر: زاد المسير (٥/٣٠٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٤٣ - ١٤٤).

(٥) تفسير الشوكاني (٣/٧٠٣).

(٦) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص ٢٢٣).

ولها وجهان في توجيهها:

الأول: ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بمعنى: تُعْرِضُونَ عن الرسول ﷺ، أو القرآن، أو البيت.

الثاني: ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بمعنى: تَهْذُونَ، من الهذيان، والكلام بما لا معنى له، ولا فائدة منه^(١).

قال ابن جرير ثَقَفَهُ: «وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا، القراءة التي عليها قراء الأمصار، وهي فتح الثاء وضَمُّ الجيم؛ لإجماع الحجة من القراء»^(٢).

«ولقد كانوا يُطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم؛ وهم يتحلّقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة. فما هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه؛ وهم يجارون طالبين الغوث، فيذكّرهم بسمرهم الفاحش، وهجرهم القبيح، وكأنما هو واقع اللحظة، وهم يشهدونه ويميشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد القيامة كأنها واقع مشهود»^(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿حَقٌّ لِّنَّا أَخَذْنَا مَقَالِمَهُم بِاللَّذَابِ إِنَّا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا يَجْتَرُوا لَيْلِمَ يُكْرِمَنَا لَا تُصْرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٥].

المطلب الثالث

الإعراض عن القرآن

• قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

المراد بالذكر:

يرى عامة المفسرين أنّ المراد بالذكر هنا القرآن. ومن هؤلاء: البغوي، والقرطبي، والرازبي، وابن الجوزي، وابن القيم، والشوكاني، والسعدي،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٥٢ - ٥٣). (٢) المصدر نفسه (١٠/٥٣).

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/٢٤٧٣ - ٢٤٧٤).

وغيرهم^(١). قال البغوي^(٢) بَلَّغْتُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾: «يعني القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه»^(٣).

وقال ابن القيم رَحَّمَهُ: «فَذِكْرُهُ»: كَلَامُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ. وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ: تَرَكَ تَدْبِيرَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ»^(٤).

المراد بالمعيشة الضَّنْكَ:

أكثر ما جاء في كتب التفسير عن المعيشة الضَّنْكَ: أنها عذاب القبر، وروى في ذلك آثار عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، رضي الله عنهم.

وأصل الضَّنْكَ فِي اللَّغَةِ: الضَّيْقُ وَالشَّدَّةُ، يُقَالُ: مَنْزَلٌ ضَّنْكَ، وَعَيْشٌ ضَّنْكَ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْإِثْنَانُ، وَالْمَذْكَرُ وَالْمَوْثُ وَالْجَمْعُ^(٥).

وروى المفسرون في المعيشة الضَّنْكَ خمسة أقوال^(٦):

أحدها: أنها عذاب القبر، وممن قال بذلك: ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، والسُّدي.

الثاني: أنها ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه، رواه عطاء عن ابن عباس.

(١) انظر هذه الأقوال ونسبتها، في معنى الذَّكَر: تفسير البغوي (٣/١٤٥)؛ تفسير انقرطبي (١١/٢٧٥)؛ التفسير الكبير (٢٢/١١٢)؛ زاد المسير (٦/٢٤٣)؛ الفوائد (ص ١٦٥)؛ تفسير الشوكاني (٣/٥٦٠)؛ تفسير السعدي (٣/٢٥٨).

(٢) هو الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (الشافعي) أبو محمد، الملقَّب بمحيي السنة، كان إماماً في التفسير والحديث والفقه، زاهداً ورعاً، وله تصانيف عديدة، قال الذهبي: «بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام؛ لحسن قصده، وصدق نيته». توفي بمرور الروذ من مدن خراسان سنة (٥١٦هـ). ومن تصانيفه: تفسيره المسمَّى: «معالم التنزيل»، و«شرح السنة»، وكتاب «التهديب في الفقه».

انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/٤٣٩)؛ طبقات الشافعية الكبرى، للشُّبكي (٤/٢١٤).

(٣) تفسير البغوي (٣/١٤٥). (٤) الفوائد (ص ١٦٥).

(٥) انظر: لسان العرب (٥/٩٣)، مادة: (ضنك).

(٦) انظر الأقوال في معنى المعيشة الضَّنْكَ في: تفسير الطبري (٩/٢٨٢)، تفسير ابن كثير (٥/٣١٦)؛ زاد المسير (٥/٢٤٤)؛ تفسير القرطبي (١١/٢٧٦)؛ البحر المحيط، لأبي حيان (٦/٢٨٦)؛ تفسير الشوكاني (٣/٥٥٣).

الثالث: شدة عيشه في النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد.

الرابع: أنها كسب الحرام؛ لأن الحرام وإن اتسع فهو ضنك، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عكرمة.

الخامس: أنها المال الذي لا يتقي الله صاحبه فيه، رواه العوفي عن ابن عباس.

قال ابن الجوزي^(١) رحمه الله: «فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال:

أحدها: القبر، والثاني: الدنيا، والثالث: جهنم»^(٢).

والصحيح في معنى المعيشة الضنك:

أنها عامة في الدنيا بما يُصيب المعرض عن القرآن من الهموم والغموم والآلام، والتي هي عذاب مُعَجَّل، وفي البرزخ، وفي الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها، وبه قال: الرازي^(٣)، وابن القيم^(٤)، والشنقيطي^(٥)، والسعدي^(٦).

قال الشنقيطي^(٧) رحمه الله: «واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على

(١) هو العلامة الحافظ المُفسِّر: جمال الدِّين (أبو الفرج) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الحنبلي، من نسل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. كان يحضر مجلسه مئات الدارسين، له مصنفات كثيرة بلغت: (٢٥٠) مصنفًا، ولد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي سنة (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١)؛ البداية والنهاية (٢٨/١٣).

(٢) زاد المسير (٢٤٤/٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (١١٢/٢٢ - ١١٣).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٤٢٢/١ - ٤٢٣)؛ الجواب الكافي (ص ١٧٦ - ١٧٧).

(٥) انظر: أضواء البيان (٥٩٥/٤). (٦) انظر: تفسير السعدي (٢٥٨/٣).

(٧) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد سنة (١٣٠٥هـ) في شنقيط بموريتانيا، ويرجع نسبه إلى قبيلة حمير باليمن، كان مدرّسًا بالمسجد النبوي في المدينة النبوية، ودرّس في الرياض، وعُين في هيئة كبار العلماء بها، ومن مؤلفاته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، و«مذكرة أصول الفقه»، و«دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب». توفي سنة (١٣٩٣هـ).

انظر: أضواء البيان (١٩/١ - ٣٩).

أقوال متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً. وقد قدمنا مراراً: أنَّ الأولى في مثل ذلك، شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة^(١).

«قلوبُ أهل البدع، والمُعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوبُ الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الإنفطار: ١٣ - ١٤]. هذا في دورهم الثلاث، ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكمال ظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١ - ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التذكر فيه^(٢).

المراد بالعمى:

قال الله تعالى في المُعْرِضِ عن القرآن العظيم: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

واختلف أهل التأويل في بيان كيفية حشر المُعْرِضِ أعمى يوم القيامة، وهل هو عمى البصيرة أم عمى البصر، على قولين:

القول الأول: إنه أعمى البصيرة، بمعنى أنه: أعمى عن الحُجَّة، فلا حُجَّة له يهتدي بها؛ لأنه ليس للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسل. وبه قال مجاهد. ورجحه الطبري^(٣).

واستدلوا: بقوله تعالى: ﴿أَمْتِعْ يَوْمَ وَيَأْتِيهِمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٢٨].

وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَفَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وقوله: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَتِيبِينَ مِّنَ الْأَدْنَى يَنْظُرُونَ مِّنْ طَرْفِ حَافِيٍّ﴾ [٢٢].

(٢) مدارج السالكين (١/٤٢٣).

(١) أضواء البيان (٤/٥٩٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/٢٨٦)؛ زاد المسير (٥/٢٤٥).

[الشورى: ٤٥]. وقوله: ﴿وَرَمَا الْمُتَجِرُّونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

ونظائر هذا مما يُثبت لهم الرؤية في الآخرة.

القول الثاني: إنه أعمى البصر، فلا يرى شيئاً.

واستدلوا: بأن سياق الآية لا يدلُّ إلا على ذلك؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]. فقد صرَّح بأن عماء هو العمى المقابل للبصر، وهو بصر العين؛ لأنَّ الكافر في الدنيا أعمى القلب، كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله.

فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته: أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة.

واستدلوا أيضاً بمثل قوله تعالى: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًىٰ وَيَكْفُرُوا سَوًىٰ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وصوب هذا القول العلامة ابن القيم^(١)، واختاره: السعدي^(٢)، والشنيطي^(٣)، وابن عاشور^(٤).

الجمع بين القولين:

وقد جمع العلامة ابن القيم بين القولين:

بأنَّ هناك حشرين: أحدهما: من القبور إلى الموقف. والآخر: حشر من الموقف إلى دار المستقر.

وبيَّن أنَّ معنى الحشر هو: الضمُّ والجمع.

فالحشر الأوَّل: إلى موقف القيامة، وعليه تُحمل أدلَّة القول الأوَّل، فهم يسمعون ويُبصرون ويُجادلون ويتكلمون.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص ٤٦ - ٤٧).

(٢) انظر: أضواء البيان (٤/٥٩٧).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٣/٣٥٨).

(٤) انظر: التحرير والتوير (١٦/٢٠٠).

والحشر الثاني: يراد به الضم والجمع في دار المستقر. فحشر المتقين: جمعهم وضمهم في الجنة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مریم: ٨٥].

وحشر الكافرين: جمعهم وضمهم في النار، كما قال تعالى: ﴿انْحَشِرُوا إِلَيْهِ فَلَمْ يَزَالُوا يَنْزِعُهُمْ وَلَا يَزِدُّهُمْ وَمَا كَانُوا بِمُدُنٍ ﴿٢٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَلْفَوْهُمُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الصفات: ٢٢ - ٢٣]. فهذا هو الحشر الثاني، يُحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، وعليه تحمل أدلة القول الثاني.

إذاً فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تبارك وتعالى وحكمته، فالقرآن يُصدّق بعضه بعضاً: ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]^(١).

ويدل على ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إذا أخرج من القبر خرج بصيراً، فإذا سبِق إلى المحشر عجمي»^(٢).

ومثله قال الفراء^(٣): «يُقال إنه يخرج بصيراً من قبره، فيعمى في حشره»^(٤). وكذا قال الزجاج: «يخرجون بصراء في أول مرة، ويقمون في المحشر»^(٥).

فالكافر المعرض عن القرآن يكون في حشره الأول أعمى البصيرة لا البصر. وفي حشره الثاني: أعمى البصر والبصيرة، نسال الله العافية.

ويشهد لذلك ما جاء عن ابن كثير رحمته الله في قوله: «ويحتمل أن يكون المراد أنه يُحشر أو يُبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً»^(٦).

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص ٤٧ - ٤٨).

(٢) زاد المسير (٢٤٥/٥).

(٣) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدبلي (أبو زكريا) الكوفي، التحوي، صاحب الكسائي، يُعرف بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام كما قيل، وهو إمام أهل الكوفة وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يُقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، له تصانيف عديدة منها: «معاني القرآن»، و«المذكر والمؤنث»، و«مشكل اللغة». توفي بطريق الحج سنة (٥٢٠٧هـ). انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٤/١٤٩)؛ الأنساب، للسمعاني (٢٤٧/٩)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/١١٨).

(٤) معاني القرآن، للفراء (٢/١٩٤).

(٥) التفسير الكبير (٢٢/٩٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٥/٣٣٢).

المطلب الرابع

الظلم الاعظم

* قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي مَآذِنِهِمْ وَفَرًّا وَإِنْ نَادَعْتُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

المراد بالآيات:

المراد بالآيات هنا: هو القرآن العظيم، في قول عامة المفسرين^(١).

ولذلك رجع الضمير إلى هذه الآيات مُذَكِّراً في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي القرآن المُعَبَّرُ عنه بالآيات^(٢).

فالله تبارك وتعالى يُخبر أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جُرماً، من عبد ذُكِّرَ بآيات الله تعالى وبيّن له الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوفٌ ورُغْبٌ ورُهبٌ، فأعرض عنها^(٣)، ولم يتذكَّر بما ذُكِّرَ به، ونسي ما قدَّمت يداؤه من الكفر والمعاصي ولم يتفكَّر في عاقبتها^(٤).

فهذا أعظم ظلماً من المُعْرَضِ الذي لم تأت آيات الله ولم يُذَكَّرَ بها؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم جُرماً بمتن ليس كذلك. ولذلك عاقبهم الله تعالى - بسبب إعراضهم عن القرآن العظيم - بأن سدَّ عليهم أبواب الهداية، وجعل على قلوبهم أكنة^(٥)، وهي الأغطية المُخَكِّمة التي تمنعهم من أن يفقهوا الآيات وإن سمعوها، فليس في إمكانهم الفقه الذي يصل إلى قلوبهم، وكذلك جعل في آذانهم وقراً^(٦)، أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٩٢/٣)؛ تفسير أبي السعود (٢٣٠/٥)؛ زاد المسير (١١٧/٥).

(٢) انظر: تفسير النسفي (١٩/٣)؛ أضواء البيان (١٥٥/٤).

(٣) انظر: تفسير السعدي (١٦٧/٣). (٤) انظر: تفسير البياضوي (٥٠٦/٣).

(٥) الأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء؛ لأنه يَكِنُّ الشيء، أي يَحْجُبُه.

(٦) الوقْرُ: بقل السَّمْعِ المانع من وصول الصَّوت إلى الصَّمَاخ.

انظر: التحرير والتنوير (٩٥/١٥).

فإذا كانوا بهذه الحال، فليس لهدايتهم سبيل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

ففي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يُحال بينه وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مُرهب وزاجر عن ذلك^(١).

شبهة:

فإن قال قائل: إذا كانوا لا يستطيعون السَّمْعَ ولا يفقهون؛ لأنَّ الله تعالى جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوَقْرَ المانع من السَّمْعِ في آذانهم. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

ردُّها:

إنَّ الله تبارك وتعالى بيَّن في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أنَّ هذه الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم - كالختم، والطبع، والغشاوة، ونحوها - إنما جعلها عليهم جزاءً وفاقاً، لِمَا بادروا إليه من الكفر، وتكذيب القرآن باختيارهم، فإزاع الله قلوبهم بالطبع، والأكنة، ونحوها، جزاءً على كفرهم.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فهذا دليل واضح على أنَّ سبب إزاعة الله قلوبهم هو زيغهم السابق. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَجَّ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

-
- والوَقْرُ - بالفتح - الثقل في الأذن.
 - والوَقْرُ - بالكسر - الحمل. يُقال: جاء يخبل وقره، وقد أوقر ببيزه. وأكثر ما يستعمل الوقْرُ في جمَلِ البغل والحمار. انظر: مختار الصحاح (ص ٣٤٣)، مادة: (وقر).
 - وقد قال الله تعالى في ثقل الأذن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأُذُنِ﴾ [الكهف: ٥٧].
 - وقال في الجمَل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المنافقون: ٣]. يعني: السُّحب التي تحمل ثقلًا من الماء. انظر: تفسير البغوي (٤/٢٢٧)؛ أضواء البيان (٤/١٦٠).
 - (١) انظر: تفسير السعدي (٣/١٦٧ - ١٦٨).

فهذه الآيات وأمثالها فيها وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياداً بالله تعالى.

الثاني: المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر؛ فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنبأوا، زال ذلك المانع. وقد رجح الشنيطي **ثَلَاثَةٌ** الأول^(١).

المطلب الخامس

الوجوه العابسة

قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْهِمْ مَائِدَاتِنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ مَائِدَاتِنَا قُلْ أَفَأُنذِرُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

المراد بالآيات:

قال ابن عاشور **ثَلَاثَةٌ**: «والآيات هي القرآن لا غيره من المعجزات؛ لقوله: ﴿وَلِإِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْهِمْ﴾»^(٢).

وقد وُصفت آيات القرآن بأنها: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾؛ لتفطيع حال من أنكرها مع وضوحها، إذ ليس فيها ما يُعذر به منكروها^(٣)، فقد تضمنت: الدلائل العقلية، وبيان الأحكام^(٤).

المراد بالمنكر:

وللمفسرين في المنكر أقوالٌ عدَّة، وهي من اختلاف التنوع لا التضاد، على النحو التالي:

١ - تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن، قاله الكلبي^(٥).

٢ - التجبر والترفع، قاله ابن عباس **ثَلَاثَةٌ**^(٦).

(١) انظر: أضواء البيان (٤/١٥٨ - ١٦١).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٢٤١).

(٣) انظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) انظر: التفسير الكبير (٢٣/٥٩).

(٥) انظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: تفسير الشوكاني (٣/٦٧٠)، التفسير الكبير (٢٣/٥٩).

- ٣ - المنكر هنا بمعنى الإنكار، فالمعنى: أثر الإنكار من الكراهة، وتعبير الوجوه^(١).
- ٤ - الغضب والعبوس^(٢).
- ٥ - الغمُّ والحزن والكراهية^(٣).
- ٦ - وجوههم تتغير من سماعهم القرآن^(٤).
- ٧ - أنكروا أن يكون من الله تعالى، قاله مقاتل^(٥).

المراد بالسَّطْو:

السَّطْوَة: هي شدة البطش. يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا بطش به وتناوله بالenf والشدَّة^(٦).

قال الفراء في قوله: ﴿مَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾: «يعني أهل مكة، كانوا إذا سمعوا الرجل من المسلمين يتلو القرآن كادوا يبطشون به»^(٧).

فهذه الآية الكريمة تصوّر حال الكفار عند سماعهم للقرآن العظيم، فمن شدة كراهيتهم لذلك ترى في وجوههم عبوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً، يكاد أن يتحوّل هذا الأمر إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن^(٨).

فهم لا يُناهضون الحجّة بالحجّة، ولا يقرعون الدليل بالدليل، إنما يلجأون - في مثل هذه الحالات - إلى العنف والبطش، عندما تعوزهم الحجّة، ويخذلهم الدليل^(٩).

قال الشوكاني^(١٠) تَفَلُّة: «وهكذا ترى أهل البدع المضلّة إذا سمع الواحد

(١) انظر: زاد المسير (٣٢٨/٥)؛ التحرير وانتوير (٢٤١/١٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٠٢/١٢). (٣) انظر: تفسير السمرقندي (٤٧٠/٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٥٤/١٠). (٥) انظر: التفسير الكبير (٥٩/٢٣).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٠٢/١٢)؛ زاد المسير (٣٢٨/٥).

(٧) لسان العرب (٢٦٠/٦)، مادة: (سطو). (٨) انظر: تفسير الشعراوي (٩٩٢٨/١٦).

(٩) انظر: في ظلال القرآن (٢٤٤٣/٤).

(١٠) هو الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، الفقيه المجتهد. أحد كبار

منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنّة الصّحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة، رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكّن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف^(١).

وهذا بخلاف حال المؤمنين الصادقين، المتقادين للكتاب والسنّة، فهم حال سماعهم للقرآن العظيم ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، كما قال الله تعالى مادحاً لهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. نسال الله تعالى أن يجعلنا منهم.

جزاء مَنْ هَجَرَ الْقُرْآنَ:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ [الحج: ٢٧] أي: هل أخيركم بأشدّ عليكم وأكره إليكم من سماع القرآن^(٢). ﴿النَّارُ﴾ [البروج: ٥] إنها النار التي ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢] في يوم القيامة ﴿وَيَسْئَلُ النَّاصِرُ﴾ [الحديد: ١٥] فبشر الموضوع الذي يصير إليه مَنْ هجر القرآن الكريم. وشرّ: اسم تفضيل، أصله أشر. أي: إن سألتكم عن الذي هو أشدّ شرّاً فاعلموا أنه النار^(٣).

مالي أراكم مغتاضين من سماع آيات الله كارهين لها، أمجرّد سماع آيات القرآن يفعل بكم هذا كله؟ فما بالكم حينما تباشرون النار في الآخرة. فالذي ينالكم من النار - التي تكادون تقتحمونها بسوء أفعالكم - أعظم ممّا ينالكم - عند تلاوة هذه الآيات - من الغضب ومن هذا الغم^(٤). واستعملت كلمة: ﴿وَعَدَهَا﴾ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم؟

= علماء اليمن، ولد بهجرة شوكان، ونشأ بصنعاء ووُلِّي قضاءها. له مؤلفات كثيرة، أشهرها: «فتح القدير»، و«نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار»، و«السيل الجرار»، و«البدر الطالع»، توفي سنة (١٢٥٠هـ).
انظر: البدر الطالع (٢١٤/٢)، الأعلام (٦٩٨/٦).
(١) تفسير الشوكاني (٦٧١/٣).
(٢) انظر: زاد المسير (٣٢٨/٥).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٤٢/١٧).
(٤) انظر: التفسير الكبير (٥٩/٢٣).

لأن الوعد دائماً يكون في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَيَّرْتُم بِمَذَابِ آلِيهِمْ﴾ [الانشقاق: ٢٤]. فحين أن يسمع البشري يستشرف للخير، فيفاجئه العذاب، فيكون أنكى له.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَفِيضُوا بِمَا نَزَّلْنَا بِمَأْوَاهُمْ فَالْمُهَلِّ بِشَوَىٰ أَلْوَجْوهُ﴾ [الكهف: ٢٩].
فإن انقباض النفس ويأسها - بعد بوادر الانبساط - أشد من العذاب ذاته^(١).

المطلب السادس

الاستكبار على القرآن

• قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِ مَائِدَاتُنَا وَكُلُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِمَذَابِ آلِيهِمْ﴾ [لقمان: ٧].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكافر إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولَّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم^(٢).

وقوله: ﴿وَكُلُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: متكبراً عن قبولها، فإعراضه إعراض استكبار، لا إعراض تفريط في الخير فحسب^(٣)، فهي لم تدخل قلبه، فضلاً أن تؤثر فيه.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ في محل نصب على الحال: أي كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها، مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع^(٤).

﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: أي: ثقلاً، فلا يسمع القرآن. ففيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض، فهذا لا حيلة في هدايته؛ لأنه متكبر معرض.

﴿فَبَيَّرَهُ بِمَذَابِ آلِيهِمْ﴾: فليس له إلا العذاب المؤلم لقلبه وبدنه في الآخرة، كما تألم بسماع القرآن العظيم في الدنيا، فهذه بشارة المستكبرين المعرضين، الذين هجروا كتاب الله، فلا نِعْمَتِ البشارة^(٥).

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/٩٩٢٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٤٩).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢١/٩٢).

(٤) تفسير الشوكاني (٤/٣٣٤).

(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/١٠٤).

المطلب السابع

اللغو الباطل

* قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَىٰ فِيهِ لَكُمْ قَتِيلُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

المراد بعدم سماعه:

جاءت أقوال المفسرين (في المراد بعدم سماع الكفار للقرآن) متقاربة كما يلي:

١ - لا تَتَّبِعُوا هذا القرآنَ وَالْهَوَا عنه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ^(١).

٢ - لا تطيعوا، يُقال: سمعتُ لك، أي أطعتك ^(٢).

٣ - لا تطمتنوا أو تركنوا ^(٣).

والمقصود من ذلك كله: لا تَسْمَعُوا لقارئ هذا القرآنِ إذا قرأه، ولا تصغوا له، ولا تَتَّبِعُوا ما فيه، وهو نتيجة لعدم السَّماع، وإن سمعتموه فلا تطيعوه، ولا تركنوا إليه.

المراد باللغو فيه:

«اللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويُسمى الكلام الذي لا جدوى له لغوًا» ^(٤).

ومما جاء عن المفسرين في (لغو الكافرين) في القرآن ما يلي:

١ - هو المكاء والتصفير والتخليط في المنطق حتى يصير لغوًا، قاله مجاهد ^(٥).

٢ - أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول، قاله الضحاك ^(٦).

٣ - تشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٤٠/١٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣٦/١٢).

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٤٦/٢٥).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٣٤٠/١٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣٧/١٢).

والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه، وتغلبوا على قراءته^(١). وتلك هي عادة وطبيعة الإعلام المادي اليوم، والذي تبني النزعات القديمة إزاء القرآن بما يشبه أن يكون تطويراً للأسلحة.

أسلوب خسيس:

والمراد بالذين كفروا هنا: هم أئمة الكفر يُخاطبون عانتهم ويوصونهم. إنها كلمة يَغْتَرُونَ بها الجماهير، فقد علم أئمة الكفر: أن القرآن كلام الله تعالى. إذاً هو كامل في المعنى واللفظ، وأن كلَّ مَنْ سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلامٌ حقٌّ واجبُ القبول، فدبروا تدبيراً في منع الناس عن استماعه^(٢)، فاتَّخَلَوْا قرارهم المشين: ﴿لَا تَسْمَعُوا لَنَا أَلْقَرَانِ﴾.

وهذا هو حال دعاة الضلال والباطل في إسكات الناطقين بالحق والحجة، فمن أساليبهم التخويف والتَّهْوِيل، والتَّرهيب والتَّرهيب، ولا يتركون الناس يتجادلون بالحجة البيِّنة، ويتناظرون بالأدلة القاطعة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فهم يغالبونها بالبهتان والتضليل.

فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق، وخشوا أن يعمَّ نورها الناس، عدلوا إلى لغو الكلام، ونفخوا في أبواب اللغو لعلهم يغلَّبون بزعمهم^(٣). إنهم بفعلهم هذا يلجأون إلى وسيلة خسيصة تُنبئ عن هزيمتهم الداخليَّة، واضطرابهم النفسي أمام حقائق القرآن، واعترافهم - الضمني الملحوظ - بعجزهم عن مواجهته، وفشلهم في محاربهته.

إنهم يطلبون من الجماهير المخدوعة ألا تسمع لهذا القرآن، وتستعيض عن ذلك باللغو والصَّباح والصَّجيج، والتظاهرة الإعلامية؛ لعلهم يُغَطُّون نور الشمس بركة منديل.. وهيَّات هيَّات!!^(٤).

فهذه حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن العظيم.

(١) انظر: التفسير الكبير (١٠٣/٢٧)؛ التحرير والتنوير (٤٦/٢٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير (١٠٣/٢٧). (٣) انظر: التحرير والتنوير (٤٥/٢٥).

(٤) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص ٢٥).

موقف المؤمنين:

وقد أمر الله عباده المؤمنين بخلاف هذا الفعل المشين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٤].
وأهل الكفر حين فعلوا ما فعلوا غاب عن أذهانهم أن القرآن متتصر. ومن قد بر العواقب أيقن - يقيناً لا شك فيه - أن كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. فلمن كانت الغلبة بعد قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؟! (١).

المطلب الثامن

التقسيم الجائر

* قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩١].

المراد بالمقتسمين:

اختلف أهل التأويل في المراد بالمقتسمين على عدة أقوال، أوصلها القرطبي (٢) إلى سبعة، وأوردها في تفسيره (٣).
قال الشنقيطي رحمه الله: «في المراد بالمقتسمين أقوالاً للعلماء معروفة، وكل واحد منها يشهد له قرآن؛ إلا أن في الآية الكريمة قرينة تُضعف بعض تلك الأقوال» (٤).

والقرينة - التي ذكرها الشنقيطي في الآية الكريمة - قُوي قولين اثنين، من هذه الأقوال، هما الأقرب إلى الصواب، وهما على النحو الآتي:

- (١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٣/٧)؛ حديث القرآن عن القرآن، لمحمد الراوي (ص ٣٦٠).
(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، الأنصاري، الخزرجي، المالكي، من العلماء الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بالآخرة. كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، ومن كتبه المشهورة: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة». توفي سنة (٦٧١هـ). انظر: طبقات المفسرين (٦٩/٢).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦٣/١٠). (٤) أضواء البيان (١٧٨/٣).

القول الأول: إن المراد بالمقتسمين: اليهود والنصارى، وإنما وُصِفوا بأنهم مقتسمون؛ لأنهم اقتسموا كتبهم، فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها.

ويدلُّ لذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

بل اعترفوا أنفسهم بهذا: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْنٌ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنهم اقتسموا القرآن، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه^(١).

القول الثاني: إن المراد بالمقتسمين: جماعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين، وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ.

وهذا القول تدلُّ له الآيات الدالة على أنهم قالوا في القرآن العظيم تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، من مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]. وقوله: ﴿إِن هَذَا إِلَّا خَيْلٌ﴾ [ص: ٧]. وقوله: ﴿وَإِنَّا قِيلَ لَكُمْ تَأْتِي سَحَابٌ مِّنَ السَّمَاءِ مَوْدُودَةٌ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله: ﴿وَقَالُوا سَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِيهِ نَسَمٌ عَلَيْهِ بُحْرَةٌ وَأَمْسِيلاً﴾ [الفرقان: ٥]. وقوله: ﴿رَبَّنَا هُوَ يَقُولُ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ وَلَا يَقُولُ كَلِمًا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٢]. والآيات في هذا الباب كثيرة.

ومقتضى كلام العلامة الشنقيطي رحمه الله: إن القرينة في الآية الكريمة تؤيد القول الثاني، ولا تنافي القول الأول؛ لأن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الْفُرْقَانَ بَيْنًا﴾ [الحجر: ٩١]. أظهر في القول الثاني؛ لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين، وهكذا.

(١) انظر: تفسير الطبري (٧٨/٨ - ٧٩)؛ زاد المسير (٤/٣١٨).

وكذلك بالنسبة للقول الأول - على أنهم أهل الكتاب:

فالمراد بالقرآن: كتبهم التي جزؤوها فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها. وسُميت قرآناً؛ لأنها كتبٌ مقروءة فيصدق هذا الوصف على التوراة والإنجيل^(١).
أو المراد بذلك: القرآن نفسه؛ لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه، وكفروا بغيره^(٢).

وجمهور المفسرين على أن المراد بالقرآن: هو الذي أنزل على نبيِّنا محمد ﷺ، وليس المقصود به كتب المتقدمين قبلنا^(٣).

المراد ببعضين:

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى صفة المقتسمين في الآية التالية بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

* وفي ﴿عِضِينَ﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: هم الذين جعلوا القرآن قرآناً متفرقة.

قال ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: «فِرْقَاً»^(٤).

وقال قتادة^(٥): «عَضُّوا كِتَابَ اللهِ: زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ سِحْرٌ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ شِعْرٌ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَيْهَانَةٌ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^(٦).

وعلى هذا القول: تكون ﴿عِضِينَ﴾ جَمْعُ: عَضُو. وهو مشتق من قولك: عَضَيْتُ الشَّيْءَ تَعْضِيَةً. إِذَا فَرَّقْتَهُ. كما قال رؤبة بن العجاج^(٧):

(١) انظر: التحرير والتنوير (٦٨/١٣). (٢) انظر: أضواء البيان (١٧٨/٣ - ١٧٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٣١٨/٤). (٤) تفسير الطبري (٨٢/٨).

(٥) هو التابعي الجليل (أبو الخطاب) قتادة بن دعامة بن عزيمة بن قتادة بن عزيز السدوسي، البصري، الضرير الأكمه، المفسر، كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، كان أحفظ الناس، لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وله تفسير، توفي بواسط في الطاعون سنة (١١٧هـ) انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/١٢٢)؛ طبقات المفسرين (٤٧/٢).

(٦) تفسير الطبري (٨٢/٨).

(٧) هو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الجحاف، أو أبو محمد، راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه بالبصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره، ويقولون بإمامته في

وليس دينُ اللهِ بالمُعْضَى^(١)، أي: ليس الدينُ مجزئاً مُفْرَقاً.

القول الثاني: المراد بقوله ﴿عَيْنِينَ﴾: السُّحْر. ومفردها: عَضَّة: وهي السُّحْر.

والعَضَّة: السُّحْر بلسان قريش، ويُقال للساحرة: العاضة.

فالمعنى: جعلوا القرآن سحراً، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ حَرٌّ يَنْزُرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

وقوله: ﴿قَالُوا يَحْرَانِ تَنْهَرَا﴾ [القصر: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد رجح الإمام الطبري تَكْلُفَةَ القول الأول.

فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله تعالى ذكَّره، أمر نبيه ﷺ أن يُعَلِّمَ قوماً عَضُّوا القرآن: أنه لهم نذير من عقوبة تنزل بهم؛ بِعَضِّهِمْ إِيَّاهُ، مثل ما أنزل بالمقتسمين^(٢)، وكان عَضُّهُمُ إِيَّاهُ: فَذَفُّهُمُوهُ بِالْبَاطِلِ، وَيَلِيهِمْ إِنْهُ شَعْرٌ وَسِحْرٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ^(٣)».

وعلى كلِّ حال: فإن هذه الآية الكريمة تشمل كلَّ من اقتسم كتابَ الله، بتكذيب بعضه وتصديق بعضه، وارتكب ما نهى الله عنه. فحاله هذه تشبه حال اليهود والنصارى الذين قَسَمُوا كتبهم المنزلة عليهم أقساماً، وجزَّؤوها أجزاءً، فأمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ؛ اتِّبَاعاً لَشَهْوَاتِهِمْ وَأَهْوَانِهِمْ.

= اللُّغَةُ، مات في البادية، سنة (١٤٥هـ)، وقد أسنَّ. وفي الوفيات: «لَمَّا مَاتَ رُوِيَةَ قَالَ الْخَلِيلُ: دَفَّنَا الشُّعْرَ وَالْفِصَاحَةَ وَاللُّغَةَ». انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان (١/٢٣٤ - ١٣٥)، معجم الشعراء، للمرزباني (ص ١٢١).

(١) ديوانه: (٨١) من أرجوزة يمدح بها نيمياً وسعداً ونفسه، مطلعها:

دَاهِنَتْ أُرُوِيَّ وَالسُّيُومُ تَغْفِي

وانظر: تفسير الطبري (٨٣/٨)؛ زاد المسير (٤/٣١٩)؛ لسان العرب (٩/٢٦٤)، مادة: (عضا).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْبَرِيءُ﴾ ﴿٨١﴾ كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ جَسَّأُوا الْقُرْآنَ عَيْنِينَ﴾ [الحجر: ٨٩ - ٩١].

(٣) تفسير الطبري (٨٤/٨).

وهذا ينصرف إلى المسلمين الذين يُجزّون القرآن ويقسّمونه، يأخذون منه حُكماً ويتركون أحكاماً، تبعاً لمصالحهم الدنيوية، فهذا من أعظم أنواع هجر القرآن الكريم^(١).

(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٢٤).

المبحث الثاني

الأحاديث الدّالة على ذمّ هجر القرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تعجّل أجر القرآن.

المطلب الثاني: عدم الانتفاع بقراءة القرآن.

المطلب الثالث: القرآن بيّن الجدل فيه والجدال عنه.

المطلب الرابع: أتباع المشابه وترك المُحكّم.

المطلب الخامس: ترك قراءة القرآن في البيوت.

المطلب السادس: أحوال المناق مع القرآن.

المطلب السابع: ترك التّغني بالقرآن.

الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن

من صور هجر القرآن:

إنَّ هجر القرآن الكريم له مظاهر عدَّة، منها: التَّأْكُلُ به، واستعجال ثوابه في الدُّنيا دون الآخرة، ومنها المباهاة بتلاوته وحفظه، وعدم التَّعَبُّدِ لله تعالى بهذه التَّلاوة وهذا الحفظ، ومنها الاكتفاء بتلاوة القرآن دون فهمه وتعلُّقه والعمل به، فهي قراءة لا تتجاوز الحلوق والحناجر.

والجدالُ والمراء في القرآن الكريم من أعظم مظاهر هجره؛ لأنَّ مُؤدَّاهُ إلى الكفر، وتفريق صفِّ المؤمنين، وتشكيكهم في أصل دينهم وأساسه كتاب الله تعالى.

ومن أبرز مظاهر هجر القرآن كذلك: اتِّبَاعُ المتشابه وترك المُحكَم بقصد فتنه النَّاسِ وصدِّهم عن دينهم، والتَّنْيِيسِ عليهم في ذلك.

ولقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ عن المصطفى ﷺ تتحدَّثُ عن مظاهر متنوِّعة لهجر القرآن العظيم، وسيكون الكلام عن بعض الأحاديث الثبوتية المباركة التي بيَّنت أنواعاً من مظاهر هجر القرآن تحذيراً منها وذمّاً لها، وهي على النحو التالي:

المطلب الأول تعجل أجر القرآن

إن كثيراً من قراء القرآن وحفاظه لا يقرؤون القرآن إلا لجمع حطام الدنيا، فيتلونونه في المناسبات المختلفة؛ كالحفلات والمآتم وليالي رمضان، وبعضهم يتعلم القراءات لأجل المعيشة، ولأجل أن يرغب فيه الناس أكثر من غيره، ولو سألت الواحد منهم عن معنى كلمة أو آية لوقف عاجزاً مدهوشاً من هذا السؤال، وهذا من أبرز أنواع هجر القرآن، فإن القرآن العظيم أنزله الله تعالى للتدبر والتعمق ثم للعمل به، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ بُرُوكَ يُدَبَّرُوا بَيْنَهُ وَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾ (ص: ٢٩).

١ - وقد كان النبي ﷺ يحث أصحابه على إخلاص النية لله تعالى في تعلم القرآن وتعليمه، ويحثهم من استعجال الأجر في الدنيا من مال أو جاه أو منصب وعدم احتساب ذلك في الآخرة:

فمن سهل بن سعيد الساعدي رضي الله عنه، قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَخَرَجْنَا نَقْتَرِي^(١) فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، كِتَابُ اللَّهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمْ الْأَحْمَرُ وَفِيكُمْ الْأَبْيَضُ^(٢) وَفِيكُمْ الْأَسْوَدُ^(٣)، أَفَرَوُّهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوْمُ الشَّهْمُ^(٤) يَتَعَجَّلُ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُهُ^(٥)»^(٦).

(١) قوله: «ونحن نقترئ» أي: نحن نقرأ القرآن، من باب الافتعال من القراءة.

انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤٢/٣).

(٢) قوله: «وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض» كناية عن العجم؛ لأن الغالب على ألوانهم البياض والحمر.

(٣) قوله: «وفيكم الأسود» كناية عن العرب؛ لأن الغالب على ألوانهم الأذمَّة، والأذمَّة: قريية من السواد.

(٤) قوله: «يقيمونه كما يقوم الشهم» أي: يحسنون النطق به.

(٥) قوله: «يتعجل أجره ولا يتأجله» أي: يطلب بذلك أجر الدنيا من مال وجاه ومنصب، ولا يطلب به أجر الآخرة.

انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٤٥٠/٢ - ٤٥١).

(٦) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب: ما يُجزئ الأمي والأعجمي من القراءة (٢٢٠/١).

٢ - وكان النبي ﷺ يؤكد دوماً على ابتغاء وجه الله تعالى في تعلم القرآن وتعليمه، ويحذّر من ضد ذلك:

فمن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا فِيهِ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، قَالَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَابْتَغُوا بِهِ اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَ إِقَامَةَ الْقِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»^(١).

فقد أخبر النبي ﷺ عن مجيء أقوام بعده يُصلحون الفاظ القرآن وكلماته ويتكلمون في مراعاة مخارجه وصفاته، كما يُقام القِدْح - وهو الشُّهُم قبل أن يُعمل له ريش ولا نُضَلْ - والمعنى: أنهم يُبالغون في عمل القراءة كمال المبالغة؛ لأجل الرياء والسُّمعة والمباهاة والشُّهرة.

فهؤلاء تعجلوا ثواب قراءتهم في الدنيا ولم يتأجلوه بطلب الأجر في الآخرة، إنهم بفعلهم يوثرون العاجلة على الآجلة ويتأجلون بكتاب الله تعالى^(٢)، وهذا من أعظم أنواع هجر القرآن الكريم، فبئس ما يصنعون.

٣ - وريثاً حثَّ النبي ﷺ أصحابه الكرام رضي الله عنهم على طلب الجنة جزاء تعلمهم القرآن، وحذّرهم من إرادة الدنيا في ذلك، كماهاة الناس والتأكل به:

فمن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَسَلُوا اللَّهَ بِهِ الْجَنَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ قَوْمٌ، يَسْأَلُونَ بِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَتَعَلَّمُهُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ يُبَاهِي بِهِ، وَرَجُلٌ يَسْتَأْكِلُ بِهِ، وَرَجُلٌ يَقْرَأُهُ لِلَّهِ»^(٣).

٤ - وكان ﷺ يحثُّهم أيضاً على سؤال الله تعالى بالقرآن، وعدم سؤال الناس شيئاً بقراءة القرآن:

= (ح ٨٣١). وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/١٥٧) (ح ٧٤١): «حسن صحيح».

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/٣٥٧) (ح ١٤٨٩٨). وقال محققو المسند (٢٣/١٤٤) (ح ١٤٨٥٥): «حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات غير أسامة بن زيد، فحسن الحديث». وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»: (١/٢٥٨) (ح ١١٦٧).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/٤٢).

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن»، باب: القارئ يستأكل بالقرآن (ص ٢٠٦)، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (١/١١٨ - ١١٩) (ح ٢٥٨).

وقال: «وللحديث شواهد أخرى تؤيد صحته عن جماعة من الصحابة».

فمن عمران بن حصين رضي الله عنه، أنه مرَّ على قارئٍ يقرأ^(١)، ثمَّ سأل^(٢) فاسترَّجع^(٣)، ثمَّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ أَلِ اللَّهِ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ»^(٤).

بَيَّنَّ المباركفوري^(٥) كَلِمَتَهُ معنى قوله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ أَلِ اللَّهِ بِهِ» قَالَ: «أَي: فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ مَا شَاءَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَوْ الْمَرَادُ أَنَّهُ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ رَحِمَ فليَسألها مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ بِآيَةٍ عَقُوبَةٌ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وَإِذَا أَنْ يَدْعُو اللَّهَ عَقِيبَ الْقِرَاءَةِ بِالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَإِصْلَاحِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ»^(٦).

وَالْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا فِتْنًا لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ؛ لِلتَّكْسُبِ، وَالشُّهُرَةِ، وَطَلَبِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

(١) أَي: يقرأ القرآن.

(٢) أَي: طَلَبَ الْقَارِئُ مِنَ النَّاسِ شَيْئاً مِنَ الرِّزْقِ لِقِرَاءَتِهِ الْقُرْآنِ.

(٣) أَي: قَالَ عِمْرَانُ رضي الله عنه: «إِنَّمَا وَهَّ وَهَّاً وَإِيَّاهُ كَرِهُونَ» [البقرة: ١٥٦]؛ لِابْتِلَاءِ الْقَارِئِ بِهِذِهِ الْمَصِيبَةِ، وَهِيَ سُؤَالُ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ لِابْتِلَاءِ عِمْرَانَ رضي الله عنه بِمُشَاهَدَةِ هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّنِيعَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ.

انظر: تحفة الأحوذِي بِشَرَحِ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ، لِلْمُبَارَكْفُورِيِّ (٢٣٥/٨).

(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، كِتَابَ فِضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَاب: مَا جَاءَ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ (١٧٩/٥) (ح ٢٩١٧). وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ». وَحَسَنُهُ الْأَبَانِيُّ أَيْضاً فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ»: (١٠/٣) (ح ٢٣٣٠).

(٥) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بَهَادِرِ الْمُبَارَكْفُورِيِّ، مُحَدِّثٌ وَوَلَدٌ بِقَرْيَةِ مِبَارَكْفُورٍ - مِنْ تَوَابِعِ أَعْظَمِ كَلَّةٍ - بِالْهِنْدِ سَنَةَ (١٢٨٣هـ)، وَقَرَأَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَبِالْفَارْسِيَّةِ وَبِالْأُرْدِيَّةِ، وَرَحَلَ إِلَى الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُ، وَقَرَأَ عَلَى جَمَاعَةٍ، كَانَ وَرِعاً، إِمَاماً فِي السُّنَّةِ، أَوْذَى فِي اللَّهِ كَثِيراً، فَصِيبٌ، وَقَدْ أَسَّسَ عِدَّةَ مَدَارِسٍ، دَرَّسَ فِيهَا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ اعْتَزَلَ فِي بَيْتِهِ، وَانْقَطَعَ لِلتَّأْلِيفِ، وَانْتَفَعَ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ. وَمِنْ آثَارِهِ: «تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ فِي شَرْحِ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ. تَوَفَّى فِي مَوْطِنِهِ مِبَارَكْفُورٍ سَنَةَ (١٣٥٣هـ).

انظر: مَعْجَمُ الْمَوْضُوعَاتِ (٣/٢٩٤). رَاجِعْ تَرْجُمَتَهُ بِتَوْسِعٍ فِي: مَقْدَمَةُ تَحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ (ص ٦١٥ - ٦٣٤).

(٦) تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ بِشَرَحِ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ (٢٣٥/٨).

المطلب الثاني

عدم الانتفاع بقراءة القرآن

١ - حذر النبي ﷺ أصحابه من أفعال طائفة تأتي من بعدهم يقرؤون القرآن، غير أن القراءة لا تتعدى حناجرهم، وتبقى في حيز الأصوات بلا عمل فقال: «يَخْرُجُ»^(١) في هذه الأمة - ولم يقل منها - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَفْرُؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ^(٢)، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السُّهْمِ مِنَ الرِّمِيَّةِ^(٣).

والمراد بإخبار النبي ﷺ عن هؤلاء أن قراءتهم لا تجاوز حُلُوقَهُمْ أَوْ حَنَاجِرَهُمْ:

قيل: إن قراءتهم للقرآن لا يرفعها الله تعالى ولا يقبلها، بدليل قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» [فاطر: ١٠]. فأخبر الله تعالى أن العمل الصالح الموافق للقول الطيب، هو الذي يرفع القول الطيب^(٤).

وقيل: المراد أنهم لا يعملون بالقرآن فلا يُثابون على قراءتهم، فلا حظ لهم من القرآن إلا سرده^(٥).

ولذلك قال الثوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»^(٦). والتعقل والتدبر يقود إلى العمل.

(١) أجمع أهل العلم: على أن هؤلاء هم طائفة الخوارج الذين قاتلهم عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذكر بعضهم: أنهم بهذا اللفظ سُمُّوا الخوارج.

انظر: تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، للسيوطي (١/١٦٢).

(٢) الحناجر: جمع حنجرة، وهي آخر الحلق بما يلي الفم.

(٣) رواه البخاري، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (٤/٢١٦٤) (ح٦٩٣).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢/٢٩٩).

(٥) انظر: تنوير الحوالك (١/١٦٢). (٦) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/١٠٥).

فرسول الله ﷺ يدعو الأمة إلى العمل بالقرآن بعد قراءته وفهمه، لا إلى
الاقتصار على القراءة فحسب، فيفعلون كما فعل الخوارج، وكما فعل بنو إسرائيل
من قبل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنَهُمْ أُمَّتٌ لَا يَفْقَهُونَ كِتَابَ اللَّهِ إِلَّا آيَاتِهِ وَإِنَّهُمْ
لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. «والآياتي: جمع أمّية وهي التلاوة»^(١).

وأكثر المسلمين اليوم - مع الأسف - لا حظ لهم من القرآن إلا تلاوته،
وهذا من هجر القرآن الكريم ولا ريب.

٢ - وقد أكد النبي ﷺ في أكثر من مناسبة على أن السبب الرئيس في سرعة
هجوع هؤلاء الخوارج من الدين: هو عدم فقههم القرآن من جهة، وتركهم العمل
بأوامره والنهي عن زواجره من جهة أخرى، ويحسبون أنهم على شيء؛ بسبب
كثرة أعمالهم التي يعملونها، مع عدم ضبطها بضابط الشرع والحكمة والفقه في
الدين، فكانهم لم يتنعوا بقراءتهم للقرآن، وبهذه الأعمال الكثيرة.

فمن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ
فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَحَمَلَكُمْ مَعَ
عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ^(٢) كَمَا يَمْرُقُ
لِلشَّهْمِ مِنَ الرِّمِيَّةِ^(٣)»، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْإِدْحِ^(٤) فَلَا يَرَى
شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ^(٥)»^(٦).

والشاهد من الحديث: «إن هؤلاء يخرجون من الإسلام بغتة كخروج الشهم
إذا رماه رام قوي الساعد، فأصاب ما رماه، فنفذ منه بسرعة، بحيث لا يتعلق
بالشهم، ولا بشيء منه من المرمى شيء، فإذا أتمس الرامي سهمه لم يجده علق
بشيء من الدم ولا غيره»^(٧).

(١) تفسير القرطبي (٦/٢).

(٢) المروق: هو الخروج، وقيل: هو الخروج السريع.

(٣) الرميّة: هي الطريدة من الصيد.

(٤) الإِدْحُ: هو خشب الشهم.

(٥) (يتماهى في الفوق): الفوق: موضع الوتر من الشهم. والمراد: بتشكك هل علق به شيء
من الدم.

(٦) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: التحريض على قتل الخوارج (٧٤٨/٢) (ح ١٠٦٦).

(٧) تنوير الحوالك (١/١٦٢).

وهو تمثيل بالغ الوضوح منه ﷺ - الذي أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً - لحال مَنْ هَجَرَ تَدْبِيرَ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَلَمْ تَنْفَعَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَلَوْ قَرَأَ لَيْلَ نَهَارٍ، نَسَأَ اللَّهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

المطلب الثالث

القرآن بين الجدل فيه والجدال عنه

الجدال والمراء في القرآن الكريم مِنْ أَعْظَمِ مَظَاهِرِ هِجْرِهِ، بَلْ رَبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ - عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى - كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَجْتَدِلُ فِي مَلِكَيْتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

فالمراء بآيات الله: هي القرآن. والمجادلة الملمومة: هي الطعن فيه، واستعمال المقدمات الباطلة للتوصل إلى دخضه وإبطاله.

قال أبو السعود^(١) تَفَهُتُهُ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: ﴿مَا يَجْتَدِلُ فِي مَلِكَيْتِ اللَّهِ﴾ بِالطَّعْنِ فِيهَا وَاسْتِعْمَالِ الْمَقْدَمَاتِ الْبَاطِلَةِ لِإِدْحَاضِ الْحَقِّ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِالْبَطْلِ يُدْجِعُوا بِهِ الْقُلُوبَ﴾ [غافر: ٥]. ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِهَا، وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَخْطُرُ بِأَلْهَمِ شَابِئَةٍ شَبِهُةٍ مِنْهَا، فَضْلاً عَنِ الطَّعْنِ فِيهَا^(٢).

ولذلك نجد أن النبي ﷺ كَانَ يُحذِرُ مِنَ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَيَبَيِّنُ ﷺ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ أَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ سَبِيلٌ إِلَى تَفْرِقَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّشْكِيكِ فِي أَسْلِ دِينِهِمْ - كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - وَصَدَّ النَّاسَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وفي ذلك جِلَّةٌ أَحَادِيثٍ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْجِدَالُ فِي

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، ولد في قرية قرب القسطنطينية سنة (٨٩٣هـ). طلب العلم على جِلَّةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ وَالِدُهُ، وَاشْتَهَرَ فِي تَرْكِيَا وَدَرَسَ فِي مَدَارِسِهَا، وَوَلِيَ الْقَضَا بِبِيْرُوسَةِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ تَوَلَّى مَنْصِبَ الْإِفْتَاءِ نَحْوَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَدَّةٌ مِنْ مَصْنُفَاتِ أَشْهَرِهَا: تَفْسِيرِهِ الْمَسْمُومِ «إِرْشَادِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَابِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ»، تَوْفِي بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ سَنَةَ (٩٨٢هـ). انظر: وفيات الأعيان (٤٣٨/٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٢٦٦/٧).

القرآن كُفْرًا^(١).

قال ابن الأثير^(٢) **تَكَلَّفَ**: «الجدل: مُقَابَلَةُ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ. وَالْمُجَادَلَةُ: الْمُنَازَعَةُ وَالْمُخَاصَمَةُ. وَالْمَرَادُ بِهِ فِي الْحَدِيثِ: الْجِدْلُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَطَلَبُ الْمَغَالِبَةِ بِهِ. فَأَمَّا الْجِدْلُ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ مَحْمُودٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِأَلْسِنَةٍ حَسَنَةٍ﴾ [النحل: ١٢٥]»^(٣).

إذاً هناك نوعان من الجدال: جدال محمود، وجدال مذموم ومنهني عنه شرعاً.

فالتنازع في الأحكام بقصد إظهار الحق والنوصول إلى الصواب في القول جائز إجماعاً.

إنما المنهني عنه في الحديث: هو الجدال الذي يؤدي إلى المراء والوقوع في الشك، فهذا جدال لا يرجع إلى علم، إنما منشأ الهوى أو الجهل أو سوء الطوية، ولا دليل عليه بل الأدلة تمنع وتحذر منه، فهذا قد يؤدي - عياداً بالله - إلى الكفر^(٤).

٢ - عن عبد الله بن عمرو **رضي الله عنه** أن النبي **ﷺ** قال: «لا تُجَادِلُوا فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ جِدَالَ فِيهِ كُفْرٌ»^(٥).

(١) رواه الحاكم في «المستدرک»، كتاب التفسير (٢/٢٤٣) (ح ٢٨٨٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٥٩٦) (ح ٣١٠٦).

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (مجد الدين) أبو السخادات، كان فقيهاً محدثاً أديباً نحوياً، له تصانيف عديدة منها: «النهاية»، و«جامع الأصول في أحاديث الرسول»، و«الشافعي في شرح مسند الشافعي»، و«المصطفى المختار في الأدعية والأذكار»، وغيرها. توفي سنة (٥٦٠هـ).
انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٥٣)؛ شذرات الذهب (٥/٢٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٤٧ - ٢٤٨).

(٤) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للتمناوي (٦/٢٨٨٥).

(٥) رواه الطيالسي في «مسنده» (١/٣٠٢) (ح ٢٢٨٦)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٢٢٥٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/١٢١٠) (ح ٧٢٢٣)؛ و«السلسلة الصحيحة»: (٥/٥٤٥) (ح ٢٤١٩).

جاء في (فيض القدير) عن الحلبي^(١) بثبوت في معنى الحديث: «هو أن يسمع قراءة آية أو كلمة لم تكن عنده؛ فيعجل عليه، ويخطئه، وينسب ما يقرؤه إلى أنه غير قرآن، أو يجادله في تأويل ما يذهب إليه، ولم يكن عنده ويضلله، والجدال ربما أزاغه عن الحق، وإن ظهر له وجهه، فلذلك حرّم، وسُمّي كُفْرًا؛ لأنه يُشْرِفُ بصاحبه على الكفر»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَهَى مِنَ الْجِدَالِ فِي الْقُرْآنِ»^(٣).

فالممنهي عنه في الحديثين هو الجدال بالباطل، من الظعن في آيات القرآن العظيم، أو بكون قصده من الجدال نصرة مذهب الباطل، أو إظهار بدعته وإخفاء الحق، كما حكى الله تعالى عن الكفار الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالمجادلة بالباطل. والقصد من وراء هذه المجادلة إبطال الحق الذي جاءت به الرسل الكرام عليهم السلام، من مثل قولهم: «إِنَّ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» [إبراهيم: ١٠]، وقولهم: «تَوَلَّآ أَنْزَلَ عَلَيْنَا آتَاكُمُكُ أَوْ نَزَى رَيْثًا» [الفرقان: ٢١].

فقال الله تعالى ذامًا جدائهم بالباطل: «وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْجِعُوا بِهِ الْقُلُوبَ» [غافر: ٥]^(٤).

أما الجدال لإيضاح آية مُلتبسة، أو خلّ مُعضلة، أو مناقشة أهل العلم في استنباط معنى آية مختلف فيها؛ للرد على أهل الزيغ من خلال معرفة الرَّاجح من المرجوح، والخطأ من الصواب. فهذا من أعظم الجهاد، بل هو من التّصحيح

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حلیم، البخاري، الشافعي، فقيه، محدث، كان من أذكيا زمانه، ومن فرسان النظر، له يدٌ طولى في العلم والأدب، صاحب وجوه حسان في المذهب الشافعي، وصار رئيس أصحاب الحديث بما وراء النهر، وولي القضاء ببلدان شتى، توفي سنة (٤٠٣هـ). له عدة مصنفات، منها: «منهاج الذين في شعب الإيمان»، و«آيات الساعة وأحوال القيامة» وغيرها.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (١٠٣١/٣)؛ طبقات الشافعية (١٤٧/٢).

(٢) فيض القدير (٦٣٨٩/١٢).

(٣) رواه السجزي (٢٨٣٩/١) كثر العمال؛ وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٥٩/٢) (ح ٦٨٧٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٣٤/٤ - ٣٥).

٣ - وكما نهى النبي ﷺ عن الجدل في القرآن فقد نهى أيضاً عن المراء - وهو صنو الجدل - للتأكيد عنى هذه المسألة المهمة، وذلك في عدة أحاديث، منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الجرَاءُ^(٢) في القرآن كُفْرٌ»^(٣).

معنى الجراء:

مما قاله الخطابي^(٤) رحمته الله في بيان هذا الحديث: «اختلف الناس في تأويله. فقال بعضهم: معنى المراء هنا: الشك فيه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَقٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]. أي في شك، ويُقال: بل المراء هو الجدل المُشكك فيه.

وتأوله بعضهم على المراء في قراءاته دون تأويله ومعانيه، مثل أن يقول كائل: هذا قرآن قد أنزله الله تبارك وتعالى، ويقول الآخر: لم يُنزلهُ الله هكذا، فيكفر به من أنكره، وقد أنزل سبحانه كتابه عنى سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ، فنهاهم رضي الله عنهم عن إنكار القراءة التي يسمع بعضهم بغضاً يقرؤها، وتوعدهم بالكفر عليها؛ ليتهاوا عن المراء فيه والتكذيب به»^(٥).

(١) انظر: فيض القدير (١٢/٦٢١٦).

(٢) الجراء: هو الجدل. والثماري والمماراة: هو المُجادلة على جهة الشك والريبة. ويُقال للمناظرة: مماراة؛ لأن كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويُمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضرع. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٢٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب: النهي عن الجدل في القرآن (٤/١٩٩) (ح ٤٦٠٣)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٤/٣٢٤) (ح ١٤٦٤)؛ وحسنه ابن القيم في «تهذيب سنن أبي داود»: (٦/٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/١١٣٤) (ح ٦٦٨٧).

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، أبو سليمان الخطابي، الإمام، الحافظ، اللغوي، صاحب التصانيف، ومنها: «معالم السنن في شرح سنن أبي داود»، و«غريب الحديث»، و«شرح الأسماء الحسنى»، و«الغنية عن الكلام وأهله». توفي سنة (٣٨٨هـ). انظر: معجم البلدان (١/٤١٥)؛ الأنساب، للشُعمان (٢/٢١٠)؛ وفيات الأعيان (٢/٢١٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٧/٢٣)؛ البداية والنهاية (١١/٢٣٦).

(٥) معالم السنن في شرح سنن أبي داود (٥/٩). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠٦)؛ مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/٣٠٢).

وجاء في (عون المعبود) عن الطيبي رحمته الله: «هو أن يروم تكذيب القرآن بالقرآن؛ ليدفع بعضه ببعض، فينبغي أن يجتهد في التوفيق بين المتخالفين على وجوه يوافق عقيدة السلف، فإن لم يتيسر له فليكله إلى الله تعالى»^(١).

وقال ابن حبان^(٢) رحمته الله: «إذا ماري المرء في القرآن آذاه ذلك - إن لم يعصمه الله - إلى أن يرتاب في الآي المتشابه منه، وإذا ارتاب في بعضه آذاه ذلك إلى الجحد، فأطلق رحمته الله اسم الكفر الذي هو الجحد، على بداية سببه الذي هو المراء»^(٣).

ما ينبغي عند الاختلاف:

وينبغي عند الاختلاف في المسائل العلمية - التي ظاهرها التعارض - أو القراءات مثلاً، أن يُحتكم إلى العلماء الراسخين، فقد كان رسول الله رحمته الله يُربي أصحابه على ذلك، ويحذّرهم من المراء في القرآن المؤدّي إلى الكفر.

فعندما اختلف رجلان في آية من القرآن، قال الأول منهما: تلقّيتها من رسول الله رحمته الله، وقال الآخر: تلقّيتها من رسول الله رحمته الله. فسألا النبي رحمته الله، فقال: «القرآن يُقرأ على سبعة أحرف»^(٤)، فلا تُماروا في القرآن، فإنّ مراء في

(١) (٢٣١/١٢).

(٢) هو الإمام الحافظ المجدّد، شيخ خراسان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الدارمي البستي، ولد نحو (٢٧٠هـ)، كان من فقهاء الدين، وحفّاظ الآثار، عالماً بالطب والنجوم، ومن أشهر تلاميذه: الحاكم صاحب المستدرک. توفي بسجستان بمدينة بُست سنة (٣٥٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٩٢/١٦).

(٣) صحيح ابن حبان (٣٢٤/٤).

(٤) المراد بالحرف: اللّغة. والمعنى: أنّ القرآن أنزل على سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن المراد: أنّ هذه السبع اللّغات مُفرّقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن، وهكذا.

قال أبو عبيد ثلثة: فليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يُقرأ على سبعة أوجه، هذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات مُفرّقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف منها بلغة قبيلة، والثاني بلغة أخرى سوى الأولى،

قال أبو عبيد^(٢) تَلَفَّظَ في معنى الحديث: «ليس وَجْهُ الحديثِ عندنا على الاختلاف في التأويل، ولكنه على الاختلاف في اللفظ، وهو أن يقول الرَّجُلُ على حَرْفٍ^(٣)، فيقول الآخر: ليس هو هكذا، ولكنه على خلافه، وكِلَاهُمَا مُنْزَلٌ مَقْرُوءٌ به^(٤). فإذا جَحَدَ كُلُّ واحدٍ منهما قراءةً صاحبه، لم يُؤْمَنَ أن يكون ذلك يُخْرِجُهُ إلى الكفر؛ لأنه نفى حَرْفًا أنزله الله على نبيه.

والتَّكْبِيرُ في الجِزَاءِ إِيذَانًا بأنَّ شيئاً منه كُفْرٌ، فَضْلاً عما زاد عليه.

وقيل: إنما جاء هذا في الجِدَالِ والجِزَاءِ في الآيات التي فيها ذُكِرَ القَدِيرُ، ونَحْوُهُ من المعاني، على مذهب أهل الكلام، وأصحاب الأهواء والآراء، دون ما تَصَمَّنْتُهُ من الأحكام، وأبواب الحلال والحرام؛ فإن ذلك قد جَرَى بين

= والثالث بلغوا أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة. وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حقاً فيها من بعض، وذلك يبين في أحاديث ترى^٩.

فضائل القرآن، لأبي عبيد (٣٣٥). وانظر: جمال القراء، للسخاوي (ص ٦٠٥)؛ تفسير الطبري (١٨/١)؛ تفسير القرطبي (٤١/١)؛ فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٤٤)؛ البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢١١/١)؛ النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (١٩/١ - ٣١)؛ الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي (١٣١/١ - ١٤٢).

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٣٧، ٣٥٤)؛ وأحمد في «المسند» (٤/١٦٩) (ح ١٧٥٧٧). وقال محققو المسند (٨٥/٢٩) (ح ١٧٥٤٢): «إسناده صحيح على شرط الشيخين»^٩.

(٢) هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي، الخزاعي بالولاء، الخراساني، البغدادي (أبو عبيد) ولد سنة (١٥٧هـ)، من كبار العلماء في الحديث، والأدب، والفقه. ولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة، من كتبه: «الأموال»، و«أدب القاضي»، و«الإيمان ومعالمه وسنته، واستكمالها، ودرجاته» مخطوط في الظاهرية بدمشق. توفي بمكة سنة (٢٢٤هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٨/٣١٥ - ٣١٨)؛ تذكرة الحفاظ (٢/٥٦).

(٣) بمعنى: يقرأ على حرف.

(٤) يعلم ذلك بحديث النبي ﷺ المشهور: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» الحديث. رواه البخاري، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: ما جاء في المتأولين (٤/٢١٦٥) (ح ٦٩٣٦). وسبب الحديث: قصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما، في قراءة هشام في الصلاة على حروف كثيرة لم يسمعهما عُمرُ من رسول الله ﷺ، فاحتكما إليه، فأقرَّ كُلًّا منهما على قراءته، ثم ذُكِرَ الحديث.

الصَّحَابَةُ فَمَنْ بَعَدَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَذَلِكَ فِيمَا يَكُونُ الْفَرَضُ مِنْهُ وَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ ظُهُورُ الْحَقِّ لِيَتَّبِعَ، دُونَ الْغَلْبَةِ وَالتَّعْجِيزِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

الوقاية من الجدل والمراء:

وَمَنْ أَجَلَ الْوَقَايَةَ مِنَ التَّوَرُّطِ فِي بَرَاثِنِ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدُلُّ أَصْحَابَهُ ﷺ إِلَى شَيْءٍ يَفْعَلُوهُ احْتِرَازًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْاِخْتِلَافِ الْمُؤَدِّيِّ إِلَى الْفُرْقَةِ فِي الدِّينِ:

فَمَنْ جُنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ^(٢) فَاقْرَأُوا هُنَّ»^(٣)،^(٤).

فَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ الْكِرَامَ بِالِاسْتِمْرَارِ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلِزُورِ طَرِيقِ الْأَلْفَةِ بَيْنَهُمْ، فَإِذَا وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ، سِوَاهُ فِي الْمَعْنَى أَوْ كَيْفِيَّةِ الْأَدَاءِ، فَلْيَتْرَكُوا الْقِرَاءَةَ، وَلْيَتَمَسَّكُوا بِالْمُحْكَمِ الْمَوْجِبِ لِلْأَلْفَةِ، وَلْيَعْرِضُوا عَنِ الْمَتَشَابِهِ الْمُؤَدِّيِّ إِلَى الْفُرْقَةِ فِي الدِّينِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: الْحَضْرُ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَالْأَلْفَةِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ، وَالتَّهْيِئَةُ عَنِ الْجِدَالِ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ حَقٍّ، حَتَّى لَا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى هَجْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(٥).

المطلب الرابع

اتباع المتشابه وترك المُحْكَمِ

إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ مَظَاهِرِ هَجْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: اتِّبَاعَ الْمَتَشَابِهِ وَتَرْكَ الْمُحْكَمِ، وَلَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ السَّيِّئِ:

(١) نقلًا عن: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٢٢)؛ عون المعبود (١٢/٢٣١).

(٢) في فهم المعاني، أو أداء القراءات.

(٣) أي: تفرقوا لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر.

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اقرؤوا القرآن ما اتلقت عليه قلوبكم (٣/

١٦٢٩) (ح ٥٠٦١).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/١٠٢).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا كَتَبَهُ مِنْهُ آيَاتَهُ الرَّشْوَةَ وَآيَاتَهُ تَأْوِيلَهُ وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ...﴾ إلى قوله: ﴿... أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: ٧]. قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا كَتَبَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ: الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

واختلف المفسرون، والأصوليون، وغيرهم في معنى المحكم والمتشابه واختلفاً كثيراً، فنقل ابن حجر رحمته الله جانباً من اختلافهم، ومن جملة ما قاله في شرحه للحديث: «المحكم من القرآن: ما وضع معناه، والمتشابه: نقيضه. وسُمي المحكم بذلك؛ لوضوح مفردات كلامه، وإتقان تركيبه، بخلاف المتشابه. وقيل: المحكم: ما عُرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه؛ كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور. وقيل في تفسير المحكم والمتشابه أقوال آخر غير هذه، نحو العشرة، ليس هذا موضع بسطها، وما ذكرته أشهرها وأقربها إلى الصواب»^(٢).

ونقل النووي عن أبي حامد الغزالي^(٣) قوله: «الصحيح أن المحكم يرجع إلى معنيين:

أحدهما: المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال، والمتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال.

والثاني: أن المحكم ما انتظم ترتيبه مفيداً، إما ظاهراً وإما بتأويل. وأما المتشابه: فالأسماء المشتركة، كالقرء، وكالذي بيده عُقدة النكاح، وكاللمس. فالأول: متردد بين الحيض، والطمهر. والثاني: بين الولي، والزوج.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ (٣/١٣٧٧) (ج ٤٥٤٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٢٦٥).

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، الملقب بحجة الإسلام، ولد سنة (٤٥٠هـ) من فقهاء الشافعية، له مصنفات في الفقه وأصوله والفلسفة، ولولا اشتغاله بالفلسفة والتصوف لكان له شأن أعظم مما كان. من مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، و«المستصفى»، و«الوجيز»، و«الخلاصة». توفي سنة (٥٠٥هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٤/٢١٦ - ٢١٩).

وَالثَّالِثُ: بَيْنَ الْوَطءِ، وَالْمَسِّ بِالْيَدِ^(١).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، أي: ضلالٌ وخروجٌ عن الحقِّ إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ بِهِ﴾، أي: إنما يأخذون منه بالمشابه الذي يمكنهم أن يُحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يَصْرَفُونَهُ، فأما المُحَكَّم فلا نصيبَ لهم فيه؛ لأنه دأبٌ لهم وحُجَّةٌ عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿آيَاتِنَا الْآسِفَاتُ﴾، أي: الإضلال لاتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجُّون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتجَّ النَّصَارَى بأنَّ القرآن قد نطقَ بأنَّ عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاجَ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغير ذلك من الآيات المُصرِّحة بأنه خلقٌ من مخلوقات الله، وعبدٌ، ورسولٌ من رُسُلِ الله^(٢).

ولذلك حذَّر النبي ﷺ من الذين يتبعون ما تشابه من القرآن بمعنى أنهم يبحثون في الآيات المتشابهة، ويتركون المحكم منها؛ بقصد أن يفتنوا النَّاسَ عن دينهم ويضلُّوهم، فهؤلاء هم الذين سَمَّاهم الله تعالى أهلَ الزَّيْغِ، فأمرَ ﷺ بالحدِّرِ منهم والثَّوْقِي من شرِّهم وضلالهم، وذلك بعدم مُجالستهم ومُؤاكَلتهم ومُكالمتهم؛ فإنهم أهلُ الزَّيْغِ والبدع والفساد، فحَقُّهم أن يُهجروا في الله تعالى^(٣).

وهذا ما صرَّح به ابنُ القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: «إِذَا سُئِلَ أَحَدٌ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ سُنَّةٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُخْرِجَهَا عَنْ ظَاهِرِهَا بِوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ لِمُوَافَقَةِ بَخَلَّتِهِ وَهَوَاهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْمَنْعَ مِنَ الْإِفْتَاءِ وَالْحَجَرِ عَلَيْهِ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ الَّذِي صرَّحَ بِهِ أئمَّةُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا^(٤)».

ومن فوائد هذا الحديث: التحذير من مخالطة أهل الزَّيْغِ، وأهل البدع،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٣٣٤). وانظر: المستصفي، لأبي حامد الغزالي (١/٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٨).

(٣) انظر: عون المعبود (١٢/٢٢٧).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤/٢٤٥).

وَمَنْ يَتَّبِعِ الْمَشْكَلاتِ لِلْفِتْنَةِ. وَمَنْ يَسْأَلُ كَذَلِكَ بِقِصْدِ الْفِتْنَةِ، فَهَذَا لَا يُجَابُ بِلِ
مُزْجَرٍ، وَيُعْزَرُ، كَمَا عَزَّرَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ضَبِيحَ بْنَ عَسَلٍ حِينَ كَانَ يَتَّبِعُ
الْمُتَشَابِهَ.

وَأَمَّا مَنْ سَأَلَ عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ لِلْإِسْتِشَادِ، وَتَلَطَّفَ فِي سِوَالِهِ فَلَا خَرَجَ
عَلَيْهِ، وَجَوَابُهُ وَاجِبٌ ^(١).

المطلب الخامس

ترك قراءة القرآن في البيوت

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ. إِنَّ
الشَّيْطَانَ يَنْتَحِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تَقْرَأُ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ» ^(٢)، ^(٣).

أي: لا تجعلوا بيوتكم «خالية» عن الذكر والطاعة فتكون كالمقابر، وتكونون
كالموتى فيها» ^(٤).

ففيه التذنب إلى كثرة قراءة القرآن في البيوت، إذ الموتى لا يقرؤون القرآن،
بل انقطع عنهم التكليف.

فالمعنى: لا يكون حالكم كحال الموتى الذين لا يقرؤون القرآن في بيوتهم
- وهي القبور.

وقيل في معناه: لا تجعلوا بيوتكم وطناً للنوم فقط، لا حَظَّ فيها للذكر من
قراءة القرآن والصلاة، فإنَّ النوم أخو الموت، والميت لا يقرأ القرآن ولا
يُصَلِّي ^(٥).

* ويشهد له قوله ﷺ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكَّرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ لَا يُذَكَّرُ اللهُ

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤٣٤/١٦).

(٢) خُصَّتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ بِذَلِكَ لِطَوْلِهَا، وَكَثْرَةِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَحْكَامِ فِيهَا.

انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي (١٤٦/٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته
وجوازها في المسجد (٥٣٩/١) (ح ٧٨٠).

(٤) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي (١٤٦/٨).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٢٩/١).

فيه، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ^(١).

وإطلاق الحي والميت في وصف البيت، إنما يراد به ساكن البيت. فشبهه
الذَّكْرُ: بالحي الذي ظاهره متزيّن بنور الحياة، وباطنه بنور المعرفة. وغير
الذَّكْرُ: بالبيت الذي ظاهره عاقل، وباطنه باطل^(٢).

* ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ
الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(٣).

فمن هجر القرآن وترك قراءته فهو كالميت في قبره، وكفى له ذماً
بذلك.

المطلب السادس

احوال المنافق مع القرآن

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ
الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ»^(٤)، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا
يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ»^(٥)، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»^(٦).

فالمنافق بين حالين أحسنهما سيئ؛ لأنه سيئ الباطن ولو حاول التظاهر
بصفات أهل الإيمان وشاركهم بقراءة القرآن، فإن هذه القراءة عمل ظاهري يقصد
به خداع الناس والثمويه عليهم، فمثله كمثل الریحانة قد يَغْتَرُّ الجاهل بطيب

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته
وجوازها في المسجد (٥٣٩/١) (ح٧٧٩).

(٢) المصدر السابق (٢١٠/١١ - ٢١١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب: فضل ذكر الله ﷻ (٢٠١٢/٤) (ح٦٤٠٧).

(٤) الریحان: جنس من الثبات طيب الرائحة من الفصيلة الشفوية، وكل نبت طيب الرائحة،
ويقال: للمرأة ریحانة. انظر: المعجم الوسيط (ص٣٨١).

(٥) الحنظل: نبت مفترش، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة.
انظر: المعجم الوسيط (ص٢٠٢).

(٦) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا
تجاوز حناجرهم (٢٣٦٣/٤) (ح/٧٥٦٠)؛ ومسلم، واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين،
باب: فضيلة حافظ القرآن (٥٤٩/١) (ح٧٩٧).

رائحتها فإذا أكل منها ذاق المرَّ والعلقم، وكذلك المنافع إنَّ عاملته وعاشرته تذوّقت مرارته وكشفت حقيقته.

جاء في (الفتح) عن ابن بطلال^(١) كَتَبْتُه قال: «إنَّ قراءة الفاجر والمنافع لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه وكان على نيّة التقرب إليه، وشبّههُ ﷺ بالريحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق، ولا اتصل بالقلب»^(٢).

فالمنافق إذا سمعته يتلو القرآن تصوّرت وراء هذه التلاوة صدراً يعمر بالإيمان، ولكنك لو تأملت أكثر عرفت حال وفساد عقيدته، عند ذلك ستنصرف عنه وتلقيه كما يلقى بالثمرة إذا اختبر طعمها فوجدت مرّة خبيثة الطعم.

وإذا كان هذا حال المنافق الذي يقرأ القرآن، فما الظنُّ بالمنافق الذي لا يقرأ القرآن؟ فقد جمع إلى مرارة الطعم (أي فساد العقيدة) خُبث الرائحة، فقلبه فاسد بسوء معتقده، ورائحته فاسدة بإعراضه عن كتاب الله تلاوةً، فضلاً عن التدبر والتأثر والعمل، فهذا سيئ الباطن والظاهر، فمثله كمثل الحنظلة التي تنفر من منظرها وتعافها حتى الإبل؛ لما فيها من مرارة وطعم خبيث. فهو في بحر لجيٍّ من الظلمات بعضها فوق بعض: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] ^(٣).

المطلب السابع

ترك التغني بالقرآن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ». وزاد غيره: «يَجْهَرُ بِهِ»^(٤).

(١) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بقال البكري، القرطبي، المالكي، ويُعرف بابن اللجام (أبو الحسن)؛ محدث، فقيه، استقضى بحصن لورقة، وتوفي في آخر يوم من صفر سنة (٤٤٩هـ). من آثاره: «شرح الجامع الصحيح للبخاري» في عدة أسفار، والاعتصام في الحديث. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٥٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٦٥٧).

(٣) انظر: أنوار القرآن (ص ٨٩ - ٩٢)؛ ورتل القرآن ترتيباً (ص ١٦ - ١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَلْيُزَكِّرُوا وَلْيُتَّقُوا اللَّهَ وَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وقد ذكر ابن حبان تَلَفَّهُ أَنْ: «معنى قوله يُتَغْنَى ليس مِنَّا في هذه الأخبار، يُريد به: ليس مثلنا في استعمال هذا الفعل؛ لأننا لا نفعلها فَمَنْ فَعَلَ ذلك فليس مِنَّا»^(١).
 واختلف أهل العلم في معنى يَتَغْنَى، هل هو من التَّغْنَى بمعنى: تحسين الصوت أو هو الاستغناء بالقرآن عن غيره؟.

جاء في (الفتح) عن ابن الجوزي تَلَفَّهُ أنه قال: «واختلفوا في معنى قوله (يَتَغْنَى) على أربعة أقوال: أحدها: تحسين الصوت. والثاني: الاستغناء. والثالث: التحزُّن، قاله الشافعي. والرابع: التشاغل به، تقول العرب: تغنى بالمكان أقام به»^(٢).

* وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن المقصود بالحديث: هو تحسين الصوت بالقرآن.

قال النووي تَلَفَّهُ في شرحه للحديث: «معناه عند الشافعي، وأصحابه، وأكثر العلماء من الطوائف، وأصحاب الفنون: تحسين صوته به»^(٣).
 وهو اختيار الطبري^(٤)، والقرطبي^(٥)، وابن كثير^(٦)، وابن حبان^(٧).

* وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالحديث: الاستغناء بالقرآن عن غيره، وهو اختيار أبي عبيد، وسفيان بن عيينة^(٨).

= [الملك: ١٣] [٤/٢٣٥١] (ح٧٥٢٧)؛ وأبو داود، باب: استحباب الترنيل في القراءة (٧٤/٢) (ح١٤٧١)؛ وابن حبان في «صحيحه»، باب: ذكر الزُّجْر عن ألا يستغني المرء بما أوتي من كتاب الله جلَّ وعلا (١/٣٢٦) (ح١٢٠).

(١) صحيح ابن حبان (١/٣٢٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٧٠).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٧٨). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٣٥).

(٤) تفسير الطبري (١٠/١٦٨).

(٥) تفسير القرطبي (١/١١).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٥).

(٧) صحيح ابن حبان (١/٣٢٦).

(٨) هو الإمام سفيان بن عيينة بن أبي عمران، مولى بني هلال (أبو محمد)، ولد سنة (١٠٧هـ) بالكوفة، وكان ثقةً، نبأً، كثير الحديث، حُجَّة، مُحدِّث الحجاز في زمانه في مكة، حتى قال فيه الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز». سكن مكة وتوفي بها عام (١٩٨هـ)، وعمره: (٩١) سنة.

انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/٤٩٧).

قال سفيان: «نفسيره: يَسْتَغْنِي بِهِ»^(١).

قال النووي رحمته: «وعند سفيان بن عيينة: يستغني به. قيل: يستغني به عن الناس. وقيل: عن غيره من الأحاديث والكتب.

قال القاضي عياض^(٢): القولان منقولان عن ابن عيينة. قال: يُقال: تَغْنَيْتُ وَقَفَانَيْتُ بمعنى: اسْتَغْنَيْتُ»^(٣).

وقال أبو عبيد رحمته: «قوله: (مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ). التَّغْنِي: هو الاستغناء والتعفف عن مسألة الناس واستكمالهم بالقرآن، وأن يكون في نفسه بحمله القرآن غنياً، وإن كان من المال مُعديماً»^(٤).

وقد صرَّح ابن حجر باختيار أبي عبيد بقوله: «وقد ارتضى أبو عبيد تفسير يتغنى بيستغني، وقال: إنه جائز في كلام العرب... فعلى هذا يكون المعنى: مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِالْقُرْآنِ عَنِ الْإِكْتَارِ مِنَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ مَنًّا، أَي عَلَى طَرِيقَتِنَا»^(٥).

وعلى ما تقدّم: فمن لم يتغَنَّ بالقرآن، أو لم يَسْتَغْنِ بِالْقُرْآنِ عَنْ خِيَرِهِ، فَقَدْ هَجَرَ كِتَابَ رَبِّهِ تَعَالَى، وَهُوَ لَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامِ فِي هَذَا الْهَدْيِ الْمُبَارَكِ، فَلْيَحْذَرِ أَشَدَّ الْحَذَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَمَنْ حَذَرَكَ فَقَدْ أَنْذَرَكَ، وَمَنْ أَنْذَرَكَ وَقَاكَ شَرُّ الْخَطَرِ.

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ (١٦١٩/٣) (ح ٥٠٢٤).

(٢) هو القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي السبتي، إمام وقته ببلاد المغرب، في الحديث وعلومه والنحو واللغة، وله مصنفات جيدة، منها: «التبهيات»، و«مشارك الأنوار»، و«شرح كتاب مسلم»، واشتهر بالذكاء وحسن السيرة، توفي سنة (٥٤٤)، وكانت ولادته سنة (٤٧٦هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣/٤٨٣ - ٤٨٥).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٧٨/٦). (٤) فضائل القرآن، لأبي عبيد (ص ٢١٠).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٨/٩).

المبحث الثالث

آثار السلف في ذم هجر القرآن

وفيه

ذُكِرَ لبعض الآثار المنقولة

عن السلف الصالح في ذم هجر القرآن

آثار السلف في ذم هجر القرآن

إن الآثار الواردة عن سلفنا الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم في ذم هجر القرآن، والتحذير من ذلك كثيرة ومتنوعة.

وهذه بعض الآثار المنقولة على لسانهم رضي الله عنهم تُحذرننا من هجر القرآن الكريم، وتبين لنا مغتة هذا الفعل وأثره السيئ على الفرد والأمة في الدنيا والآخرة.

وسأذكر كل أثر منها تحت عنوان يدل عليه اجتهاداً مني، ودون تعليق عليها؛ لأنها من الواضح بمكان، إلا ما اقتضى الحال بيانه، وهي على النحو الآتي:

١ - ذم التآكل بالقرآن:

* عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ آتَى عَلَيْنَا جِبْنَ وَمَا نَرَى أَنْ أَحَدًا يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ إِلَّا اللَّهَ، فَلَمَّا كَانَ هَا هُنَا بِأَخْرَجَ، خَشِيتُ أَنْ رَجَالًا يَتَعَلَّمُونَهُ يُرِيدُونَ بِهِ النَّاسَ وَمَا جَنَّتَهُمْ، فَارِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ وَأَهْمَالِكُمْ، وَإِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنَبِّئُنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا أَعْرَفُكُمْ بِمَا أَقُولُ، مَنْ أَعْلَنَ خَيْرًا حَبِيبَتَاهُ عَلَيْهِ وَظَنَّنَا بِهِ خَيْرًا، وَمَنْ أَظْهَرَ شَرًّا بَغَضْنَا عَلَيْهِ وَظَنَّنَا بِهِ شَرًّا، سَرَاتِرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١).

(١) رواه الفريابي في «فضائل القرآن» (ص ٢٤٣) (رقم ١٧٣)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٤٦) (رقم ٢٢)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/٤٨٠) (رقم ١٠٠٥٠) بلفظ مقارب. وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٨٣).

قال الأجرى^(١) **كَلِمَةٌ**: «فإذا كان عُمَرُ بن الخطاب قد خاف على قوم قرؤوا القرآن في ذلك الوقت ميلهم إلى الدنيا، فما ظنك بهم اليوم؟! وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه يكون أقوام يقرؤون القرآن يُقيمونه كما تُقيمون القِدْحَ، يتعجلونه ولا يتأجلونه، يطلبون به عاجلة الدنيا ولا يطلبون به الآخرة»^(٢).

* وعن زاذان قال: «مَنْ قرأ القرآن يتأكل به النَّاسُ»^(٣). جاء يومَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ لَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ»^(٤).

ولما جعل أشرف الأشياء، وأعظم الأعضاء وسيلة إلى أديانها، وذريعة إلى لادئها، جاء يوم القيامة في أفتح صورة وأسوء حالة. قال بعض العلماء: استجرار الجيفة بالمعازف، أهون من استجرارها بالمصاحف، وفي الأخبار: مَنْ

(١) هو الإمام المحدث القدوة أبو بكر، محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرى، نسبة لأجر من قرى بغداد، فقيه، حافظ، صاحب سنة وأتباع، قال ابن خلكان: «أخبرني بعض العلماء أنه لما دخل إلى مكة أصعبته، فقال: اللهم ارزقني الإقامة بها سنة، فسمع هاتفاً يقول له: بل ثلاثين سنة، فعاش بعد ذلك ثلاثين سنة، ثم مات بها». توفي بمكة سنة (٣٦٠هـ) وهو من أبناء الثمانين. ومن تصانيفه: «التهجد»، و«تحريم النرد والشطرنج والملاهي»، و«آداب العلماء»، و«تحقيق رؤية الله في الآخرة». انظر: وفيات الأعيان (٢٩٢/٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٧٨/١٠)؛ تاريخ بغداد (٢٤٣/٢).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص ٤٧).

(٣) (يتأكل به الناس): أي يطلب به الأكل من الناس. قال الطيبي: يعني يستأكل، كتعجل بمعنى استعجل. والباء في (به) للالة. أي: أموالهم.

انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان القاري (٩٨/٥).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» موقوفاً على زاذان (ص ٢٠٨)؛ وكذا الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٦٣) (رقم ٤٣)؛ وكذا أبو نعيم في «الحلية» (١٩٩/٤)؛ وكذا ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٨/٢) (رقم ٧٧٤١).

(تنبيه): ولا يصح مرفوعاً. رواه ابن حبان في «المجروحين» (١٤٨/١) وقال: (١/

١٤٩): «هذان حديثان - وقد ذكرَ معه حديثاً آخر - لا أصل لهما من حديث

رسول الله ﷺ. وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٧/١ - ١١٨) ثم قال:

«هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما يروى نحوه عن الحسن البصري. قال أبو

حاتم ابن حبان: لا أصل لهذا من حديث رسول الله ﷺ».

وانظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعية، للكتاني (٣٠٠/١)؛ ميزان

الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٣٠٦/١)؛ لسان الميزان، لابن حجر (٣١٦/١)؛ فيض

القدير (١٩٦/٦). وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٤/٥) (ح ٥٧٧٥): «موضوع».

طَلَبَ بِالْعِلْمِ الْمَالِ، كَانَ كَمَنْ مَسَحَ أَسْفَلَ مِدَاسِهِ وَنَعَلَهُ بِمِحَاسِنِهِ لِيَنْظِفَهُ.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: البهلوان الذي يلعب فوق الحبال، أحسن من العلماء الذين يميلون إلى المال؛ لأنه يأكل الدنيا بالدنيا، وهؤلاء يأكلون الدنيا بالدين، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ بِمِزْنِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] (١).

٢ - وَيَلْ لِمَنْ تَبِعَهُ الْقُرْآنُ:

* عن أبي كنانة، أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه جمع الذين قرؤوا القرآن، وهم قريب من ثلاثمائة، فعظم القرآن وقال:

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَاتِبٌ لَكُمْ ذُخْرًا، وَكَاتِبٌ عَلَيْكُمْ وَزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعْكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ هَبَطَ بِهِ عَلَى رِیَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ اتَّبَعَهُ الْقُرْآنُ رَزَحَ بِهِ» (٢) فِي قَفَاهُ قَدْفَهُ فِي النَّارِ (٣).

٣ - دَمَّ مَنْ حَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَمَّ حُدُودَهُ:

* عن الحسن (٤) البصري رضي الله عنه قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصَبِيَانٌ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩٨/٥).

(٢) (رزح به): أي: دفعه. يقال: زحخته أزححه زحاً؛ إذا دفعته. انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (١٧٣/٤)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (١٧٩/١) و(٢٩٨/٢).

(٣) رواه الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٢٠) (رقم ٣). وقال محققه (فواز أحمد زمرلي): «سنده حسن». ورواه بنحوه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٨١ - ٨٢)؛ والدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (٣٠٧/٢) (رقم ٣٣٢٨)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٧/١)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤٢/٧) (رقم ٣٤٨٢١)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (٤٩/١) (رقم ٨).

(٤) هو الحسن بن ينار البصري (أبو سعيد)، من كبار التابعين، ولد سنة (٥٢١هـ) بالمدينة، وسكن بالبصرة، وكان حبر الأمة وإمامها في زمانه في الحديث والفقه والتفسير، وكان قد شُبِّ في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم حتى صارت له هيبه عظيمة، توفي سنة (١١٠هـ). انظر: وفيات الأعيان (٦٩/٢ - ٧٣) (ت ١٥٦)؛ وتهذيب التهذيب (٢/٢٦٣ - ٢٧٠) (ت ٤٨٨).

لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَنَالُوا الْأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ^(١). قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِذِكْرِكَ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ أُولُوا الْأَلْبَابِ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَأَمَّا وَاللَّهُ مَا هُوَ بِحَافِظٍ حُرُوفِهِ، وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ حَتَّىٰ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللَّهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَىٰ لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقِي وَلَا عَمَلِي حَتَّىٰ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفْسِي وَاجِدُ، وَاللَّهُ مَا هُوَ إِلَّا بِالْقُرْآنِ، وَلَا الْعُلَمَاءِ، وَلَا الْحُكَمَاءِ، وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَىٰ كَانَتْ الْقُرْآنُ تَقُولُ بِمِثْلِ هَذَا؟ لَا أَكْثَرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ بِمِثْلِ هَؤُلَاءِ^(٢)».

قال الأجرى رحمه الله: «فأما من قرأ القرآن للدنيا، أو لأبناء الدنيا، فإن من أخلاقه أن يكون حافظاً لحروف القرآن، مضيئاً لحدوده، متعظماً في نفسه، متكبراً على غيره، قد اتخذ القرآن بضاعةً يتأكل به الأغنياء، ويستقضي به الحوائج، يعظم أبناء الدنيا ويحقر الفقراء، إن علم الغني رفقاً به طمعاً في دنياه، وإن علم الفقير زجره وعنته؛ لأنه لا دنيا له يطمع فيها^(٣)».

٤ - هَجْرُ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ:

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد عشتُ برهةً من دهرِي وإن أخذنا يُؤتى الإيمانَ قبل القرآن، وتنزلُ السُّورَةُ على مُحَمَّدٍ ﷺ فيتعلَّمُ خلالها وحرامها. وما يُنبئني أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيتُ رجلاً يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، ما يدري ما لغيره ولا زاجرُهُ، وما يُنبئني أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل^(٤)»^(٥).

(١) يعني: لم يسلكوا سبيلاً يحصل لهم بسلوكه العلم بتأويله.

(٢) رواه الفريابي في «فضائل القرآن» (ص ٢٤٦ - ٢٤٧) (رقم ١٧٧)؛ والأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٥٠) (رقم ٢٨)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٤٢٠) (رقم ١٣٥) وقال: «سنده صحيح». وابن المبارك في «كتاب الزهد» (ص ٢٧٤)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٣٦٤) (رقم ٥٩٨٤).

(٣) أخلاق حملة القرآن (ص ٤٣). (٤) الدقل: أزدأ الثمر.

(٥) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢٠) (رقم ٥٠٧٣)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/ ٩١) (رقم ١٠١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين. ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه».

* وعن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ ^(١) ثَلَاثَةٌ قَالَ: «أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ أَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوا مِنْهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخْرَى، حَتَّى يَفْعَلُوا مَا فِيهِنَّ، فَكُنَّا نَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَسِيرَتِ الْقُرْآنِ بَعْدَنَا قَوْمٌ يَشْرِبُونَهُ شُرْبَ الْمَاءِ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاثِيمَهُمْ» ^(٢).

٥ - القرآن يزيد الظالمين خساراً:

* عن أُوَيْسِ الْقَرْنِيِّ ^(٣) ثَلَاثَةٌ قَالَ:

«إِنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ يَغْشَاهُ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ: مُؤْمِنٌ فَبِهِ، وَمُؤْمِنٌ لَمْ يَتَفَقَّهْ، وَمُتَأَفِّقٌ. وَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مَثَلُ الْغَيْثِ، يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَيُصِيبُ الشَّجَرَةَ الْمُرَوِّقَةَ الْمُؤَيَّنَةَ الْمُثْمِرَةَ، فَيَزِيدُ وَرَقَهَا حُسْنًا، وَيَزِيدُهَا إِنْتَاعًا، وَكَذَلِكَ يَزِيدُ ثَمَرَهَا طَيِّبًا، وَيُصِيبُ الشَّجَرَةَ الْمُرَوِّقَةَ الْمُؤَيَّنَةَ، الَّتِي لَيْسَ لَهَا ثَمَرَةٌ، فَيَزِيدُهَا إِنْتَاعًا، وَيَزِيدُهَا وَرَقًا حَسَنًا، وَتَكُونُ لَهَا ثَمَرَةٌ فَتَلْحَقُ بِأَخِيهَا، وَيُصِيبُ الْهَشِيمَ مِنَ الشَّجَرِ، فَيَحْطِمُهُ فَيَذْهَبُ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

- ووافقه الذهبي. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٥/٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح». وانظر: مجمع البحرين بزوائد المعجمين (٤٨٢/١)، وحسنه المحقق.

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ الكوفي، عبد الله بن حبيب بن ربيعة، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ، محدث، ثقة، وقارئ مجودٌ ماهرٌ، وقد كان ثبَتًا في القراءة وفي الحديث، حديثه مُخْرَجٌ في الكتب الستة. توفي في سنة (٧٤هـ).
انظر: طبقات ابن سعد (١٧٢/٦)؛ حلية الأولياء (١٩١/٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٦٩/٤).

(٣) هو أُوَيْسُ بْنُ عَامِرِ بْنِ جَزْءِ الْمُرَادِيِّ الْقَرْنِيِّ الزَاهِدِ الْمَشْهُورِ. أدرك النبي ﷺ ولم يره. كوفي من خيار التابعين وعُبادهم، ورد في فضله عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، لَا يَدْعُ بِالْيَمَنِ فَيَزِئُ لَه، وَقَدْ كَانَ بِهِ بِيَاضٌ فَدَعَا اللَّهُ فَأَذْبَعَهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ الثَّرَمِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَمَرَوْهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ...» الحديث، رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أُوَيْسِ الْقَرْنِيِّ (١٩٦٨/٤) (ح ٢٥٤٢)، وذكر أن عمر طلب منه أن يستغفر له، ففطن له الناس فهم على وجهه، ونزل الكوفة. توفي في صَفِينٍ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. انظر: لسان الميزان (٤٧١/١ - ٤٧٥)؛ ميزان الاعتدال (٢٧٨/١)؛ معرفة الثقات، للمجلى (٢٣٩/١).

لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. لَمْ يُجَالِسْ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ،
إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَقَضَاءُ اللَّهِ الَّذِي قَضَى، شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ،
وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^(١).

• وَعَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا جَالَسَ الْقُرْآنَ أَحَدٌ فَقَامَ عَنْهُ إِلَّا بِزِيَادَةٍ أَوْ
نُقْصَانٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا
خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]^(٢).

٧ - القلوب المرضى لا تجد لذة للقرآن:

• عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَبَّيْلَى الْقُرْآنَ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْتَلَى
الْقُذُوبَ، فَيَتَهَاوَتْ، يَفْرُوتُهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً، وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّانِ
عَلَى قُلُوبِ الذَّنَابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَرُوا قَالُوا: سَتَبْلُغُ،
إِنْ أَسَاؤُوا قَالُوا: سَيَغْفِرُ لَنَا، إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا^(٣).

٧ - القلب الخرب كالبيت الخرب:

• عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَادِبَةٌ لِلَّهِ، فَخُذُوا مِنْهُ
مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَصْفَرَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
شَيْءٌ، وَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ خَرِبَتْ كَخَرَابِ الْبَيْتِ الَّذِي لَا
سَائِكِينَ لَهُ^(٤).

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢/٣٩٧) (رقم ٢٣٨٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم،
ولم يخرجناه» ووافقه الذهبي. ورواه ابن المبارك في «كتاب الجهاد» (١/١٣٢) (رقم
١٥٩). قال ابن حجر في «الإصابة» (١/٢٢٢): «وهو صحيح السند».

(٢) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: في تعاهد القرآن (٢/٣١١) (رقم
٣٣٤٤)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٧) (رقم ٥٤)؛ ومحمد بن نصر في
«قيام الليل» (ص ٧٣)؛ والإمام أحمد في «الزهد» (ص ٢٧٢).

(٣) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: في تعاهد القرآن (٢/٣١١) (رقم
٣٣٤٦). وانظر: تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن الشافعي (٦٧/٩٧).

(٤) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (٢/٣٠٢).

٨ - القلب الخبيث كالأرض الخبيثة:

* عَنْ قَتَادَةَ تَكَلَّمَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِي رِبْوَهُ﴾ [الاعراف: ٥٨]، قَالَ: «الْبَلَدُ الطَّيِّبُ: الْمُؤْمِنُ سَمِعَ كِتَابَ اللَّهِ فَوَعَاهُ فَأَخَذَ بِهِ فَانْتَفَعَ بِهِ، كَمَثَلِ هَذِهِ الْأَرْضِ أَصَابَهَا الْغَيْثُ فَأَنْبَتَتْ وَأَمْرَعَتْ. ﴿وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الاعراف: ٥٨] عِبراً، بِمَثَلِ الْكَافِرِ قَدْ سَمِعَ الْقُرْآنَ فَلَمْ يَفْقَهُهُ، وَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، كَمَثَلِ هَذِهِ الْأَرْضِ الْخَبِيثَةِ أَصَابَهَا الْغَيْثُ فَلَمْ تُنْبِتْ شَيْئاً وَلَا تَمْرَعُ شَيْئاً»^(١).

* وَعَنْ السُّدِّيِّ^(٢) تَكَلَّمَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِي رِبْوَهُ وَالَّذِي خَبَتْ﴾ قَالَ: هِيَ السَّيِّئَةُ ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نَبَاتُهَا ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾. وَالنَّكِدُ: الشَّيْءُ الْقَلِيلُ الَّذِي لَا يَنْفَعُ، كَذَلِكَ الْقُلُوبُ لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَانْقَلَبَ الْمُؤْمِنُ لَمَّا دَخَلَ الْقُرْآنُ آمِنَ بِهِ، وَتَبَّتِ الْإِيمَانُ فِيهِ؛ وَالْقَلْبُ الْكَافِرُ لَمَّا دَخَلَهُ الْقُرْآنُ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنْهُ بِشَيْءٍ يَنْفَعُهُ، وَلَمْ يَثْبِتْ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ إِلَّا مَا لَا يَنْفَعُ، كَمَا لَمْ يُخْرِجْ هَذَا الْبَلَدُ إِلَّا مَا لَا يَنْفَعُ مِنَ الْنَبَاتِ^(٣).

* وَعَنْ مُجَاهِدٍ تَكَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِي رِبْوَهُ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قَالَ:

= (رقم ٢٣٠٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٦٨) (رقم ٥٩٩٨)؛ وأورده السيوطي في «الدر مجمع الزوائد» (٧/١٦٤) وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال هذه الطريق رجال الصحيح».

(١) رواه الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٧) (رقم ٥٥)؛ وأورده السيوطي في «الدر المثور» (٣/٤٧٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي الأعور السُّدِّيُّ أحد موالي قريش، وهو السُّدِّيُّ الكبير المفسر، ذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه غير واحد، وضعفه آخرون، قال العجلي: ثقة، عالم بتفسير القرآن، راوية له، وقد ذكره الطبري في تفسيره من طريق أسباط بن نصر الهمداني، وله تفسير، مات سنة (١٢٧هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٤)؛ تاريخ الثقات، للعجلي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي (ص ٦٦)؛ الثقات، لابن حبان (٤/٢٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/٢٦٨) (رقم ١٤٧٩٩).

البلد الطَّيِّب يَنْفَعُهُ الْمَطَرُ فَيَنْبِتُ، وَالَّذِي خُبْتُ: السَّبَّاحُ، لَا يَنْفَعُهُ الْمَطَرُ، لَا يَخْرُجُ نَبَاتُهُ إِلَّا نَكْدًا، قَالَ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِأَدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ كُلِّهِمْ، إِنَّمَا خُلِقُوا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَكُتَابِهِ فَطَابَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَكُتَابِهِ فَخُبْتُ»^(١).

- الجهل بالقرآن يؤدي إلى الاختلاف ثم الاقتتال:

* عن إبراهيم التيمي^(٢) تَلَفَّه قَالَ: «خَلَا عَمْرُ ذَاتَ يَوْمٍ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيِّهَا وَوَجِدُهَا وَقِبْلَتُهَا وَاجِدَةٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فَقَرَأْنَاهُ، وَعَلِمْنَا فِيْمَ أَنْزَلْنَا، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَهْرُؤُونَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَنْدُرُونَ فِيْمَ أَنْزَلْنَا، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيْمَ رَأْيِي، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِيْمَ رَأْيِي اخْتَلَفُوا، فَإِذَا اخْتَلَفُوا اقْتَتَلُوا»^(٣).

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٦٨/٥) (رقم ١٤٨٠٠).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، من تيم الرُّبَابِ، ويكنى أبا أسماء، الكوفي، العالم، العامل. قال الذهبي: «كان من الثقات، وليس حديثه بكثير، احتج به أهل الكتب». قال الأعمش: «سمعتة يقول: ربما أتى علي شهران لا أطعم فيها، لا يسمعن هذا منك أحد». قتله الحجاج. وقيل: بل مات في حبسه ولم يبلغ الأربعين، مات قبل أنس بن مالك، سنة (٩٢هـ) رحمه الله تعالى.

انظر: تذكرة الحفاظ (٧٣/١)؛ الطبقات الكبرى (٢٨٥/٦).

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه (١٧٦/١) (رقم ٤٢)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٢٣٠)؛ وأورده علي بن حسام الدين الهندي في كتز العمال (١٤٥/٢) (رقم ٤١٦٧).

الباب الثاني

أنواع الهجر

وفيه تسعة فصول:

- الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به).
- الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به).
- الفصل الثالث: هجر استماع القرآن.
- الفصل الرابع: هجر تعلم القرآن وتعليمه.
- الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن.
- الفصل السادس: هجر حفظ القرآن.
- الفصل السابع: هجر تدبُّر القرآن.
- الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن.
- الفصل التاسع: هجر التُّحاكم إلى القرآن.

الفصل الأول

هجر الإيمان بالقرآن

(الكفر به)

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.

المبحث الثاني: الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن.

المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.

المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن.

المبحث الخامس: حكم التكذيب بالقرآن.

المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن.

المبحث الأول

وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته

أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن:

الإيمان بالقرآن العظيم هو أحد أصول الإيمان وأركانه، أوجبه الله تعالى على العباد، فلا يتم إيمان أحدٍ إلا إذا آمن به تفصيلاً، وبالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله إجمالاً، وأفضلها القرآن الكريم.

وقد أخبر الله تعالى أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بما أنزل الله تعالى على رسوله - وهو القرآن العظيم - وبما أنزل على الرُّسل من قبله فقال تعالى في مقام الثناء عليهم: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومما يدل على وجوب الإيمان بالقرآن: أن الله عز وجل أمر المؤمنين بأن يؤمنوا بما أنزل على رسوله ﷺ في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

ومما يدل على وجوبه أيضاً: أن الله تعالى أهلك الأمم السابقة بسبب تكذيبهم برسالاته، كما حكى الله سبحانه عن صالح عليه السلام قوله: ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَصَحَّ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الشعور: ٧٩].

ومن لم يؤمن بالكتب السابقة - مع إيمانه بالقرآن العظيم - وأنه أفضلها بلا شك - فقد خرج عن طريق الهدى إلى الضلال والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].
والمؤمنون في هذا الأمر على دزب نبيهم ﷺ حيث أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يعلن إيمانه بكل الكتب السابقة التي أوحاها الله عز وجل إلى

وهنسه، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ مَآ مَنَتْ بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].
كيف بالكتاب الذي أنزل عليه.

القرآن رحمة الله بعباده:

إن إنزال القرآن الكريم من رحمة الله تعالى بعباده لحاجة البشرية إليه؛ لأن عقل الإنسان محدود، لا يدرك تفاصيل النفع والضّرر، وإن كان يدرك الفرق بين الضار والنافع إجمالاً، والعقل الإنساني أيضاً تغلب عليه الشهوات وتلعب به الأغراض والأهواء، فلو وُكِلت البشرية إلى عقولها القاصرة؛ لفضّلت وتاهت.

فاقتضت حكمة الله تعالى ورحمته أن ينزل كتباً من عنده على المصطفين من رسله؛ ليبينوا للناس ما تدلُّ عليه هذه الكتب، وما تتضمنه من أحكامه العادلة، وبوصاياه النافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية.

قال تعالى حين أهبط آدم أبا البشرية من الجنة: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّكُمْ بِرَبِّي هُدَىٰ فَسَمِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿بِئْسَ مَا دَرَمَ إِذَا يَا أَيُّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَكْفُرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى - أيضاً - أن تكون هذه الكتب السابقة لأجل الأجيال المقبلة، ولأوقات محددة، ووكّل حفظها إلى الذين است حفظوا عليها من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ قَبْلُ هَآدُوا وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَالأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [التائدة: ٤٤].

أما القرآن العظيم: فقد أنزله الله ﷻ لكل الأجيال من الأمم، وفي كل أوطان إلى يوم القيامة، وتولّى حفظه بنفسه؛ لأنّ وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي لا بنهاية حياة البشر على الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَظِيرُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ البَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَيْكَةِ عَزِيزٍ﴾ [فصلت: ٤٢]^(١).

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان الفوزان (ص ١٧٣ - ١٧٥).

وما أحوج المسلمين في هذا الزمن إلى القرآن؛ ذلك أنهم لا يستطيعون أن يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلا بالقرآن العظيم، يعتمدون به في روابطهم، ويقيمون أحكامه في حياتهم، ويجاهدون به أعداءهم ويصلحون به دنياهم، ويستقبلون به آخرتهم، ولقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يكون اتباعهم القرآن العظيم سبباً لنجاتهم، قال الله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَمْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِرَأْسِهِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥ - ١٦﴾[١].

المزايا التي خصَّ بها القرآن عن الكتب السابقة:

وبما أن القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى، فإن الله تعالى قد خصَّه بمزايا تميزه عن جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة، ومن أهمها:

١ - هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تكفل الله تعالى بحفظه، وصيانته من عبث الناس، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٢ - أنزله الله سبحانه على رسوله محمد ﷺ للناس كافة، وليس خاصاً بقوم معينين، كما هو حال الكتب السابقة. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

٣ - تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، فجمع كل ما كان متفرقاً في الكتب السابقة من الحسنات والفضائل.

٤ - جاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته.

٥ - جاء مهيمناً ورقيباً على ما سبقه من كتب، يُقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا

لَمَّا بَكَتْ يَدَاكَ مِنَ الْكُتُبِ وَمُهَيَّبْنَا عَلَيْكَ ﴿[المائدة: ٤٨]﴾^(١).

٦ - جاء بشريعة عامة للبشر، فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين^(٢).

٧ - نسخ جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة، وأتى بشريعة هادئة بزينة رفع الحرج والمشقة، حتى توجبها النفوس، وتقبل على العمل بها دون كلل أو ملل، يُفضي إلى انقطاع، فالسماحة والبسر من المزايا الخاصة التي تميز بها القرآن العظيم عن جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٦ وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]^(٣).

٨ - نزل بأفضل الألسنة، وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي الفصيح^(٤).

٩ - كتاب متجدد، لا تفنى عجائبه، ولا تنتهي نوادره، تجاوز حدود المكان ليشمل آفاق الدنيا بأسرها، وتجاوز حدود الزمان، فلم يتوقف عند زمن معين، بل في كل زمن تجده ملائماً له، مُتسقاً معه، كأنما نزل لهذا الزمن وحده به دون غيره.

ثانياً: ما يقتضيه الإيمان بالقرآن:

- والإيمان بالقرآن العظيم يقتضي عدة أمور، من أهمها:

١ - التصديق الجازم بأنه حق وصدق، وأنه كلام الله تعالى.

٢ - أن فيه الهدى والنور والكفاية لهذه الأمة.

٣ - أن نؤمن به كله، فلا يجوز أن نؤمن ببعضه ونسبعه ونترك البعض الآخر

ولا نسبعه، فيجب علينا أن نطيع الله تعالى في كل ما يأمرنا به، قال تعالى:

﴿وَتَقْوُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ١١٦ - ١٢٧).

(٢) انظر: الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، د. محمد نعيم ياسين (ص ٨١ - ٨٢).

(٣) انظر: عظمة القرآن الكريم (ص ٢٣٨ - ٢٤١).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٤٨٥).

وقال تعالى في توبيخ بني إسرائيل والإنكار عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا﴾ [البقرة: ٨٥].

والقرآن العظيم من باب أولى فهو منهاج عملي يتضمن الأصول الموجهة
لحياة الفرد، وعلاقته بربه تبارك وتعالى، وعلاقته بالكون والحياة من حوله،
وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه، وعلاقته بأئمة المسلمة،
وعلاقته بغير المسلمين، ممن يسالمونه وممن يحاربونه^(١).

٤ - العمل به، والرّضا به، والتّسليم له، سواء فهمنا حكمته أم لم
نفهمها^(٢).

٥ - الإيمان بأنه الكتاب الوحيد الذي حُفِظَ من التّغيير والتّبديل والتّحريف،
فصانه الله تعالى عن تقوّل الكاذبين، وحماه من تلاعب المشكّكين، بما هيأ له من
وسائل الحفظ في الصدور والمصاحف، فجعله قطعي الثبوت، لا يتطرق إليه
أدنى ريب، فهو كتاب خالد خلود الدّهر، باقٍ ما دامت السماوات والأرض. قال
تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وضمانر العظمة تؤكّد
أنه غير قابل للاختراق.

٦ - أن نؤمن إيماناً قاطعاً بما فضله القرآن من حديث عن الكتب السابقة،
لا نزيد ولا ننقص^(٣).

٧ - أن نؤمن أن القرآن العظيم هو مصدر الشريعة، فلا شيء في حياة
المسلم السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة أو الأخلاقيّة أو الفكريّة أو الروحيّة
يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب^(٤).

٨ - أن شرح القرآن وتفصيله في سنّة الرّسول ﷺ، فهي المبيّنة للقرآن
والموضّحة له، ولا يفهم القرآن تفصيلاً وتوضيحاً إلّا بها.

(١) انظر: المصدر السابق (ص ٥٣٢ - ٥٣٥).

(٢) انظر: الإيمان بالكتب، لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٦ - ٧).

(٣) انظر: حق القرآن الكريم عن الناس (ص ١٢ - ١٣).

(٤) انظر: ركائز الإيمان (ص ٢١٠).

ثمرات الإيمان بالقرآن:

والإيمان الصحيح بالقرآن العظيم يُثمر ثمراتٍ جليّة، ومن أهمّها:

- ١ - العلم بعناية الله تعالى بهذه الأمة، حيث أنزل لها أعظم كتاب يهدي للتي هي أقوم في الدنيا والآخرة.
- ٢ - العلم بحكمة الله تعالى، حيث شرع لكلّ أمة ما يناسبهم، وبلانم أحوالهم.

٣ - التحرر من سوءات أفكار البشر يهدي الله تعالى ونوره.

- ٤ - السّير على طريق مستقيمة واضحة لا اضطراب فيها ولا اهوجاج، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ قَدَّمْنَا قَبْلَ آلِ إِبْرَاهِيمَ كُلِّ مَنزِلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَعَهُ كُتَابٌ وَجِبَالٌ عَظِيمَةٌ لِّئَلَّا يُكْفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا كَارِهِينَ﴾ [الكهف: ١]. فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقوم للنفس على جادة للضواب؛ والخطّ المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين.

٥ - التحرر من الأوهام والتّخبط الغفدي.

- ٦ - الفرح بهذا الخير العظيم: ﴿قُلْ يُضِلُّ أَكْثَرُ النَّاسِ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ فَيَرْمِيهِمْ إِلَى الْفِتْنِ أُولَئِكَ لَا يَعْلَمُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ أَجَلًا﴾ [يونس: ٥٨].

٧ - شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة.

- ٨ - السعادة في الدارين؛ الدنيا باتّخاذها دستوراً حاكماً في كلّ شؤون حياتنا، والآخرة بالفوز بالجنة، والمعيشة الطيبة^(١).

المبحث الثاني

الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن

إنَّ وجوب الإيمان بالقرآن الكريم أمرٌ في غاية الأهمية في حياة المسلمين؛ لأنَّ الإيمان به يتضمَّن الإيمان بسائر الكتب الإلهية التي نزلت قبله؛ لأنه هو المصدِّق لها جميعاً والمهيمن على ما جاء فيها، فالإيمان به إيمانٌ بها جميعاً^(١).

وقد ورد وجوب الإيمان بالقرآن الكريم في آيات كثيرة منه، منها ما دلالة على الوجوب صريحة، ومنها ما دلالة على الوجوب ضمنية، ويكتفى هنا على ما كانت دلالة فيه صريحة، وذلك خشية الإطالة، وهي على النحو الآتي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْنُوا بَمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٤١].

الخطاب في قوله ﴿وَمَا يَمْنُوا﴾ لليهود الذين هم في عصر نزول القرآن، فقد دعاهم الله تعالى للإيمان بما أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو القرآن، فأمرهم بالإيمان به، واتباعه^(٢).

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: أنَّ القرآن مُوافقٌ لما معكم من التوراة في التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرِينَ﴾ أي: لا تكونوا أول فريقٍ كافرٍ بالقرآن من أهل الكتاب، فيتبعكم من جاء بعدكم فتبوءوا بأثامكم وأثامهم؛ وذلك لأنَّ قريشاً كفرت قبل اليهود بمكة^(٣).

(١) انظر: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية، د. عبد العزيز الدردير موسى (ص ٤٣٥ - ٤٤٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٩٩)؛ تفسير السعدي (١/٥٥)

(٣) انظر: تفسير البغوي (١/٦٧).

مسألة: وهل يقتضي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرٍ بِدِينِهِ﴾ إباحة الكفر في ثاني الحال؟

جوابها: لا يقتضي هذا بحال من الأحوال؛ وذلك لأنَّ النهي عن الكفر مطلقاً جاء صريحاً في عِدَّة آيات، وهذا يُسَمِّيهِ العلماء مفهوماً معطلاً.

قال القرطبي رحمته: «المقصود من الكلام النهي عن الكفر أولاً وأخيراً»^(١). وقال ابن عاشور رحمته: «القصْد من النهي ألا يكونوا من المبادرين بالكفر، أي لا يكونوا متأخرين في الإيمان»^(٢).

فنهاهم أن يكونوا أوّل كافر بالقرآن؛ لكون أوّل فريقٍ كافرٍ يسُنُّ الكفر لمن بعده، فيكون إنَّه أعظم، والمعقوبة عليه أغلظ^(٣).

وهذا الأمر الصريح لأهل الكتاب في عهد النَّبِيِّ ﷺ بأن يؤمنوا بالقرآن، دليلٌ صريحٌ على وجوب الإيمان به.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتُنِجُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

الأمر هنا: صادر من الله تعالى، والمخاطب: هو النَّبِيُّ ﷺ. والمراد بما أُوحي إليه: القرآن، وهو قول عامة المفسرين.

وَمِمَّنْ صرَّحَ بذلك: القرطبي^(٤) والبغوي^(٥)، والسَّمْعَانِي^(٦)، وابن عاشور^(٧).

وهذا أمرٌ صريحٌ باتباع القرآن، والإيمان به، والعمل بما جاء فيه. والخطاب وإن كان للنَّبِيِّ ﷺ، إلا أنَّ المراد به هو وأُمَّته، كما في قوله تعالى: ﴿بَنَاتِنَا أَلْفَيْنِ أَتَىٰ اللَّهُ وَلَا تُلْجَأُ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُشْكِفِيْنَ﴾ [الأحزاب: ١].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

(١) تفسير القرطبي (١/٣٣٣).

(٢) انظر: التسهيل لتأويل التنزيل، مصطفى المدوي (١/٤٣٩).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/٦٠).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/١٢١).

(٥) انظر: تفسير السمعاني (٢/١٣٤).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٦/٢٥٨).

المراد بالكتاب هنا: هو القرآن كما يقول المفسرون، وكما هو ظاهر من سياق الكلام.

ومعنى كونه مباركاً: أي كثير الفوائد والمنافع الدنيوية والدينية. والفاء في قوله ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ للترتيب، أي يترتب على كونه مُنزَلاً من عند الله، وكونه نافعاً مباركاً أن تتبوه فتؤمنوا به، وتعملوا بأوامره، وتجتنبوا نواهيه؛ لعلكم تصلون بذلك إلى رحمة الله تبارك وتعالى، التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَجِيبْنَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وما أحسن ما قرره السمرقندي^(١) كقوله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكاً﴾ فقال: «يعني: القرآن، فيه بركة لمن آمن به، وفيه مغفرة للذنوب، ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ يعني: اقتدوا به. ويقال: اعملوا بما فيه من الأمر والنهي. ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني: واجتنبوا، ولا تتخذوا إماماً غير القرآن. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي تُرحموا، ولا تُعذبوا»^(٢). فما كان كذلك لا يتردد أحد في الإيمان به، واتباعه.

وهذا الأمر الصريح باتباع القرآن العظيم، دليل على وجوب الإيمان به، والاعتقاد الجازم بأنه مُنزَل من عند الله تبارك وتعالى.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. ظاهر اللفظ هنا يدل على أن ﴿مَا أَنْزَلَ﴾ مراد به القرآن، كما قرر ذلك السيوطي^(٣) والسعدي^(٤). بدليل ما قبله من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ إِذْ تُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا بَيَّنَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف: ٢]. فالكتاب، والضمان العائدة إليه مراد بها القرآن.

(١) هو صاحب الأقوال المفيدة والتصانيف المشهورة، المعروف بإمام الهدى (أبو الليث) نصر ابن محمد السمرقندي، نسبة إلى سمرقند، من تصانيفه: «تفسير القرآن العظيم»، و«تبيين الغافلين»، و«النوازل في الفقه». توفي سنة (٣٧٥هـ).

انظر: طبقات المفسرين (٣٤٦/٢).

(٢) تفسير السمرقندي (٥١٣/١).

(٣) انظر: الدر المثور (٤١٣/٣).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٢٨٣/١).

وبعض المفسرين اعتمد أن المُنزَّل في الآية هو القرآن والسُّنة، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَّكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] (١). وقد ذَكَرَ السَّمْعَانِي (٢) تَكْتِفَةً أَنَّ السُّنَّةَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُنْزَلَةً فَهِيَ كَالْمُنْزَلَةِ بِحُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ (٣).

وَأَيَّامًا كَانَ فَالآيَةُ الَّتِي مَعْنَاهُ أَمْرٌ صَرِيحٌ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْإِيمَانَ الْجَائِزَ بِأَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِرَادَتِهَا.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرٌ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

الْأَمْرُ هُنَا بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ أَيِ الْقُرْآنِ، وَالْمُخَاطَبُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ. فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَإِنْ لَمْ يُصَدِّقْكَ فَاعْمَلْ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَمَسَّكْ بِهِ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ، وَعَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالْقُرْآنِ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِعَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٤).

فَهَذَا الْخُطَابُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ وَكُلُّ مُخَاطَبٍ، إِذِ النَّبِيُّ ﷺ مَأْمُورٌ بِالتَّبْلِيغِ أَيْضاً، قَالَ أَبُو السُّعُودِ تَكْتِفَةً عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: «وَأَتَّبِعْ» اعْتِقَاداً وَعَملاً وَتَبْلِيغاً (٥).

وَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مَعَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ بِأَنَّهُ وَخِي

(١) وَيَمُنُّ قَالَ بِلْدَلِك: الرَّؤُوزِي فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٦/١٤)؛ وَالزَّمْخَشَرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨٣/٢)؛ وَالْبِيضَاوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٣)؛ وَالْقُرْطُبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٦١/٧)؛ وَالنَّسْفِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٢).

(٢) هُوَ مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ التَّمِيمِيِّ، الْمُرُوزِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ السَّمْعَانِيِّ (أَبُو الْمُنْظَرِ) مَفْسِّرٌ، مُحَدِّثٌ، مُتَكَلِّمٌ، فَقِيهٌ، أَصُولِيُّ، وَوُلِدَ سَنَةَ (٤٢٦هـ)، وَتَفَقَّهَ عَلَىٰ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، ثُمَّ وَرَدَ بَغْدَادَ وَانْتَقَلَ إِلَى الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَرَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَقَامَ عَلَيْهِ الْعَوَامُّ فَخَرَجَ إِلَى طُوسَ، ثُمَّ قَصَدَ نَيْسَابُورَ، وَتَوَفِّيَ بِمَرُورِ سَنَةِ (٤٨٩هـ). مِنْ تَصَانِيفِهِ: «مَنْهَاجُ أَهْلِ السُّنَّةِ»، وَ«الْقَوَاعِدُ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ»، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ»، وَ«الْإِنْتِصَارُ فِي الْحَدِيثِ» انْظُرْ: طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ (٤/٢١ - ٢٦).

(٣) انْظُرْ: تَفْسِيرُ السَّمْعَانِيِّ (١٦٤/٢).

(٤) انْظُرْ: تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٤٣٦/٢)؛ تَفْسِيرُ السَّمْرَقَنْدِيِّ (١٣٦/٢).

(٥) تَفْسِيرُ أَبِي السُّعُودِ (١٨١/٤).

من الله تعالى، أنزله على نبيه ﷺ، وهو المقصود من إيراد الآية.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَأْتٍ﴾
[النصر: ٨٥].

المُخاطَب في هذه الآية هو نبينا محمد ﷺ.

«معنى فَرَضَ: أَلْزَمَ وَأَوْجَبَ وَحَثَمَ»^(١). فالفرض هو الإيجاب، فالله تعالى قد فرض وأوجب على نبيه ﷺ الإيمان بالقرآن، وتبليغه للناس كافة، وتلاوته، والعمل بما فيه.

قال أبو السعود بثلاثة في تفسيرها: «أوجب عليك تلاوته، وتبليغه، والعمل به»^(٢).

وقال ابن كثير بثلاثة في تفسيرها: «أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك، هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجِهٌ حَسَنٌ»^(٣).

وكما وَجَبَ القرآن العظيم على النبي ﷺ فقد وجب على الأمة، وعلى كل من بلغه أن يؤمن به، ويعمل بما فيه من شرائع وعقائد، فيمثل أمره، ويجتنب نهيه، وهذا هو شاهدنا من إيراد هذه الآية، وقد وَضَحَ المراد، والحمد لله تعالى.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
[الزمر: ٥٥].

المراد بـ ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ﴾ هو القرآن العظيم. كما قرّر ذلك ابن كثير^(٤)، وأبو السعود^(٥)، والبغوي^(٦)، والثعالبي^(٧)، والشوكاني^(٨).

(١) تفسير الشعراوي (١٨/١١٠٣٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٨٣).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٧/٢٦٠).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٤/٨٥).

(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري (أبو زيد): مفسر، من أعيان الجزائر، ولد سنة (٧٨٦هـ)، وزار تونس والمشرق. من كتبه: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، و«الأنوار»، و«دروسة الأنوار ونزهة الأخيار»، و«الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز». توفي سنة (٨٧٥هـ). انظر: طبقات المفسرين (١/٣٤٢).

(٦) انظر: تفسير الثعالبي (٤/٦١).

(٧) انظر: تفسير الشوكاني (٤/٤٧١).

والوصف بصيغة التفضيل (أحسن) فيه تفصيل :

ف قيل : معناه أتبعوا ما فيه من أمرٍ بالطاعة، فجدّوا في تحصيلها، وكُلُّ ما أقر القرآن بامتثاله فهو حسن، وأما ما فيه من نهْي عن القبائح فابتعدوا عنها .

وقيل : معناه أتبعوا العملَ بالناسخ، واجتنبوا العملَ بالمنسوخ، ولا شك أن الحكم الجديد - الذي هو الناسخ - أحسن وأفضل للأمة من الحكم المنسوخ .

وقال البغوي رحمته الله عند قوله تعالى : ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ : «يعني : القرآن، والقرآن كله حسن، ومعنى الآية ما قاله الحسن : التزموا طاعته، واجتنبوا معصيته، فإن القرآن ذكر القبيح لتجنبه، وذكر الأذون لئلا ترغب فيه، وذكر الأحسن لتؤثره»^(١) .

ولا ريب أن القرآن العظيم أحسن ما أنزل إلينا من ربنا تبارك وتعالى، فله الحمد والمِنَّة، والسنة مبيّنة له وموضحة، لكن هذه النعمة الجليلة تستوجب الشكر العملي بالإضافة إلى الشكر اللفظي، فقد هذّب مَنْ لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا مِنْ رَبِّنا، ولم يؤمن به، بقوله تعالى : ﴿بَيْنَ قَبْلِي أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢) [الزمر : ٥٥] .

وكما قال ابن عطية الأندلسي^(٣) رحمته الله : «معناه أن القرآن العزيز تضمّن عقائد نيرة، وأوامر ونواهي مُنجية، وعِدات على الطاعات والبر، وحدوداً على المعاصي، ووعيداً على بعضها، فالأحسن أن يسلك الإنسان طريق التفهم والتحصيل، وطريق الطاعة، والانتهاء والعفو في الأمور، ونحو ذلك، فهو أحسن من أن يسلك طريق الغفلة والمعصية، فيجد أو يقع في الوعيد»^(٤) .

والأمر العام باتّباع القرآن، والإيمان به، والعمل بما فيه، صريح الدلالة على وجوب الإيمان بالقرآن العظيم .

(٢) انظر : أضواء البيان (٧/٣٠٠) .

(١) تفسير البغوي (٤/٨٥) .

(٣) هو أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية، الغرناطي، القرطبي، غلم المفسرين، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير واللغة، ولي القضاء . من أهم مؤلفاته : «تفسير المحرر الوجيز» . توفي سنة (٥٤٦هـ) .

انظر : طبقات المفسرين (١/٢٦٠) .

(٤) تفسير ابن عطية (٤/٥٣٧) .

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ يَا أُنزِيَّ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَٰنِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

المخاطب هنا: رسول الله ﷺ، والذي أوحى إليه: هو القرآن، والأخذ به والاستمساك بحبله: هو الحقُّ الموصول إلى الصراط المستقيم، الموصول إلى الجنة.

قال ابن كثير تَلَفُّةٌ عند تفسيرها: «أَيُّ خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنزَّلِ عَلَى قَلْبِكَ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُفْضِي إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمَوْصَلُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَالْخَيْرُ الدَّائِمُ الْمَقِيمُ»^(١).

وقال القرطبي تَلَفُّةٌ فِي قَوْلِهِ ﴿فَاسْتَمِعْ يَا أُنزِيَّ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾: «يُرِيدُ الْقُرْآنَ، وَإِنْ كَذَّبَ بِهِ مِنْ كَذَّبٍ»^(٢).

فالأمر من الله تعالى لنبِيِّهِ ﷺ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، أَي: الْأَخْذِ بِهِ، وَالْإِيمَانَ الْجَازِمَ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلَ بِجَمِيعِ شَرَائِعِهِ - كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ - شَامِلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ.

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿قَاتِمُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَلْتُوا الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]. هذا أمر من الله تعالى لعباده أجمعين أن يؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وأن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى إليه، وقد سَمَى اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ نُورًا؛ لِأَنَّهُ وَاضِعٌ فِي نَفْسِهِ مُوَضَّعٌ لِغَيْرِهِ، فَاشْبَهَ فِي ذَلِكَ النُّورَ.

وقد دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ نُورٌ يَكْشِفُ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ، وَيُظْهِرُ فِي ضَوْوهِ الْحَقَّ، وَيُتَمَيِّزُ عَنِ الْبَاطِلِ، وَيُتَمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ.

فِيحِبُّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيَسْتَضِيءَ بِنُورِهِ، فَيَعْتَقِدَ عَقَائِدَهُ، وَيَحِلَّ حَلَالَهُ، وَيَحْرَمَ حَرَامَهُ، وَيُمْتَثِلَ أَوْامِرَهُ، وَيُجْتَنِبُ مَا نَهَى عَنْهُ، وَيَعْتَبِرُ بِقِصَصِهِ وَأَمثاله^(٣).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرٌ صَرِيحٌ بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الْمُعْتَبَرِ عَنْهُ بِالنُّورِ.

(٢) تفسير القرطبي (١٦/٩٣).

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٢٩).

(٣) انظر: أضواء البيان (٧/٨٠).

الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن

كما أن الترغيب في الشيء وترتب ثواب على فعله، أو منعه فاعله يدل على أهميته، ووجوب فعل هذا الشيء أحياناً، فكذلك التحذير من ضده، أو الوعيد الشديد على هذا الضد، أو ذم فاعل هذا الضد يدل دلالة ضمنية على وجوب الشيء ذاته.

ومحل شاهدنا في هذا الأمر هو الإيمان بالقرآن العظيم، فإذا وجدنا - كما مر بنا - من الآيات ما يوجب الإيمان به، ويحث على ذلك بمدح فاعله، وبيان ثوابه في الدنيا والآخرة، فهذا يعني وجوب الإيمان بالقرآن، وكذلك إذا وجدنا من الآيات ما يحذر من الكفر به، أو ما يرتب عقاباً شديداً على الكفر به، أو ما يدل على الذم لمن كفر به، علمنا بطريق الدلالة الضمنية أن الإيمان بالقرآن واجب، وحثم لازم.

وقد وردت في القرآن الكريم من الآيات ما يحذر من الجحود به، وما يدل على العقاب أو الذم لمن كفر به^(١) مما يحمل دلالة ضمنية على وجوب الإيمان بالقرآن، ووعيداً على التكذيب والكفر به، ويكتفى هنا بذكر بعض من الآيات الدالة على التحذير والوعيد والذم لمن لم يؤمن بهذا الكتاب الحكيم، وهي على النحو التالي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

روى ابن كثير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال ابن صوريا الفظيوني

(١) انظر: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية (ص ٤٧٧ - ٤٨٥).

لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنشبعك، فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

قال أبو السعود تَفَهُةً عند تفسيرها: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ» واضحات الدلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله عز وجل ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي: المتمردون في الكفر، الخارجون عن حدوده، فإن من ليس على تلك الصفة من الكفرة لا يجترئ على الكفر بمثل هاتيك البينات^(٢).

فالله تعالى ذم الكافرين بآيات الكتاب العظيم، وسجل عليهم أشنع الأوصاف، وهو الفسق. وفي هذا دليل ضمني على وجوب الإيمان بهذه الآيات، ويختتم التصديق بأنها من الله تبارك وتعالى، وإلا صدق عليه الحكم بالكفر، والتفت بالفسق.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا سَطِيرُ الْأُولِيَّةِ ۗ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٤ - ٢٥].

المقول لهم، والذين أجابوا بهذا الجواب: هم كفار مكة، وهم الذين تقدم وصفهم: بأن قلوبهم منكبة وهم مستكبرون، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْتَ لَا يَزُرُونَنَا بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقد ذكر البغوي تَفَهُةً وغيره من المفسرين: أن هؤلاء الكفار كانوا يقتسمون طرق مكة، فيقفون على مداخلها، فإذا جاء الحجيج ذكروا لهم أن بها رجلاً اسمه محمد كذاب، يدعي أنه يوحى إليه، فلا تصدقوه، فإن ما يقوله هو أساطير الأولين^(٣).

والأساطير: هي الأباطيل. وهذا منهم تكذيب بالقرآن، وجحود لرسالة محمد ﷺ، فهم كفروا بالقرآن، وأرادوا حمل غيرهم على هذا الكفر، ولذلك

(٢) تفسير أبي السعود (١/١٣٤ - ١٣٥).

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩٦).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٢/٦١٠).

استحقوا أن يخلوا وزرهم، أي: إثم تكذيبهم بكتاب الله، ووزر غيرهم ممن أضلّوهم.

ثم نبّه المولى جلّ ثناؤه على أنّ ما تحمّله القوم من إثم ضلالهم، وإثم إضلالهم قد بلغ الغاية في السوء، فقال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُورُونَ﴾.

أي: بشس شيئاً يزرونه ما ذكر، وهذا وعيدٌ لهم، وتهديدٌ بعذابهم يوم القيامة^(١).

فالذم على التّكذيب بالقرآن، والوعيد الشّديد على الكفر به يوم القيامة، يقتضي وجوب الإيمان به حتماً.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤].

يدلّ سياق الكلام ولحاقه على أنّ المراد بهؤلاء المكذّبين بآيات الله تعالى هم الكفّار في عصر النبي ﷺ، وأنّ الآيات المكذّبة بها هي آيات القرآن الكريم.

فقبّل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا صَلَّمُوا بَشَرًا﴾ [النحل: ١٠٣]. فهذا القول معروف عن كفار مكّة، والمعلّم - في نظرهم -

القرآن.

وبعد ما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَاذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. وهذه أيضاً أوصاف كفّار مكّة.

وافترأوهم قولهم: إنّ القرآن سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، إلى غير ذلك^(٢).

وقد سجّل الله تعالى عليهم أقبح الصفات - وهو الكذب - وأخبر أنه لا يهديهم، أي لا يوفّقهم لاختيار طريق الحقّ، وتوعدهم بالعذاب الأليم الموحّج يوم القيامة، وذلك جزاء كفرهم بهذه الآيات، وفي ذلك ما يدلّ دلالة واضحة على وجوب الإيمان بالقرآن العظيم، والتّصديق بأنّه كلام الله عزّ وعلّا.

(١) انظر: تفسير الشوكاني (١٥٧/٣).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٢٩٣/٢)؛ تفسير أبي السعود (١٤٢/٥).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٢﴾ خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠١].

المخاطب: هو رسول الله ﷺ. والذِّكْرُ: هو القرآن العظيم^(١).

«وإذا كان القرآن ذِكْرًا لِلرُّسُولِ وَأُمَّتِهِ، فيجب تلقّيه بالقبول والتَّسليم، والانقياد، والتعظيم، وأن يُهتدى بنوره إلى الصُّراطِ المستقيم، وأن يُقبلوا عليه بالتَّعلم والتَّعليم.

وأما مقابله بالإعراض، أو ما هو أعمُّ منه من الإنكار فإنه كُفْرٌ لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحقٌّ للعقوبة.

ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلُّم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران^(٢).

وهذه الآيات الكريمة فيها التَّحذير من التَّكذيبِ بالقرآن، والإعراضِ عنه، وتهديدٌ شديد لمن كَذَّبَ وكفَّر به، بأنه يوم القيامة يمكث في أوزاره وأحماله الثَّقيلة.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

صُدِّرت الآية بتكفير مَنْ قال هذه المقالة الشنيعة، فقد سجَّل اللهُ تعالى عليهم الكفر؛ بسبب كذبهم، وبهتانهم، واستهزائهم بالقرآن العظيم، حيث قالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ يريدون بهذا التعبير الحطُّ من شأنه.

والإفْكُ: هو أشدُّ الكذب، وقولهم: ﴿أَفْتَرَاهُ﴾ اختلقه من عند نفسه.

وقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ﴾ يريدون اليهود، أو بعض من كانوا يصنعون السُّيوفَ بمكَّة، ممن كانوا يقرؤون التَّوراة والإنجيل^(٣).

وأياً ما كان فقد دمعهم اللهُ تعالى بالظُّلم في هذا القول، ووصفهم بالتزوير في هذا الادِّعاء.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٢٣/٥). (٢) تفسير السعدي (٣/٢٥٠ - ٢٥١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣/٨٥، ٣٦١)؛ زاد المسير (٤/٤٩٣)؛ التفسير الكبير (٢٤/٤٤).

وما أَحْسَنَ ما قاله الزُّمخشري^(١) من ظلمهم وَزُورهم: «ظلمهم: أن جعلوا العربيَّ يَنْتَلِزُ من الأعجميِّ الرُّوميِّ كلاماً عربياً، أعجز بفصاحته جميعَ فصحاء العرب. والزُّور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه»^(٢).

فحكم القرآن عليهم بالكفر؛ لأنهم ظالمون وكاذبون في هذا القول، وأنه كان يجب عليهم التصديق، والإيمان بأنه كلامُ الله تعالى، بدل الكذب والافتراء، فيه دليلٌ ضمنيٌّ على وجوب الإيمان بالقرآن بالنسبة لهم ولغيرهم.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا ثَلَاثُ عَلَقَةٍ عَلَيْهِ مَا بَشَرَنا وَاكَّ مُتَعَدِّكًا كَأَن لَّدُ بَسْمَها كَأَن فِي أُذُنِهِ وِقْرًا فَبَشَّرَهُ بِحَبَابِ أُلْبِيبٍ﴾ [لقمان: ٧].

المراد بـ (آياتنا) هو القرآن العظيم. ومعنى ﴿وَإِنَّا ثَلَاثُ عَلَقَةٍ﴾ أي: أعرض عنها تكبراً وجحوداً. ﴿كَأَن لَّدُ بَسْمَها﴾ أي: كأنه لم يسمعها، فحذف ضمير الشان.

ومعنى ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ وِقْرًا﴾ أي: صمم. والواقع أنه ما به صمم حقيقة، ولكنه تصامم عنها تكبراً. ﴿فَبَشَّرَهُ بِحَبَابِ أُلْبِيبٍ﴾ أي: موجه يؤلمه، والتعبير بالبشارة من باب التهكم والسخرية منه^(٣).

فالله تعالى توعد المكدب بالقرآن بالعذاب الاليم، ووصفه بالتكبر والإعراض، وذلك دليل ضمنيٌّ على أن الإيمان بالقرآن أمرٌ واجب.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنَنا بَلِّغْ ما فِي سَاقِ تِنِ ذِكْرِي بَلِّغْ لَنا بِذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨].

هذا النص هو مقول كفار قريش، والاستفهام للإنكار، أي كيف يكون

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزُّمخشري الخوارزمي، العلامة، التحوي، اللغوي، المفسر، كبير المعتزلة، يُلقب جار الله لمجاورة مكة زماناً، ولد سنة (٤٦٧هـ) بزمخشر من قرى خوارزم، كان رأساً في البلاغة والعربية، مُجاهراً باعتزاله وداعية إليه، له تصانيف كثيرة منها: تفسير «الكشاف»، و«الفائق في غريب الحديث»، و«أساس البلاغة». توفي سنة (٥٣٨هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠)، طبقات المفسرين (٣١٤/٢).

(٢) الكشاف (٢٦٩/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٤٩/٤)؛ تفسير أبي السعود (٦٩/٧).

ذلك، ونحن الرؤساء والأشراف. وهو نظير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَبِّي لَمِنَ الْفَرِيقِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالمراد بالذكر هنا القرآن، ومرادهم - في هذه الآية - إنكار كونه مُنزَلاً من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿بَلْ تُمْ فِي شَكِّ يَن ذِكْرِي﴾ أي: من القرآن. فتارة يقولون: هو سحر، وتارة يقولون: أساطير الأولين، إلى غير ذلك.

﴿بَلْ لَأَنَّا بِذُوقُوا عَذَابٍ﴾ أي: بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابي، فاغترؤا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي - على ما هم عليه من الشرك والشك - لصدقوا ما جئت به من القرآن، ولم يَشْكُوا فيه^(١). والتعبير بـ «لَمَّا» إشارة إلى قرب وقوع ذلك.

والمعنى: أنهم لا يُصدِّقون به حتى يمسه العذاب^(٢).

فتوعَّد الله تعالى الشاكِّين في القرآن بأن يمسه عذابه يوم القيامة جزاء تكذيبهم له، دليل على أن التصديق بالقرآن العظيم، والإيمان بأنه من الله تعالى أمر واجب.

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ. مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: مُنزَلاً من قبله على عبده ورسوله محمد ﷺ. ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مع علمكم أنه من الله تعالى، ومع تعاضد الأدلة والبراهين على حقيقته.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ أي: من أضلُّ منكم؟ والتقدير: لا أحد أضلُّ منكم؛ لفرط شقاقكم وعداوتكم^(٣).

فالتعني والإنكار على من كفر بالقرآن، ووضفه بأنه لا أحد أضلُّ منه، وبأنه في شقاق بعيد عن الحق؛ بكفرهم بالقرآن، يقتضي حتماً وجوب الإيمان بالقرآن العظيم.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٢١٦/٧).

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٤٢١/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٧٤/١٥).

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَسْأَلْ أَعْمَلَهُمْ ۗ﴾ (٨ - ٩).
 بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٨ - ٩].

تحدث الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن تعاسة الكفار.

والتعسُّ: هو الهلاك والعتار والسقوط والشر والبعد والانحطاط^(١).

والمعنى: قضى الله تعالى عليهم بالتعاسة، وإحباط أعمالهم، فلم تُعدْ
 صالحةً للانتفاع بها؛ وذلك لأن الأعمال بدون الإيمان لا تُغني عن صاحبها
 شيئاً.

قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
 وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والسبب الرئيس الذي أوصلهم إلى هذه التعاسة، وهذا الإضلال: أنهم
 ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وهو القرآن، فكانت النتيجة الحتمية ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وسبب كراهيتهم للقرآن: أنه جاءهم بالتوحيد، وإبطال عبادة الأصنام، التي
 ألفوها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وجاءهم ببعض التكاليف التي فيها مشقة
 على نفوسهم، ومخالفةً لإلفهم.

فأله تعالى ذم المكذبين بالقرآن، الكارهين لما جاء به من توحيد وتكاليف،
 وقضى عليهم بالتعاسة، وإحباط الأعمال.

وهذا يدل بوضوح على أن الإيمان بالقرآن العظيم، والتصديق بأنه من الله
 تعالى، والتسليم والرضا بكل ما جاء به، أمر واجب على كل من سمعه ومن
 بلغه.

المبحث الرابع

أنواع التكذيب بالقرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر الصريح بالقرآن.

المطلب الثاني: الاستكبار عن القرآن.

المطلب الثالث: التكذيب الصريح بالقرآن.

المطلب الرابع: الجحود بالقرآن.

المطلب الخامس: طلبهم تبديل القرآن.

المطلب السادس: تبعض القرآن.

المطلب السابع: الإعراض عن القرآن.

أنواع التكذيب بالقرآن

تمهيد:

مما سبق ذكره في المبحث الثالث، ومن خلال تتبع أكثر الآيات الواردة في القرآن العظيم والمتعلقة بترك الإيمان به، يتضح أن هناك مظاهر متعدّدة لهجر القرآن والحدّ المشترك فيها هو التكذيب بالقرآن، وتُجمل فيما يلي:

الكفر بالقرآن، والاستكبار عنه، والشك فيه، والتكذيب به، والجحود به، والاستهزاء به وبتعاليمه، وتبديله وتحريفه، والإعراض عنه ونبذه، وترك الاحتكام إليه، وكتمانه، والاختلاف فيه، والجدال فيه، والصدّ عنه، والنهي عنه، والغفلة عنه، وترك العمل به، وأدعاء نسخه، وأدعاء نقصه، ومضاهاته ومعارضته.

ولقد فصل القرآن العظيم هذه الخصال المذمومة بالشرح والتبيان، وعرض لها نماذج وأمثلة؛ حتى يحتاط المسلمون من الوقوع في إحداها.

ولئن امتدح الله تعالى الذين تعاملوا مع القرآن العظيم التّعامل الصحيح حيناً، فإنه - جلّ ذكره - ذمّ الذين تعاملوا مع القرآن الكريم التّعامل الخاطئ في مواضع كثيرة من كتابه؛ ليتنبّه المسلمون حقّ التّنبّه، ويعوا تمام الوعي، وهم يقرؤون كلام الله تعالى، أو يسمعون.

وفيما يلي تفصيل لما أجمل ممّا هو تكذيب بالقرآن المجيد نجده في المطالب الآتية:

المطلب الأول

الكفر الصريح بالقرآن

الكفر بالقرآن: هو اعتقاد بما يحمل معنى الكفر، أو تلفظ بما يحمل معنى الكفر، أو فعل بما يحمل معنى الكفر. ويستوي في ذلك من كفر بالقرآن جملةً وتفصيلاً، ومن كفر بأية منه.

ولقد توعد الله ﷻ من كفر بالقرآن العظيم بالعذاب والهوان والضغار في الدنيا والآخرة، وما جاء في ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٤].

فهذا وعيد من الله تعالى بالعذاب الشديد لمن كفر بالقرآن العظيم.

قال ابن عاشور رحمته الله في تفسيرها: «وشمل قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة؛ لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله - هنا - لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله؛ لأنه معجزة. وعبر عنهم بالموصول إيجازاً؛ لأن الصلة تجمعهم»^(١).

وقد فضل الله تعالى هذا العذاب الشديد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا صُلبَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وهذا الكفر بالقرآن العظيم صدر منهم قولاً صريحاً، ذكره الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبا: ٣١]. فقد حكى الله عز وجل قولهم الشنيع، ثم ذكر عقوبتهم في الآخرة مباشرة^(٢)؛ جزاء كفرهم بالقرآن وبالذي بين يديه من التوراة والإنجيل: ﴿وَلَوْ قَرَّبْنَا كِلَابًا إِلَى الَّذِينَ هَؤُلَاءِ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُفِخَ فِي السُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُنْفِخُنَّ أَذْوَاقًا خِلافًا لِمَا وَعَدَ اللَّهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصِيبُنَّهُمْ عَذَابُ الْغَلَاظِ لِيَوْمَ يَأْتِي السَّمَاءُ دُخانًا مُدْبِقًا وَكَانَ الْعَذَابُ أَلِيمًا﴾ [الأنعام: ٦٥].

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٨٦/٣).

(١) التحرير والتنوير (١١/٣).

اَسْتَكْبَرُوا لَوْلَا اَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ الى قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ اِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣] (١).

المطلب الثاني

الاستكبار عن القرآن

من أمثلة الاستكبار عن القرآن الكريم ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنواعاً من الاستكبار عن القرآن العظيم، ومن ذلك:

أ - افتراء الكذب على الله: والافتراء: هو الاختلاق، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. فالذين افتروا على الله الكذب هم المشركون؛ لأنهم حللوا وحرّموا بهوهم وزعموا أن الله أمرهم بذلك، وأثبتوا لله شفعا عنده كذباً (٢).

ب - ادّعاء النبوة كذباً: ويدخل في ذلك كلُّ من ادّعى النبوة، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممّن اتّصف بهذا الوصف (٣).

ج - ادّعاء معارضة القرآن: ويدخل في ذلك كلُّ من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، أو في إمكانه أن يأتي بمثله، كما فعل النضر بن الحارث؛ لأنه عارض القرآن فقال: والظّاحنات طحناً. والعاجنات عجنناً. فالخابزات خبزاً.

(١) تأمل نماذج للكفر بالقرآن العظيم، والوحيد على ذلك، في أرقام آيات السور التالية: (الأنعام: ٧)، (الكهف: ١٠٥)، (الفرقان: ٣٢ - ٣٤)، (سبا: ٤٣)، (الزمر: ٦٣)، (فصلت: ٤١ - ٤٤)، (الجاثية: ١١)، (البلد: ١٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٠ - ٢٢١).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٤/٢).

فَاللَّاقِمَاتِ لِقْمًا. ذَكَرَ ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ^(١) عَنْ عِكْرَمَةَ^(٢)، وَابْنِ عَطِيَّةٍ فِي تَفْسِيرِهِ^(٣) عَنِ الزَّهْرَاوِيِّ وَالْمَهْدَوِيِّ، وَأَبُو حَيَّانٍ^(٤) فِي تَفْسِيرِهِ^(٥).

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَذَابَ الَّذِي أَعَدَّهُ لَهُؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِيكَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ قَوْلُونَ عَلَىٰ أَفْوٍ غَيْرِ الْمَقِيٍّ وَكُنْتُمْ عَنِ آيَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ أَي: تُعْطَوْنَ جَزَاءً.

وَالْحِزَاءُ: هُوَ عِوَضُ الْعَمَلِ وَمَا يُقَابَلُ بِهِ مِنْ أَجْرٍ أَوْ عِقُوبَةٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً وَفَاتًا﴾ [النَّبَأُ: ٢٦].

وَالهُونُ: هُوَ الْهَوَانُ وَالذُّلُّ^(٦). وَالْمَقْصُودُ بِهِ: الْعَذَابُ الْمَتَضَمِّنُ لِسَبْؤٍ وَإِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ^(٧).

وَسَبَبُ الْعَذَابِ: قَوْلُكُمْ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَعَدَمُ تَصَدِيقِكُمْ بِهِ^(٨).

وَجَزَاءُ الْاسْتِكْبَارِ عَنِ الْقُرْآنِ الْيَاسِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ؛ لِأَنَّهُمْ مَجْرُمُونَ وَظَالِمُونَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠ - ٤١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤٣/٧).

(٢) هو عكرمة البربري، أبو عبد الله، المدني، مولى ابن عباس، أصله من البربر، من علماء التابعين ومن المتبحرين بالتفسير، من كبار تلاميذ ابن عباس، اتهم ببدعة الخوارج الصفرية، ووثقه أئمة الحديث، قال ابن حجر: «ثقة، ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر، ولا ثبت عنه بدعة، من الثالثة، مات سنة (١٠٧هـ)».

انظر: تقريب التهذيب (٣٠/٢)؛ تهذيب التهذيب (٢٦٣/٧ - ٢٧٣).

(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢٨٧/٥).

(٤) هو محمد بن يوسف بن علي (أبو حيان) الأندلسي، الغرناطي، إمام العربية في عصره، مفسر، ومحدث، ومؤرخ، ومقري، اشتهر اسمه وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، ولد بقرنطة سنة (٦٥٤هـ)، ومات بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ). من مصنفاته: «البحر المحيط» في التفسير، و«شرح كتاب سيويه»، و«تذكرة النحاة» و«ارتشاف الضرب من لسان العرب» وغيرها. انظر: طبقات المفسرين (٢٨٧/٢).

(٥) انظر: البحر المحيط (١٨٠/٤). (٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٢٤/٦).

(٧) انظر: تفسير أبي السعود (١٦٣/٣). (٨) انظر: تفسير البغوي (١١٦/٢).

وأعظم اليأس لهم هو خلودهم في نار جهنم: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَأَسْكَبُوا عَلَيَّاءُ أُولَئِكَ أُصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

المطلب الثالث

التكذيب الصريح بالقرآن

من أمثلة التكذيب بالقرآن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أُصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

فهؤلاء الكفار كفروا بالرُّسل المرسله إليهم، وكذبوا بالآيات المنزلة عليهم^(١).
قال البغوي كلفته في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: «بالقرآن»^(٢).
وكذلك قال السمرقندي كلفته: «يعني جحدوا بالقرآن»^(٣). ومثله قال القرطبي كلفته:
«يعني القرآن»^(٤).

فهم قد جمعوا بين الكفر بالله تعالى والتكذيب بالقرآن العظيم، والعطف
يقتضي المغايرة^(٥).

وقيل: التكذيب بالقرآن كفر، وهو من باب عطف الخاص على العام^(٦).
فقد توعد الله تعالى من كذب بالقرآن العظيم - سواء كان من الإنس أو
الجن - بالعذاب الدائم، وهو الخلود في نار جهنم لا يخرجون منها ولا يموتون
فيها، فقال عز من قائل: ﴿أُولَئِكَ أُصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٧).

وبين الله تعالى في مواضع آخر جزاء التكذيب بالقرآن فقال: ﴿وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أُصْحَبُ الْجَهَنَّمَ﴾ [الحديد: ١٩].

«والجحيم»: النار الشديدة الإيقاد. ويقال: جحم فلان النار إذا شدد
إيقادها^(٨). فالتار ملازمة لهم ملازمة الصاحب لصاحبه^(٩).

(١) انظر: المصدر السابق (٩٣/١).

(٢) تفسير البغوي (٦٦/١).

(٣) تفسير السمرقندي (٣٨٦/٣).

(٤) تفسير القرطبي (١٣٩/١٨).

(٥) انظر: تفسير الشوكاني (٤٦٣/٣).

(٦) انظر: المصدر نفسه (٦٨/٢).

(٧) انظر: تفسير البغوي (٦٦/١)؛ تفسير الرازي (٢٧/٣).

(٨) انظر: تفسير السعدي (٢٢٤/١).

(٩) تفسير الشوكاني (٦٨/٢).

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ لَهُ عَذَابًا مَهِينًا يُهَانَ فِيهِ جِزَاءً وَفَاقًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾ [الحج: ٥٧]. يهانون فيه من شدته وألمه وبلوغه للأفئدة، كما استهانوا بالقرآن أهانهم الله تعالى بالعذاب^(١).

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ كَذَلِكَ فَهُوَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرٌ عَلَى الدَّوَامِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ أَبَدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

قال الرازي^(٢) تَلَفُّةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرُونَ﴾: «يعني لَا غَيْبَةَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا فُتُورَ لَهُ عَنْهُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]. وَقَالَ ﴿لَا يَفْرُغُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥]. أَي: الْعَذَابِ»^(٣).

وهناك معانٍ متقاربة في الآية ذكراها القرطبي تَلَفُّةٌ فقال: «أي: مقيمون، وقيل: مجموعون، وقيل: معذبون، وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. أي: نزل به»^(٤).

والمراد: دوام عذاب مَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ، والعياذ بالله من هذه الحال.

المطلب الرابع

الجحود بالقرآن

الجحود ضدُّ الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به أنه صحيح^(٥).

(١) انظر: المصدر نفسه (٥٤٣/١).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي، الطبرستاني الأصل، ثم الرازي، المفسر، المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، ولد سنة (٥٤٤هـ)، صنّف في فنون كثيرة، ومن تصانيفه: «التفسير الكبير» المعروف بـ «مفاتيح الغيب»، و«المحصول»، و«نهاية العقول»، قيل: إنه ندم في آخر حياته على دخوله في علم الكلام. توفي بهراة يوم الفطر سنة (٦٠٦هـ).

انظر: طبقات المفسرين (٢١٦/٢)؛ شذرات الذهب (٢١/٥).

(٣) التفسير الكبير (٩٠/٢٥). (٤) تفسير القرطبي (١٤/١٤).

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢١٨/١).

يُقال: جَحَدَ الأمر، وَجَحَدَ بالأمر جَحْداً وَجُحوداً: أنكره مع علمه به .
ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] (١).

* ومن أمثلة الجحود بالقرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَدْ ظَلَمَ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ بِجَحْدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

يقول تعالى مسلماً لنبية ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إيَّاه: ﴿قَدْ ظَلَمَ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذِّبون فيك، يحزنك ويسوؤك، فلا تظنَّ أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك.

﴿إِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ﴾؛ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه - قبل بعثته - الأمين (٢).

قال ابن عاشور رحمه الله: «فيكون في الآية احتباك، والتقدير: فإنهم لا يكذبونك ولا يكذبون الآيات، ولكنهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك، فحذفت من كل دلالة الآخرة» (٣).

وجحودهم بالقرآن كُفْرٌ عنادٍ ومكابرة (٤).

* ومن أمثلة الجحود بالقرآن كذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ مَاتَتْهُمْ الْكُتُبُ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [المنكوت: ٤٧].

وهذا حصرٌ لمن كفر بالقرآن، أنه لا يكون من أحدٍ قضده متابعة الحق (٥).
«والجحد - كما قال الراغب: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه. وفسر هنا بالإنكار عن علم. فكأنه قيل: وما ينكر بآياتنا مع العلم بها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: المتوَعِّلون في الكفر، المصمِّمون عليه؛ فإن ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم» (٦).

وكما يكون جاحد القرآن كافراً، فيكون أيضاً ظالماً، على حدِّ قوله تعالى:

(١) انظر: المعجم الوسيط (ص ١٠٧). (٢) انظر: تفسير السعدي (١٧/١٢ - ١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧٤/٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية (٢/٢٨٦)؛ تفسير الثعالبي (١/٥١٦).

(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/٦٦). (٦) روح المعاني (٤/٢١).

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾
[المنكوت: ٤٩].

أي: وما يُكذِّب بالقرآن ويبخس حقه ويرده إلا الظالمون، أي: المعتدون
المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحبذون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]^(١).

والظالم: هو الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة. فهم يُنكرون
القرآن مع علمهم بأنه الحق، وذلك هو الجحود.

فسأنا الظالمين جحد الحق، فهم لا إنصاف لهم^(٢).

ولقد بين الفخر الرازي ثلاثة الفرق بين الكفر والظلم في الآيتين السابقتين
قائلاً: «قال ههنا: الظالمون، ومن قبل قال: الكافرون، مع أن الكافر ظالم، ولا
تنافي بين الكلامين، وفيه فائدة: وهي أنهم قبل بيان المعجزة، قيل لهم: إن لكم
المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين، فلفظ الكافر هناك كان بليغاً
يمنعهم من ذلك؛ لاستنكافهم عن الكفر، ثم بعد بيان المعجزة، قال لهم: إن
جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أول الأمر بالمشركين
حُكماً، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين، أي:
مشركين، كما بيئنا أن الشرك ظلمٌ عظيم، فهذا اللفظ ههنا أبلغ، وذلك اللفظ
هناك أبلغ»^(٣).

جزاء الجحود:

* بين الله تعالى جزاء الجحود بالقرآن في قوله تعالى: ﴿قَالِيَوْمَ نَسْفُهُمْ
كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِعَابِدِينَ﴾ [الاعراف: ٥١].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٨/٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧٤/٦) (١٨٧/٢٠).

(٣) التفسير الكبير (٦٨/٢٥).

ومعنى «نَسْنَهُمْ كَمَا نَسُوا» أي: تعاملهم معاملة مَنْ نسي، فَيَتْرَكُونَ فِي النَّارِ كَمَا فَعَلُوا هُمْ فِي جَحُودِهِمْ بِالْقُرْآنِ، فَسَمَى اللَّهُ تَعَالَى جَزَاءَ نَسْيَانِهِمْ بِالنَّسْيَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «وَعَزَّوْنَا مِنَّا سَيِّئَةً مِّثْلَهَا» [الشورى: ٤٠].

والمراد من هذا النسيان: أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُجِيبُ دَعَاءَهُمْ وَلَا يَرْحَمُهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ هَذِهِ التَّشْدِيدَاتِ بِسَبَبِ جَحُودِهِمْ بِالْقُرْآنِ^(١).

* ومن جزاء الجحود بالقرآن كذلك قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِنَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلِكٌ تَقْلِيُونَ ﴿٦٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَثْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَلْرُ الْخَلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» [فصلت: ٢٦ - ٢٨].

ولفظ الذوق إنما يُذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة، فإذا كان القليل من الذوق عذاباً شديداً، فكيف يكون حال الكثير منه؟

والمراد بـ «أَثْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ»: أي أقبح الذي كانوا يعملونه في الدنيا، وهو الشُّرك بالله تعالى^(٢).

فإنهم لما أشركوا بالله تعالى أحبطوا أعمالهم، فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة، فلا جرم لم يتحصّلوا إلا على جزاء السيئات.

وهذا العذاب الشديد المخنّدون فيه «جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ»: أي جزاء بما كانوا يُلغون في قراءة القرآن.

وسمى الله تعالى كفرهم بالقرآن جحوداً؛ لأنهم لما علموا أَنَّ الْقُرْآنَ بِالْغُيِّ إِلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ، خَافُوا مِنْ أَنَّهُ لَوْ سَمِعَهُ النَّاسُ لَأَمْنُوا بِهِ، فَاسْتَخْرَجُوا تِلْكَ الطَّرِيقَةَ الْفَاسِدَةَ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى عِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ، وَمَعَ ذَلِكَ جَحَدُوا بِهِ حَسْداً وَظُلماً وَعناداً^(٣).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/١١٣).

(١) انظر: المصدر نفسه (١٤/٧٧).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٧/١٠٤).

طَلَبُهُمْ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ

لقد طلب الكفار من الرسول ﷺ أن يأتي بقرآنٍ غير هذا، أو أن يبذله، وهم في طلبهم هذا لم يأتوا ببدعٍ من القول، بل ساروا على نهج من سبقهم من أهل الكتاب، وهو عين ما حكاه الله تعالى عن اليهود بقوله: ﴿أَفَتَضْمَنُونَ أَنْ يُؤْتُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرَّفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَثْمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

فهذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم. وأخلاقهم لا تقتضي القطع فيهم، فإنهم كانوا يُحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني، ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله. فإذا كانت حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يُرجى إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء^(١).

فهاهم أولاء المشركون - الذين لا يرجون لقاء الله - يطلبون من النبي ﷺ أن يبذل القرآن أو يغيره؛ لأنه لا يوافق أهواءهم وشهواتهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا آيَاتٍ غَيْرِ هَذِهِ أَوْ بَدِّلْ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِغَيْرِ قَدَرٍ ۚ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ وَإِنَّ كَفْرًا لَكُمْ لَنْ تَكُونُوا مَعَهُمْ ۚ قُلْ يَوْمَ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

فقد طلبوا من رسول الله ﷺ - لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها - أحد أمرين: إما الإتيان بقرآنٍ غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها، مما يطابق إرادتهم، ويلانم غرضهم. فأمره الله تعالى أن يقول في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما ينبغي لي، ولا يحل لي أن أبذله من تلقاء نفسي.

فنفى عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل؛ لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر، وهو الإتيان بقرآنٍ آخر، فإن ذلك ليس في وسعه، ولا يقدر عليه.

وهذا منه ﷺ من باب مجازاة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك^(١).

وينفرد اليهود بما يلائم طبعهم الملتوي فيلّون السنتهم بالكتاب، أي: يميلونها عن الصحيح إلى المحرف. فينزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَئِنْ مِتُّمْ لَفَرِيحًا يَلُوتُنَّ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبَ وَهُمْ يَمْلُونُ﴾ [آل عمران: ٧٨]. قال ابن الجوزي رحمه الله: «ومعنى ﴿يَلُوتُنَّ أَلْسِنَتَهُم﴾: يقلبونها بالتحريف والزيادة»^(٢).

وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي، ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في ذلك، ويصرّحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم، وسوء مقبّتهم^(٣).

المطلب السادس

تبعيض القرآن

إن الأخذ ببعض القرآن وترك بعضه الآخر هجر له، ومعصية لله تعالى، بل هو من أنواع التكذيب بالقرآن العظيم.

* وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعْدُ الْيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَرُدُّونَ إِلَيْهِ أَسْوَأَ الْكُتَابِ وَمَا اللَّهُ بِمُنْفِلٍ عَمَّا كَفَلُوا﴾ [البقرة: ٨٥].

قال عامة المفسرين - رحمهم الله تعالى: إن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/٦٢٣).

(٢) زاد المسير (١/٣٣٥).

(٣) تفسير السعدي (١/٢٥٤).

أسراهم، فأعرضوا عن كُلِّ ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟﴾^(١).

فهذا استفهام إنكاري توبيخي، أي كيف تعمدتم مخالفة التوراة في قتالكم إخوانكم، وأتبعتموها في فداء أسراهم^(٢).

فالذي آمنوا به: فداء الأسارى. والذي كفروا به: قتل بعضهم بعضاً، وإخراجهم من ديارهم، فوبخهم الله توبيخاً يتلى إلى يوم القيامة^(٣).

جزاء تبعض الكتاب:

قال الله تعالى مُبَيَّنًّا جزاء تبعض الكتاب: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَوَمُّ الْيَتِيمَةِ بِرُدُونِ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. الخزي: هو الذلُّ والهوان.

وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به اليهود المتلاعبين بأوامر الله تعالى مُوقراً، فصاروا في خزي عظيم، بما ألصق بهم من الذلِّ والمهانة بالقتل والأسر وضرب الجزية والجللاء، وما قُدر لهم أيضاً من الذلِّ - في المستقبل - بين الأمم، هذا في الدنيا^(٤).

أما في الآخرة فإنهم: ﴿بِرُدُّونِ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ جزاء ما كتموه من كتاب الله الذي بين أيديهم، فقد جاءوا بنذب عظيم، وجُرم جسيم.

ولا ريب أن أشدَّ العذاب هو الخلود في نار جهنم، عياداً بالله تعالى من هذا الحال.

قال ابن عاشور رحمه الله: «وقد دلَّت هذه الآية على أن الله تعالى يُعاقب الحائدين عن الطريق بعقوبات في الدنيا، وعقوبات في الآخرة»^(٥).

* ومن تبعض القرآن ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَقِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿١٦﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهُنَّ أَجْمِينَ ﴿١٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٧٢)؛ تفسير القرطبي (٢/٢٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/٥٧٣). (٣) انظر: تفسير التعلاني (١/٨٥).

(٤) انظر: تفسير الشوكاني (١/١٠٩). (٥) التحرير والتنوير (١/٥٧٤).

وقد مرّ بنا سابقاً أنّ الآية الكريمة تشمل كلُّ من اقتسم كتاب الله، بتكذيب بعضه وتصديق بعضه، وارتكب ما نهاه الله عنه .
 فعالُه هذا يُشبه حال اليهود والنصارى الذين قَسَموا كتبهم السماوية أقساماً، وجزّؤوها أجزاءً، فأمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ؛ أتباعاً لشهواتهم وأهوائهم .

المطلب السابع

الاعراض عن القرآن

إنّ من أنواع التّكذيب بالقرآن العظيم الإعراض عنه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

والمراد بالذّكر هنا: القرآن، في قول عاتمة المفسّرين .

وقال الله تعالى - أيضاً - مخاطباً النبي ﷺ وممتناً عليه بما أكرمه من إنزال القرآن إليه، ومبيناً له جزاء من أعرض عنه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠٠﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠٠].

قال ابن عاشور رحمه الله: «وتنكير ﴿ذِكْرًا﴾ للتعظيم، أي: آيتنا كتاباً عظيماً . وقوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ توكيدٌ لمعنى ﴿آيَاتِنَا﴾، وتنويهٌ بشأن القرآن، بأنه عطيةٌ كانت مخزونةً عند الله، وخصّ بها خير عباده ﴿ﷺ﴾»^(١).

جزء الإعراض عن القرآن:

أمّا الآية الأولى، فقد سبق الحديث عنها بالتفصيل:

وتقرّر أنّ معنى المعيشة الضنك: هو أنواع العذاب الذي يصيب المعرض عن القرآن من الهموم والغموم والآلام، وذلك في الدنيا، والبرزخ، والآخرة .

فإنّ المعرضين عن القرآن العظيم في جحيم قبل الجحيم الأكبر .

وأما حشره أعمى: فإنّه لما أعرض عن القرآن الكريم وعميت عنه بصيرته،

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٧٩). وانظر: تفسير أبي السعود (٤٠/٦).

أعصى الله عزَّ وجلَّ بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة.
وأما الآية الثانية:

فقد بين الله تعالى شِدَّةَ انوعيد لمن أعرض عن القرآن، ولم يؤمن به ويتبعه، من عِدَّةٍ وجوه:

١ - يخول يوم القيامة وزراً. والوزرُ: هو العقوبة الثَّيْلَة.

وسُمِّيت وزراً: لتشبيها - في ثقلها على المُعاقِبِ، وضعوبة احتمالها - بالجمال الذي يفتح الحامل، ويتقبض ظهره. فالمراد: جملاً ثَقِيلاً من الإثم^(١).

٢ - هو مُخَلَّدٌ في الوزر، لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ [طه: ١٠١]. أي: مقيم أبداً في عذاب الوزر؛ بسبب إعراضه عن القرآن، وهجره له. وتخليده في الوزر العظيم؛ لأنَّ العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها^(٢).

٣ - بس الحمل الذي يحمله، والعذاب الذي يعدُّ به؛ بسبب إعراضه عن القرآن، فمعنى قوله: ﴿وَسَاءَ لِمَنْ يَوْمَ آئِيَّتِهِ جَمَلًا﴾ [طه: ١٠١]. أي: وما أسوأ هذا الوزر جملاً بمعنى محمولاً^(٣). والمراد: بس الجمال يحملونه، والعذاب الذي يُعَذَّبونَه^(٤).

قال أبو السعود **تَكَلَّفَ**: «فيه ضميرٌ مُبهم، يُفسره جملاً، والمخصوص بالنم محذوف. أي: ساء جملاً وزرهم»^(٥).

طوائف أعرضت عن القرآن:

هناك طوائف كثيرة أعرضت عن القرآن الكريم، ومنها على سبيل الاختصار^(٦):

(١) انظر: التفسير الكبير (٩٨/٢٢)؛ تفسير البغوي (٢٣٠/٣)؛ تفسير أبي السعود (٤١/٦).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٢٥١/٣). (٣) انظر: التفسير الكبير (٩٩/٢٢).

(٤) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٥) تفسير أبي السعود (٤١/٦). (٦) انظر: الإيمان بالكتب (ص ٣٤ - ٣٧).

- ١ - الرافضة: وذلك بادّعائها أنّ القرآن ناقصٌ ومحرّف، وأنّ القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزّمان من سرداب سامراء! (١).
- ٢ - البابية والبهائية: وذلك بادّعائها نسخ القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية بشريعة الباب والبهاء (٢).
- ٣ - التيجانية: وذلك بتفضيلها أورادها وأذكارها - كصلاة الفاتح - على القرآن العظيم.
- فقد قالوا: إنّ قراءة صلاة الفاتح مرّة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرّة (٣).
- ٤ - خلاة الصّوفية: وذلك بادّعائهم العلم اللدنيّ الذي يوحى إليهم، ويفنيهم عن القرآن المجيد كما يزعمون، ثمّ إنّ مصدر التلقّي عندهم ليس القرآن والسنة بل يقوم على الرؤى والأحلام، والكشف، وسخ الشريعة، ورفع التكاليف، وغير ذلك ممّا يخالف ما جاء في القرآن (٤).
- ٥ - الفرق الباطنيّة: وذلك بانحرافهم في تأويل القرآن، وإغراقهم في التأويل الباطني، وإخراج القرآن عن معانيه وحقائقه الصّحيحة، وأدعاء بعضهم نسخ الإسلام (٥).
- ٦ - المشرّهون والقانونيون: الذين عرضوا عن تحكيم شريعة القرآن وعارضوها بزبالات أفكارهم، زاعمين أنّها لا تناسب العصر الحديث، ولا تفي بحاجاته (٦).

(١) انظر: الشيعة والسنة، لإحسان إلهي ظهير (ص ٧٨)؛ مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د. ناصر القفاري (١/٢١١ - ٢١٤).

(٢) انظر: البابية عرض ونقد، لإحسان إلهي ظهير (ص ١٠٤)؛ البهائية نقد وتحليل، لإحسان إلهي ظهير (ص ٢٢٢).

(٣) انظر: التيجانية، لعلي الدخيل (ص ١١٦ - ١٢٣).

(٤) انظر: التصوف المنشأ والمصادر، لإحسان إلهي ظهير (٢٦٠ - ٢٧٥). هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل (ص ٧٠).

(٥) انظر: كشف أسرار الباطنية، لابن أبي الفضائل الحماوي اليماني (ص ٥٠)؛ الحركات الباطنية، د. محمد بن أحمد الخطيب (ص ٦٦، ٣٤٩).

(٦) انظر: تحكيم القولين، لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص ١ - ٢٠).

وفي العالم الإسلامي نشأت أحزاب ومؤسسات علمانية - لا دينية -
أعرضت، وتعمل على أن يُعرض المسلمون عن القرآن الكريم عقيدةً وشريعةً،
وتَبَيَّنَتْ وسائلُ إعلامية مرئية ومسموعة وصحف ومجلات إبعاد الناس عن القرآن،
هذا عدا ما تفعله الماسونية وأنديتها - كالرُوتاري - في طول وعرض العالم
الإسلامي.

حُكْمُ التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ

كيف وصل القرآن إلينا:

القرآن العظيم نُقِلَ إلينا بطريق التواتر كتابةً في المصاحف، وحفظاً في الصدور، فقد كان هناك كتبةٌ للوحي يكتبون ما نزل على رسول الله ﷺ فإذا أنزلت سورةٌ أو آيةٌ بلغها نبينا الكريم ﷺ أصحابه ﷺ، وتلاها عليهم، وكتبها كتبةٌ الوحي، وكتبها من كتب لنفسه.

وما تُوفي رسول الله ﷺ إلا وكلُّ آيةٍ من آيات القرآن العظيم مُدَوَّنةً فيما اعتاد العرب أن يُدَوِّنوا فيه من الرِّقَاع ونحوها.

وكلُّ آيةٍ من القرآن الكريم كذلك محفوظة في صدور المئات من الرجال الأذكياء الأمانة، وأصبح ما يحفظونه في صدورهم مرجعاً للمسلمين في تلقي القرآن وروايته، بالإضافة إلى المكتوب منه.

وقد جمع أبو بكرٍ ﷺ - بواسطة زيد بن ثابت، وبعض الصحابة المعروفين بالحفظ والكتابة ﷺ جميعاً - تلك المدونات وضم بعضها إلى بعض وبالترتيب نفسه الذي كان رسول الله ﷺ يتلوها به وأصحابه في حياته، وصارت هذه الصحف وما في صدور الحفاظ هي مرجع المسلمين في تلقي القرآن وروايته. وقام على حفظ هذه المجموعة أبو بكرٍ ﷺ في حياته، وخلفه عليها عمر ﷺ.

ثم تركها عمر ﷺ عند ابنته حفصة أم المؤمنين ﷺ، وأخذها من حفصة عثمان ﷺ في خلافته، ونسخ منها عدة نسخ أرسلت إلى أمصار المسلمين.

وتناقل المسلمون القرآن كتابةً من المصحف المدون، وتلقياً من الحفاظ أجيالاً عن أجيالٍ في عدة قرون، وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ، ولا اختلف في لفظه مسلمان من ملايين المسلمين في مختلف قارات العالم، وهم

يقرؤونه منذ أربعة عشر قرناً ونيّفاً، فلم يختلف فيه فرد عن فرد، ولا أمة عن أمة
 بزيادة ولا نقص، ولا تغيير ولا تبديل، تحقيقاً لوعده الله ﷻ في حفظ القرآن
 الكريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].^(١)

مغزى التواتر:

ولا نزاع بين المسلمين في تواتر القرآن العظيم، ويترتب على كون القرآن
 متواتراً ثبوت حُجِّيَّتِهِ، أي أنّ القرآن الكريم قطعيّ الثبوت، فكلُّ نصٍّ نثله من
 نصوص القرآن المجيد هو النص الذي أنزله الله على نبيِّنا محمدٍ ﷺ من غير
 تحريف ولا تبديل.

ولذلك قال الأمدي^(٢) ثلاثاً: «اثقفوا على أنّ ما نُقل إلينا من القرآن نقلًا
 متواتراً وعلمنا أنه من القرآن حُجَّة»^(٣).

وبناء عليه: يجب الإيمان بالقرآن الكريم، وتصديقه، واتّباعه، والانقياد له،
 ويجب الإيمان بأنه كلامُ الله تعالى وتزيّله، ولا يُشبهه شيء من كلام الخلق، ولا
 يقدر على مثله أحدٌ من الخلق إنَّسهم وجنَّهم^(٤).

ما يعنيه إنكار القرآن:

إنّ الإيمان بالقرآن الكريم يتضمّن الإقرار به وتصديقه، ولا ريب أنّ إنكاره
 يُناقض هذا الإقرار والتصديق، فإنكاره يُناقض قول القلب وهو التصديق، كما
 يُناقض قول اللسان وهو الإقرار.

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن (ص ١٥٣ - ١٥٩).

مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص ١١٨ - ١٣٤)؛ المدخل للدراسة للقرآن
 الكريم، لمحمد أبو شهبة (ص ٢٦٠ - ٢٨١).

(٢) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن البغدادي، الأمدي، من أصحاب القاضي أبي يعلى،
 ومن كبار فقهاء الحنابلة في عصره، له مؤلفات منها: «عمدة الحاضر»، و«كفاية
 المسافر»، توفي سنة (٤٦٧هـ). انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٨ - ٩).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٣٨).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٩٧ - ٩٨).

وإنكاره كذلك يتضمّن إنكاراً لصفة الكلام الإلهي، ونفي هذه الصفة من الإلحاد في أسماء الله تعالى، وسوء الظنّ بالله تعالى، وعدم قدر الله تعالى حقّ قدره.

كما أنّ هذا الإنكار طعن في الرسول ﷺ وتنقُص له، ومشاقّة له، واتباع غير سبيل المؤمنين، وقد توعدّ الله تعالى من يفعل ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَرَتَّبَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ. جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهذا الإنكار أيضاً هو إنكار واستهزاء بشرائع الدين وأحكامه المتلقاة من هذا الوحي، والاستهزاء بالدين كُفر؛ لأنّ أصل الدين قائم على التّعظيم^(١).

الإجماع على كُفر من أنكر القرآن:

حكى أهل العلم الإجماع على كُفر من أنكر القرآن العظيم أو بعضه - ولو كانت آية واحدة، أو حرفاً واحداً - وممنّ حكى الإجماع:

١ - أبو عثمان الحدّاد^(٢) رحمه الله حيث قال: «جميع من ينتحل التوحيد متفقون: أنّ الجحد لحرف من التنزيل كُفر»^(٣).

٢ - ابن عبد البر^(٤) رحمه الله يحكي الإجماع قائلاً:

(١) انظر: نوافض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف (ص ٢٠١ - ٢٠٢).

(٢) هو أبو عثمان محمد بن صبيح الحدّاد المغربي، من فقهاء المالكية، كان عالماً بالسنن ولغة العرب، له ردود على المبتدعة، وكان عابداً صالحاً، توفي سنة (٣٠٢هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٢٠٥)؛ شذرات الذهب (٢/٢٣٨).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/١١٠٥).

(٤) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر التمري القرطبي المالكي، أبو عمر، الإمام، العلامة، حافظ المغرب، وصاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة (٣٦٨هـ). كان فقيهاً محدثاً عابداً ذنباً ثقةً مُتقناً مُتبحراً. صنّف تصانيف كثيرة، منها: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، و«الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، و«جامع بيان العلم وفضله»، و«الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار». توفي بمدينة شاطبة بالأندلس سنة (٤٦٣هـ). انظر: وفيات الأعيان (٧/٦٦)؛ سير أعلام النبلاء (١٨/١٥٣)؛ تذكرة الحفاظ (٣/١١٢٨)؛ شذرات انذهب (٣/٣١٤).

«وأجمع العلماء: أن ما في مصحف عثمان بن عفان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا، هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزَه، ولا تجلُّ الصلاة لمسلم إلا بما فيه...»
 وإنما حلَّ مصحف عثمان رضي الله عنه هذا المحل؛ لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، ولم يُجمعوا على ما سواه... ويبيِّن لك هذا أن مَنْ دفع شيئاً مما في مصحف عثمان كفره^(١).

٣ - ابن قدامة المقدسي^(٢) رحمته الله يحكي الإجماع أيضاً ويقول: «ولا خلاف بين المسلمين أجمعين: أن مَنْ جحد آية، أو كلمة مُتفقاً عليها، أو حرفاً مُتفقاً عليه أنه كافر»^(٣).

٤ - النووي رحمته الله يحكي الإجماع صراحة بقوله: «أجمعت الأمة: على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتنزيهه وصيانته. وأجمعوا: على أن مَنْ جحد منه حرفاً مُجمِعاً عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد، وهو عالمٌ بذلك فهو كافر»^(٤).

٥ - القاضي عياض رحمته الله يحكي إجماع المسلمين على كفر مَنْ أنكر القرآن، أو شيئاً منه فيقول: «اعلم أن مَنْ استخفَّ بالقرآن أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهما، أو جحد حرفاً منه، أو كذَّب بشيء مما صرح به فيه من حُكْم أو خَبْر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبتَه، وهو عالمٌ بذلك، أو شكَّ في شيء من ذلك، فهو كافرٌ بإجماع المسلمين...»

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ثم الدمشقي الصالح، الحنبلي، أبو محمد، مؤلف الدين، العلامة المجتهد، كان - مع تبخُّره في العلوم - ورعاً زاهداً كثير العبادة، حسن الأخلاق، له مؤلفات غزيرة مفيدة، منها: «المغني في الفقه»، و«روضة الناظر في أصول الفقه»، و«مسألة العلو»، و«ذمُّ التأويل»، و«فضائل الصحابة». توفي بدمشق سنة (٦٢٠هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/١٦٥)؛ البداية والنهاية (١٣/٩٩)؛ الذَّيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢/١٣٣)؛ شذرات الذهب (٥/٨٨).

(٣) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة (ص ٣٣).

(٤) المجموع (٢/١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٨)؛ التبيان (ص ٢٠٢).

وقد أجمع المسلمون: على أَنَّ القرآن المتلو في جميع الأقطار، المكتوب في المصحف الذي بين أيدي المسلمين ممَّا جَمَعَهُ الدُّفْتَانُ^(١) من أول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّي النَّاسِ﴾ [الناس: ١] كلامُ الله تعالى ووحيه، المُنَزَّل على نبيه محمد ﷺ، وأنَّ جميع ما فيه حقٌّ.

وأنَّ منْ نقص منه حرفاً، قاصداً لذلك، أو بدله بحرفٍ آخر مكانه، أو زاد حرفاً آخر ممَّا لم يشتمل عليه المصحف، الذي وقع عليه الإجماعُ، وأُجْمِع عليه أنه ليس بقرآن، عامداً نكلُ هذا، فهو كافر^(٢).

٦ - ابن بطة^(٣) رَتَّلَهُ حيث يقول: «... وكذلك وجوب الإيمان والتصديق بجميع ما جاءت به الرُّسُل من عند الله، وبجميع ما قاله الله عزَّ وجلَّ فهو حقٌّ لازم، فلو أنَّ رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرُّسُل إلا شيئاً واحداً، كان برِّد ذلك الشيء كافرأ عند جميع العلماء^(٤)».

ويقول أيضاً: «من كَذَبَ بآيةٍ أو بحرفٍ من القرآن، أو ردَّ شيئاً ممَّا جاء به الرسول ﷺ فهو كافر^(٥)».

٧ - ابن حزم^(٦) رَتَّلَهُ حيث قال: «... وإنَّ القرآن الذي في المصاحف

(١) جاء في «لسان العرب» (٤/٣٧١): «دَفَّتَا المصحف: جانباه وضماناه من جانبيه».

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١١٠١ - ١١٠٥).

وانظر: الآداب الشرعية (٢/٢٧٥)؛ كشاف القناع، لمنصور البهوتي (١/٤٣٣)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري، أبو عبد الله، المعروف بابن بطة، أحد علماء الحنابلة، فقيه، محدث، وله المصنفات الكثيرة الحافلة في فنون من العلوم. وكان متحن يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن مصنفاته الكثيرة: «السُّنن»، و«المناسك»، و«الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة». توفي بعكبرا سنة (٣٨٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٨٠)؛ البناية والنهاية (١١/٣٢١ - ٣٢٢)؛ طبقات الحنابلة، لأبي يعلى (ص ٣٤٦).

(٤) الإبانة الصغرى (ص ٢١١). (٥) المصدر نفسه (ص ٢٠١).

(٦) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس، ولد بقرطبة

بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فما بين ذلك، من أوّل أمّ القرآن، إلى آخر المعوّدتين كلامُ الله عزّ وجلّ ووحْيُهُ، أنزله على قلب نبيّه محمدٍ ﷺ، من كفر بحرفٍ منه فهو كافر^(١).

وفصل ابن حزم في مسألة إنكار القرآن قائلًا:

«مَنْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ نَقَصَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ حَرْفٌ، أَوْ زِيدَ فِيهِ حَرْفٌ، أَوْ بُدِّلَ مِنْهُ حَرْفٌ، أَوْ أَنَّ هَذَا الْمَسْمُوعَ أَوْ الْمَحْفُوظَ أَوْ الْمَكْتُوبَ أَوْ الْمُنزَّلَ لَيْسَ هُوَ الْقُرْآنَ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ الْقُرْآنَ، وَغَيْرَ الْقُرْآنَ، أَوْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ بِهِ جَبْرِيلُ ﷺ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ كَافِرٌ، خَارِجٌ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ»^(٢).

٨ - ابن تيميّة^(٣) كتّفه حيث قال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَقِصَ مِنْهُ، وَزِيدَ فِيهِ، وَكُتِمَتْ مِنْهُ آيَاتٌ، أَوْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ تَأْوِيلَاتٍ تُسْقِطُ الْأَعْمَالَ فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ»^(٤).

= سنة (١٢٨٣هـ). كانت له ولأبيه وزارةٌ تخلّى عنها زهداً فيها، وكان له آراءٌ انتقد من أجلها، وكان قويّ الحجّة، سليطاً على مخالفيه، له مصنّعات كثيرة، منها: «المغرب في تاريخ المغرب»، «الفصل بين أهل الأهواء والنحل»، «الأخلاق والسير»، «المحلّى». توفي بالأندلس سنة (٤٥٦هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٨٤)، وفيات الأعيان (١/٤٢٨)؛ تذكرة الحفاظ (٣/٣٢١).
(١) المحلّى بالأنار (١/٣٢)، مسألة (٢١).

(٢) الدرّة فيما يجب اعتقاده، لابن حزم (ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرّاني الحنبلي، أبو العباس، تقي الدّين ابن تيميّة، الإمام المشهود له برسوخ القدم في علوم النّقل والعقل، ولد في حرّان سنة (٦٦١هـ) وتحوّل إلى دمشق، ونبغ واشتهر وأصبح مرجعاً في الفتوى، وأفتى بمسائل أودّي من أجلها، وسُجن أكثر من مرّة، ومات في السّجن، كان آيةً في التفسير والأصول، فصيح اللسان، له مصنّعات كثيرة، منها: «درء تعارض العقل والنقل»، وقد جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ثلثة فتاواه في (٣٧ مجلداً)، توفي سنة (٧٢٨هـ).

انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٣٧)؛ تذكرة الحفاظ (٣/٢)؛ البداية والنهاية (١٤/١٣٢).
(٤) الضارم المسلول على شاتم الرّسول (٣/١١٢١).

٩ - ابن نُجَيْم الحنفي^(١) تَلَفَّهَ حيث كَفَرَ مَنْ أَنْكَرَ آيَةَ فَقَالَ: «وَيَكْفُرُ مَنْ أَنْكَرَ آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢).

أما بعد: فهذا هو إجماع علماء المسلمين على كُفْر مَنْ أَنْكَرَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، أَوْ كَذَّبَ بِهِ، أَوْ جَحَدَ مِنْهُ حَرْفًا، أَوْ زَادَ فِيهِ حَرْفًا، أَوْ بَدَّلَ حَرْفًا مِنْهُ بِحَرْفٍ آخَرَ مَكَانَهُ، عَامِدًا لِكُلِّ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

وهنا يبرز سؤال: لماذا كان الحُكْمُ مُجْمَعًا عَلَيْهِ بِلا هَوَادَة، وَإِنْ أَنْكَرَ حَرْفًا؟ لِأَنَّ الْقُرْآنَ رُوحَ الْأُمَّةِ، وَالتَّسَاهُلَ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ مُؤَدِّ لَاضْمِحْلَالِهَا.

(١) هو زين الدِّين بن إبراهيم بن محمد، المصري، الحنفي، الشهير بابن نجيم، فقيه أصولي، من تصانيفه: «الآشياء والنظائر»، و«شرح منار الأنوار في أصول الفقه»، و«البحر الرائق في شرح كنز الدقائق». توفي سنة (٧٤٠هـ).
انظر: الأعلام (٦٤/٣)؛ معجم المؤلفين (٧٤٠/١).
(٢) البحر الرائق في شرح كنز الدقائق (١٣١/٥).

المبحث السادس

أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حق.
- المطلب الثاني: كُفِرَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

المطلب الأول

علماء اهل الكتاب يعلمون يقيناً ان القرآن حق

إن علماء اهل الكتاب يعلمون علماً يقيناً ان القرآن حق، وأنه مُنزّل من الله تعالى على عبده ورسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، ومع ذلك كفروا بالقرآن العظيم، وبرسالة خاتم النبيين ﷺ الذي أرسله الله تعالى للناس كافة، بل وأخذ الله تعالى العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتابعوه إذا بُعث وهم أحياء، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ حِكْمَةٍ وَجِبْتُمْ عَنْهَا إِصْرًا إِذْ قَالُوا أَقْرَبُ إِلَيْنَا أَوْلَادُنَا وَإِنَّ آيَاتِنَا لَهُمْ مُعْجِزَاتٌ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ومع ذلك كنتموا - أي: علماء اهل الكتاب - هذه الأخبار وأمثالها عن أتباعهم، وحرّفوا بعضها، محافظةً على سلطانهم، وبغياً وحسداً لأمة القرآن، فكانوا في كفرهم على بينة من أمرهم، فضلّوا وأضلّوا كثيراً، وتحملوا أوزارهم إضافة إلى أوزار من تبعهم إلى يوم الدين.

ومع ذلك فهم يحتجّون علينا ببعض آيات من القرآن مما يوافق أهواءهم أو يستدلّون بالمتشابهة - كعادتهم - ويتركون المحكم البين، وحديثنا عن آيات مُحكمات من القرآن العظيم تُوضّح وتبيّن وتُفصّح أن علماء اهل الكتاب كانوا يعلمون يقيناً ان القرآن حق ومن عند الله تعالى، وفيما يلي بعض الأدلة الدالة على ذلك، وهي على النحو الآتي^(١):

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا بَعَثْنَا فِي نَبِيِّكَ مِنَّا وَإِنَّا لَأَنزَلْنَا فِيهِ آيَاتٍ لِّتُؤْمِنُوا بِهِ وَمَا تَكْفُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٠].

(١) انظر: رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، د. محمد جمعة عبد الله (ص ٢٠١ - ٢٠٤).

أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِهَاتِي نَمًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ قَاتِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٢].

وردت هذه الآيات الكريمة في سياق الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن كما سبق ذكره، ونأخذ منها ما له صلة بالموضوع الذي نحن بصدده.

فإن الله تبارك وتعالى قال لليهود - الذين هم في عصر نزول القرآن -: ﴿وَمَا يَسُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: من التوراة، وإنما عبّر عنها بذلك للإشارة إلى أن هؤلاء اليهود عرفوا التوراة وصاحبها طويلاً، فهم إذاً على علم يقيني بما في تضاعفها يؤدي إلى معرفة تصديق القرآن لها.

قال أبو السعود تَلَفُّةً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: لا تُسارعوا إلى الكفر به، فإنّ وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به؛ لما أنكم تعرفون شأنه وحقيقته بطريق التلقي ممّا معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم، وقد كنتم تستفتحون به وتستبشرون بزمانه - كما سيجيء - فلا تضعوا موضع ما يُتوقع منكم ويجب عليكم ما لا يُتوهم صدوره عنكم من أول كافر به^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِهَاتِي نَمًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا ببيان صفة محمد ﷺ غرضاً يسيراً من الدنيا؛ وذلك أنّ رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يُصيبنونها من سفلتهم وجهالهم، يأخذون منهم كل عام شيئاً معلوماً من زروعهم وضروعهم ونقودهم؛ فخافوا إن هم بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أنّ نفوتهم تلك المآكل؛ فغيروا نعته وكنموا اسمه، فاختراروا الدنيا على الآخرة^(٢). فهؤلاء الحمقى خالفوا أيسر قواعد الاقتصاد؛ لأنّ المعروف أنّ الإنسان يدفع الثمن ليأخذ ما هو أنفع له وأهز، وهؤلاء دفعوا الأكثر وأخذوا القليل فوقعوا في البخس. ثمّ نهاهم الله تعالى عن شيئين: عن خلط الحقّ بالباطل، وكتمان الحقّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ قَاتِلُونَ﴾ فنهاهم الله تعالى أن

(١) تفسير أبي السعود (١/٩٥ - ٩٦).

(٢) تفسير البغوي (١/٤٢).

(٣) اللبّس: هو الخلط، يقال: لبّس الثوب بلبّس لبّساً، ولبّس عليه الأمر بلبّس لبّساً، أي:

خلط. والمعنى: لا تخلطوا الحقّ بالباطل.

يخبطوا الحق الذي أنزله عليهم - من صفة محمد ﷺ - بالباطل الذي يكتبونه بأيديهم، من تغيير صفة محمد ﷺ^(١).

قال البغوي تَلَفُظَةً: «والأكثرون على أنه أراد: لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية»^(٢).

وفي هذا دليل على: أن أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق، ومن عند الله تعالى، ومع ذلك تركوا الإيمان به، وهجروه، واستعاضوا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا فبس ما يشترون.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بِتَنَزُّهِتٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَفُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبْلَهُمْ يَضْطَرُّ عَلَى غَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (البقرة: ٨٩ - ٩٠).

الكتاب: هو القرآن العظيم. وتنكيره: للتخميم. ووصفه بأنه من الله تعالى: للتشريف^(٣).

ذكر المفسرون أن اليهود قبل مبعث النبي ﷺ كانوا يستنصرون على مشركي العرب، فكانوا يقولون - إذا حزبهم أمر، ودهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ - يعني محمداً ﷺ - من غير بني إسرائيل، وعرفوا نعتة وصفته ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ بغياً وحسداً^(٤).

والشاهد: أن أهل الكتاب قد علموا سلفاً بمبعث النبي ﷺ، وتيقنوا ذلك لاستنصارهم بهذا النبي، وتوعددهم بخروجه، فلما جاءهم هذا الكتاب، والنبي

= انظر: تفسير الطبري (١/٢٥٤)، تفسير البغوي (١/٤٢).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٥٦). (٢) تفسير البغوي (١/٤٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٢٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١/٤١٠)؛ تفسير ابن كثير (١/١٢٥)؛ تفسير البغوي (١/٧٦).

الذي عرفوا، كفروا به بغياً وحسداً؛ لأنه كان من غير بني إسرائيل.

الدليل الثالث: قال تعالى - إfachاماً لهم: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

والمعنى: لأي سبب تكفرون بآيات الله تعالى، التي هي آيات القرآن، وقد بشرت التوراة والإنجيل بالرؤسول ﷺ ودلت على نبوته، والحال أنكم تعلمون صدق هذه الآيات، وتشهدون أنها من عند الله تعالى^(١).

وهذا يدل بوضوح على أن علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقينياً أن القرآن حق ومن عند الله، فقامت الحجة بذلك عليهم.

الدليل الرابع: قال تعالى - إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: ﴿أَفَصَبْرًا لِمَا أَتَيْنَا مِنْ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ مِنْكُمْ وَإِنَّا نَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

والمعنى: قل - يا محمد - لهؤلاء القوم: عجباً لكم! أأضل عن الصراط المستقيم، فأطلب حكماً سوى الله ليحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق من المبطل، والحال أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن مبيّناً فيه الحق والباطل، وما أنتم في حاجة إليه في دينكم ودنياكم^(٢).

ثم أكد حقيقة نزول القرآن من عند الله تعالى، وحقيقة ما فيه، فذكر - وهو الشاهد معنا هنا - أن الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن منزل حقاً عليك من ربك، مشتملاً على الحق، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. أي: نزل إلينا كما هو لم يتغير فيه حرف.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: فلا تكونن من الشاكين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق، ولا يُربك جحود أكثرهم وكفرهم به؛ لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مردّه البغي والحسد، والحرص على

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١/٤٥٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/١٧٦)؛ تفسير السعدي (٢/٦١).

مظاهر الحياة^(١)، وإذا نُهي المؤيّد بالوحي عن ذلك، فأولى بأمره.

وهذا النهي زيادةً في التأكيد، وتثبيت اليقين كي لا يجول في خاطره طائف من التردد في هذا اليقين، وإلا فهو - ﷺ - كإخوانه المرسلين على حجة واضحة من أمر ربه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧].

الدليل الخامس: قال تعالى - مُقيماً الحجة عليهم من جنسهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَنْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

قال أبو السعود رحمته في تفسيرها: «هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتاب الموعود في الثوراة والإنجيل ﴿وَمِنَ الْأَنْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم، وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة نحو كعب بن الأشرف، والسيد العاقب، أسقفي نجران، وأتباعهما ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو الشرائع الحادثة إنشاءً أو نسخاً، لا ما يوافق ما حرّفوه وإلا لنعى عليهم من أول الأمر، أنّ مدار ذلك إنما هو جنائيات أيديهم، وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه، وإن لم يفرحوا به^(٢)».

فهذا يدلُّ بوضوح على أنّ الذين أعطوا علم الكتب المنزلة من شأنهم أنّ يفرحوا بالكتاب الذي أنزل بعد ذلك؛ لأنه امتداد للرّسالة الإلهية، ولا يفرح بالشيء إلا من يعلم يقيناً أنه حقٌّ لا كذب. أمّا مَنْ يتخذون التدين تحزباً وتعصباً ينكرون بعض ما أنزل عداوةً وعصيةً، فقامت عليهم الحجة بذلك.

الدليل السادس: قال تعالى - مبشراً به: ﴿وَأَنذَرْنَا لَكُمْ أَنَّ الْأُولَيْنَ ﴿١﴾ أَوْلَىٰ يَكُنْ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الشعراء: ١٩٦ - ١٩٧].

بشّرت بالقرآن العظيم كتبُ الأولين وصدقته، فنزل طبق ما أخبرت به، ففي ذكر القرآن في كتب المُتقدِّمين دليل على صحته، وأنه من عند الله تعالى.

ثم أقام الحجة على قريش بقوله: ﴿أَوْلَىٰ يَكُنْ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ على صحته، وأنه

من الله تعالى: ﴿أَنْ يَلْمَهُمْ عَلْمًا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الإنصاف. وكان الظنُّ الإيمان به؛ لأنَّ علماء بني إسرائيل يعلمون أنه الحق.

فإنَّ كلَّ شيء يحصل به اشتباه، يُرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حُجَّة على غيرهم. كما عرَّف السُّحرة - الذين مهروا في علم السُّحر - صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر. فقول الجاهلين بعد هذا، لا يؤبه به^(١). وفي الآية دليل على: أنَّ علماء بني إسرائيل يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حقٌّ ومن عند الله تعالى، ومع ذلك تنكَّروا له، وتركوا الإيمان به، فتركَ أكثر بني إسرائيل الإيمان به وهجروه، بغياً وحسداً.

الدليل السابع: قال تعالى - مؤكداً ذلك: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَلَئِنَّا بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلُّوا مَأْمَنًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِمْ مُشْرِكِينَ ﴿٥٢﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصر: ٥٢ - ٥٤].

أخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وصدقه وأنَّ أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويُقرُّون بأنَّه الحقُّ.

فالمقصود بـ ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هم علماء أهل الكتاب، الذين لم يُغيروا، ولم يُبدلوا، بل آمنوا بالقرآن الكريم وبمن جاء به.

﴿وَلَئِنَّا بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له، وأذعنوا وقالوا: ﴿مَأْمَنًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾؛ لموافقته ما جاءت به الرُّسل، ومطابقتها لما ذُكِرَ في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، الموافقة للحكمة.

وهؤلاء هم الذين تنفع شهادتهم، وينفع قولهم؛ لأنَّهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنَّهم أهل الخبرة والدراية الحقَّة، وهو شاهدنا من إيراد الدليل.

وغيرهم لا يَدُلُّ رُدُّهم ومعارضتهم للحقِّ على شبهة فضلاً عن الحُجَّة؛ لأنَّهم ما بين جاهلي فيه، أو مُتجاهلي معاند للحقِّ.

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكليبي. تفسير السعدي (٤٨٦/٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا مِثْرًا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِينَ سُبْحَانَا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

ولذلك قال أهل الخبرة والدراية من أهل الكتاب: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾^(١) فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان والإسلام، فصدقنا بهذا القرآن. ولسان حالهم يقول: آمنا بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

ولذلك فإن الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتُونَ لُجْرَتَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(٢) أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني؛ بسبب صبرهم على الإيمان، وثباتهم على العمل الصالح - وهذا من عظيم البلاء - ولذلك لم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولم تشنهم عن الإيمان، رياسة ولا شهوة؛ فاستحقوا هذا التكريم العظيم من رب العالمين^(٣).

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ بَدَأْتُ بِإِن كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَسَيِّدٌ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحاف: ١٠].

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني عن حالكم، إذا كان القرآن من عند الله - لا سحر، ولا مفترى كما تزعمون - وشهد شاهد عظيم الشأن من بني إسرائيل على أنه من عند الله تعالى، فأمن بلا تردّد، واستكبرتم عن الإيمان، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم وأشدّ الكفر؟ وهو الاستكبار عن الحق بعد الثمّن منه^(٤).

فالمراد بالشاهد هنا: هو الجنس، فيشمل كل من كان على هذه الصفة من اليهود والنصارى^(٥). وإن قال سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه: «ما سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَلَامٍ:

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/٣٠ - ٣١).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨/٨٠)؛ تفسير السعدي (٥/٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٥٧).

قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ نَبِيِّهِ...﴾ (الأحاف: ١٠) الآية^(١).

فهذا لا يعني التخصيص، وإنما هو فرد من أفراد العموم، فيشمل لفظ شاهده كلُّ من كان من أهل الكتاب على صفة عبد الله بن سلام ﷺ في الإيمان بالقرآن العظيم، والنبي الكريم ﷺ.

المطلب الثاني

كُفِّرَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

إنَّ أهل الكتاب - مع جزم علمائهم بأنَّ القرآن حقٌّ، كما سبق ذكره - ينكرون حسداً وبغياً نسخَ القرآن العظيم لشريعتهم، ويدَّعون أنَّ من مات منهم على يهوديته، أو نصرانيته في عهد الرِّسالة المحمَّدية فهو مؤمن، وناجٍ من عذاب الله تعالى، وإنَّ لم يؤمن برسالة محمدٍ ﷺ، ويكتابه الكريم.

ولا ريب أنَّ هذا افتراءٌ كاذب، وأدعاءٌ باطل، ليس له مستند من الصَّحفة، بل الكثرة الكاثرة من الآيات القرآنية تُكذِّبه، فقد توالى البيِّنات الشاطعات على أنَّ رسالة محمدٍ ﷺ وكتابه العظيم جاءا لعقلاء العالمين عامَّة، وللشَّركاء، وأصبح ذلك معلوماً من الدِّين الإسلامي بالضرورة، وصار من المقطوع به أنَّ الشريعة المحمَّدية ناسخةٌ للشريعة اليهودية والمسيحية، وغيرهما من الشرائع السماوية، فمن لم يؤمن من أهل الكتاب وغيرهم برسالة محمدٍ ﷺ، وبالقرآن العظيم، إيماناً إذعاناً وانقياداً فهو كافر ومخلدٌ في النار، وفيما يلي بعض النصوص الدالة على ذلك، وهي على النحو الآتي^(٢):

النَّصُّ الْأَوَّلُ: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقَمْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفْرَيْنِ ﴿٨١﴾ بِسْمَا أَشْرَقُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام ﷺ (١١٦٦/٣) (ح ٣٨١٢).

(٢) انظر: رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم (ص ٢١٣ - ٢٢٤).

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. عَلَنَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوهُ بِمَنْصِبٍ عَلَىٰ غَسَبٍ ۗ وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا آتَيْنَا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْهُنٌ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَكُنُفُوتٌ بِمَا وَرَأَهُمْ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴿البقرة: ٨٩ - ٩١﴾.

لَمَّا كَانَ الْيَهُودَ الْمَعَاصِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَعْرِفُونَ حَقًّا أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمُبَشِّرُ بِهِ فِي التَّوْرَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا، فَقَدْ بَاعُوا حَظَّهُمُ الْحَقِيقِي - وَهُوَ الْإِيمَانُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - وَاسْتَبَدَّلُوا بِالْإِيمَانِ الْكُفْرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَهُمْ قَدْ اسْتَحَقُّوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى غَضَبًا جَدِيدًا عَظِيمًا؛ لِكُفْرِهِمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، أَضِيفَ هَذَا الْغَضَبُ فِي مِيزَانِ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى غَضَبِ اسْتَحْقَوهُ - مِنْ قَبْلِ - لِتَضْيِيعِ التَّوْرَةِ، وَالْكُفْرِ بِعِيسَى ﷺ.

«قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٌ: الْغَضَبُ الْأَوَّلُ بِتَضْيِيعِهِمُ التَّوْرَةَ وَتَبْدِيلِهِمْ، وَالثَّانِي: بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ.»

وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَوَّلُ بِكُفْرِهِمْ بِعِيسَى وَالْإِنْجِيلِ، وَالثَّانِي بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ^(١).

فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ غَضَبًا بَعْدَ غَضَبٍ؛ لِكَثْرَةِ كُفْرِهِمْ، وَتَوَالِي شُكْهِمْ وَشُرْكَهِمْ.

وَوُصِفَ عَذَابُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ بِأَنَّهُ «مُهِينٌ» مَأْخُودٌ مِنَ الْهَوَانِ، وَهُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يُخْلَدُ مِنْ عَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّمَا عَذَابُهُ كَعَذَابِ الَّذِي يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ، لَا هَوَانَ فِيهِ، بَلْ هُوَ تَطْهِيرٌ لَهُ، كَرَجْمِ الزَّانِي، وَقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ^(٢).

فَلَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبَهُ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ، وَمِنْشَأُ ذَلِكَ التَّكْبِيرُ، قُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالضُّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَذْيَانَ يَنْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

(١) تفسير البغوي (١/٧٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٩)؛ تفسير الثعالبي (١/٨٨ - ٨٩).

سَيَحْلُونَ جَهَنَّمَ دَلِجِرِينَ ﴿ [غافر: ٦٠]. أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال:

«يُخَشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ امْتِثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ، يُسْفُونَ مِنْ حُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طَيِّبَةَ الْخَبَالِ»^(٢).

ومن تكبرهم أنهم إذا قيل لهم آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لا نؤمن به، ويدعون أنهم لا يؤمنون إلا بالذي أنزل عليهم، وهو التوراة، مع أن القرآن هو الحق المصدق لما في التوراة التي أنزلت عليهم.

وشاهدنا في هذا النص: أن كفرهم بالقرآن كفرٌ بالتوراة نفسها؛ إذ الكلُّ من عند الله تعالى، والكافر بذلك مخلدٌ في النار.

النص الثاني: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿ [البقرة: ٩٧ - ٩٩].

فاليهود لم يقتلوا الأنبياء، ويحرفوا التوراة، ويشتروا آيات الله نمناً قليلاً من حطام الدنيا فقط، بل زادوا على هذه الجرائم جريمةً أخرى، وهي: عداوتهم للملائكة، فأضرموا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله تعالى، جبريل صلى الله عليه وسلم، الذي نزل بوحى القرآن.

وقد أجمع المفسرون: على أن هذه الآيات نزلت جواباً لليهود، الذين زعموا أن جبريل عدوٌ لهم، وأن ميكائيل وليٌ لهم، وذلك بعد مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة^(٣). ومما جاء في هذه المناظرة:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أقبلت يهودٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٦).

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٥٥) (ح ٢٤٩٢) وقال: «حديث حسن صحيح».

وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/٣٠٤) (ح ٢٠٢٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٥٦٦)؛ تفسير البغوي (١/٧٩)؛ تفسير ابن كثير (١/٢٨٧).

القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء. فإن أنبأتنا بهن، عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيهم، إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل...

[قالت يهود:] إنما بقيت واحدة وهي التي تبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام» قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر، لكان. فأنزل الله عليه: «من كانت عدواً لجبريل» إلى آخر الآية [البقرة: ٩٧] (١).

ومعنى الآيات التي معنا: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، هو وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوك: إن هذا الزعم منكم، تناقض وتهافت، وتكبر على الله تعالى.

فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل القرآن من عند الله عز وجل على قلبك، وهو الذي نزل على الأنبياء قبلك، والله تعالى هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

وهذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدقاً لما تقدمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض.

فالعداوة لجبريل، الموصوف بذلك، كفر بالله وآياته، وعداوة لله ورسله وملائكته. فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله تعالى من الحق على رسوله ﷺ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٧٨/١) (ح ٢٥١٤) (٣١٠/١) (٢٥١٤). وقال محققو المسند (٢٨٥/٤) (ح ٢٤٨٣): «حديث حسن». ورواه الترمذي مختصراً (ح ٣١١٧) وقال: «حسن صحيح». وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٤١/٨ - ٢٤٢): «رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات». وصححه أحمد شاكر في «تعليقه على المسند» (ح ٢٤٨٣، ٢٥١٤)، و«تعليقه على تفسير الطبري» (ح ١٦٠٥).

وله شاهد من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري: (ح ٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠).

ف فعلهم وقولهم القبيح يتضمن الكفر والعداوة: للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه^(١).

قال الشوكاني رحمه الله: «العداوة من العبد: هي صدور المعاصي منه لله، والبغض لأوليائه. والعداوة من الله للعبد: هي تعذيبه بنزبه، وعدم التجاوز عنه والمغفرة له»^(٢).

وفي هذه الآيات توبيخ لليهود، وبيان لكفرهم لتكذيبهم بالقرآن العظيم، وفيها إخبار من الله عز وجل لهم: أن من كان عدواً لمحمد ﷺ فإله له عدو، وهو من الكافرين بالله، الجاحدين بآياته، الخارجين عن دينه وشرعه وهديه، المتمردين على آياته وأحكامه^(٣)، وهؤلاء هم أصحاب النار، وهم فيها خالدون.

النص الثالث: قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ عَلَيْكَ أَلَيْسَ بِالْحَقِّ مَصِيدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالْإِنجِيلَ ﴿١﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِقَائِهِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤].

قال أبو السعود رحمه الله: «المراد بالوصول: إما أهل الكتابين، وهو الأنسب بمقام المحااجة معهم. أو جنس الكفرة، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً»^(٤).

وقد أيد ابن عاشور رحمه الله كلام أبي السعود، فقال: «وشمل قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة؛ لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله - هنا - لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله؛ لأنه مُعْجزة. وعبر عنهم بالوصول إيجازاً؛ لأن الصلة تجمعهم»^(٥).

فأهل الكتاب كذبوا بالقرآن أصالةً، وبسائر الكتب الإلهية تبعاً؛ لأن التكذيب بالمصدق - وهو القرآن - موجب لتكذيب ما يُصدقه حتماً وأصالة وهو الثروة والإنجيل - فعاد التكذيب على جميع الكتب المُتْرَلة.

ولذا حَكَمَ اللهُ تعالى عليهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فهم

(٢) تفسير الشوكاني (١/١٨٣).

(٤) تفسير أبي السعود (٢/٥٠).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٧٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٥٧٧).

(٥) التحرير والتنوير (٣/١١).

جحدوا القرآن وأنكروه وردّوه بالباطل، فاستحقّوا بهذا، الكفر في الدنيا، ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة، لا يقادر قدره. وحسبنا أن الله تعالى وصف عذابهم بأنه شديد، فالجزء من جنس العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ فهذا اعتراض تذييلي، مقرر للوعيد، ومؤكّد له، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَقْصِدِكُمْ﴾ [القمر: ٤٢]. فإله تعالى عزيز: أي منيع الجناب عظيم السلطان.

والله تعالى ذو انتقام: أي يمتنّ كذب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام^(١).

وفي الآية دليل على: أن الذي كذب بالمصدق - وهو القرآن - مكذب من باب أولى بما يصدّقه - وهو التوراة والإنجيل - فعاد تكذيبهم على جميع كتب الله تعالى، وهو عين الكفر، فاستحقّوا به هذا العذاب الشديد، من عزيز ذي انتقام سبحانه، فهو قادر لا يغلبه شيء، متقمّ ممن يستحقّ الانتقام.

النص الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْأَسْوَءِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩].

والمعنى: إن الذين الحقّ المرضي عند الله تعالى هو الإسلام، ولا يقبل من أحد سواه، وهو أتباع الرّسل فيما بعثهم الله به في كلّ حين، حتّى ختموا بمحمد ﷺ، فمنّ لقي الله - بعد بعثته محمد ﷺ - بدين على غير شريعته فليس بمتقبّل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فانحصر الدين المتقبّل عند الله في الإسلام: وهو التوحيد الخالص من شوائب الشّرك، وإخلاص العبادة لله وحده، والتزام أوامره ونواهيه، وتشريعاته^(٢).

ومن أجل ذلك ذمّ الله تعالى اليهود والنصارى لاختلافهم في أمر الإسلام،

(٢) انظر: المصدر نفسه (٢/٢٨).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٤٥).

فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل؛ وذلك لأن الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة، كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض^(١).

﴿وَمَنْ﴾ في الآية الكريمة من صيغ العموم، فاليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الكتب، ويكفرون ببعضها، ويؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم لا يُعتد بإيمانهم، إذ الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل؛ لأنه لو آمن إيماناً صحيحاً بنبيه وكتابه، لآمن بمحمد ﷺ وكتابه المُبشّر به عندهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

فالإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى الثقلين، فمن كفر بنبوة نبي - حسداً أو عصبية، أو طمعاً في حظوظ دنيوية، أو حرصاً على جاه أو سلطان - فقد كفر بسائرهم.

فلو آمن اليهود بموسى حقيقة لآمنوا بمحمد ﷺ، ولو آمن النصارى بيسى حقيقة لآمنوا بمحمد كذلك؛ فهو مذكور في كتبهم، ومُبشّر به عندهم، ومصدق لما معهم.

والشاهد الذي معنا: أن من يكفر بهذه الكتب أو ببعضها - وخاصة القرآن الكريم - فقد ضلّ عن الصراط المستقيم، وأوغل في الضلال وأبعد فيه، ولذلك جاء وصفه في نهاية الآية: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

ومعنى ﴿ضَلَّ﴾: «أي سار على غير هدى، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود، يُقال: ضلّ الطريق، والذي ﴿ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ هو من يذهب إلى متاهة بعيدة، والمقصود بها: متاهة الكفر.

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه، أما الضلال البعيد والغرق في

ماتة الكفر فمن الصعب استداركه^(١).

وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق القرآن، وسلك الطريق الموصلة له إلى نار جهنم - وهو الكفر بالقرآن والعبادة به - وهذا ما تورط فيه من كفر من أهل الكتاب بالقرآن العظيم.

النص السادس: قوله تعالى: ﴿لَرَى بَعْضُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَدَبِّرِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُفْهًا مُّطَهَّرَةً ۗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۗ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ (البينة: ١ - ٤).

إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي قَلْبِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۗ﴾ (البينة: ٦).

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - ومن المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام متروكين هملًا بدون إرشادهم إلى الحق، وإقامة الحججة الواضحة عليهم، وهذه الحججة الواضحة هي: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ، يتلو قرآنًا عن ظهر قلب - لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب - صار فيما بعد مكتوبًا في صحف منزّهة عن الباطل والتحريف، فيها آيات مستقيمة لا عوج فيها.

فالمراد بالرسول هنا قطعاً هو محمد ﷺ؛ لأنه هو الذي أرسل إلى جميع البشر من أهل الكتاب والمشركين، وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ وكتابه، وصاروا في ذلك شينياً وأحزاباً إلا من بعد ما جاءتهم الحججة الواضحة الدالة على صدق رسالته ﷺ، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم.

قال أبو السعود رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ إلخ كلام مسوق لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة، وتغليظ جناباتهم بيان أن ما نُسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه في الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وتبين الحال، وانقطاع الأعدار بالكلية، وهو السر في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكّنهم من مطالعته والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار، التي من جملتها نعت النبي ﷺ^(٢).

(٢) تفسير أبي السعود (١٨٤/٩).

(١) تفسير الشراوي (٢٧١٦/٥).

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده لا يَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة»^(١) يهوديًّا وَلَا نصرانيًّا، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»^(٢).

وقد أكد الله تعالى - في الآية السادسة من هذه السورة - أن الكافرين بالقرآن العظيم ورسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب والمشركين خالدون في نار جهنم، وبئس القرار، جزاء كفرهم، بعد ما جاءتهم البيّنة، وأنهم شرُّ الخلائق؛ لأنهم عرفوا الحقَّ وتركوه، فحسروا الدنيا والآخرة، وبذلك استحقوا أشدَّ العذاب.

وهكذا نجد دعوة الإسلام قائمة بحججها الواضحة القويّة المتواترة على أهل الكتاب في مشارق الأرض ومغاربها، وأنهم مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه الذي هو حُجَّةٌ عليهم، كما هو حُجَّةٌ على غيرهم، وأن من لم يؤمن بذلك إيمان إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلدٌ في النار.

(١) المقصود بهذه الأمة: أمة الدعوة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/١٣٤) (ح ١٥٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل الثاني

هجر تعظيم القرآن

(الاستهزاء به)

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء.

المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن.

المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن.

المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف.

المبحث الأول

تعريف الاستهزاء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الاستهزاء.

المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء.

المطلب الاول تعريف الاستهزاء

أولاً: «الاستهزاء» لغة:

جاء الاستهزاء في اللغة مصدراً مشتقاً من الفعل (هزأ)، وقد ذكر جماعة من علماء اللغة لهذا الفعل ومشتقاته استعمالاً عديدة، وسوف نعرض للمعاني التي تتعلق بموضوع البحث على النحو الآتي:

١ - السُّخْرِيَّة:

يقال: استهزأ: سخر. والهُزءُ والهُزُّ: السُّخْرِيَّةُ^(١).

٢ - الإسراع:

يقول الزمخشري - في بيان أصل كلمة الاستهزاء: «والاستهزاء: السُّخْرِيَّةُ والاستخفاف، وأصل الباب الخفَّة - من الهُزءِ وهو القتل السريع - وهزأ يهزأ: مات على المكان... وناقته تهزأ به؛ أي تُسرِعُ، وتخفُّ»^(٢).

٣ - المزح في خُفْيَةٍ:

يقال: الهُزءُ: مزحٌ في خُفْيَةٍ، وقد يُقال لما هو كالمزح^(٣).

وكلمة (استهزأ) تتعدى بـ (الباء) وتتعدى بـ (مز)؛ فيقال: استهزأتُ به ومنه. ولذا جاء في مختار الصحاح: «هزئ منه وبه»^(٤).

خلاصة المعنى اللغوي:

بقول الزمخشري يتضح أصل الكلمة، ألا وهو: طلب الخفَّة. والمعاني المذكورة - آنفاً - لا تخرج عن هذا الأصل:

(١) انظر: لسان العرب (٨٤/١٥)، مادة: (هزأ).

(٢) أساس البلاغة، للزمخشري (ص ١٠٤ - ١٠٥).

(٣) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأحمد بن يوسف الحلبي (٢٨٩/٤).

(٤) مختار الصحاح (ص ٣٣٩).

فأما المعنى الأول: وهو السُّخْرِيَّة، فمقصدها الاستخفاف بمن يسخر منه.
وأما المعنى الثاني: وهو الإسراع، ومنه موت الفجأة، فلا يخرج عن أصل
الهُزء: الخفة. فموت الفجأة موت سريع، يموت فيه الإنسان في مكانه في خفة
وسرعة.

وأما المعنى الثالث: وهو المزح في خفية، فهو مزح غير واضح المعالم،
لا يدري سامعه هل هو ملاطفة أم أذية؟ وذلك لأنَّ المستهزئ - أحياناً - يلجأ إلى
أسلوب المزاح في استهزائه، لكنَّه مزاح خفي لا تتضح معالمه اتِّضاحاً جلياً.
وكذلك ما هو كالمزح^(١).

والفرق بين المزاح والاستهزاء: هو أنَّ المزاح يكون دون أذية، وأما
الاستهزاء فهو بأذية^(٢).

وبناء على ما تقدَّم: يكون معنى الاستهزاء هو الاستخفاف.

ثانياً: «الاستهزاء» اصطلاحاً:

بما أنَّ السُّخْرِيَّة مقاربةٌ لمعنى الاستهزاء مقاربة كبيرة؛ فسأورد هنا قول أبي
حامد الغزالي ثلثةً في تعريفه للسُّخْرِيَّة قائلاً: «ومعنى السُّخْرِيَّة: الاستهانة
والتحقير والتشبيه على العيوب والثَّقائص على وَجْهِ يَضْحَكُ منه، وقد يكون ذلك
بالمحاكاة في الفعلِ والقولِ، وقد يكون بالإشارة والإيماء»^(٣).

ولقد اعتمد الألويسي ثلثةً تعريفَ الغزالي في تعريفه للاستهزاء^(٤).

علماً بأنَّ ما اعتمده الألويسي في تعريف الاستهزاء هو قول الغزالي السابق
في السُّخْرِيَّة، ولكن الألويسي جعله في الاستهزاء؛ لأنَّ السُّخْرِيَّة والاستهزاء
يؤدِّيان معنى متقارباً.

«السُّخْرِيَّة إذن؛ أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة»^(٥).

(١) انظر: الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعاته، سامي بن وديع عبد الفتاح
(ص ١٤).

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١١٧/٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٢٧٧/٣). (٤) انظر: روح المعاني (١٤٦/١).

(٥) أسلوب السُّخْرِيَّة في القرآن الكريم، د. عبد الحلیم حنفي (ص ١٥).

المطلب الثاني

الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء

وردت في القرآن العظيم ألفاظٌ تقرب من معنى الاستهزاء، فمنها ما هو قريب جداً من معنى الاستهزاء، ومنها ما هو أقلُّ قرباً، ولا يدلُّ على الاستهزاء إلاً بقرينة، والقصد من إيرادها هنا هو دلالتها المباشرة على معنى الاستهزاء، إذ الاستهزاء بكلام الله تعالى وأوامره ونواهيهِ وَرَدَ بصيغٍ وألفاظٍ مختلفة، الحدُّ المشترك فيها: هو ترك تعظيم الوحي المنزَّل من الله تعالى، والاستهانة بالمرسلين من عباده الذين اصطفاهم.

وتُجمل هذه الألفاظ على النحو التالي:

١ - السُّخْرِيَّة.

٢ - الضُّحْك.

٣ - الغمز.

٤ - اللَّعْب.

٥ - الخوض.

٦ - اللَّمَز.

وفيما يلي عرض لهذه الألفاظ في ضوء السِّياق القرآني، والقصد منه هو بناء تصوُّر واضح حول معنى الاستهزاء من خلال آيات القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة، ويتمُّ تسليط الضُّوء فيها على اللَّفظة القرآنية المرادة فقط خشية الإطالة^(١).

أولاً: السُّخْرِيَّة:

* يقول تعالى عن نوح عليه السلام مع قومه: ﴿وَوَضَعُوكَ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٧٨﴾ فَسَوْفَ نَقْتُلُوكَ مِنْ بَأْسِنَا عَذَابٍ مُتَجَرِّدٍ وَنَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابَ مُقِيمًا﴾ [هود: ٢٨ - ٢٩].

(١) انظر: الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعائه (ص ١٦ - ٢٣).

والذي يراد من الوقوف عند معنى الآية الكريمة - في هذا المقام - هو تسليط الضوء على عبارة: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

ومعنى ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: استهزؤوا به.

يقول الراغب الأصفهاني رَحْمَةُ: «سخرت منه، واستسخرته، للهزاء منه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ﴾»^(١).

فقوم نوح ﷺ يستهزئون به؛ لأنه يصنع السفينة وينذرهم بأن الله تعالى سيقرق الكافرين.

وبالجهة المقابلة، نوح ﷺ يقول لقومه: إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي وَمِنَ الَّذِينَ مَعِيَ لَقَدْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ غَيْرُ مَثَرٍ ﴿إِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ﴾ مِنَّا الْآنَ؛ لِأَنَّ عَمَلْنَا مُنْجٍ، وَعَمَلِكُمْ لَيْسَ مُقْتَصِرًا عَلَى الضِّيَاعِ، بَلْ هُوَ مُوجِبٌ لِمَا تُوَعَّدُونَ مِنَ الْعَذَابِ^(٢).

ثانياً وثالثاً: الضحك والغمز:

* يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠].

هاتان الآيتان الكريمتان تعرضان صورتين من صور استهزاء الكفار بالمؤمنين.

فأما الصورة الأولى فهي: الضحك من المؤمنين:

إذ إن استهزاء الكفار بالمؤمنين قد تجاوز الشعور القلبي إلى ضحك يصدر نتيجة الاستهزاء المكنون في صدورهم.

فمجرد الضحك لا يدل على الاستهزاء دون قرينة؛ لأن أسباب الضحك تعدد، فخرج الاستهزاء هنا على شكل ضحك يُسمع صوته، ويُرى صاحبه فاكهاً. ولذا يقول الراغب الأصفهاني رَحْمَةُ: «استخبر الضحك للسخرية»^(٣).

وأما الصورة الثانية فهي: الغمز استهزاء بالمؤمنين:

(١) المفردات في غريب القرآن (ص ٢٢٧).

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لإبراهيم بن عمر البقاعي (٩/ ٢٨٤ - ٢٨٥).

(٣) انصهر السابق (ص ٥٠١).

ويدل له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾ [المطففين: ٣٠].

والغمز: هو الإشارة بالجعفون والحواجب^(١).

فقد كان الكفار إذا مرّ بهم المؤمنون - وهم في مجالسهم - يستهزئون بهم

على طريق الغمز.

فمجرد الغمز لا يدل على الاستهزاء دون قرينة؛ لأن أسبابه تتعدّد أيضاً كما

هو الحال في الضحك، فخرج الاستهزاء هنا على شكل الغمز.

فمن خلال هاتين الصورتين يتبيّن أنّ الضحك والغمز لفظان قريبان في

معناهما لمعنى الاستهزاء.

رابعاً وخامساً: الخوض واللعب:

* يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ

وَأَيْتِيهِمْ وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

تعرض هذه الآية الكريمة مشهداً من حادثة وقعت من المنافقين في غزوة

تبوك، فقد أخرج الإمام الطبري رحمته الله بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قال

رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قِرَائِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بَطُوناً، وَلَا

أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ! فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ

مُتَأَفِّقٌ، لِأَخْبَرَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبٍ^(٢) نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَنكِبُ الْجِجَارَةَ^(٣)، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِإِلَهِهِمْ وَأَيْتِيهِمْ

وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَسْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]»^(٤).

(١) انظر: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطاهر أحمد الزاوي (٤١٧/٣)؛ فتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق بن حسن الفوجي (ص ٣٩٤).

(٢) (الحقَب): بفتح الحاء والقاف، حَبْلٌ يَشُدُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي بطن البعير.

انظر: لسان العرب (٢٥٢/٣)، مادة: (حقب).

(٣) (نَكِبَةُ الْجِجَارَةِ): أي لثمت الجحارة رجله وظفره، أي أذنه وأصابته.

انظر: لسان العرب (٢٧٥/١٤)، مادة: (نكب).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٣٣/١٤ - ٣٣٥) (رقم ١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦).

لقد تعلل المنافقون بأن ما فعلوه كان خوفاً ولعباً، فردّ عليهم النبي ﷺ بأن هذا هو عين الاستهزاء، قائلاً لهم: ﴿أَبَاقِهِ وَهَآئِنِيَّوِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. والخوض: هو المشي في الماء، ثم استعمل في كل دخول فيه تلوين وأذى^(١).

واللُّعب: يُقارب معنى الاستهزاء، حيث يقول القرطبي رَتَلْتَهُ: «الهاء: الشُّخْرية واللُّعب»^(٢).

وكلمة «الخوض» تُشعرنا بمعنى في منتهى الدقّة؛ لأنّ الذي يخوض في الماء لا يدري إلى أيّ موقع تقع قدماء، وربما وقعتا في هُوّة، أو ربّما وقعتا على شيء جارح، لكنّ الذي يسير على اليابسة، فالطريق واضحة أمامه، يضع قدمه حيث يرى أماناً واستقراراً وثباتاً، ومن هذا الباب أصبح الخوض وصفاً للكلام في الباطل^(٣).

فهذا الخوض وهذا اللُّعب هو عين الاستهزاء، بقرينة أنّ النبي ﷺ لم يلتفت إلى ما اعتلوا به، بل أنزلهم منزلة المستهزئين بخوضهم ولعبهم.

سادساً: اللُّمز:

* يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

تعرض هذه الآية الكريمة استهزاء المنافقين بالمؤمنين المتصدقين، فإذا جاء رجل من الضحابة، فتصدّق بشيء كثير، قال المنافقون: هذا مُراءٍ، وإذا جاء آخر فتصدّق بصاع، قال المنافقون: إنّ الله لغنيّ عن صدقة هذا، فنزلت الآية.

* عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: «لَمَّا أَمْرُنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا تَنَحَامِلُ^(٤)، فَجَاءَ أَبُو

= وقال محمود شاكر - في تعليقه على الطبري: «صحيح الإسناد».

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨٢/٨)؛ لسان العرب (٢٤٦/٤)، مادة: (خوض).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠٧/١).

(٣) انظر: تفسير الشعراوي (٣٧٠٩/٦).

(٤) (تنحامل): أي نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة، وتصدّق منها.

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٤٣/١).

عُقِيلِي بِنَضْبِ ضَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِذْ اللَّهُ لَغِيْبِي عَنْ
 سِدْقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخِرُ إِلَّا رِثَاءً، فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَكُمْ﴾ الآية^(١).

قال البخاري رحمه الله: «يَلْمِزُونَ: يَعْيُونَ»^(٢).

والمراد هنا تسليط الضوء على كلمة (اللمز):

يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله في معنى اللمز: «الاغتياب وتتبع المعاب»^(٣).

وقيل: هو تتبع المعاب في الحضور، وقيل: هو تعيب الناس باللسان^(٤)،
 وقيل هو: المواجهة بالعيب^(٥)، وقيل هو: الطعن في الأنساب^(٦).

وعلى كل حال، فمعنى اللمز: هو تعيب الناس، وهو نوع من أنواع الاستهزاء.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ (١٤٣١/٣) (ح ٤٦٦٨).
 (٢) صحيح البخاري (١٤٣١/٣).
 (٣) المفردات في غريب القرآن (ص ٤٥٤).
 (٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٤٢٨/٤).
 (٥) انظر: التحرير والتنوير (٤٧٢/٣٠).
 (٦) انظر: تفسير القرطبي (١٨١/٢٠).

المبحث الثاني

مظاهر تعظيم القرآن

إذا كنا في معرض الحديث عن مظهرٍ من مظاهر هجر القرآن العظيم، وهو ترك تعظيمه، والاستهزاء به، فإنه من الضروري - بعد استعراض معنى الاستهزاء - أن نُبيِّن موقف المؤمنين من القرآن وتعظيمهم له؛ ذلك ليتبيَّن للجميع أن لكتاب الله تعالى المكانة العظيمة والمنزلة الجليلة في قلب كلِّ مؤمنٍ بالله، إذ هو كلام الله عزَّ وجلَّ، ولا يماثل شيئاً من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق، وتعظيمه وإجلاله دليل على تعظيم الله سبحانه وخشيته، فليس فيما نرى ونسمع كتاب أحيط به من الإجلال والتقديس والتعظيم والاحترام من جميع الجوانب، وفي صور متعددة كالقرآن الكريم.

ولذلك أجمع أهل العلم - من السلف والخلف - على وجوب احترام المصحف وتعظيمه وتكريمه، كما أجمعوا على حرمة امتهانه، فيجب تعظيمه وإجلاله، والذبُّ عنه أمام تحريف الغالين وانتحال المبطلين^(١).

ولما كان المصحف الكريم أشرف كتاب في الوجود؛ لما تضمَّنه بين دفتيه من كلام الخالق المعبود جلُّ جلاله، تأكَّدت في حقِّه جملة من الآداب المرعية المستلزمة لطائفة من مظاهر تعظيمه القولية والفعلية، وهذه الآداب منها ما جاء به نصٌّ عن الشارع الحكيم فالتزمه المؤمنون؛ لأنَّه أصبح تكليفاً، ومنها ما وضعوه والتزموه دون نصٍّ؛ إمعاناً في تعظيمهم القرآن، ودليلاً على تمكُّن حبِّ القرآن في قلوبهم، وإذا كانت كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى، فإنَّ من شرف القرآن العظيم تعدُّد هذه الآداب، وهي على النحو الآتي:

(١) انظر: نوافذ الإيمان القولية والعملية (ص ٣٩٢).

أولاً: ملاحظة آداب التلاوة والالتزام بها:

فمن الآداب المتأكدة حال التلاوة ما يلي:

١ - اشتراط الطهارة لملامسته، مع إحسان الجلسة والاستعداد التام لها بالسواك، وقطع المشغلات والملهيات، والبعد عن الصوارف والمعوقات^(١).

٢ - اجتناب أكل الثوم والبصل قبل القراءة، فقد ذهب بعض السلف إلى كراهية أكل الثوم والكراث والبصل، والامتناع منه قبل قراءة القرآن، إكراماً وتقديراً لكلام الله تعالى.

قال قتادة رحمه الله: «ما أكلت الكراث منذ قرأت القرآن»^(٢).

٣ - يستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة؛ لأن تلاوة القرآن عبادة يقترب بها إلى الله تعالى، فناسب فيها استقبال القبلة، ولأن في ذلك تعظيماً لكلام الله تعالى، ويستحب كذلك أن يجلس متخشعاً بسكينة ووقار في أدب وخضوع، كجلوسه بين يدي معلمه، هذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً أو مضطجماً أو على فراشه أو غير ذلك من الأحوال جاز، ولكن دون الأولى^(٣).

٤ - يستحب - أيضاً - عند إرادة الشروع في القراءة الاستعاذة والبسملة، في قول جمهور العلماء، امثالاً لأمر الله تعالى بقوله: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]^(٤).

٥ - أن يكظم الشخص تناؤبه ما استطاع، ولا يرفع به صوته، إذ هو قبيح لا يجمل بالعاقل، ويتأكد هذا في حق المسلم الذي يقرأ كلام الله عز وجل.

عن مجاهد رحمه الله أنه قال: «إذا تئأبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة حتى يذهب تناؤبك»^(٥).

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ٧٣)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٨ - ٦١، ١٥١ - ١٥٤).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٥٥).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٠٨).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٣ - ٦٤).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٥٦)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٥).

٦ - اجتناب الضحك واللُغظ والحديث أثناء القراءة أو سماعها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الاعراف: ٢٠٤) (١).

٧ - حضور القلب عند التلاوة، وتدبُّر المقروء والمسموع، إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها، وأن يقرأ كما يقرأ العبد كتاباً خصَّه به مولاه، يأمره فيه وينهاه.

وهذا ما أكد عليه ابن القيم رحمته بقوله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألنِ سمعك، واحضر حضور مَنْ يخاطبه مَنْ تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله صلوات الله عليه» (٢).

ثانياً: التآدب مع المصحف:

فمن الآداب المتأكلة في حقِّ المصحف ما يلي:

١ - تحاشي التصغير في اسمه ورسمه وحجمه، ويُطالب مَنْ يكتبه بتحسين خطه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه.

قال الحكيم الترمذي (٣) رحمته: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَنْ تُجَلِّلَ تَخْطِيطُهُ إِذَا خَطَّطْتَهُ. وَعَنْ أَبِي حُكَيْمَةَ: أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ بِالْكُوفَةِ، فَمَرَّ عَلَيَّ عليه فَنَظَرَ إِلَى كِتَابِهِ فَقَالَ لَهُ: أَجَلِيلٌ قَلَمُكَ، فَأَخَذْتُ الْقَلَمَ فَقَطَطْتُ» (٤) من طرفه قطعاً، ثم كتبت، وعلي عليه قائم ينظر إلى كتابتي؛ فقال: هكذا، نَوَّرَهُ كَمَا نَوَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى» (٥).

(١) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم، د. بدر البدر (ص ١٧ - ٢٢).

(٢) الفوائد (ص ٣).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي، الحافظ، الزاهد، كان ذا رحمة ومعرفة، له فضائل وجكم ومواعظ، تعرض لمحنة فأخرج من ترمذ. من مصنفاته: «علل العبودية»، «ختم الأولياء»، «الصلة ومقاصدها». توفي سنة (٣٢٠هـ)، عاش نحواً من (٨٠ سنة).

انظر: طبقات الشافعية (٢/٢٠)؛ سير أعلام النبلاء (١٣/٤٣٩).

(٤) قَطُّ الشَّيْءِ: قَطَعَهُ غَرْضًا، وَبَابُهُ رَدُّ. وَمَنْه قَطُّ الْقَلَمِ.

انظر: مختار الصحاح (ص ٢٥٦)، مادة: (قطط).

(٥) نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلوات الله عليه (٣/٢٥٥ - ٢٥٦). وانظر: تفسير القرطبي (١/٤٤).

وقال القرطبي **كَلِمَةً** - معللاً وجوب العناية بكتابة المصحف:

«وذلك أشبه بالإجلال والتعظيم، ألا ترى إلى الناس إذا أرادوا مكاتبة ملك أو سلطانٍ تحرّوا لها من القراطيس أكبرها وأمتها وأنقاها، ومن الخطوط أحسنها وأفخمها، ومن المداد أبرقه وأشدّه سواداً، وفرّجوا السطور، ولم يقرمطوها، نثلاً يكون قد ضنّوا بشيء مما كانت الحاجة إليه في مكاتبته، فيكونوا قد ضيّعوا قدره، فكتاب الله أولى بمثل ذلك التّجليل، وأيضاً فإنّ الكتاب كلّما كان أكبر كان من الضّياع أبعد»^(١).

٢ - الحذر من إضافة شيء إليه، أو زخرفته، أو تحليته، أو كتابته بأحد التّقديين، أو كتابته بالأعجمية، أو اتّخاذها متّجراً.

فلم يكن من هدي سلفنا الصّالح - رحمهم الله تعالى - تزيينُ المصاحف وتحليتها بالذهب والفضّة، إذ هو مباحاة وتفاخر، وتبذير وإسراف، وبذل للأموال فيما لا فائدة فيه، كما أنّ في ذلك كسراً لقلوب الفقراء والمساكين وحرماناً لهم مما فيه منفعتهم وسدّ غوزهم وحاجتهم، وليس هذا هو الواجب تجاه كلام الله تعالى، بل الواجب تلاوته، وتدبّره، والتأثّر به، والعمل بما فيه، والوقوف عند حدوده، والتّحاكم إليه^(٢).

والمروي عن السّلف في كراهية ذلك كثير:

* فعن أبي الدرداء **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله **ﷺ**: «إِذَا زَخَرْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّبَّارُ^(٣) عَلَيْكُمْ»^(٤).

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١١٧).

(٢) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (ص ٢٩).

(٣) «يُقَالُ: ذَبَرَ الْقَوْمُ يَذْبُرُونَ يَبَارَأُ: هَلَكُوا. وَأَذْبُرُوا: إِذَا وُلِيَ أَمْرُهُمْ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ». «لسان العرب» (٢٧٣/٤)، مادة: (دبر).

(٤) رواه الترمذي في: «نوادير الأصول» (٢٥٦/٣) عن أبي الدرداء، ووقفه ابن المبارك في: «الزّهد» (٢٧٥/١)، رقم (٧٩٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنّعه» (١٥٤/٣) (رقم ٥١٣٢).

انظر: فيض القدير (٣٦٦/١) (ح ٦٥٨)؛ كشف الخفا ومزيل الإلباس، للمجلوني (٩٥/١) (ح ٢٤٢).

وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٢/١) (ح ٥٨٥) بلفظ: «إِذَا زَخَرْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ،

* وعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «مَرَّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - بِمُصْحَفٍ قَدْ زَيَّنَ بِالذَّهَبِ فَقَالَ: إِنَّ أَحْسَنَ مَا زَيَّنَ بِهِ الْمُصْحَفُ تِلَاوَتُهُ بِالْحَقِّ»^(١).

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى الْمُصْحَفَ قَدْ قُضِيَ أَوْ ذَهَبَ قَالَ: أَتُفَرِّقُونَ بِهِ الشَّارِقَ، وَزَيْتَهُ فِي جُوفِهِ»^(٢).

قال الحكيم الترمذي رحمته الله: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يُحَلَّى بِالذَّهَبِ، وَلَا يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ، فَتَخْلَطُ بِهِ زِينَةُ الدُّنْيَا»^(٣).

٣ - الحذر من استنساخه، أو توسده، أو رميه عند وضعه أو تناولته، أو مدُّ الرُّجُلِينَ إِلَيْهِ، أَوْ التَّرْوِجُ بِهِ، أَوْ اسْتِعْمَالُ الشَّمَالِ فِي تَنَاوُلِهِ وَأَخْذِهِ، أَوْ تَصْغِيرِ اسْمِهِ. وَأَلَّا يُقَالَ: سُورَةٌ صَغِيرَةٌ.

قال الحكيم الترمذي رحمته الله: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يَتَوَسَّدَ الْمَصْحَفَ، وَلَا يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ، وَلَا يَرْمِي بِهِ إِلَى صَاحِبِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنَاقِلَهُ. وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يُصَغَّرَ الْمَصْحَفَ»^(٤).

ومن ذلك أنهم كرهوا تصغير كلمة (مصحف) لما قد يدلُّ عليه التَّصْغِيرُ مِنَ الْإِحْتِقَارِ وَالْإِمْتِهَانِ وَالضُّعْفِ.

فمن سعيد بن المسيب رحمته الله قال: «لَا تَقُولُوا مُصْحَفٌ وَلَا مَسِيحٌ، مَا

= وَخَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ، فَالذَّمَّارُ عَلَيْكُمْ». وَالسَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ (٣/٣٣٦) (ح١٣٥١) بَلْفِظْ: «إِذَا زُوِّقْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَخَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ، فَالذَّمَّارُ عَلَيْكُمْ».

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (١٤٩/٦) (رقم ٣٠٢٣٥)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١٧٠) (رقم ٨٨٤٦)؛ وعبد الرزاق في «مصنّفه» (٤/٣٢٣) (رقم ٧٩٤٧). وانظر: المصاحف، لابن أبي داود (ص١٦٨)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص١٢٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (١٤٩/٦) (رقم ٣٠٢٣٣). وانظر: المصاحف (ص١٦٨)؛ التذكار (ص١٢٠).

(٣) (٤/٣) نَوَادِرُ الْأَصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ (٣/٢٥٦). وانظر: تفسير القرطبي (١/٤٥).

(٥) هو الإمام سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، من أئمة التابعين وعلمائهم الأثبات، ومن الفقهاء الكبار، قال ابن حجر: «من كبار الثانية، اتفقوا على أن مُرْسَلَاتِهِ أَصَحُّ الْمَرَاثِيلِ»، وقال ابن المديني: «لا أعلم في التابعين أوسعَ علماً منه». مات بعد التسعين هجرية، وقد ناهز الثمانين.

كان لله فهو عظيم حسن^(١).

وعن إبراهيم النخعي^(٢) تَلَفَّه قال: «كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف، وكان يقال عظموا كتاب الله^(٣)».

وقال رجل لأبي العالية^(٤) تَلَفَّه: «سورة صغيرة، فقال: أنت أصغر منها، وأما القرآن فكله عظيم^(٥)».

وفي رواية قال: «أنت أصغر وأأم، القرآن كله عظيم^(٦)».

٤ - الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتهنة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقدار، كان يئُلُ إصْبَعَهُ بالرِّيقِ عند تَقْلِيْبِ ورقه. أو تعريضه لمَطَانٍ امْتِهَانِهِ أو النَّبْلِ مِنْ قُدْسِيَّتِهِ، كان يُمَكِّنُ مِنَ الصَّغَارِ أو المَجَانِينِ أو الكَفَّارِ.

قال الحكيم الترمذي تَلَفَّه: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: إِذَا وَضِعَ المِصْحَفُ أَلَّا يَتْرَكَ مَنشُورًا، وَأَلَّا يَضَعُ فَوْقَهُ شَيْئًا مِنَ الكُتُبِ حَتَّى يَكُونَ أَبْدًا عَالِيًّا عَلَى سَائِرِ الكُتُبِ. وَأَنْ يَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ إِذَا قَرَأَهُ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَضَعُهُ عَلَى الأَرْضِ. وَأَلَّا يَمْحُوهُ مِنَ اللَّوْحِ بِالْبِزَاقِ، وَلَكِنْ يَغْسِلُهُ بِالمَاءِ. وَإِذَا غَسَلَهُ بِالمَاءِ أَنْ يَتَوَقَّى

= انظر: تقريب التهذيب (١/٣٠٥ - ٣٠٦) (ت ٢٦٠).

(١) رواه ابن سعد في: «الطبقات» (٥/١٣٧)؛ والذهبي في: «السير» (٤/٣٣٨)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٤٨) (رقم ٣٠٢٢٨).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران، الكوفي الفقيه، ثقة إلا أنه يرسل كثيراً، توفي ثلثة سنة (٥٩٦هـ)، وعمره (٥٠) سنة.
انظر: تقريب التهذيب (١/٤٦٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/١٤٨) (رقم ٣٠٢٢٥).
وانظر: المصاحف (ص ١٥١).

(٤) هو رفيع بن مهران الرِّياحِي، من بني تميم، بصري، وثقه يحيى بن معين، وأبو زرعة، وقال في «تقريب التهذيب»: «ثقة كثير الإرسال»، توفي ثلثة سنة (٥٩٠هـ).
انظر: تقريب التهذيب (١/٢٥٢).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٥٩).

وانظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٢١).

(٦) المصاحف (ص ١٧١)؛ غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري (١/٢٨٥).

التجاسات من المواضع، والمواضع التي تُوطأ؛ فإن لتلك الغسالة حرمة، وأن من كان قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. وألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء^(١).

٥ - الحذر من كتابته على الأرض، أو حوائط المساجد وغيرها، أو الكتابة في حواشيه، أو جلده، كما يفعله كثير من طلاب المدارس.

قال الحكيم الترمذي **تَلَفَّه**: «وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَّا يُكْتَبَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا عَلَى حَائِطٍ، كَمَا يُفْعَلُ بِهِ فِي الْمَسَاجِدِ الْمُحَدَّثَةِ... وَرَأَى عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنًا لَهُ يَكْتُبُ الْقُرْآنَ عَلَى حَائِطٍ فَضَرَبَهُ»^(٢).

وقد عمد بعض الحاقدين من أعداء القرآن في الآونة الأخيرة، أن يطبعوا بعض الآيات القرآنية على الملابس الداخلية، أو الأحذية، أو الأوراق التي تُغلف فيها المشتريات كبدأ بالمسلمين، ومحاولة منهم لانتقاص قدر هذا الكتاب الكريم، **«وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ»** [الأنفال: ٣٠]^(٣).

٦ - الحذر من استعماله في غير ما جعل له، كالتثقيب به، أو تعليقه كجزء، أو زينة، أو اقتنائه لمجرد التبرُّك به، إلى غير ذلك من أنواع الاستعمالات التي لم يأنز الشَّرع بمثلها^(٤).

(١) نواذر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣/٢٥٤). وانظر: تفسير القرطبي (١/٤٣).
 (٢) المصدر نفسه (٣/٢٥٧). وانظر: تفسير القرطبي (١/٤٥).
 (٣) انظر: كيف نحيا بالقرآن، نبيه زكريا عبد ربه (ص ٩٤ - ٩٥).
 (٤) انظر: المُثَحَّفُ في أحكام المُضْحَفِ (ص ٢٢ - ٢٣).

المبحث الثالث

أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن

يتبين لنا مما سبق أن من أخلاق المؤمنين تعظيم القرآن المجيد وتوقيره بعد الإيمان به واتباعه، وعلى التقيض من ذلك نجد الذين كفروا، حيث الاستخفاف والسخرية والتَّهْكُم بالقرآن المنزل، والرَّسول المرسل.

فهؤلاء الكفار اتخذوا أساليب شتى في استهزائهم بالقرآن العظيم:

فمرة يضحكون استهزاءً حال سماعهم للقرآن.

ومرة يتعجبون من عدم نزول الوحي على أغنيائهم وكبرائهم.

ومرة يدعون أن القرآن إفكٌ مفترى، وأساطير الأولين.

ومرة يتغامزون فيما بينهم استهزاءً بالقرآن المجيد واستخفافاً به.

وأعظم ذلك كله تندُّهم بالله وآياته ورسوله.

وقد ذُكرت هذه الأساليب الكفرية الاستهزائية وسُطِّرت في الكتاب العزيز؛ لتقوم الحجَّة على الذين كفروا، وفيما يلي يتمُّ تسليط الضوء على هذه الأساليب الاستهزائية بالتفصيل.

الأسلوب الأوَّل: الاستهزاء والضحك حال سماع القرآن:

* يُخبر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالذي يتناجى به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءة الرسول ﷺ سرّاً فقال: ﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

فالآية الكريمة تبين الكيفية التي يتلقَّى بها الكفار القرآن الكريم؛ حيث إنهم يتلقونه ويستمعون إليه استماع استهزاء، وتلقَّى استهزاء؛ لا سماع إيمان، ولا تلقى إيمان.

فأله تعالى أخبر نبيه ﷺ بالحالة التي يتلبس بها الكفار حين سماعهم القرآن العظيم: ﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به؛ إنهم يستمعون متلبسين بالاستهزاء. ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيتهم؛ إنهم يتناجون بالاستهزاء بك^(١). وفي هذا وعيد لهم بقدر ما كان عزاء للنبي ﷺ.

وقولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ بيان للاستهزاء^(٢).

قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾: «من الهُزء بك وبالقرآن»^(٣). ومثله قال الألوسي^(٤).

وقال ابن جزري في قوله تعالى ﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾: «كانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء»^(٥).

والخلاصة: أنهم كانوا يستمعون إلى القرآن وهم متلبسون بالاستهزاء والاستخفاف والسخرية والتهكم. فهذا الذي منعهم من الانتفاع بالقرآن عند سماعه؛ لأن مقاصدهم سيئة، ولم يكن استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئاً^(٦).

الضحك من القرآن:

قال تعالى - موبخاً الكفار ومنكراً عليهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا لِلَّذِينَ نَسِيتُوا ﴿١٥﴾ وَنَحْكُونَ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَنْتُمْ سَوْدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١].

تبيّن هذه الآية الكريمة - أيضاً - حال الكفار حين سماعهم للقرآن الكريم، أنهم يتعجبون استنكاراً له، ويضحكون استهزاءً وسخرية به.

فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَذَا لِلَّذِينَ نَسِيتُوا﴾ للتوبيخ^(٧).

والإشارة إلى القرآن، وتعجبهم منه: إنكاره^(٨).

- | | |
|------------------------------------|------------------------------------|
| (١) انظر: تفسير الشوكاني (٣/٣٣٢). | (٢) انظر: روح المعاني (٥/١٧٧). |
| (٣) الكشاف (٢/٦٢٧). | (٤) انظر: المصدر السابق (٥/١٧٦). |
| (٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٣١٤). | (٦) انظر: تفسير السعدي (٣/١١٢). |
| (٧) انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٢٢). | (٨) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٤٣). |

قال أبو السُّعُود تَلَقَّه فِي قَوْلِهِ «وَقَضَّحُونَ»: «استهزاء، مع كونه أبعد شيء من ذلك»^(١). وكذا قال الزمخشري^(٢)، والقرطبي^(٣)، والشوكاني^(٤)، والسمرقندي^(٥)، وابن عاشور^(٦).

وكان حقاً عليكم أن تبكوا عند سماعكم للقرآن، فترثتم ذلك وأتيتم بضده^(٧). وقوله تعالى: «وَأَنْتُمْ سَيِّئُونَ»^(٨) أي: لاهون، أو مستكبرون، من سمد البعير إذا رفع رأسه، أو مغثون؛ لتشغلوا الناس عن استماعه، من السُّمُود بمعنى الغناء على لغة حمير^(٩).

والشاهد: أن الله تعالى أنكر عليهم استهزاءهم بالقرآن وتعجبهم وضحكهم منه، مع أنه خير الكلام وأفضله، وأشرفه.

فهذا يدل على جهلهم وضلالهم وعنادهم، وقلة عقولهم، وإلا فهو أحسن الحديث، إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً، فهو القول الفضل، ليس بالهزل، هو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل، لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

بل ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة^(١٠).

الأسلوب الثاني: التعجب من عدم نزول الوحي عليهم:

* ذكر الله جلَّ وعلا أن كفار مكة أنكروا أن الله تعالى خصَّ نبيه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه، ولم ينزله على أحد آخر منهم، فحكى الله تعالى ما قالوه استهزاءً وحسداً: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا» [ص: ٨].

والاستفهام للإنكار، والتقدير: كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف^(١١). ومنشأ هذا الإنكار هو التكذيب والاستهزاء بالقرآن، وبمن أنزل عليه.

(٢) انظر: الكشاف (٤/٤٣٠).

(١) تفسير أبي السُّعُود (٨/١٦٦).

(٤) انظر: تفسير الشوكاني (٥/١٤٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٢٢).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/١٥٧).

(٥) انظر: تفسير السمرقندي (٣/٣٤٨).

(٨) تفسير أبي السُّعُود (٨/١٦٦).

(٧) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٢٥).

(١٠) انظر: تفسير الشوكاني (٤/٤٢١).

(٩) انظر: تفسير السعدي (٥/١٣٣).

* وقد حكى الله تعالى مقولتهم هذه في موضع آخر من كتابه العزيز، والتي تدلُّ على تكذيبهم بالقرآن الكريم واستهزائهم به: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقَتُهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

ويعنون بالقريتين: مكّة والطائف. وبالرجلين من القريتين: الوليد بن المغيرة في مكّة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف، زاعمين أنهما أحقّ بالنبوة؛ لكثرة أموالهما^(١).

والهمزة في قوله: ﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ للإنكار عليهم، وتجهلهم، والتعجب من اعتراضهم، وسخرتهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة^(٢). وفي الآية الكريمة دليل على أنّ أهواءهم لا تصلح لأن تكون متبعة؛ لأنّ القرآن لو أنزل على أحد الرجلين المذكورين - وهو كافر يعبد الأوثان - فلا فساد أعظم من ذلك^(٣).

إذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، بحسب حكمته، فرحمته الدنيوية، التي أعلاها النبوة والرّسالة أولى وأحرى.

مع العلم أنّ النبي ﷺ أعظمُ الرّجال قدرًا، وأعلامهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأهداهم وأنقاهم، وأحسنهم رأياً وعزماً وحزماً، لكنّه الاستهزاء بالقرآن العظيم، والتكذيب به، والحسد للنبي ﷺ هو الذي قادهم إلى هذا الاقتراح الساقط^(٤).

الأسلوب الثالث: ادّعاؤهم بأنّ القرآن إفك مفترى، وأساطير الأولين:

* عندما يشتدُّ الحقد، ويعجز الظالم عن الرّد المقنع، يتهم بالاختلاق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْكُرْتَهُ وَأَعَازِمٌ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ كَاكُرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

(٢) انظر: الكشاف (٤/٢٥٢).

(١) انظر: أضواء البيان (٦/٣٣٧).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٤/٤٤٥).

(٣) انظر: المصدر السابق (٥/٣٤٢).

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة استهزاء الكفار بالقرآن وبالرّسول محمد ﷺ، الذي أوجب لهم كفرهم وتكذيبهم.

والإفك: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١].

والافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد.

وقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ﴾ أرادوا بالقوم الآخرين اليهود.

ومقصودهم من هذا الاستهزاء الكفري: أن القرآن المُخْتَلَق والمُبْتَكَّر، لا يخلو من مجموع الأمرين، وهما:

أن يكون افتري بعضه من نفسه، وأعانه قوم على بعضه^(١).

وليتهم اكتفوا بذلك، بل أضافوا إليه استهزاء آخر لا يقل كفراً عن سابقه: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهَا تَمَثَّلَ طَلِيوُ بُكْرَةَ وَأَسِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

والأساطير: جمع أسطورة، وهي القصة المسطورة، ومقصودهم: أن القرآن قَصَصُ الْأَوَّلِينَ وأساطيرهم.

والاكتتاب: افتعال من الكتابة. فيفيد قولهم: ﴿اَكْتَتَبَهَا﴾ أنه تكلف أن يكتبها. والمعنى: أنه سأل مَنْ يكتبها له، أي: ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسناداً مجازياً؛ لأنه سببه.

والقرينة: ما هو مقرر لدى الجميع، من أنه ﷺ أمي لا يكتب، ومن قولهم: ﴿فِيهَا تَمَثَّلَ طَلِيوُ﴾ لأنه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. فالمعنى: استنسخها.

وقولهم: ﴿بُكْرَةَ وَأَسِيلًا﴾ أي: تُملى عليه طرفي النهار، كناية عن كثرة الممارسة لتلقي الأساطير؟! فأي استهزاء أعظم وأشد من ذلك؟^(٢).

وهذا القول الاستهزائي الكفري فيه هيئة عظام:

«منها: رميهم الرّسول، الذي هو أبرُّ الناس وأصدقهم، بالكذب، والجرأة العظيمة.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٩/١٣ - ١٤). (٢) انظر: المصدر نفسه (١٩/١٥).

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن، الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله، بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أنّ في ضمن ذلك، أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، وأن يُضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للمخالف الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أنّ الرسول، قد عُلمت حاله، وهم أشدّ الناس علماً به، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك^(١).

الأسلوب الرَّابِع: استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء:

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِنْ كَانَ يَرَىٰ مِنْكُمْ مِنْ آيَاتِهِمْ أَنْصَرَفُوا وَرَفَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ١٢٧).

هذه الأعضاء التي خلقها الله تعالى للإنسان؛ خلقها ليعبده بها، وكذلك ليشكر الإنسان ربه على نعمائه، ولكن عندما يكفر الإنسان يستخدم هذه الأعضاء في معصية الله تعالى، والاستهزاء بدينه.

فالآية الكريمة تعرض لنا مشهداً عملياً للمنافقين عندما تنزل سورة على النبي ﷺ حيث ينظر هؤلاء المنافقون إلى بعضهم؛ يتغامزون استهزاءً بالقرآن الكريم واستخفافاً به.

وهذا ما بيّنه الرازي رحمته الله بقوله: «هذا نوع آخر من مخازي المنافقين، وهو أنه كلما نزلت سورة مشتملة على ذكر المنافقين وشرح فضائحهم، وسمعوها تأذوا من سماعها، ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الظعن في تلك السورة والاستهزاء بها وتحقير شأنها، ويحتمل ألا يكون ذلك مختصاً بالسورة المشتملة على فضائح المنافقين، بل كانوا يستخفون بالقرآن، فكلما سمعوا سورة استهزؤوا بها وطعنوا فيها، وأخذوا في التغامز والتضحك على سبيل الظعن والهزاء^(٢).

كانهم عند سماع تلك السورة يتأذون ويتضايقون ويريدون أن يخرجوا من

(٢) التفسير الكبير (١٦/١٨٥).

(١) تفسير السعدي (٣/٤٢٧ - ٤٢٨).

المسجد، زاعمين أنهم لا يصبرون على استماع القرآن، ويغلب عليهم الضحك استهزاءً بالقرآن، فيخافون أن يُفْتَضَح أمرهم بين المؤمنين، ولذلك يتناجون فيما بينهم: «هَلْ بَرَّزَكُمْ مِنْ آلِهِ» أي: هل يرى استهزاءكم وتغامزكم أحد فينقل ذلك إلى محمد؟^(١).

والشاهد هنا: قوله تعالى: «نَظَرَ بَعْضُهُمْ لَكَ بَعْضٌ» فكانهم تكلموا بأعينهم ونظراتهم، كلامٌ استهزاءٍ وسخرية.

قال الزمخشري في قوله تعالى «نَظَرَ بَعْضُهُمْ لَكَ بَعْضٌ»: «تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخريةً به»^(٢).

الأسلوب الخامس: التَّنَدُّرُ بالله وآياته:

* قال تعالى: «وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْمُسُ وَقُلْنَا بِآلِهِنَا وَآبَائِنَا، وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْمَاعِكُمْ إِن نَّمُنَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ سَعَدَتْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» (التوبة: ٦٥ - ٦٦).

ورد في سبب نزولها روايات في غزوة تبوك - كما تقدم ذكره - منها: قول بعض المنافقين الذين كانوا معه ﷺ: «ما رأينا مثل قرائتنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»^(٣).

يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنه لو سأل المنافقين عن استهزائهم به وبالقرآن - وهم سائرون معه إلى تبوك - لقالوا معتردين: «إِنَّمَا كُنَّا نَعْمُسُ وَقُلْنَا بِآلِهِنَا وَآبَائِنَا» فلم يقطع به الطريق ولم يقصد الاستهزاء^(٤).

فوبخهم الله تعالى على استهزائهم - بمن لا يصلح الاستهزاء به - بقوله: «أَبَآئِهِمْ وَآبَائِهِمْ، وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» «والاستفهام للتقرير والتوبيخ»^(٥). فلم

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٨٨). (٢) الكشاف (٢/٣١٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/٣٣٣ - ٣٣٥) (رقم: ١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦)؛ وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، كما في «الدر المنثور».

وقال محمود شاكر - في «تعليقه على الطبري»: «صحيح الإسناد».

(٤) انظر: زاد المسير (٣/٤٦٥)؛ تفسير الجلالين (١/٢٥١).

(٥) تفسير الشوكاني (٢/٣٧٧)؛ وانظر: التحرير والتنوير (١٠/١٤١).

بعباً باعتذارهم، ولم يقبل هذا الاعتذار؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فأنزلهم منزلة المعترف بهذا الاستهزاء، حتى ويُنخّوا بهذه الجريمة التكرار^(١). ولذلك لم يقبل منهم هذا العذر المكذوب.

عاقبة الاستهزاء بالقرآن:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَمْنُنُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

قال البغوي رحمه الله: «فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان»^(٢).

قال ابن العربي^(٣) رحمه الله: «لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّاً أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإنّ الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأمة. فإنّ التحقيق أخو الحقّ والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل»^(٤).

وهو ما أكده ابن الجوزي رحمه الله بقوله: «وهذا يدلُّ على أنّ الجدّ واللّعب في إظهار كلمة الكفر سواء»^(٥).

ففي هذه الآيات الكريمات دليل على أنّ من أسرّ سريرة - ولا سيّما انسريرة التي يمكر فيها بدين الله تعالى، ويستهزئ به وبآياته ورسوله - فإنّ الله تعالى يُظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشدّ العقوبة.

وأنّ من استهزأ بكتاب الله أو بسنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقّصه، فإنه كافر بالله العظيم، وأنّ التوبة مقبولة من كلّ ذنب، وإن كان عظيماً^(٦).

(١) انظر: تفسير النسفي (٩٧/٢).

(٢) تفسير البغوي (٣٠١/٢).

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر، المعروف بابن العربي الإشبيلي، المالكي، الإمام، العلامة، الحافظ، كان فقيهاً عالماً زاهداً عابداً، له تصانيف منها: «أحكام القرآن»، و«عارضة الأحوذى في شرح جامع الترمذي»، و«المحصل في الأصول». توفي سنة (٥٤٣هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٢٩٦/٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٩٧/٢٠).

(٤) أحكام القرآن (٥٤٣/٢)؛ تفسير القرطبي (١٨٢/٨).

(٥) زاد المسير (٤٦٥/٣).

(٦) انظر: تفسير السعدي (٢٦٢/٢).

المبحث الرابع

حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الفرق بين القرآن والمصحف.

المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن.

المطلب الثالث: حكم الاستهانة بالمصحف.

المطلب الأول

الفرق بين القرآن والمصحف

أولاً: معنى القرآن:

«القرآن» لغة:

اتفق أهل اللغة - رحمهم الله - على أن لفظ «قرآن» اسم وليس بفعل ولا حرف، لكنهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدرأ أو وصفاً، على أقوال عدة، نُجْمَلُ فيما يلي^(١):

١ - أنه «اسمٌ عَلَّمٌ غير منقول» أي: جامد.

٢ - أنه «مهموز»^(٢) مُشْتَقٌّ من: «قَرَأَ» بمعنى: «تلا».

٣ - أنه «مهموز» مشتق من: «القَرَاءُ» بمعنى: «الجمع».

٤ - أنه «غير مهموز» مشتق من: «قَرَنْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ».

٥ - أنه «غير مهموز» مشتق من: «القَرَائِنُ».

ويظهر - والله أعلم - أن أرجح هذه الأقوال هو القول الثاني؛ لِقُرْبِ اشتقاقه من كلمة القرآن لفظاً ومعنى^(٣).

فالقرآن مصدر «قَرَأَ» بمعنى: «تلا» كالرُّجْحَانِ والغفران، ثم نُقِلَ من المصدر وجُعِلَ اسماً للكلام المُنَزَّلِ على نبيِّنا محمدٍ ﷺ.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَآتِيعْهُ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨].

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٣٩٦)، المصباح المنير (ص٢٥٩)، لسان العرب (١/ ١٢٨ - ١٣١)، القاموس المحيط (ص٦٢)، مختار الصحاح (ص٢٤٩)، المفردات في غريب القرآن (ص٤٠٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٠ - ٣١).

(٢) معنى «مهموز»: أن الهمزة في لفظ «القرآن» أصلية، من: «قَرَأَ».

(٣) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، أ.د. محمد أبو شهبه (ص١٩ - ٢٣).

أي: قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان رضي الله عنه:

ضَحُوا بِأَسْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ نَسِيحاً وَقُرْآنَاً

أي قراءة^(١).

«القرآن» اصطلاحاً:

ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَعْرِيفاً اصْطِلَاحِيّاً يُقَرِّبُ مَعْنَاهُ وَيُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَعَرَّفُوهُ بِأَنَّهُ: «كَلَامُ اللَّهِ، الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، الْمُنْعَزَجُ بِلَفْظِهِ، الْمُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ، الْمَنْقُولُ بِالتَّوَاتُرِ».

وغاية العلماء من ذكر هذه القيود بشكل عام، هي تحديد المَعْرِفِ، بحيث يكون التعريف دالاً عليه دلالة واضحة، مانعاً من دخول غيره فيه^(٢).

ثانياً: معنى المصحف:

«المصحف» لغة:

الأصل المشهور في ضبط كلمة: «مصحف» بضم الميم، ويجوز «بمصحف» بكسرهما، وهي لغة تميم.

والمصحف لغة: اسم لكل مجموعة من الصحف المكتوبة ضمت بين دفتين، وجاء في (اللسان) عن الأزهري^(٣) تأليفه: «وإنما سُمِّيَ المصحفُ

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص ١٣٧).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (١/٤٤١)؛ المستصفي (١/٦٤)؛ مباحث في علوم القرآن (ص ٢٠)؛ فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن، د. أحمد سالم ملحم (٢١ - ٢٩).

(٣) هو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري الهروي، الشافعي (أبو منصور)، ولد في هراة بخراسان سنة (٢٨٢هـ)، عني بالفقه أولاً، ثم غلب عليه علم العربية، فرحل في طلبه وقصد القبائل وتوسّع في أخبارهم، فاشتهر بالعربية، وكان متفقاً على فضله وثقته ودرايته وورعه. ومن أشهر مصنفاته: «تهذيب اللغة»، و«تفسير القرآن»، و«علل القراءات». توفي سنة (٣٧٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٢٦)؛ طبقات الشافعية (١٠/٢)؛ وفيات الأعيان (١/٦٣٥).

مصحفاً؛ لأنه أضحف، أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين^(١).

ومقتضى كلام الفيروزآبادي^(٢) كَلَّفَهُ: أَنْ الْمُصْحَفَ (بالضم): اسم مفعول من أضحفه إذا جمعه. والمصحف (بالفتح): موضع الصحف، أي: مجمع الصحف. والمصحف (بالكسر): آلة تجمع الصحف^(٣).

«المصحف» اصطلاحاً:

المصحف في اصطلاح العلماء - رحمهم الله: «هو اسمٌ للمكتوب فيه كلام الله تعالى بين الدفتين»^(٤).

ويصدق المصحف على ما كان حاوياً للقرآن كله، أو كان ممّا يُسمى مصحفاً عرفاً ولو قليلاً كحزب، على ما صرح به القليوبي^(٥) كَلَّفَهُ، أو أقلّ من ذلك كورقة فيها بعض سورة، أو لوحاً، أو كتاباً مكتوبة^(٦).

«وقيل للقرآن مصحف؛ لأنه جُمِعَ من الصحف المتفرقة في أيدي الصحابة، وقيل: لأنه جَمَعَ وَحَوَى - بطريق الإجمال - جميع ما كان في كتب الأنبياء، وُصِّفَهُمْ، (لا) بطريق التفصيل»^(٧).

(١) انظر: لسان العرب (٧/٢٩٠ - ٢٩١)، مادة: (صحف).

(٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشيرازي، الشافعي، لغويٌّ مشارك في عدة علوم، ولد بكازون من أعمال شيراز سنة (٧٢٩هـ)، وله مصنفات كثيرة منها: «القاموس المحيط»، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، و«البلغة في ترجمة أئمة النحاة واللغة»، و«المرقاة الوفية في طبقات الحنفية»، وغيرها. توفي بزبيد سنة (٨١٧هـ). انظر: شذرات الذهب (٧/١٢٦).

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/٨٦).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، لمجموعة من الباحثين (٥/٣٨).

(٥) هو أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي - نسبةً لقرية قلوب بشرقية مصر - الشافعي (شهاب الدّين أبو العباس) عالمٌ مشارك في كثير من العلوم. توفي في أواخر شوال سنة (١٠٦٩هـ). من مؤلفاته: «البدور المنوّرة في الأحاديث المشتهرة»، و«تعبير المنامات»، و«المصاييح السنية في طب خير البرية» وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (١/٩٤).

(٦) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/١٢٥)؛ حاشية القليوبي على منهاج الطالبين (١/٣٥).

(٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/٨٧).

الفرق بين القرآن والمصحف:

من خلال الاستعراض اللغوي للفظ: «قرآن»، ولفظ: «مصحف». وما تبعه من تعريف اصطلاحيّ لهما، نستطيع أن ندرك الفرق بينهما، فيقال في الفرق بينهما:

إنّ «المصحف»: اسمٌ للمكتوبِ من القرآن الكريم، المجموع بين الدُّفّتين، و«القرآن»: اسمٌ لكلامِ الله تعالى المكتوبِ في المصاحف^(١).

المطلب الثاني

حكم الاستهزاء بالقرآن

المسلمون كلّهم مجمعون على وجوب احترام كلام الله تعالى، وتعظيمه، وصيانته عن العيوب والنقائص.

فالقرآن كلام الله عزّ وجلّ، وهو صفة من صفاته، والله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، كما دلّ عليه الكتاب، والسنة، وقاله علماء الإسلام.

فالاستهزاء بكلام الله تعالى، أو كتابه، أو محاولة إسقاط حرمة ومهابة كفر صريح لا يُنازع فيه أحد، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوشُ وَقَلَمُ قُلْ يَا آلِهَتِي وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفِّرُوا كُفْرَكُمْ لَا تَعْبُدُوا قَد كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

هذه الآية الكريمة نصّ في كفر من استهزأ بالله تعالى، وآياته، ورسوله، سواء استحلّ ذلك أو لم يستحل، فمجرد الاستهزاء بالمذكورات ردة عن الدين بإجماع علماء المسلمين، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء، كان يكون مازحاً أو هازلاً.

وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَّبِعُ فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبَعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢).

(١) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني (٨/٣ - ٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: التكلّم بالكلمة يهوي بها في النار (٤/٢٢٩٠) (ح ٢٩٨٨).

وعن بلال بن الحارث المزني صاحب رسول الله ﷺ يقول: سَمِعْتُ
رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ
مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ
سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»^(١)
وإذا كان هذا الوعيد المذكور في مجرد كلمة، فكيف بمن يستهزئ بكلمات الله
تعالى!؟

الإجماع على كفر الاستهزاء بالقرآن:

وقد أجمعت الأمة على كفر مَنْ استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، ولو
كانت آية واحدة، ومَنْ صرَّح بحكاية الإجماع: القاضي عياض، والإمام
النوي، والقاضي ابن فرحون المالكي - رحمهم الله تعالى - وفيما يلي نقل أقوال
العلماء في ذلك:

١ - القاضي عياض رحمته يحكي إجماع المسلمين على كفر من استهزأ
بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، فيقول: «اعلم أن مَنْ استخفَّ بالقرآن أو
بالمصحف، أو بشيء منه، أو سيَّهما... فهو كافرٌ بإجماع المسلمين»^(٢).

٢ - الإمام النووي رحمته يحكي الإجماع صراحةً بقوله: «وأجمعوا على أن
مَنْ استخفَّ بالقرآن، أو بشيء منه... كفر»^(٣).

٣ - القاضي ابن فرحون المالكي رحمته يحكي إجماع أهل العلم على كفر

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في قلة الكلام (٣/٣٨٢) (ح ٢٤٢١). وقال:
«حديث حسن صحيح».

وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/٢٦٩) (ح ١٨٨٨).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١١٠).

(٣) المجموع (٢/١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٨).

(٤) هو إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون اليمري، المدني، المالكي (أبو
الوفاء) ولد بالمدينة (٧١٩هـ)، وتفقه، وبرع، وصنف، وجمع، وولي قضاء المدينة.
توفي سنة (٧٩٩هـ). من مصنفاته: «شرح مختصر ابن الحاجب»، و«الديباج المنقَّب في
أعيان المذهب». انظر: الدرر الكامنة (١/٤٨)؛ شذرات الذهب (٦/٣٥٧).

من استخفت بالقرآن، قائلاً: «ومن استخفت بالقرآن، أو بشيء منه، أو جملته، أو حرفاً منه، أو كذب بشيء منه، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبتته على علم منه بفلك، أو شك في شيء من ذلك، فهو كافر بإجماع أهل العلم»^(١).

٤ - الإمام الشافعي^(٢) تكلفه حيث قال:

«... من ذكر كتاب الله، أو محمداً رسول الله ﷺ، أو دين الله بما لا ينبغي... فقد نقض عهده، وأجلّ دمه، وبرتت منه ذمّة الله عز وجلّ وذمّة رسول الله ﷺ»^(٣).

وكذلك نُقل عن الشافعي أنه سئل عن من هزل بشيء من آيات الله، أنه قال: هذا كافر، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]^(٤).

٥ - شيخ الإسلام ابن تيمية تكلفه حيث قال:

«وليس لأحد استعمال القرآن لغير ما أنزل الله له... ثم إن أخرجه مخرج الاستخفاف بالقرآن، والاستهزاء به، كفر صاحبه»^(٥).

٦ - نصوص علماء الحنفية رحمهم الله تعالى:

* جاء في الفتاوى البرزلية:

«ادخال القرآن في المزاح، والدّعاة كفر؛ لأنه استخفاف به»^(٦).

* وفي بيضة الفتاوى:

«من استخفّ بالقرآن، أو بالمسجد، أو بنحوه مما يُعظم في الشرع كفر».

(١) تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام (٢/٢١٤).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المظلي الشافعي، إمام المذهب الشافعي، اتفق على ثقته وإمامته وعدالته وحسن سيرته، له أشعار كثيرة، من مؤلفاته: كتاب «الأم»، و«الرسالة». ولد سنة (١٥٠هـ)، وتوفي سنة (٢٠٤هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٤/١٦٣).

(٣) مختصر اختلاف العلماء، للجصاص (٣/٥٠٥).

(٤) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية (ص ٥١٤).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية - لابن تيمية، اختصار: محمد بن علي البجلي (ص ٥٧٨).

(٦) الفتاوى البرزلية، لابن البراز (٣/٣٣٨).

• وفي جواهر الفقه:

«مَنْ قِيلَ لَهُ: أَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، أَوْ أَلَا تُكْثِرُ قِرَاءَتَهُ؟ فَقَالَ: شَبِعْتُ أَوْ كَرِهْتُ أَوْ أَنْكَرْتُ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ عَابَ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ... كَفَرَ».

• وفي الفتاوى الظهيرية:

«مَنْ قَرَأَ آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى وَجْهِ الْهَزْلِ يَكْفِرُ»^(١).

أما بعد: فهذا هو المنقول عن علماء المسلمين على كفر مَنْ استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، عامداً متعمداً.

عقوبة المستهزئين بكلام الله تعالى:

من المنكر العظيم في القرن العشرين اتِّخَاذُ آيَاتِ الْقُرْآنِ هُزُؤاً عَنْ طَرِيقِ الْغِنَاءِ وَالْعَزْفِ عَلَيْهَا بِالْمَوْسِيقَى، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى - لَهُ قَدْرُهُ وَمَكَانَتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، فَالاسْتِخْفَافُ بِحَرَمَتِهِ، وَالاسْتِهْزَاءُ بِشَيْءٍ مِنْهُ جَرْمٌ كَبِيرٌ، وَذَنْبٌ عَظِيمٌ.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣ - ١٤]. فكلُّ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئاً مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْهَزْلِ وَالْغِنَاءِ، وَالرَّقْصِ وَالطَّرْبِ، فَقَدْ اتَّخَذَهَا هُزُؤاً وَلَعِباً.

وقد توعد الله المستهزئين بكلامه وآياته، بالعذاب المهين، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَوَائِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُؤاً وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجنابة: ٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْتَكْفُرُ بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ لِقَاءَ رَبِّنَا إِنَّهُمْ وَكُنَّا وَمَاؤُنْكَرُ الْتَأْتِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ مَوَائِنَهُ هُزُؤاً وَعَرَّضْتُمْ لِحَيْزَةِ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَنْبَتُونَ﴾ [الجنابة: ٣٤ - ٣٥].

فينبغي أن يُحَاسَبَ كُلُّ مَنْ يَسْتَخَفُّ بِالْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَيَسْتَحْذِهُمُ لِلْغِنَاءِ وَالطَّرْبِ وَاللَّعْبِ، فَإِذَا لَمْ يُحَاسَبْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَقَدْ يَنْفَتِحُ بَابُ وَاسِعٍ لِلتَّلَاعِبِ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَالطَّلْعِ فِي الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالطَّلْعِ بِأَعْظَمِ شَيْءٍ يَفْتَخِرُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ.

(١) تهذيب رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات، لمحمد بن إسماعيل الرشيد (ص ٢٢).

(٢) وانظر: شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان، لملا علي قاري (ص ٢٥٠ - ٢٥٤).

المطلب الثالث

حكم الاستهانة بالمصحف

مرُّ بنا سابقاً في الفرق بين القرآن والمصحف، أنَّ المصحف: اسمٌ للمكتوب من القرآن الكريم، المجموع بين الدُّفَّتَيْنِ. فينبغي أن يكون له من التَّقْدِيرِ والاحترام والتَّعْظِيمِ والصُّبْحَانَةِ من العيوب والنِّقَاصِ، لما يحتويه من كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى.

والاستهانة - عياداً بالله - بالمصحف، أو بشيء منه، لها صور متعدِّدة: كاتِّخَاذِ الْفَالِ منه، أو الاتِّكَاءِ والتَّوَسُّدِ عليه، أو إتْلَافِهِ وتمزيقِهِ، أو الكِتَابَةِ عَلَيْهِ، أو إدخَالِهِ فِي أَمَاكِنِ التَّخْلِيِّ، أو الوصِيَّةِ بَدْفَنِهِ مَعَ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، أو إلقَائِهِ فِي الْقَادُورَاتِ، أو بَلِّهِ بِالرِّيْقِ، أو بَلْعِ شَيْءٍ مِنْهُ، أو تَخْطِئِهِ، أو تَرْكِهِ عَلَى الْأَرْضِ، أو اتِّخَاذِهِ وتعليقِهِ للبركة من غير قراءة فيه، أو تلوِيثِهِ، أو جَحْدِ شَيْءٍ مِنْهُ، أو وَطْئِهِ بِالرَّجْلِ أو مَدِّهَا إِلَيْهِ، أو الْجُلُوسِ عَلَيْهِ، أو وَضْعِ شَيْءٍ فَوْقَهُ، أو سَبِّهِ، أو الاستخفافِ بِهِ، إلى غير ذلك من الصُّوَرِ الكَثِيرَةِ الَّتِي تَكَلَّمُ عَنْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَأوردوها فِي مَصْنُفَاتِهِمْ، وَحَدَّثُوا مِنْ فَعْلِهَا وَالاستهانة بِهَا.

وسيكون الحديث عن بعض هذه الصُّوَرِ الفَجَّةِ، مَعَ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ حِكْمِهَا، فِيمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ.

صور من الاستهانة بالمصحف:

* الصُّورَةُ الْأُولَى: الاتِّكَاءُ وَالتَّوَسُّدُ عَلَى المَصْحَفِ.

* حُكْمُ الاتِّكَاءِ: صرَّحَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَرْمَةِ الاتِّكَاءِ عَلَى المَصْحَفِ؛ لِكُونَ ذَلِكَ امْتِهَاناً وَقَلَّةَ احْتِرَامٍ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ^(١) وَتَذَكَارِهِ^(٢)، وَحَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْقَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٩/١).

(٢) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٨٥).

(٣) هو محمد بن عبد القوي بن بدران بن عبد الله المقدسي، المرزداوي (أبو عبد الله) فقيه، محدث، نحوي، ناظم. ولد سنة (٦٣٠هـ) بمردا من قرى نابلس، وأتى وصنف، وتوفي

قال ابن مُفلح^(١) تَلَفُّة: «قال ابن عبد القوي في كتابه مجمع البحرين: إنه يحرم الاتكاء على المصحف، وعلى كتب الحديث، وما فيه شيء من القرآن، اتفاقاً»^(٢).

* حُكْم تَوْسُدِ الْمَصْحَفِ^(٣): المستقرئ لنصوص العلماء في هذا الشأن يخلص إلى أَنَّ القول بتحريم تَوْسُدِ الْمَصْحَفِ على سبيل الامتihan محلُّ وفاق بينهم؛ بل صرَّح بعضهم باعتبار قصد الامتihan للقرآن كفر وردة مَنْ فَعَلَهُ.

أما إذا انتفى عن التوسد قصد الامتihan والابتذال، فلاهل العلم في حكمه ثلاثة أقوال: التحريم، والكراهة، والإباحة^(٤).

والرَّاجِحُ فِي التَّوَسُّدِ: أَنَّهُ مُحْرَمٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّ صُورَةَ الْاِمْتِهِانِ فِي التَّوَسُّدِ حَاصِلَةٌ، وَيَسْتَنِي مِنْ ذَلِكَ حَالُ الضَّرُورَاتِ؛ لَكُونِهَا تُبَيِّحُ الْمَحْظُورَاتِ.

وقد صرَّح بالتحريم جمع من أهل العلم: كالثَّوَوِي^(٥)، وَالرُّزْكَشِي^(٦)،

بدمشق سنة (٦٩٩هـ). ومن مصنفاته: «القصيدة الذَّالِيَّةُ فِي الْأَدَابِ الشَّرْعِيَّةِ»، و«المنتقى في شرح العمدة لابن مالك في النحو»، و«كتاب طبقات الأصحاب». انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/٣٤٢).

(١) هو محمد بن مُفلح بن محمد بن مفرج المقدسي، الدمشقي، الحنبلي (أبو عبد الله) فقيه، أصولي، محدث، ولد سنة (٧١٠هـ) ببيت المقدس، وأخذ عن المزني، والذهبي، والشَّيْبَانِي، وغيرهم. درس، وأفتى، وناظر، وحَدَّث، وناظر في الحكم عن القاضي جمال الدين المرزداوي، وتوفي بدمشق سنة (٧٦٣هـ). ومن مصنفاته: «الأدَابُ الشَّرْعِيَّةُ»، و«شرح المنتقى». انظر: الدرر الكامنة (٤/٢٦١)؛ شذرات الذهب (٦/١٩٩).

(٢) الأدَابُ الشَّرْعِيَّةُ (٢/٢٩٧).

(٣) المقصود بتوسد المصحف هنا: جمعه تحت الرَّأْسِ عِنْدَ النَّوْمِ، أَوْ تَحْتَ الْوَسَادِ. قال ابن الأثير تَلَفُّةٌ فِي «النهاية» (٥/١٨٢): «الوسادُ والوسادة: الجُمَّةُ. والجمع: وسائد، وقد وسَّدته الشيءَ فَتَوَسَّدَهُ، إِذَا جَمَعْتَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ».

(٤) انظر تفصيل هذه الأقوال في كتاب: التُّحْفَةُ فِي أَحْكَامِ الْمَصْحَفِ (ص ٤٧٢ - ٤٧٣). انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٣٢).

(٦) هو محمد بن عبد الله بن بهادر المصري، الرُّزْكَشِي، الشَّافِعِي (أبو عبد الله) فقيه، أصولي، محدث، أديب، تركي الأصل، مصري المولد سنة (٧٤٥هـ)، رحل إلى الشام وسمع من علمائها، انقطع للعلم واشتغل بالتدريس والإفتاء. وتوفي بمصر سنة (٧٩٤هـ). من تصانيفه: «النُّكْتُ عَلَى الْبُخَارِيِّ»، و«البحر المحيط في أصول الفقه». انظر: الدرر الكامنة (٣/٣٩٧)؛ شذرات الذهب (٦/٣٣٥).

(٧) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/١٠٧).

والهيتمي^(١)، وابن قدامة^(٢)، وغيرهم.

* الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ: إِتْلَافُ المَصْحَفِ وَتَمْزِيْقُهُ.

* حَكْمُهَا: لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - فِي تَحْرِيمِ إِتْلَافِ المَصَاحِفِ عَلَى وَجْهِ الاسْتِخْفَافِ، بَلْ قَدْ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِكُونِ ذَلِكَ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الرُّدَّةِ^(٣)، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا الحَالِ.

فَإِنْ كَانَ الإِتْلَافُ لَا عَلَى وَجْهِ الاسْتِخْفَافِ، وَيُمْكِنُ الإِنْتِفَاعُ بِهِ، فَلَا يَجُوزُ إِتْلَافُهُ، صَرَّحَ بِذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، كَابْنِ عَبْدِ الهَادِي الحَنْبَلِيِّ^(٤) تَلْتَلَةً حَيْثُ قَالَ: «وَلَا يَجُوزُ دَفْنُ مَصْحَفٍ صَحِيحٍ، وَلَا غَسْلُهُ»^(٥).

الحالات التي يجوز فيها إتلاف المصاحف:

جُوزَ أَهْلُ العِلْمِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - إِتْلَافَ المَصَاحِفِ إِذَا تَحَقَّقَ فِيهَا وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِ^(٦):

١ - إِذَا كَانَتْ عَتِيقَةً بِأَلِيَّةٍ قَدْ تَعَطَّلَ نَفْعُهَا.

٢ - إِذَا تَنَجَّسَتْ بِمَا يَتَعَدَّرُ مَعَهُ تَطْهِيرُهَا.

٣ - إِذَا دَخَلَهَا خِلَلٌ يُخَافُ مَعَهُ عَلَى الجُّهَالِ مِنَ الضَّلَالِ، إِثْمًا لِكثْرَةِ السَّقَطِ فِيهَا، أَوْ كَثْرَةِ اللَّحْنِ، أَوْ دُسِّ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا، أَوْ كَانَ رَسْمُهَا مُخَالَفًا لِرَسْمِ المَصْحَفِ الإِمَامِ.

(١) انظر: الفتاوى الحديثة (ص ١٦٣). (٢) انظر: المغني (٣/١٥٠).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠٢)؛ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٢/٣٨٢)؛ الآداب الشرعية (٢/٢٩٧).

(٤) هو جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي، الحنبلي، ولد سنة (٨٤٠هـ) من أهل الصالحية بدمشق. محدث، فقيه، نحوي، صرفي، مشارك في عدة علوم، وتوفي بدمشق سنة (٩٠٩هـ). من تصانيفه الكثيرة: «النهاية في اتصال الرواية»، و«الميرة في حل مشكل السيرة»، و«إرشاد السالك إلى مناقب مالك»، وغيرها. انظر: شذرات الذهب (٨/٤٣).

(٥) مغني ذوي الأفهام، لابن عبد الهادي (ص ٢٥).

(٦) انظر: الإقتان في علوم القرآن (٢/١٧٢)؛ تفسير القرطبي (١/٥٤ - ٥٥)؛ الآداب الشرعية (٢/٢٩٦)؛ المعيار المعرب، للونشريسي (١/٢٩ - ٣٠)؛ تحفة المحتاج وحواشيها، للهيتمي (١/٣٢٣ - ٣٢٤)؛ المثخف في أحكام المصحف (ص ٣٧ - ٤١).

• الصورة الثالثة: إدخال المصحف في أماكن التخلي.

• حكمها: لا خلاف بين أهل العلم في حظر إدخال المصحف في أماكن التخلي ونحوها لغير ضرورة؛ لكون الدخول بها مع انتفاء الضرورة ضرباً من الامتنان، وإخلاقاً بما يجب لها من التعظيم.

وجمهور أهل العلم - رحمهم الله - على تحريم الدخول بالمصحف إلى الخلاء، وأماكن قضاء الحاجة، سواء كان ذلك في البنيان أو خارجها، ما لم تدع إلى ذلك ضرورة^(١).

• الصورة الرابعة: إدخال المصحف في القبر.

• حكمها: صرح غير واحد من أهل العلم بتحريم دفن المصحف مع الميت في القبر؛ لكون ذلك بدعة في الدين، إذ لم ينقل عن السلف الصالح أنهم فعلوه، وفيه تعريض المصحف للتلوث بصديد الميت إذا انفجر.

وقد أفتى بعض أهل العلم بوجوب نبش القبر إذا دفن فيه مصحف، لا سيما إذا طُبع بالانتفاع بالمصحف، بأن يخرج سليماً، وأمن من كشف عورة الميت.

وبعضهم أفتى بعدم انفاذ وصية من أوصى بدفن المصحف معه؛ لأنه يؤول إلى امتنان القرآن وتلوينه، وهو أمر محرّم^(٢).

• الصورة الخامسة: بلع شيء من المصحف.

• حكمها: الظاهر من كلام أهل العلم - رحمهم الله - أنه لا يجوز لأحد أن يتلع شيئاً من المصحف، لا على سبيل الاستشفاء، ولا غيره؛ لكونه بدعة في الدين، وامتھاناً للكتاب المبين، وذلك بتعريضه لأخلاق الجوف المستقذرة، وقد صرح غير واحد من أهل العلم بتحريم بلع قرطاس كُتِب فيه قرآن، أو اسم من أسماء الله تعالى، وممن صرح بذلك: الهيثمي^(٣).

(١) انظر: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد، للمرداوي (١) / ٩٤؛ حاشية ابن عابدين (١١٩/١)؛ المغني (١٥٨/١).

(٢) انظر: تحفة المحتاج (٣/١٢٧)؛ حاشية ابن عابدين (١/٦٧٠)؛ المعيار المعرب (١/٣١٩).

(٣) انظر: الفتاوى الحلبيّة (ص ١٦٥).

والرملي^(٢٣١)، والعبادي^(٢٣٢) من علماء الشافعية - رحمهم الله جميعاً.

• الصورة السادسة: التبرُّك بالمصحف.

• حكمها: إنَّ التبرُّك بالمصحف بوضعه في المنزل، أو المكتب، أو السيارة، دون القراءة فيه البتة، يُعدُّ ضرباً من البدع، وصورة فجة من صور هجره والاستهانة به، واستعماله في غير ما أنزل له^(٥).

فقد جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَعْرَثُكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلَّقَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنِ»^(٦).

وجاء في (الأداب الشرعية) عن ابن الجوزي رحمته الله: «وينبغي لمن كان عنده مصحف، أن يقرأ فيه كلَّ يوم آيات يسيره؛ لتلا يكون مهجوراً»^(٧).

• الصورة السابعة: تلوُّث المصحف.

• حكمها: لا خلاف بين أهل العلم - رحمهم الله - في تحريم تلوُّث المصحف بأيِّ نوع من أنواع الملوثات؛ بل صرَّح بعض أهل العلم بأنه لا يحل تلوُّث المصحف بما هو مستقذر، ولو كان ذلك طاهراً، كالرِّيق أو البزاق مثلاً،

(١) هو محمد بن أحمد بن حمزة الرملي، المنوفي، المصري، الشافعي، ولد بالقاهرة سنة (٩١٩هـ) وولي إفتاء الشافعية، ومن تصانيفه: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لثنوي»، و«شرح العقود في النحو»، و«غاية البيان في شرح زبدة الكلام». توفي سنة (١٠٠٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٦١/٣).

(٢) انظر: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (١٢٦/١).

(٣) هو أحمد بن قاسم العبَّادي، القاهري، الشافعي (شهاب الدين) عالم، فقيه. توفي بالمدينة سنة (٩٩٤هـ). من تصانيفه: «غاية الاختصار في فروع الفقه الشافعي»، و«الحواشي والنكات والفوائد»، و«المحركات على مختصر السعد في المعاني والبيان» وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (٢٣٠/١).

(٤) انظر: حاشية العبَّادي على تحفة المحتاج (١٥٥/١ - ١٥٦).

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١٧٠/٢).

(٦) رواه الرازي في «فضائل القرآن وتلاوته» (ص ١٥٤) (رقم ١٢٥)؛ والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٨٧/١) (رقم ٢٧٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣٣/٦) (رقم ٣٠٠٧٩)؛ والذَّارمي في «سننه» (٣٠٦/٢) (رقم ٣٣١٩)؛ وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: (٧٩/٩).

(٧) الأداب الشرعية (٣٠٩/٢).

ولقد اشتد نكير بعض أهل العلم على من اعتاد بلّ الإصبع بريقه عند تقليب ورق المصحف ليسهل عليه ذلك، ولو لم يكن بصنيعه هذا قاصداً لتلويت المصحف^(١).

فإن توفّر قُضدُ التلويت فالظاهر أن القول بتكفيره محلّ وفاق بين أهل العلم. ونصّ أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي^(٢) كتّفه - في فنونه - على أن من قُضد كُتِب القرآن بنجس إهانة له، فالواجب قتله^(٣).

* الصُّورة الثامنة: وطء المصحف.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم - رحمهم الله - في كفر من وضع رجله على المصحف مستخفاً به؛ وكون ذلك باباً من أبواب الرَّذة، وصنيعاً يُشعر بإسقاط حرمة المصحف، وكذلك الجلوس مباشرة على المصحف استخفاً به^(٤).

فإن كان مضطراً إلى وطء المصحف، أو الجلوس عليه فقد صرّح بعدم كفره غير واحد من أهل العلم، إعمالاً للعمومات الدالة على رفع الإثم عن المضطر.

(١) انظر: حاشية الشرواني على تحفة المحتاج (١/١٥٣).

(٢) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، الحنبلي (أبو الوفاء) عالم فقيه، أصولي، مقرئ، واعظ. ولد ببغداد سنة (٤٣١هـ)، له مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، من أشهرها: «كتاب الفنون في شتى العلوم - فيما يزيد عن مائتي مجلد»، و«الفصول»، و«المفردات»، و«عمدة الأدلة». توفي سنة (٥١٣هـ).

انظر: الذيل على طبقات الحنابلة (١/١٤٢)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/١٠٣).

(٣) انظر: الفروع، لابن مفلح (١/١٩٣)؛ كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/١٦٨).

(٤) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٣٠٤)؛ قواعد الأحكام، لابن عبد السلام (١/١٩)؛ البيان، للنووي (ص ٢٠٢، ٢٣٢)؛ الفروع (١/١٩٣)؛ تحفة المحتاج وحواشيها (١/١٦٠، ٦١)؛ الفتاوى الهندية، للشيخ نظام وجماعة من علماء الحنفية بالهند (٥/٣٢٢)؛ حاشية ابن عابدين (٣/٥٦).

الفصل الثالث

هجر استماع القرآن

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف السَّماع وأنواعه.

المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن.

المبحث الثالث: آداب استماع القرآن.

المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن.

المبحث الخامس: حُكْمُ الاستماعِ للقرآن وحُكْمُ الإعراضِ عنه.

المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن.

المبحث الأول

تعريف السَّماع وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف السَّماع.

المطلب الثاني: أنواع السَّماع.

المطلب الثالث: أقسام النَّاس في سماع القرآن.

المطلب الأول تعريف السماع

أولاً: «السماع» لغة:

جاء السماع في اللغة مصدراً مشتقاً من الفعل (سَمِعَ) الذي يدلُّ على إدراك الشيء بالأذن. كما في قوله تعالى: ﴿... أَوْ آفَى السَّمْعِ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. يُقال: سَمِعَ الشيء - بالكسر - (سَمِعاً) و(سَمَاعاً)، وقد يُجمع على (أَسْمَاع) وجمع الأسماع (أَسْمَاعٌ)^(١).

استعمالات «السَّمْع» في القرآن:

ذكر عدد من علماء اللغة لهذا الفعل ومشتقاته استعمالات عديدة، وسوف نَعرِضُ للمعاني التي وردت في القرآن، وتتعلق بموضوع البحث على النحو الآتي:

- ١ - يأتي السَّمْع بمعنى القبول والعمل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِبِنْدِي أَلْعَنِي عَنْ ضَلَّتِيهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]. أي: ما تُسمع إلا من يؤمن بها، وأراد بالإسماع هنا القبول والعمل بما يسمع؛ لأنه إذا لم يقبل ولم يعمل فهو بمنزلة من لم يسمع^(٢).
- ٢ - يأتي السَّمْع بمعنى الاستجابة، كما في قول المصلي: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمَدَهُ). أي: أجاب الله حمده وتقبله، وكما في دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَهْوَدُ بِكَ مِنْ دُخَانٍ لَا يُسْمَعُ»^(٣). أي: لا يُستجاب ولا يعتدُّ به، فكأنه غير مسموع^(٤).

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/٥٧٠)؛ لسان العرب (٦/٣٦٣)، مادة: (سمع).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص١٥٤)، مادة: (سمع).

(٣) رواه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب: الاستعاذة من نفس لا تشبع (٨/٢٦٣) (ح٥٤٦٧)؛ وصرحه الألباني في «صحيح سنن النسائي»: (٣/١١١٢) (ح٥٠٥٠).

(٤) انظر: لسان العرب (٦/٣٦٤).

٣ - يُعْبَرُ بِالسَّمْعِ تَارَةً مِنَ الْأُذُنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَغَلَاقَ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. أَي: طَبِعَ عَلَيْهَا بِطَابِعٍ لَا يَدْخُلُهَا الْإِيمَانُ، فَلَا يَسْمَعُونَ مَا يَفِيدُهُمْ^(١).

٤ - يُعْبَرُ بِالسَّمْعِ تَارَةً مِنَ الْفِعْلِ (أَي: إِدْرَاكِ الشَّيْءِ بِالْأُذُنِ)، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]^(٢).

٥ - يُعْبَرُ بِالسَّمْعِ تَارَةً مِنَ الْفَهْمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: (لَمْ تَسْمَعْ مَا قُلْتُ) أَي: لَمْ تَفْهَمْ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. أَي: فَهَمْنَا وَارْتَسَمْنَا.

وكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: ٢٣]. أَي: أَفْهَمَهُمْ بَأَنْ جَعَلَ لَهُمْ قُوَّةَ يَفْهَمُونَ بِهَا^(٣).

ثَانِيًا: «السَّمْعُ» اصطلاحاً:

* عَرَّفَهُ الْمُتَنَاوِي^(٤) تَلَفُّظًا بِقَوْلِهِ: «السَّمْعُ: فَهْمُ (السَّمَاعِ) مَا كُوْشِفَ بِهِ مِنَ الْبَيَانِ»^(٥). وَالْمَقْصُودُ هُنَا: سَمَاعُ التَّدْبِيرِ وَالتَّشْكُرِ لَا مَجْرَدُ السَّمَاعِ.

* وَذَكَرَ ابْنُ الْقَيْمِ تَلَفُّظًا حَقِيقَتَهُ بِقَوْلِهِ: «وَحَقِيقَةُ السَّمْعِ: تَنْبِيهِ الْقَلْبِ عَلَى مَعَانِي الْمَسْمُوعِ، وَتَحْرِيكِهِ عَنْهَا طَلِبًا أَوْ هَرَبًا، وَحُبًّا أَوْ بَغْضًا»^(٦).

(١) انظر: تفسير السعدي (٣٥/١).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٢٤٨)، مادة: (سمع).

(٣) انظر: المصدر نفسه (ص ٢٤٩).

(٤) هو عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين بن يحيى بن محمد الحدادي ثم المتناوي، القاهري، الشافعي، ولد سنة (٩٥٣هـ)، وتوفي سنة (١٠٢١هـ)، نبغ في العربية والتفسير والحديث والأدب، وقد خلط بعضهم بينه وبين ابنه محمد بن عبد الرؤوف المتوفى سنة (١٠٢٢هـ)، ولابنه هذا شرح على التائبة الكبرى للفارسي. ولعبد الرؤوف المتناوي تصانيف كثيرة منها: «الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور»، و«إنحاف الناسك بأحكام المناسك»، و«الجواهر المضية في الأحكام السلطانية» وغيرها.

انظر: مقدمة فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمتناوي (٩/١ - ١٠).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، للمتناوي (ص ١٩٧).

(٦) مدارج السالكين (٥١٧/١).

فالاستماع إذاً: هو قصد السَّماع بغية فهم المسموع، أو الاستفادة منه^(١).

ثالثاً: الفرق بين (السَّماع) و(الاستماع) و(الإنصات):

يتعيّن علينا - قبل الدُّخول في غمار مباحث «استماع القرآن» - أن نُفرّق بين السَّماع، والاستماع، والإنصات^(٢).

١ - السَّماع: هو مجرد استقبال الأذن للذبذبات صوتية من مصدر مُعيّن، دون إعارتها انتبهاً مقصوداً. فقد يكون بقصد، أو بدون قصد. فالإنسان يسمع كلّ ما يقال حوله، وقد يتبه إلى ما يسمع وقد لا يتبه.

٢ - الاستماع: هو مهارة يُعطي فيها المستمعُ اهتماماً خاصاً، واهتماماً مقصوداً لما تلقاه أذنه من أصوات؛ ليتمكّن من استيعاب ما يُقال.

فلاحظ هنا أنّ مرتبة الاستماع أعلى من السَّماع؛ لأنّ الاستماع لا بدّ أن يتوقّف فيه القصد، ولذلك أمرنا الله تعالى عند تلاوة القرآن علينا بقوله: ﴿فَأَسْتَمِعُوا﴾ ولم يقل: «اسمعوا».

٣ - الإنصات: هو المرتبة الأعلى؛ لأنّ فيه تركيزاً أكبر، من الانتباه والإصغاء والسُّكون، من أجل هدف محدّد.

السَّمع أهمُّ حاسّةً للتلقّي:

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الاستماع مهارةٌ تحتاج إلى درجة من التّركيز وصفاء الذّهن، وغالباً ما يلازمها سكونٌ وإنصات؛ لإدراك المعاني المقصودة التي يتحقّق بها غرض المُلقّي، فالإحساس بالسَّمع مركز هامٌّ من مراكز الإدراك والفهم، لما يجري حول الإنسان من أحداث.

والإنسان الرّاشد يتعلّم عن طريق السَّمع، أكثر ممّا يتعلّم عن طريق أيّة حاسّة أخرى، وقد يكون ذلك عائداً لأسباب عدّة، منها: أنّ مدى السَّمع أكبر ممّا تصل إليه أيّة حاسّة أخرى منفردة كالبصر مثلاً، وأنّ أوّل ما يعمل من حواسّ عند

(١) انظر: المصباح المنير (ص ١٥٠)، مادة: (سمع)؛ الفروق في اللّغة (ص ٨١)؛ حاشية القليوبي على شرح المنهاج (٣/٢٩٧).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (ص ٤٤٩).

الإنسان هو السَّمْع، وهو أيضاً آخر حاسة تموت، وهو من ناحية التركيب الفيزيولوجي للدماغ أعمق في التركيب من الحواس الأخرى كالبصر مثلاً، ولعلّ هذا من أسرار تقديمه في معظم الآيات، إن لم نقل جميع الآيات، التي جمعت بين السَّمْع والبصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] (١).

المطلب الثاني

أنواع السَّمْع

قسّم العلامة ابن القيم تَفَكُّهً «السَّمْع» إلى ثلاثة أنواع، وأطال في ذلك وأجاد، وخلاصة هذه الأنواع فيما يلي (٢):

النوع الأول: السَّمْعُ المَرَضِيُّ:

فهذا السَّمْع قد أمر الله به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به، وذنم المعرضين عنه ولعنهم، وجعلهم أضلّ من الأنعام سبيلاً، وهم القائلون في النار: ﴿أَو كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ قَوْلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ﴾ [الملك: ١٠].

فانه تعالى أوردهم النار؛ لأنهم أعرضوا عن سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله ﷺ.

السَّمْعُ المَرَضِيُّ يَمُرُّ بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: سماع الإدراك.

وفي هذه المرحلة يكون السَّمْع بحاسة الأذن، كما في قول مؤمني الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢]. وقولهم: ﴿يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا لَطُوفُ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحاف: ٣٠].

(١) انظر: أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي (رسالة ماجستير تخصص علم النفس التربوي - جامعة اليرموك - الأردن) للباحثة: عندليب بنت أحمد عبد الله (ص ١٣ - ١٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٧ - ٥٢٣).

المرحلة الثانية: سماع الفهم.

وهذا السَّماع منفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْقَتْلَ﴾ [الروم: ٥٢].

كما أنه منفي عن الكفار بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. أي: لو علم الله عز وجل في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، ولأفهمهم قد سمعوا سَمْعَ الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: ولو أفهمهم لما انقادوا، ولا انتفعوا بما فهموا؛ لأن في قلوبهم من داعي التَّوَلَّى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

المرحلة الثالثة: سماع القبول والإجابة.

ومن أمثلة ذلك: قول المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. فإن هذا سَمْعٌ قبولٍ وإجابة، مَثْرٌ للطاعة.

وسماع القبول والإجابة متضمَّن للمراتب الثلاث؛ لأن المؤمنين أدركوا المسموع، وفهموه، واستجابوا له، فاستحقُّوا بذلك محبة الله لهم، ورضاه عنهم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

فكلُّ سماع في القرآن مَدَحُ الله أصحابه، وأثنى عليهم، وأمر به أوليائه: فهو هذا السَّماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام ربِّ الأرض والسَّماء، لا سماع قصائد الشعراء، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنِّين والمطربين. فحرام على قلب قد تربى على غناء السَّماع الشيطاني، أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن.

فهذا السَّماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار عُلَم الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، فليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم ﷻ عياناً، وسماع كلامه منه^(١).

(١) انظر: المصدر نفسه (١/٤٨٥).

النوع الثاني: السَّماعُ المنهِيّ عنه:

فهذا سماع يُغضه الله ويكرهه، وقد نهى عنه، ومدح المعرضين عنه، وهو سماع كل ما يضرُّ العبد في قلبه ودينه؛ كسماع الباطل كله، وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّغْوِ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]. وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَرْوُوا بِاللَّغْوِ مَرُوءًا كَكِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
واللغو في اللغة: كل ما هو باطل، ولا يفيد فائدة^(١). ومعنى «مَرُوءًا كَكِرَامًا»: أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ الغناء يُبَيِّت النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَبِيْتُ الْمَاءُ الْبِقْلَ»^(٢).

النوع الثالث: السَّماعُ المباح:

لم يتحدث ابن القيم رحمته الله عن أمثلة للسمع المباح، وقد فضل أبو حامد الغزالي رحمته الله أنواعه، وذكر منها: غناء الحجيج لأشعار تصف الكعبة، والمقام، وزمزم، وسائر المشاعر؛ لما في ذلك من تهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى، ومنها: ما يعتاده النَّاسُ لتحريض النَّاسِ على الغزو، ومنها: السماع في أوقات السُّرور تأكيداً للسُّرور وتهيجاً له، إن كان ذلك السُّرور مباحاً^(٣).

المطلب الثالث

أقسام النَّاسِ فِي سَمَاعِ الْقُرْآنِ^(٤)

انقسم النَّاسُ - مسلمهم وكافرهم، برُّهم وفاجرهم - في سماعهم للقرآن العظيم إلى أربعة أصناف، كما ذكر ذلك ابن تيمية رحمته الله^(٥):

الصَّنْفُ الأوَّلُ: مُعْرَضٌ مُمْتَنِعٌ عَنِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ:

وهؤلاء هم أئمة الكفر الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا أَلَا نَحْنُ الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنَ فِيهِ لَعَلُّكُمْ تَتَلَّبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

(١) انظر: تفسير السمعاني (٤/٣٥). (٢) انظر: تفسير البغوي (٣/٣٠٣).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٢٧٧ - ٢٧٩).

(٤) المقصود بسماع القرآن هنا: سماع القبول والإجابة.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/٨ - ١٥).

الصَّنْفُ الثَّانِي: سَمِعَ الصَّوْتِ وَلَمْ يَفْقَهُ الْمَعْنَى:

وهؤلاء هم عامة الكفار، من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وأمثلة ذلك كثيرة في الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَنْتَعِ إِلَّا دُعَاةَ وَنِدَاةَ صُومٍ بِكُمْ عُمَىٰ فَبَشِّرْهُ لَا يَقُولُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْبِرَّ وَجَعَلْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَا يَرَوْنَ كَلِمًا يُؤْتَوْنَ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ومثله هؤلاء - الذين يسمعون الصوت ولا يفقهون المعنى - كمثله من يعلم وصفا مذموماً، ويكون هو مثصفاً به، أو بعضاً من جنسه، ولا يعلم أنه داخل فيه.

وهؤلاء شرٌ - عند الله تعالى - من شرار الذواب؛ لأن الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة؛ ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصبه^(١)، فهؤلاء لا خير فيهم بنصر كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ﴾ [١٣] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

ودلت الآية الكريمة على أنه ليس كل من سمع وفقه يكون فيه خير، بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه، فلا ينتفع به ولا يكون فيه خير، ودلت أيضاً على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير؛ لأنه هو الذي ينتفع به^(٢).

الصَّنْفُ الثَّلَاث: فَقِهَ الْمَعْنَى وَلَمْ يَقْبَلْهُ:

وهؤلاء هم اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنفَعُ خَيْرٌ مِّنْ سَمْعٍ وَرِعْنَا لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنفَعُ لِمَا كَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّمْنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]. وقال تعالى فيهم: ﴿أَنظَلَّمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ

(١) انظر: تفسير السعدي (١٩٦/٢).

(٢) تأمل نماذج أيضاً لهذا الصنف من الناس في آيات السور الآتية، وأرقامها: (بونر: ٤٢ -

(٤٤) (الإسراء: ٤٥ - ٤٧) (الكهف: ٥٧) (الأنفال: ٢٠).

فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهَا مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾
[البقرة: ١٧٥].

فاليهود وإن سمعت قلوبهم الخطابَ وفقهته لا تقبله، ولا تؤمن به، لا تصديقاً له، ولا طاعةً، وإن عرفوه، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَحَرِّفُونَهَا كَمَا يَقْرَأُونَ آيَاتِنَا هُمُ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولا يقتصر الأمر على اليهود فقط، ففي عالمنا اليوم نجد طوائف من العلمانيين والعقلانيين وغيرهم الذين يفقهون المعنى ولا يقبلونه.

الصَّنْفُ الرَّابِعُ: سَمِعَ الْقُرْآنَ سَمَاعَ فِقْهِ وَقَبُولٍ:

وهؤلاء هم المؤمنون بالقرآن العظيم، المنقادون له ظاهراً وباطناً، وقد أتى الله تعالى عليهم في مواضع كثيرة من القرآن، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَاسَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْسِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا فُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَافُوا فِي سُبُلٍ مُّضِلَّةٍ ﴿١٩﴾ يَنْقُومَاتٌ لِّجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَمَأْمُورٌ أَوْ يَفْزِعَ لَكُمْ مِّن دُونِكُمْ وَيُجْزِمُكُم مِّن عَذَابِ آيَاتِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

المبحث الثاني

مظاهر هجر استماع القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار.

المطلب الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين.

المطلب الأول

مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار

لولا أن الله ﷻ ذكر في كتابه الكريم أن أقواماً أعرضوا وامتنعوا عن استماع القرآن - طوعاً واختياراً - لما كان يتصور المؤمن، ذو الفطرة السليمة، أن أحداً من البشر يجرؤ على حرمان نفسه - في الدنيا - من التلذذ بكلام الله تعالى، وعلى هلاكها في الآخرة.

وهذا النوع من البشر - المعرض عن سماع القرآن - لا خير فيه، بل هو من شرار الدواب، الذين وهب الله تعالى لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ومع ذلك استعملوها فيما يعود عليهم بالضرر، وجحدوا نعمة الله وهم يعلمون.

وإعراض الناس عن استماع القرآن يأخذ مظاهر عديدة: فتارة بالتواصي بعدم السماع، وتارة بالإعراض والاستكبار عن السماع، وتارة بالتعامي والتصام عن السماع، وتارة بالاستهزاء حال السماع، وتارة بالضجر والتأفف، وتارة بالإزلاق بالعيون، وتارة بالتهاون والتغافل عن السماع، وهذا ما سنتناوله بالتفصيل والبيان، من خلال بسط مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار.

١ - الإعراض عن سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

فمن أكبر الجرم، وأعظم الظلم للنفس أن يُعرض الإنسان عن القرآن العظيم، الذي فيه سعادته في الدنيا، ونجاته يوم القيامة، فلم يفتح مسامعه للآيات البينات، ولم يتذكر بما دُكر به، ونسي ما قدمت يده من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها.

فجاءت عقوبته من جنس عمله: بأن سُدت عنهم أبواب الهداية، وجُعِلت

الأغطية المحكمة على قلوبهم، وجُعِل الضمُّ في آذانهم يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع بها، جزاء وفاقاً.

* وحكى الله تعالى - في موضع آخر - إعراض الكفار عن القرآن العظيم بقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاقْرَأْ أَكْثَرَهُمْ فَهَمَّ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنَّا لَمُنَافِقَةٌ وَقَدْ أَمِنَّا وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَابِدُونَ﴾ [فصلت: ٤ - ٥].

تبيّن هذه الآية الكريمة أن أكثر الخلق معرضون عن القرآن الكريم، لا يسمعون له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم به الحجّة الشرعية عليهم^(١).

وتَجَعَّح المعرضون: بأن قلوبهم في أغطية فلا تصل إليها الآيات، وآذانهم صماء فلا تسمع الآيات المتلوّة، وضربوا حجاباً معنوياً بينهم وبين النبي الكريم ﷺ؛ لقطع جميع منافذ الاتصال، إمعاناً في العناد من جهة، وبغية تبيسه ﷺ من جهة أخرى؛ ليكفّ عن دعوتهم بالقرآن العظيم، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع آياته عليهم، فأبى إعراض أكبر من ذلك؟^(٢).

٢ - الاستكبار عن سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَنْ نُنصِرَهُمْ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْبًا مَّنِيئًا وَمَنْ يَفْتَرِ بِمَذَابٍ آخَرَ﴾ [لقمان: ٧].

فهذا أعظم من مجرد الإعراض؛ لأنّ إعراضه إعراض استكبار، لا إعراض قهري في الخير وزهد فيه فحسب، ولذلك بُشِّر هذا المستكبر المُعرض عن القرآن الكريم، بالعذاب المؤلم لقلبه وبدنه في الآخرة، جزاء لاستكباره عن سماع القرآن في الدنيا.

* ولا يليق بمن يُعرض عن القرآن، ويتكبر عن سماع آياته إلا التهديد والتنكيل، والسخرية منه، قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَرَبُّكَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ كَيْفَتُ اللَّهُ نُنزِّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُؤْمِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ وَمَذَابٍ آخَرَ﴾ [الجنّة: ٧ - ٨].

فتصوّر هذه الآيات الكريمات جانباً من استقبال المشركين للقرآن،

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/٣١٠٨).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٧٤٤).

وإصرارهم على باطلهم، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق المبين، ومكابرتهم في هذا الحق كأنه لم يطرق آذانهم.

وهذه الصورة البغيضة تتكرر في كل زمان ومكان، فكم في الأرض من يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يُصِرُّ مستكبراً كأنه لم يسمعها؛ لأنها لا تُوافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله، ولا تُقرُّه على شره، ولا تتمشى له مع اتجاهه^(١).

٣ - التواصي بعدم سماع القرآن:

من أبرز مظاهر هجر سماع القرآن: ما دعا إليه أنمة الكفر - وصية أتباعهم - بعدم السماع للقرآن الكريم ابتداء، خشية أن يؤمنوا به بعد استماعهم له، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا أَلَمْ نَكُنْ نَدْعُوا بِنِجْمٍ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولكن مكرهم ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن العظيم؛ لأنه يحمل سر الغلب، إنه الحق؛ والحق غالب مهما جهد المبطلون^(٢).

ومن مظاهر التواصي فيما بينهم بعدم سماع القرآن: أن بعضهم يُعْتَفِ بعضاً ويلومه، ويعيب عليه، إذا ما حاول - قاصداً أو ناسياً - سماع القرآن، يقول الله تعالى حاكياً هذا التواصي فيما بينهم: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَقْبَحُونَ ﴿١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم مَّا أَتَاوُنَا السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣].

لقد نعتوا القرآن بالسحر، ونعتوا أنفسهم بالإبصار، وحقيقة الأمر على غير ذلك، فما القرآن إلا وحي مؤثر من خالقهم، وما ادعاهم الإبصار إلا محاولة تبرير ضعيفة، وهروب منهزمة، يسترون تحتها ما في نفوسهم، من استكبار وعتو، وتواصي على عدم الانصياع للحق، وحرص على استخدام كل الأساليب الإعلامية، التي تمنع وصول أي أثر لهذا البث القرآني المؤثر في النفوس^(٣).

(١) انظر: المصدر نفسه (٥/٣٢٢٤).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٥/٣١٢٠).

(٣) انظر: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، د. محمد عطا أحمد يوسف، مجلة الشريعة

٤ - البطش بمن يقرأ القرآن:

قال تعالى: ﴿وَأِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ لِّعَرَفِ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمُنْكَرًا مَّكَادُوكَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ بَتَلُوا عَلَيْهِمْ مَا يُبَيِّنُهَا﴾ [الحج: ٧٢].

ومن أبرز مظاهر هجر سماع القرآن: أن تغضب النفوس، وتعبس الوجوه، ويصيب القلوب من الغم والحزن والكراهية لدى سماع القرآن.

فهذا هو حال الكفار عند سماعهم للقرآن العظيم، تكاد هذه الكراهية لسماع الآيات أن تتحول إلى البطش والفتك بمن يقرأ عليهم القرآن.

٥ - التعمي والتصام عن القرآن:

كان النبي ﷺ يجتهد في إيصال حقائق القرآن الإيمانية إلى قومه ولا يزيدهم ذلك إلا تصميماً على الكفر، وتمادياً في الغي، فقال تعالى مبيناً حالهم: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ۗ ﴿١١﴾ وَمَنْ مِّنْ يَّنظُرُ إِلَيْكَ لَأَفْتَى تَهْدَى الصَّمَّى وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣].

فقد كان فريق منهم يستمعون إلى النبي ﷺ - وقت قراءته للوحي - لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب، وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع، فقد انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع.

فلو جهر النبي ﷺ بالقرآن، فإنهم لا يستمعون القول. فإذا كان من المحال إسماع الأصم، الذي لا يعقل الكلام، فهؤلاء المتصامون كذلك، ممتنع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وحتى نظرهم إليك لا يفيدهم؛ لأنهم تعاموا عن الحق، فكما أنك لا تهدي العمي، فكذلك لا تهدي هؤلاء. فإذا فسدت عقولهم، وأسماعهم، وأبصارهم - التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق - فأتى لهم أن يهتدوا؟^(١).

والمقصود من ذلك: تسلية النبي ﷺ، بأن هؤلاء المتعامين المتصامين قد بلغوا في مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العلاج. والطبيب إذا رأى مريضاً لا

= والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت (عدد: ٣٦) (شعبان ١٤١٩) (ص ٦٩ - ٧٠).

(١) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٣٢١).

يقبل العلاج أعرض عنه، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج، فكذلك وجب عليك - أيها النبي الكريم ﷺ - ألا تستوحش من إعراضهم عن سماع القرآن^(١).

* وبين الله تعالى - في موضع آخر - أن صممهم وعماهم كان بسبب كونهم في ضلال مبين: ﴿أَفَلَمْ تَسْمِعِ الْمَسَّةَ أَوْ تَهْدَى الْأُمَّتَى وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

* وفي موضع ثالث تبين أن حالتهم أعظم من الصمم؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيغ به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة^(٢): ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاوَةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

٦ - الاستهزاء حال سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِنَّ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

يُخبر تبارك وتعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون - استهزاءً: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفي قوله: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ قولان:

أحدهما: قد سمعنا منك ولا نُطيعك.

والثاني: قد سمعنا قبل هذا مثله^(٣).

«ومن عجيب بهتانهم أن الرسول ﷺ تحداهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأفجموا، ثم اعتذروا بأن ما في القرآن أساطير الأولين، وأنهم قادرون على الإتيان بمثل ذلك^(٤)».

٧ - الضجر والتأفف.

يستشعر الكفار ثقلَ هذا القرآن على نفوسهم، ويتضجرون بما يجدون فيه

(٢) انظر: المصدر نفسه (١٤٧/٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٨٣/٩).

(١) انظر: التفسير الكبير (٨١/١٧).

(٣) زاد المسير (٢٦٤/٣).

هن عجائب الخطاب وروائع البيان، فلا يسعهم إلا أن يُعرضوا عن سماعه،
 ويطالبوا النبي الكريم ﷺ أن يأتي بقرآن غيره، أو يبئله، ويسجل القرآن عرضهم
 هذا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِّقَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
 لِيُتِيَّ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِحَقِّهِ إِنْ أَنِيعُ إِلَّا
 مَا يُؤْتِي إِلَهٌ إِنَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

إنه طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل، وعن جهل
 كذلك بوظيفة هذا القرآن العظيم وجدية تنزيله^(١).

فقبّحهم الله، ما أجرامهم على الله، وأشدّهم ظلماً، وإعراضاً عن سماع
 كتابه! كيف يتجرّون بهذه المقولة: ﴿أَتَيْتُ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ؟﴾

فإذا كان الرسول العظيم ﷺ، يأمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا
 يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِحَقِّهِ﴾ أي: ما ينبغي، ولا يليق بي ذلك؛ فإني
 رسول محض، ليس لي من الأمر شيء.

فهذا قول خير البرية، وأدبه مع أوامر ربه ووحيه. فكيف بهؤلاء السفهاء
 الضالين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟^(٢).

٨ - بُغْضُ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَكِرَاهِيَةُ قَارِئِهِ:

جارحة العين خلقها الله للرؤية، وقد يصدر عنها بعض الحركات، أو
 الإشارات التي تنبئ عن حالة صاحبها النفسية، والقرآن الكريم يسجل حركة
 حادة لجارحة العين، تصدر من المعاندين من أهل الكفر عند سماعهم للقرآن،
 يقول سبحانه: ﴿وَلَنْ يَكْفُرُ الْيَهُودُ كَثْرًا أَلَيْسَ لِكُلِّ قَوْمٍ ذِكْرٌ وَمَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَحَسْبُونا﴾
 [القلم: ٥١].

والزَّلَقُ: بفتحين - زَلَّلُ الرَّجُلَ مِنْ مَلَامَةِ الْأَرْضِ مِنْ طِينِ عَلَيْهَا أَوْ دَهْنِ^(٣).
 فالإزلاق - إذا - حركة في قدم الإنسان، تجعلها تزلق، وتفقد توازنها
 وثباتها على الأرض. وقيل في معنى يزلقونك: يصيبونك بأعينهم.

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٧٧٠). (٢) انظر: تفسير السعدي (٢/٣٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/١٠٠).

وقيل: ليس المراد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يُسقطك^(١).

«فهذه النظرات تكاد تُؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتزلق، وتفقد توازنها على الأرض وثباتها! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحق، وشر وحسد، ونقمة وضرغن، وحنى وسم، مصحوبة هذه النظرات المسمومة بالسب القبيح، والشتم البذيء، والافتراء الذميمة: ﴿وَقَوْلُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^(٢).

٩ - التهاون والتغافل عن سماع الوحي:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَنَئًا وَإِنَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا آيَاتِنَا مَاذَا قَالَ أُوتِيَكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

يُخبر الله تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم حيث كانوا يحضرون عند النبي ﷺ فيسمعون كلامه وتلاوته ظاهراً، وفي حقيقة الأمر لم يُصغوا أسماعهم.

فإذا خرجوا قال بعضهم - لمن شاء من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا: ماذا قال محمد [ﷺ] آنفاً؟

فمنهم: مَنْ يقول هذا استخفافاً. أي: ما معنى ما قال، وما نفعه، وما قدره؟ ومنهم: مَنْ كان يقول ذلك جهالةً ونسياناً؛ لأنه كان في وقت الكلام مُقبلاً على الدنيا، فكان القول يمرُّ عليه صفحاً^(٣).

وهذا من أعظم مظاهر هجر سماع الوحي؛ لأنهم حضروا بأبدانهم، وغابت قلوبهم وعقولهم، فهم يسمعون الأصوات فقط، دون أن يعوا مضمون القول. فهؤلاء هم المنافقون الذين ختم الله على قلوبهم؛ لعدم توجُّههم نحو الخير أصلاً.

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/٤٥٦)، تفسير القرطبي (١٨/٢٤٤).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٦٧).

(٣) انظر: المحرر الوحي في تفسير الكتاب العزيز (٥/١١٤).

المطلب الثاني

مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين

لا يقتصر هجر استماع القرآن على الكفار أو المنافقين بل يتعداه إلى فئات من المسلمين الذين تشبَّهوا بهؤلاء بإعراضهم - في كثير من الأحيان - عن سماع القرآن العظيم، مع إيمانهم به، ونحن لا نقصد بعرضنا لمظاهر هجر استماع القرآن عند المسلمين - هنا - عقد مقارنة بينهم، وبين الكفار، أو الجمع بين الحدّ المشترك بينهما في هجر السّماع، فشأن بين هجر الكفار، وبين هجر المسلمين للسماع، فالمقصود: هو التّنبية على هذا السلوك الغير لائق من المسلم في التعامل مع القرآن، وأنّه بذلك قد يتشبه بالكافرين، فهل يرضى لنفسه هذا الشّبه؛ لعلّه يرتدع ويعود إلى رشده!

وهذا الإعراض يأخذ هيئة مظاهر: فربّما يكون بالتشّاعل بالغناء أو قنوات البثّ الفضائي عن سماع القرآن، وربّما يكون بالصّياح والضّوضاء في مجالس القرآن، أو يكون بالإعراض عن تفهّم القرآن وتدبّره حال سماعهم بأمر مباحة أو محرّمة، وهذا ما سنتناوله بالتّفصيل والبيان، من خلال النّقاط الآتية:

١ - التّشاعل بالغناء عن استماع القرآن:

من أبرز المظاهر التي أدت بكثير من المسلمين - إلا من رحم الله - إلى هجر القرآن الكريم: استماع الغناء والموسيقى، ويلحق بذلك عكوف كثير من جمهور المسلمين أمام قنوات البثّ الفضائي لمشاهدة ما حرّم الله تعالى عليهم من ألوان الفسق والفجور، ولا أزيد في هذا المقام على كلام ابن القيم رحمته - الذي أجاد وأفاد بقلمه العذب السيّال - وهو يصف لنا تأثير الغناء على النّاس، في صندهم عن استماع القرآن العظيم، إذ يقول:

«ومن مكابِد عدوّ الله ومصايدِهِ، التي كاد بها مَنْ قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المُكّاء، والتّضديّة، والغناء بالآلات المحرّمة، الذي يصدُّ القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشّيطان، والحجاب الكثيف عن الرّحمن، وهو

رُقِيَةَ اللُّوَاطِ وَالزَّنَا، وبه ينالُ العاشقُ من معشوقه غايةَ المنى . كاد به الشيطانُ النفوسَ المبطلَةَ، وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشَّبَهَ الباطلةَ على حُسنه قبلتْ وخيه واتخذتْ لأجله القرآنَ مَهْجورًا .

فلو رأيتهم عند ذِيَاك السَّماعِ وقد خَشَعَتْ منهم الأصواتُ، وهدأت منهم الحركاتُ . وعكفت قلوبهم بكليتها عليه . وانصبتْ انصبابًا واحدةً إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّسوانِ، وتكسروا في حركاتهم ورَقَصْهم، أرايتْ تكسُرُ المخانيثِ والنَّسوانِ؟ . . .

فيا رحمةً للسقوف والأرض من ذكَّ تلك الأقدام، ويا سواتاه من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالَّذين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام، قضوا حياتهم لذَّةً وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً . مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سُور القرآن، ولو سمع أحدُهم القرآنَ من أوله إلى آخره لما حرك له ساكنًا، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وَجْدًا، ولا قدح فيه من لواجِعِ الشوقِ إلى الله زَنْدًا، حتى إذا تُلِّي عليه قرآنُ الشيطانِ، وولجَ مَزْمورُهُ سَمْعَهُ، تفجرت ينابيعُ الوَجْدِ من قلبه على عينيه فجرث، وعلى أقدامه فرَقَصَتْ، وعلى يديه فصَفَقَتْ، وعلى سائر أعضائه، فاهتزَّت وطربت، وعلى أنفاسِهِ فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيرانِ أشواقه فاشتعلت .

فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع خَطَه من الله بنصيبه من الشيطانِ صَفْقَةَ خاسرٍ مغبونٍ، هَلَا كانت هذه الأشجانُ، عند سماعِ القرآنِ؟^(١) .

ويضيف ابن القيم رَكَّةً - في موضعٍ آخر - مبيِّنًا الفرقَ بين ذوقِ المتقدمين من السَّلَفِ الصَّالِحِ، والمتمثِّلِ في حبِّ استماعِ القرآنِ، وبين ذوقِ المتأخِّرين، والمتمثِّلِ في حبِّ سماعِ مزمارِ الشيطانِ، قائلاً:

«والسَّلَفُ الصَّالِحُ كانوا يجدون الأذواقَ الصحيحةَ المتصلةَ بالله في الأعمالِ الصحيحةِ المشروعةِ، وفي قراءةِ كتابِ الله وتدبُّره واستماعِهِ، وفي مُزاحمةِ العلماءِ بالرُّكْبِ، وفي الجهادِ في سبيلِ الله، وفي الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ،

(١) إغاة اللُهفان من مصابِدِ الشيطانِ (١/٣٤٤ - ٣٤٥).

وفي الحب في الله، والبغض فيه، وتوابع ذلك. فصار ذوق المتأخرين إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ فِي الْبِرَاعِ^(١) وَالذُّفَّ وَالْمَوَاصِيلِ وَالْأَغَانِي الْمَطْرِبِيَّةَ، وَفِي الصُّوَرِ الْمَسْتَحْسَنَةِ وَالرَّقْصِ وَالزُّغْفَاتِ، وَتَعْطِيلِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ عِبَادَتِهِ الْمَخَالَفَةَ لِهَوَى النَّفْسِ.

فَشَتَّانَ بَيْنَ ذَوْقِ الْأَلْحَانِ وَذَوْقِ الْقُرْآنِ، وَبَيْنَ ذَوْقِ الْعُودِ وَالطَّنْبُورِ، وَذَوْقِ «الْمُؤْمِنِينَ» وَ«النُّورِ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ الزُّمْرِ وَذَوْقِ «الزُّمْرِ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ النَّأْيِ وَذَوْقِ «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ» وَ«انْشَقَّ الْقَمَرُ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ الْمَوَاصِيلِ وَالشَّبَابَاتِ وَذَوْقِ «يَس» وَ«الضَّافَاتِ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ غِنَاءِ الشُّعْرِ، وَذَوْقِ سُورَةِ «الشُّعْرَاءِ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ سَمَاعِ الْمَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ، وَذَوْقِ «الْأَنْبِيَاءِ»، وَبَيْنَ الذُّوقِ عَلَى سَمَاعِ تَذَكُّرِ فِيهِ الْعُيُونِ السُّودِ وَالخُصُورِ وَالقُدُودِ، وَذَوْقِ سَمَاعِ سُورَةِ «يُونُسَ» وَ«هُودَ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ الْوَاقِفِينَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ صَوَافٍ؛ وَذَوْقِ الْوَاقِفِينَ فِي خِدْمَةِ الرَّحْمَنِ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ» وَ«الْأَعْرَافِ»، وَبَيْنَ ذَوْقِ الْوَاجِدِينَ عَلَى طَرَبِ الْمَثَلِثِ وَالْمِثَانِي، وَذَوْقِ الْعَارِفِينَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ «الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» وَ«السَّبْعِ الْمِثَانِي»، وَبَيْنَ ذَوْقِ أَوْلِي الْأَقْدَامِ الضَّافَاتِ فِي حَظِيرَةِ سَمَاعِ الشَّيْطَانِ، وَذَوْقِ أَصْحَابِ الْأَقْدَامِ الضَّافَاتِ بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ^(٢).

رَحِمَ اللهُ ابْنَ الْقَيْمِ رَحْمَةً وَاسِعَةً، كَيْفَ لَوْ رَأَى تَطَوُّرَ هَذِهِ الْمَعَازِفِ الْقَدِيمَةِ إِلَى آلَاتٍ حَدِيثَةٍ، كَالْكَمَنْجَةِ، وَالْقَانُونِ، وَالْأُورْجِ، وَالْبِيَانُو، وَالغَيْثَارِ، وَغَيْرِهَا، بَلْ إِنَّهَا فِي الطَّرَبِ وَالتَّنْشُوءِ وَالتَّأْتِيرِ أَشَدُّ أَثْرًا مِنْ الْمَعَازِفِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي وَرَدَ تَحْرِيمُهَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ.

وَتَتَفَاقَمُ الْمَصِيبَةُ وَيَعْظُمُ الْجَرْمُ إِذَا عُرِضَ الْغِنَاءُ الْيَوْمَ بِصُورَةٍ فَجَّةٍ وَفَاضِحَةٍ وَمَزْرِيَةٍ فِي مَا يُسَمَّى بِـ «الْفِيدِيو كَلِيبِ»، فَكَيْفَ لِقُلُوبِ تَرَى وَتَسْمَعُ هَذِهِ الْفَضَائِحَ وَالْمُنْكَرَاتِ، أَنْ تُقْبَلَ - بَعْدَ ذَلِكَ - عَلَى اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ!؟

(١) الْبِرَاعُ: الْقَصَبَةُ الَّتِي يُصَفَّرُ بِهَا الرُّعَاعِي. انظر: لسان العرب (٤٤٣/١٥)، مادة: (برع).

(٢) كَشَفَ الْغِطَاءَ عَنْ حُكْمِ سَمَاعِ الْغِنَاءِ، لِابْنِ الْقَيْمِ (ص ١٠٧ - ١٠٨)، تَحْقِيقُ: رِبِيعِ بْنِ أَحْمَدَ خَلْفَ.

٢ - سماع الطرب:

من مظاهر هجر استماع القرآن طربُ السماع إلى صوت القارئ والانفعال بجماله وعلوته والاشتغال به عن تدبر آياته والانتفاع به، فلا يتعظون في مواضع العظة ولا ينتهون في مواضع النهي، بل الأشد من ذلك تراهم يفعلون برفع الأصوات بعباراتٍ من مثل: «الله»، «الله يفتح عليك»، «ياسلام»، «الله الله»، «زدنا يا سيدنا الشيخ زدنا» والشيخ يقرأ قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِكُمْ دَرَعَةٌ سَبَّحُونَ بِهَا مَا تَسْلُكُونَ﴾ [الحاقة: ٣٢]، فماذا يريد من الزيادة؟! وهذا السماع بدعة محدثة، وصارفة عن فهم وتدبر القرآن العظيم والانتفاع بمواعظه.

جاء في (الفتاوى الهندية):

«رفع الصوت عند سماع القرآن والوعظ مكروه، وما يفعله الذين يدعون الوجد^(١) والمحبة لا أصل له، ويمنع الصوفية من رفع الصوت وتخريق الثياب^(٢)».

فأين نحن من سلفنا الصالح؟ وهم القدوة، وقد اتخذنا القرآن أغاني، فالقارئ يتفنن في التنغيم والتلحين، ويخرج به عن سنن الترتيل وقواعد التجويد، ويعيد الآية عند استحسان السامعين للثغمة وطلبهم الإعادة، والسامع يستخفه الطرب، لا من معاني القرآن، بل من حسن التوقيع، وأفانين الألحان، ولو أن أعجباً - لا يعرف القرآن - سمع هؤلاء لحسب أنهم يرددون ألحان المطربين لا كلام رب العالمين.

وهذا النوع من المستمعين عن آيات الله معرضون، لا يفقهون شيئاً مما يسمعون، ولا يحدث سماع القرآن في قلوبهم من الأثر إلا ما تُحدثه أغنية أو لحن. بل ربّما تأثروا بكلمات بعض الأغاني أكثر من تأثرهم بسماع القرآن.

فكيف يرجون ثواباً، ويقصدون التعبّد بالقراءة والسماع، والأمر على ما وصفنا - حال سماعهم: من حركات طائشة، وكلمات مبتدعة، وصباح

(١) المقصود بالوجد: المحبة والهوى. انظر: لسان العرب (٢١٨/١٥)، مادة: (وجد).

(٢) الفتاوى الهندية (٣١٩/٥).

وضوضاء، واستحسان للنعمة، وإغراء بالمزيد منها، وطلب الإعادة للآية لحسن التوقيع، وانتهاك لحرمة المساجد، وتجاوز في القراءة للحدود المروية عن أئمة القراء رحمهم الله تعالى.

فأين خشية الله، والخوف منه عند سماع آيات العذاب التي تنخلع من هولها القلوب؟ وأين الإنصات والخشوع والتفكير؟ وأين التوبة والاستغفار من الذنوب عند استماع كلام رب العالمين؟^(١)

٣ - التشاغل عن استماع القرآن :

وهو حال كثير من المسلمين - إلا من رحم الله - حيث يستمعون إلى القرآن العظيم وقلوبهم مغلقة وأذانهم صماء، فلا يفقهون شيئاً مما يسمعون، ولا يُعيرونه اهتماماً؛ لأنَّ المُعرض لا يسمع حقيقة، وإذا سمع لا يعي، أجسامهم حاضرة، وعقولهم وقلوبهم غائبة، يسمعون الأصوات دون أن يفهموا مضمون القول؛ لأنَّ قلوبهم قد حُجبت عن استماع القرآن بأنواع من المعاصي والآثام؛ من هوى، أو فهو محرم، أو انشغال بالدنيا على حساب الآخرة، ولهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا لَا يَسْمَعُهَا كَأَن لَّهُمْ آذَانًا وَقُرْآنًا فَهُمْ يَنْصِتُونَ يَتْلُو آيَاتِنَا لِغُلُوبِهِمْ لَا يَسْمَعُونَ حَسْرَةً لِّمَآ أَنفَعُوا﴾ [الجم: ٧].

وتراهم يتحدثون ويضحكون، وربما تلفظوا ببذيء الكلام والقرآن يتلى على مسامعهم، أو لعبوا الترد أو الورق والقرآن يتلى، أو سب أحدهم وفجر وشتم والقرآن يُتلى على مسامعه، وربما كانوا على حالٍ تُعاكس حال الآية التي تتلى عليهم؛ فترى أحدهم يُلاحق امرأة بنظراته والقارئ يتلو: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. أو يسبُّ ويشتم والقارئ يتلو: ﴿خُذِ الْقَوْلَ مِنْ أَمْرِ الْمُعْزَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكُفْرِ وَاللَّيْلِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. أو يسيء لجاره ويؤذيه والقارئ يتلو: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]^(٢).

(١) انظر: القرآن: آداب تلاوته وسماعه، لحسين محمد مخلوف (ص ٢٤ - ٢٦)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص ٤٩).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١٥٦).

وقد حذر الله تعالى المؤمنين من الإعراض عن استماع القرآن؛ لئلا يكون حالهم - في هذا الإعراض - كحال الكفار الذين أعرضوا عن سماع كلام الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَلِيمُوا إِلَهَهُ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢١].

إن سماع القرآن ليس بالتمني والتحلي، والادعاء بمجرد السماع، لكنه لم يقر في القلوب وصدفته الأعمال. فهؤلاء الكفار ادعوا السماع، وهو مما حذر الله منه المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فدعواهم فارغة لا حقيقة لها؛ لأنهم سمعوا بأذانهم فقط دون قلوبهم، فأخبر الله تعالى أنهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ، ولذلك أنزلهم منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعل سماعهم بمنزلة العدم. فهى الله تعالى المؤمنين أن يكون حالهم كحال هؤلاء في الإعراض عن استماع مواعظ القرآن وحُججه^(١).

وهو ما أكد عليه القرطبي^(٢) بقوله: «فدلّت الآية على أن قول المؤمن: سمعتُ وأطعتُ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامثال فعله. فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتمها، فأبى سَمْعَ عنده وأبى طاعة! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويُسِرُّ الكفر؛ وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني بذلك المنافقين، أو اليهود، أو المشركين»^(٣).

(١) انظر. تفسير القاسمي (٤/٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/٣٧٠).

المبحث الثالث

آداب استماع القرآن

آداب استماع القرآن

أمر الله النبيين والمؤمنين بالاستماع:

ذكر الله تبارك وتعالى حال المؤمنين عند استماع آيات القرآن المجيد، بأنهم يلقون إليها الأسماع في إصغاء وخشوع، وأدب وخضوع، وصمت وأذكار، وتفكير واعتبار، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقبل ذلك أمر الله تعالى النبيين بالاستماع للوحي عند تلاوته، ونهاهم عن الانشغال عن الاستماع لما يوحى بأي شيء، ولو بتلاوة الوحي نفسه، قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣]. وكان النبي ﷺ إذا قرأ عليه جبريل ﷺ القرآن تعجل بالقراءة خلفه خشية النسيان، فقال الله له: ﴿لَا تُعْرَفْ بِهِ، إِسَّاكَ يُعْجَلُ بِهِ﴾ [١١] **بِهِ** **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** [١٧] **فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ تُرْمَانَهُ** [١٨] **ثُمَّ لِنَّا عَلَيْنَا يَأْتِيهِ** [القيامة: ١٦ - ١٩]. وقال للمؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. فقد جعل الله تعالى الاستماع والإنصات للتلاوة مناط الرحمة؛ ليعلم أن اللغو عند قراءته والتصدية والمكاء، والجلبة والضوضاء من موانع الرحمة، وهو يتنافى مع آداب الاستماع الذي يحبه الله تعالى ويرضى عنه، من سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور القلب، والعزم على العمل^(١).

والاستماع الصحيح قد جعله سفيان الثوري^(٢) ركنة بداية العلم المؤدي إلى

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٩٩ - ١٠١).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، نسبة إلى (ثور) أحد أجداده، ولد سنة (٨٩٧هـ)، وكان إماماً من أئمة المسلمين في العلم والفقه والحديث، ثقة، حجة، ثبتاً، حتى قال عنه

العمل، فقال: «أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»^(١).

والقارئ والسامع شريكان في فضل التلاوة وآدابها، إلا أن القارئ لانشغاله بمنطق الآيات ومخارج الحروف، وحرصه على النطق الصحيح، وخوفه الخطأ، وخاصة إذا كانت قراءته في جمع من الناس، فله آدابه...

فالقارئ آتة اللسان، واللسان يُعبر عما في القلب والعقل، ومعنى هذا أن قلبه يسبق لسانه، وأما المستمع فآتة الأذن التي تصب في القلب والعقل، فأذنه تسبق قلبه، فلهذا الاعتبار له آدابه الخاصة به.

وبشكل عام فإن آداب الاستماع هي آداب التلاوة مع بعض الفروق بينهما بسبب ظروف السماع، واختلافها عن ظروف التلاوة أحياناً.

وقد حصر أبو حامد الغزالي رحمته الآداب الباطنة لقارئ القرآن، في عشرة آداب^(٢)، وأسهب في سردها، فقامت باختصارها وتغيير سياقها إلى آداب الاستماع - باعتبار اشتراك السامع والقارئ في القرآن، هذا بسماعه، وهذا بقراءته - وأضفت إلى ذلك شيئاً من كلام العلامة ابن القيم، وبعض أهل العلم، وخرجت هذه الآداب في حلة جديدة تتناسب وحال السماع، وهي على النحو التالي^(٣):

= ابن معين وغيره: «أمير المؤمنين في الحديث»، توفي بالبصرة سنة (١٦١هـ).
انظر: الطبقات الكبرى (٦/٣٧١ - ٣٧٤)؛ البداية والنهاية (١٠/١٣٤).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٢٨٧). وانظر: سنن الدارمي (١٠٧١) (رقم ٣٣٠) بلفظ آخر.

(٢) هي:

- | | | |
|---------------------|--------------|----------------------------|
| ١ - فهم أصل الكلام. | ٢ - التعظيم. | ٣ - حضور القلب. |
| ٤ - التدبير. | ٥ - التفهم. | ٦ - التخلي عن موانع الفهم. |
| ٧ - التخصيص. | ٨ - التأثر. | ٩ - الترقى. |
| ١٠ - التبري. | | |

انظر: إحياء علوم الدين (١/٢٨٠ - ٢٨٨).

(٣) انظر: كيف نتأذب مع المصحف، لمحمد رجب فرجاني (ص ٢١٧ - ٢٢٨)؛ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي (ص ١٩٨ - ٢٠٨)؛ حق التلاوة، حسني شيخ عثمان (ص ٣٩٩ - ٤٠٠).

١ - تعظيم المتكلم:

ينبغي لسامع القرآن أن يُحضر في قلبه عظمة المتكلم، فهو ربُّ الأرباب، مالك كلِّ شيء، قيوم السماوات والأرض، ويستحضر صفات الكمال والجمال والجلال في قلبه، وهو يستمع إلى كلام ربِّ العزة، ويعلم أن ما يُتلى ليس من كلام البشر، وكما أن ظاهر غلاف المصحف وورقه محفوظ عن ظاهر بشرية اللامس إلا إذا كان متطهراً، فكذلك معاني القرآن - بِحُجْمِ عِزِّهِ وَجَلَالِهِ - محجوبة عن قلب الإنسان إلا إذا كان متطهراً من كلِّ رجس، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير.

وكما لا يصلح للنسِ غلاف المصحف كلُّ يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كلُّ لسان، ولا لنيل معانيه كلُّ قلب، ولا لسامع آياته كلُّ أذن.

٢ - استشعار عظمة الكلام وعلوه:

بمعنى أن يستشعر عظمة القرآن، وأن هذه العظمة هي من عظمة المتكلم به سبحانه، لذا فهو ليس كلام البشر، ولا يقاربه كلام أحد من البشر بوجه من الوجوه، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه، وأنه محكم النظم، دقيق المعنى، لا تعارض فيه، ولا اختلاف، والسعيذ من وُقُق إلى فهم واستشعار معانيه، وعلى مستمعه أن يتأمل في فضل الله تعالى ونطفه بخلقه، حيث خاطبهم بهذا الكلام العظيم الشريف، وتكثّل - تفضلاً منه ورحمةً - بتفسير إفهامهم إيّاه. ولولا ذلك لعجزت أفهام العباد عن إدراك كلام الله الذي تجلّى في شكل كلماتٍ وحروفٍ منطوقة ومسموعة أو مكتوبة.

ولولا تثبيت الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه، كما لم يُطق النجبل تجلّي ذي العرش فصار دكّاً، وغيره من البشر - سوى الأنبياء - من باب أولى.

٣ - حضور القلب عند السماع:

ومعنى حضور القلب: هو أن يكون القلب متأهباً في شوقٍ إلى تلقّي ما تسمعه الأذن لا ينصرف عنه، فقد تكون الأذن سامعةً والقلب مشغولاً بهومٍ أو

خواطر، ولذلك ينبغي على مستمع القرآن الكريم أن يطرد حديث النفس أثناء استماعه، ويتولد هذا من التعظيم، فإنَّ المعظم لكلام الله يستبشر به، ويأنس له، ولا يفغل عنه.

٤ - تدبُّر المسموع:

وهو وراء حضور القلب مباشرة، فإنه ربما لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماعه دون تدبُّر، والمقصود الأعظم من القراءة والسماع هو التدبُّر، والله تعالى ما أمر القارئ بالترتيل ظاهراً بقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤].
إلا ليحصل التدبُّر له، وللمستمع في الباطن، إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا قراءة لا تدبُّر فيها.

أحوال النَّاس في انتفاعهم بالقرآن:

ذكر ابن القيم رحمته حال النَّاس عند سماعهم للقرآن العظيم وانتفاعهم به، مسترشداً ومهتدياً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَإِذْكَرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٢٧]. قائلاً: «النَّاس ثلاثة:

الأوَّل: رجل قلبه ميِّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست الآية ذكرى في حقه.

الثَّاني: رجل له قلب حيٌّ مستعدٌّ، لكنَّه غير مستمع للآيات المتلوَّة... وقلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا نحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثَّالث: رجلٌ حيُّ القلبٌ مُستعدٌّ، تلبت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السَّمْعَ وأحضر قلبه، ولم يَشغَلْهُ بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلقِي السَّمْعِ، فهذا القسم هو الذي يتنفع بالآيات المتلوَّة.

فالأوَّل: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثَّاني: بمنزلة البصير الطَّامح يبصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثَّالث: بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره،

وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه^(١).

٥ - تفهّم الآيات المسموعة:

فيتأمل معاني أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله؛ ليستدلّ بعظمة الفعل على عظمة الفاعل، ويتأسى بأحوال الأنبياء والصّديقين والأولياء والصّالحين والمتّقين، ويعتبر بأحوال الكافرين والمكذّبين والظّالمين والمنافقين والمتكبرين.

وبالجملة فإنّ القرآن يشتمل على ما تحتاج إليه البشرية في الدّنيا، وما تنتظرها في الآخرة، ففيه العقيدة، والتّشريع، والسّلك، فعلى المستمع - عندما يستمع شيئاً ممّا ذكر - أن يتمثله في قلبه، ويتخيّله في نفسه، ويتصوّره في عقله، حتى يتأثر به في كلّ حال.

«فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن؛ والمحلّ القابل، وهو القلب الحي؛ ووجد الشّروط، وهو الإصغاء؛ وانتفى المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر - حصل الأثر، وهو الانتفاع والتّدكّر»^(٢).

٦ - التّخلّي عن موانع الفهم:

إنّ أكثر الناس منعوا من فهم معاني القرآن المجيد لأسباب وحُجُب أسدلتها الشّيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

موانع فهم القرآن:

هناك موانع وحُجُب كثيرة تحول دون فهم السامع لكلام الله تعالى، وقد تحدّث الغزاليّ عن أهمّها، وحصرها في أربعة أمور^(٣)، وهي على التّحو التّالي:

أولاً: أن تكون الهمة منصرفةً إلى تحقيق الحروف، وهو أن يستمع السامع وهمة منصرفة إلى تتبّع القارئ، كيف يُخرج الحروف من مخارجها، يتربّص به وينتظر منه الخطأ ليشتع عليه، وذلك دون الالتفات إلى معاني الكلمات، وهذه

(٢) الفوائد (ص ١٦).

(١) مدارج السالكين (١/٤٧٥).

(٣) انظر: إحياء علوم الدّين (١/٢٨٤).

وسوسة من الشيطان الرجيم؛ ليصرف الناس عن تفهم معاني الآيات والكلمات.

ثانياً: أن يكون مقلداً لمذهب سَمِعَهُ بالتقليد، وجمد عليه، وثبت في نفسه التعضب له بمجرد الاتباع للمسموع، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.

كحال الفرق التي ضلّت في جانب العقيدة، وأولت الأسماء والصفات إما بالتمثيل، أو التعطيل، أو غير ذلك.

ثالثاً: أن يكون مُصِراً على ذنب، أو مُتصفاً بكبر، أو مبتلى - في الجملة - بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدنه، وهو كالصدأ على المرأة يمنع انعكاس المرئيات عليها، وذلك يمنع الحق من أن يتجلى في القلب، وهو أعظم وأخطر حجاب.

رابعاً: أن يعتقد حصر معاني آيات القرآن العظيم فيما تلقته من تفسير.

٧ - أن يُقدَّر - في نفسه - أنه المقصود بكلّ آية سَمِعَهَا:

فإن سمع أمراً أو نهياً فليستشعر أنه المقصود بذلك الأمر أو النهي، وإن سمع وعداً أو وعيداً قدر كذلك أنه الموعود أو المتوعد، وإن سمع قصص الأولين قدر أنه المقصود بسياق العبر والعظات وحسن الأخلاق التي بها، فيقوم نفسه على هداها.

وقد أكد ابن القيم رحمته على هذا المعنى بقوله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن: فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألّقي سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ»^(١).

٨ - التّأثر بالآيات المسموعة:

وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة باختلاف الآيات، فيكون له - بحسب كل فهم - حالة من الحزن والخوف والأمل والرّجاء والاستبشار.

فعلى سبيل المثال: يرتعد خوفاً عند الوعيد وذكر النار، ويستبشر فرحاً عند

الْوَعْدُ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، وَيُطَاطَى رَأْسَهُ خُضُوعاً عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَانَهُ الْحَسَنِيَّ وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَيُخَفِّضُ صَوْتَهُ وَيَنْكَسِرُ فِي بَاطِنِهِ حَيَاةً مِنْ قَبْحِ مَقَالَةِ الْكُفَّارِ مَا يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلِدَاً وَصَاحِبَةً، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ تَعْظِيمِهِمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَلَّةِ أَدْبِهِمْ فِي دَعَاوِهِمْ.

٩ - التَّرْقِي فِي اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ:

والمقصود بذلك: أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تبارك وتعالى، لا من نفسه إن كان قارئاً، ولا من غيره إن كان سامعاً.

درجات القراءة والسماع ثلاث:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يسمعه من الله تعالى، واقفاً بين يديه؛ والله ناظر إليه ويسمع منه، فيكون حاله حينئذٍ هو: التَّمَلُّقُ وَالتَّضَرُّعُ وَالاِبْتِهَالُ.

الثَّانِيَّةُ: أن يشهد بقلبه كأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يراه ويخاطبه بِالطَّافَةِ، وَيُنَاجِيهِ بِإِنْعَامِهِ، فَحَالُهُ هُنَا: الْحَيَاءُ وَالتَّعْظِيمُ، وَالإِصْغَاءُ وَالفَهْمُ.

الثَّالِثَةُ: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصِّفَاتِ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى سماعه، ولا إلى تعلق الإنعام به، من حيث إنه مُنْعَمٌ عَلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ مَقْصُورَ الْهَمِّ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ، مَوْقُوفَ الْفِكْرِ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ مُسْتَفْرَقٌ بِمُشَاهَدَةِ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ غَيْرِهِ. وَهَذِهِ دَرَجَةُ الْمُقْرَبِينَ، وَمَا قَبْلَهَا دَرَجَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَمَا خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ فَهِيَ دَرَجَاتُ الْغَافِلِينَ.

وعن الدرِّجَةِ الْعُلْيَا أَخْبَرَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ^(١) نَكَلَةً فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَقَدْ تَجَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»^(٢).

ففي مثل هذه الدرِّجَةِ تَعْظُمُ الْحَلَاوَةُ وَلَذَّةُ الْمُنَاجَاةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ

(١) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام أجمعين، الشهير بجعفر الصادق؛ لصدقه في مقاله. ولد سنة (٨٠هـ)، فضله أشهر من أن يُذكر، وهو من الأئمة الثقات الفقهاء المشاهير، أخرج له البخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، توفي سنة (١٤٨هـ) ودفن بالبقيع.

انظر: تقريب التهذيب (١/١٣٢)؛ وفيات الأعيان (١/٣٢٧).

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢٨٧). وانظر: فيض القدير (٦/٢٨٥).

الحكماء: «كنتُ أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رُفعت إلى مقام فوقه، كنت أتلوه كأنني أسمعه من جبريل عليه السلام يُلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدتُ له لذةً ونعياً لا أصبر عنه»^(١).

١٠ - التَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ حَالِ السَّمَاعِ:

إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فيتعاشى النظر إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا سمع آيات الوعد والمدح للصالحين، فلا يشهد لنفسه بالصلاح، بل يتشوق إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم، وإذا سمع آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه، وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. قيل ليوסף بن أسباط^(٢) رحمه الله: «إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: بماذا أدعو!! استغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة»^(٣).

(١) المصدر نفسه (٢٨٨/١).

(٢) هو يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني الكوفي (أبو محمد)، الزاهد الصالح، له مواعظ وحكم، نزل قرية يُقال لها: سيلحين، بين أنطاكية وحلب، قال يحيى بن معين: ثقة. وقال العجلي: صاحب سنة وحبير. وقال الخطيب البغدادي: كان صالحاً عابداً إلا أنه يغلط في الحديث كثيراً. وقال البخاري: كان قد دفن كتبه فصار لا يجيء بحديثه كما ينبغي. كان من عبّاد أهل الشام وقرانهم، توفي سنة (١٩٥هـ).

انظر: تهذيب التهذيب (٣٥٨/١١)؛ الوافي بالوفيات، للصفدي (٤٥/٢٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٢٨٨/١).

المبحث الرَّابِع

فضائل استماع القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: استماع القرآن سبب لرحمة الله.

المطلب الثاني: استماع القرآن سبب لهداية الثَّقَلَيْنِ.

المطلب الثالث: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين.

فضائل استماع القرآن

القرآن مُتَعَبَّدٌ بِسَمَاعِهِ:

إذا كان القرآن العظيم يُتَعَبَّدُ بتلاوته؛ لأنه كتابٌ مبارك، فإن من بركته أنه مصدر للخير العميم، فهو أيضاً يُتَعَبَّدُ بسَمَاعِهِ.

وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ أن يَسْمَعَ القرآن من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن وهو يستمع له، فخشع لسماع القرآن منه، حتى ذرفت عيناه الشريفتان رضي الله عنه كما سيأتي معنا لاحقاً.

وطلَّب استماع القراءة من القارئِ حَسَنِ الصَّوْتِ الذي يجيد التلاوة أمر متَّفَقٌ على استحبابه، وهو عادة الأخيار، والصالحين من سلف هذه الأمة، فللتلاوة المتَّفَقَةُ أكبر الأثر في فهم معاني القرآن، وزيادة الإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

«ووجه ذلك: أنهم يُلْقُونَ له السَّمْعَ، ويُحَضِّرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك، يزيد إيمانهم»^(١). فهؤلاء المؤمنون عند استماعهم لآيات القرآن العظيم يُلْقُونَ إليها الأسماع في إصغاء وخشوع، وأدب وخضوع، وتفكير واعتبار.

وأما الكافر بخلاف المؤمن، فإنه إذا سمع كلام الله تعالى لا يتأثر به، ولا يتغيَّر حاله، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله إلا من أراد له الله تعالى السعادة في الدنيا والآخرة واستجاب للقرآن وقليل ما هم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى إِيْمَانًا فَآمَنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ

رَجِيهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ ﴿التوبة: ١٢٤ - ١٢٥﴾^(١).

ولا بد من انتقيد بهدي رسول الله ﷺ عند الاستماع من الإنصات، والاستجابة له ثم التدبر الذي يزيل الغشاوة، ويحرك القلوب للعمل. وفضائل استماع القرآن العظيم كثيرة ومتنوعة، سيكون الحديث عن أهمها من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

استماع القرآن سبب لرحمة الله

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

لقد أمر الله سبحانه عباده بالاستماع للقرآن والإنصات له لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وليتوصلوا بذلك إلى رحمة الله تعالى. قال الليث: يقال: ما الرّحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. و«لَعَلَّ» - من الله - واجبة^(٢).

أي: لعلكم تنالون الرّحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله تعالى. والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يُلقى سمعه، ويُحضر قلبه، ويتدبر ما يسمع.

فإن من لآزم على هذين الأمرين، حين يُتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما.

فدل ذلك، على أن من تلبى عليه الكتاب، فلم يسمع له ولم يُنصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير^(٣).

(٢) تفسير القرطبي (١/٢٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/١٤٣).

(٣) تفسير السعدي (٢/١٨٥).

وليس هناك سبب نزول يُخَصِّصُ الآيةَ بالصَّلَاةِ المكتوبة وغير المكتوبة، ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يُخَصِّصُه شيء، فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له هو الأليق بكتاب الله العظيم، وبجلال قائله سبحانه.

وحيثما قُرئ القرآن، واستمعت له النفس وأنصت، كان ذلك أرجى لأن تعي وتتأثر وتستجيب؛ فكان ذلك أرجى أن تُرَحِّمَ في الدنيا والآخرة جميعاً^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أن الاجتماع للقرآن وتدارسه واستماعه له فوائد عظيمة وجليلة، منها حصولهم على رحمة الله تعالى، في قوله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢).

المطلب الثاني

استماع القرآن سبب لهداية الثقلين

لقد بيّن الله تعالى أن القرآن العظيم مصدر الهداية في الدنيا والآخرة، ومن تمسك به تلاوةً واستماعاً وتدبراً وعملاً فلن يضل ولن يشقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْرَبُ وَيُبَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ الصَّلَاحَاتِ أَنْ لَمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

واستماع القرآن خاصة من الأعمال الصالحة الجليلة التي بشر القرآن أصحابها بالهداية، ووصفهم بأنهم أصحاب عقول سليمة وراشدة، في قوله تعالى: ﴿فَيُبَيِّرُ عِبَادَ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

هذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسن الأقوال، و﴿القول﴾ في الآية

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٤٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٤/٢٠٧٤) (ح: ٢٦٩٩).

جنس، يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول، ليميزوا بين ما ينبغي إثاره، مما ينبغي اجتنابه.

ولا شك أن أحسن القول على الإطلاق هو كلام الله تعالى، ثم كلام رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]. وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله تعالى هذا القرآن العظيم.

وهنا فائدة مهمة وهي: أنه تعالى لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين، أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأن سائلاً يسأل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه، حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره على غيره فهو من أولي الألباب؟

قيل له: نعم، أحسنه ما نص الله تعالى عليه بقوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا...﴾ الآية.

فهؤلاء الذين يستمعون القرآن العظيم ويتبعونه هم الذين هداهم الله تعالى لأحسن الأخلاق والأعمال الظاهرة والباطنة، وهؤلاء هم أولوا العقول الزكية. ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن وغيره، وآثروا ما ينبغي إثاره على ما سواه.

وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يُميز بين حسن الأقوال وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة. أو الذي يُميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقى عقله تابعاً لها، فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل^(١).

والقرآن الكريم بوصفه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحمل مقومات الهداية الذاتية، والتي إذا تجرد المستمع إليه من شوائب النفس وعبادة الهوى، تمكنت الهداية من قلب مستمعه.

ولذلك جعل الله تعالى سماع القرآن العظيم من أسباب هداية الكفار ودخولهم في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٦].

وأثر استماع القرآن من الهداية غير مقتصر على الإنس فقط، بل يتعداهم إلى الجن أيضاً، فقد جعل الله تعالى استماع القرآن سبباً لهداية الجن ودخولهم في الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰٓ إِلَيْكَ أَنَّكَ اسْتَمَعْتَنَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

فهؤلاء نفر من الجن أراد الله تعالى لهم الخير فصرفهم إلى رسوله ﷺ، لسماع القرآن الكريم، ولتقوم عليهم الحجة، وتتم عليهم النعمة، ويكونوا مندرين لقومهم. وذلك: أنهم لما حضروه قالوا: أنصتوا. فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ثم ولّوا إلى قومهم مندرين ومبشرين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِ مُنذِرِينَ ﴿٢﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ يُصَدِّقُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحزاب: ٢٩ - ٣٠].

والناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن العظيم، وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس - حين تسمع لها وتُنصت - أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والطمأنينة والراحة، والثقل البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة، مما لا يدركه إلا مَنْ ذاقه وعرفه^(١).

وتأمل معي هذه اللفظة الجميلة في قول الجن: ﴿انصتوا﴾ وما توحى به من أهمية الإنصات حال السماع للقرآن، وأن الإنصات سبب في انفتاح القلب للمعاني القرآنية، فيكون الإنصات هو الخطوة الأولى في طريق الهداية، ولو أن كفار قريش وغيرهم أنصتوا كما أنصت الجن إلى القرآن لاهتدوا إلى الحق، ولكنهم رفضوا الإنصات ابتداءً، فامتعت عنهم الهداية، وإلا، فكلام الله، قطعي الدلالة على أن كل مَنْ استمع إليه وأنصت تحققت له الهداية، بصريح قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَوْفَىٰ﴾ [الإسراء: ٩]، فليت شعري، هل من منصب إلى كلام الله؟ لتحقق له الهداية!

المطلب الثالث

استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين

المؤمنون عند تلاوتهم لكتاب الله تعالى أو استماعهم له تخشع قلوبهم وتذرف عيونهم، ويقبلون على ربهم راغبين راغبين، ومن ذنوبهم مستغفرين، وفي رضاه طامعين، ومن غضبه وعقابه ووجلين.

ذلك كان شأن الصحابة رضي الله عنهم عند استماعهم وتلاوتهم للقرآن العظيم وقذوتهم في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إمام الخاشعين الذي قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقرأ عليّ» قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتوي أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ذَكَفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِرَسُولٍ مِّنْهُ يَخُصُّ بِكَ عَلَيَّ هَذُلًا شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال لي: «كف، أو أميك» فرأيت عيني تذرفان^(١).

وعند مسلم: قال ابن مسعود رضي الله عنه: رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي، فرأيت دموعه تسيل. وفي رواية: فبكي^(٢).

قال ابن بطال: يحتمل أن يكون أحب أن يسمعه من غيره ليكون عرض القرآن سنة، ويحتمل أن يكون لكي يتدبره ويتفهمه، وذلك أن المستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ؛ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها^(٣).

ومن الفوائد التي ذكرها النووي رحمته الله عند شرحه لهذا الحديث: استحباب استماع القراءة، والإصغاء لها، والبكاء عندها، وتدبرها، واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له، وهو أبلغ في التفهم، والتدبر من قراءته بنفسه، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم^(٤).

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: البكاء عند قراءة القرآن (١٦٢٧/٣) (ح ٥٠٥٥)، وباب: من أحب أن يستمع القرآن من غيره (١٦٢٥/٣) (ح ٥٠٤٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر (٥٥١/١) (ح ٨٠٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١٧/٩).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٢٩/٦).

وهذه هي سنة الأنبياء وطريقتهم جميعاً - عليهم السلام - عند استماعهم لكلام الله تعالى وآياته تفيض أعينهم بالدموع، وتخضع وتخضع قلوبهم وتتأثر من كلام الرحمن جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّبُرِ مِنَ دُورِهِ مَا دَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِبراهيمَ وَإِسْرهَيلَ وَمَنْ هَدَيْنَا وَابْنِ مَرْيَمَ إِنَّا نُؤْتِيهِمْ مَائِثَ مَنَاقِبٍ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَّرُوا﴾ [مريم: ٥٨].

فهؤلاء الأنبياء العظماء من أبرز صفاتهم أنهم إذا سمعوا آيات الله تعالى تتلى عليهم تأثروا تأثراً عظيماً، يحصل لهم منه البكاء والسجود، وقشعريرة الجلود، ولين القنوب والجلود كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِقَائِي إِذْ كُنْتُ مَسْتَهْزِئًا فَتَقَرَّرْتُ بِرَبِّهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الزمر: ٢٣]. ﴿وَبِكَيْفٍ﴾ جمع بالك^(١).

عن أبي مغمير قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم، فسجد، وقال: هذا السجود، فأين البكي؟ يريد البكاء»^(٢).

فهؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - ومن معهم بمن هدى الله تعالى واجتبي من الصالحين من ذريتهم، صفتهم البارزة إذا استمعوا لآيات الرحمن تتلى عليهم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا﴾ لأنهم أتقياء أصحاب قلوب حيّة، ترتعش قلوبهم لذلك، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يُخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض أعينهم بالدموع ويخرون لعظمة الله وكلامه سُجَّدًا وبكياً^(٣).

وهذه هي صفة أهل العلم كذلك، أنهم إذا استمعوا لكلام الله تعالى تأثروا فبكوا وزادهم ذلك خشوعاً وعلماً ويقيناً، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا ﴿٧٤﴾ وَقَوْلُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا وَعَدُّ رَبَّنَا لَمَعْمُولًا ﴿٧٥﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

قال القرطبي رحمه الله: «هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم وحق لكل من توسم

(١) انظر: أضواء البيان (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٧٣ - ٧٤)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٧)، ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن جرير، والبيهقي في «الشمب»، عن عمر رضي الله عنه.

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٣١٤).

بالعلم وخصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل. وفي مسند الدارمي أبي محمد^(١) عن التيمي قال: من أوتي من العلم ما لم يبيح له لخلق ألا يكون أوتي علماً [بفهمه]؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية^(٢). ذكره الطبري رحمه الله أيضاً^(٣).

والأذقان جمع دقن، وهو مجتمع اللخيين. وقال الحسن رحمه الله: الأذقان عبارة عن اللحي، أي يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع^(٤).

(١) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام السمرقندي، الدارمي، الحافظ، محدث. حافظ، مفسر، فقيه، طوّف الأقاليم، ولد سنة (١٨١هـ)، ومن تصانيفه: «سنن الدارمي»، و«الثلاثيات»، توفي سنة (٢٥٥هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (١٠٥/٢)؛ تهذيب التهذيب (٢٩٤/٥).

(٢) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب المقدمة، باب من قال: العلم الخشية وتقوى الله (١/٨٥) (رقم ٢٩١).

(٣) انظر: جامع انبيان (١٥/١٢١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٣٤٧ - ٣٤٨). وانظر: تفسير البيضاوي (٣/٤٧١)؛ تفسير ابن كثير (٥/١٣٤).

المبحث الخامس

حُكْم الاستماعِ للقرآن وحُكْم الإعراضِ عنه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حُكْم الاستماع للقرآن.

المطلب الثاني: حُكْم الإعراض عن استماع القرآن.

المطلب الاول

حُكْم الاستماع للقرآن

الأصل أن الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم - حين يقرأ - واجب، إن لم يكن هناك عذر مشروع لترك الاستماع، وهو قول عامة المفسرين وبدلُ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٤].

قال أبو حيان الأندلسي تَلْتَمَّةٌ في معنى الآية: «أمر باستماعه إذا شرع في قراءته، وبالإنصات، وهو السكوت مع الإصغاء إليه؛ لأن ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريٌّ بأن يُصنَى إليه، حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة، وينتفع بها، فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضلال، ويرحم بها»^(١).

(مسألة): اختلف أهل التأويل في الحال التي يجب على السامع استماع القرآن والإنصات له إلى عدة أقوال، أوصلها ابن الجوزي تَلْتَمَّةٌ إلى خمسة أقوال^(٢)، وأشهرها قولان:

القول الأوّل: إن ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات - عند قراءة القرآن - في الصلوة وغيرها. وهو الرَّاجِحُ إن شاء الله تعالى.

قالوا: صحيح أن الآية نزلت لنسخ جواز الكلام أثناء الصلوة، إلا أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، ولفظها يعمُّ قراءة القرآن في الصلوة وغيرها، وهو قول أكثر أعلام المفسرين.

ومتنّ ذهب إلى ذلك: القرطبي^(٣)، والشوكاني^(٤)، وأبو السعود^(٥)، والتعالبي^(٦)،

(١) البحر المحيط (٤/٤٥٢).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/٢٣٨).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٥٣).

(٤) انظر: فتح القدير (٢/٢٨٠).

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٣/٣١٠).

(٦) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/٧٨).

وابن جزى الكلبي^(٢٠١)، والسعدي^(٢٠٢)، رحمهم الله تعالى.

ونقل أبو حيان - في تفسيره - عن الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله: «هي على عمومها، ففي أي موضع قرئ القرآن، وجب على كل حاضر استماعه، والسكوت عنده»^(٢٠٣).

ثم قال أبو حيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والظاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا أخذ في قراءة القرآن، ومتى قرئ»^(٢٠٤).

القول الثاني: إن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة، وفي الخطبة. وهو اختيار الإمام ابن جرير الطبري^(٢٠٥)، وتبعه في ذلك الحافظ ابن كثير^(٢٠٦) رحمهما الله تعالى؛ لوجود الأدلة على وجوب الإنصات والاستماع لقراءة القرآن في هذين الموضعين، وعدم وجوبه في غيرهما.

الرد على القول الثاني:

رد الشوكاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على مَنْ خصَّ الإنصات في الصلاة دون غيرها بقوله: «قيل: هذا الأمر خاصٌّ بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفك أن اللفظ أوسع من هذا، والعام لا يُقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كلِّ حالة، وعلى أيِّ صفةٍ مما يجب على السامع»^(٢٠٧).

ورد الثعالبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كذلك - على مَنْ قَصَرَ الإنصات على حالة الخطبة دون غيرها بقوله: «وأما قول مَنْ قال: إنَّها في الخطبة - فضعيفٌ؛ لأنَّ الآية مَكِّيَّة،

(١) هو محمد بن أحمد بن جزى الكلبي المالكي (أبو انفاسم) من أهل غرناطة، ولد سنة (٦٩٣هـ) عكف على العلم واشتغل بالنظر والتدوين، كان فقيهاً حافظاً. نبغ في الأصول والقراءات، والحديث، والتفسير، والأدب. ألف الكثير في شتى الفنون، توفي وهو يمرض الناس يوم معركة طريف سنة (٧٤١هـ). من مؤلفاته: «تقريب الوصول إلى علم الأصول»، و«وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم»، و«أصول القراء السنة غير الإمام نافع» انظر: طبقات المفسرين (٨٥/٢).

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٥٩/٢).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣١٤/١).

(٤) البحر المحيط (٤٥٢/٤). (٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: جامع البيان (١٦٢/٩). (٧) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢٨١/٢).

(٨) فتح القدير (٢٩٦/٢).

والخطبة لم تكن إلا بعد الهجرة، والفاظ الآية - على الجملة - تتضمن تعظيم القرآن وتوقيره، وذلك واجب في كل حالة^(١).

(مسألة): هل وجوب الإنصات للقرآن مطلق أم مقيد؟

قد يؤدي حمل هذه الآية على ظاهرها والقول بالوجوب إلى حرج، فقد يُقرأ القرآن بمحضر صانع في صنعته، أو مُدرّس في المدرسة، أو الجامعة أو نحوها، فلو وجب عليه الاستماع وجوباً مطلقاً لوقع الناس في الحرج. وخاصة ما نراه في بعض الأحيان من قراءة القرآن في المساجد، وفي الشوارع، وعند بانعي أشرطة التسجيل. ثم قد يقرأ قارئ في الصلاة جهراً فهل يجب على الناس الاستماع له؟

وربما وقعت التلاوة بصوت مرتفع في أماكن الاشتغال، ويكون السامع في حالة اشتغال، كالأسواق التي بُنيت لتعاطي أسباب الرزق، والبيوت في حالة انشغال أهل البيت في الكنس والطبخ والتنظيف وغير ذلك.

ومن الخطأ رفع قراءة القرآن في المآذن - خارج الصلاة - كما يفعل في بعض البلاد الإسلامية، وقد يوجد قرب المسجد المرضى والمشغولون، والثائمون.

وهكذا نجد صوراً كثيرة يُقرأ فيها القرآن جهراً، ولا يمكن الجمع بين استماع القرآن وأداء المصالح الأخرى - التي تقدّمت - في آن واحد، فلم يجعل الله قلوبين في جوف البشر. لذلك فالآية ليست على عمومها الظاهر مطلقاً^(٢).

وهذا ما أشار إليه ابن عاشور رحمته بقوله: «وقد اتفق علماء الأئمة على أن ظاهر الآية بمجردة في صور كثيرة مؤول، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحداً يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع ويُنصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته، فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله،

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٧٨/٢).

(٢) انظر: الأحكام الشرعية لقراءة القرآن الكريم، د. محمود أحمد الأطرش (ص ٦٣)؛ كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها، د. نور الدين عتر (ص ٧٧).

ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها: فمنهم مَنْ خصّها بسببِ رأوا أنه سببُ
فزلوها، ...

ومنهم مَنْ أبى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنهم
تأولوه على أمر التذنب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية^(١).

وأما فقهاء الحنفية فقد اختلفوا في وجوب الإنصات: هل هو وجوبٌ عيني،
أو وجوب كفائي؟ فقد جاء في حاشية ابن عابدين^(٢): «الأصل أنّ الاستماع
للقرآن فرض كفاية؛ لأنه لإقامة حقّه، بأن يكون مُتَفَتِّحاً إليه غير مُضَيِّع، وذلك
يحصل بإنصات البعض، كما في ردّ السّلام، حين كان لرعاية حقّ المسلم، كفى
فيه البعض عن الكلّ...»

ونقل الحموي عن أستاذه قاضي القضاة يحيى، الشّهير بمقاربي زاده: أنّ له
رسالةً حقّق فيها، أنّ سماع القرآن فرض عين^(٣).

وبناء على ما تقدّم: يُمكن الجمع بين الأقوال في مسألة الإنصات للقرآن،
بأن يُقال: الاستماع والإنصات للقرآن الكريم يدور حُكمه بحسب المقام الذي
يقرأ فيه.

فإن كان في الصّلاة، أو كان المقام - الذي يقرأ فيه - مقام قراءة للقرآن،
كان تنتفي عن السّامع موانع الإنصات - المعتبرة شرعاً - فيجب عليه الاستماع
والإنصات.

أمّا ما عدا ذلك من الأحوال المختلفة، التي يتنقل بينها المسلم من عمل،
أو حديث أهل، أو جلوس على طعام، أو تدارس للفقّه أو العلم في المساجد
والمدارس والجامعات، أو ما أشبه ذلك. فالاستماع والإنصات يُستحب ولا

(١) التحرير والتنوير (٤١١/٨).

(٢) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن عابدين الدمشقي، فقيه النّهار الشّامية، وإمام
الحنفية في عصره، ولد سنة (١١٩٨هـ). ومن مصنفاته: «ردّ المختار على النّذر المختار»
المعروف بحاشية ابن عابدين، و«عقود اللّآلي في أسانيد العوالي»، و«الرّحيق المختوم في
الفرائض». توفّي بدمشق سنة (١٢٥٢هـ).

انظر: معجم المؤلّفين (٣/١٤٥)، الأعلام (٦/٤٢).

(٣) حاشية ابن عابدين (١/٥٤٦).

يجب. ويُعذر المستمع - والحالة هذه - بترك الاستماع لتلاوة القرآن الكريم، ولا يكون أثماً بذلك.

وإنما سقط إثم ترك الاستماع للقرآن في حالات الاشتغال دفْعاً للحرج عن النَّاس. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَمَلُ عَلَيْكَ فِي آيَاتِنَا مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

المطلب الثاني

حُكْمُ الإِعْرَاضِ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ

الإعراض عن استماع القرآن لا يخلو إما أن يكون إِعْرَاضاً مع عدم الإيمان به، وعدم الانقياد والتسليم له، وعدم قبوله. أو إِعْرَاضاً عن سماعه مع الإيمان به، والتسليم له، وقبوله. فلكلِّ حُكْمِهِ الذي يتعلَّق به، ويترتَّب عليه، وهذا ما ستتناوله بالتفصيل في هذا المطلب، من خلال النُّقَاطِ الآتية:

أولاً: الإِعْرَاضُ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ:

هذا النوع من الإِعْرَاضِ هو إِعْرَاضُ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ - النُّفَاقِ الْأَكْبَرِ الْمَخْرُجِ عَنِ الْمِلَّةِ، الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَعَدَمِ الْانْقِيَادِ لَهُ ظَاهِراً وَبَاطِئاً. وبادئ ذي بدء يُقال:

إِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى يَتَضَمَّنُ طَاعَةً وَانْقِيَاداً، وَتَسْلِيماً وَقَبُولاً، كَمَا قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ^(١) تَلَفُّظَةً فِي مَعْنَى الْإِيمَانِ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ: أَنْ تُؤَحِّدَهُ، وَتُصَلِّقَ بِهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَتَخْضَعَ لَهُ، وَلأَمْرِهِ، بِإِعْطَاءِ الْعِزْمِ لِلأَدَاءِ لِمَا أَمَرَهُ، مَجَانِباً

(١) انظر: الموسوعة الفقهية (٨٦/٤)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص ٥١).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله، محمد بن نصر بن الحجاج المرزوقي، فقيه، أصولي، محدث، حافظ. ولد ببغداد سنة (٢٠٢هـ)، ونشأ بنيسابور، وتفقَّه بمصر على أصحاب الشافعي. قال الحاكم عنه: «إمام عصره بلا مُدَافِعَةٍ فِي الْحَدِيثِ». وقال الذَّهَبِيُّ: «يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ أَعْلَمَ الْأُمَّةِ بِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ». سكن سمرقند إلى أن توفي بها سنة (٢٩٤هـ). من مصنفاته: «الصلاة»، «الوتر»، «الورع»، و«قيام الليل»، و«المسائل في النجوم» وغيرها. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣/١٤ - ٤٠).

للاستنكاف، والاستكبار، والمعاندة، فإذا فعلت ذلك لزمّت محابّه، واجتنبت مساخطه^(١).

وإذا كان الإيمان يُعَدُّ محضوهاً واستجابة وقبولاً لدين الله تعالى، فإنّ الإعراض يُنافي ذلك ويضاده، ومنه الإعراض بالكليّة عن استماع القرآن، إمّا توامياً بعدم سماعه، أو إعراضاً واستكباراً عن سماعه، أو تعامياً وتصادماً عن سماعه، أو استهزاءً به حال السَّماع بالضُّجر والتأفّف، أو إزلاقاً بالعيون حال السَّماع، أو نهائناً وتغافلاً عن سماعه، على ما تقدّم تفصيل ذلك في: «مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار».

فهذه المظاهر من الإعراض تُعدُّ ناقضاً من نواقض الإيمان العملية، وهو الإعراض التامُّ عن سماع القرآن العظيم، وتُعدُّ كذلك تكذيباً بالرُّسول ﷺ، بل تولياً عن طاعته، وامتناعاً عن اتّباع ما أنزل إليه من الوحي، ومن ثمّ فهو كُفْرٌ مخرج عن الملة.

ويذكر ابن القيم **تَلَاةُ** الفرق بين المُعْرِض المُفْرَط وبين العاجز قائلاً: «كُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْاهْتِدَاءِ بِالْوَحْيِ - الَّذِي هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ - فَلَا بَدَّ أَنْ يَقُولَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿يَنْبَغَتْ بَنِيَّ وَيَبْتَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَ الْقَرَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨].

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنّه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال، الذي منشأ الإعراض عن الوحي، وما جاء به الرُّسول ﷺ، ولو ظنّ أنه مهتدٍ، فإنّه مفْرَط بإعراضه عن اتّباع داعي الهدى، فإذا ضلّ فإنما أتي من تغريظه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرّسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حُكْم آخر، والوعيد في القرآن إنّما يتناول الأوّل، وأما الثاني فإنّ الله لا يعذب أحداً إلّا بعد إقامة الحجّة عليه^(٢).

ويقول ابن كثير **تَلَاةُ** عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١﴾﴾

(١) تعظيم قدر الصلوة (١/٣٩٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٤٣ - ٤٤).

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿٣١﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لِمَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿طس﴾
 ٩٩ - ١٠١]: «وهذا عامٌ في كلِّ مَنْ بلغه القرآن من العرب والعجم، وأهل الكتاب
 وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا نُزِدُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغٌ﴾ [الأنعام: ١٩].

فكلُّ مَنْ بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمَنْ اتَّبَعَهُ هُدًى، ومَنْ خَالَفَهُ
 وأعرض عنه ضلٌّ وشقي في الدنيا، والنارُ موعده يوم القيامة»^(١).

وبناء على ما تقدّم: فإنَّ الإعراض عن استماع القرآن بالكلية ينافي الإيمان
 وبضائه، بل هو حقيقة النفاق الأكبر، الذي حكاه الله تعالى عن المنافقين في
 قوله: ﴿وَإِنَّا قِيلَ لَكُمْ تَكَاوَرْنَا إِنْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصُدُّونَكَ
 عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

فالذي يهجر القرآن، فلا يؤمن به، ولا يسمعه، ولا يصني إليه، فهو كافر
 خارج عن ملة الإسلام.

ثانياً: الإعراض عن استماع القرآن مع الإيمان به:

قد يُعْرَضُ المسلم - أحياناً - عن استماع القرآن العظيم مع إقراره بأنَّ القرآن
 كلام الله تعالى يجب اتِّباعه؛ بسبب تكاسلٍ وتهاون، أو ضعف إيمان، أو تشاغل
 عنه بمال، أو بنين، أو غناء ونحوه من متابعة البتِّ الفضائي.

وربّما تجد بعض المسلمين لا يستمعون إلى القرآن الكريم إلا نادراً؛ عند
 حلول شهر رمضان مثلاً، أو عند نزول مصيبة به، كمرض أو وفاة قريب له، أو
 غير ذلك من الأمور التي تُلجئُهُ إلى استماع القرآن.

فلا ريب - والحالة هذه - أنه مُقَصِّرٌ ومُواخِذٌ بإعراضه عن استماع القرآن،
 لكن من الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ تَعْمِيمِ حُكْمٍ وَاحِدٍ وَتَنْزِيلِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي
 صُورِهَا، وَالْحَدُّ الْمَشْرُوكَ بَيْنَهَا هُوَ: هَجْرُ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ قِلَّةً أَوْ كَثْرَةً.

ومن المُتَّفَقِ عَلَيْهِ - فيما سبق - أنها معصية لله، مُوَاخِذٌ بِسَبَبِهَا؛ لِأَنَّهُ قَصْرٌ،
 وَأَعْرَضَ بِاخْتِيَارِهِ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيَتَوَقَّفُ كَوْنُ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ كَبِيرَةً أَوْ
 صَغِيرَةً عَلَى نَوْعِ الْمَخَالَفَةِ ذَاتِهَا، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

المبحث السادس

الآثار الحسنة لاستماع القرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز التأثيري للقرآن.

المطلب الثاني: أثر استماع القرآن في الملائكة.

المطلب الثالث: أثر استماع القرآن في النبي ﷺ.

المطلب الرابع: أثر استماع القرآن في المؤمنين.

المطلب الخامس: أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه.

المطلب السادس: أثر استماع القرآن في النصارى.

المطلب السابع: أثر استماع القرآن في الجن.

المطلب الأول

الاعجاز التأثيري للقرآن

إنَّ المتأمل لوجوه الإعجاز القرآني يجده تعدي حدود المعاني والمعارف، فلا يقتصر إعجازه فقط على عظمة سبكه ونظمه، أو على ما يحويه من معارف غير متعارضة وعلوم ظاهرة، وما يتضمنه من أخبار ثابتة، بل مع كل هذه الوجوه نجد وجهاً آخر غاية الأهمية، وهو تأثيره في سامعيه، فالقرآن له تأثير عجيب على سامعيه، يظهر في صور وأشكال متعددة، فبمجرد الاستماع إليه - وإن لم يفهم المقصود منه - تجد القلوب قد انفتحت، والنفوس قد اطمأنت، والهدوء والسكينة قد حلا بمستمعه، وهذا الإعجاز التأثيري يتعدى من آمن به إلى من أنكره أو كفر به. ولهذا فقد اختار أبو سليمان الخطابي رحمته الله الإعجاز التأثيري للقرآن كاهم وجوه من وجوه الإعجاز فيه، فقال - في رسالته (بيان إعجاز القرآن):

«قلت: في إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن - منظوماً ولا منشوراً - إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حقلها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشع من الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم، أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً»^(١).

(١) بيان إعجاز القرآن، للخطابي (ص ٧٠ - ٧١)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،

إذاً في القرآن العظيم ميرٌ خاصٌ، يشعر به كلُّ مَنْ يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير. وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحسِّ بمجرد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً. هذا العنصر الذي ينسكب في الحسِّ، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تُشعُّها؟ أهو التأثير القرآني الخاصُّ المتميِّز عن سائر القول المصوغ من اللُّغة؟ أهو هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟^(١).

دراسة معاصرة تُثبت تأثير القرآن:

في محاولة للكشف عن تأثير القرآن على سامعيه، استعملت أجهزة المراقبة الإلكترونية، المزودة بالحاسوب؛ لقياس أيِّ تغييرات فسيولوجية، عند عددٍ من المتطوعين الأصحاء، أثناء استماعهم لتلاوات قرآنية، وقد تمَّ تسجيل وقياس أثر القرآن الكريم، عند عددٍ من المسلمين المتحدِّثين بالعربية بالنسبة لغير المتحدِّثين بالعربية. مسلمين كانوا أو غير مسلمين. فقد تليت عليهم مقاطع من القرآن الكريم باللُّغة العربية، ثمَّ تليت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللُّغة الإنجليزية. وفي كلِّ هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية وجود أثر مهدي للقرآن بنسبة (٩٧٪) لدى هذه المجموعات التجريبية، وهذا الأثر ظهر في شكل تغييرات فسيولوجية، تدلُّ على تخفيف درجة توتُّر الجهاز العصبي التلقائي.

ولقد ظهر من الدراسات المبدئية أنَّ تأثير القرآن على التوتُّر، يمكن أن يُعزى إلى عاملين:

الأول: صوت القرآن الكريم في كلمات عربية، يفضُّ النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها، ويفضُّ النظر عن إيمان المستمع.

= للخطابي، والرماني، والجرجاني - تحقيق: د. محمد زغلول سلام وآخرين. دار المعارف - مصر ١٣٧٦هـ.

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/٣٣٩٩).

الثاني: معنى المقاطع القرآنية، حتى ولو كانت مُقتضرة على الترجمة الإنجليزية، بدون الاستماع إلى الكلمات القرآنية باللغة العربية^(١).

المطلب الثاني

اثر استماع القرآن في الملائكة

تحبُّ الملائكة الكرام ﷺ استماع القرآن الكريم، وتحفُّ مجالسه، وتنزل أحياناً لاستماعه وللإنصات له، وقد وضّحت الأدلة - من الكتاب والسنة - هذا الأمر، ويثته بياناً شافياً، فمن ذلك:

* قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفِرُّ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السُّنَنِ إِذْ عَسَىٰ أَلْبَسَ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

والمقصود بقوله ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: اقال مجاهد: صلاة الفجر^(٢). أي أن القرآن الذي يتلوه الإمام في صلاة الفجر تشهد له وتحضره الملائكة (ملائكة الليل وملائكة النهار)^(٣).

وإنما حُبر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأنَّ القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها، وهذا هو مَنِّي النبي ﷺ في إطالة القراءة في صلاة الفجر أكثر من غيرها في سائر الصلوات المفروضة، فكان يقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة آية^(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «فَضَّلَ صَلَاةَ الْجَمْعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسًا وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْمَعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ». يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: افْرُؤُوا إِن شِئْتُمْ: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»^(٥).

(١) انظر: أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي (ص ١٢ - ١٣)، نقلًا عن: المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطيبة الإسلامية بأمریکا الشمالية، ١٩٨٤م.

(٢) صحيح البخاري (١٤٦١/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥/٣)، تفسير القرطبي (٢٩٨/٢).

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١٧٧/٢).

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» (١٤٦١/٣) (ح ٤٧١٧).

* ومن أثر استماع القرآن في الملائكة الكرام ﷺ استغراقهم في السَّماع حتى كادوا يظهرون للناس وذلك عندما تنزلت ودنت من الصَّحابي الجليل أسيد بن حُضير ﷺ وهو يقرأ في صلاة اللَّيل، والشَّاهد من الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ - بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ أَسِيدٌ ﷺ بِمَا حَصَلَ لَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَّتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَقْوَارِي مِنْهُمْ»^(١).

ومن فوائد الحديث: فضيلة الجهر بقراءة القرآن في صلاة اللَّيل، وأنها سبب لحضور الملائكة ودنوها من القارى.

وأشار قوله ﷺ: «لَا تَقْوَارِي مِنْهُمْ» إلى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ - لِاسْتِغْرَاقِهِمْ فِي الْاسْتِمَاعِ - كَادُوا يظهرون للناس على خلاف جبلتهم من الاختفاء، الذي هو من شأنهم^(٢).

* وعن عليّ ﷺ أنه أمر بالسَّواك، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ، فَيَسْتَمِعُ لِقِرَائَتِهِ، فَيَذْنُو مِنْهُ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ فِيهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلِكِ، فَطَهَّرُوا أَفْوَانَكُمْ لِلْقُرْآنِ»^(٣).

* ومن أثر استماع القرآن في الملائكة كذلك، أنها تحفُّ مجالس القرآن لتستمع وتنصت، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بِهِ، بَيْنَهُمْ،

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (١٦١٧/٣) (ح ٥٠١٨).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨١/٩).

(٣) رواه المنذري في «الترغيب»، واللفظ له، كتاب الظهارة، باب: الترغيب في السَّواك وما جاء في فضله (١٠٢/١) (ح ٢١٥)؛ والبيهقي في «السُّنن الكبرى»، باب: تأكيد السَّواك عند القيام إلى الصلاة (٣٨/١) (ح ١٦١)؛ وعبد الرزاق في «مصنَّفه»، باب: حسن الصوت (٤٨٧/٢) (ح ٤١٨٤)؛ وابن أبي شيبة في «مصنَّفه»، باب: ما ذُكِرَ فِي السَّواك (١٥٦/١) (ح ١٧٩٩)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٢٠٤/١) (ح ٢١٥)؛ والسُّلسلة الصحيحة: (٢١٤/٣) (ح ١٢١٣).

لَا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِبَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ^(١)، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ جَنَدَهُ^(٢).

المطلب الثالث

اثر استماع القرآن في النبي ﷺ

كان النبي ﷺ يحبُّ استماع القرآن العظيم؛ وتطيب نفسه حين استماعه له، ويظهر أثر الاستماع عليه بالتأثر والخشوع والبكاء. ولا عجب من ذلك فهو أرقُّ النَّاسِ قلباً، وأسرعهم دمعاً، وأعظمهم تأثراً بالقرآن الكريم، فقد كان أعرف الخلق بالله، وأشدُّهم له خشية. ومن هذه المواقف المباركة ما يلي:

١ - عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قال: قُلْتُ: اقْرَأْ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ أَنْزِلَ؟ قال: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ خَيْرِي». قال: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [النساء: ٤١]. قال لي: «كُفَّ، أَوْ أَمْسِكْ، فَرَأَيْتُ هَيْبَتَهُ تَلْقُرَانِ^(٣)».

وعند مُسلم: قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. وفي رواية: فَبَكَى^(٤).

٢ - قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ^(٥) لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ! لَقَدْ أُوتِيتُ مِزْمَارًا^(٦) مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ^(٧)».

(١) حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ: أي دارت حولهم.

انظر: النهاية في غريب الحديث (٤٠٨/١)، مادة: (حفف).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٤/٢٠٧٤) (ح ٢٧٠٠).

(٣) رواه البخاري (٣/١٦٢٧) (ح ٥٠٥٥)، وتقدم تخريجه في المبحث الرابع.

(٤) رواه مسلم (١/٥٥١) (ح ٨٠٠)، وتقدم تخريجه في المبحث الرابع.

(٥) قوله: (لو رأيتني وأنا أستمع) الواو فيه للحال. وجواب لو محذوف، أي: لأعجبك ذلك.

(٦) المراد بالمزمار هنا: الضوت الحسن. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٠).

(٧) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الضوت بالقرآن (١/٥٤٦) (ح ٧٩٣).

٣ - عن عائشة، زوج النبي ﷺ، قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء. ثم جئت فقال: «أَيْنَ كُنْتِ؟». قلت: كنتُ أستمعُ قراءة رجلٍ من أصحابك لم أسمعِ مثلَ قراءته وصوتهِ من أحدٍ. قالت: فقام وقمْتُ معه حتى أستمعَ له. ثم التفت إلي فقال: «هَذَا سَالِمٌ، مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ. الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا»^(١).

٤ - ولا أدل على محبة النبي ﷺ لاستماع القرآن الكريم من قول فاطمة رضي الله عنها: «أَسْرَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلِّ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ هَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي»^(٢)».

قال ابن حجر رحمه الله: (والمُعَارضة: مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع)^(٣).

وخلاصة القول: إن المواقف والمواضع التي تُبرز تأثير النبي ﷺ عند استماعه للقرآن كثيرة، بيد أن ذلك لا غرابة فيه، إذ كيف لا يتأثر الرسول ﷺ بالقرآن وهو اتقى الخلق، وعليه أنزل القرآن؟ وقد رأى الملائكة، وُجِّع به إلى السماء، وسمع صرير الأقلام، ورأى من آيات ربه ما رأى؟ فتأثره بالقرآن أمر لا يحتاج إلى دليل أو برهان.

المطلب الرابع

أثر استماع القرآن في المؤمنين

إن أثر القرآن العظيم فيمن يسمعه ليس خاصاً بالملائكة الكرام، أو بالنبي ﷺ فقط، بل يمتد ليشمل سائر البشر؛ مؤمنهم وكافرهم، ولكن الأثر يختلف باختلاف الشخص نفسه؛ فإذا كان القرآن يحدث أثراً في قلب ونفس

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب: في حسن الصوت بالقرآن (٤٢٥/١) (ح ١٣٣٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٣/١) (ح ١١٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: كان جبريل يفرض القرآن على النبي ﷺ (٣/١٦١٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٥/٩).

الكافر، إلا أن هذا الأثر لا ينعكس على حياته، ولا على سلوكه، بل يُحاول أن يكتم هذا الأثر كي لا يظهر على ملامحه، ويفتضح أمره، فيتلاشى أثر القرآن أمام عناده واستكباره، أما المؤمنون فقد امتثلوا آيات الله تعالى، لتعمل في قلوبهم عملها من التأثير والخوف والخشوع وزيادة الإيمان، ويظهر هذا التأثير جلياً في انفعالاتهم ولامحهم عند سماعهم للقرآن، وكذلك يظهر في سلوكهم وحياتهم، ولتسبغ بعض الآيات التي حُبرت عن ذلك وأظهرته، ومنها:

١ - يقول تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِلدِّينِ كِتَابًا مُتَنَبِّهًا تَنَابِي تَقْشِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ هُدًى لِلنَّاسِ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اسْتَكْبَرَ فَآلَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتأثرون عند قراءة القرآن أو سماعه، لرفقة في قلوبهم، وخشوعاً وخضوعاً عند كلام الله تعالى، مع ما يكون من الوجع والخوف والبكاء، فعن عبد الله بن عمرو بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «كيف كان أصحاب رسول الله يفعلون إذا قرئ القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل تدمع أعينهم وتقشع جلودهم»^(١).

وكثير من العلماء الذين تناولوا قضية إعجاز القرآن بالبحث والتصنيف، يستشهدون بهذه الآية على ما للقرآن من تأثير في نفوس سامعيه، وخاصة إذا كانت مؤمنة بالله تعالى^(٢).

وقد أجرى ابن كثير رحمته الله مقارنة بين نوعين من المتلقين لهذه الآية، فقال: «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشع منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الآيات،

(١) تفسير البغوي (٤/٧٧)، الدر المنثور (٧/٢٢٢).

(٢) انظر: الإعجاز التأثري للقرآن الكريم، د. محمد عطا أحمد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت (عدد ٣٦) (شعبان ١٤١٩) (ص ٥٣).

من أصوات القينات^(١).

الثاني: أنهم إذا نُلبت عليهم آيات الرُحمن خرُّوا سجداً وبكياً، بأدب وخشية،... لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله - من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - تقشعروا جلودهم، ثم تلبين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ويتكلمون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المُعلَى في الدنيا والآخرة^(٢).

٢ - ومن الآيات التي نُظهِرُ أثر استماع القرآن في المؤمنين، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

لقد حاز المؤمنون - عند ربهم - درجةً سامقةً رفيعةً؛ لتأثرهم بالقرآن المجيد، تأثراً عملياً صادقاً، له نتاجه في واقع حياتهم وحياة مجتمعهم.

وقد وصفت الصحابيُّ الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه هذا الوجَل المذكور في الآية، بقوله لشهر بن حوشب: «الوجَلُ في القلب كإحراق السَّعْفَةِ، أما تجد له قَسْفَيرة؟ قال (شهر بن حوشب): بلى. قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادعُ الله، فإنَّ الدعاء يُذهب ذلك»^(٣).

فهذا الوجَل لرتعاشةً قلبيةً تتاب المؤمن حين يُنلى عليه القرآن العظيم، بما فيه من أوامر ونواهٍ وزواجر، فيغشاه جلاله، ويتفرض منه مهابةً، ويتمثل عظمة الله إلى جانب تقصيره، فينبعث إلى العمل والطاعة^(٤).

ولقد واجه سيد قطب رقيقةً مثل هذه الحالة فقال: «كنت بين رفقة نسمر

(٢) تفسير ابن كثير (٩٢/٧).

(١) القينات: المُغَنِّيات.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢٤/٦) (رقم ١٥٧٠٥)؛ والشَّيْطِي في «الدر الثمורה» (١١/٤).

(٤) انظر: في ظلال القرآن (١٤٧٥/٣).

حينما طرَقَ أَسْمَاعُنَا صَوْتُ قَارِيٍّ لِقُرْآنٍ مِنْ قَرِيبٍ، يَتْلُو سُورَةَ النُّجْمِ. فَانْقَطَعَ بَيْنَنَا الْحَدِيثُ، لِنَسْتَمِعَ وَنَنْصِتَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَكَانَ صَوْتُ الْقَارِيِّ مُؤَثِّرًا وَهُوَ يَرْتَلُ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا حَسَنًا.

وَشِينًا فَشِينًا عِشْتُ مَعَهُ فِيمَا يَتْلُوهُ...

فَلَمَّا سَمِعْتُ: ﴿فَاتَّخِذُوا يَوْمَ وَأَعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]. كَانَتِ الرَّجْفَةُ قَدْ سَرَتْ مِنْ قَلْبِي حَقًّا إِلَى أَوْصَالِي، وَاسْتَحَالَتْ رَجْفَةُ عَضَلِيَّةٍ مَادِيَّةٍ ذَاتَ مَظْهَرٍ مَادِيٍّ، لَمْ أَمْلِكْ مَقَاوِمَتَهُ. فَظَلُّ جَسْمِي كُلَّهُ يَخْتَلِجُ، وَلَا أَمْتَالِكُ أَنْ أُثْبِتَهُ، وَلَا أَنْ أَكْفِكَفَ دَمُوعًا هَاتِنَةً، لَا أَمْلِكُ احْتِسَابَهَا مَعَ الْجُهْدِ وَالْمَحَاوَلَةِ^(١).

٣ - وَنَخْتَمُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تُظْهِرُ أَثَرَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مَائِتَ الرِّحْمَنِ خُرُوفًا سُبْحَانَ وَبِكَاةٍ﴾ [مريم: ٥٨]. فَهَذَا ثَنَاءٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ مِنْ وَضْفِهِمُ التَّائُرُ وَالْبِكَاةُ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ لآيَاتِ الرَّحْمَنِ، وَلَمْ يَكُونُوا كَالَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا عَلَيْهَا صَمًّا وَعُمِيَانًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «المراد به القرآن خاصة، وأنهم كانوا يسجدون ويكون عند تلاوته»^(٢).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رحمته الله: «البكاء عند تلاوة القرآن صفة العارفين، وشعار الصالحين»^(٣). وَلِهَذَا قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه سُورَةَ مَرْيَمَ فَسَجَدَ، وَقَالَ: «هَذَا السُّجُودُ، فَأَيْنَ الْبِكَاةُ؟» يَرِيدُ: فَأَيْنَ الْبِكَاةُ^(٤).

وَكَانَ عَبْدُ الْأَعْلَى التَّمِيمِيُّ رحمته الله يَقُولُ: «مَنْ أَوْتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبَيِّكُهُ لِخَلْقٍ إِلَّا يَكُونُ أَوْتِيَّ عِلْمًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَعَتَ الْعُلَمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٥٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]»^(٥).

(١) المصدر نفسه (٦/٣٤٢١). (٢) تفسير القرطبي (١١/١٢٧).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٤)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٩٨).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٩/١٢٩) (رقم ٢٣٧٧٩)؛ وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/٢٤١٢).

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد (ص ٤١) (رقم ١٢٥)؛ والطبري في تفسيره (٩/٢٢٣)

(رقم ٢٢٨٠٠).

المطلب الخامس

اثر استماع القرآن في اعدائه وخصومه

بلغ تأثير القرآن العظيم مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النفوس، واستيلائه على قلوب المخاطبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسحر وما هو بالسحر، لا يختص ذلك بالانصار دون الخصوم، ولا بمخالفيه دون مخالفيه، ولقد أثر في الأعداء كما أثر في الأتباع، وبيان ذلك على النحو التالي:

١ - تأثر عتبة بن ربيعة بالقرآن:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشئت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلّمه ولينظر ماذا يرد عليه.

فجاءه عتبة بن ربيعة^(١) وكلمه كلاماً طويلاً، حتى إذا فرغ عتبة، قال له النبي ﷺ: «فَرَحْتَ يَا أبا الوليد؟» قال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ فَرْمَانًا غَرِيبًا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْحَرٍ مَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي مَآئِنِنَا وَقُرْ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمِلُونَ﴾ [نصفت: ١ - ٥].

واستمر النبي ﷺ يقرأ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْفَةً مِّثْلَ صَوْفَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [نصفت: ١٣].

فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف عنه، ثم قام عتبة إلى أصحابه.

فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

(١) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، كان من عتاة المشركين، وأشدّهم على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين حرباً وإيذاء، كان ممن دعا عليهم رسول الله ﷺ بأعيانهم. انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٧٣).

- وكان فيما قال لهم: يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، خَلُّوا بين هذا الرَّجُل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ... قالوا: سَحَرَكَ اللهُ يا أبا الوليد بلسانه^(١).

هكذا كان أثر سماع القرآن في أعدائه يُعتبر مفاجأة مذهلة، لم تعتدوا آذانهم ولا عقولهم، ولم يعهدوا في ثقافتهم مثل هذا الخطاب الذي فاق - في بلاغته وتأثيره - كلُّ ما سمعته آذانهم من قبل - شعراً كان أو نثراً.

٢ - تأثير زعماء المشركين بالقرآن:

زعماء المشركين مع عنادهم كان يُسارق بعضهم بعضاً، فربما خرج أحدهم في جُنْح اللَّيْلِ المظلم ما يُخرجه إلا استيلاء القرآن على مشاعره، يبحث عَمَّن يتلو القرآن في هدأة اللَّيْلِ، وقد أرخى سدوله؛ فهذا أبو سفيان ابن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من اللَّيْلِ في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلُّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثمَّ انصرفوا... وحصل في اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ ما حصل في الأولى... وحين التقوا في اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتَّى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثمَّ تفرَّقوا.

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النُّوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتَّى إذا ما وجدوه وكادوا أن يستكينا له

(١) انظر: دلائل النُّبوة، لإسماعيل بن محمد الفضل التيمي الأصبهاني (٢/٢٢٠ - ٢٢٢) (رقم ٢٥٨)؛ ومسند أبي يعلى (٣/٣٥٠) (رقم ١٨١٨)؛ ومصنف ابن أبي شيبة (٣٣٠٧) (رقم ٣٦٥٦٠). وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢٠): «رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقيته رجاله ثقات». وفي رواية أخرى: أن الذي سمع من النبي ﷺ سورة فصلت وحدثت معه هذه القصة هو الوليد بن المغيرة.

انظر: تفسير الطبري (٢٨/١٥٥ - ١٥٧)؛ الدرر المثور (٧/٣٠٨).

أخذتهم العزة بالإثم، فارتدوا على أديبارهم ما يمنهم إلا العناد.

ولهذا حين سأل الأحنس أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من النبي ﷺ قال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه!! والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه^(١).

٣ - تأثر الطفيل بن عمرو بالقرآن:

تحكي لنا كتب السيرة قصة رجل من اليمن من قبيلة دوس قديم مكة في العام الحادي عشر من النبوة، ألا وهو الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، فاستقبله أهل مكة قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجلاً نجيّة وأكرم تقدير، وقالوا له: «إنك قديمت بلادنا، وإن هذا الرجل - وهو الذي بين أظهرنا - فرق جماعتنا، وشئت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يُفرّق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد حلّ علينا، فلا نُكلّمه، ولا نسمع منه، قال: فوالله ما زالوا بي، حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً، ولا أكلّمه حتى حشوت في أذني - حين غدوت إلى المسجد - كُرْسُفاً؛ فرقاً من أن يتلغني شيء من قوله. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقممت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يُسمِعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: وائكل أميأه، والله إنني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان ما يقول حسناً، قبلت، وإن كان قبيحاً، تركت. قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمدا! إن قومك قد قالوا لي: كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكُرْسُفٍ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمِعني، فسمعت قولاً حسناً، فاعرض عليّ

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (٤/١٦٩)؛ والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/١٥٧)؛ ودلائل النبوة (٢/٢٠٦)؛ الدرر المثور (٥/٢٩٩)؛ وتفسير ابن كثير (٣/٤٥)؛ والجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، لابن تيمية (٥/٣٧٩)؛ والخصائص الكبرى، للسيوطي (١/١٩٢).

أمرك، فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أهدل منه، فأسلمتُ، وشهدتُ شهادة الحقّ^(١).

٤ - تأثر جبير بن مطعم بالقرآن:

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: «سبغت النبي ﷺ، يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُحْسِبُونَ﴾ (الطور: ٣٥ - ٣٧). كاذ قلبي أن يطير^(٢).

قال ابن كثير رحمته الله: «وكان جبير - لما سمع هذا - بعد مشركاً على دين قومه، وإنما كان قديماً في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن توثرت قراءته في المشرك المصر على الكفر، فكان هذا سبب هدايته، ولهذا كان أحسن القراءات ما كان عن خشوع من القلب^(٣).

٥ - حادثة سجود المشركين مع المسلمين:

إذا كنا قد عرضنا لأثر القرآن على أعدائه في صور فردية، تصدر عن أفراد بعينهم، فليس أبلغ ولا أعمق في الدلالة على مدى أثر القرآن على سامعيه من أعدائه من تلك الصورة الجماعية، حيث ضرب لنا كفار قريش مثلاً واقعياً يبين أثر القرآن العظيم على قلوبهم - رغم كفرهم - فلم يتمالكوا أنفسهم عندما قرأ رسول الله ﷺ «النجم» وسجد، فسجدوا وهم مشركون، وهم يمارون في الوحي والقرآن، وهم يجادلون في الله ورسوله، وإنما سجدوا تحت وطأة القرآن، وسلطانه على الكون كله.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٦٢٤ - ٦٢٥). وانظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٢٢٦)؛ ودلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ٣٦٠)؛ ودلائل النبوة، للأصبهاني (١/ ٢١٢)؛ وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ١٣)؛ والبداية والنهاية (٣/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: سورة الطور (٦/ ٥٨) (ح ٤٨٥٤).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٩٤).

والمُشْرِكُونَ، والجنُّ والإنسُ»^(١).

٦ - تأثر أهل المدينة بالقرآن:

صدق القائلون: «فُتحت الأمصار بالسيف، وفتحت المدينة بالقرآن»^(٢).
فقد كان القرآن الكريم هو السلاح الحاسم في تحويل أهل المدينة - خزرجهم
وأوسهم - من الشرك الوثنية إلى الإسلام والقرآن.
ففي بيعة العقبة الأولى دار هذا الحوار بين النبي ﷺ، ونفر من خزرج
المدينة - وكانوا ستة نفر:

قال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «من موالي اليهود؟» - أي: حلفائهم - قالوا: نعم. قال: «أفلا
تجلسون أكلّمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله تعالى، وعرض
عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأمنوا وصدّقوا»^(٣).

وبعد ذلك أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير، وعبد الله ابن أم مكتوم ﷺ
إلى المدينة؛ ليعلمّا الناس القرآن»^(٤).

المطلب السادس

أثر استماع القرآن في النصارى

أخبر الله تبارك وتعالى بأنّ بعض النصارى استمعوا للقرآن العظيم، وتأثروا
به، ممّا دفعهم إلى الإيمان بالرّسول ﷺ والدّخول في الإسلام، بعد ما فاضت
أعينهم بالدمع ممّا عرفوا من الحقّ.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «تَشْتَدُّ يَوْمَ وَآمِنُوا» (٣/١٥٤٥) (ح ٤٨٦٢).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/٢١٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/٢٧٧)؛ دلائل النبوة، للبيهقي (٢/٤٣٤)؛ فتح
الباري شرح صحيح البخاري (٧/٢٢٠)؛ تاريخ الإسلام، للذهبي (١/٢٩٠)؛ صفة
الصفوة، لابن الجوزي (١/١٢٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/٤٣٤)؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/٦٧)؛
فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/٢٦٠).

ولم يُسَمَّ الله تعالى لنا أسماء هؤلاء القوم من النصارى، ويمكن أن يُراد بهم النجاشي وأصحابه، أو غيرهم ممن أثر فيهم استماع القرآن، وذلك بأنهم أقرب الناس وداداً للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَاكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِيَابَتَ رَبُّهِنَّ وَأَنْهَمَ لَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَجَّ أَعْيُنُهُمْ تَوَيْضًا مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاثِمْنَا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

[المائدة: ٨٢ - ٨٥].

اللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والمقصود منها التأكيد، وزادته نون التوكيد تأكيداً. والتقدير: قَسماً إِنَّكَ تَجِدُ الْيَهُودَ وَالْمَشْرِكِينَ أَشَدَّ النَّاسِ عداوة للمؤمنين.

والسبب في ذكر اليهود مع المشركين: هو اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين، فقد أُلِفَ بينهم بغض الإسلام؛ فاليهود: للحسد على مجيء النبوة من غيرهم، والمشركون: للحسد على أن سبقتهم المسلمون بالهداية إلى الدين الحق ونبذ الباطل.

وذكر الله تعالى أن النصارى أَلْيَنُ عريكةً من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَاكَ﴾.

والمقصود: أن النصارى أقرب الناس من أهل الجبل المخالفة للإسلام. فهذان طرفان في معاملة المسلمين: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا﴾ و﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

وبين الطرفين فِرْقٌ متفاوتة في بغض المسلمين، مثل المجوس والصابئة وعبدة الأوثان أو المعطلة^(١).

(١) انظر: التفسير الكبير (١٢/٥٦)؛ التحرير والتنوير (١٨٣/٥).

والسبب في اقتراب مودة النصارى من المسلمين: هو وجود القسيسين^(١) والرهبان^(٢) بينهم، لما هو معروف بين العرب من حُسن أخلاق القسيسين والرهبان، وتواضعهم وتسامحهم. وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد الغرب يعمرون الأديرة والصوامع والبيع، وأكثرهم من عرب الشام، الذين بلغتهم دعوة النصرانية عن طريق الروم، فقد عرفهم العرب بالزهد ومسالمة الناس، فوجدوا هؤلاء فيهم، وكونهم رؤساء دينهم، كان سبباً في صلاح أهل ملتهم^(٣).

قال الطبري^{ثلاثة}: «والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أتى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم؛ لأنَّ منهم أهل اجتهاد في العبادة وترهيب في الليارات والصوامع، وأنَّ منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقِّ إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنَّهم أهل دين واجتهاد فيه ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دبروا بقتل الأنبياء والرسل ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»^(٤).

وبعضد هذا: ما ذكره الطبري^(٥)، والواحدي^(٦)، وكثير من المفسرين. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أنَّ المعنيَّ في هذه الآية ثمانية من نصارى الشام، كانوا في بلاد الحبشة، وأتوا المدينة سنة سبع للهجرة، مع اثنين وستين راهباً من الحبشة، مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا.

(١) القسيسون: هم خطباء النصارى وعلمائهم، واجدُهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يُجمع على قسوس. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٤٠٤)، مادة: «قسس». تفسير الطبري (٣/٧).

(٢) الرهبان: جمع راهب، بثل رُحبان جمع راكب، وفُرسان جمع فارس. والرهبان من النصارى: المنقطع في ديار أو ضومعة للعبادة. مشتق من الرهبة، وهي الخوف. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٢٠٩)، مادة: «رهب». تفسير الطبري (٣/٧).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٨٤/٥). (٤) تفسير الطبري (٤/٧).

(٥) انظر: المصدر نفسه (٢/٧). (٦) انظر: تفسير الواحدي (١/٣٣٢).

فالإشارة إليهم في هذه الآية تذكير بفضلهم، وهي من آخِر ما نزل^(١).

تأثر القيسيين والرهبان بسماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

إذا سمع هؤلاء القيسيون والرهبان القرآن العظيم يُتلى عليهم «امتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه. والذي لا يجدون له في أوّل الأمر كفاة من التعبير إلاّ الدمع الغزير - وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفى بها القول، فيفيض الدمع؛ ليؤدّي ما لا يؤدّيه القول؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق»^(٢).

المقصود بفيض العين:

وفيض العين من الدمع فيه وجهان:

- ١ - أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى يسيل منها، كفيض النهر. وفيض الإناء، وهو سيلانه عند شدة امتلائه.
- ٢ - أن المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم، كأنها تفيض بأنفسها^(٣).

وسبب فيضها: «ما عرفوا عند سماع القرآن من أنه الحق الموعود به»^(٤).

تأثر النجاشي وأساقفته بسماع القرآن:

حصلت قصة أخرى - قبل ذلك - للنجاشي وأساقفته عند استماعهم للقرآن يتلى عليهم:

فمن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قالت في شأن هجرتهم إلى الحبشة، (بلاد

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨٦/٥). (٢) في ظلال القرآن (٩٦٢/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/٧)؛ التفسير الكبير (٥٧/١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٨٧/٥).

(التجاشي)... فقال التجاشي^(١): فهل معكم شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

فقال لهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم، فقرأ عليهم صدراً من: سورة كهيعص. فبكى - والله - التجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم^(٢).

المطلب السابع

اثر استماع القرآن في الجن

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُعَلِّمَ المسلمين وغيرهم بأن الله عز وجل أوحى إليه وقوعَ حَدِيثٍ عَظِيمٍ فِي دَعْوَتِهِ الْمُبَارَكَةِ، أَقَامَهُ اللهُ تَكْرِيماً لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صلى الله عليه وسلم، وَتَنْوِيهاً بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنْ سَخَّرَ لَهُ نَفراً مِنَ الْجِنِّ لِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِهِ؛ وَهُوَ مِنَ الْأَدْلَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِنِّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، وَانْقَادُوا لَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ تَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وَيُعَدُّ إِيمَانُ الْجِنِّ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَتَأَثُّرُهُمْ بِالْقُرْآنِ، تَأْيِيداً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ

(١) التجاشي: لَقَبٌ يُلَقَّبُ بِهِ مَلُوكُ الْحَبَشَةِ، كَمَا يُقَالُ لِمَلِكِ الْفُرْسِ: كَسْرِي، وَلِمَلِكِ الرُّومِ: قَيْصَرٌ، وَنَجَاشِي الْحَبَشَةِ الْمَغْنِيّ هُنَا هُوَ: أَصْحَمَةُ بْنُ أَبِيحِرٍّ، وَكَانَ مَلِكاً صَالِحاً، لِيَبَّأَ ذِكْياً، وَعَالِماً عَادِلاً، شَهِدَ لَهُ الرُّسُولُ صلى الله عليه وسلم بِالْإِسْلَامِ وَالصَّلَاحِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ حِينَ مَاتَ، وَهُوَ الَّذِي أَوَى الْمُسْلِمِينَ فِي هِجْرَتِهِمْ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَأَكْرَمَهُمْ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ أذى قُرَيْشٍ. تُوْفِيَ ثَلَاثَةَ سَنَةٍ (٥٩هـ)، وَقِيلَ: قَبْلَ ذَلِكَ.

انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (٢/٢٩ - ٣٠).

(٢) قِطْعَةٌ مِنْ خَبَرِ مُطَوَّلٍ، رَوَاهُ: ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «الْمَغَازِي» (١/٢١١)؛ وَابْنُ هِشَامٍ فِي «السيرة النبوية» (١/٢١٧)؛ وَأَحْمَدُ فِي «المسند» (١/٢٠١) (ح١٧٤٥) (٥/٢٩٠ - ٢٩٢) (ح٢٢٦٤٥)؛ وَأَوْرَدَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٦/٢٤ - ٢٧). وَقَالَ: «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، غَيْرَ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِالسَّمْعِ».

وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ: الْأَبْيَانِيُّ فِي «تَخْرِيجِ فَهْمِ السُّنَّةِ» (ص١٥٤)، وَالْأَرْنَاؤُوطُ فِي «تَخْرِيجِ زَادِ الْمَعَادِ» (٣/٢٩).

الكريم ﷺ، حيث جملة مُصَدِّقاً عند الثقلين، ومعظماً في العالمين، وذلك لم يحصل لرسول قبله.

الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن:

أشار ابن عاشور رحمته إلى الحكمة من نزول القرآن بِخَبَرِ الْجِنِّ قائلًا: «والمقصود من نزول القرآن بِخَبَرِ الْجِنِّ: توبيخ المشركين بأنَّ الجنَّ - وهم من عالم آخر - عَلِمُوا الْقُرْآنَ، وأيقنوا بأنه من عند الله، والمشركون - وهم من عالم الإنس، ومن جنس الرُّسُولِ ﷺ المبعوث بالقرآن، ومثَّن يتكلَّم بِلُغَةِ الْقُرْآنِ - لم يزالوا في ريب منه، وتكذيب وإصرار، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم»^(١).

وقال رحمته في موضع آخر: «والذين أمر الرُّسُولُ ﷺ بأنَّ يقول لهم إنه أوحى إليه بِخَبَرِ الْجِنِّ: هم جميع النَّاسِ الَّذِينَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يبلِّغهم القرآن، من المسلمين والمشركين، أراد الله إبلاغهم هذا الخير؛ لما له من دلالة على شرف هذا الدين، وشرف كتابه، وشرف مَنْ جَاءَ بِهِ، وفيه إدخال مسرة على المسلمين، وتعريض للمشركين؛ إذ كان الجنُّ قد أدركوا شرف القرآن، وفهموا مقاصده، وهم لا يعرفون لغته، ولا يدركون بلاغته، فأقبلوا عليه، والذين جاءهم بلسانهم، وأدركوا خصائص بلاغته، أنكروه، وأعرضوا عنه»^(٢).

وقد جاء مثل ذلك عن الرَّاظِي رحمته، وأشار إليه بقوله: «وفيه فوائد.

إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه ﷺ كما بُعِثَ إِلَى الْإِنْسِ، فقد بُعِثَ إِلَى الْجِنِّ. وثانيها: أن تعلم قريش أن الجنَّ - مع تمردهم - لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ عَرَفُوا إعجازه، فأمنوا بالرُّسُولِ. وثالثها: أن يعلم القوم أن الجنَّ مكلفون كالإنس. ورابعها: أن يعلم أن الجنَّ يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا. وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كلِّ هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها النَّاسُ»^(٣).

(٢) المصدر نفسه (٢٩/٢٠٥ - ٢٠٦).

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٤٨ - ٤٩).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/١٣٦).

وعلى كل حال: فهؤلاء الثَّغْر من الجن حصل لهم شرف توحيد الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته، وصدقِ رسوله ﷺ، وصدقِ القرآن، والتأثر بسماعه، فصاروا من خيرة المخلوقات، فأكرموا - في الدنيا - بشرف الدعوة إلى الله تعالى، وأكرموا - في الآخرة - بالفوز بالجنة، فلم يكونوا يَمُنُّ ذرأاً الله لجهنم من الجن والإنس.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا صَوْتًا نُّزِّلَ مِن سَمَاءٍ مُّؤْتِنًا مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْتَدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِنَّ لَهُمْ لِسَمْعًا ﴿١٥﴾ يَا قَوْمَنَا لَإِيجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَتُوبَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرَمَ مِنَ عَذَابِ الْهِبِ ﴿١٦﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحqاف: ٢٩ - ٣٢].

* وأما الأدلة من السنة: فهناك الأحاديث الكثيرة والروايات المتكاثرة التي ثبتت تأثر الجن بما سمعوه من القرآن، واقتصر في هذا الضدد على رواية - في صحيح البخاري - وردت عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال:

«انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد جيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأزيلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: جيل بيننا وبين خبر السماء، وأزيلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث. فانطلقوا، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة^(١) إلى رسول الله ﷺ بنحلة^(٢)، وهو عامد إلى

(١) (تهامة): اسم لكل مكان غير عالي من بلاد الحجاز، سُميت بذلك لشدة حرها اشتقاقاً من التهم بفتحين، وهو شدة الحر وسكون الليل.
 (٢) (نحلة): موضع بين مكة والطائف، قال البكري: على ليلة من مكة. وهي التي يُنسب إليها بطن نخل. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٨٦٠).

سُوقِ حُكَايِظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسْمَعُوا لَهُ^(١)، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي خَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، فَهَذَا لِكُمْ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى الْرُشْدِ فَآمَنَّا بِهِ. وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن ١ - ٢]. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّهُ لَسَمِعَ نَقْرًا مِنْ لَجْنٍ﴾ [الجن: ١]. وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ^(٢).

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر ③ - بعد شرحه للحديث - قوله: «وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن، وأنها لمسى واحد، وإنما صاروا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان،... وأن الاعتبار بما قضى الله للعبد من حُسن الخاتمة، لا بما يظهر منه من الشر، ولو بلغ ما بلغ؛ لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان، بمجرد استماع القرآن، لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر، ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدت الحادث من جهتها. ومع ذلك فغلب عليهم ما قضى لهم من السعادة بحسن الخاتمة، ونحو ذلك قصة سحرة فرعون^(٤)».

وقد عقب ابن كثير ④ - بعد أن أورد الطُرق والروايات، التي تفيد استماع الجن للقرآن وتأثرهم به - قائلاً: «فهذه الطُرق كلها تدلُّ على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قَصْدًا، فنلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، وشرع الله لهم على

(١) (سُوقِ حُكَايِظٍ): هو موسم معروف للعرب. بل كان من أعظم مواسمهم، وهو نخل في وادٍ بين مكة والطائف، وهو إلى الطائف أقرب، بينهما عشرة أميال، وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء اليمن. وقال البكري: «أول ما أحدثت قبل الفيل بخمس عشرة سنة، ولم تزل سُوقًا إلى سنة تسع وعشرين ومائة، فخرج الخوارج الحرورية فنهبوا فتركت إلى الآن، وكانوا يُقيمون به جميع شوال، يتبايعون ويتفاخرون، وتشد الشعراء ما تجدد لهم، وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسان:

سَأَشْفُرُ إِنْ حَبِيبْتُ لَكُمْ كَلَامًا يُنْفَسِرُ فِي السَّجَامِيعِ بَيْنَ حُكَايِظِ

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٨٥٥).

(٢) (تَسْمَعُوا لَهُ): أي فصلوا لسماع القرآن، وأصغوا إليه.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الجن: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ (٣/١٥٧٣) (ح ٤٩٢١).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٨٦١).

لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل: أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود.

وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريق البيهقي.

وقد يحتمل: أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم^(١).

«ومما يدل - كذلك - على صدق إيمان الجن وتأثرهم بسماع القرآن العظيم، أنهم قابلوا الآيات التي تلى عليهم بالشكر القولي.

فعن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال:

«لَقَدْ قَرَأْتَهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: «قَبَائِلَ مَا لَأَنَّ رَبِّكَآ تَكْذِبَانِ» [الرحمن: ١٣]، قالوا: لا يشيء من نعمك ربنا نكذب، فللك الحمد»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٩٧).

(٢) رواه الترمذي (٥/٣٩٩) (ح ٣٢٩١)؛ والحاكم في «المستدرک» (٢/٥١٥) (ح ٣٧٦٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». وواقفه الذهبي. وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٣/١١٢) (ح ٢٦٢٤). و«الصحیحة»: (٥/١٨٣) (ح ٢١٥٠).

الفصل الرابع

هجر تعلم القرآن وتعليمه

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الثاني: آداب مُعلِّم القرآن ومنتعلِّمه.

المبحث الثالث: فضائل تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الرابع: أحكام تعلم القرآن وتعليمه.

المبحث الخامس: همّة السلف في تعلم القرآن وتعليمه.

مظاهر هجر تعلم القرآن وتعليمه

الإعراض عن تعلم القرآن وتعليمه - في الواقع المُعاصر - يأخذ مظاهر عدّة، فربّما كان تشاغلاً بأمر من أمور الدُّنيا، أو كان زهداً في تعلم القرآن وتعليمه، أو كان تكاسلاً عن التعلّم والتّعليم، أو جهلاً بفضائل تعلم القرآن وتعليمه، أو غير ذلك.

وفي هذه المُجالة سنُجمل مظاهر هجر تعلم القرآن وتعليمه في النقاط الآتية:

أولاً: مظاهر هجر تعلم القرآن:

- ١ - قلة احتساب الأجر، وضعف النية في تعلم القرآن.
- ٢ - العبث والفوضى في مجلس التّعليم، وعدم الانضباط.
- ٣ - الانتظام لفترة وجيزة من الوقت، ثم ترك حلقة التّعليم بلا رجعة.
- ٤ - كثرة الغياب أو التأخر في المجيء إلى حلقة التّعليم.
- ٥ - عدم وضوح الهدف والغاية من تعلم القرآن.
- ٦ - عدم التزام الأدب في حمل المصحف ووضعه، أو الكتابة عليه، أو تمزيق بعض أوراقه من قبيل صغار المتعلّمين.
- ٧ - التقصير في الحفظ والمراجعة والأداء، وعدم الحرص على تحسين المستوى في ذلك.
- ٨ - عدم تخصيص أوقات لمراجعة القرآن.
- ٩ - الانقطاع عن حلقة التّعليم لفترات طويلة، ثم العودة.
- ١٠ - التسرّب من حلقة التّعليم، وإيهام الأهل بالذهاب إليها والانتظام فيها، مع أنّ الواقع خلاف ذلك.

١١ - اعتناء المتعلمين بالكمّ دون الكيف أثناء عملية التعليم .

١٢ - انحراف أذهان الطلاب، بل وأجسادهم إلى مواطن اللّعب واللّهو نتيجة قربها من مكان حلقة التعليم^(١) .

١٣ - جعلُ تعلّم القرآن وسيلة لنيل جوائز مسابقات تحفيظ القرآن، أو للتعيين في وظيفة إمام مسجد، أو للتدريس في مدرسة أو حلقة تحفيظ، أو للقبول في جامعة أو كليّة، أو للقراءة في المآتم والعزاء .

١٤ - عدم استشعار فضائل تعلّم القرآن .

١٥ - جعلُ تعلّم القرآن مقتصراً على المراحل الدّراسية النظامية مع عدم كفايتها .

١٦ - تعلّم الفقه والحديث وعلوم الشريعة الأخرى قبل القرآن الكريم .

١٧ - تقدّم السن مع عدم تعلّم القرآن حياة أو تكبيراً .

١٨ - الحصول على شهادات عالية في مختلف التخصّصات مع عدم إتقان القرآن الكريم .

١٩ - الزّهد في تخصّصات علوم القرآن والتجويد .

٢٠ - تبوؤ المناصب المختلفة في الوزارات والشركات والمؤسسات والهيئات مع ضعف العناية بتعلّم القرآن .

٢١ - بعض الفسّاق يتعلمون التجويد لتحسين مخارج الحروف من أجل أداء أفضل في الغناء، زعموا!!

ثانياً: مظاهر هجر تعليم القرآن:

١ - إقبال المعلّم على تعليم القرآن ندافع مادّي بحت، واعتبار التدريس مجرد أداء وظيفي لا غير .

٢ - استعمال معلّم القرآن طلابه في نيل مآربه ومصالحه الخاصّة .

(١) انظر: نحو أداء متميّز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي (ص ٥٢ - ٥٦) .

- ٣ - الإقبال على تعليم أبناء الأغنياء دون الفقراء .
- ٤ - قلة احتساب الأجر في تعليم القرآن، وضعف النية .
- ٥ - عدم استشعار فضائل تعليم القرآن .
- ٦ - عدم تفرغ المعلم للحلقة ذهنياً أو زمنياً، أو إتيانه إليها مُتَهك القوى،
خائر الجسد .
- ٧ - كثرة غياب المعلم أو تأخره في المجيء إلى حلقة التعليم .
- ٨ - تصدُر المعلمين غير المتقنين لتدريس القرآن .
- ٩ - سوء الخُلُق مع المتعلمين، وعدم الرِّفق بهم، وعدم الصَّبْر على
أخطائهم .
- ١٠ - ألا يكون المعلم قنوة حسنة لطلابه في المظهر، أو السلوك .
- ١١ - سوء القيام بتأديب المتعلمين إفراطاً أو تفريطاً .
- ١٢ - عدم وضوح الهدف والغاية من تعليم القرآن .
- ١٣ - ازدياد شخصيّة معلّم القرآن في وسائل الإعلام .

المبحث الثاني

آداب مُعلم القرآن ومُتعلّمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: آداب مشتركة بين مُعلم القرآن ومُتعلّمه.

المطلب الثاني: آداب مُعلم القرآن.

المطلب الثالث: آداب مُتعلّم القرآن.

المطلب الأول

آداب مشتركة بين معلم القرآن ومتعلمه

معلم القرآن ومتعلمه شريكان في المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقهما، وهي حمل كتاب الله تعالى؛ وهذه نعمة عظيمة، ومنة جليلة، تستوجب الشكر الدائم، وهي في الوقت ذاته حُجَّة لهما أو عليهما، فلا بد لهما من التحلي بمجموعة من آداب؛ للمحافظة على هذه النعمة الكبيرة، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ معلم القرآن مُضاعف المسؤولية.

وسأقتصر في هذا الشأن على ذكر أدبين مهمَّين، بل هما أصلان عظيمان يجب العمل بهما؛ لأنهما كالأساس للبناء، فلا يقوم الفرع إلَّا بأصل، وهما على النحو الآتي:

١ - التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد:

يعدُّ الالتزام بأصل الاعتقاد الذي كان عليه السلف الصالح، وبراءة المرء من المُحدثات والبدع من أكبر من الله عليه.

وسلامة الاعتقاد مطلب شرعي، ومن أوَّل الصفات التي ينبغي أن يتحقَّق بها معلم القرآن ومتعلمه.

ذلك أنَّ رجل العقيدة السلفية سهم يندفع في تحقيق أهدافه، قد أنارت عقيدته بصيرته، فهو يعيش ويموت من أجلها، ويرضى بكلِّ أذى في سبيلها، ويبذل جهده ووقته وكلِّ غالٍ ونفيس في ظلِّها، فرجل العقيدة السلفية أعظم دُخْرِ لها، وأكبر رصيد نُعْدَه في سبيل نصرتها^(١).

وسلامة الاعتقاد من المقومات الأساسية لمعلم القرآن، الذي يتصدى للتعليم والتربية في حلقات القرآن؛ لأنَّ ذلك يُثمر الاستقرار القلبي، فيصبح اعتقاده

(١) انظر: المسؤولية، د. محمد أمين المصري (ص ٤٠).

القلبي متوافقاً مع قوله اللفظي، وسلوكه العملي^(١).

ورجل العقيدة الصحيحة يستطيع أن يحقق أهداف الحلقات القرآنية، بفرس بذرة الإيمان في نفوس الناشئة، وبناء لبنة عقيدة التوحيد الخالصة، بحيث يجتمع تعلم القرآن مع نقاء الفطرة، فتنمو الثمرة، وتؤتي أكلها، فيحصل النفع بإذن الله^(٢).

ولقد كان أنمة القراء الأوائل على هذا المنهج الواضح في التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد، والتحذير من البدع والضلالات.

فعلى سبيل المثال نجد أن الإمام المقرئ عثمان بن سعيد (أبا عمرو الداني رحمته الله)^(٣) ألف: (الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات)، التي تنضح بمعتقد أهل السنة والجماعة، وتمتاز بسبك الأدلة في مواضعها، كما أنها خلت من علم الكلام^(٤).

وفي منظومته الموسومة بـ (الأرجوزة المنبّهة) - وهي قصيدة رجزية تقع في نحو (١٣٠٠) بيت - أوضح أصول القراءة ومتعلقاتها، وأصول الدين، فذكر من صفات الشيوخ الذين يؤخذ عنهم العلم ما يلي^(٥).

فأقصد شيوخ العلم والرواية ومن سما بالفهم والدراية

(١) انظر: مهارات التدريس في الحلقات القرآنية، د. علي بن إبراهيم الزهراني (ص ٦٨).

(٢) انظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم، د. حازم سعيد حيدر (ص ٩).

(٣) هو عثمان بن سعيد (أبو عمرو الداني) المالكي، ويقال له: ابن الصيرفي، وعُرف بالداني لسكناه دانية، ولد سنة (٣٧١هـ)، كان أحد الأئمة في علم القرآن وروايته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه. قال الذهبي رحمته الله: «وما زال القراء معترفين ببراعة أبي عمرو الداني وتحقيقه وإتقانه، وعليه عمدتهم فيما ينقله من الرسم والتجويد والوجوه». توفي سنة (٤٤٤هـ). له أكثر من مائة مصنف، منها: «التيسير في القراءات السبع»، و«المقنع في رسم المصحف ونقطه»، و«البيان في عدّ أي القرآن».

انظر: طبقات الحفاظ، للسيوطي (١/٤٢٨)؛ سير أعلام النبلاء (١٨/٧٧).

(٤) انظر: الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، لأبي عمرو الداني، تحقيق: د. محمد بن سعيد الفحطاني - مقلّمة المحقق: (ص ٨ - ٩).

(٥) انظر: الأرجوزة المنبّهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات وعقد الديانات بالتجويد والدلالات، تحقيق: محمد بن مجفان الجزائري (ص ١٦٨).

وَأَنْتَقَدَ الطَّرِيقَ وَالْأَنْبَارَا
وَعَلِمَ الْخَطَأَ وَالْبُضُؤَابَا
وَمَيَّزَ الْوَاهِمِيَّ وَالْمَعْرُوفَا
وَلَازَمَ الْحُدُوقَ وَالْأَعْلَامَا
وَجَانَبَ الْأَزْدَالَ وَالْأَشْرَارَا
وَقَامَ لِلَّهِ بِحُسْنِ الطَّاعَةِ

بِمَنْ زَوَى وَقَيَّدَ الْأَخْبَارَا
وَفَهِمَ اللَّغَاتِ وَالْإِعْرَابَا
وَحَفِظَ الْخِلَافَ وَالْحُرُوفَا
وَجَمَعَ التَّفْسِيرَ وَالْأَحْكَامَا
وَضَجَبَ النَّشَاكَ وَالْأَخْيَارَا
وَاتَّبَعَ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ
وَقَالَ أَيْضاً^(١):

وَأَعْمَلَ بِقَوْلِ الْفِرْقَةِ الْمُتَّبِعَةِ^(٢)

وَجَانِبِ الْأَرَادِلِ الْمُتَّبِعَةِ

وَقَالَ فِي بَيَانِ بَعْضِ مَسَائِلِ الْمُقْبِلَةِ^(٣):

بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ
عَنِ الْأَيْمَةِ عَنِ النَّبِيِّ
وَشَاعَ فِي النَّاسِ قَدِيمًا وَانْتَشَرَ
فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ
سُبْحَانَهُ مِنْ قَادِرٍ لَطِيفٍ
وَأَنْنَا نَرَاهُ بِالْأَبْصَارِ
كَرُونَةَ الْبَدْرِ بِلا غَمَامٍ

وَمِنْ عُقُودِ السُّنَّةِ الْإِيمَانُ
وَبِالْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ الْمَرْوِيُّ
فَمِنْ صَاحِبِ مَا أَتَى بِهِ الْأَثَرُ
نُزُولُ رَبِّنَا بِلا امْتِرَاءِ
مِنْ غَيْرِ مَا حَدُّ وَلَا تَكْثِيفِ
وَرُؤْيَةُ الْمُتَّبِعِينَ الْجَبَّارِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلا ازْدِحَامِ

٢ - الإخلاص لله تعالى :

يجب على كل مكلف أن يخلص قصده لله تعالى في سائر أعماله الظاهرة والباطنة، فكيف بمن ارتبط بكتاب الله تعالى تعلماً وتعليماً؟

وقد أمر الله تعالى بإخلاص العمل له - وهو الذي يراد به وجهه الله تعالى لا غيره - في قوله: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِعِبَادَاتِ اللَّهِ تَخْلِيفًا لَهُ الَّذِينَ﴾ [البينة: ٥].

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ١٧٤).

(٢) وهم أهل السنة والجماعة، والفرقة الناجية من أهل الحديث، المتبعون لما كان عليه صدر هذه الأمة.

(٣) انظر: المصدر نفسه (ص ١٧٨، ١٩٤ - ١٩٥).

قال القشيري^(١) **كَلْفَةٌ**: «الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يُريد بطاعته التَّقَرُّبَ إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنُّع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التَّقَرُّبِ إلى الله تعالى.

ويصح أن يُقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»^(٢).

والله تبارك وتعالى ابتلى عباده بالشريعة؛ ليظهر منهم حسن العمل، فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْتَؤُمُ بِكُمْ أَتُكْرَهُونَ خَلْقَهُ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض **كَلْفَةٌ**: «أخلصه وأصوبه، وإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً. والخالص: إذا كان لله عز وجل، والصواب: إذا كان على السنة»^(٣).

وقد يؤدِّي عدم الإخلاص في تعلُّم القرآن وتعلِّمه إلى إلقاء صاحبه في النار، والعياذ بالله.

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَيْ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَةَ فَعَرَّفَهَا، قَالَ: فَمَا حَمَلْتُ لِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ كَذَبْتُ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِّبَ عَلَيْهِ وَجْهٌ حَتَّى الْتَمَىٰ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَيْ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَةَ فَعَرَّفَهَا. قَالَ: فَمَا حَمَلْتُ لِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتُ، وَلَكِنَّكَ

(١) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري، القشيري، الشافعي، صوفي، مفسر، فقيه، أصولي، محدث، واعظ، ولد سنة (٣٧٦هـ)، وتوفي بنيسابور سنة (٤٦٥هـ). من تصانيفه: «التبشير في التفسير»، و«الفصول في الأصول»، و«الجواهر الثمينة».

انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٩٨)، طبقات الشافعية (٣/٢٤٣).

(٢) الرسالة القشيرية، لعبد الكريم القشيري (ص ٢٠٧ - ٢٠٨). وانظر: البيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٢).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/٢٤)؛ تفسير البغوي (٨/١٧٦).

تَعَلَّمَتِ الْعِلْمَ يُقَالُ: عَلِمَ، وَقَرَأَتِ الْقُرْآنَ يُقَالُ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ... الحديث^(١).

ولذلك بعدُ العمل الخالي من النية الصالحة كالجنة الهامدة، التي لا روح فيها، وقد فرض الله عزَّ وجلَّ عبوديَّةً على المسلم في كلِّ عملٍ يعملُه، وممَّا لا وراء فيه أنْ تعلِّم القرآن وتعليمه من أجلِّ القربات وأعظمها أجرًا، وكلُّما أخلص المرء لله لم يتعثَّر في سيره، وأعطى توفيقاً بقدر ما في قلبه من الصدق والإخلاص^(٢).

ولِعَظَمِ هذا الأمر وأهميته في مقاصد المكلفين، وفيما يتعبَّدون به ربِّهم، تمنَّى ابن أبي جمرة الأندلسي^(٣) تَكَلُّفًا أَنْ يَتَفَرَّغَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ كَيْ يَعْلَمَ النَّاسَ مَقاصدِهم، فقال: «وددت أنه لو كان من الفقهاء مَنْ ليس له شُغْلٌ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ مَقاصدِهم في أعمالِهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أُتِيَ على كثير من الناس إِلَّا من تضييع ذلك»^(٤).

ويرتبط بهذا بالضرورة: ألا يقصد بتعلُّم القرآن وتعليمه توجُّلاً إلى غرض من أغراض الدنيا من مال، أو رياضة، أو وجهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك^(٥).

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُمْ فِي حَرْثِهِمْ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُفِثَ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الصَّالِحَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَّقَى بِهِ

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: من قاتل للربِّاء والشُّمعة استحقَّ النار (٣/١٥١٤) (ح ١٩٠٥).

(٢) انظر: المقومات الشخصية لمعلِّم القرآن الكريم (ص ١٢).

(٣) هو عبد الله بن أبي جمرة السبتي، المالكي، خطيب غرناطة (أبو محمد) توفي وهو على المنبر يوم الجمعة سنة (٧١٠هـ).

انظر: ذيل التقييد في رواية السنن والمسند، لأبي الطيب الفاسي (٢/٧٠).

(٤) المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، لابن الحاج (٣/١).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٦).

وَجَهَ اللهُ ﷻ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ حَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ حَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَنِي: رِيحُهَا^(١).

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»^(٢).

قال الذَّهَبِيُّ^(٣) رحمته الله: «قد يكون طلب العلم - الذي هو الواجب والمستحب المتأكد - مذموماً في حق بعض الرجال كمن طلب العلم ليجاري به العلماء، ويماري به السفهاء، وليصرف به الأعين إليه، أو ليعظم ويقدم، وينال من الدنيا المال والجاه والرِّفعة، فهذا أحد الثلاثة الذين تُسَجَّرُ بهم النَّارُ»^(٤).

وتأتي أهمية تصفية النية من الشوائب، وإخلاصها لله تعالى في فاعلية العملية التعليمية والتربوية من كونها أساساً لقبول عمل المعلم والمتعلم ورفع عملهما الصالح، ومن الجانب الآخر فإن معلم القرآن قدوة لطلابه، فإذا كان خالي الوفاض أو مُكثِّر المورِد في هذه الصِّفة، فكيف يُؤثِّر في المتعلمين، ويحقق أهدافه التعليمية والتربوية؟^(٥).

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب: في طلب العلم لغير الله (٣/٣٢٣) (ح ٣٦٦٤) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/٦٩٧) (ح ٣١١٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب: فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٥/٣٢) (ح ٢٦٥٤) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/٣٣٧) (ح ٢١٣٨).

(٣) هو الإمام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التُّرْكَمَانِي الأصل، الفارقي، ثم الدمشقي، الذهبي، الشافعي (أبو عبد الله) محدث، مؤرخ، ولد بدمشق سنة (٧٥٩هـ)، وسمع بها وبحلب وبنابلس وبيجة ومصر، وسمع منه خلق كثير، كان إماماً في الحفظ، والجرح والتعديل، توفي بدمشق سنة (٨١٩هـ) ودفن بمقبرة الباب الصغير. وله تصانيف كثيرة منها: «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، و«طبقات الحفاظ»، و«الإعلام بوقيات الأعلام»، و«تجريد أسماء الصحابة»، و«سير أعلام النبلاء».

انظر: طبقات الشافعية (٥/٢١٦)؛ الدرر الكامنة (٣/٣٣٧).

(٤) طلب العلم وأقسامه، للذهبي (ص ٢١٠ - ٢١١).

(٥) انظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص ١٣).

المطلب الثاني

آداب معلم القرآن

من المعلوم بداهة أن الفرع يتبع الأصل، وأنه لا يستقيم الظل والعود أعرج، وأن لكل مقتد مثلاً يحتنيه.

والمعلمون بعامة، ومعلمو القرآن بخاصة هم القدوة لطلابهم، فالواجب على معلم القرآن أن يسلك مسلكاً حسناً في تعليم من يعلمهم، فلا يريهم من نفسه ما ينفرهم، ويتحلّى بصفات الحلم والرأفة والأمانة، والصدق والإخلاص، وأن يحنو عليهم كما يحنو على أبنائه.

وقد اعتنى معلمو القرآن من السلف الصالح بطلابهم، فأولوهم كل رعاية وعناية، وكانوا قدوة سالحة لهم في حبّ كلام الله تعالى وتعظيمه والإقبال عليه، مع التحلي بأخلاقه، والتأدب بأدابه، ورعاية حقوقه، وأقبلوا على طلابهم بكل حفاوة وترغيب، وشملوهم بكل عطف ولين، ومحضوا لهم النصيحة وتابعوهم بالتوجيه والتسليد والإرشاد.

ومن هنا كان اهتمام علماء المسلمين بوضع عدد من القواعد والضوابط أو الآداب التي يجب أن يلتزم بها معلمو القرآن الكريم أثناء قيامهم بهذه المهمة الشريفة المباركة، ومن هؤلاء: الأجرّي^(١)، وأبو حامد الغزالي^(٢)، والنووي^(٣) وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

فلا بدّ لمعلم القرآن أن يلتزم جملةً من الآداب؛ ليكون على قدر المسؤولية، والمهمة الجسيمة الملقاة على عاتقه، والتي منها:

١ - الاستقامة على دين الله تعالى:

المقصود من ذكر صفة الاستقامة لمعلم القرآن، التنبه على أن يواظب قوله

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ٣٥ - ٦٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤٨/١) وما بعدها.

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤١ - ٥٩).

وعمله ما يحمل من كلام الله؛ ليكون القرآن العظيم حجةً له، لا عليه، وليرفعه الله به، وينفع بتعليمه.

والاستقامة صفة تجعل من معلّم القرآن أنموذجاً كريماً، وقلوةً سالحةً في نظر طلابه، والمقصود بالاستقامة هنا هو الصدق والأمانة، والعدل والوفاء، والالتزام بأحكام الشرع الحنيف، والتمسك بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً. فقد ذكر العلماء أنّ من شرط معلّم القرآن وصفته أن يكون ثقةً مأموناً، ضابطاً، متنزهاً عن أسباب الفسق، ومُسقطات المروءة^(١).

وينبغي له كذلك أن يكون ملتزماً بالفرائض والواجبات، ومحافظةً على المندوبيات بحسب الاستطاعة، مجتنباً للمحرّمات، مبتعداً عن المكروهات بقدر الطاقة، محاسباً نفسه على هفواته وزلاته، حريصاً على ما يصلح دينه^(٢).

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بلبيله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مُفطرون، وبورعه إذا الناس يخلطون، ويتواضعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكاؤه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون»^(٣).

ومما ينبغي لمعلّم القرآن الاعتناء به، أن يُحافظ ويداوم على تلاوة القرآن، دون الاكتفاء بالتسميع للطلبة عند المراجعة، فيقتصر على سماع القرآن دون تلاوته، مما يوقعه في هجر تلاوة القرآن.

ومما يجب على المعلّم أن يأخذ نفسه به، وينشئ طلابه عليه، البعد عن الأساليب المبتدعة في القراءة، التي أحدثت بعد القرون المُفضّلة^(٤).

(١) انظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري (ص ٥٨).

(٢) انظر: المدارس والكتاتيب القرآنية وقفات تربوية وإدارية، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي (ص ١٣).

(٣) رواه أحمد في «كتاب الزهد» (ص ١٦٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٢٩)؛ والسخاوي في «جمال القراءة» (ص ٢٨)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/٢٣١) (رقم ٣٥٥٨٤)؛ والنووي في «التبيان» (١/٢٩)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٢١)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٥٠).

(٤) انظر: المقومات الشخصية لمعلّم القرآن الكريم (ص ١٣ - ١٤).

٢ - حسن الخلق مع المتعلمين :

من المبادئ المهمة التي ينبغي لمعلم القرآن أن يعتني بها، ويعرف حدودها وثمارها الأخروية والدنيوية هو حسن الخلق، ويتأكد هذا - في حق معلم القرآن - من جانبين :

أ - أنه من حملة كتاب الله، فهو من العلماء، والعلماء هم ورثة الأنبياء في العلم، فلكذلك ينبغي عليهم أن يرثوهم في الأخلاق، وقد اتنى الله تعالى على نبيه الكريم ﷺ بأعظم خلقه يتحلى بها بشر، فقال: ﴿وَأَنَّكَ لَمَنْ خُلِّيَ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

ب - أن من تصدَّى لتعليم الناس ومخالطتهم، ينبغي أن يتحلى بحسن السياسة وتدبير الأمور؛ لأنه سيواجه منهم ما يكره في بعض الأحيان^(١).
وقد اعتنى السلف الصالح بهذا وامثلوه قولاً وعملاً، وسيرهم العطرة مع طلابهم خير شاهد على ذلك^(٢).

* فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم عملكم مع جهلكم»^(٣). فإذا كان العلم هو: القرآن، فالمسؤولية أعظم.

* وهم بهذا الصنيع يسبرون على هدي القرآن، ويمثلون أمره: «كان أبو العالية رضي الله عنه إذا دخل عليه أصحابه وطلابه ليقرنهم رغب بهم، ووطأ كنفه لهم، وألان القول معهم، ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ نَقِيسَ الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ٥٤]»^(٤).

* وقد ذكر من ترجم للإمام المقرئ نافع بن أبي نعيم المدني رضي الله عنه - أحد

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ١٥).

(٢) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (ص ٩٨ - ١٠٠).

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٧٧)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٦١)؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٣٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢١١).

القراء السبعة - أنَّ من أسباب إقبال الطلاب على أخذ القراءة عنه وملازمته، ما كان عليه من حسن الخلق، وصباحة الوجه وطلاقته، وكرمه وجوده على طلابه وغيرهم، يقول عيسى بن مينا قالون: «كان نافع من أظهر الناس خُلُقاً، ومن أحسن الناس قراءةً، وكان زاهداً جواداً»^(١).

وجاء أيضاً عنه: «كان يُسهِّلُ القرآنَ لمن قرأ عليه»^(٢).

فلا غرابة - بعد ذلك - أن نجد من أهل العلم من يُعنى بهذا الجانب، ويؤكِّد عليه في مواضع مختلفة من مصنفاته؛ لما له من أثر إيجابي في تقوية الروابط الاجتماعية بين المعلم والمتعلم، ومن ذلك:

* ما قاله الماوردي^(٣) بكثافة: «ومن أدبهم: ألا يُعنفوا مُتعلِّماً، ولا يُحقِّروا ناشئاً، ولا يستصغروا مُبتدئاً، فإنَّ ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم، وأحسُّ على الرُّغبة فيما لديهم»^(٤).

* ومن الآداب التي ذكرها التَّوويُّ ثَلَاثةٌ في حقِّ معلِّمي القرآن:

«وينبغي ألا يتعاضم على المتعلِّمين بل يلين لهم، ويتواضع معهم، فقد جاء في التَّواضع لأحد النَّاسِ أشياء كثيرة معروفة، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده، مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن، مع ما لهم عليه من حقِّ الصُّحبة وتردُّدهم عليه»^(٥).

(١) معرفة القراء الكبار (ص ٦٥)؛ غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٣٣).

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٣٣).

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد المشهور بالماوردي الإمام الفقيه، قيل له الماوردي؛ لعمل عائلته بصناعة ماء الورد وبيعه، ولد سنة (٣٦٤هـ) بالبصرة، وطلب فيها العلم على المذهب الشافعي، ثم رحل إلى بغداد وتلمذ على يد رئيس الشافعية هناك الشيخ الإسفرايني، ثم تقلد رئاسة الشافعية بعده، وله مؤلفات عديدة منها: «الحاوي الكبير»، و«الأحكام السلطانية» وغيرها. توفي سنة (٤٥٠هـ).

انظر: البداية والنهاية (١٢/٨٥)؛ طبقات الشافعية (٥/٢٦٧).

(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص ٩١).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٤).

٣ - بذل النصيحة للمتعلمين:

ينبغي لمعلم القرآن أن ينصح المتعلمين، ويبدل لهم كل ما عنده من علم، فالنصيحة من صفات الأنبياء ﷺ قال الله تعالى مُخْبِرًا عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال عن نوحٍ ﷺ: ﴿وَأَصْحُ لُكُوءٍ﴾ [الأعراف: ٦٢].
 وأصل النصيح: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة؛ بخلاف الغش^(١).

* وعلى المعلم أن يبادر إلى سؤال المتعلمين، ويتدققهم بالفائدة، ويعرضهم على أخذ ما عنده من علم، كما فعل علي بن أبي طالب عليه السلام مع طلابه حيث قال لهم: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، وسلوني عن كتاب الله؛ فوالله ما منه آية إلا وأنا أعلم بليلى نزلت أم بنهار، أم بسهل أم بجبل... أيها الناس تعلموا العلم، واعملوا به، ومز أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألني عنه»^(٢).

* وعن سعيد بن جبيرة^(٣) كلفه قال: «إِنْ مِمَّا يَهْمُنِي، أَنِّي وَدَدْتُ أَنْ النَّاسَ، قَدْ أَخَذُوا مَا مَعِيَ مِنَ الْعِلْمِ»^(٤).

ومن وصايا المعلمين لطلابهم والأئمة من بعدهم - إضافة لما سبق^(٥).

* عن ابن مسعود عليه السلام قال: «إِنَّمَا هَذِهِ الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، فَاشْغُلُوهَا بِالْقُرْآنِ،

(١) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص ١٧٣).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١١٤ - ١١٥).

وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٥٩٩).

(٣) هو سعيد بن جبيرة بن هشام الأسدي، مولاهم، الكوفي، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من أئمة السلف، من الطبقة الثالثة، ومن الفقهاء والعلماء الصالحين الثقات، وكان عابداً فاضلاً ورعاً، خرج مع ابن الأشعث على الحجاج والي بني أمية، فلما تمكن منه الحجاج قتله، وذلك سنة (٩٥هـ)، وعمره (٤٩)، وقيل (٤٧) سنة.

انظر: تهذيب التهذيب (٤/١١ - ١٤).

(٤) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١١٦)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٨٣)؛ والمزني في «تهذيب الكمال» (١٠/٣٦٧).

(٥) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن (ص ٩٢ - ٩٣).

ولا تشغلوها بغيره^(١).

* وكان أبو العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لطلابه: «تعلّموا القرآن، فإذا تعلّمتموه فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء فإنها تُوقع بينكم العداوة والبغضاء، وعليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يخرقوا^(٢)».

* وقال مالك بن دينار^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ماذا زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض^(٤)».

* وفي حثّ المتعلّمين على تعاهد الحفظ، يقول الضّحّاك بن مزاحم^(٥) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما من أحد تعلّم القرآن فنسبه إلا بذنب يُحْيِيهِ؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَمْنَبَكُمْ تِن مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإنّ نسيان القرآن من أعظم المصائب^(٦)».

٤ - التدرّج في التعلّم والتربية:

البداية بتعليم الأصول والكلّيات قبل الفروع والجزئيات، يُعدّ السّلم السوي في مراتب التعلّم، وهو أدعى لثبات العلم ورسوخه لدى المتعلّم.

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٣١). (٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢١٨).

(٣) هو مالك بن دينار البصري (أبو يحيى) من موالى بني سامة بن لؤي القرشي، كان عالماً زاهداً، كثير الورع، فتوحاً، له مناقب عديدة، وأثار شهيرة، قال ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صدوق عابد، من الخامسة». توفي سنة (١٣١هـ) بالبصرة قبل الطّاعون بيسير.

انظر: وقيّات الأعيان (٤/١٣٩)؛ تقريب التهذيب (١/٥١٧).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٥٨).

(٥) هو الضّحّاك بن مزاحم الهلالي، الخراساني، تابعي، جليل، إمام في التفسير، قال الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خذوا التّفسير عن أربعة: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، والضّحّاك». قال في تقريب التهذيب: «صدوق، كثير الإرسال». وثقه ابن حبان وأحمد، وضمّفه يحيى بن سعيد القطان، توفي سنة (١٠٥هـ).

انظر: البداية والنهاية (٩/٢٢٣)؛ تقريب التهذيب (١/٣٧٣).

(٦) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٤)؛ وابن المبارك في «الزّهدة» (ص ٨٥)؛ وابن أبي شيبة في «مصنّفه» (١٠/٤٧٨)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٢).

وقد قرّر المنهج النبوي المبارك هذه الطريقة في التعليم:

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ^(١)، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا»^(٢).

وسرى هذا المنهج على الصحابة الكرام عمومًا، فقد أخبر ابن عمر رضي الله عنهما وهو من صغار الصحابة - فقال: «لقد عشتُ بُرْهَةً من دهرِي وإنْ أأخذنا يُؤْتِي الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نَقْفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تُعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ...»^(٣).

ثم بين ابن عمر رضي الله عنهما أن هذا المنهج طرأ عليه تغيير في جيل التابعين، فقال عن بعض من شاهد طريقته في تعلم القرآن:

«... ثم لقد رأيتُ رجالاً يُؤْتِي أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، مَا يَدْرِي مَا آمَرُهُ، وَلَا زَاجِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، يَثْرَهُ نَثْرَ الدَّقْلِ»^(٤)،^(٥).

وهذه حقيقة مرّة نلاحظها اليوم في بعض رُوَادِ جَلَّتِ الْقُرْآنَ، وَمَنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَتَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ خُلُقًا وَأَدْبًا وَسُلُوكًا عَمَّا يَحْفَظُهُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلتَّحَوُّلِ عَنِ الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ فِي الْأَخْذِ وَالتَّلْقِي، فَاصْبَحَ الْأَمْرُ مَجْرَدَ أَلْفَاظٍ يَرُدُّهَا وَيَحْفَظُهَا، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَسَلِكٌ إِلَى قَلْبِهِ. ولهذا يجب على كلِّ معلّم للقرآن أن يكون حكيماً في تعليمه، متفهماً لما

(١) (حزوايرة): جنم حزورٍ وحزورٍ، وهو الذي قازب البلوغ، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٣٨٠).

(٢) رواه ابن ماجه في «المقدمة» (١/٢٣) (ح ٦١).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط». انظر: مجمع البحرين في زوائد المعجمين، للهيتمي (١/٤٨٢)، وخسنه المحقق؛ والشيبوطي في «الدّر المنثور» (٢/٦٩)؛ والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/١٢٠) (رقم ٥٠٧٣)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/٩١) (رقم ١٠١). وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه». وقال الذهبي: «على شرطهما ولا علة له».

(٤) (الدقل): رديء التمر ويابسُه. النهاية في غريب الحديث (٢/١٢٧).

(٥) تنمة الحديث نفسه.

يعطيه، قال تعالى: ﴿كُونُوا رَئِيفِينَ يَمَا كُنْتُمْ مَكْرُومًا الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ مَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَئِيفِينَ﴾: «خُلَمَاءُ فُقَهَاء»^(١). وقال الإمام البخاري^(٢) تكملة: «ويقال: الرئيفي الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم»^(٣).

فالمعلم اللبيب هو الذي يبدأ بالأمور السهلة الواضحة، قبل المسائل الدقيقة الشائكة^(٤)، فيراعي مدارك المتعلمين، ومستوياتهم، وأعمارهم، ويعطي كلًّا ما يناسبه^(٥).

وعلى ضوء ما سبق فإنه يتعين على معلم القرآن استخدام أسلوب التدرج في التعليم والتأديب؛ لأن الوصول بالمتعلم إلى الكمال التربوي لا يتم إلا بالتدرج، وأي استعجال في التعليم، أو التربية في الحلقات القرآنية، دون مراعاة هذه القاعدة، فإنه يعني الفشل التربوي، والإخفاق في تحقيق الأهداف التربوية^(٦).

٥ - الرفق بالمتعلمين:

يُعَدُّ الرفق من الأصول المهمة في التعليم والتربية؛ لأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه، والله تعالى رفيق يحب الرفق: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بِأَعْيُنِنَا إِنْ أَنْزَلَ اللَّهُ رِيفًا يُحِبُّ

(١) صحيح البخاري (٥٠/١).

(٢) هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (أبو عبد الله) صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله، وهو صحيح البخاري، اتفقت الأمة على إمامته في الحديث، قال ابن حجر: «جَبَلُ الحِمْيَرِ، وإمام الدنيا في فقه الحديث». توفي سنة (٢٥٦هـ)، وعمره (٦٢) سنة. انظر: تقريب التهذيب (١٤٤/٢).

(٣) صحيح البخاري (٥٠/١).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢١٣/١).

(٥) انظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص ٣٥ - ٣٦).

(٦) انظر: مهارات التدريس في الحلقات القرآنية (ص ٢٢٢)؛ نحو أداء متميز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم (ص ٤٥ - ٥٧).

الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ^(١) مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ^(٢).

وعلى معلم القرآن أن يسلك بالمتعلمين سبيل الرفق في التعليم، فلا يشدد عليهم، ولا يلقاهم بما يكرهون؛ لئلا يفروا من قول الحق وأتباع الهدى. ولاهية الرفق في التعليم أوصى به النبي ﷺ في قوله: «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا، وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُفَسِّرُوا، وَإِذَا خَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسِّكْ»^(٣).

وتزداد أهمية التعليم برفق لدى الصغار، الذين يحملون في حناياهم أحاسيس مرهفة، أو لدى فلاظ الطباع، الذين لم يتأدبوا بعلم، أو مجالسة، مما يحتمل المعلم عبثاً كبيراً ومسؤولية زائدة، يحاسب أجرها عند الله تعالى.

ويعتبر النبي ﷺ أكبر المعلمين، وأعظمهم في العالم؛ إذ ساهم - برفقه وحلمه وحسن خلقه - في ضبط سلوك الكبار والصغار، والعرب والعجم، وأهل المدن والبادية، مستخدماً أساليب التربية والتعليم التدريجي، والرفق، واليسر، والرحمة، مما أدى إلى ضبط سلوك ملايين البشر ضبطاً ذاتياً، فكون المعلومات، والمهارات، والعقائد الصحيحة، والاتجاهات الراسخة، على مدى الزمن^(٤).

ومن صور رفق المعلم بالمتعلم: ألا يُرَدُّ لكونه غير صحيح النية بطلبه القرآن، قال النووي رحمته: «قال العلماء: ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، فقد قال سفيان وغيره: طلبهم للعلم نية. وقالوا: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. معناه: كانت عاقبته أن صار لله تعالى»^(٥).

(١) (ويُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ): أي يُبَيِّبُ عَلَيْهِ مَا لَا يُبَيِّبُ عَلَى غَيْرِهِ. وقيل: يتأني به من الأغراض، ويسهل من المطالب، ما لا يتأني بغيره.
انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٤٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والعلة والآداب، باب: فضل الرفق (٤/٢٠٠٤) (ح ٢٥٩٣).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١/٩٥) (ح ٢٤٥)؛ وأحمد في «المسند» (١/٢٨٣) (رقم ٢٥٥٦)؛ وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (٣/٣٦٤) (ح ١٣٧٥)؛ و«صحيح الأدب المفرد»: (ص ١٠٩) (ح ١٨٤).

(٤) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٨). وانظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص ٤٧)؛ منجد المقرئين ومرشد الطالبين (ص ٦٣).

ومن صور الرُّفْقِ كذلك: أن يتخَوَّلَ المَعْلَمُ الرُّدَّ اللُّطِيفَ عَلَى المَتَعَلِّمِ حِينَ خَطئه، قال الأَجْرِيُّ **كَلَّفَهُ** - فِي أَخْلَاقِ المَقْرِي: «وَيَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ فَأَخْطَأَ فِيهِ، أَوْ غَلَطَ أَلَّا يَعْتَفَهُ، وَأَنْ يَرْفُقَ بِهِ، وَلَا يَجْفُو عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ يَجْفُوَ عَلَيْهِ فَيَنْفِرَ عَنْهُ، وَبِالْحَرِيِّ أَلَّا يَعُودَ إِلَى المَسْجِدِ»^(١).

وهذا كلام دقيق من عالم حكيم مُجَرَّب، فالعنف من أسباب التَّخَوُّرِ والابتعاد، فلا بدُّ أن يكون رَدُّ المَعْلَمِ عَلَى المَتَعَلِّمِ بِطَرِيقَةٍ لَطِيفَةٍ، لَا تَعْنِيفَ فِيهَا وَلَا زَجْرَ، وَلَا اسْتِعْجَالَ، وَيَتِمَّتْ بِقَلْبِهِ أَنْ يَفْتَحَ اللهُ تَعَالَى عَلَى القَالِبِ لِیَأْتِيَّ بِالصَّوَابِ، فَإِنَّ عَجْزَ أَرشده بِأَنْ يَأْتِيَّ بِأَيَّةٍ قَبْلَهَا، فَهُوَ أَدْعَى لِاسْتِذْكَارِهِ وَاسْتِحْضَارِهِ، فَإِنَّ غَلْبَ عَلَيْهِ الخَطَأَ أَرشده إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالمَرَاجَعَةِ المُتَقَنَّةِ، وَالبَعْدَ عَنِ كُلِّ سَبَبٍ يُؤَدِّي لِضَعْفِ الحِفْظِ^(٢).

٦ - الصَّبْرُ عَلَى المَتَعَلِّمِ:

خُلِقَ الصَّبْرُ مِنَ الأخْلَاقِ العَظِيمَةِ الَّتِي مَن تَحَلَّى بِهَا نَالَ العِلا، وَمَعْلَمُ القُرْآنِ يَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ فِي رِسَالَتِهِ العَظِيمَةِ، فَهُوَ مِنَ الهِدَاةِ إِلَى اللهُ تَعَالَى، المَتَمَسِّكِينَ بِكِتَابِهِ، فَهُوَ مِنْ أُمَّةِ الَّذِينَ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ لِلصَّبْرِ وَالبَقِيَّةِ، وَهِيَ رِكْنَا الإِمَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِآثَرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِبَآئِنَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال عنه النَّبِيُّ ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»^(٣).

قال ابن رجب^(٤) **كَلَّفَهُ**: «وَالضِّيَاءُ: هُوَ الثُّورُ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ نَوْعٌ حَرَارَةٌ وَإِشْرَاقٌ كَضِيَاءِ الشَّمْسِ، بِخِلَافِ القَمَرِ فَإِنَّهُ نَوْرٌ مَخْفُضٌ، فِيهِ إِشْرَاقٌ بِغَيْرِ إِحْرَاقٍ،

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٦٠).

(٢) انظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص ٣٨ - ٣٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (١/٢٠٣) (ح ٢٢٣).

(٤) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم النمشقي، الحنبلي (أبو الفرج) الحافظ، المحدث، الفقيه، الواعظ، ولد ببغداد سنة (٧٣٦هـ)، يُعَدُّ أَعْرَفَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِالْعِلْمِ، وَتَتَبَعَ الطَّرِيقَ. تَوَفِّيَ سَنَةَ (٧٩٥هـ). وَهُوَ مُصَنِّفَاتِ عِدْبَدَةٍ، مِنْهَا: «شرح جامع الترمذي»، و«لطائف المعارف»، و«ذيل طبقات الحنابلة».

انظر: شذرات الذهب (٦/٣٣٩)؛ طبقات الحفاظ (ص ٥٤٠).

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ لِيَتَسَوَّىٰ فِيهَا النَّفْسُ مِنْهَا وَأَلْقَىٰ فِيهَا الْوُجُوهَ﴾ [يونس: ١٥]. ولَمَّا كَانَ الصَّبْرَ شَاقًّا عَلَى النَّفْسِ، يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ وَحَبِيبِهَا، وَكَفَّهَا عَمَّا تَهْوَاهُ، كَانَ ضِيَاءً^(١).

والمراد أَنَّ الصَّبْرَ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَهُوَ مَحْمُودٌ، وَلَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مُسْتَضِيئًا مُهْتَدِيًا مُسْتَمِرًّا عَلَى الصُّوَابِ^(٢). فَلَا يَبْدُ لِلْمُعَلِّمِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْجُلُوسِ الطَّوِيلِ لِلتَّعْلِيمِ وَالقِرَاءَةِ، وَالصَّبْرَ عَلَى أَخْلَاقِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَمَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ - أحياناً - مِنْ نِقَاصٍ، فَهُوَ مَحْتَاجٌ دَائِمًا لِلصَّبْرِ.

وَقَدْ حَثَّ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ الْمُعَلِّمِينَ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى جَفَاءِ بَعْضِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَسُوءِ أَدَبِهِمْ فَقَالَ: «وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْنُو عَلَى الطَّالِبِ، وَيَعْتَنِي بِمُصَالِحِهِ، كَاعْتِنَائِهِ بِمُصَالِحِ وَلَدِهِ وَمُصَالِحِ نَفْسِهِ، وَيُجْرِي الْمُتَعَلِّمَ مَجْرَى وَلَدِهِ فِي الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، وَالِاهْتِمَامِ بِمُصَالِحِهِ، وَالصَّبْرِ عَنِ جَفَائِهِ، وَسُوءِ أَدَبِهِ، وَيَعْزُرُهُ فِي قَلَّةِ أَدَبِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مُعْرَضٌ لِلنِّقَاصِ، لَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ صَغِيرَ السِّنِّ»^(٣).

وَمِنْ صُورِ الصَّبْرِ عَلَى جَفَاءِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَشِدَّتِهِمْ أحياناً: مَا جَاءَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ شُعْبَةَ بْنِ عِيَّاشٍ^(٤) رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَلَّمْتُ مِنْ عَاصِمِ^(٥) الْقُرْآنَ، كَمَا يَتَعَلَّمُ الصَّبِيُّ مِنَ الْمُعَلِّمِ، فَلَقِي مِنِّي شِدَّةً، فَمَا أَحْسَنَ غَيْرَ قِرَاءَتِهِ، وَهَذَا الَّذِي أَحَدَّثَكَ بِهِ مِنْ الْقِرَاءَاتِ، إِنَّمَا تَعَلَّمْتَهُ مِنْ عَاصِمٍ تَعَلَّمًا»^(٦).

(١) جامع العلوم والحكم (١/٥٨٠ - ٥٨١).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٠١).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٣).

(٤) هو أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسدي الكوفي، المقرئ، الخنَّاط، مشهور بكنيته، والأصحُّ أَنَّهَا اسْمُهُ. وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي اسْمِهِ عَلَى عَشْرَةِ أَقْوَالٍ. ثَقَّةٌ، عَابِدٌ، لِأَنَّ لَهُ كَبِيرَ سَاءٍ حَفْظُهُ، وَكِتَابُهُ صَحِيحٌ. تُوُفِّيَ سَنَةَ (١٩٤هـ) وَقَدْ قَارَبَ الْمِائَةَ.
انظر: تقريب التهذيب (١/٦٢٤).

(٥) هو عاصم بن بهللة، وهو ابن أبي النُّجُودِ، الْأَسَدِيُّ بِالْوَلَاءِ، الْكُوفِيُّ (أَبُو بَكْرٍ) الْمَقْرِئُ. صَدُوقٌ لَهُ أَوْهَامٌ، حُجَّةٌ فِي الْقِرَاءَةِ. تُوُفِّيَ سَنَةَ (١٢٨هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/٢٨٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (٨/٥٠٢)؛ معرفة القراء الكبار (١/١٣٧).

من دواهي الصبر:

فلا غنى للمعلم عن الصبر، فربما كان المتعلم بطيء الفهم، ضعيف الحفظ - وهي حالة لا يد له فيها، فهي خارجة عن إرادته - فإن استعجله فلن يحقق معه هدفاً، وربما أربكه، فيكون سبباً في اضطرابه وتلججه بالقراءة، وبذلك يتعسر عليه الحفظ والفهم^(١).

«ومما يؤكد ضرورة الصبر على المتعلمين في الحلقات القرآنية في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى: ما أفرزه التقدم المعرفي، والتقني، وانتشار وسائل الاتصال التي جعلت العالم كقرية واحدة، فأدى ذلك إلى اتساع ثقافة التلاميذ، وزيادة حجم التناقض السلوكي عند الجماعات المرجعية للمتعلم، كل هذا أوجد عنده مشكلات وسلوكيات متنوعة غير التي كانت بالأمس.

وهذا يتطلب جهداً من المعلم في الحلقات القرآنية، ويحتاج إلى العلم، والصبر، والتدرج؛ لينجح في معالجة تلك المشكلات، ويغرس في نفوسهم الأخلاق الحسنة، ويحقق أهداف الحلقات التربوية، وبدون هذا الخلق قد يتسرب التلاميذ من الحلقات، فلا يعودون إليها؛ لأن المعلم إذا لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح^(٢).

المطلب الثالث

آداب متعلم القرآن

سبق الكلام عن جملة من الآداب التي ينبغي أن يلتزمها معلم القرآن الكريم أثناء تصديبه لهذه المهمة العظيمة، وهناك - كذلك - آداب لا بد أن يتحلى بها متعلم القرآن، لا تقل أهمية عن آداب معلمه؛ لتساعد المعلم على المضي في تعليمه.

وقد أشار بعض العلماء الأجلاء إلى جملة من الآداب التي ينبغي للمتعلم

(١) انظر: كيف نتأدب مع المصحف (ص ١٣٢).

(٢) مهارات التدريس في الحلقات القرآنية (ص ٧٥ - ٧٦). وانظر: المقومات الشخصية لمعلم

القرآن الكريم (ص ٣٩ - ٤٠).

أن يضعها نصب عينيه، ويلزم نفسه بتطبيقها أثناء قيامه بعملية التعلم، ومن هؤلاء: الأجرّي^(١)، وأبو حامد الغزالي^(٢)، والنووي^(٣) وغيرهم رحمهم الله تعالى، وهي على النحو الآتي:

١ - تطهير القلب:

هذا شرط أساس في تعلم القرآن الكريم، فهو كالزُّرع لا ينبت إلا في تربة خصبة صالحة، أمّا الأرض السَّبِيخة أو المريضة فلا ينبت فيها زرع، وإن نبت بعض الشيء لا ينمو، وإن نما لا يُثمر، وإن أثمر لا يأتي بجيد الثمر، فالقرآن الكريم لا ينمو ولا يُثمر إلا في القلب الطيب الصالح الظاهر، فلا بد أن يكون المتعلم نظيفاً طاهراً من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف والعادات؛ لأنّ تعلم القرآن عبادة القلب، وصلاة السرّ، وكما لا تصحُّ الصلاة إلا بالظاهرة الظاهرة للبدن والملابس والمكان، فكذلك لا تصحُّ العبادة الباطنة - عبادة القلب - إلا بطهارته من النفاق والمكر والخبث، والحقد والحسد والعداوة والبغضاء^(٤).

ومن أجل ذلك أكّد النبي ﷺ على أهميّة صلاح القلب لإصلاح الأعضاء كلّها في قوله: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٥).

٢ - الرُّهد في الدُّنيا:

فلا تكون الدُّنيا ومطالبها أكبر همّه، وكلّ شُغله، فيتخفّف منها ما استطاع؛ وذلك لأنه جنّد نفسه وعقله لطلب أشرف العلوم - علم القرآن - وما دام كذلك ينبغي أن يكرّس جهده، ويجمع همته على التّحقيق والإجادة حتّى يحصل له حفظ

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ٦٧ - ٧١).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤٨/١) وما بعدها.

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦١ - ٦٩).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٤٨/١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦١).

(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٤١/١) (ح ٥٢)؛ ومسلم، كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشُّبهات (١٢١٩/٣) (ح ١٥٩٩).

القرآن وفهمه والعمل به^(١).

يقول الإمام الشافعي **تَلْفُظُ**: «لا يُفْلِحَ فِي هَذَا الشَّانِ - يَعْنِي بَلُوغَ شَرَفِ الْعِلْمِ - إِلَّا مَنْ أَتَكَلَّ أَبُوَيْهِ، وَأَتَلَفَ مَالَهُ، وَجَعَلَ الْمَسْأَلَةَ أَمَامَهُ، وَأَغْلَقَ ذُكَّانَهُ، وَأَحْرَقَ قَلْبَهُ الْجَوْعَ، وَتَعَلَّقَ فِي شَعْرِهِ الْقَبِيلَ، وَلَمْ يَقُلْ وَاعْرَبْتَاهُ»^(٢).

وَأُنشِدُ بَعْضَهُمْ:

يَقْدِرُ الْكَدُّ تُكْتَسَبُ الْمَغَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا ضَهَرَ اللَّيَالِي
تَرُومُ الْعِلْمَ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَبْغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّالِي^(٣)

«وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعِلْمُ لَا يُحْضَلُ إِلَّا بِاسْتِنَادِ الْحَجَرِ، وَافْتِرَاشِ الْمَدْرِ، وَإِدْمَانِ الْجَوْعِ وَالشَّهْرِ.

وَقَالَ آخَرُ: لَنْ يُدْرِكَ الْعِلْمَ مَنْ لَا يُطِيلُ دَرَسَهُ، وَلَا يَكْدُ نَفْسَهُ»^(٤).

٣ - التَّوَاضِعُ لِلْمُعَلِّمِ:

* قَدِيمًا قَالُوا: (ضَاعَ الْعِلْمُ بَيْنَ كِبْرِيَاءٍ وَحَيَاءٍ). فَالْكِبْرِيَاءُ وَالغُرُورُ يَمْنَعَانِ صَاحِبَهُمَا عَنِ السُّؤَالِ وَالِاسْتِفَادَةِ، وَالْحَيَاءُ كَذَلِكَ يَمْنَعُهُ، فَالْأَوَّلُ مَنَعًا مِنْ إِظْهَارِ جِهْلِهِ، وَالثَّانِي خَجَلًا وَخَوْفًا، وَكِلَاهُمَا مِنْ آفَاتِ الْعِلْمِ. إِلَّا أَنَّ الْكِبْرِيَاءَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ، فَفِيهِ سَوْءُ آدَبٍ.

وَإِذَا كَانَ الْمُعَلِّمُ مُطَالِبًا بِالتَّوَاضِعِ، فَالْمُتَعَلِّمُ أَوْلَى أَنْ يُطَلَّبَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ يَتَصَادَفُ أَحْيَانًا أَنْ يَكُونَ الْمُعَلِّمُ أَصْفَرَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِ، أَوْ أَقْلٌ مَنْصَبًا، فَإِنَّ هَذَا لَا يَسْقُطُ هَذَا الْمَطْلَبُ، وَلِذَا قِيلَ:

الْعِلْمُ حَرْبٌ لِنَفْسِي الْمُتَعَالِي كَالشَّيْلِ حَرْبٌ لِنَمَكَانَ الْعَالِي^(٥)

يَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ **تَلْفُظُ**: «فَلَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى الْمُعَلِّمِ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الْمُعَلِّمِ أَنْ يَسْتَنْكَفَ عَنِ الْاسْتِفَادَةِ، إِلَّا مِنَ الْمَرْمُوقِينَ

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٥٠).

(٢) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، لجمال الدين محمد الجيني، (ت٧٨٢هـ) (١/١٨٧ - ١٨٨).

(٣) انظر: ديوان الإمام الشافعي (١/٩٠). (٤) المصدر السابق (١/١٨٧).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٢).

المشهورين، وهو عين الحماقة، فإن العلم هو سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهرباً من سبع ضارٍ يفترسه، لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب، مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهال بالله، أشد من ضراوة كل سبع^(١).

ومن صور تواضع المتعلمين مع مشايخهم، وتدلُّهم لأجل الإفادة منهم:

* ما جاء في سيرة التابعي الجليل عمرو بن قيس المُلاني^(٢) كَتَبْتُ، كان إذا أتى الرجل من أهل العلم جثى على ركبتيه، ثم يقول: «عَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ»، يتأول قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ أَنْ تَقْلَمِينَ مِمَّا عَلَّمَتْ رُشْدَاكَ﴾ [الكهف: ٦٦]^(٣).

* وكان سعيد بن جبير كَتَبْتُ يُجِلُّ شَيْخَهُ ابْنَ عَبَّاسٍ، ويعرف له قدره، ولو ذ أن قبل رأسه احتراماً له، يقول: «كُنْتُ أَسْمَعُ الْحَدِيثَ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَلَوْ أَدْنَى لِي لَقَبَلْتُ رَأْسَهُ»^(٤).

* ومن تواضع سفيان الثوري كَتَبْتُ، واعترافه لشيخه (الإمام عمرو بن قيس المُلاني كَتَبْتُ) بالفضل في تعليمه، وتوجيهه، وصبره على ذلك، ما قاله: «عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ هُوَ الَّذِي أَدَّبَنِي، وَعَلَّمَنِي قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، وَعَلَّمَنِي الْفَرَائِضَ»^(٥).

٤ - الدُّعَاءُ لِلْمُعَلِّمِ وَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِهِ:

ينبغي للمتعلم أن يعترف بفضل معلمه عليه، وأن يُقرَّ بأنَّ العلم الذي أفاده إنما كان من جهة معلمه، فمن حقّه عليه أن يدعو له، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَيْتُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا، فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنْ قَدْ كَفَّيْتُمُوهُ»^(٦).

(١) إحياء علوم الدين (١/٥٠).

(٢) هو الإمام المقرئ عمرو بن قيس المُلاني، سُمِّيَ بذلك؛ لأنه كان يبيع الملاء (أبو عبد الله) من عبادة أهل الكوفة وقرائهم، قال أبو زرعة: «ثَقَّةٌ، مَأْمُونٌ»، وقال ابن حجر: «ثَقَّةٌ، مَتَّقٌ، عَابِدٌ، مِنَ السَّادَةِ، مَاتَ سَنَةَ بَضْعِ وَأَرْبَعِينَ».

انظر: تقريب التهذيب (١/٤٢٦)؛ سير أعلام النبلاء (٦/٢٥٠).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٠٢).

(٤) حلية الأولياء (٤/٢٨٣)؛ طبقات ابن سعد (٢/٣٧٠).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٠١)؛ وانظر: سير أعلام النبلاء (٦/٢٥٠).

(٦) رواه أحمد في «المسند» (٢/٦٨) (ح ٥٣٦٥)؛ والبخاري في «الأدب المفرد»، باب:

قال السَّعدي^(١) كَتَبْتُ: «وينبغي للمتعلِّم أن يُحسِّن الأدب مع معلِّمه، ويحمد الله إذ يَسر له مَنْ يَعلمه من جهله، ويُحييه من موته، ويُوَقِّظه من سته، وينتَهز الفرصة كلَّ وقت في الأخذ عنه، ويُكثِر من الدُّعاء له حاضراً وغائِباً»^(٢).

ومن صور الدُّعاء للشيوخ:

* ما جاء عن يحيى بن سعيد القطان^(٣) كَتَبْتُ قال: «أنا أدعو الله للشافعي، أخصُّه به»^(٤).

ومن صور الدُّعاء للشيوخ، والاعتراف لهم بالفضل:

* ما قاله الإمام أحمد^(٥) كَتَبْتُ: «هذا الذي ترون، كلُّه أو عاشرته من الشافعي، وما بئُ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعي، وأستغفر له»^(٦).

= مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَلْيُكَافِئْهُ (٨٥/١) (ح ٢١٦)؛ وَصَحَّحَهُ الْأَبْنَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ» (ص ٩٨) (ح ١٥٨)؛ وَ«الصُّحُوحَةُ» (١١٠/١) (ح ٢٥٤).

(١) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة نعيم، نشأ في بلاد القصيم، ودرس على علماء الحنابلة هناك، وكان ذا معرفة تامة في الفقه، وكان مشغولاً بكتب ابن نيميَّة وابن القيم واستفاد من ذلك خيراً كثيراً. له كتاب: «تيسير الرُّحْمَن فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ»، والقول الشَّدِيد فِي مَقَاصِدِ التَّوْحِيدِ وغيرهما. توفِّي سنة (١٣٧٦هـ). انظر: مقدِّمة كتاب «تيسير الرُّحْمَن».

(٢) الفتاوى السعدية (ص ١٠١).

(٣) هو يحيى بن سعيد القطان، إمام الحديث والجرح والتعديل، ثقة، مُتَقَرَّنٌ، حَافِظٌ، وإمام قُدوة، من كبار الطبقة التاسعة، توفِّي سنة (١٩٨هـ)، وعمره (٧٨) سنة.

انظر: تقريب التهذيب (٢/٢٤٨).

(٤) تاريخ مدينة دمشق (٥١/٣٢٤)؛ معجم الأدباء، لياقوت الحموي (٥/٢١٠)؛ تاريخ الإسلام (١٤/٣١٤).

(٥) هو الإمام أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (أبو عبد الله) ولد سنة (١٦٤هـ) ببغداد، رحل إلى سائر الأقطار، اشتهر بالحفظ والإتقان، مع التقيُّ والصلاح، والقوة في الحقِّ وأتباع السنَّة، وبلغت شهرته الأفاق، خاصةً بعدما وقف وقفته المشهورة أمام بدعة القول بخلق القرآن، وبها أعزَّ الله أهل السنَّة إلى اليوم، توفِّي سنة (٢٤١هـ).

انظر: البداية والنهاية (١٠/٣٢٥).

(٦) تهذيب التهذيب (٩/٢٥)؛ تهذيب الكمال (٢٤/٣٦٥).

٥ - اختيار المعلم الأصح والأعلم:

ليختير المتعلم المعلم الأكثر ديانة وصلاحاً، فلا ينبغي له أن يقصد من المعلمين إلا مَنْ ثبتت أهليته العلمية وظهرت ديانته^(١).

* عن محمد بن سيرين^(٢) كَلَّمَةُ قال: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَاَنْظُرُوا عَمْرُنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»^(٣).

* يقول أبو العالية كَلَّمَةُ: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفق من أمره صلته، فإن وجدته يقيمها ويتمها، أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها، رجعت ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع»^(٤).

ومن أمثلة اختيار المعلم الأهل:

* ما جاء عن أبي بكرٍ شعبة بن عياش كَلَّمَةُ، أنه قال: «ما رأيتُ أحداً أقرأ من عاصم، فقرأت عليه، وما رأيتُ أحداً أفقه من المغيرة - يعني: ابن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي»^(٥) - فلزمته»^(٦).

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٢).

(٢) هو محمد بن سيرين بن أبي عمرة البصري، أبو بكر، إمام وقته. مولى أنس بن مالك. قال الذهبي: «كان فقيهاً، إماماً، غزير العلم، ثقة، ثبتاً، علامةً في التعبير، رأساً في الورع». توفي سنة (١١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٦٠٦)؛ تذكرة الحفاظ (١/٧٧)؛ تهذيب التهذيب (٩/٢١٤).

(٣) رواه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/١٤).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢٠). وانظر: تاريخ مدينة دمشق (١٨/١٧٦)؛ الرحلة في طلب الحديث، لأبي بكر البغدادي (ت ٤٦٣هـ) (١/٩٣)؛ صفة الصفوة (٣/٢١٢).

(٥) هو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله المخزومي، من الطبقة الأولى من أصحاب مالك من أهل المدينة، ولد سنة (١٢٤هـ). قيل: لا بأس به، خرج عنه البخاري. وقال يحيى: هو ثقة. كان فقيه المدينة بعد الإمام مالك، غرض عليه الرشيد القضاء بالمدينة فأبى، وقال: والله - يا أمير المؤمنين - لأن يختنقني السلطان أحب إلي من القضاء، فأعافاه. وله كتب فقه قليلة، توفي سنة (١٨٨هـ).

انظر: الديباج المنهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (١/٣٤٧).

(٦) انظر: معرفة القراء الكبار (١/١٣٨)؛ سير أعلام النبلاء (٨/٥٠٣).

٦ - التَّكْبِيرُ إِلَى مَجْلِسِ الدَّرْسِ:

الأصل في المتعلِّم أن يجتهد ويجهد في تعلُّم القرآن الكريم، بل كان السلف الصَّالح يتسابقون إلى مجالس العلم ويحُكِّرون في الحضور إليها، ومن أمثلة ذلك: قول محمد بن علي السُّلمي تثقة: «قمتُ ليلةً للأذان الأكبر لأخذ التوبة على ابن الأخرم^(١)، فخرجتُ إلى مسجد معاوية، فوجدتُ قد سبقني ثلاثون قارئاً، فلم تلحني التوبة إلى العصر^(٢)».

٧ - التَّحَلِّيُّ بِالْأَدَبِ فِي مَجْلِسِ التَّعْلِيمِ:

من الأفضل للمتعلِّم: ألا يجيء إلى القرآن إلا وهو في كامل الحال، منظره نظيفاً، ولا يتخطى رقاب النَّاسِ، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس، إلا أن يأذن له المعلِّم في التَّكَلُّمِ أو يعلم من حالهم إثار ذلك. والتأدب ليس مطلوباً من المتعلِّم تجاه معلِّمه فقط: بل هو مطلوب منه تجاه زملائه، وحاضري مجلس العلم، فهذا جزء أساس من تأدبه مع المعلِّم وصيانة مجلسه. ومن مظاهر هذا التأدب: ألا يرفع صوته من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يُكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده ولا غيرها، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً بلا داع، بل يكون متوجَّهاً إلى المعلِّم مُصغياً إلى كلامه. وعلى المتعلِّم: أن يكون على درجة من دقَّة الملاحظة، بحيث لا يقرأ على المعلِّم إذا لاحظ انشغال قلبه، وملله، وضيقه وحزنه وجوعه وعطشه ونعاسه وقلقه، ونحو ذلك ممَّا يحول بينه وبين الوفاء بمهمة التعليم، وفقاً لما يجب أن يكون من كمال النَّشاط وعلوِّ الهمة^(٣).

(١) هو محمد بن النَّضر بن مرَّ بن الحرِّ الرُّبَيعي الدَّمشقي بن الأخرم (أبو الحسن) كانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، يقرؤون عليه من بعد الفجر إلى العصر، قال السُّنْبُوذِي: «قرأتُ عليه فما رأيت أحسن معرفةً منه بالقرآن، ولا أحفظ، وكان يحفظ تفسيراً كثيراً ومعانيه». توفيَّ ثلثة سنة (٣٤١هـ)، وعمره (٨١ سنة).
انظر: سير أعلام النبلاء (٥٦٤/١٥).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (١٢٣/٥٦). وانظر: معرفة القراء الكبار (٢٩٢/١).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٥).

ومن أمثلة مراعاة المتعلم ظروف معلمه وعدم إزعاجه، والحرص على راحته:
* ما قاله الأعمش^(١) **تَلَفُّهُ**: «ما رأيت مثل طلحة - يعني ابن مصرف
اليامي^(٢) - إذا كنت قائماً فقعدت قطع القراءة، وإن كنت محتبياً فحللت حبوتي
قطع القراءة، كراهية أن يكون قد أملني»^(٣).

* وقال أيضاً: «كان طلحة بن مصرف يجيئني فأقريه، فلا يطلبني حتى
أخرج، فإن تنحنحت أو سعلت قام»^(٤).

* وحكى أيضاً أدب هذا المتعلم معه، فقال: «كان طلحة يجيء فيجلس
على الباب فتخرج الجارية وتدخل، لا يقول لها شيئاً، حتى أخرج فيجلس
ويقراء، فما ظنكم برجل لا يخطئ ولا يلحن، فإن استندت على الحائط - أي:
من الجهد والتعب - قال: السلام عليكم، ويذهب»^(٥).

ويرتبط بهذا: أن يتحمل المتعلم ما قد يظهر من المعلم من جفوة، ويلتمس
له العذر، بحيث لا تصدّه هذه الجفوة عن تقبل ما يُلقيه عليه من معلومات، وإذا
جافاه المعلم، ابتداءً هو بالاعتذار إليه، وأظهر أن الذنب له، والعتب عليه، فذلك
أنفع له في الدنيا والآخرة، وأبقى لقلب المعلم له^(٦).

وقيل في هذا الشأن: من لم يصبر على ذلّ التعلم بقي عمره في عماية
الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عزّ الآخرة والدنيا.

(١) هو سليمان بن مهران الكاهلي (أبو محمد)، المشهور بالأعمش، ولد سنة (٥٦٠هـ)، من
الأئمة الثقات، قال ابن سعد: «وكان الأعمش صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث».
وعده ابن سعد في الطبقة الرابعة، من الكوفيين، وثقه ابن معين وأبو حاتم، وقال أبو
زرعة: إمام، توفي سنة (١٤٨هـ).

انظر: الطبقات الكبرى (٣٤٢/٦)؛ الجرح والتعديل (١٤٦/٤ - ١٤٧).

(٢) هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب اليامي (أبو عبد الله) كوفي، تابعي، من
الخامسة، ثقة، كان من أقرأ أهل الكوفة وخيارهم، وهو أحد الثلاثة الذين ختموا القرآن
على الأعمش. توفي سنة (١١٢هـ).

انظر: معرفة الثقات (٤٧٩/١)؛ تقريب التهذيب (٢٨٣/١).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٨/٥). وانظر: صفة الصفوة (٩٦/٣).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٨/٥). (٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص ٩١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللتُ طالباً، فعززتُ مطلوباً^(١).

وقد أحسن مَنْ قال:

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْمَذَلَّةِ سَاعَةً قَطَعَ الزَّمَانَ بِأَسْرِهِ مَذْلُولاً^(٢)

وغني عن البيان: أن من أهم واجبات المتعلم، أن يكون حريصاً على التعلم، مواظباً في جميع الأوقات التي يتمكن منه فيها، ولا يقنع بالقليل مع قدرته على الكثير، ولا يُحمل نفسه ما لا يطيق مخافة الملل، وضياع ما استوعبه وحصله، وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال^(٣).

وإذا كنا نركز على واجبات المتعلم؛ فلأننا نذكره بأن ذلك - أولاً وأخيراً - لمصلحته، بالحفاظ على المعلم هادئ البال، وصافي الذهن؛ ليُخْرِجَ أئمن ما عنده.

-
- (١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٤٨)؛ مفتاح دار السعادة (١/١٦٨)؛ كشف الخفا ومزيل الإلباس (١/٥٠٥)؛ إحياء علوم الدين (١/٩).
- (٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٦).
- (٣) انظر: القرآن الكريم: رؤية تربوية، د. سعيد إسماعيل علي (ص ٤٧٣ - ٤٧٤)؛ منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (١٠٤ - ١١١).

المبحث الثالث

فضائل تعلم القرآن وتعليمه

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: مُعَلِّمُ الْقُرْآنِ وَمَتَعَلِّمُهُ مُتَّسَبِّةٌ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ.

المطلب الثاني: خَيْرُ النَّاسِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ.

المطلب الثالث: تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ خَيْرٌ مِنْ كُنُوزِ الدُّنْيَا.

المطلب الرابع: مَنْ عَلَّمَ آيَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تَلَيْتَ.

المطلب الخامس: ثَوَابٌ مَنْ يُعَلِّمُ الصَّغَارَ الْقُرْآنَ.

فضائل تعلم القرآن وتعليمه

ترغيب الإسلام في العلم:

لقد رَغِبَ الإسلامُ في تعلُّمِ العلمِ وتعليمه بعامة، وحثَّ عليه؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ففي الآية دعوة إلى طلب العلم والحرص عليه، وقد جعله الله تعالى معياراً للتفاضل بين الناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ولا غرابة في ذلك، بالعلم يُعبد الله تعالى، وبه يُعرف، وبه تستقيم الدنيا؛ لذا جعله ذلك من أفضل العبادات التي يتقرب بها المرء إلى ربه جلُّ جلاله؛ ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مِثْلِ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا. وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١).

وثواب العلم يصل إلى الإنسان بعد موته مادام يُنتفع به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

قال ابن القيم رحمته الله: «وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته؛ فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام يُنتفع به، فكأنه حي لم ينقطع عمله مع ما له من حياة الذكر والنساء، فجزيان أجره عليه إذا انقطع عن الناس

(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٠٦٠/٤) (ح ٢٦٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٢٥٥/٣) (ح ١٦٣١).

ثواب أعمالهم حياة ثانية^(١).

وتفاوتت درجات العلم ومنازله بحسب الموضوع الذي تناوله، ولا شك أن أشرف العلوم وأجلها هو العلم بكتاب الله تعالى، فيكون من تعلمه وعلمه لغيره أشرف ممن تعلم غير القرآن، وإن علمه.

وقد حرص سلف الأمة الصالح رضي الله عنهم على تعلم القرآن وتعليمه، وعرف هذا الحرص في سلوك خيارهم وأصفيانهم، وقدوتهم في ذلك معلم البشرية وهادي الإنسانية، رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن، وهو أعرف الناس بمنزلة. والحديث عن فضائل تعلم القرآن العظيم وتعليمه يتمثل في المطالب الآتية:

المطلب الأول

معلم القرآن ومُتعلِّمُهُ مُتَشَبَّهُهُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ

كفى معلم القرآن ومُتعلِّمُهُ شرفاً وفخراً أنهم متشبهون بالملائكة والرُّسُل الكرام، فقد بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ليعلم النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿مَلَكُهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

فها هو معلم الرسول الأول جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقوامهم وأكملهم، نزل بالوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، وجبريل عليه السلام شديد القوى الظاهرة والباطنة. فهو قويٌّ على فعل ما أمره الله تعالى، قويٌّ على إيصال الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه إياه، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو زيادتهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله تعالى لوحيه من جهة، ومن عناية الله تعالى برسوله محمد صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى، أن أرسل إليه معلماً كريماً قوياً أميناً^(٢).

ومدحُ المُعلِّم مدحٌ للمتعلم فلو قال علمه جبريل، ولم يصفه بهذه الصفات الحميدة العظيمة ما كان يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم هذه الفضيلة الظاهرة^(٣).

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بأمرٍ من الله.

(٢) انظر: تفسير السعدي (٥/١٢٢).

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٥).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٨/٢٤٥).

والثاني: أن جبريل شديد القوة.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما: وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلَ رَبِّيَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٩٤ - ١٩٢].

... وأما الأمر الثاني: وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٠] (١).

المطلب الثاني

خَيْرُ النَّاسِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ

إن تعلم القرآن العظيم والقيام بتعليمه وبيان معانيه وأحكامه للناس من أفضل الأعمال وأجل القرب، يحظى متعلمه ومعلمه بالخير والفضل في الدنيا والآخرة، وقد وردت أحاديث كثيرة تحضُّ على تعلم القرآن وتعليمه؛ لأنه كلام الله تعالى، فكان خير الناس بعد الأنبياء من اشتغل به، ومن هذه الأحاديث:

١ - عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (٢).

٢ - وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (٣).

(١) أضواء البيان (٧/٧٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح٥٠٢٧)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠) (ح١٤٥٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح٥٠٢٨).

«وقد سُئِلَ الثوري عن الجهادِ وإِقراءِ القرآنِ»^(١)، فرَجَعَ الثاني واحتجَّ بهذا الحديث^(٢).

فهذه شهادةٌ حقٌّ لأهل القرآن بأنهم خيرُ النَّاسِ وأفضلُهم، فلم يقل خيركم أو أفضلكم أكثركم مالاً أو أولاداً، ولا أوسعكم عقاراً أو نحو ذلك من حطام الدنيا الزائل.

وهذه هي صفات المؤمنين الصادقين المتبعين للرَّسول ﷺ، فهم يحرصون على تعلُّم القرآن وتزكية نفوسهم به، كما يحرصون على تعليم الآخرين وإرشادهم لهديه والدعوة إليه فيكون نفعاً متعدداً.

«ولا شك أن الجامع بين تعلُّم القرآن وتعليمه مكملٌ لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدِّي ولهذا كان أفضل، وهو من جملة مَنْ عَنِ ﷺ بقوله: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ نَمَّا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [فصلت: ٣٣]. والدُّعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع، وعكسه الكافر المانع لغيره من الإسلام كما قال تعالى: «فَنَنْ أَلَّهُ يَمَنْ كَذَّبَ بِكَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا» [الأنعام: ١٥٧]^(٤).

وخير الناس وأفضلهم مَنْ تعلَّم القرآن حقَّ تعلُّمه، وعلمه حقَّ تعليمه، ولا يَتَمَكَّنُ من هذا إلا بالإحاطة بالعلوم الشَّرعية أصولها وفروعها، ويمثُلُ هذا الإنسان يُعَدُّ كاملاً لنفسه مكتملاً لغيره فهو أفضل المؤمنين مطلقاً، وقد ورد عن عيسى ﷺ: «مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ يُدْعَى فِي الْمَلَكُوتِ عَظِيمًا» والفرد الأكمل من هذا الجنس هو النبي ﷺ، ثم الأشبه فالأشبه^(٥).

قال القرطبي رحمه الله: «قال العلماء: تعليم القرآن أفضل الأعمال؛ لأن فيه

(١) أي: تعليمه للناس.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩٧/٩).

(٣) كلام الإمام سفيان الثوري رحمه الله ينسحب على الجهاد غير المتعَيَّن، أما إذا انتهكت حرَمات المسلمين وتَعَيَّنَ الجهادُ قُدِّمَ على إقراء القرآن.

(٤) المصدر نفسه (٩٦/٩).

(٥) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٢٩/٤).

إعانة على الذين، فهو كتلقين الكافر الشهادة لِيُسَلِّمَ^(١).

وبعض أهل العلم حَمَلَ الحديثين بخير الناس وأفضلهم باعتبار التَّعَلُّمِ والتَّعْلِيمِ: قال الطَّيْبِيُّ تَلْتَلَةٌ: «أي خير الناس باعتبار التَّعَلُّمِ والتَّعْلِيمِ مَنْ تَعَلَّمَ القرآن وعَلَّمَهُ»^(٢).

معنى التَّعَلُّمِ والتَّعْلِيمِ:

«تَعَلَّمَ القرآن وتَعْلِمُهُ يتناولُ تَعَلُّمَ حروفه وتَعْلِيمَها، وتَعَلَّمَ معانيه وتَعْلِمَها، وهو اشرفُ قِسْمِي تَعَلُّمِهِ وتَعْلِيمِهِ؛ فَإِنَّ المعنى هو المقصودُ، واللَّفْظُ وسيلةٌ إليه، فتَعَلَّمَ المعنى وتَعْلِمُهُ تَعَلُّمُ الغايَةِ وتَعْلِيمَها، وتَعَلَّمَ اللَّفْظَ المُجَرَّدَ وتَعْلِمُهُ تَعَلُّمُ الوسائلِ وتَعْلِيمَها، وبينهما كما بين الغاياتِ والوسائلِ»^(٣).

* وهنا مسألتان من الأهمية بمكان أوردتهما الحافظ ابن حجر تَلْتَلَةٌ عند شرحه لهذا الحديث، وأجاب عليهما:

(المسألة الأولى): «فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون المقرئ أفضل من الفقيه.

قلنا: لا؛ لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاء النفوس لأنهم كانوا أهل اللسان، فكانوا يدرون معاني القرآن بالسليقة أكثر مما يدريها مَنْ بعدهم بالاكْتِسَابِ، فكان الفقه لهم سجية، فَمَنْ كان في مثل شأنهم شاركهم في ذلك، لا مَنْ كان قارئاً أو مقرئاً مَحْضاً لا يفهم شيئاً من معاني ما يقرؤه أو يُقرئه»^(٤).

(المسألة الثانية): «فإن قيل: فيلزم أن يكون المقرئ أفضل ممن هو أعظم غناء في الإسلام بالمجاهدة والرباط والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلاً.

قلنا: حرف المسألة يدور على النفع المتعدي، فَمَنْ كان حصوله عنده أكثر كان أفضل، فلعلَّ «مِنْ» مُضمرة في الخبر، ولا بد مع ذلك مِنْ مراعاة الإخلاص في كلِّ صنف منهم. ويحتمل أن تكون الخيرية وإن أطلقت لكنها مقيدة بناس

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٤٤). (٢) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٧٤).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩٦/٩).

مخصوصين خُوطبوا بذلك كان اللائق بحالهم ذلك، أو المراد خير المتعلمين مَنْ يُعَلِّمُ غَيْرَهُ لا مَنْ يقتصر على نفسه، أو المراد مراعاة الحيثية؛ لأن القرآن خير الكلام، فمتعلمه خيرٌ مِنْ مُتَعَلِّمٍ غَيْرِهِ بالنسبة إلى خيرية القرآن، وَكَيْفَمَا كَانَ فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِمَنْ عَلَّمَ وَتَعَلَّمَ بِحَيْثُ يَكُونُ قَدْ عَلِمَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ عَيْنًا^(١).

المطلب الثالث

تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَتَعَلِّمُهُ خَيْرٌ مِنْ كَنْوَزِ الدُّنْيَا

١ - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحَرُ فِي الصُّفَّةِ^(٢). فَقَالَ: «أَيْكُمْ يُجِبُّ أَنْ يَغْدُوَ^(٣) كُلُّ يَوْمٍ إِلَى بَطْحَانَ^(٤) أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ^(٥) فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ^(٦)، فِي خَيْرٍ إِنَّمْ وَلَا قَطْعِ رَجِمٍ؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعَلِّمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ»

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) (الصففة): موضعٌ مُظَلَّلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ كَانَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ يَأْوُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ الْمَسْمُونُونَ بِأَصْحَابِ الصُّفَّةِ، وَكَانُوا أَضْيَافَ الْإِسْلَامِ. انظر: لسان العرب (٤/٢٤٦٤)، مادة: (صفف).

(٣) (يغدو): أي: يذهب في الغدوة وهي أول النهار.

(٤) (بطحان): بضم ابناء وسكون الطاء، وقيل: بالفتح والسكون، وقيل بالفتح والكر، وهو أحد أودية المدينة الثلاثة، وهي: بطحان والعقيق وقناة. انظر: معجم البلدان (١/٥٢٩).

وسمى بطحان بذلك: لسعته وانبساطه من البطح، وهو البسط.

انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/٢٣١).

(٥) (العقيق): قيل: أراد العقيق الأصفر، وهو على ثلاثة أميال أو ميلين من المدينة، وخصَّصهما بالذكر؛ لأنهما أقرب المواضع التي يُقام فيها أسواق الإبل إلى المدينة، والظاهر أن (أو) للتويع.

انظر: عون المعبود (٤/٢٣١).

(٦) (كوماوين): منى كوما، فقلبت الهمزة في الثنية واوًا، وناقة كوما: عظيمة السنام طوبلته. وأصل الكوم العلو، أي: فيحصل ناقتين عظيمتي السنام، وهي من خيار مال العرب.

انظر: لسان العرب (٥/٣٩٥٨)، مادة: (كوم)؛ عون المعبود (٤/٢٣١).

خَيْرَ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ. وَثَلَاثَ خَيْرَ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَرْبَعٌ خَيْرَ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ. وَمِنْ أَهْدَائِهِمْ
مِنَ الْإِبِلِ^(١).

٢ - وعند أبي داود بلفظ:

«أَيْبُكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْتَدُوَ إِلَى بَطْحَانَ، أَوْ الْعَقِيقِ، فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ
زَهْرَاوَيْنِ^(٢) بِغَيْرِ إِئْتِمٍ^(٣) بِاللَّهِ ﷻ وَلَا قَطْعَ رَحِمٍ^(٤)»، قَالُوا: كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ،
قَالَ: «فَلَأَنْ يَغْتَدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ
خَيْرَ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلَاثَ فَثَلَاثٌ مِثْلَ أَهْدَائِهِمْ مِنَ الْإِبِلِ^(٥)».

لقد ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ هذا المثلَّ بصورة عجيبة معبرة في الحثِّ على تعلُّمِ
القرآن العظيم والحثِّ على قصد بيوت الله تعالى لتعلُّمِ القرآن؛ لما فيها من
السكينة والطمأنينة، ولقطع علائق القلب عن شواغل الدنيا، ويبيِّن أنَّ آيةَ واحدة
يتعلَّمها المسلم خير من الدنيا وما فيها.

والحاصل أنه ﷺ أراد ترغيبهم في الباقيات وتزهيدهم من الفانيات
فذكره هذا على سبيل التمثيل والتقريب إلى فهم العليل، ولألا فجميع الدنيا
أحق من أن يُقابلَ بمعرفة آية من كتاب الله تعالى، أو بثوابها من الدرجات
العلوية^(٦).

وسببُ التمثيل بالإبل: أنها كانت أهنأ وأثمنَ أموال العرب في صدر
الإسلام، لا يملكها إلا الأثنياء منهم، فرغَّب النبي ﷺ أصحابه إلى ما هو أفضل

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه
(٥٥٢/١) (ح ٨٠٣)؛ وابن حبان في «صحيحه»، كتاب العلم، باب: الحث على تعليم
كتاب الله (٣٢١/١) (ح ١١٥).

(٢) (زهراوي): أي: سميتين مائلتين إلى البياض من كثرة السَّمَنِ.

(٣) (بغير إئتم): كسرقة وغضب، سئى موجب الإئتم إنما مجازاً.

(٤) (ولا قطع رحم): أي: بغير ما يوجبه، وهو تخصيص بعد تميم. انظر: عون المعبود
(٢٣١/٤).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٧١/٢) (ح ١٤٥٦)؛
وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٣/١) (ح ١٢٩٢).

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٣١/٤).

من ذلك، بأن يكون لهم رصيد من الحسنات عند الله ﷻ أعظم من الإبل عند أصحابها في الدنيا، وذلك بأن يتعلموا كلام الله تعالى، فكلُّ آية يتعلّمها المسلم هي في ميزان حسناته أفضل من ناقية عظيمة السنّام، سالمة من العيوب لو تصدّق بها^(١).

قال ابن حبان رحمته - بعد أن أوردَ هذا الحديث في صحيحه: «هذا الحديث أخصرَ فيه كلمة، وهي: (لو تصدّق بها) يريد بقوله: فيتعلّم آيتين من كتاب الله خير من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث لو تصدّق بها؛ لأن فضل تعلم آيتين من كتاب الله أكبر من فضل ناقتين وثلاث وأعدادهن من الإبل لو تصدّق بها؛ إذ محال أن يُشَبَّه مَنْ تعلّم آيتين من كتاب الله في الأجر بمن نال بعض حطام الدنيا»^(٢).

وهذا الذي ذكره ابن حبان هنا حسنٌ وجميل، يُدكّرنا بأجر التّكبير إلى صلاة الجمعة، وفيه قال النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً...» الحديث^(٣).

ولا شك أن أجر تعلم آية من كتاب الله تعالى عظيم كبير إذا قسناه على ما جاء في الحديث الأنف الذّكر من أن المسلم إذا حضر صلاة الجمعة في الساعة الأولى فكانما تصدّق ببدينة، أي: بناقة.

وفي الحديث وصفت الناقة بأنها كوماه زهراء، أي: عظيمة السنّام، كثيرة اللحم، مائلة إلى البياض من عظم السنّ، هي من خيار أموال العرب آنذاك. وهذا أفضل من التصدّق بمجرد ناقة، كما جاء في حديث التّكبير إلى صلاة الجمعة، والله تعالى أعلم.

وقد رغب النبي صلى الله عليه وآله في تعلّم الخير وتعليمه للناس، وعده كاجر حاجّ، تاماً حجبته في قوله: «مَنْ هَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ، كَانَ لَهُ

(١) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن (ص ٣١ - ٣٢).

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/٣٢٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: فضل الجمعة (١/٢٦٤) (ح ٨٨١).

كَأَجْرِ حَاجٍ، نَامًا حَبْتُهُ^(١).

ولا ريب أن تعلم القرآن وتعليمه يأتي في مقدمة الخير الذي يُعَلِّمُ أو يُتَعَلَّمُ؛ ذلك أنه كلام الله جلُّ جلاله.

وفي حديث آخر أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَتَعَلِّمَ الْخَيْرِ وَمُعَلِّمَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ خَيْرِهِ»^(٢).

وجديرٌ بِمُتَعَلِّمِ الْقُرْآنِ وَمُعَلِّمِهِ أَنْ يُنَزَّلَ مَنْزِلَةُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ ذلك أنه جاهد نفسه وهواها، وجاهد الشيطان، وصبر وصابر ورابط في هذه الجَلَّتِي الْمُبَارَكَةِ، وترك الدنيا وزينتها، فاستحق هذا الشرف العظيم تفضلاً من الله تعالى ومِنَّةً.

وكان الصُّحَابَةُ وَتَابِعُوهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى تَعَلُّمِ وَتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَحَثَّ النَّاسَ وَتَشَجَّعَهُمْ عَلَى احْتِسَابِ الْأَجْرِ فِي ذَلِكَ، وَفِيمَا يَأْتِي طَائِفَةٌ مِنْ أَخْبَارِهِمُ الْمُبَارَكَةِ:

١ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَوْ جُعِلَ لِأَحَدٍ خَمْسُ قَلَانِصٍ^(٣)؛ إِنْ صَلَّى الْغَدَاةَ بِالْقَرْيَةِ لَبَاتَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ: لَقَدْ آتَى لِي أَنْ أَنْطَلِقَ. وَاللَّهِ لَا يَقْعُدُ أَحَدُكُمْ فَيَتَعَلَّمُ خَمْسَ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَلَهُنَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ خَمْسِ قَلَانِصٍ وَخَمْسِ قَلَانِصٍ»^(٤).

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٩٤/٨) (ح٧٤٧٣)؛ والمنذري في «الترغيب والترهيب»، كتاب العلم، باب: الترغيب في الرحلة في طلب العلم (ح٣)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به». وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/١٤٥) (ح٨٦): «حسن صحيح». والحاكم في «المستدرک» (١/١٦٩) (ح٣١١) بلفظ: «... أجر معتمر تام العمرة» وصححه على شرط البخاري، وواقفه الذهبي.

(٢) رواه ابن ماجه في «المقدمة»، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٨٢/١) (ح٢٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه»: (١/٤٤) (ح١٨٦).

(٣) (القلائص): جنم قلوب، وهي الناقة الشابة، وتُجَنَّمُ على قلاص وقُلُص أيضاً. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٠٠).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٣٣) (رقم ٣٠٠٧٥).

٢ - عن أبي عبيدة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أنه كان يُقْرِئ القرآن، فَيَمُرُّ بِالآيَةِ، فيقول للرجُل: خُذْهَا، فوالله لَهِيَ خَيْرٌ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ»^(١).

٣ - وعن الأعمش قال: مَرَّ أَعْرَابِيٌّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَهُوَ يُقْرِئُ قَوْمًا الْقُرْآنَ، أَوْ قَالَ: وَعِنْدَهُ قَوْمٌ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: مَا يَضْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «يَقْتَسِمُونَ بِيَرَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).

وَأَجْرٌ تَعْلَمُ وَتُعَلِّمُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَيْسَ حَكْرًا عَلَى الصُّحَابَةِ الْكِرَامِ وَتَابِعِيهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ لِكُلِّ مَنْ يَحْذُو حَذْوَهُمْ وَيَسِيرُ عَلَى خُطَاهِمُ الْمُبَارَكَةِ فِي تَعْلَمُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ وَمَنَّهُ وَكَرَمِهِ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

المطلب الرابع

مَنْ عَلَّمَ آيَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تَلَّيْتُ

لا ريب أنَّ تعليم النَّاسِ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مِنَ النَّفْعِ الْمُتَعَدِّيِّ، وَهُوَ مِمَّا يُلْحَقُ الْمُتَعَلِّمَ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يُلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، جِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُضْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ. يُلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»^(٣).

(١) رواه أبو عبيد القاسم في «فضائل القرآن» (ص ٥٢). وانظر: فضائل القرآن، لابن الضريس (ص ٤٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٦/٧): «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٢) رواه أبو عبيد القاسم في «فضائل القرآن» (ص ٥١)؛ وأورده الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٣/١ - ١٢٤)، باب: فضل العالم والمتعلم، من رواية الطبراني في «الأوسط» وقال: «إسناده حسن».

وانظر: جامع الأصول (١/٢٩١ - ٢٩٢)، وهو فيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه، في «المقدمة» واللفظ له، باب: ثواب معلم الناس الخير (١/٨٨).

وتعليم الناس القرآن داخل في قوله ﷺ: «عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ».

وكذلك فإن تعليم الناس القرآن العظيم داخل في عموم الدلالة على الخير والمشار إليه في قوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(١).

قال النووي رحمته: «فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبية عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدین وغيرهم. والمراد بـ (مثل أجر فاعله) أن له ثواباً بذلك الفعل كما أن لفاعله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابيهما سواء»^(٢).

«وذهب بعض الأئمة إلى أن المثل المذكور في هذا الحديث ونحوه إنما هو بغير تضييف.

وقال القرطبي: إنه مثله سواء في القدر والتضييف؛ لأن الثواب على الأعمال إنما هو بفضل من الله يهبه لمن يشاء على أي شيء صدّر منه، خصوصاً إذا صحت النية التي هي أصل الأعمال في طاعة عجز عن فعلها لِمَانِعٍ مَنَعَ منها، فلا بُدَّ في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر والفاعل، أو يزيد عليه»^(٣). وفي رأي القرطبي رحمته ما يضاعف الأمل في الدلالة على العمل.

وقد جاء أجر تعليم القرآن منصوصاً عليه صراحة حتى لو كانت آية واحدة في قوله ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تَلَيْتُ»^(٤).

- (ح ٢٤٢)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (١٢١/٤) (ح ٢٤٩٠)؛ وحسنه المنائوي في «فيض القدير» (٥٤٠/٢) (ح ٢٤٩٧)؛ ووافقه الألباني في: «صحيح ابن ماجه» (٤٦/١) (ح ١٩٨)؛ و«صحيح الجامع» (٤٤٣/١) (ح ٢٢٣١)؛ و«أحكام الجنائز» (١٧٦)؛ و«الإرواء» (١٠٧٩).

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله (١٥٠٦/٣) (ح ١٨٩٣).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/١٣ - ٤٢).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٦/١٤ - ٢٧).

(٤) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٣/٣) (ح ١٣٣٥) وقال: «أخرجه سهل القطن في: «حديث عن شيوخي» (٢/٢٤٣/٤).

ثم ساق رجال الإسناد وقال: «وهذا إسناد جيد عزيز، رجاله ثقات، رجال مسلم، غير محمد بن الجهم، وهو ابن هارون، الكاتب السمرقي، ترجمة الخطيب (١٦١/٢) برواية جماعة من الثقات عنه، وقال: «وقال الثارقطني: ثقة، صدوق».

وهذا من الآثار الحسنة التي تُكتب في ميزان معلّم القرآن؛ لأنه كان السبب المباشر في تعليمها.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

فالمراد بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ ما عملوا من الأعمال قبل الموت؛ شَبَّهَتْ أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يُقدّمونها إلى الدّار الآخرة كما يُقدّم المسافر ثقله وأحماله.

وأما الآثار فهي آثار الأعمال وليست عَيْن الأعمال بقريته مقابلته بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ مثل ما يتركون من خير أو يثير بين الناس وفي النفوس^(١).

وللمفسرين قولان في قوله تعالى: ﴿وَمَاتَرَهُمْ﴾:

القول الأول: نُكْتُب أعمالهم التي باسروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ويشهد له قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ خَيْرٍ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً شَبِيحَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ خَيْرٍ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢).

«فكلُّ خيرٍ عملٍ به أحدٌ من النَّاسِ، بسببِ عِلْمِ العبدِ، وتعليمه، أو نُصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو عِلْمِ أودَعَه عند المتعلمين، أو في كُتُبٍ يُنتفع بها في حياته وبعد موته، أو عَمِلَ خيراً، مِنْ صَلَاةٍ، أو زكَاةٍ، أو صدقةٍ، أو إحسانٍ، فاقتدى به غيره، أو عَمِلَ مسجداً، أو محلاً من المحال، التي يرتفق بها النَّاسُ، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره، التي تُكْتُبُ له، وكذلك هَمَلُ الشَّرِّ»^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة (٢/٧٠٥) (ح ١٠١٧).

(٣) تفسير السعدي (٤/٢٣٠).

القول الثاني: إن المراد بذلك آثارُ خطائهم إلى الطاعة أو المعصية.

ويشهد له قولُ جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خَلَبَ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ. فَأَرَادَ بَنُو سَلِيمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْتَقِلُّوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ» قَالُوا: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ. فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِيمَةَ! دِيَارُكُمْ، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ^(١)، وَدِيَارُكُمْ، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ^(٢)».

قال ابن كثير رحمته الله: «وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكْتَبُ، فَلَأَنْ تُكْتَبَ تِلْكَ الَّتِي فِيهَا قُدُوةٌ بِهِمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ بِطَرِيقِ الْأُولَى^(٣)».

المطلب الخامس

ثَوَابُ مَنْ يُعَلِّمُ الصِّغَارَ الْقُرْآنَ

أولى الناس بتعليم القرآن العظيم هم أولادنا الصغار، وهذا التعليم سنة مُتَّبَعَةٌ عند سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين:

١ - فمن سعيد بن جبيرة رضي الله عنه قال: إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ الْمُفْضَلُ هُوَ الْمُحْكَمُ. قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ بَيْنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ^(١).

٢ - وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: جَمَعْتُ الْمُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمُحْكَمُ؟ قَالَ - أَيُّ ابْنِ عَبَّاسٍ -: الْمُفْضَلُ^(٢).

(١) (دياركم، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ): معناه أَلْزَمُوا دِيَارَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِذَا لَزِمْتُمُوهَا كُنَيْتُ آثَارَكُمْ وَخَطَاكُمْ الْكَثِيرَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦٩/٥).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ: فَضْلِ كَثْرَةِ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ (١/٤٦٢) (ح ٦٦٥).

(٣) تفسیر ابن کثیر (٥٩١/٦).

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ: تَعْلِيمِ الصِّبْيَانِ الْقُرْآنَ (١٦٢٢/٣) (رقم ٥٠٣٥).

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، الْكِتَابُ نَفْسَهُ، وَالْبَابُ نَفْسَهُ، (١٦٢٢/٣) (رقم ٥٠٣٦).

قال ابن كثير تَفْتَلَةٌ: «فيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصَّبَا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُسْتَحَبًّا أو واجباً؛ لأنَّ الصَّبِيَّ إذا تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ بَلَغَ وهو يعرف ما يُصَلِّي به، وجَفَظَه في الصَّغَرِ أُولَى من جَفَظَه كَبِيرًا، وَأَشَدُّ عُلُوقًا بِخَاطِرِهِ، وَأَرْسَخَ وَأَثَبْتُ، كما هو المعهود من حال الناس»^(١).

جزاء الوالدين:

أما أجر الوالدين اللذين يعلمان أولادهما كتاب الله ﷻ ويصبران على ذلك، فهو أجر عظيم يتناسب وتعبهما وصبرهما وتحملهما المشقة في ذلك، بِأَن يُكْسُوا حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لِهَما أَهْلُ الدُّنْيَا:

فمن بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ ؓ قال: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنِ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ»^(٢)، فيقول له: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فيقول: ما أَحْرَفَكَ، فيقول: أنا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَطَمَّاتَكَ فِي الْهَوَاجِرِ^(٣)، وَأَسَهَرْتَ لَيْلَكَ، وَإِنْ كُلُّ تَاجِرٍ مِنْ وَدَاءِ نِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَدَاءِ كُلِّ نِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمَلِكُ بِبَيْتِهِ، وَالخُلْدُ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لِهَما أَهْلُ الدُّنْيَا، فيقولان: بِمِ كَسَيْتَا هَذَا؟ فيقال: بِأَخْلِدِ وَلِدِكُمَا الْقُرْآنَ.

ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ، وَأَصْعَدْ فِي تَرَجِ الْجَنَّةِ وَحَرِّفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودِ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذَا^(٤) كَانَ، أَوْ تَرْتِيلًا^(٥)،^(٦).

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٦).

(٢) (الشَّاحِبُ): هو المتغير اللون لمرض من مرض، أو سفر، أو نحوهما.

(٣) (الهِوَّاجِرُ): جنمٌ هاجرة، وهو نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر، عند اشتداد الحر.

انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/٢٤٤)، مادة: (هجر).

(٤) (هَذَا): الهَذَا وَهَذَا يَفْتَحُ الْهَاءَ: هو سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدُهُ

هَذَا: إِذَا أَسْرَعَ فِي قِرَاءَتِهِ وَسَرَّيَهُ.

انظر: لسان العرب (٦/٤٦٤٣)، مادة: (هَذَا).

(٥) (ترتيلًا): ترتيل القراءة: هو التأنِّي فيها والتَهْمَلُ وتبيين الحروف والحركات.

(٦) (الهِوَّاجِرُ): هو المتغير اللون لمرض من مرض، أو سفر، أو نحوهما.

(٦) رَوَاهُ مُطَوَّلًا أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥/٢٣٨) (ح ٢٣٠٠٠) وَقَالَ مُحَقِّقُ الْمُسْنَدِ (٣٨/٤٢)

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «... وَنُكِّسِي وَالذَّاهُ حُلَّتَيْنِ، لَا تَقُومُ لَهُنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ! أَيْ لَنَا هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ...» الحديث (١).

وَحَقٌّ لِهَذَيْنِ الْوَالِدَيْنِ أَنْ يَفْجَبَا وَيَذْهَبَا مِنْ هَذَا الْإِنْعَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَصَلَا عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبَانِ، فَعِنْدَمَا يُكْسَى هَذَانِ الْوَالِدَانِ حُلَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ أَعْلَى وَأَثَمْنَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، يَتَسَاءَلَانِ فِي دَهْشَةٍ: مِنْ أَيْنَ لَنَا مِثْلُ هَاتَيْنِ الْحُلَّتَيْنِ وَلَيْسَ لَنَا - فِيمَا نَعْلَمُ - مِنَ الْعَمَلِ وَالطَّاعَاتِ مَا يُؤَهِّلُنَا لِلْفَوْزِ بِهَذِهِ الْكِرَامَةِ الْعَظِيمَةِ؟

فَيُجَابَانِ: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ وَصَبْرِكُمَا عَلَيْهِ وَإِخْلَاصِ النَّصْحِ لَهُ. وَهَكَذَا فَإِنَّ صَاحِبَ الْقُرْآنِ مِنْ أَيْبَرِ النَّاسِ بِوَالِدَيْهِ، وَلَوْ عَلِمَ كُلُّ الْوَالِدَيْنِ مَا يَحْصُلُ لَهُمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّفْعَةِ بِأَخْذِ وَلَدِهِمَا لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِجَادِرًا إِلَى دَفْعِ أَوْلَادِهِمَا دَفْعًا، وَحَثِّهِمْ حَثًّا عَلَى تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتِلَاوَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ (٢).

وقد أحسن الشاطبي (٣) تَلَفُّظًا حِينَما قَالَ:

- (ح ٢٢٩٥): «إسناده حسن في المتابعات والشواهد، من أجل بشير بن المهاجر الفثوي، وباقى رجاله ثقات رجال الشيخين، وحسنه الحافظ ابن كثير في تفسيره» (١/٦٢)، ولبعضه شواهد يصحح بها.

ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٩/٦) (ح ٣٠٠٤٥)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٧٤) (ح ٦٠١٤).

وذكره البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١٨٧/٣) (ح ١٣٢١) وقال: «هذا إسناد رجاله ثقات». وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٩/٧)، وقال: «روى ابن ماجه منه طرفاً، ورواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

ورواه مُخْتَصَرًا الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٧٤٢/١) (ح ٢٠٤٣) وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وابن ماجه (١٢٤٢/٢) (ح ٣٧٨١)؛ وأحمد في «المسند» (٣٥٢/٥) (ح ٢٣٠٢٦).

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١/٦) (ح ٥٧٦٤)؛ وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٢/٦) (ح ٢٨٢٩) وقال: «الحديث حسنٌ أو صحيحٌ؛ لأن له شاهداً من حديث برملة بن الحصيب مرفوعاً بتمامه».

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١٨١ - ١٨٢).

(٣) هو القاسم بن فيزة - ومعناه بلفظ عَجَمَ الأندلس: الحديد - بن خلف بن أحمد الشاطبي

فِيهَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِكاً مُجَلَّلاً لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُنْجَلَاً
هَيِّئْهُ مَرِيئاً وَابْدَأْهُ عَلَيْهِمَا مَلَابِسُ أَنْوَارٍ مِنَ الشَّجِّ وَالْحَلَا
فَمَا ظَنُّكُمْ بِالتَّجَلِّ عِنْدَ جَزَائِهِ أَوْلَيْكَ أَهْلُ اللَّهِ وَالصَّفْوَةُ الْمَلَا^(١)

وهذا من الآثار الحسنة التي تُكتب في ميزان الوالدين، لأنهما السبب المباشر في تعليم هذا الولد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. كما مرّ بنا في المطلب الرابع من هذا المبحث.

فليتنافس في هذا الآباء ما دام صلاح الأولاد راجعاً إليهم في النهاية، ثم لما يترتب على ذلك من البعد عن مواطن الشر إلى مجال الخير.

= الرعيني الأندلسي، ولد ضريباً سنة (٥٥٤٨هـ) بشاطبة، من الأندلس، كان أعجوبة في الذكاء، كثير الفنون، غاية في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، شافعي المذهب. قال ابن خلكان: «كان إذا قرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ، نُسخ من حفظه». توفي بمصر سنة (٥٩٠هـ)؛ انظر ترجمته بتوسّع في مقدمة كتابه: حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع (ص ٣ - ١٠).

(١) انظر: حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع (ص ١٢ - ١٣).

المبحث الرابع

أحكام تعلم القرآن وتعليمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حُكْمُ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ.

المطلب الثاني: حُكْمُ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لغير المسلم.

المطلب الثالث: حُكْمُ أَخْذِ الْأَجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ.

أحكام تعلم القرآن وتعليمه

ثبت عنه ﷺ أنه حرص على تعليم أصحابه القرآن، إماماً بنفسه، وإماماً بتوكيل بعض أصحابه للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ومن النوع الأول ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ، فَإِذَا مَرَّ بِسُجُودِ الْقُرْآنِ سَجَدَ وَسَجَدْنَا مَعَهُ»^(١).

ولاشتهار هذا الأمر عن رسول الله ﷺ صار أصلاً يُقاس عليه غيره، ومن هذا القبيل قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢).

فإذا طرأ ما يمنع رسول الله ﷺ من مباشرة ذلك بنفسه وكُلَّ بعض أصحابه للقيام بمهمة تعليم القرآن - وهذا من النوع الثاني.

ومنه ما ورد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَقِّلُ، فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يُعَلِّمُ الْقُرْآنَ»^(٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُعَلِّمَا النَّاسَ الْقُرْآنَ»^(٤).

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٥٧/٢) (ح ٦٤٦١)، وقال محققو المسند (٤٨٧/١٠) (ح ٦٤٦١): «حديث صحيح». ورواه مسلم بنحوه في: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٤٠٥/١) (ح ٥٧٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب: ما جاء في التطوع متى متى (٣٤٦/١) (ح ١١٦٢).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣٢٤/٥) (ح ٢٢٨١٨)، وقال محققو المسند (٤٢٦/٣٧) (ح ٢٢٧٦٦): «إسناده حسن».

والحاكم في «المستدرک» (٤٠١/٣) (ح ٥٥٢٧)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». والظبراني في «مسند الشاميين» (ح ٢٢٣٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤٤٤/١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٣٩٧/٤) (ح ١٩٥٦٢)، وقال محققو المسند (٣١٥/٣٢) =

وعلى هذا النهج سار السلف الصالح بعد رسول الله ﷺ، بحيث لم يخلُ عصر من مُعلّمي القرآن الحريصين على تبليغه للناس، وقد أثمرت جهود هؤلاء الأختيار وأدت إلى تواتر القرآن جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا - بحمد الله تعالى - غصّاً طريّاً^(١).

والحديث عن حُكْم تعلُّم القرآن وتعليمه يتمثل في المطالب الآتية:

المطلب الأول

حُكْم تعلُّم القرآن وتعليمه

تعلُّم القرآن وتعليمه فرض كفاية على المسلمين، فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، إلا ما نصح به الصلاة من القرآن بالإجماع^(٢)، وهو الفاتحة؛ لأنَّ من القواعد المتقرّرة في الشريعة أنْ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، والصلاة واجبة ولا تتمُّ إلا بقراءة الفاتحة^(٣).

وأما ما سوى الفاتحة فتعلّمه فرض كفاية على الجميع، ومستحب بالإجماع^(٤)، والأدلة على ذلك - بالإضافة لما تقدّم - متوافرة، فمنها:

١ - عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٥).

٢ - وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ

= (ح ١٩٥٤٤): «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير طلحة بن يحيى - وهو ابن طلحة بن عبيد الله التيمي - فمن رجال مسلم».

(١) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم (ص ٢٤ - ٢٦).

(٢) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (ص ١٥٦)؛ الإقناع، للحجاوي (١/١٤٨)؛ منتهى الإرادات، لابن النجار (١/١٠٤)؛ حاشية الروض المربع، لابن قاسم (٢/٢٠٧).

(٣) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ١١ - ١٢).

(٤) انظر: المصادر السابقة، والصفحات نفسها.

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح ٥٠٢٧)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠) (ح ١٤٥٢).

الْقُرْآنَ وَهَلَّمَهُ^(١).

٣ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَمَسَالِمٍ، وَمُعَاذٍ، وَأَبِي إِبْنِ كَعْبٍ»^(٢). وهذا الحديث يُبَيِّنُ لَنَا أَهْمِيَّةَ أَخْذِ الْقُرْآنِ مِنْ مَصْدَرِهِ الْأَوْثَقِ.

٤ - ما رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ - بَعْدَ مُحَادَثَةِ جَرْتِ بَيْنَهُمَا، فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْفِتَنِ: «يَا حَذِيفَةَ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٣) الْحَدِيثِ.

٥ - عَنْ أَبِي أَمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَعَلَّمُوا الْبَقْرَةَ وَالْأَنْعَامَ، تَعَلَّمُوا الزُّهْرَوَيْنِ...»^(٤) الْحَدِيثِ. وَمَنْ صَرَّحَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ تَعَلُّمَ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمَهُ فَرَضٌ كِفَايَةُ النَّوَوِيِّ وَالسُّبُوطِيِّ^(٥).

* قَالَ النَّوَوِيُّ رحمته الله: «تعليم المتعلمين فرض كفاية، فإن لم يكن من يصلح له إلا واحد تَعَيَّنَ عليه، وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم: فإن امتنعوا كُلُّهُمْ أَيْمُوا، وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن الباقيين، وإن طُلب من

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠) (ح ٥٠٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٣/١٦١٣) (ح ٤٩٩٩)؛ وكتاب مناقب الأنصار، باب: مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه (٣/١١٦٥) (ح ٣٨٠٨).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤/٩٦) (ح ٤٢٤٦)؛ وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٣/٨٠٠) (ح ٣٥٧١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٤/٢٥١) (ح ٢٢٢١١)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٦٥) (ح ٥٩٩١)؛ والطيبراني في «الكبير» (٨/٢٩١) (ح ٨١١٨)؛ وقال محققو المسند (٣٦/٤٨١) (ح ٢٢١٥٧): «حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الصحيحين».

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير، المصري، الشافعي، نشأ في القاهرة يتيمًا، وقرأ على جماعة من العلماء، وهو كثير المؤلفات، ومن أشهر مؤلفاته: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، و«الجامع الصغير في الحديث» وغيرهما. توفي سنة (٩١١هـ).

انظر: شذرات الذهب (٨/٥١)؛ البدر الطالع (١/٣٢٨).

أحدهم وامتنع، فأظهرُ الوجهين أنه لا يأنم، لكن يُكرهُ له ذلك إن لم يكن له عذره^(١).

* وهو ما قرره السيوطي تَفْصِيحاً حيث قال: «اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة... وتعليمه أيضاً فرض كفاية»^(٢).

المطلب الثاني

حُكْمُ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ

اختلف الفقهاء - رحمهم الله - في حُكْمِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: الْجَوَازُ، وَعَدْمُهُ، وَالكَرَاهَةُ.

وَالرَّاجِحُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ: جَوَازُ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ إِذَا رُجِيَ إِسْلَامُهُ، وَعَدْمُ جَوَازِ تَعْلِيمِهِ إِذَا لَمْ يُرَجَّحْ إِسْلَامُهُ.

وبهذا قال الحنفية^(٣)، وهو الوجه الصحيح عند الشافعية^(٤).

واستدلوا على ذلك من القرآن، والسنة، والمعقول:

أولاً: من القرآن:

قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَاجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ آفْوَةٍ﴾ [التوبة: ٦].

فإقامة المشرك المستجير - الذي طلب الجوار - عند النبي ﷺ لا تخلو من عرض الإسلام عليه، وإسماعه القرآن، وتعليمه إياه^(٥).

ثانياً: من السنة:

ما جاء في الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل: «بِسْمِ اللَّهِ

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٥٦). (٢) الإتيان في علوم القرآن (١/٢٦٤).

(٣) انظر: فتاوى قاضي خان (١/١٣٦)؛ الفتاوى الهندية (٥/٣٢٣).

(٤) انظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي، للشيرازي (٢/٧٢)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٧)؛ المجموع (٢/٧١)؛ روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي (٥/١٩٠).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٥ - ٢٦).

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ
 الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْنَا تَسْلَمَ، وَأَسْلِمْنَا يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ
 مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ: ﴿يَتَأَفَّلُ الْكِتَابُ قَسَاوًا إِنْ كَلِمَتُهُ
 سَوَّلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا سَبَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ. سَكِينًا وَلَا يَتَّخِذُ مَعُونًا مَعَنَا أَرْبَابًا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] (١).

وجه الدلالة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد بعث إلى الكفار بهذا الكتاب؛ ليعرفوا ما فيه
 ويتدبروه ليسلموا، وهو مُشتمل على آية من كتاب الله تعالى، فدلَّ على جواز
 تعليم القرآن لغير المسلم إذا رُجِّي إسلامه.

الثالث: من المعقول:

إِنَّ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ دَعْوَةً لَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَتَرْغِيبًا لَهُ فِي الدُّخُولِ
 فِيهِ، وَالإِطْلَاعِ عَلَى مَحَاسِنِهِ وَأَحْكَامِهِ السَّمْحَةِ، أَمَا إِذَا لَمْ يُرْجَ إِسْلَامُهُ فَلَا فَائِدَةَ
 فِي ذَلِكَ، بَلْ رُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَعَرُّضِ الْقُرْآنِ لِلْإِهَانَةِ فَلَا يَجُوزُ (٢).

المطلب الثالث

حُكْمُ اخْتِذَاجِ الْأَجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ

بادئ ذي بدءٍ يُقال: الأصل أَنَّ رَوَاتِبَ الْمُؤَدِّفِينَ الَّذِينَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمُ
 الْمُسْلِمُونَ فِي أُمُورِهِمُ الْعَامَّةِ، مِنَ الْقَضَاةِ، وَالْمُحْتَسِبِينَ، وَمَنْ يَنْفَذُونَ الْحُدُودَ،
 وَالْمِفْتِينَ، وَالْأَنْثَمَةَ، وَالْمُدْرُسِينَ، وَنَحْوَهُمْ مِنْ كُلِّ مَنْ فَرَّغَ نَفْسَهُ لِمَصْلُحَةِ
 الْمُسْلِمِينَ، فَيَسْتَحِقُّ الْكِفَايَةَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ لَهُ وَلَمْ يَعْزَمْ بِعَوْلِهِ. وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ
 بِاخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ وَالْبُلْدَانِ لِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَسْعَارِ.

وعليه فلا خلاف بين الفقهاء في جواز أخذ الرزق من بيت المال على تعليم
 القرآن؛ لأنَّ هذا الرزق ليس أجرًا من كلِّ وجه بل هو كالأجرة (٣).

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿قَدْ يَتَأَفَّلُ الْكِتَابُ قَسَاوًا إِنْ كَلِمَتُهُ سَوَّلَ...﴾
 الآية (١٣٨١/٣) (ح ٤٥٥٣).

(٢) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ٥٨٧ - ٥٨٩).

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٨٠ - ٢٨٢)؛ المغني (٦/ ٤١٧)؛ مطالب أولي النهي

وإنما وقع الخلاف في الاستتجار لتعليم القرآن والحديث والفقه ونحو ذلك من العلوم الشرعية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

وبهذا قال المتقدمون من الحنفية^(١)، والإمام أحمد في رواية عنه، وبها أخذ أكثر أصحابه^(٢).

واستدلوا على ذلك بأدلة من الكتاب، والسنة، والمعقول:

أولاً: من الكتاب:

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوضٍ عن ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام»^(٣).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتُوا بِأَهْبَىٰ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قال القرطبي رحمه الله: «وهذه الآية وإن كانت خاصة بيني إسرائيل فهي تناول

= في شرح غاية المنتهى، لمصطفى السبوطي الرحبياني (٦٤١/٣)؛ الموسوعة الفقهية (٨/ ٢٥٢) (١٤/١٣).

(١) انظر: المبسوط، للسرخسي (٣٧/١٦)؛ نحة الفقهاء، لعلاء الدين السمرقندي (٣٥٧/١)؛ فتاوى قاضي خان (٣٢٥/٢)؛ الهداية (٢٤٠/٣)؛ المختار، للموصلي (٥٩/٢)؛ الفتاوى البزازية (٣٧/٥)؛ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، للما أفندي (٣٨٤/٢ - ٣٨٥).

(٢) انظر: الكافي، لابن قدامة (٣٠٣/٢ - ٣٠٤)؛ المغني (١٣٩/٦ - ١٤٠)؛ الفروع (٤/ ٤٣٥)؛ الإنصاف (٤٥/٦)؛ الإقناع (٢٩٤/٢ - ٣٠١)؛ دليل الطالب، لمرعي الحنبلي (ص ١٤٢).

(٣) أضواء البيان (١٨/٣).

مَنْ قَعَلَ فَعَلَهُمْ، فَمَنْ أَخَذَ رِشْوَةً عَلَى تَغْيِيرِ حَقِّ أَوْ إِبْطَالِهِ، أَوْ امْتَنَعَ مِنْ تَعْلِيمِ مَا وَجِبَ عَلَيْهِ، أَوْ آدَاءِ مَا غَلِمَهُ وَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذَ عَلَيْهِ أَجْرًا فَقَدْ دَخَلَ فِي مَقْتَضَى الْآيَةِ^(١).

ثانياً: من السنة:

١ - ما جاء عن عبادة بن الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَةِ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا. فَقُلْتُ: لَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ? لَأَيِّنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَأَسْأَلُنَّهُ فَأَتِيَنَّهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ أَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا، بِمَنْ كُنْتُ أَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ، وَلَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: «إِنْ كُنْتُ تُحِبُّ أَنْ تُطَوِّقَ طَوْقًا مِنْ نَارٍ، فَاقْبَلْهَا»^(٢).

وفي رواية أخرى قال عبادة رضي الله عنه: ما ترى فيها يا رسول الله؟ فقال: «جَمْرَةٌ بَيْنَ كَعْبِكَ تَقْلُدْنَهَا» أو «تَمَلِّقْنَهَا»^(٣).

٢ - ما جاء عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قال: عَلَّمْتُ رَجُلًا الْقُرْآنَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنْ أَخَذْتَهَا أَخَذْتَ قَوْسًا مِنْ نَارٍ فَرَدَدْتُهَا»^(٤).

٣ - ما جاء عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ عَلَيَّ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ قَوْسًا، قَلَدَهُ اللَّهُ قَوْسًا مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٤٥).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب: في كسب المعلم (٣/٢٦٤) (ح٣٤١٦)؛ والحاكم في «المستدرک» (٢/٤٨) (ح٢٢٧٧)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخبرناه». وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/٦٥٥) (ح٢٩١٥).

(٣) رواه أحمد في «المسنند» (٥/٣٢٤) (ح٢٢٨١٨)؛ وأبو داود (٣/٢٦٥) (ح٣٤١٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/٦٥٥) (ح٢٩١٦).

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب: الأجر على تعليم القرآن (٢/٧٣٠) (ح٢١٥٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/٨) (ح١٧٥١).

(٥) رواه البيهقي في «السنن»، باب: مَنْ كَرِهَ أَخْذَ الْأَجْرَةِ عَلَيْهِ (٦/١٢٦) (ح١١٤٦٥)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٨٦)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/١٠٣٦) (ح٥٩٨٢)؛ و«الصحيح» (١/١١٣) (ح٢٥٦).

ثالثاً: من المعقول:

إنّ تعليم القرآن لا يقع إلاّ قربة لله تعالى، فلم يجوز أخذ العوض عليه كالصلاة^(١).

القول الثاني: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

وبهذا قال بعض المتأخّرين من الحنفية^(٢)، وبه قال المالكية^(٣)،
والشافعية^(٤)، والإمام أحمد في رواية عنه^(٥)، وابن حزم^(٦).

واستدلوا على ذلك بأدلة من السنة، والمعقول:

أولاً: من السنة:

١ - ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن نقرأ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله مرّوا بماء،
فيهم لبيع أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال، هل فيكم من راقٍ،
إن في الماء رجلاً لبيعاً أو سليماً، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب على
شاء، فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت على كتاب الله
أجراً، حتى قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجراً،
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أحقّ ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله»^(٧).

(١) انظر: الكافي (٣٠٤/٢)؛ المغني (١٤١/٦)؛ كشاف القناع (١٢/٤).

(٢) انظر: المبسوط (٣٧/١٦)؛ فتاوى قاضي خان (٣٢٥/٢)؛ الهداية شرح بداية المبتدي،
للمرغيناني (٢٤٠/٣)؛ المختار (٥٩/٢)؛ الفتاوى البزازية (٣٧/٥)؛ مجمع الأنهر (٢/
٣٨٤)؛ حاشية ابن عابدين (٥٥/٦).

(٣) انظر: المدونة الكبرى، للإمام مالك (٤١٩/٤)؛ الكافي في فقه أهل المدينة، لابن
عبد البر (٧٥٥/٢)؛ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد (٢٢٣/٢)؛ الفواكه
الدواني، للفرغوي (١٦٤/٢)؛ بلغة السالك لأقرب المسالك، للصاوي (٢٤٧/٢).

(٤) انظر: روضة الطالبين (١٨٧/٥)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٥)؛ فتح الجواد
بشرح الإرشاد، للهيثمي (٥٩٠/١)؛ مغني المحتاج، لمحمد الشربيني (٣٤٤/٢)؛ إهانة
الطالبين على حلّ ألفاظ فتح المعين، للسيد البكري (١١٣/٣).

(٥) انظر: الكافي (٣٠٣/٢)؛ المغني (١٤٠/٦)؛ مجموع الفتاوى (٢٠٥/٣٠)؛ الفروع (٤/
٤٣٥)؛ الإنصاف (٤٥/٦).

(٦) انظر: المحلى (١٩٣/٨).

(٧) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب (١٨٣٣/٤) (ح ٥٧٣٧).

٢ - ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يقرؤهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو زاق؟ فقالوا: إنكم لم تقرؤنا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فجعلوا لهم قِطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأمر القرآن، ويجمع بزاقه ويتبل، فبراً فاتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذُه حتى نسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك وقال: «وما أدراك أنها رقيقة، خلّوها واضربوا لي بسهم»^(١).

وجه الدلالة: دلّ الحديث على جواز أخذ الجعل على تعليم القرآن، وإذا جاز أخذ الجعل جاز أخذ الأجر؛ لأنه في معناه^(٢).

٣ - ما جاء في حديث الواهبة المشهور، الذي رواه سهل بن سعيد الساعدي رضي الله عنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم للرجل: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ». قَالَ: مِيعِي سُورَةٌ كَذَا وَسُورَةٌ كَذَا، عَدَدَهَا، فَقَالَ: «تَقْرَؤُهُمْ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «لَا تَقْرَأُ مَلِكُهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣).

وجه الدلالة: دلّ الحديث على جواز تعليم القرآن عوضاً في النكاح، وقائماً مقام المهر، وإذا جاز ذلك جاز أخذ الأجرة عليه في الإجارة^(٤).

٤ - ما رواه خارجة بن الصلت عن عمه رضي الله عنه: أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم، ثم أقبل راجعاً من عنده، فمرّ على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: إِنَّا حُدِّثْنَا أَنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا^(٥)، قد جاء بخير، فهل عندك

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: الرقي بفاتحة الكتاب (٤/١٨٣٢) (ح ٥٧٣٦).

(٢) انظر: المغني (٦/١٤٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: تزويج الممسر (٣/١٦٣٨) (ح ٥٠٨٧)؛ ومسلم، كتاب النكاح، باب: الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير (٢/١٠٤٠) (ح ١٤٢٥).

(٤) انظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥) قال ابن حجر رحمته الله: «قيل اسمه: علاقة بن صحار، وقيل: عبد الله بن عثيرة».

انظر: تقريب التهذيب (٢/٥٧٣).

(٦) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم.

شيء تُداويه؟ فرقيته بفاتحة الكتاب، فبراً، فأعطوني بائة شاء، فاتيئ رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال:

«هَلْ إِلَّا هَذَا»^(١)؟ وقال مُسَدَّدٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «هَلْ قُلْتَ خَيْرَ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا! قَالَ: «خُلْنَا، فَلَعَمْرِي لَمَنْ أَكَلَ بِرُقِيَّةً بَاطِلًا»^(٢)، لَقَدْ أَكَلَتْ بِرُقِيَّةً حَقًّا»^(٣)،^(٤).

ثانياً: من المعقول:

إنه يجوز أخذ الرزق من بيت المال على تعليم القرآن، فجاز أخذ الأجرة عليه، كبناء المساجد والقناطر^(٥).

القول الثالث: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة:

وهذا وَجْهٌ فِي مَذْهَبِ الْحَنَابِلَةِ^(٦)، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ^(٧).

* وَلَعَلَّهُمْ قَالُوا بِذَلِكَ جَمْعاً بَيْنَ الْأَدْلَةِ السَّابِقَةِ.

* وَعَمَلًا بِعَمُومِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي وَلِيِّ الْبَيْتِ: «وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَوْفُؤْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» [النساء: ٦].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنَّ الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية فالأولى له ألا يأخذ عَوْضاً على تعليم القرآن، والعقائد، والحلال والحرام للأدلة الماضية. وإن دعت الحاجة أخذ بقدر الضرورة من بيت مال المسلمين؛ لأنَّ الظاهر أنَّ المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على

(١) أي: هل قُلْتَ إِلَّا فَاتِحَةَ الْكِتَابِ.

(٢) جواب الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَعَلِيهِ وَرِزْوَةٌ وَإِنَّمَا.

(٣) أي: فلا وَرِزْرٌ عَلَيْكَ. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٧٧/٩).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب: كيف الرُقِيَّةُ؟ (١٣/٤) (ح ٣٨٩٦)؛ وأحمد في «المستند» (٢١٠/٥) (ح ٢١٨٨٤)؛ والحاكم في «المستدرک»، كتاب فضائل القرآن، باب:

أخبار في فضائل القرآن جملة (٧٤٧/١) (ح ٢٠٥٥)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٧٣٧/٢) (ح ٣٢٩٧)؛ و«الصحيح» (٤٤/٥) (ح ٢٠٢٧).

(٥) انظر: المغني (١٤١/٦).

(٦) انظر: الفروع (٤٣٥/٤)؛ الاختيارات الفقهية (ص ١٣٥)؛ حاشية الروض المربع (٣٢٠/٥).

(٧) انظر: الاختيارات الفقهية (ص ١٥٣ - ١٥٤)؛ مجموع الفتاوى (١٩٢/٣٠ - ١٩٣ - ٢٠٥).

القيام بالتعليم لا من قبيل الأجرة. والاولى لمن أغناه الله أن يتعفف عن أخذ شيء في مقابل التعليم للقرآن والمعاند والحلال والحرام^(١).

الترجيح:

يبدو أن أغلب الأدلة في المسألة لم تسلم من ورود مناقشات عليها، وأقرب الأقوال إلى الصواب - والله أعلم - هو القول الثالث، القائل: بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة، وعدم جواز الأخذ عند عدمها؛ لما في ذلك من الجمع بين الأدلة وإعمالها جميعاً^(٢).

ضوابط أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

١ - الأصل في تعليم القرآن هو الاحتساب، وعدم أخذ العوض عليه، وهو عمل الأنبياء عليهم السلام.

قال ابن تيمية رحمته: «أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة، فهو أفضل الأعمال، وأحبها إلى الله، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام. والشحابة والتابعون وتابعو التابعين، وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه، إنما كانوا يعملون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يعمل بأجرة أصلاً...»

وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح، فضلاً من أن يكون جائزاً^(٣).

٢ - إذا كان معلّم القرآن ميسور الحال ترك أخذ الأجرة، عملاً بأحاديث المنع، وجعل تعليمه زكاةً لعلمه. أما إذا كان المعلّم غير ميسور الحال وذو عيال - كما هو عليه واقع أكثر معلّمي القرآن اليوم - فلا بأس أن يأخذ على ذلك الأجرة، عملاً بأحاديث الجواز^(٤).

(١) أضواء البيان (٢٢/٣).

(٢) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ٧٣٢ - ٧٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠٤/٣٠ - ٢٠٥).

(٤) انظر: الثمر الثاني من صحبة الألباني في فضائل القرآن وأحكامه، إبراهيم المنّاوي (ص ٨٧).

قال ابن تيمية رحمته الله: «ومن فرق بين المحتاج وغيره - وهو أقرب - قال: المحتاج إذا اكتسب بها أمكنه أن ينوي عملها لله، ويأخذ الأجرة ليستعين بها على العبادة؛ فإن الكسب على العيال واجب أيضاً، فيؤدى الواجبات بهذا»^(١).

٣ - إذا كان معلّم القرآن من الفقراء الذين يتكسبون بما لا يكفي معاشهم من أي عمل آخر - وهم كثير - فخير لهم أن يستغنوا بتعليم القرآن عن سؤال الناس.

وقد نقل ابن تيمية عن الإمام أحمد رحمته الله قوله: «أجرة التّعليم خير من جوائز السّطان، وجوائز السّطان خير من صلة الإخوان»^(٢).

٤ - إذا جاز للمعلّم أن يأخذ الأجرة على تعليمه القرآن مع حاجته إلى هذه الأجرة، فليس معناه أن يستغلّ ظروف الناس وحاجتهم إليه، كأن يكون وحيداً في قرية، أو منطقة ما، ولا منافس له من المعلّمين، ويجد إقبال الرّاعيين في تعلّم القرآن شديداً فيطلب ويغالي في طلبه، ولكن يأخذ بعفاف، ويقنع بالكفاف، ولا يعرض القرآن للمساومة.

٥ - ومن ناحية أخرى ينبغي ألاّ يفضنّ راغبو التّعلم بأموالهم ولا يستكثروا ما ينفقون، بل ينبغي أن يوجّهوا نيّاتهم في العطاء إلى إقراض الله قرضاً حسناً، ويكون اعتقادهم هو قول الله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَّا لَمْ يُنْفِقُوا مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدْرَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

وبهذا يكون تعليم القرآن ميداناً تجتمع فيه فضائل العفة والقناعة من المعلّمين، والإنفاق بكرم وسخاء في سبيل الله من الرّاعيين في التّعليم»^(٣).

٦ - إن القول بجواز الاستنجار على تعليم القرآن وأخذ الأجرة على ذلك ضرورة تقتضيها مصلحة المحافظة على كتاب الله، وتعليمه لمن لا يحسنون

(٢) المصدر السابق (٣٠/١٩٣).

(١) المصدر السابق (٣٠/٢٠٧).

(٣) انظر: كيف تأدب مع المصحف (ص ١٢٦ - ١٢٩).

قراءته؛ لأنَّ معلِّمي القرآن كغيرهم يسمعون في معاشهم، وخصوصاً بعد أن قُطعت أعطياتهم من بيت المال، فحتَّى يتفرَّغ المعلِّمون لتعليم القرآن لا بدُّ من أجره تُدفع لهم.

٧ - تعليم القرآن للمسلمين لا يقلُّ أهميَّة عن جمعه، ونسخه، وتوزيعه على الأمصار، ونقْطه، وشكْله من حيث المساهمة في حفظه وتعليمه. ولَمَّا كان تعليم القرآن حسبَ لوجه الله تعالى قد أصبح نادراً، فاقْتضى الأمر القول بجواز تعليمه بأجرة، بشرط أن يكون محتاجاً إليها.

فلو لم يُفتح باب التَّعليم بأجرة لذهب القرآن، ولا يُنكر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان^(١).

(١) انظر: فيض الرُّحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٢٨٧ - ٢٨٨، ٢٩٤).

المبحث الخامس

هَمَّةُ السَّلَفِ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علو همة المعلمين.

المطلب الثاني: علو همة المتعلمين.

المطلب الأول علو همة المعلمين

الهمة رزق من الله تعالى، والله يبسط رزقه لمن يشاء ويقدر، ومن حكمته سبحانه أن فاضل بين خلقه في قواهم العملية، كما فاضل بينهم في قواهم العلمية.

ولقد فقه السلف الصالح عن الله تعالى أمره، وتدبروا حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنها، وتجاغت جنوبهم عن مضاجعها، وتناوت قلوبهم من مطامعها، وارتفعت همتهم على السفاسف، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلو همتهم في الثبات على دين الله، وقوة عزيمتهم في حمل راية الدين، وتبليغ العلم الشرعي لطلابه^(١).

وجلس معلمي القرآن السنين الطوال لتعليم الناس القرآن وتبيين معانيه وأحكامه ليس بالشيء اليسير، فهو يحتاج إلى تضحيات جسام، وهمة عالية، وتفريغ للأوقات، وصبر ومصابرة، ورغم ازدحام أوقاتهم بأعباء ومسؤوليات كثيرة يحتاجون إليها، كان تعليمهم القرآن شغلهم الشاغل.

وهذه بعض النماذج المنقولة عن السلف الصالح تُبين شيئاً من علو همتهم في تعليم كتاب الله. سأذكر كل واحد منها تحت عنوان يدل عليه اجتهاداً مني، ودون تعليق عليها؛ لأنها من الواضح بمكان، إلا ما اقتضى الحال بيانه أو أهميته، وهي على النحو الآتي:

١ - ترك الأوطان لأجل تعليم القرآن:

من مهام ولاية الأمر القيام بتوجيه الأئمة القراء لتعليم الناس كتاب الله تعالى، أداء للأمانة وقياماً بحق الرعاية لهم.

(١) انظر: علو الهمة، لمحمد أحمد المقدم (ص ٢٠٩).

قال محمد بن كعب القرظي^(١) **تَلَفَّه**: «جَمَعَ القرآن خمسة: معاذ بن جبل، وعُبادَةُ بن الصَّامِت، وأبو الدَّرْداء، وأبيّ، وأبو أيوب. فلَمَّا كان زمن عمر، كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إنَّ أهل الشَّام قد كثروا، وملؤوا المدائن، واحتاجوا إلى مَنْ يَعْلَمهم القرآن ويفقَّهم، فأعني برجال يعلمونهم.

فدعا عمر الخمسة، فقال: إنَّ إخوانكم قد استعانوني مَنْ يَعْلَمهم القرآن ويفقَّهم في الدِّين، فأعينوني - يرحمكم الله - بثلاثة منكم إن أحببتم، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا.

فقالوا: ما كنَّا لنتساهم، هذا شيخ كبير - لأبي أيوب - وأما هذا فسقيم - لأبيّ - فخرج معاذ، وعُبادَةُ، وأبو الدَّرْداء.

فقال عمر: ابدؤوا بحمص، فإنكم ستجدون النَّاس على وجوه مختلفة، منهم مَنْ يَلْقَن^(٢)، فإذا رأيتم ذلك، فوجَّهوا إليه طائفة من النَّاس، فإذا رضيتم منهم، فليقيم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين.

قال: فقدموا حمص فكانوا بها، حتَّى إذا رضوا من النَّاس أقام بها عُبادَةُ بن الصَّامِت، وخرج أبو الدَّرْداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، فمات في طاعون حمَّواس^(٣). ثمَّ صار عُبادَةُ بعد إلى فلسطين وبها مات، ولم يزل أبو الدَّرْداء بدمشق حتَّى مات^(٤).

٢ - تأسيس مدارس وحلِّق تحفيظ القرآن:

يعتبر أبو الدَّرْداء **عليه السلام** مؤسساً لمدارس وحلقات تحفيظ القرآن الكريم، فقد تصدَّر للإقراء - كما سبق - في دمشق وهناك أسس هذا العمل العظيم:

- (١) هو محمد بن كعب بن سليم (أبو أسعد) القرظي، المدني. ولد سنة (٤٠هـ)، كان قد نزل الكوفة مدةً. ثقة، عالم. توفي سنة (١٢٠هـ).
- انظر: تقريب التهذيب (١/٥٠٤).
- (٢) يَلْقَن: يفهم ويحفظ. انظر: القاموس المحيط (٤/٢٦٨)، مادة: (لقن).
- (٣) حمَّواس: مدينة قرب بيت المقدس. وكان الطاعون بها سنة (١٨هـ). انظر: معجم البلدان (٤/١٥٧).
- (٤) سير أعلام النبلاء (٢/٣٤٤)؛ وانظر: الطبقات الكبرى (٢/٣٥٧)؛ التاريخ الصغير، للبخاري (١/٤١).

عن سويد بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: «كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك»^(١).

وعن مسلم بن مشكم رضي الله عنه قال: قال لي أبو الدرداء رضي الله عنه: «اعدد من في مجلسنا. قال: فجاؤوا ألفاً وستمئة ونيّفاً فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبح، انفتل وقرأ جزءاً فيحدّقون به يسمعون ألفاظه»^(٢).

٣ - لم تشغله الإمارة عن تعليم القرآن:

فهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه (أمير البصرة في عهد عمر)، لم تمنعه إمارة البصرة، وكثرة مسؤولياته، من تعليم الناس القرآن.

فمن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعثني الأشعريُّ إلى عمر، فقال عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت: تركته يعلم الناس»، فقال عمر رضي الله عنه: «إنه كَيْسٌ، ولا تُسمعها إياه»^(٣).

٤ - جلس لتعليم القرآن أربعين سنة:

عن سعد بن عُبَيْدَةَ قال: «وَأَقْرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي إِمْرَةِ عُثْمَانَ حَتَّى كَانَ الْحِجَابُ»^(٤)،^(٥).

ومعنى ذلك: أنه علّم الناس القرآن في مسجد الكوفة أربعين سنة، فقد بدأ

(١) معرفة القراء الكبار (٤١/١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٣٤٦).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/٣٤٥). وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٣٩٠)؛ كثر العمال (١٣/٢٦٠) (رقم ٣٧٥٥٢).

(٤) هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعْتَب بن قسي - وهو ثقيف - الثقيفي، عايلُ عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان، كان حازماً قوياً ظالماً، وأمه: الفارعة بنت هُمام بن عروة بن مسعود الثقيفي، مات مريضاً مُسلطاً عليه الزّمهرير سنة (٨٩٥هـ)، وشهد مرضه الحسنُ البصري، وله: (٥٤ سنة).

انظر: وفيات الأعيان (١/٢٩ - ٥٤)؛ سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣).

(٥) صحيح البخاري (٣/١٦٢٠).

يَعْلَمُ الْقُرْآنَ فِي خِلَافَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَيَّامِ الْحِجَّاجِ، وَهُوَ الَّذِي رَوَى عَنْ عَثْمَانَ حَدِيثًا: «خَيْرِكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(١).

قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: «وَذَاكَ الَّذِي أَقَعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا»^(٢).

ومعنى قول أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ: «وَذَاكَ الَّذِي أَقَعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا». «أَي: أَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَ بِهِ عَثْمَانُ فِي أَفْضَلِيَّةِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ حَمَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ قَعْدَ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ لِتَحْصِيلِ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ»^(٣).

ومن أجل ذلك أتى عليه الحافظ ابن كثير ودعا له بالخير فقال: «تَلَفُّهُ وَأَثَابَهُ، وَأَتَاهُ مَا ظَلَبَهُ وَرَامَهُ، آمِينَ»^(٤).

٥ - عِلْمُ الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً:

(الإمام المُقَرَّرِيُّ نَافِعُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نُعَيْمٍ الْمَدَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَحَدُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ، أَقْرَأَ النَّاسَ دَهْرًا طَوِيلًا يَزِيدُ عَنْ سَبْعِينَ سَنَةً؛ لِأَنَّهُ مِمَّنْ طَالَ عَمْرُهُ^(٥).

وقد ذكر الذهبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عددًا مِمَّنْ أَقْرَأَهُمْ نَافِعٌ فَقَالَ: «وَأَقْرَأَ النَّاسَ دَهْرًا طَوِيلًا، فَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدَمَاءِ: مَالِكٌ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَعَيْسَى بْنُ وَرْدَانَ الْحَدَّاءُ، وَسَلِيمَانُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ جَمَازٍ. وَمِمَّنْ بَعْدَهُمْ: إِسْحَاقُ الْمَسِيْبِيُّ، وَالْوَاقِدِيُّ، وَيَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، وَقَالُونَ، وَوَرِثُ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، وَهُوَ آخِرُ مَنْ قَرَأَ عَلَيْهِ مَوْتًا»^(٦).

٦ - لَقِّنَ الْعَمِيَانَ دَهْرًا طَوِيلًا:

(الإمام أبو منصور الخياط البغدادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) تَخْرُجُ عَلَى يَدَيْهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (١٦٢٠/٣) (ح ٥٠٢٧).

(٢) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩٧/٩).

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٠٧). (٥) انظر: معرفة القراء الكبار (١/٦٤).

(٦) المصدر نفسه (١٠٧/١ - ١٠٨).

(٧) هو الإمام القدوة المُقَرَّرِيُّ (أبو منصور) محمد بن أحمد بن علي البغدادي الخياط الزاهد.

قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَقَدْ وَصَفَهُ الذَّمْبِيُّ تَكَلُّفًا بِقَوْلِهِ: «جَلَسَ لِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ دَهْرًا، وَتَلَا عَلَيْهِ أُمَّمٌ»^(١).

وَقَدْ لَقِّنَ الْعَمِيَانَ دَهْرًا لِلَّهِ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى بَلَغَ عَدَدَ مَنْ أَقْرَأَهُمْ مِنَ الْعَمِيَانَ سَبْعِينَ نَفْسًا. قَالَ الذَّمْبِيُّ: «وَمَنْ لَقِّنَ الْقُرْآنَ لِسَبْعِينَ ضَرِيرًا، فَقَدْ عَمِلَ خَيْرًا كَثِيرًا»^(٢).

وَجَاءَ فِي «السِّيَرِ» عَنِ السَّمْعَانِيِّ تَكَلُّفًا قَالَ: «رُوِيَ (أَبُو الْمَنْصُورِ) بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لِي بِتَعْلِيمِي الصَّبِيَانَ الْفَاتِحَةَ»^(٣).

٧ - احْتِسَابُ أَجْرِ التَّعْلِيمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى:

بَلَغَ وَرِعَ مَعْلَمِي الْقُرْآنِ - مِنَ السُّلْفِ الصَّالِحِ - مَبْلَغًا عَظِيمًا فِي عَدَمِ اخْتِزِجِ الْأَجْرَةَ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

* مَا جَاءَ عَنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ تَكَلُّفًا، أَنَّهُ جَاءَ فِي النَّارِ جَلالًا وَجُزْرًا، فَقَالُوا: بَعَثَ بِهَا عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ^(٤)، لِأَنَّكَ عَلَّمْتَ ابْنَ الْقُرْآنِ. فَقَالَ: «رُدُّهُ، إِنَّا لَا نَأْخُذُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا»^(٥).

* وَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عُقْدَةَ^(٦) تَكَلُّفًا أَنَّهُ كَانَ يُؤَدِّبُ ابْنَ هِشَامِ الْخُرَّازِ، فَلَمَّا حَذَقَ الصَّبِيَّ وَتَعَلَّمَ، وَجَّهَ إِلَيْهِ أَبُوهُ بَدْنَانِيرَ، فَرَدَّهَا، فَظَنَّ ابْنُ هِشَامٍ أَنَّهَا اسْتَقَلَّتْ

= قَالَ السَّمْعَانِيُّ: «صَالِحٌ، نَفَقَةٌ، عَابِدٌ، مُلَقِّنٌ، لَهُ وَرْدٌ بَيْنَ الْعِشَاءِ بِنَسِيجٍ، وَكَانَ صَاحِبَ كِرَامَاتٍ». تُوُفِيَ سَنَةَ (٤٩٩هـ). انظُر: سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٩/٢٢٢ - ٢٤٤).

(١) سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٩/٢٢٢). (٢) الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ (١٩/٢٢٢٣).

(٣) الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ (١٩/٢٢٤). وانظُر: مَعْرِفَةَ الْقُرَاءِ الْكِبَارِ (١/٤٥٨).

(٤) هُوَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ: عَمْرُو بْنُ حُرَيْثِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ الْقُرَشِيِّ الْمَخْزُومِيِّ (مِنْ صِغَارِ الصَّحَابَةِ) قِيلَ: بِأَنَّهُ وَلِدٌ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بَسْتَيْنِ، وَلِي إِمَارَةَ الْكُوفَةِ أَيَّامَ زِيَادِ وَابْنِهِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَتُوُفِيَ ﷺ بِهَا سَنَةَ (٨٨٥هـ). انظُر: الْإِصَابَةَ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ، لِابْنِ حَجَرَ (٢/٥٣١).

(٥) انظُر: الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى (٦/١٧٣)؛ سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (٤/٢٦٩)؛ مَعْرِفَةَ الْقُرَاءِ الْكِبَارِ (٥٥/١).

(٦) هُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ (أَبُو الْعَبَّاسِ) الْكُوفِيُّ، الْمَعْرُوفُ بِالْحَافِظِ ابْنِ عُقْدَةَ، وَلِدًا سَنَةَ (٢٠٩هـ)، وَعُقْدَةُ لَقَّبَ لِأَيِّهِ النُّحْوِي؛ لِعِلْمِهِ بِالتَّصْرِيفِ وَالنُّحْوِ، تُوُفِيَ سَنَةَ (٣٣٢هـ). انظُر: سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٥/٣٤١)؛ تَارِيخُ بَغْدَادَ (٥/١٥).

فَأَضَعَهَا لَهُ، فَقَالَ: «مَا رَدَدْتُهَا اسْتِقْلَالًا، وَلَكِنْ سَأَلَنِي الضَّبِّي أَنْ أَعْلَمَهُ الْقُرْآنَ، فَاخْتَلَطَ تَعْلِيمَ النَّحْوِ بِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، وَلَا اسْتَحَلُّ أَنْ أَخْذَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَوْ دَفَعَ إِلَيَّ الدُّنْيَا»^(١).

* وما رواه فضيل بن جعفر، قال: «خَرَجَ الْحَسَنُ مِنْ عِنْدِ ابْنِ هُبَيْرَةَ فَإِذَا هُوَ بِالْقُرْآنِ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ هَا هُنَا، تَرِيدُونَ الدُّخُولَ عَلَى هَؤُلَاءِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا مَخَالَطَتُهُمْ بِمَخَالَطَةِ الْأَبْرَارِ، تَفَرَّقُوا، فَفَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ، خَصَفْتُمْ نَعَالِكُمْ، وَشَمَّرْتُمْ ثِيَابِكُمْ، وَجَزَزْتُمْ رِزْوَسَكُمْ، فَضَخَّمْتُمْ الْقِرَاءَةَ فَضَحَّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ زَهَدْتُمْ فِيْمَا عِنْدَهُمْ، لَرَغَبُوا فِيْمَا عِنْدَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغَبْتُمْ فِيْمَا عِنْدَهُمْ، فَزَهَدُوا فِيْمَا عِنْدَكُمْ، فَأَبْعَدَ اللَّهُ مَنْ أْبْعَدَهُ»^(٢).

المطلب الثاني

علو همة المتعلمين

إِنَّ عَالِي الْهِمَّةِ يَجُودُ بِالنَّفْسِ وَالنَّفْسِ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِ غَايَتِهِ، وَتَحْقِيقِ بَغْيَتِهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَكَارِمَ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ، وَأَنَّ الْمَصَالِحَ وَالْخَيْرَاتِ، وَاللَّذَاتِ وَالْكَمَالَاتِ كُلُّهَا لَا تُنَالُ إِلَّا بِحِظٍّ مِنَ الْمَشَقَّةِ، وَلَا يُغْبَرُ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التُّعَبِ.

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ، وَالْإِقْدَامُ قَتَالٌ^(٣)

ويدلُّ على تفاوت الهمم أنَّ من النَّاسِ مَنْ يَنْشَطُ لِلشَّهْرِ فِي سَمَاعِ سَمْرٍ، وَلَا يَسْهَلُ عَلَيْهِ الشَّهْرُ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ بَعْضَ الْقُرْآنِ، وَلَا يَتَوَقَّعُ إِلَى التَّمَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ قَلِيلًا مِنَ الْفِقْهِ، وَمِنْهُمْ قَنُوعٌ بِصَلَاةِ رَكْعَتَيْنِ فِي اللَّيْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ مَعَالِي الْأُمُورِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ وَسَمِيٌّ فِي

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٥/٥)؛ سير أعلام النبلاء (١٥/٣٤٤).

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٧٨/١) (رقم ٤٦١)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١٥١/٢)؛ وأبو القاسم في «تاريخ مدينة دمشق» (٣٧٧/٤٥)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٥٨٦/٤).

(٣) البيت للمتيبي.

تحقيقها، فهذا مغترٌ بالأمانى الكاذبة^(١).

وما نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالشَّمْنِيِّ وَلَكِنْ تُؤْخِذُ الدُّنْيَا جَلَابِئِ
وما اسْتَعْصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَاةٌ إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِجَابًا^(٢)

يقول العلامة ابن القيم رحمته في هذا الشأن:

«وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة، فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً، استراح طويلاً، وإذا تحمّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله»^(٣).

وتعلم القرآن الكريم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، والمقصود من ذلك كله هو لفت الأنظار إلى علو همة السلف الصالح في تعلم القرآن الكريم وبذل الغالي والثمن من أجل ذلك، وهذه بعض التماذج العالية من سيرتهم العطرة، وهي على النحو الآتي:

١ - الرّحلة من أجل تعلم القرآن:

* جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل، لرأيته إليه»^(٤).

(١) انظر: علو الهمة (ص ٢٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١٥/٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (١٦١٣/٣) (ح ٥٠٠٢)؛ ومسلم بنحوه، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن مسعود وأنه صلى الله عليه وسلم (١٩١٣/٤) (ح ٢٤٦٣).

(٢) اليتان لأحمد شوقي.

• وجاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لو أحييتي آية من كتاب الله تعالى، فلم أجد أحداً يفتحها عليّ إلا يَبْرُكُ العُماد»^(١) لرحلت إليه^(٢).

• وجاء أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لو أعلم أن أحداً تبلغني الإبل أخذت عهداً بالعرضة الأخيرة»^(٣) مني لأتبه، أو لتكلفت أن آتبه»^(٤).

٢ - ملازمة الشيوخ وعرض القراءة عليهم:

من علو همة المتعلمين ملازمة شيوخهم وعرضهم القراءة عليهم عدة مرات مع العلم بتفسير الآيات وفقه أحكامها ومسائلها، والأمثلة على هذا من سيرهم المعطرة كثيرة جداً، ومنها:

• ما اشتهر من ملازمة التابعي الجليل مجاهد بن جبر رضي الله عنه لشيوخه خبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما ملازمة شديدة.

قال مجاهد رضي الله عنه: «عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، أوقفه عند كل آية أسأله، فيمن نزلت، وكيف كانت»^(٥).

• وقال عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة: «رايت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله»^(٦).

• واشتهر عنه أنه أخذ التفسير أيضاً عن جملة من الصحابة، كابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وغيرهم رضي الله عنهم.

(١) برك العُماد: بكسر الباء وفتحها، وكسر الغين وضمتها. وهو موضع أقصى حجر باليمن. انظر: معجم البلدان (١/٣٩٩ - ٤٠٠).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٣٤٢).

(٣) العرضة الأخيرة: هي التي عرضها النبي صلى الله عليه وسلم عام توفي، على جبريل رضي الله عنه.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٢)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١/٢٤٦) (رقم ٥٩).

(٥) انظر: سنن الدارمي (١/٢٥٤) (رقم ١١٢٠)؛ تفسير الطبري (١/٨٥)؛ حلية الأولياء (٣/٢٨٠)؛ الطبقات الكبرى (٥/٤٦٦)؛ معرفة القراء الكبار (ص ٣٧)؛ سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٠).

(٦) تفسير الطبري (١/٩٠)؛ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٦٩).

روى السمرقندي في مقدّمة تفسيره بسنده... عن ابن لمجاهد قال: «قال رجل لأبي: أنت الذي تُفسّر القرآن برأيك، فبكى أبي ثم قال: إنّي إذا لجريء، لقد حملتُ التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ»^(١).

* ومن الأئمة الذين اشتهروا بطول ملازمة الشيوخ والإفادة من علومهم، نافع بن أبي نعيم المدني ثقة، حيث قال: «قرأتُ على سبعين من التابعين»^(٢).

٣ - الإقبال على الشيوخ والإفادة منهم:

* جاء في ترجمة علي بن حمزة الكسائي^(٣) ثقة، ما قاله خلف بن هشام البزار: «كنت أحضر بين يدي الكسائي، وهو يقرأ على الناس، وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهم»^(٤).

* وقال أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري: «كانوا يُكثرون عليه حتّى لا يضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم، ويجلس على كرسيّ، ويتلو القرآن من أوّله إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه، حتّى المقاطع والمبادئ»^(٥).

٤ - تحمّل الشدائد والصّعاب بغية تعلّم القرآن:

* جاء عن أبي بكر شعبة بن عياش ثقة أنه قال: «اختلفتُ إلى عاصم -

(١) تفسير السمرقندي (٣٦/١). وانظر: التفسير والمفسرون (١٠٧/١).

(٢) السبعة في القراءات، لابن مجاهد البغدادي (٦١/١)؛ العبر في خير من غير، للذهبي (٢٥٧/١)؛ معرفة القراء الكبار (١٠٧/١)؛ سير أعلام النبلاء (٣٣٦/٧).

(٣) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز (أبو الحسن) الأسدي، مولاهم الكوفي، إمام في النحو واللغة والقراءات، ولد سنة (١٢٠هـ) ولقب بالكسائي: لكسائه أحرم فيه، وقيل: لأنه ألتف في كسائه وهو يتلو على حمزة. قال ابن الأنباري: «اجتمع فيه أنه كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وواحدهم في علم القرآن». قراءته هي إحدى القراءات السبع المتواترة. ومن مصنفاته: «معاني القرآن»، ومختصر في النحو. توفي سنة (١٨٩هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٢٥٩/٣)؛ سير أعلام النبلاء (١٣١/٩).

(٤) السبعة في القراءات (٧٨/١)؛ نفاذ المصاحف، لأبي عمرو الداني (١٣/١)؛ معرفة القراء الكبار (١٢٢/١).

(٥) الوافي بالوفيات (٤٨/٢١)؛ معرفة القراء الكبار (١٢٣/١).

يعني: ابن أبي النجود - نحواً من ثلاث سنين، في الحرِّ والشتاء والمطر، حتى وربما استحييت من أهل مسجد بني كاهل^(١).

* وجاء عن محمد بن علي السلمي رحمته الله أنه قال: «قمت ليلة سحراً لأخذ الثوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً»، وقال: «لم تدركني الثوبة إلى العصر»^(٢).

من يُطبق أن يفعل ما فعله السلمي في زماننا؟ ومن من الآباء والأمهات يرضى أن يخرج ولده من السحر وظلمة الليل؛ لتعلم القرآن، ولا يعود إلا بعد العصر؟!

٥ - تعلم القرآن قبل علوم الشريعة الأخرى:

* جاء عن ابن خزيمة^(٣) رحمته الله أنه قال: «استأذنت أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك، فاستظهرت القرآن، فقال لي: امكث حتى تصلي بالختمة، ففعلت، فلما عيدنا، آذن لي، فخرجت إلى مرو، وسمعتُ بمرور الروذ من محمد بن هشام، صاحب هشيم، فنعى إلينا قتيبة»^(٤).

فهذا من علو همة السلف الضالِح أنهم لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن أولاً؛ لأنه أهم العلوم وأساسها.

٦ - ترك الوطن والمال من أجل تعلم القرآن:

* جاء في سيرة يحيى بن وثاب الأسدي^(٥) رحمته الله أنه دخل هو وأبوه

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠٢/٨). (٢) المصدر نفسه (٥٦٥/١٥).

وانظر: تاريخ مدينة دمشق (١٢٣/٥٦)؛ معرفة القراء الكبار (٢٩٢/١).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة، الحافظ الحجّة الفقيه (أبو بكر) السلمي النيسابوري الشافعي، صاحب الثصانيف. ولد (سنة ٢٢٣هـ) وعُني في حديثه بالحديث والفقه حتى صار يُضرب به المثل في سعة العلم والإتقان. وكان له عظمة في النفوس وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه وأتباعه السُنّة. توفي (سنة ٣١١هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٢/٢٥٩).

(٤) تاريخ الإسلام (٤٢٤/٢٣)؛ سير أعلام النبلاء (٣٧١/١٤)؛ تذكرة الحفاظ (٢/٧٢٢).

(٥) هو الإمام يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي، شيخ المقرئين في زمانه، ثقة، عابد، من الرابعة. قال الأعمش رحمته الله: «يحيى بن وثاب من أحسن الناس قراءة، وربما اشتبهت

الكوفة، وكانت يومئذ حاضرة العلم والعلماء، فطلب من أبيه البقاء بها؛ ليتعلم كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، بملازمة جليّ أهل العلم فيها، مؤثراً ذلك على الذهاب إلى بلده برفقة أهله، قائلاً لأبيه: «يا أبتِ إني آثرتُ العلمَ على المال»، فأذن له والده في المقام بالكوفة، فأقبل على القرآن الكريم، فقرأه على أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث لم يدركه، فقرأ على علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وغيرهم^(١).

٧ - حِفْظُ الْقُرْآنِ بِالرُّوَايَاتِ الْعَشْرِ:

كثيراً ما نقرأ في سير العلماء الكبار أنّ الواحد منهم قد حفظ القرآن عند سنِّ العاشرة أو بعدها بقليل، ولكن أن يُحفظ القرآن بالروايات العشر فهذا من النادر، ويدلُّ على علوِّ في همة المتعلِّم:

* جاء في ترجمة زيد بن الحسن الكندي^(٢) رحمته الله أنه: «حَفِظَ الْقُرْآنَ وَهُوَ صَغِيرٌ مُمَيِّزٌ، وَقَرَأَهُ بِالرُّوَايَاتِ الْعَشْرِ، وَلَهُ عَشْرَةُ أَعْوَامٍ، وَهَذَا شَيْءٌ مَا تَهَيَّأَ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ، ثُمَّ عَاشَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ عِلْمُ الْإِسْنَادِ فِي الْقِرَاءَاتِ وَالْحَدِيثِ»^(٣).

-
- = تقبيل رأسه؛ لحسن قراءته، وكان إذا قرأ لم تحس في المسجد حركة، كان ليس في المسجد أحده. وقال أيضاً: «كنتُ إذا رأيته قلتُ هذا قد وقف للحساب».
- انظر: تقريب التهذيب (١/٥٩٨)؛ معرفة القراء الكبار (١/٦٤).
- (١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٣٧٩).
- (٢) هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي (أبو اليُمن) الملقَّب: تاج الدِّين، البغدادي المولد (سنة ٥٢٠هـ)، الدمشقي النَّار والوفاء (سنة ٥٩٧هـ)، المقرئ، التحوي، المحدث، الأديب، كان أوحد عصره في فنون الأداب، وعلو السَّماع، قال الذهبي رحمته الله: «قرأ القرآن تلقيناً على أبي محمد، سبب الخياط، وله نحو من سبع سنين، وهذا نادر».
- انظر: وفيات الأعيان (٢/٣٣٩)؛ معرفة القراء الكبار (٢/٥٨٦).
- (٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/٣٤).

الفصل الخامس

هجر تلاوة القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة.

المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن.

المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن.

المبحث الأول

مظاهر هجر تلاوة القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مظاهر هجر التلاوة.

المطلب الثاني: بدع التلاوة.

المطلب الأول

مظاهر هجر التلاوة

هجر تلاوة القرآن الكريم - في الواقع المعاصر - يأخذ مظاهر عدّة، وتتفاوت هذه المظاهر فيما بينها من حيث درجة تعاضلها حسب الحالة ذاتها، وحسب صاحبها؛ فربما كان تشاغلاً بأمرٍ من أمور الدنيا، أو كان زهداً في أجر التلاوة، أو تكاسلاً عنها، أو جهلاً بفضائلها الكثيرة وثمارها اليانعة، أو غير ذلك.

ومظاهر هجر التلاوة تُجمل في نقاطٍ عدّة، وهي:

١ - الانقطاع عن التلاوة لفترات طويلة، فبعضهم لا يتلو القرآن إلا يوم الجمعة، أو في شهر رمضان، أو في الحجّ أو العمرة، أو عند نزول مصيبة، أو فقد قريب.

٢ - قلة التلاوة والزهد في أجرها.

٣ - هجر التلاوة في البيوت، أو في وسائل التنقل المريحة أثناء السفر، كالطائرات، والسيارات، والقطارات، والسفن.

٤ - اعتناء القارئ بالكلم دون الكيف أثناء التلاوة.

٥ - الجهل بأحكام التجويد، وعدم الحرص على تعلّمها وتطبيقها.

٦ - عدم الخشوع أثناء التلاوة، فكثيراً ما يجول الفكر في كل مكان عند تلاوة القرآن.

٧ - ترك الالتزام بآداب التلاوة، ومنها: اختيار الزمان والمكان المناسبين، والاستعاذة قبلها، وحسن الوقف والابتداء، والوقوف عند رؤوس الآيات، والتسبيح عند آيات التسبيح، والتعوذ عند آيات العذاب، وسؤال الرحمة عند آيات الرحمة، والسجود عند المرور بآية سجدة، وهكذا.

٨ - عدم التزام الأدب في حمل المصحف أو وضعه أثناء التلاوة، وبعض صغار القراء ربّما كتبوا على مصاحفهم أو مرّقوا بعض أوراقها.

- ٩ - عدم تخصيص أوقات لتلاوة القرآن، بل ربّما كانت التلاوة في الأوقات المفضولة.
- ١٠ - عدم استشعار فضائل وثمرات تلاوة القرآن.
- ١١ - قلة احتساب الأجر وضعف النية في التلاوة.
- ١٢ - ضعف الهمة وعدم الصبر على هذه العبادة العظيمة.
- ١٣ - عدم وضوح الهدف والغاية من قراءة القرآن.
- ١٤ - جعل تلاوة القرآن وسيلة ومطية لنيل حظوظ دنيوية، كالقراءة في المآتم والعزاء، وافتتاح الحفلات، وسائر المناسبات الشرعية كشهر رمضان.
- ١٥ - الحصول على شهادات عالية في مختلف التخصصات العلمية والأدبية مع عدم إتقان تلاوة القرآن.
- ١٦ - تبوء المناصب القيادية في الوزارات والشركات والهيئات والمؤسسات مع عدم إجادة التلاوة.
- ١٧ - ما يفعله بعض الفساق من تلاوة القرآن بقصد تقوية مخارج الحروف؛ لأداء أفضل في الغناء!!
- ١٨ - القراءة بقصد التبرُّك بالقرآن دون أن يتبع ذلك عمل وتطبيق لما يتلوه.

المطلب الثاني

بِدَعِ التَّلَاوَةِ

ابتدع بعض القراء في قراءة القرآن أشياء كثيرة لا تحل؛ لأنها إما زيادة على الحدِّ المتفق عليه في تلاوة القرآن، وإما نقص عن ذلك.

ومن هذه الأمور المبتدعة في التلاوة ما يلي:

١ - التَّنَطُّعُ فِي الْقِرَاءَةِ، وَالْوَسْوَسَةُ فِي مَخَارِجِ الْحُرُوفِ:

ومعنى ذلك: التّعسف والإسراف المتكلف في القراءة، وعدم القراءة بسهولة واستقامة، كما أمر تعالى بقوله: ﴿وَرَزَّلْنَا الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وقوله

تعالى: ﴿وَوَلَّيْنَاهُ تَرْبِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]. وعدم إعطاء الحروف حقها من الصفات والأحكام، والخروج بذلك كله إلى التجويد المتكلف.

ومما ذكره ابن القيم رحمته في سياق حديثه عن مصائد الشيطان لبعض القراء: «ومن ذلك الوسوسة في مخارج الحروف، والتنطع فيها... ومن تأمل هذي رسول الله ﷺ وإقارزه أهل كل لسان على قراءتهم يتبين له أن التنطع والتشذق، والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته^(١)».

٢ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب^(٢) إلى لحن العجم:

قال ابن القيم رحمته: «قال محمد بن قتيبة في (مشكل القرآن): وقد كان الناس يقرؤون القرآن بلغاتهم، ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلف، فهفوا في كثير من الحروف، وزلوا وأخلوا، ومنهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقربه من القلوب بالدين. فلم أر فيمن تتبعت في وجوه قراءته أكثر تخليطاً ولا أشد اضطراباً منه؛ لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره. ثم يؤصل أصلاً ويخالفه إلى غيره بغير علة، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة، هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المد والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام، وحمليه المتعلمين على المذهب الصعب، وتغسيره على الأمة ما يسره الله تعالى، وتضييقه ما فسحه. ومن العجب أنه يُقري الناس بهذه المذاهب، ويكره الصلاة بها. ففي أي موضع

(١) إغاثة اللهفان من مصابد الشيطان (١/٢٥٢، ٢٥٤).

(٢) معنى اللحن: جاء في «لسان العرب» (٢٥٥/١٢): «اللحن، واللحن، واللحن، واللحن، واللحن: ترك الصواب في القراءة». وجاء في «المفردات في غريب القرآن» (ص ٤٢٥): «اللحن: صرف الكلام عن سنته الجاري عليه، إما بإزالة الإعراب، أو التضحيف، وهو المذموم». وجاء في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/٢٤١): «اللحن: الميل عن جهة الاستقامة. يقال: لحن فلان في كلامه، إذا مال عن صحيح المنطق». فمعنى لحن العرب، أو لحن العرب: هي قراءة الإنسان بحسب جبلته وطبيعته على طريقة العرب الرباء الذين نزل القرآن بلغتهم. انظر: القرآن الكريم: تاريخه وآدابه، لإبراهيم علي عمر (ص ٢٠١).

تُستعمل هذه القراءة، إن كانت الصلوة لا تجوز بها؟^(١).

٣ - القراءة بالبحان أهل الفسق والفجور^(٢):

وَصَفَ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيُّ^(٣) حَالَ أَصْحَابِ الْأَلْحَانِ - الَّذِينَ ظَهَرُوا فِي الْقُرْنِ الرَّابِعِ - أَنَّ مَقْصُودَهُمْ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسَمَاعِهِ هُوَ الْوَصُولُ إِلَى الْقُرْبِ وَالتَّغْمَاتِ وَالْأَلْحَانِ، لَا تَدْبِيرَ الْقُرْآنِ، وَتَفْهَمَ مَعَانِيهِ، فَقَالَ: «فَالثَّالِثِي مِنْهُمْ وَالسَّامِعُ لَا يَقْصِدُونَ»^(٤) فَهَمَّ مَعَانِيهِ؛ مِنْ أَمْرٍ، أَوْ نَهْيٍ، أَوْ وَعْدٍ، أَوْ وَعِيدٍ، أَوْ وَعِظٍ، أَوْ تَخْوِيفٍ، أَوْ ضَرْبٍ مَثَلٍ، أَوْ اقْتِضَاءٍ حُكْمٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَنْزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلذَّلَّةِ وَالطَّرْبِ وَالتَّغْمَاتِ وَالْأَلْحَانِ؛ كَنَقْرِ الْأَوْتَارِ، وَأَصْوَاتِ الْمَزَامِيرِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ بِذِمِّ قَرِيشًا: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَافَةً وَتَصَدِيَةً» [الأنفال: ٣٥]،^(٥).

ولذلك لا تتعجب ولا تأخذك الدهشة والحيرة عندما تجد في تراجم بعض مشاهير القراء - في زماننا - بأنه عارف بالبحان الموسيقي والغناء، حتى صرح بعضهم في الإذاعة عندما كان يُسأل عن سبب شهرته؟ فأجاب: الفضل في ذلك يرجع إلى تعلُّم الألبان الموسيقيَّة! ولقد تعلَّمتُ السُّلَمَ الموسيقي من بعض الفنانين!^(٦).

(١) إغاثة اللهفان من مصاديق الشيطان (١/٢٥٢ - ٢٥٣).

(٢) لابن الكيِّان الدمشقي ثقة المتوفى سنة (٩٢٩هـ) رسالة باسم: «الأنجم الزواهر»، في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر» وهي مخطوطة. انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٦٥).

(٣) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الأندلسي، الطَّرْطُوشِيُّ، عالم الإسكندرية. وطَّرْطُوشِيَّة: هي آخر حدِّ المسلمين من شمالي الأندلس. ولد سنة (٤٥١هـ). قال ابن بشكَّوَالِ: «كَانَ إِمَامًا، عَالِمًا، زَاهِدًا، وَرِعًا، دِينًا، مُتَوَاضِعًا، مُتَقَشِّفًا، مُتَقَلِّلاً مِنَ الدُّنْيَا، رَاضِيًا بِالسَّيْرِ»، توفي سنة (٥٢٠هـ). ومن مصنفاته: «تحريم الغناء»، و«بر الوالدين»، و«الرُّدُّ عَلَى الْيَهُودِ».

انظر: وفيات الأعيان (٤/٢٦٢)؛ النجوم الزاهرة (٥/٢٣١).

(٤) أي: لا يريدون. (٥) الحوادث والبلد (ص ٨٧).

(٦) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٣٢).

٤ - قراءة الأنغام والتَّمطيط:

وتسَمَّى أيضاً: «قراءة التَّرْقِيس»؛ لأنه يُدْخِلُهَا أحياناً رِكْضاً وِرْكْلًا - أي: ضرب بالقدمين.

وقيل: معنى التَّرْقِيس: أنَّ الشَّخْصَ يُرْقِصُ صوته كالمْتَكْسِرِ الذي يفعل الرِّقْصَ. وقال بعضهم: هو أن يروم السَّكْتَ على السَّاكِنِ، ثم ينفِرُ عنه مع الحركة في عَذْوٍ وهرولة^(١).

قال الشَّيْخُ بَكر أبو زيد^(٢) - حفظه الله - عن بدعة التَّرْقِيس: «وكنْتُ أَظنُّهَا مِمَّا انْقَرَضَ، لكنِّي شاهدْتُهَا لدى بعض الطَّرِيقَةِ، في ساحة مسجد الحسين بمصر عام (١٣٩١هـ)، وهم في غاية من الاستفراق، والاعتزاز بمشاهدة النَّاسِ لهم، فلَمَّا ناصحتُ أعدم وجدته في غاية من الجهل، والانصراف عن النَّصْحِ»^(٣).

٥ - قراءة التَّحْزِينِ والتَّطْرِيبِ:

وهو أن يترك القارئ طباعه وعادته في التَّلَاوةِ، ويأتي بها على وجوهٍ أخرى، كأنه حزين يكاد أن يبكي من خشوع وخضوع.

ولأنَّما نهي عن قراءة التَّحْزِينِ والتَّطْرِيبِ لما فيها من الرِّبَاةِ من جهة، ومن ترديد الأصوات، وكثرة التَّرْجِيعات من جهة أخرى^(٤).

٦ - قراءة التَّحْرِيفِ:

وهو أنَّ عدداً من القراء يقرؤون بصوت واحد، ويُقَطِّعون القراءة، فيأتي

(١) انظر: القرآن الكريم: تاريخه وأدابه (ص ٢٠٢).

(٢) هو بكر بن عبد الله أبو زيد، ينتهي نسبه إلى سويد بن زيد القضاعي، من قبيلة بني زيد القضاعية المشهورة في حاضرة الوشم، وعالية نجد، وفيها ولد عام (١٣٦٥هـ)، وبجانب دراسته النظامية، لديه نحو عشرين إجازة من علماء الحرمين والرياض والمغرب والشام والهند وأفريقيا وغيرها. ومن أبرز مشايخه العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، حيث لازمه نحو عشر سنين، وله مشاركات قيِّمة في التأليف بلغت زهاء السبعين مؤلفاً.

انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١/١٥ - ٢٣).

(٣) تصحيح الدعاء (ص ٢٦٦).

(٤) انظر: جمال القراء، للسخاوي (٢/٥٢٨).

بعضهم ببعض الكلمة، والآخر ببعضها الآخر، فيقولون في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَمَقُّلُونَ﴾ (أفل تعقلون) بحذف الألف، و(قَالَ أَمْنَا) بحذف الواو، ويمدُّون ما لا يمدُّ؛ ليستقيم لهم الطريق التي سلكوها.

فهؤلاء المُحرِّفة يحافظون على مراعاة الأصوات، ولا ينظرون إلى ما يترتب على ذلك من الإخلال بالثواب، فضلاً عن الإخلال بتعظيم كلام الجبار^(١).

٧ - قراءة التَّرعيد:

ومعناه أن الشخص يُرعد صوته بالقرآن، كأنه يرعد من بردٍ أو ألمٍ أصابه. ومن المناسب أن أسوق كلاماً نقيساً وجامعاً للذهبي **كَتَبَهُ** وهو يندب حال أكثر القراء في عصره، حيث يقول:

«**فالقراء المَجُودَة: فيهم تنطع** وتحرير رائد يذُدي إلى أن المَجُود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنتع في تجويدها؛ بحيث يشغله ذلك عن تدبُّر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة لله، ويخلِّيه قويِّ النفس مُزدياً بحفاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المقت، وبأن المسلمين يُلحنون، وبأن القراء لا يحفظون إلا شواذ القراءة، فليت شعري أنت ماذا عرفت، وما علمك؟! فأما عملك فغير صالح، وأما تلاوتك فثقيلة عريّة عن الخشية والحزن والخوف، فالله يُوقِّفك ويبصرك رُشدك، ويوقظك من رقة الجهل والرياء.

وهلَّهم قرَّاء التَّنَمِّ والتَّمطيط: وهؤلاء من قرأ منهم بقلب وخوف، قد يُنتفع به في الجملة، فقد رأيت من يقرأ صحيحاً، ويُطرب ويُكي، ورأيت من إذا قرأ قسى القلوب، وأبرم النفوس، وبذل كلام الله تعالى، وأسوأهم حالاً الجنائزية.

وأما القراءة بالروايات وبالجمع: فأبعد شيء عن الخشوع، وأقدم شيء على التلاوة بما يخرج عن القصد، وشعارهم في تكثير وجوه حمزة، وتغليظ تلك اللآمات، وترقيق الرِّاءات.

(١) انظر: الإنفان في علوم القرآن (١/٢٧٠).

اقرأ يا رجل وأعفنا من التغليب، والترقيق، وفربط الإمالة، والمدود،
ووقوف حمزة، فإلى كم هذا؟!

وآخر منهم إن حضرَ في ختمة، أو تلا في محراب؛ جعل ديدنه إحضار
غرائب الوجوه، والسكّات، والتّهوُّع بالتسهيل، وأتى بكلّ خلاف، ونادى على
نفسه: أنا أبو فلان، فاعرفوني فإني عارف بالسبع.

إيش يُعمل بك؟ لا صَبَّحك الله بخير، إنك حجر منجنيتي، ورسا صُ على
الأفتدة^(١).

ولذلك أشار بعضهم فقال:

يَحْدِرُ وَتَحْقِيقِي وَدَوْرٍ مُرْتَلَا	حُدُودُ حُرُوفِ الذِّكْرِ فِي لَفْظِ قَارِي
يُرَاعِي حُدُودَ الْحَرْفِ وَزُنًا وَمَنْزِلَا	فَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَعْضَ يَتْلُو الْقُرْآنَ لَا
وَمِنْهُمْ بِتَرْعِيدٍ وَنَوْحٍ تَبَدُّلَا	فَمِنْهُمْ بِتَرْقِيبِ وَلَحْنٍ وَصَجَّةٍ
وَلَا كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ مَجْمَلَا	فَمَا كُلُّ مَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ يُقِيمُهُ
وَحُذً نُظِقَ عُرْبٌ بِالْفَصَاحَةِ سُؤْلَا	فَدَزَّ نُظِقَ أَعْجَامٌ وَمَا اخْتَرَعُوا بِهِ
يُضَاعِفُ لَكَ الرَّحْمَنُ أَجْرًا فَأَجْزَلَا ^(٢)	فِيَا قَارِي الْقُرْآنِ أَجْمَلُ أَدَاءَهُ

٨ - هَذِهِ كَهَذَّ الشُّعْر:

أما هذه «خندراً» بمعنى إدراج القراءة مع مراعاة أحكامها وسرعتها بما
يوافق طبعه، ويخفُّ عليه، فلا تدخل تحت النهي، بل هذه من أنواع القراءة
المشروعة.

٩ - القراءة بالإدارة:

وهي تناوب المجتمعين في القراءة جماعياً آيةً، أو آيات، أو سورة، أو
سوراً، إلى أن يتكاملوا بالقراءة، وهذا بخلاف الاجتماع المشروع لتدارس
القرآن.

(١) بيان زغل العلم والطلب، للذهبي (ص ٢٥ - ٢٧).

(٢) القرآن الكريم: تاريخه وآدابه (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

١٠ - قراءة القرآن في مجلس شُرْب الدُّخَان:

اشتدَّ نكير العلماء على من قرأ القرآن الكريم وهو يشرب الدُّخَان، أو في مجلس يُشرب فيه، وأفردت فيه رسائل لبعض علماء مصر.

١١ - القراءة والإقراء بشواذِّ القراءات:

ومما قاله ابن الجوزي رحمته في سياق ذكر تلبس إبليس على بعض القراء: «فمن ذلك: أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها، فيُفني أكثر عمره في جمعها، وتصنيفها، والإقراء بها، ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات، وربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء، ولا يعرف ما يفسد الصلاة، وربما حمله حبُّ التصدُّر - حتى لا يرى بعين الجهل - على ألا يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويظهر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع.

ومن الغبن الفاحش: تضييع الزمان فيما غيره الأهم، قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً. يعني أنهم اقتصروا على التلاوة، وتركوا العمل به»^(١).

١٢ - جَمْع القراءات في مجلس واحد:

يقع بعض القراء في نوع من الرِّياء والسُّمعة والمباهاة حين يجمع بين قراءتين فأكثر، في آية واحدة، في الصلاة أو خارجها في مجامع النَّاس. وليس من ذلك بيانها في دروس التفسير، وإظهار وجوه القراءات من المَعلمين للمتعلمين^(٢).

وهذا ما صرح به ابن تيمية رحمته بقوله: «وأما جمعها - القراءات - في الصلاة، أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة، وأما جمعها لأجل الحفظ والدُّرس

(١) تلبس إبليس (ص ١٣٠).

(٢) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٦٩ - ٢٧٢).

فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة^(١).

وقال الحُصري^(٢) تَكَلَّفَ: «فليعلم إخواننا القراء - وفقهم الله - أن الله تعالى قد حملهم أمانة تلاوة كتابه، وألزمهم فيها التأدب بأدابه، والاتباع لسنة رسوله فيها، والنهي عما فيه إخلال بحقها، أو ابتداع فيها، والقراءة سنة مأثورة، وجعل جزاء تقصيرهم في ذلك مضاعفاً بقدر ما منحهم الله من العلم بأحكام التلاوة؛ لذلك أَدَعَوْهم - هداني الله وإياهم - إلى القيام بحق كتابه وترك ما اعتادوه في هذا العصر من الجَمْع بين القراءات في المحافل، فإنه - كما نصّ عليه الأئمة الثقات، وهم القدوة في هذا الشأن - بدعة مستحدثة، غير معروفة، لا عند السلف، ولا عند الخلف^(٣)».

١٣ - قول السامع للقارئ «الله، الله»:

فهذه ألفاظ شريفة يبني ألا يوظفها السامع للقارئ، والمطلوب هو التدبر والاستماع والإنصات، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

١٤ - التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة:

قول القائل: «صدق الله العظيم» في نفسها حق، لكن لم يثبت عن النبي ﷺ، أنه قالها بعد الانتهاء من تلاوة القرآن مع كثرة قراءته وسماعه للقرآن، وكذلك لم يُعهد عن الصدر الأوّل ﷺ أنهم كانوا يتلفظون بذلك عند الانتهاء من تلاوتهم، ولم يُعرف ذلك عند السلف الصالح من بعد الصحابة^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٤٠٤).

(٢) هو محمود بن خليل الحُصري، شيخ المقارئ المصرية، ولد سنة (١٣٣٥هـ) وكان صاحب مخارج قوية، وذا صوت رزين، وكان ممن يتبع السلف الصالح في طريقته في قراءة كتاب الله تعالى فما يحيد عنه قيد أنملة. وهو أوّل من سجل المصحف المرتل للإذاعة، وأوّل من أوفد بعثات دينية بالخارج، لتلاوة القرآن الكريم في العالم الإسلامي. توفي سنة (١٤٠١هـ). انظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (٣/٢٥٩٢ - ٢٥٩٣).

(٣) القرآن: آداب تلاوته وسماعه (ص ٢٩).

(٤) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤/١٤٩)، فتوى رقم: (٣٣٠٣).

فالتزام هذا الذكر «صدق الله العظيم» بعد قراءة القرآن التزام مُخترع مُحدث لا دليل عليه، وكلُّ مُحدثٍ في العبادات فهو بدعة^(١).

١٥ - بِدَعِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ:

هناك بدع كثيرة ومتنوعة تتعلق بقراءة الفاتحة، ومن ذلك:

• قراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء!

• قراءة الفاتحة عند شرط خطبة الزواج، واعتقادهم أنَّ قراءتها عهد لا يُنقض، أو أنها تعدل أربعة وأربعين يمينا^(٢).

• قول بعضهم - بعد قراءة القرآن: الفاتحة^(٣).

• قول بعضهم: الفاتحة على روح فلان عند أي مناسبة^(٤).

• قراءة الفاتحة بعد الدعاء من البدع^(٥).

• قراءة الفاتحة بعد صلاة الفريضة^(٦).

• قراءة الفاتحة جهراً بعد التسليم من صلاة الجنائز، وعند رأس الميت، والمناداة بقراءة الفاتحة عند المرور بالمقابر^(٧).

١٦ - قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْقَبْرِ:

قال ابن تيمية **تَكْتَفَى**: «والقراءة على الميت بعد موته بدعة»^(٨).

وأكد ذلك تلميذه ابن القيم **تَكْتَفَى** بقوله: «وكان من هديه **تَكْتَفَى**، تعزية أهل

الميت، ولم يكن من هديه أن يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا

(١) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٩١ - ٢٩٢).

(٢) انظر: السنن والمبتدعات، لمحمد بن أحمد بن عبد السلام الشقيري (ص ١٩١ - ١٩٢)؛ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢/٥٣٨)، فتوى رقم: (٨٩٤٦).

(٣) انظر: بدع القراء القديمة والمعاصرة، د. بكر أبو زيد (ص ٢١).

(٤) انظر: أحكام الجنائز وبدعها، للالباني (ص ٧).

(٥) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢/٥٢٨)، فتوى رقم: (٥٨٨١).

(٦) انظر: المصدر نفسه (٢/٥٣٩)، فتوى رقم: (٩٥٠٩).

(٧) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٧٦). (٨) الاختيارات الفقهية (ص ٩٢).

غيره، وكلُّ هذا بدعة حادثة مكروهة^(١).

وأورد هنا كلاماً نفيساً للألباني رحمته، حيث يقول في السِّياق نفسه: «قراءة القرآن عند زيارة المقابر، أو عندها، لا أصل له في السُّنة، إذ لو كانت القراءة مشروعة لفعلها رسول الله ﷺ وعلمها أصحابه، لا سيما وقد سأله عائشة رضي الله عنها وهي من أحبِّ الناس إليه - عمّا تقول إذا زارت المقابر، فعلمها السُّلام والدُّعاء، ولم يعلمها أن تقرأ الفاتحة أو غيرها من القرآن؛ فلو أن القراءة كانت مشروعة لما كنتم ذلك عنها، كيف وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما تقرّر في علم الأصول، فكيف بالكتمان^(٢)».

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٥٢٧).

(٢) أحكام الجنائز وبدعها (ص ٢٤١).

المبحث الثاني

أسباب هجر التلاوة

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الانشغال بالدُّنيا.

المطلب الثاني: ضعف الهمة.

المطلب الثالث: الجهل بشرات قراءة القرآن.

المطلب الرابع: تقديم العلوم الأخرى على القرآن.

المطلب الخامس: الحرب المعلنة على القرآن واللُّغة.

أسباب هجر التلاوة

تمهيد:

كثير من المسلمين هجروا تلاوة القرآن هَجْرًا لم تعرفه الأمة من قبل، فربما تمرُّ الأيام والأسابيع بل الشهور على بعض أبناء أمة القرآن، وأمة اقرأ، من غير أن يفتح مصحفًا، أو يقرأ آيات من كتاب الله، سوى التلاوة أثناء الصلاة، على الرغم من حرصهم الشديد على قراءة الصحف والمجلات، ومتابعة الفضائيات، بلهف وشوق، والتي تعرض أخبار أهل اللهو والفساد. وكم من بيوت خربة، وصدور جوفاء تعيش بيننا، ولا تدري عن هذا الخراب شيئاً.

وهذه المظاهر المتنوعة لهجر تلاوة القرآن - التي تقدّم ذكرها - لها أسباب كثيرة ومتعددة تختلف من شخص لآخر، وسأبرز - في عجالة - أهم الأسباب التي تؤدّي إلى هجر التلاوة، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الانشغال بالدنيا

لقد انشغل الناس بالدنيا انشغالاً أدى بهم إلى مواصلة الليل بانتهار؛ لسد حاجاتهم الكمالية فضلاً عن الضرورية، وقلّما يجد أحدهم وقتاً يقرأ فيه القرآن أو يستمعه، فما أن يعود إلى بيته فيجد نفسه منهكاً متعباً يتمنى رؤية الفراش، جراء لهاته وراء المصالح الدنيوية.

ولا أجد لهذا الصنف من الناس مثلاً إلا ما قاله رسول الله ﷺ: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِبِكُمُ كَمَا أَلْهَتَهُمْ»^(١).

(١) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الرقاق، باب: ما يُخَذَّرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا

ولو يعلم هؤلاء الغاية التي خُلقوا من أجلها؛ لتغير حالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُبَدِّلُوا دِينَهُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فهذا تصريح بأن الله تعالى خَلَقَهُمْ لعبادته، فحق عليهم أن يعتنوا بما خُلقوا من أجله، وأن يعرضوا عن حظوظ الدنيا بالزهد فيها، فإنها دار نفاذ لا محل إخلاص، ومركب عبور لا منزل حبور، فملكها يفنى، وجديدها يبلى، وكثيرها يقل، وعزيزها يذل، وحبها يموت، وخيرها يفوت، ولهذا كان الأبقاظ من أهلها هم العباد، وأهمل الناس فيها هم الرُفَّاد، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لَفَيُّوَةِ الدُّنْيَا كَالَّذِينَ كَفَّوْا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَنَخَلَّطَ بِهِ نَجَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فينبغي للعاقل أن يعمل للأخرة، ويسعى لها، وأن يأخذ من الدنيا بقدر ما يوصله إلى الأخرة، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِكْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ﴾ [القصر: ٧٧].

ولقد أحسن القائل:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا	طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نظروا فيها فلمَّا علموا	أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحْيٍ وَطِنَا
جعلوها لجةً واتخذوا	صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُنَانَا ^(١)

المطلب الثاني

ضعف الهمة

ضعف الهمة من الأمراض التي تكاد تعصف بالكثير من المسلمين، فلا تكاد تجد مَنْ يحافظ على شيء، أو يهتم به؛ لضعف الهمة، فما أن يمسك المرء المصحف يوماً حتى يتركه أياماً.

= (٢٠١٩/٤) (ح ٦٤٢٥)، ومسلم، كتاب الزهد والرفق (٤/٢٢٧٣) (ح ٢٩٦١).

(١) انظر: رياض الصالحين للنووي (ص ٣)؛ فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٢٢ - ٢٤).

وقد تَضَعُفُ الهمة عن مطلبٍ من مطالب الدنيا، أما عن مطلبٍ من مطالب الآخرة فلا، وهذا ابن القيم **رَكَّة** يتحدث عن ضعف الهمة بقوله: «لا شيء أقبح بالإنسان أن يكون غافلاً عن الفضائل الدنيئة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، فمن كان كذلك فهو من الهَمَجِ الرَّعَاعِ، الذين يُكَدِّرون الماء، ويغفلون الأسعار، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد، فقدمهم راحة للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السماء، ولا تستوحش لهم الغبراء...»

وهذا الصنف شرُّ البرية، يُضَيِّقون الدِّيارَ، ويغفلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرُّهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون...»^(١).

ومن الأدوية الثبوتية لعلاج ضعف الهمة: المداومة على الأعمال الصالحة والاستمرار عليها، وإن قلت.

فمن عائشة **رَضِيَ** عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى** اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هِيَ؟». قَالَتْ: «فُلَانَةٌ - تَذَكَّرُ مِنْ صَلَاتِهَا - قَالَ: «مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا». وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»^(٢).

قال ابن الجوزي **رَكَّة**: «إنما أحبُّ الدائم لمعينين: أحدهما: أن المُقْبِلِ على الله **صَلَّى** اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعمل، إذا تركه من غير عذر، كان كالمُعْرِضِ بعد الوصل، فهو مُعْرِضٌ لِلذَّمِّ، ولهذا ورد الوعيد في حقِّ مَنْ حَفِظَ آيَةَ ثُمَّ نَسِيَهَا»^(٣)، وإن كان قبل

(١) مفتاح دار السعادة (١/١١٠، ١١٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أحبُّ الدِّينِ إلى الله أَدْوَمُهُ (٣٨/١) (ح ٤٣).

(٣) الحديث الولد في ذلك ضعيف، ولفظه: عن أنس بن مالك **رَضِيَ** اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى** اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَرِضْتُ عَلَيَّ أَجُورٌ أُثْمِي، حَتَّى الْقَدَاءُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَعَرِضْتُ عَلَيَّ ذُنُوبٌ أُثْمِي، فَلَمْ أَرِ ذَنْبًا أَكْبَرَ مِنْ سُورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ آيَةٍ أَوْتِنَهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا». رواه الترمذي (١٧٨/٥) (ح ٢٩١٦) وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وذاكرت به محمد بن إسماعيل (أي: البخاري) فلم يعرفه واستغربه». وفي الحديث المُظْلَبِ (الراوي عن أنس) لم يُعرف له سماعاً من الصحابة، كما صرح بذلك البخاري وابن المديني رحمهما الله.

حفظها لا يتعين عليه الحفظ، ولكنه أعرض بعد المواصلة، فلاق به الوعيد، وكذلك يُكره أن يؤثر الإنسان بمكانه من الصف الأول؛ لأنه كالرَّاغِب عن القُرْب إلى الله ﷻ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام - لعبد الله بن عمرو: «لا تُكُنْ مِثْلَ فَلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»^(١).

والثاني: أن مداوم الخير ملازم للخدمة، فكأنه يتردد إلى باب الطاعة كل وقت، فلا يُنسى من البر لتردده، وليس كمن لازم الباب يوماً دائماً ثم انقطع شهراً كاملاً^(٢).

وفي الحديث عدة فوائد ذكرها النووي رحمه الله بقوله: «وفي هذا الحديث كمال شفقتك ﷻ ورافته بأمته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر، فتكون النفس أنشط والقلب منشراحاً فتتم العبادة، بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشقُّ، فإنه بصدد أن يتركه، أو بعضه، أو يفعله بكلفة، وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم...»

وفيه الحثُّ على المداومة على العمل، وأنَّ قليله الدائم خير من كثير ينقطع. وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع؛ لأنَّ بدوام القليل تدوم الطاعة، والذكر، والمراقبة، والنِّيَّة، والإخلاص، والإقبال على الخالق ﷻ، ويُثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة^(٣).

وهكذا كان علماؤنا - رحمهم الله - أعرف بدقائق النفس الإنسانية من علماء النفس اليوم.

= وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (ص ٣٥١) (ح ٥٥٨)؛ و«ضعيف الجامع الصغير» (٩/٤) (ح ٣٧٠٢).

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب: ما يُكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه (١/ ٣٤٣) (ح ١١٥٢)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر... (٤١٨/٢) (ح ١١٥٩).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٧١).

المطلب الثالث

الجهل بثمرات قراءة القرآن

إنَّ جَهْلَ الكثير من أبناء المسلمين بثمرات تلاوة القرآن، وفضائلها من الثواب المترتب على ذلك، والمصالح الدنيويَّة والأخرويَّة، لمن أكبر الدَّواعي لهجر التلاوة، وعدم الاعتناء بها والحرص عليها.

ولو يعلم المسلم ما في تلاوة القرآن العظيم من الفضل العظيم، والثواب الجزيل، ومنزلة قارنه في الدُّنيا والآخرة؛ لجعله أنيسه آناء اللَّيل وأطراف النَّهار، وما غفل عنه طرفه عين.

ومن ثمرات التلاوة التي جاءت بها الأحاديث الصَّحيحة، والآثار الواردة عن الصَّحابة والتَّابعين رضي الله عنهم ما يلي:

١ - أن قارئ القرآن في مصافِّ العظماء، ومن أفضل النَّاس، وأعلام درجة.

٢ - يُكتب للقارئ عن كلِّ حرفٍ حسنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالها.

٣ - تشمل القارئ ظلَّةُ الرَّحمة، ويحاط بالملائكة، وتتنزَّل عليه السكينة.

٤ - يُضيءُ اللهُ قلبَ القارئ، ويقيه ظلماتِ يوم القيامة، ويُبعد عنه الشَّدائد.

٥ - القارئ رائحته زكيَّة، ومذاقه حُلُوٌّ كالأنرجة، ومن هنا فهو جليسٌ صالح يقترب إليه الصَّالحون العاملون؛ لِيَشْمُوا من عطره، وينفحوا من شذاه.

٦ - قارئ القرآن لا يحزنه الفرع الأكبر؛ لأنَّه في حماية الله، ولأنَّ القرآن يشفع له.

٧ - قارئ القرآن سبب في رحمة والديه، وإغداقهما بالنَّعيم، جزاءً لقراءة ابنهما.

٨ - قارئ القرآن يرقى إلى قمَّة المعالي في الجنَّة، ويصعد إلى ذرْوَةِ النَّعيم.

٩ - يغبط الصَّالحون قارئ القرآن ويتمنون أن يكونوا في درجته السَّامية عند الله تعالى، ويؤدُّون أن يعملوا مثله.

١٠ - قارئ القرآن تدعو له الملائكة الكرام بالرحمة والمغفرة.

- ١١ - قارئ القرآن مُستمسك بالعروة الوثقى، ويتمتع بالشفاء الناجع، ويُعصم من الزَّيغ، وينجو من الشَّدائد.
- ١٢ - قارئ القرآن من أهل الله وخاصته المتقربين إليه، ومن العاملين الشُّوفين بطاعة الله والقانتين له^(١).
- ١٣ - قارئ القرآن يرتفع به درجات في الدنيا أيضاً، إذ يرفع الله به أقواماً، ويخفض آخرين، ممن أعرضوا عنه أو هجروه.
- ١٤ - قارئ القرآن يُكتب عند الله من الذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات، والقانتين والقانتات.
- ١٥ - الماهر بالقرآن يُبعث يوم القيامة مع الشُّفرة الكرام البررة.
- ١٦ - قارئ القرآن يتعد عنه الشياطين، وتخرج من بيته.
- ١٧ - قارئ القرآن يستنير عقله، ويمتلئ قلبه بالحكمة، وتتفجر منه ينابيع العلم.
- ١٨ - قارئ القرآن فيه قبس من النُّبوة، غير أنه لا يُوحى إليه.
- ١٩ - حامل القرآن لا يجهل مع مَنْ يجهل؛ لأنَّ القرآن في جوفه، يحميه من الجذَّة والغضب.
- ٢٠ - تلاوة القرآن الكريم تعمر القلوب والبيوت، ويعمُّها الخير والبركة.
- ٢١ - تلاوة القرآن تُورث القلب خشوعاً، والنفس صفاءً.
- ٢٢ - قارئ القرآن يسأل الله تعالى به فيجيبه، ولا سيِّما عند دعاء الختم، فضلاً من الله تعالى وكرماً.
- ٢٣ - أهل القرآن يذكُرهم الله ﷻ فيمنَّ عنده، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً.
- ٢٤ - في تلاوة القرآن غنى لأهله، تُسعدُ به قلوبهم كما يسعد صاحب الأموال بماله، وهو غنى لا دخل فيه^{(٢)(٣)}.

(١) انظر: تعليق مصطفى محمد عمارة على «الترغيب والترهيب»، للمنذري (٢/٣٥٨).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٤/١١٨٣).

(٣) انظر: المبحث الرابع «فضائل تلاوة القرآن» من هذا الفصل.

المطلب الرابع

تقديم العلوم الأخرى على القرآن

من تليس إبليس على بعض الناس أن يشغله بطلب شتى العلوم سوى علم الكتاب والسنة، ويومه أنه على سبيل نجاة ما دام يطلب العلم، فأى علم حصل من فاته علم الكتاب والسنة؟ وأي خير فاته؟ بل القرآن العظيم مُقَدَّم في الطلِّب حتى على تعلُّم السنة.

قال حذيفة رضي الله عنه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»^(١).

قال ابن حجر رحمته الله: «قوله: (ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ) كذا في هذه الرواية بإعادة (ثُمَّ)، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن، والمراد بالسنن: ما يتلقونه عن النبي ﷺ واجباً كان أو مندوباً»^(٢).

فعدم المنهجية لدى كثير من طلاب العلم، وعدم التلقي عن العلماء يجعلهم يتخبطون في الطلِّب حتى يقدموا كلام البشر على كلام رب البشر، ويُقبلوا على حفظ المتون في شتى الفنون، وما حفظوا كلام الله الذي هو أساس العلوم وأهمها، وما هكذا فعل السلف الصالح، ولا هذه طريقتهم في طلب العلم، ولم يكن هذا هديهم المبارك^(٣).

قال شعبة بن الحجَّاج^(٤) رحمته الله - لأصحابه: «يا قوم إنكم كلما تقدَّمتم في

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب: إذا بقي في خُتَالَةٍ مِنَ النَّاسِ (٤/٢٢١٧) (ح٧٠٨٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٥٠).

(٣) انظر: الكلمات الحسان (ص٥).

(٤) هو شعبة بن الحجَّاج بن الوزد العتكي، مولا هم، الواسطي، ثم البصري، أبو بسطام، من الثقات الأئمة الحفاظ المتقين، قال ابن حجر رحمته الله: «كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتن بالعراق عن الرجال، وذبت عن السنة، وكان عبداً، من السابعة». توفي سنة (١٦٠هـ). انظر: تريب التهذيب (١/٣٥١).

الحديث تأخرتم في القرآن^(١).

ودخل بعض فقهاء مصر على الإمام الشافعي رحمته المسجد، وبين يديه المصحف، فقال لهم: «شغلكم الفقه عن القرآن، إني لأصلي العتمة وأضع المصحف في يدي، فما أطبقه حتى الصبح»^(٢).

فما الذي شغلنا - في هذا الزمان - عن القرآن؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نتوب إلى الله من ضياع الأوقات والأعمار.

وسئل ابن نيمية رحمته عن الذي يُقدّم في الطلب: حفظ القرآن أو العلم؟ فأجاب قائلاً: «أما العلم الذي يجب على الإنسان عيناً كعلم ما أمر الله، وما نهى الله عنه، فهو مُقدّم على حفظ ما لا يجب من القرآن، فإنّ طلب العلم الأوّل واجب، وطلب الثاني مُستحب، والواجب مُقدّم على المستحب.

وأما طلب جِفظ القرآن: فهو مُقدّم على كثير مما تُسميه الناس علماً: وهو إما باطل، أو قليل النفع. وهو أيضاً مُقدّم في التعلّم في حقّ مَنْ يريد أن يتعلّم علم الدّين من الأصول والفروع، فإنّ المشروع في حقّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن، فإنّه أصل علوم الدّين، بخلاف ما يفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيث يشتغل أحدهم بشيء من فضول العلم من الكلام، أو الجدال، والخلاف، أو الفروع النادرة، أو التّقليد الذي لا يحتاج إليه، أو غرائب الحديث التي لا تثبت ولا ينتفع بها، وكثير من الرياضيات التي لا تقوم عليها حُجة، ويترك جِفظ القرآن الذي هو أهمُّ من ذلك كلّهُ»^(٣).

وليس في هذا دعوة إلى التّكاسل أو التّباطؤ عن تحصيل العلم النّافع، ونخصُّ العلم المدني الذي يعمل على تقدّم الأمتة ورفقيها، فنحن مع الدّاعين إلى الأخذ بأسباب الحياة والرّقي بالأمة، ولكننا نعتب على مَنْ يُحاولون إيها منا - ظلماً وبهتاناً - أنّ هذه العلوم تكفي، محاولين تصنيف العلم إلى شرعي، وغير شرعي، وأنّ لكلّ طلابه ودارسيه، بل إنّنا نرى أنّ دراسة هذه العلوم ضرورة شرعيّة تأثم

(١) سير أعلام النبلاء (٧/٢٢٣)؛ تذكرة الحفاظ (١/١٩٦)؛ حلية الأولياء. (٧/١٤٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/٤٦٢). وانظر: إحياء علوم الدّين (١/٢٧٩).

(٣) مجموع فتاوى ابن نيمية (٢٣/٥٤ - ٥٥).

الأمة إذا لم يكن فيها من يعلم هذه العلوم، ولكن على طلاب هذا العلم أن يتزودوا من القرآن وينهلوا من معينه الذي لا ينضب.

المطلب الخامس

الحرب المعلنة على القرآن واللغة

لَمَّا عَجَزَ أعداء الله عن السيطرة على بلاد المسلمين عن طريق الغزو العسكري، إذا بهم يلجأون إلى حيل مأكرة، وطرق ملتوية؛ للقضاء على الإسلام والمسلمين عن طريق الغزو الفكري، وعملوا على إبعاد المسلمين عن كتابهم - القرآن الكريم - الذي منه يستمدون منهجهم وأسلوب حياتهم، ويتضح ذلك من خلال تصريحاتهم المعلنة.

تصريحات الأعداء ضدَّ القرآن ولغته:

* ما قاله جلاستون - رئيس وزراء إنجلترا - وقد وقف في أواخر القرن الماضي في مجلس العموم البريطاني، وقد أمسك بيده القرآن المجيد، وصاح في أعضاء البرلمان، قائلاً: «إنَّ العقبة الكئود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد المسلمين هي شيثان، ولا بدَّ من القضاء عليهما مهما كلَّفنا الأمر: أوَّلهما: هذا الكتاب، وسكت قليلاً، بينما أشار بيده الأخرى نحو الشرق، وقال: هذه الكعبة»^(١).

* وقال أيضاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن نستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»^(٢).

* وقال أيضاً: «لن تستقيم حالة الشرق ما لم يُرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويُغَطَّى به القرآن»^(٣).

ولقد لفتت العلاقة المتينة والرابطة القوية بين اللغة العربية وعلوم الإسلام المختلفة أنظار أعداء الإسلام، فقاموا بالتخطيط والتدبير للهجوم على لغة القرآن بكلِّ ما أوتوا من قوَّة، مستخدمين كل الوسائل الممكنة من أجل القضاء على هذه

(١) الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية، لمحمد فهمي عبد الوهاب (ص ٧).

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد (ص ٣٩).

(٣) المرأة ومكانتها في الإسلام، لأحمد عبد العزيز الحصين (ص ١٢).

اللغة العظيمة - لغة القرآن - والنيل منها، لا لكونها لغة من اللغات الحية التي يتكلم بها قوم أو جنس معين، بل لكونها لغة القرآن الكريم، ولغة المسلمين التي يتوقف عليها فهم الدين، واستيعاب أحكامه وتعاليمه.

وكان هاجس الوحدة بين المسلمين ممّا يفلق أعداء الإسلام، وبما أنّ هذه اللغة من العوامل الرئيسة في توحيد الأمة الإسلامية، رأى أعداؤها أنّ تحطيم هذه اللغة سيساعد بلا شك في تفتيت الوحدة الكبرى المأمولة بين الشعوب الإسلامية، وسيضعف الأمل في تحقيقها في العصر الحاضر^(١).

* وما هو أحد الغربيين يقول: «متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة، التي لم يُبعده عنها إلا محمد [ﷺ] وكتابه، ولا يمكن أن يتوارى القرآن حتى تتوارى لغته^(٢)».

إذن هدف هؤلاء الأعداء هو إقصاء القرآن عن التأثير في حياة الأمة، لا ليتدرجوا في سبيل الحضارة كما يزعمون، ولكن ليسهل عليهم إذلال هذه الأمة، وضمان تبعيتها للغرب.

* وهذا الحاكم الفرنسي في الجزائر: يقول - في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من الستهم^(٣)».

* وهذا اللورد كرومر يقول: «جنت لأمحو ثلاثاً: القرآن، والكعبة، والأزهر^(٤)».

* وكان الجندي الإيطالي: يرتدي لباس الحرب قادماً لاحتلال بلاد الإسلام، وهو يُنشد^(٥) بأعلى صوته: «يا أمّاه! أتمّي صلاتك... ولا تبكي...»

(١) انظر: لغة القرآن: مكانتها والأخطار التي تهددها، د. إبراهيم أبو عباة.

(٢) الفصحى لغة القرآن، لأنور الجندي (ص ١٦٦)، أباطيل وأسما، لمحمود شاكر (ص ١٥٨).

(٣) قادة الغرب يقولون: دمرُوا الإسلام أيدو أهله، لجلال العالم (ص ٣١).

(٤) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، لأنور الجندي (ص ٢٩).

(٥) هذه الأنشودة المشهورة تُسمى: (أغنية الفاشيست) كانت جيوش الطليان الجرارة تترنم بها

بل اضحكي وتأملني... ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني... وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً... لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة... ولأحارب الديانة الإسلامية... سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن...^(١).

أساليب الأعداء في محاربة القرآن ولغته:

أخذوا في ذلك أساليب شتى، منها:

١ - الازدراء بحفظ القرآن الكريم، والعلماء، والدعاة، وتصويرهم بصورة قبيحة حتى يُحال بينهم وبين مجتمعاتهم.

٢ - السخرية من اللغة العربية - لغة القرآن الكريم -، ومهاجمتها من حين لآخر، والدعوة إلى العمائة، وإحياء اللّهجات المحليّة، ورفع شأن اللغات الأخرى؛ ممّا أدى إلى إهمال تدريس اللغة العربية في المراحل التعليميّة المختلفة، حتّى نشأ جيل من أبناء المسلمين يجهل القراءة في المصحف، ولا يكاد يقرأ سطرأ صحيحاً، على الرّغم من حصوله على أعلى الشهادات، وإتقانه العديد من اللغات الأخرى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

٣ - إغراق المجتمعات المسلمة بالحشد الهائل من الصّحف والمجلات، التي تُبعد عن الله، وتُقرّب من الشّيطان، وتنتشر الفاحشة والرّذيلة، وأصدق وصف لها أنّها: حمالة للكذب، قتالة للوقت.

٤ - تدمير عقيدة المسلمين وأخلاقهم وذلك من خلال البثّ المباشر، والقنوات الفضائيّة التي تُعرّض على شاشات التّلفاز^(٢).

وقد كان لهذه الأساليب الماكرة أثر كبير في انشغال المسلمين عن كتاب ربّهم بمتابعتهم لهذه القنوات الفضائيّة، وتلك الصّحف والمجلات؛ فهجروا تلاوته، فضلاً عن هجر أحكامه، وآدابه، والعمل بما فيه.

= برقة وبصوت واحد، وهي تسير مدججة بالسّلاح في طرقات طرابلس.

انظر: عودة الحجاب، لمحمد بن أحمد المقدم (ص ٩٣).

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين (١٥٧/٢).

وانظر: القومية والغزو الفكري (ص ٢٠٨).

(٢) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٢٩).

المبحث الثالث

آداب وأحكام تلاوة القرآن

آداب واحكام تلاوة القرآن

تمهيد:

من حقّ كتاب الله علينا أن نُدّوم على تلاوته، ونُكثر من قراءته، ذلك أنّ القلوب يغشاها الرُّيْنُ بمباشرة المعاصي والآثام، فيذهب بصفاتها كما يغشى الصُّدأ وَجَهَ الجِرَاءَ والسَّيفَ، وقراءة القرآن تُزيل هذا الغطاء وتُعِيد القلب المؤمن إلى حالة الإيمان والتَّقَاءِ، وتُجدّد فيه محبّة العمل الصَّالح والرُّغبة في اكتسابه.

وما تقرب المتقربون إلى ربهم الكريم بأفضل من تلاوة كتابه المجيد، والوقوف عند معانيه وحدوده؛ فحريّ بنا أن نُضربَ بسهم وافر من ذلك، ومن رحمة الله بعباده وفضله عليهم: أن شرّع لهم ما يتعبّدون به إليه سبحانه.

ولقد جاء الإسلام بآداب عامّة شملت جوانب الحياة، فبعدما رسخت العقيدة الصحيحة في قلوب النّاس ناداهم القرآن العظيم وندبهم الرُّسول الأمين ﷺ إلى هذه الآداب العالية.

ومن تلك الآداب: آداب الاستئذان، والسُّلام، والمجالس، والكلام، والنُّوم، والأكل والشُّرب، والجوار، والعطاس والتَّناؤب، وعشرة النِّساء، وغير ذلك في كلِّ ميادين الحياة الدُّنيا، وهناك آداب الشُّعائر الإسلاميّة، كأدب الصَّلَاة، والزُّكَاة، والصُّوم، والحجّ، وغيرها من العبادات.

ومن هنا: كان من باب أولى أن تكون للقرآن آدابه، فهو أحقُّ بالأدب وأجدد أن يتأدّب معه النّاس؛ لأنّه كلام الله تعالى، والقارئ يتلو كلام ربِّ العالمين، فكان من الأليق أن يكون المسلم في حالة المناجاة لربّه في أحسن هيئة وأكمل صورة، ولا يكون ذلك إلا بسلوكه هذا المسلك.

وقد أولى سلفنا الصَّالح هذا الأمر عنايةً بالغة، معتمدين في ذلك على نصوص الوحيين: الكتاب والسُّنة، وما أدّاه إليه اجتهادهم وحرصهم على تعظيم

القرآن وإجلاله، فالتزموا آداباً في التعامل معه، وسلكوا طرقاً شتى تدلُّ على احترامه وتوقيره عندهم، يذعون غيرهم إلى ذلك إذ أنهم القدوة والأسوة، ويحذرون من كلِّ قولٍ أو تصرفٍ فيه تنقُّصه، أو الإخلال بمنزلته، بل يُنكرون على مَنْ يُخلُّ بآدابه، وبما يجب تجاهه، أو يتهاون في ذلك، وهذا الاحترام والإجلال موصولٌ لحملة وأهله المعتنين به، فهم أهل الله وخاصته.

ولكي تكون التلاوة نافعاً تُعطي ثمارها من التلُّبُّر والتأثر والاستقامة، وتؤدِّي كما كان يؤدِّيها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم، فلا بدَّ من ملاحظة آدابها وأحكامها، والالتزام بذلك قبيل التلاوة وأثناءها^(١)، وهي على النحو الآتي.

١ - إخلاص النية لله تعالى:

ينبغي أن يكون قارئ القرآن الكريم مُخلصاً في نيته، متجرداً من كلِّ غرض دنيوي، يبتغي الأجر والثواب من المولى تبارك وتعالى، وأن يحذر الرياء والإعجاب بالنفس؛ لأنَّ التلاوة أحدُ أفعال المكلف التي يُشترط لصحتها وقبولها عند الله تعالى النية الخالصة لوجهه الكريم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ بِالْحَقِّ فَاذْبُرْ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الْآيَاتِ ۗ﴾ ﴿١﴾ ﴿الزمر: ٢ - ٣﴾.

قال النووي رحمته الله في سياق كلامه عن آداب قارئ القرآن: «وينبغي ألا يقصد به توصلاً إلى غرض من أغراض الدنيا من مال، أو رياسة، أو وجهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك»^(٢).

(١) من أشهر الذين تحدثوا عن آداب تلاوة القرآن الكريم: أبو بكر الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٣ - ٨٣)؛ وأبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٠ - ٢٨٨)؛ والقرطبي في «التذكار في أفضل الأذكار» (ص ١٧١ - ١٨٩)؛ والنووي في «التيان في آداب حملة القرآن» (٩٥ - ١٩٥)؛ والأذكار» (ص ١٥٣ - ١٦٦)؛ وابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣٠١/٢ - ٣١٢)؛ وابن قدامة المقدسي في «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٥٤ - ٥٧)؛ والشُّبُوطي في «الإتيان في علوم القرآن» (ص ٢٥٦ - ٢٨١).

(٢) التيان في آداب حملة القرآن (ص ١٨ - ١٩).

٢ - العمل بالقرآن:

وذلك بتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والوقوف عند نهيه، والامثال بأمره، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، وإقامة حدوده وحروفه.

ولقد ورد نهى شديد، ووعيد أكيد، فيمن آتاه الله القرآن ثم لم يعمل به، فقد جاء من حديث سمرّة بن جندب رضي الله عنه في رؤيا النبي صلى الله عليه وآله الطويلة: «... قَالَ: انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِئْهِ، أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَسْتَدْحِقُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَذَهَدَتِ الْحَجَرُ، فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ، وَهَذَا رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: انْطَلِقْ...».

(ثم يبين له ذلك صلى الله عليه وآله)

«... وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُسَدِّحُ رَأْسَهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَتَمَّ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفَعِّلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» الحديث^(١).

٣ - إجلال القرآن وتعظيمه:

يجدر بقارئ القرآن الكريم أن يراعي أثناء تلاوته لكتاب الله تعالى ما يتناسب وعظمة القرآن وجلاله فيستشعر أنه يناجي الله تبارك وتعالى، وأن الله يناجيه، ويجتنب كل ما من شأنه أن يُخِلَّ بأدب المناجاة كالضحك، والحديث، والعبث باليد، والنظر إلى ما يلهي، أو لا يجوز النظر إليه، ونحو ذلك^(٢).

٤ - تلاوة القرآن على طهارة:

يُستحب للقارئ أن يقرأ القرآن وهو على وضوء وطهارة، وهذا أيضاً من إجلال القرآن الكريم:

* عن أبي الجهم رضي الله عنه قال: «أَقْبَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله مِنْ نَحْوِ بَيْتِ جَمَلٍ، فَلَقِيَهُ

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (٤١١/١) (ح ١٣٨٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص ١٢٠).

رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْجِدَارِ، فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ^(١).

- فإذا كان هذا في مُجَرَّدِ رَدِّ السَّلَامِ؛ فلأن يكون في تلاوة كتاب الله تعالى - التي هي أعظم الذِّكْرِ - من باب أولى^(٢).

* وعن المُهَاجِرِ بْنِ قُنْفُذٍ: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبُوءُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَتَّى تَوَضَّأَ، ثُمَّ اغْتَنَزَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

«إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكَرَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا عَلَى طَهْرٍ»، أَوْ قَالَ: «عَلَى طَهَارَةٍ»^(٣).

قال النَّوَوِيُّ رَحْمَةً: «فإن قرا مُخَدِّثاً جاز ذلك بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة. قال إمام الحرمين: ولا يقال ارتكب مكروهاً، بل هو تارك للأفضل»^(٤).

• - اختيار الوقت المناسب:

تلاوة القرآن العظيم جائزة في كلِّ الأوقات، ولا تُكْرَهُ في شيء منها بسبب ذلك الوقت نفسه، وهناك أوقات لها أولوية يتجلى الله تعالى فيها على عباده، وتنزل فيها فيوضات رحمته، وأفضلها ما كان في الصَّلَاة، ثُمَّ ما كان في الثُّلُثِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ وَوَقْتُ السَّحَرِ، ثُمَّ قِرَاءَةُ اللَّيْلِ، ثُمَّ قِرَاءَةُ الْفَجْرِ، ثُمَّ قِرَاءَةُ الصُّبْحِ، ثُمَّ باقى أوقات النَّهَارِ^(٥).

وتزداد المثوبة مع ازدياد المشقة في قراءة القرآن والاستعداد لها، قال الله تعالى: «فَمَنْ يَمَسَّ مِنْ شِقَاكُ ذَنْوًا خَيْرًا يَرْتُمُ» [الزلزلة: ٧]. ومع وجود أولوية

(١) رواه البخاري، كتاب التَّيْمُمِ، باب: التَّيْمُمِ فِي الْحَضَرِ، إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ وَخَافَ قُوَّةَ الصَّلَاةِ (١/١٢٦) (ح ٣٣٧).

(٢) انظر: الكلمات الحسان (ص ٢٠٢).

(٣) رواه أبو داود (٥/١) (ح ١٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٦/١) (ح ١٣).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٩٧).

(٥) انظر: المصدر نفسه (ص ١٨٩)؛ المجموع (٢/١٩١)؛ الأذكار (ص ١٥٦)؛ الإتيان في علوم القرآن (١/٢٩٢).

لبعض الأوقات في قراءة القرآن، فإنَّ المسلم مدهوٌّ إلى قراءة القرآن في أيِّ وقت يتسنى له ذلك. سواء كان في عمله، أو بيته، أو سفره، أو حضره، أو وقت راحته.

ومع كثرة مشاغل الحياة الدُّنيا وضغوطها في العصر الحاضر، ينجذُرُ بالمسلمين أن يتهزوا كلُّ فرصة لهذه العبادة الجليلة، وقد تيسر ذلك ما لم يتيسر من قَبْلُ قراءة واستماعاً، بما قدّمه العلم من مصاحف بأحجام متنوّعة، أو أجزاء متفرّقة من القرآن، أو تسجيلاتٍ مسموعة أو مرئية^(١).

٦ - اختيار المكان المناسب:

يُستحب أن تكون التلاوة في مكان نظيف مُختار، ولهذا استحبَّ جماعة من أهل العلم أن تكون قراءة القرآن في المسجد؛ لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة^(٢)، وحبذا لو خصَّص المسلم ركناً في بيته يفرّغه من الموانع والشواغل والتشويش، ويُبعد عنه الضجيج والصياح والكلام الدُّنيوي ولعب الأطفال وعيبتهم^(٣).

وقد ذكر القرطبيُّ رحمته من آداب تلاوة القرآن: «ألا يُقرأ في الأسواق، ولا في مواطن اللغو واللغو، ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكّر عباد الرّحمن وأثنى عليهم بأنهم: ﴿وَلَا تَرْوُوا بِاللَّغْوِ رَوْاً حِكْرًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. هذا المرور بنفسه، فكيف إذا مرَّ بالقرآن الكريم تلاوةً بين ظهراي أهل اللغو ومجمع السفهاء؟»^(٤).

وأما التلاوة في الطّريق، وعلى الراحلة، ونحو ذلك، فالصحيح أنها جائزة، غير مكروهة إذا لم ينشغل القارئ عن قراءته.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَهُوَ

(١) انظر: كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها (ص ٣٩).

(٢) انظر: البيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٠).

(٣) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٥١).

(٤) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٨٤ - ١٨٥).

يَقْرَأُ عَلَى رَاحِلَتِهِ سُورَةَ الْفَتْحِ^(١).

وهي سُنَّةٌ لا بد من إحيائها في ركوبنا لمختلف وسائل التَّنْقُلِ المريحة في هذا الزَّمان خصوصاً أن بعض رحلات التَّنْقُلِ البريَّة، أو الجوية، أو البحرية تستغرق السَّاعات الطَّوال وزيَّما الأيام المتتابعة.

فإن انشغل عنها كانت مكروهةً مخافة الخلط، كما تُكره القراءة في الأماكن المستخبئة، مثل الحمام وغيرها^(٢).

وعلى كلِّ حال: فينبغي أن يكون المكان خالياً من كلِّ ما يشغل البال، ويحصل من وجوده الوسواس والاشتغال، فإنَّ ذلك أقرب إلى حضور القلب، وأبعد عن الرِّياء والمباهاة، وأعون على تدبُّر ما يتلوه من الآيات، ولا ريب أن هذه الحالة ممَّا يخالفها^(٣).

٧ - حُسْنُ الْجِلْسَةِ وَاسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ:

لا بدُّ للقارئ من جلسة مناسبة وهيئة صالحة تُظهِر فيها عبوديَّته لله، ويبرز فيها تذلُّله وخضوعه؛ ليكون ذلك أعوناً على الانتفاع بالتلاوة.

قال القرطبي رحمته الله: «يُستحب أن يستوي له قاعداً إن كان في غير صلاة، ولا يكون متكئاً»^(٤).

الفضل اتِّجَاهُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ:

ويستحبُّ للقارئ أن يستقبل القبلة^(٥)؛ لأنَّ هذا أفضل اتِّجَاه، والقبلة هي الجهة التي يتوجَّه إليها العابدون، والدَّاعون، والمتقرَّبون إليه تعالى، كيف وقد حثَّهم على ذلك بقوله: «قَوْلِي وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» [البقرة: ١٤٤].

قال الثَّووي رحمته الله: «وهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً، أو مضطجماً، أو في

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراءة على النَّبَاةِ (٣/١٦٢١) (ح: ٥٠٣٤).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١٠٢).

(٣) انظر: الكلمات الحسان (ص: ٢٠٣). (٤) التذكار في أفضل الأذكار (ص: ١٧٢).

(٥) انظر: المصدر نفسه (ص: ١٧٣)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١٠٢).

فراشه، أو غير ذلك من الأحوال جاز، وله أجر، ولكن دون الأول^(١).

وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَكَبَّرُ فِي حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ»^(٢).

وهذه من الأفعال التي كان يعملها رسول الله ﷺ أحياناً لبيان جوازها، ولكن يُؤخَذُ منها أنه ﷺ كان يقرأ القرآن في سائر أحواله.

وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إِنِّي لَأَقْرَأُ جِزْبِي»^(٣) وأنا مُضْطَجِعَةٌ على سِرْبِي»^(٤).

٨ - استحباب تنظيف الفم بالسواك:

يُستحب للمقارئ أن ينظف فاه بالسواك^(٥)؛ تأديباً مع كلام الله وإجلالاً له، وتطهيراً لفمه، وإرضاءً لربه، ولأن التلاوة عبادة لسانية فتتطلب الفم وتطيبه عند ذلك أدب حسن.

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»^(٦). وكان النبي ﷺ يتأدب مع كلام ربه تعالى، ويطيب فاه بالسواك في قيامه لصلاة الليل: عن حذيفة رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، يَشْوِصُ فَاهُ بِالسَّوَاكِ»^(٧).

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض. باب: الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد (٢٤٦/١) (ح ٣٠١).

(٣) هو مقدار معلوم من القرآن تُواظب عليه فتقرؤه يوماً.

(٤) رواه الفريابي في «فضائل القرآن»، (ص ٢٣٠) (رقم ١٥٤)؛ وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١١٩) (رقم ١٩١، ١٩٢).

(٥) انظر: الأذكار (ص ١٦٠)؛ التبيان (ص ٩٥).

(٦) رواه النسائي (١٠/١) (ح ٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٤/١) (ح ٥)؛ والإرواء (١٠٤/١) (ح ٦٥)؛ وصحيح الجامع (٦٨٨/١) (ح ٣٦٩٥).

(٧) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: السواك (٩٨/١) (ح ٢٤٥).

وَيُستأنس لذلك أيضاً بقولِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ أَقْوَاهَكُمْ طُرُقُ
لِلْقُرْآنِ، فَطَيَّبُوها بِالسَّوَابِكِ»^(١).

٩ - الاستعاذة عند افتتاح التلاوة:

يُسْنُّ للقارئ الاستعاذة قبل التلاوة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَمَّا قَرَأَ الْقُرْآنَ
كَسَبَتْهُ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

فهذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وآله، إذا أرادوا قراءة القرآن أن
يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهو أمر نذب وليس بواجب^(٢). والاستعاذة
ليست آية من القرآن بالإجماع.

والحكمة منها ظاهرة؛ وهي ألا يُلبَسَ الشيطان على القارئ قراءته ويخلط
عليه، ويمنعه من التدبّر والتفكير^(٣).

* وجاء عن أبي سعيد الخدريّ، قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله، إذا قام من
الليل كَبُرَ ثُمَّ يَقُولُ:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ
يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثلاثاً. ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبيراً» ثلاثاً، «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ
الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ»^(٤) وَنَفْخِهِ^(٥) وَنَفْثِهِ^(٦)، ثُمَّ يقرأ^(٧).

(١) رواه ابن ماجه (١٠٦/١) (ح ٢٩١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/

٥٣) (ح ٢٣٦)؛ و«الصحيحة» (٣/٢١٤) (ح ١٢١٣).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٦)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٣)؛

الإتقان في علوم القرآن (١/٢٦٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٦٠٨).

(٤) (همزة): هَمَزَ الشَّيْطَانُ الْإِنْسَانَ هَمَزاً: هَمَسَ فِي قَلْبِهِ وَشَوَّاساً. وَهَمَزَاتُ الشَّيْطَانِ:
خَطَرَاتُهُ الَّتِي يُخْطِرُهَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

انظر: لسان العرب (١٥/١٣٢)؛ مادة: (همز).

(٥) (نَفْخُهُ): النَّفْخُ: الْكِبْرُ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَبِّرَ يَتَعَاطَمُ وَيَجْمَعُ نَفْسَهُ وَنَفْسَهُ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَنْفُخَ. انظر:
لسان العرب (١٤/٢٢٨)، مادة: (نفخ).

(٦) (نَفْثِهِ): النَّثْتُ: الشُّعْرُ. وَسُمِّيَ النَّثْتُ شِعْراً؛ لِأَنَّهُ كَالشَّيْءِ يَنْفُثُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ فِيهِ، بِمِثْلِ
الرُّقِيَّةِ. انظر: لسان العرب (١٤/٢٢٣)، مادة: (نفث).

(٧) رواه أبو داود (١/٢٠٦) (ح ٧٧٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

الآية والحديث فيهما صيغتان للاستعاذة:

الأولى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

الثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. فيستحب للقارئ أن يعمل بهذه وهذه.

البدء بالاستعاذة خاصٌّ بالقرآن الكريم:

لا تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام محبوب غير قراءة القرآن العظيم؛ فبعض الناس يذكر الاستعاذة عند البدء بذكر حديثٍ أو موعظة، ونحو ذلك، فهذا لا أصل له^(١). وهو مقتضى ما نبه عليه ابن القيم رحمته في سياق فوائد الاستعاذة - إذ قال: «ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة إعلامٌ بأن المأني به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدّمة وتنبية للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعدّ لسماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وخذّه، لِمَا ذكرنا من هذه الحكمة وغيرها»^(٢).

١٠ - البَسْمَلَةُ^(٣):

ودليلٌ سُنِّيُّها: ما جاء عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «أَنْزَلَتْ عَلَيَّ آيَةً سُوْرَةً». فَقَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ بِالْكَوْنَرِ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ۝ إِنَّكَ شَائِنَاكَ هُوَ الْأَيْدِيُّ﴾ [الكونر] الحديث^(٤).

= (١/١٤٨) (ح ٧٠١).

(١) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٧٣).

(٢) إغاة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٩٢).

(٣) جاء في كتاب «تصحيح الدعاء» (ص ٢٧٤): «عبارة البسملة، نَحَتْ لِقَوْلِكَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» بخلاف: «التسمية» فهي عبارة عن قول: «بِسْمِ اللَّهِ» وقيل: «عن ذكر الله، بأي لفظ كان، وحصل تَسْمُحٌ فِي الْإِطَالَةِ».

(٤) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: حُجَّةٌ مِنْ قَالَ: الْبِسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ،

ومعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: أي «بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده ليدذكروا اسم الله تعالى عند افتتاح القراءة وغيرها؛ حتى يكون الافتتاح ببركة اسم الله»^(١). فالإتيان بالبسملة من باب التبرُّك والتيمُّن بذكر اسم الله^(٢).

فينبغي للقارئ أن يحافظ على قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوَّل كلِّ سورة، سوى سورة (التوبة) فإنَّ أكثر العلماء قالوا: إنَّها آية، حيث كُتبت في المصحف، وقد كُتبت في أوائل السُّور كلِّها إلا سورة (التوبة).

وذلك لأنَّ الصُّحابة الكرام رضي الله عنهم اختلفوا فيما بينهم: هل هي تنمَّة لسورة الأنفال أو أنها سورة مستقلة بذاتها، فأروا أن يفصلوها في المصحف ولا يضمُّوا قبلها البسملة^(٣).

١١ - حَضَرَ الْفِكْرَ أَثْنَاءَ التَّلَاوَةِ:

لا بدُّ من الإقبال بالكلية على القراءة، وتفريغ النَّفس من شواغلها، قبل البدء بالتلاوة؛ وذلك لأنَّ المُلهيات تُلجُّ على النَّفس وتُغْرِضُ لها. كذلك ينبغي أن يُحَصِّرَ الْفِكْرَ على القرآن وحده، ويُمْنَعَ من الشُّرود والتجوال في مُغْرِبَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ومن تفريغ النَّفس من شواغلها ألا يكون القارئ جائعاً، أو غَطِشاً، أو مهموماً قَلْباً مضطرباً، أو يعيش في برد شديد، أو حرٌّ مؤذٍ، أو جالساً في مكان

= سوى براءة (٣٠٠/١) (ح ٤٠٠).

(١) تفسير السمرقندي (٣٧/١)؛ تفسير القرطبي (٩٨/١).

(٢) ذكر العزُّ بن عبد السلام ثلاثة فائدة جامعة فقال: «أفعال العباد على ثلاثة أقسام: ما سُنَّتْ فِيهِ التَّسْمِيَةُ: كالوضوء، والغسل، والتَّيْمُّمُ، وذبح المناسك، وقراءة القرآن، ومنه أيضاً مباحات كالأكل والشُّرب والجماع. وما لم تُسَنَّ فِيهِ: كالصَّلَاة، والأذان، والحجُّ والعمرة، والأذكار، والدُّعَاوَات. وما تكروه: وهي المُحْرَمَات؛ لأنَّ الغرض من التَّسْمِيَةِ: التَّبرُّكُ فِي الْفِعْلِ الْمَشْتَمَلِ عَلَيْهِ، وَالْحَرَامُ لَا يُرَادُ كَثْرَتُهُ وَبِرَكَتِهِ، وَكَذَلِكَ الْمَكْرُوهُ.»

نقلاً عن: تصحيح الدعاء (ص ٢٧٤).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٦)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٣)؛ الإتيان في علوم القرآن (١/٢٦٣).

عامٌ ينظر فيه للغادين والرّائحين وينشغل بهم، أو جالساً أمام التّلفاز، عيناه في القرآن، وأذناه تستمع إلى التّلفاز.

فإذا ما حصر القارئ فكره أثناء التّلاوة وجعله مع القرآن، فسيخرج بزادٍ عظيم من التّلاوة^(١).

١٢ - استحباب التّرتيل وكراهية السّرعة المفرطة:

اتفق العلماء - رحمهم الله - على استحباب التّرتيل^(٢). قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤].

أي: يبيّن القرآن إذا قرأته تبييناً، وترسل في ترسل^(٣).
والثّيبين يحصل بعدم الاستعجال في القراءة، وذلك بتوفيتها حقّها من الإشباع^(٤).

قال البغوي **تَثَلُّةٌ**: «ترتيل القراءة: التّأني والثّمهل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهاً بالتّفكر المرتل، وهو المشبه بنور الأفعوان»^(٥).

وقال الرّازي **تَثَلُّةٌ**: «التّرتيل: هو أن يذكر الحروف والكلمات مبيّنة ظاهرة. والفائدة فيه: أنه إذا وقعت القراءة على هذا الوجه فهيم من نفسه معاني تلك الألفاظ، وأفهم غيره تلك المعاني، وإذا قرأها بالسّرعة لم يفهم، ولم يفهم، فكان التّرتيل أولى»^(٦).

وجاء في (التّسهيل لعلوم التّنزيل): «التّرتيل: هو الثّمهل، والمد، وإشباع الحركات، وبيان الحروف، وذلك مبيّن على التّفكر في معاني القرآن، بخلاف الهدّ الذي لا يفقه صاحبه ما يقول»^(٧).

(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٥٣ - ٥٤).

(٢) انظر: التّبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤/١٥٣)، وجاء في (مختار الصّحاح) (ص ٩٨): «والترتيل في القراءة: التّرسّل فيها والثّيبين من غير بغي».

(٤) انظر: لسان العرب (١١/٢٦٥)، مادة: «رتل».

(٥) شرح السنة (٢/٤٦٥). (٦) التّفسير الكبير (١/٦٠).

(٧) (٤/١٥٧).

ومما تقدم يتبين لنا أن الترتيل أقرب إلى الإجلال والتقدير، وأشد تأثيراً في القلوب، فكيف وقد أُمِرَ به وأكد عليه في الشرع، ففعله التزام يَهْدِي النبي ﷺ في تلاوة القرآن.

وقد امثل ﷺ أَمَرَ رَبَّهُ فَرَتَّلَ القرآن ترتيلاً:

* فعن فتادة رضي الله عنه قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كان يُمَدُّ مَدًّا»^(١).

* وعن فتادة رضي الله عنه قال: سئل أنس: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟

فقال: «كانت مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِمُدٍّ بِسْمِ اللَّهِ، وَبِمُدٍّ بِالرَّحْمَنِ، وَبِمُدٍّ بِالرَّحِيمِ»^(٢).

* وَتَصِفُ حَفْصَةُ رضي الله عنها قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ فتقول: «كان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطولِ مِنْهَا»^(٣).

التحليل من الاستعجال في التلاوة:

كبره كثير من السلف من الصحابة ومن بعدهم؛ المجلة المفرطة في تلاوة القرآن الكريم، ولو كان الباعث على ذلك الحصول على قدر أكبر من الحسنات؛ لأن الاستعجال يُفوت مصلحة كبرى، وهي تدبر آيات القرآن، والتأثر بها.

* وللضحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كلام في ذم الإسراع في تلاوة القرآن: فقد جاءه رجل فقال له: إني لأقرأ المُفْضَلَ في رُحْمَةٍ.

فقال عبد الله: «هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ»^(٤)؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوزُ

(٢) (١) رواهما البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: مد القراءة (١٦٢٥/٣) (ح) ٥٠٤٥، ٥٠٤٦.

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جواز النافلة قائماً وقاعداً (٥٠٧/١) (ح) ٧٣٣.

(٤) «هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ»: نصبه على المصدر. أي أنهذ القرآن هذا، فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٥٤/٥). وقال النووي رضي الله عنه: «قوله (كهذ الشعر) معناه: في حفظه وروايته لا في إنشاده وترنمه؛ لأنه يُرْتَلُ في الإنشاد والترنم، في العادة». «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٠٥/٦).

تَرَايَهُمْ^(١). وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ، نَفَعَ...^(٢).

* وعن أبي جَمْرَةَ^(٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، وَإِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ، فَقَالَ: لِأَنْ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ فِي لَيْلَةٍ فَأَذْبَرَهَا وَأُرْتَلَّهَا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ كَمَا تَقُولُ»^(٤).

وفي رواية: «فَإِنْ كُنْتَ فَاعِيلاً لَا بُدَّ، فَاقْرَأْ قِرَاءَةً تُسْمِعُ أذُنَيْكَ وَيَعْبِيهِ قَلْبُكَ»^(٥).

* وَسُئِلَ مُجَاهِدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَجُلَيْنِ: قَرَأَا أَحَدُهُمَا الْبَقْرَةَ، وَقَرَأَ الْآخَرُ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ رُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَجُلُوسُهُمَا سَوَاءً. أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: الَّذِي قَرَأَ الْبَقْرَةَ. ثُمَّ قَرَأَ مُجَاهِدٌ: «وَقَرَأْنَا فَرَقَتَهُ لِنَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّي وَرَزَلْتُهُ نَزِيلًا» [الإسراء: ١٠٦]^(٦).

قال القرطبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يُسْتَحَبُّ أَنْ يُؤَدِّيَ لِكُلِّ حَرْفٍ حَقَّهُ مِنَ الْأَدَاءِ حَتَّى يَبْرُزَ

(١) (لَا يُجَاوِزُ تَرَايَهُمْ): أَي لَا يَجَاوِزُ الْقُرْآنَ تَرَايَهُمْ لِيَصِلَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَيْسَ حَظُّهُمْ مِنْهُ إِلَّا مَرُورُهُ عَلَى أَلْسِنِهِمْ. وَالْقُرْآنِيُّ: جَمْعُ تَرْقُوءَةٍ، وَهِيَ الْعَظْمُ الَّذِي بَيْنَ ثَغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ، وَهِيَ تَرْقُوتَانِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. انظُرْ: النِّهَايَةَ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ (١/١٨٧).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصَرِهَا، بَابُ: تَرْتِيلِ الْقِرَاءَةِ وَاجْتِنَابِ الْهَذِّ، وَهُوَ الْإِفْرَاطُ فِي السَّرْعَةِ (١/٥٦٣) (ح ٨٢٢).

(٣) هُوَ نَصْرُ بْنُ عِمْرَانَ الشُّبَعِيُّ الْبَصْرِيُّ، أَحَدُ الْأَثَمَةِ الْبُنَاتِ. أَقَامَ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِالْبَصْرَةِ شَهْرَيْنِ. تَوَفِّيَ سَنَةَ (١٢٧هـ). انظُرْ: سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (٥/٢٤٣).

(٤) رَوَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٢٣٦). وَقَالَ مُحَقِّقُهُ (أَبُو إِسْحَاقَ الْحَوِينِيُّ): «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ». وَرَوَاهُ أَبُو عَبِيدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٧٤) وَالْأَجْرِيُّ فِي «أَخْلَاقِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ» (ص ٨٩).

(٥) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» (٢/٣٩٦) (رَقْم ٣٨٧٦) وَ(٣/١٣) (رَقْم ٤٤٩١)؛ وَفِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٢/٣٩٢) (رَقْم ٢١٥٩)؛ وَابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الرُّؤْيَا» (١/٤٢٢) (رَقْم ١١٩٨). وَقَالَ مُحَقِّقُ «الْفَضَائِلِ» (أَبُو إِسْحَاقَ الْحَوِينِيُّ): «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ». انظُرْ: حَاشِيَةُ الْفَضَائِلِ (ص ٢٣٧).

(٦) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٩/٢١٩) (رَقْم ٢٢٧٨٣)؛ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢/٢٥٦) (رَقْم ٨٧٣٥) وَالْأَجْرِيُّ فِي «أَخْلَاقِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ» (ص ٩٠)؛ وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْإِسْتِذْكَارِ» (٢/٤٧٨).

الكلام باللفظ تماماً...، وإذا كان له بكل حرفٍ عشر حسنات، فينبغي له ألا يهمل حرفاً أثبتته إمامٌ، فيكون قد أتى على جميع القرآن، ولم يَبْقَ شيئاً، فتكون ختمَةٌ أصحُّ من ختمته إذا ترخَّص بحذف ما لا يضرُّ حذفه، ألا ترى أن صلاة مَنْ استوى في جميع شرائطها أتمُّ ممن ترخَّص بترك ما يجوز تركه^(١).

(مسألة) أيُّهما أفضلُ التَّرتيلُ وقَلَّةُ القراءة أو السُّرعة مع كثرتها؟

قال بعضهم: إن ثواب قراءة التَّرتيل أجلُّ قدرًا، وثواب الكثرة أكثر عددًا؛ لأنَّ بكلِّ حرفٍ عشر حسنات^(٢).

ولقد تناول ابن حجر رحمته هذه المسألة بالتحقيق وفصَّل فيها قائلاً: «والتحقيق أنَّ لكلِّ من الإسراع والتَّرتيل جهة فَضْل، بشرط أن يكون المسرع لا يخلُّ بشيء من الحروف والحركات والسُّكُون الواجبات، فلا يمتنع أن يفضَّل أحدهما الآخرَ وأن يستويا، فإنَّ مَنْ رَتَّل وتأمَّل كَمَنْ تصدَّق بجوهرة واحدة مثمَّنة، ومَنْ أسرع كَمَنْ تصدَّق بعلَّة جواهر لكنَّ قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالمعكس^(٣)».

١٣ - استحباب تحسين الصَّوت بالقرآن:

نقل النووي رحمته الإجماع على ذلك، فقال: «أجمع العلماء رحمهم من السُّلف والخلف من الصُّحابة والتَّابعين، ومَنْ بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصَّوت بالقرآن^(٤)».

يدلُّ على ذلك ما رواه البراء رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [التين: ١] فِي الْعِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، أَوْ قِرَاءَةً^(٥)».

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٥).

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر (٢٠٨/١)؛ الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٦٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٩/٩).

(٤) النبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٤٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: القراءة في العشاء (٢٤٦/١) (ح ٧٦٩).

وفي استحباب تحسين الصَّوت بالقرآن وردت أحاديث عدَّة، منها:

* ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَأْذَنْ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ يَتَقَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(١).

قال ابن كثير رحمته الله: «ومعناه أن الله تعالى ما استمع لشيء، كاستماعه لقراءة نبيٍّ يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيبُ الصَّوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو ﷺ يسمع أصوات العباد كلَّهم برَّهم وفاجرهم»^(٢).

* وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَقَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٣).

* وما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٤).

والمراد من تحسين الصَّوت بالقرآن: تطريبه، وتحزينه، والتخشُّع به^(٥).

وذكر ابن القيم رحمته الله الحكمة من استحباب تزيين القرآن بالصَّوت، فقال: «لأنَّ تزيينه، وتحسين الصوت به، والتطريب بقراءته أوقِع في النَّفوس، وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذٌ لِلْقَلْبِ إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب؛ وذلك عَوْنٌ على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تُجْعَلُ في الدَّوَاءِ لِتُنْفِذَهُ إلى موضع الدَّاء،... لا تُخْرِجُ الكلامَ عن وضعه، ولا تحوِلُ بين السَّامِعِ وبين فَهْمِهِ، ولو كانت متضمَّنةً لزيادة الحروفِ كما ظنَّ المَانِعُ منها؛ لِأَخْرَجَتْ الكَلِمَةَ عن مواضعها، وحالت بين السَّامِعِ وبين فَهْمِهَا، ولم يَدْرِ ما معناها، والواقعُ بخلاف ذلك»^(٦).

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن (١٦١٩/٣) (ح ٥٠٢٣).

(٢) فضائل القرآن (ص ١٧٧ - ١٧٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: «وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ تَجَمَّرُوا بِهِ» [الملك: ١٣] [٤/ ٢٣٥١] (ح ٧٥٢٧).

(٤) رواه أبو داود (٧٤/٢) (ح ١٤٦٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٧٥) (ح ١٣٠٣).

(٥) فضائل القرآن، لابن كثير (ص ١٩٠).

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٨٩ - ٤٩٠).

قال الثَّوْرِيُّ تَكْلُفًا: «يستحب تحسين الصَّوْتِ بالقراءة وترتيبها، ما لم يخرج عن حدِّ القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً، أو أخفاه فهو حرام»^(١).

بين الثَّغْنِي المحمود والملموم:

قال ابن القَيْم تَكْلُفًا: «وفصل النَّزاعِ، أن يُقال: التَّطْرِبِ والثَّغْنِي على وجهين: أحدهما: ما اقتضته الطَّبيعة، وسمحت به من غير تكلُّف، ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلِّي وطَبَّه، واسترسلت طبيعته؛ جاءت بذلك التَّطْرِبِ والتَّلْحِينِ، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى عليه السلام للثَّغْنِي عليه السلام: «لو عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَحْيِيرٌ»^(٢)، ... فهذا هو الذي كان السَّلْفُ يَفْعَلُونَهُ، ويستمعونه، وهو الثَّغْنِي المملوحُ المحمود، وهو الذي يتأثر به الثَّالِي والسَّامِعُ، ...

الوجه الثَّانِي: ما كان من ذلك صِنَاعَةً من الصَّنَائِعِ... كما يَتَعَلَّمُ أصواتُ الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركَّبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزانٍ مخترعة، لا تحصل إلَّا بالتعلُّمِ والتَّكْلُفِ، فهذه هي التي كَرِهَهَا السَّلْفُ، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءةَ بها...

وكلُّ مَنْ له عِلْمٌ بأحوال السلف، يعلم قطعاً أنهم بُرِّأوا من القراءة بالألحان الموسيقي المتكلفة التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أنقذوا الله من أن يقرؤوا ويُسَوِّغوها، ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتَّطْرِبِ، ويحسِّنون أصواتهم بالقرآن، ويقرؤونه بِشَجْوٍ تارة، وبطربٍ تارة، وبشوقٍ تارة، وهذا أمر مركوزٌ في الطَّبَاعِ تقاضيه، ولم يَنْهَ عنه الشَّارِعُ، مع شدَّة تقاضي الطَّبَاعِ له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن سماع الله لمن قرأ به^(٣).

والمقصود الأعظم من تحسين الصَّوْتِ: هو أن يكون فنطرة إلى تدبُّر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطَّاعة.

(١) النيان في آداب حملة القرآن (ص ١٤٥ - ١٤٦).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٦/١٦٩) (ح ٧١٩٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣/ ٥٢٩) (ح ٥٩٦٦). وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» وواقفه اللُّهْمِي.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٤٩٢ - ٤٩٣).

١٤ - النَّهْيُ عَنِ الْقِرَاءَةِ بِالْأَلْحَانِ الْمُطَرَّبَةِ^(١):

القرآن الكريم ينزّه ويجلّ ويعظم عن تلاوته بالأصوات والنغمات المُحدثة، المرّجة على الأوزان، والأوضاع المُلهية وأصوات المزامير^(٢).

ولقد حذّر النبي ﷺ من زمانٍ يأتي يتخذ الناس فيه القرآنَ للغناء والمزامير:

فمن عَلِمَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَهْمَالِ حِصَالاً سِتّاً: إِمْرَةَ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةَ الشَّرْطِ، وَقَطِيعَةَ الرَّجِمِ، وَبَيْعَ الْحُكْمِ، وَاسْتِخْفَافًا بِاللَّمِّ، وَتَشَوُّاً يَتَخَلَّدُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ الرَّجُلَ لَيْسَ بِأَلْفِهِمْ وَلَا أَهْلِهِمْ، مَا يُقَدِّمُونَهُ إِلَّا لِيُغْنِيَهُمْ»^(٣).

قال الإمام مالك^(٤) تَلَفُظًا: «ولا تُعْجِبْنِي الْقِرَاءَةُ بِالْأَلْحَانِ، وَلَا أَحِبُّهَا فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ يُشْبَهُ الْغِنَاءَ، وَيُضْحِكُ بِالْقُرْآنِ، فَيُقَالُ: فَلَانَ أَقْرَأَ مِنْ فَلَانٍ»^(٥)،^(٦).

(١) المراد بالألحان المُطَرَّبَةُ: هي التي تُشبه الغناء، وربما وقع ذلك من بعض أئمة المساجد في زماننا هذا، علموا أم لم يعلموا، فيخيل لك عند سماع قراءتهم أنك تسمع أغنية، من قلب الضوت، وتغيير النغمات، نسال الله لنا ولهم الهداية.

انظر: كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب (ص ٢٥).

(٢) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص ١٩٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤٩٤/٣) (ح ١٦٠٨٣)؛ وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٦٦)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ١٩٧)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/٥٢٩) (ح ٣٧٧٣٦)؛ وابن عبد البر في «المُتهيد» (١٨/١٤٧) و«الاستذكار» (٣/١١٨)؛ وصححه الألباني في «الصحيح» (٢/٧٠٩) (ح ٩٧٩)؛ و«صحيح الجامع» (١/٥٤٣) (ح ٢٨١٢).

(٤) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي (أبو عبد الله) الإمام الفقيه، والمحدث الحافظ، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، يُنسب إليه المذهب المالكي، روى عن كثير من التابعين، وروى عنه خلق كثير من المحدثين الحُفَظاء، وكان في غاية الدقة والثقة في الحديث، ويُعدُّ في الطبقة السابعة من التابعين من أهل المدينة، له مصنفات أشهرها: «الموطأ»، توفي سنة (١٧٩هـ) وعمره (٨٥) سنة.

انظر: تقريب التهذيب (٢/٢٢٣)؛ البداية والنهاية (١٠/١٧٤).

(٥) أي: يصير فيه نوع تنافس قد يُفضي إلى العداوة!

(٦) المدخل إلى كتاب الإكليل، لأبي عبد الله الحاكم (٣/١١٠)؛ الحوادث والبدع (ص ٨٣).

وجاء في (الأدب الشرعية): «وكره أحمد قراءة الألحان، وقال: هي بدعة»^(١). وقد سئل الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن القوم يجتمعون، ويقرأ لهم القارئ قراءة حزينة؟ فقال: «إن كان يقرأ بقراءة أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلا بأس». وقال في قراءة الألحان: «أخذوها من الغناء لا تسمع منهم»^(٢).

أسباب تحريم الألحان المطرّبة:

ذكر أهل العلم عدّة أسباب في تحريم الألحان المطرّبة، منها^(٣):

- ١ - تشبيه القرآن الكريم بمزمار الشيطان.
- ٢ - تنزيه القرآن الكريم عن محاولة تحريفه.
- ٣ - القرآن معجز بلفظه ونظمه، والألحان تغيّره.

وجاء في (مطالب أولي النهى): «فإن حصل معها (أي الألحان) تغيير نظم القرآن، كجفّل الحركات حروفاً خرم ذلك. وسئل الإمام أحمد عن ذلك؟ أي عن تغيير نظم القرآن. فقال للسائل: ما اسمك؟ فقال: محمد. فقال أيسرُك أن يقال: يا موحامد؟ فقال: لا»^(٤).

٤ - الطرب وتهيج الطّباع.

ذكر ابن الجوزي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شيئاً من تلبس إبليس على الوعّاظ والقصاص فقال: «ومنهم من يتحرّك الحركات التي يوقع بها على قراءة الألحان. والألحان التي أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهي إلى التّحرّيم أقرب منها إلى الكراهة، والقارئ يطرب، والقاصُّ يُنشد الغزل»^(٥).

٥ - تلهي عن تدبّر القرآن.

٦ - تغيير الكلمات والحركات الصّحيحة إلى غير ذلك، كزيادة حرف، أو نقصانه، وإدغام ما لا ينبغي أن يدغم، واستخدام المدّ في غير موضعه، وإسقاط الهمز، وهكذا.

(١) (٣٠١/٢).

(٢) انظر: القصاص والمذكرين، لعبد الرحمن بن علي القرشي (ص ٣٦١).

(٣) انظر: مطالب أولي النهى (١/٥٩٨)؛ القصاص والمذكرين (١/٣٦١).

(٤) (١/٥٩٨). (٥) تلبس إبليس (ص ١٥١).

قال الطُّرْطُوشِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ أَصْحَابِ الْأَلْحَانِ وَتَغْيِيرِهِمْ لِلْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ، إِلَى مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَأَذْوَابَهُمِ الْفَاسِدَةَ: «فَتَقَلُّوا الْقِرَاءَةَ إِلَى أَوْضَاعِ لُحُونِ الْأَغَانِي، فَمَدُّوا الْمَقْصُورَ، وَقَصَرُوا الْمَمْدُودَ، وَحَرَكُوا السَّكِينِ، وَسَكَّنُوا الْمُتَحَرِّكَ، وَزَادُوا فِي الْحَرْفِ، وَنَقَصُوا مِنْهُ، وَجَزَمُوا الْمُتَحَرِّكَ، وَحَرَكُوا الْمَجْزُومَ؛ لِاسْتِيفَاءِ نَعْمَاتِ الْأَغَانِي الْمُطْرِبَةِ»^(١).

ما أشبه اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ:

بعض قراء الإذاعات يقرؤون القرآن على ألحان الأغاني (الثوته الموسيقية)، بل لديهم قواعد تُدرَّس من خلالها الموسيقى والألحان من طلعات ونزلات يلتزمون بها للتطريب والتلحين بالقرآن، فكيف يحصل الخشوع في مجلس كهذا؟ فالسامع إما أن يكون مأخوذاً بجمال الصوت، أو متعزّزاً من شدة التكلّف

وبعضهم يحضر حفلات الغناء في الصفّ الأوّل وعليهم العمائم، من أجل أن يلتقطوا اللّحن المناسب كي يقرؤوا به في الإذاعة، ولذلك ذمّ النبيّ الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء ذمّاً عظيماً، وأخبر - وهو الصادق المصدوق - أنه سيأتي قوم في آخر الزّمان يقرؤونه بهذه الصّفة، يجعلهم القرآن مثل الأغاني.

فبالخلاصة: أن هذا الفعل الذي يُقصد به التطريب والعبث بالمدود وزيادة الحركات أو التّأوهات، مذموم وصاحبه آثم^(٢).

١٥ - وجوب تدبُّر القرآن:

تدبُّر القرآن الكريم هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من التّلاوة، وبه تنشرح الصدور، وتستتير القلوب، ولقد تضافرت النصوص على وجوب تدبُّر آيات الكتاب العزيز، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِتُدَّبَّرَ آيَاتُهُ﴾ [ص: ٢٩].

قال السيوطي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كلّ آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان

(١) الحوادث والبدع (ص ٨٥).

(٢) انظر: من القصص النبوي، محمد صالح المنجد (ص ٨١ - ٨٢).

مما قُصِرَ عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذابٍ أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاءٍ تضرع وطلب^(١).

وقد نذد الله تعالى بصورة الاستفهام بمن لا يفتح عقله وقلبه لتفهّم القرآن من أجل إدراك ما فيه من حِكْمٍ وأسرار ومواعظ وتشريعات، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَرَعَلَّ قُلُوبِ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فليست العبرة - في التلاوة - أن يقرأ القرآن مرّات متعدّدة دون أن يصاحبها إدراك لما يقرأ، والتّرتيل والتّدبُّر مع قلة مقدار القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها؛ لأنّ المقصود الأعظم من التلاوة هو الفهم والتّدبُّر. والإسراع في التلاوة يدلُّ على عدم الوقوف على المعنى بصورة كاملة، وبالشكل المطلوب، ومن أجل ذلك كانت القراءة يتمهّل خطوة نحو التّدبُّر، ثمّ العمل^(٢).

١٦ - استحباب البكاء أثناء التلاوة:

يستحب للقارئ أن يبكي أثناء تلاوته للقرآن، فإن لم يكن بكاء فليتبك، والبكاء من خشية الله تعالى، وعند تلاوة آياته، من صفات العارفين، وشعار عباد الله الصّالحين، قال تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِأَلْدَقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]^(٣).

* وروى عبد الله بن الشخيرة رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجُوفِهِ أَرِيْزٌ كَأَرِيْزِ الْمَرْجَلِ»^(٤) - يعني: يبكي^(٥).

(١) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٦٥).

(٢) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص ٤١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣/١٤١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (١/٢٨٥)؛ الإتيان في علوم القرآن (١/٢٨٥).

(٤) (المرجّل) قنّ من نحاس، وقد يُطلق على قنّ يُطبخ فيها، ولعله المراد في الحديث. قال الطيبي رحمه الله: «أريز المرجل صوتٌ غليانه، ومنه الأرز، وهو الإزعاج».

انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/١٢١).

(٥) رواه النسائي (٣/١٣) (ح ١٢١٤)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/٥٣) (ح ٩٠٠)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٢/٤٣٩) (ح ٦٦٥)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/٣٩٦) (ح ٩٧١).

• وفي رواية أخرى: «وفي صنوه أيزر كإيزر الرُحى»^(١) مِنْ الْبُكَاءِ^(٢) وَتَلَفُظُهُ^(٣).

• وقال عبد الله بن شداد^(٤): «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ^(٥)، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ، يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَا أَنشَكُوا بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]^(٦).

• وقال الحسن البصري^(٧) تَلَفُظًا: «والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن ثم أمنت به، ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكائك»^(٧).

- = وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٢٦٠) (ح ١١٥٦).
- (١) (أيزر الرُحى) صوتها وحررتها.
- (٢) (مِنْ الْبُكَاءِ) أي من أجله. انظر: عون المعبود (٣/ ١٢١).
- (٣) رواه أبو داود (١/ ٢٣٨) (ح ٩٠٤)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٧٠) (ح ٧٩٩).
- (٤) هو عبد الله بن شداد بن الهاد، تابعي كبير، له رؤية، ولأبيه ضجة.
- انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).
- (٥) النشيج: قال ابن فارس تَلَفُظًا: «نشج الباكي: غص بالبكاء في حلقه من غير انتخاب» معجم مقاييس اللغة (٢/ ٥٦٠)، وقيل: النشيج: صوتٌ معه ترجيع كما يردُّ الضبي بكاءه في صدره.
- وقيل: هو أشدُّ البكاء. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).
- (٦) رواه البخاري تعليقاً، كتاب الأذان، باب: إذا بكى الإمام في الصلاة (١/ ٢٢٥).
- قال ابن حجر تَلَفُظًا: «وهذا الأثر وصله سعيد بن منصور عن ابن عيينة عن إسماعيل بن محمد بن سعد سمع عبد الله بن شداد بهذا. وزاد: (في صلاة الصبح).
- «فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).
- وانظر: سنن سعيد بن منصور (٥/ ٤٠٥) (ح ١١٣٨)؛ ورواه ابن شيبه في «مصنفه» (١/ ٣١٢) (رقم ٣٥٦٥)؛ (٧/ ٢٢٤) (رقم ٣٥٥٢٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ١١٤) (رقم ٢٧١٦).
- (٧) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣)؛ والمزي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١١٢)؛ والذهبي في «تاريخ الإسلام»، (٧٠/ ٥٧)؛ و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٥)؛ وأحمد في «الزهد» (١/ ٢٥٩).

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ، الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ بَقَرَأَ، حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ»^(١).

قال أبو حامد الغزالي رحمته الله: «البكاء مستحب مع القراءة...، وأما طريق تكثف البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء...، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والموائيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حُزُنٌ وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصّافية فليكن على فقْدِ الحزن والبكاء، فإنّ ذلك أعظم المصائب»^(٢).
وليس المقصود بالبكاء - الذي حث عليه السلف - ما يفعله بعضهم من صراخ وعويل ونحيب، فهذا خروج عن الطّريق القويم.

فأين هؤلاء من هدي النبي ﷺ في البكاء، وبكاء الصّحب الكرام رضي الله عنهم الذين وصفهم الله تبارك بقوله: «اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَطُوبُوهُمْ إِنَّ ذِكْرَ الْقَوْمِ» [الزمر: ٢٣]^(٣).

قال ابن تيمية رحمته الله: «وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجَلِ القلب، ودمع العين، واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نطقَ بها الكتاب والسنة.

أما الاضطراب الشّدِيد والغشي والموت والصيحات فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه لم يُلْمَ عليه، كما قد يكون في التّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فإنّ منشأ قوّة الوارد على القلب مع ضعف القلب والقوّة»^(٤).

١٧ - استحباب الجهر بالقرآن إذا لم ترتب عليه مفسدة:

وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصّوت بالقراءة، وأخرى تقتضي الإسرار وخفض الصّوت:

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥/١) (ح ١٣٣٩)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٢٤) (ح ١١٠٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٧). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (١/ ٤٥).

(٣) انظر: كتاب الآداب (ص ٢٧). (٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٢٢).

فمن الأول:

ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا أُذِنَ لِلَّهِ لِشَيْءٍ مَا أُذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»^(١).
ومن الثاني:

ما جاء عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَاجِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْبَاجِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»^(٢).

الجمع بين الحديتين:

يكون الجهر أفضل؛ لأن فائدته تتعدى إلى السامعين، فالعمل فيه أكثر، ويوقظ قلب القارئ، ويجمع همته إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط، بشرط ألا يؤدي غيره من مصل أو نائم أو غيرهما. فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل.

ويكون الإسرار أفضل إذا خاف على نفسه الرياء، أو تأذى مصلون، أو نيام بجهره^(٣).

ويستدل لهذا الجمع: بما جاء عن أبي سعيد، قال: اغتكتف رسول الله ﷺ، في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر وقال:
«أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبِّهِ، فَلَا يُؤَدِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ» أَوْ قَالَ: «فِي الصَّلَاةِ»^(٤).

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: الماهر بالقرآن... (٢٣٥٨/٤) (ح ٧٥٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٨/٢) (ح ١٣٣٣)؛ والترمذي (١٨٠/٥) (ح ٢٩١٩)؛ والنسائي (٨٠/٥) (ح ٢٥٦١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٤/١) (ح ١١٨٤)؛ و«صحيح سنن الترمذي» (١٠/٣) (ح ٢٣٣١)؛ و«صحيح سنن النسائي» (٥٤١/٢) (ح ٢٤٠١).

(٣) انظر: الإفتان في علوم القرآن (ص ٢٧١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٣٥)؛ المجموع (١٨٩/٢). فيض القدير (٤٥٧/١).

(٤) رواه أبو داود (٣٨/٢) (ح ١٣٣٢)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (١٩٠/٢) (ح ١١٦٢)؛ وأحمد في «المسند» (٩٤/٣) (ح ١١٩١٥).

وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٧/١) (ح ١١٨٤).

«وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها؛ لأنَّ المُسرَّ قد يملأُ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكلُّ فيستريح بالإسرار»^(١).

ومن المفاصد المترتبة على الجهر في غير موضعه ما حكاه ابن الجوزي تكلُّفه بقوله: «وقد لبس إبليس على قوم من القراء فهم يقرؤون القرآن في منارة المسجد بالليل بالأصوات المجتمعة المرتفعة، الجزء والجزأين، فيجمعون بين أذى الناس في منعهم من النوم، وبين التعرُّض للرياء، ومنهم مَنْ يقرأ في مسجده وقت الأذان؛ لأنَّه حين اجتماع الناس في المسجد»^(٢).

أجر التلاوة مترتب على التلُّفُّظ بها:

لا بدُّ من النطق بالقراءة، والتلُّفُّظ بالتلاوة لحصول الأجر، فبعض الناس يقرأ القرآن بدون تحريك الشفتين، قراءة صامتة، فلا يحصل بذلك على فضيلة القراءة.

ولا بأس من النظر في القرآن الكريم من غير قراءة وذلك لتدبره وتعمُّقه وفهم معانيه، لكنَّه لا يعتبر قارئاً، إلَّا إذا تلفَّظ بالقرآن، وحرك شفتيه، عند ذلك يثبت له أجر التلاوة، ولو لم يُسْمِعْ مَنْ حوله؛ لما جاء عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقْرؤوا القرآن، فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شافعياً لأصحابه»^(٣).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ «أَنْتُمْ» حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا م حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٤).

ولا يعتبر قارئاً إلَّا إذا تلفَّظ بذلك، كما نصَّ عليه أهل العلم^(٥).

(١) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٧١). (٢) تلييس إبليس (ص ١٤٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/ ٥٥٣) (ج ٨٠٤).

(٤) رواه الترمذي (١٧٥/٥) (ج ٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب» وصححه الحاكم، وأقره الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٩/٣) (ج ٢٣٢٧)؛ و«صحيح الجامع» (١١٠٣/٢) (ج ٦٤٦٩).

(٥) انظر: من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مجلة البحوث الإسلامية بالرياض

١٨ - استحباب اتّصال القراءة وعدم قطعها:

من الآداب التي يستحب للقارئ أن يأخذ بها، عدم قطع القراءة إلا لعذرٍ عارضٍ معتبر شرعاً، كالرّد على السّلام، أو تسميت العاطس، أو إجابة المؤذّن إذا سمع النّداء، أو حمد الله عند العطاس، أو إمساك عن القراءة إن حصل منه تناوب أثناءها.

ولا يقطع التّلاوة لأجل أمور الدّنيا نادباً مع كلام الله، واحتراماً له، ومن ذلك اجتناب الضّحك واللّغظ والحديث خلال القراءة، إلا كلام يضطر إليه، وليتبه من كيد الشّيطان الذي يلبس عليه قراءته، أو يشغله عنها^(١).

إذا يُكره قطع التّلاوة بدون عذرٍ معتبر؛ لما يدلّ عليه من عدم تعظيم كلام الله تعالى. قال الحليّ رحمته: «لأنّ كلام الله لا ينبغي أن يؤثّر عليه كلام غيره»^(٢).

وقال القرطبيّ رحمته: «يستحبُّ إذا أخذ في سورة لم يشغل عنها حتّى يفرغ منها إلا من ضرورة. وكذلك إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة، ولا يخلّلها بكلام الأدميين من غير ضرورة؛ فإنّ فيه استخفافاً بالقرآن كما لو قطع مكالمة أحد، فيحدّث غيره ممّن هو دونه، فإنّ فيه استخفافاً بذلك، ولأنّ في إتباع القرآن بعضه بعضاً بالقراءة من البهجة ما يظهر عند الإتيان، ويخفى عند التّقطيع، وفي سلب زينة قراءة القرآن. فلذلك كان مكروهاً»^(٣).

ويُستأنس في استحباب اتّصال القراءة وعدم قطعها: بما رواه الثّابعي الجليل نافع رحمته، حيث قال: «كان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما إذا قرأ القرآن لم يتكلّم حتّى يفرغ منه، فأخذت عليه يوماً، فقرأ سورة البقرة، حتّى انتهى إلى مكانٍ قال: تدرى فيم أنزلت؟ قلت: لا، قال: أنزلت في كذا وكذا، ثمّ مضى»^(٤).

= (عدد: ٥١) (ربيع أول ١٤١٨هـ) (ص ١٣٩ - ١٤٠).

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٢٠).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٧٤). (٣) التذكار في أفضل الأذكار (ص ١٧٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «يُنزلون في كذا وكذا...» [البقرة: ٢٢٣] (٣/

فهذه عادة ابن عمر رضي الله عنهما أنه لا يقطع تلاوة القرآن إلا لأمرٍ جليل، ومصلحة راجحة، كتنشر علم ونحوه.

١٩ - أن يُحْسِنَ الْإِبْتِدَاءَ وَالْوَقْفَ أَثْنَاءَ التَّلَاوَةِ:

قال النووي رحمته الله: «يُستحب للقارئ إذا ابتداء من وسط السورة أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعبءه ببعض، وكذلك إذا وقف يقف على المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيد في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإن كثيراً منها في وسط الكلام المرتبط، ولا يغتر الإنسان بكثرة الفاعلين لهذا الذي نَهَيْنا عنه ممن لا يراعي هذه الآداب، وامتنل ما قاله السيد الجليل أبو علي الفضيل بن عياض رحمته الله: لا تستوحش طرق الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترّ بكثرة السالكين الهالكين^(١)، ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة بكمالها أفضل من قراءة قدرها من سورة طويلة؛ لأنّه قد يخفى الارتباط على كثير من الناس أو أكثرهم في بعض الأحوال والمواطن^(٢).

٢٠ - من السُّنَّةِ: الْوُقُوفُ عِنْدَ رُؤُوسِ الْآيَاتِ:

يسنُّ لقارئ القرآن أن يقف عند رأس كل آية، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. فمن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ، يَقْرَأُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثُمَّ يَقِفُ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ثُمَّ يَقِفُ. وَكَانَ يَقْرَأُهَا: ﴿مَنْكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾»^(٣).

وفي رواية أخرى - قالت أم سلمة رضي الله عنها: «يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةَ آيَةً»^(٤).

(١) انظر: الآداب الشرعية (١/٢٨١). (٢) الأذكار (ص ١٦٣).

(٣) رواه الترمذي (١٨٥/٥) (ح ٢٩٢٧) واللفظ له. والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٥٢) (ح ٢٩١٠)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وله شاهد بإسناد صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه».

وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/١٣) (ح ٢٣٣٦).

(٤) أي: يقف عند كل آية. انظر: عون المعبود (١١/٢٤٤).

(٥) رواه أبو داود (٤/٣٧) (ح ٤٠٠١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/٧٥٦) (ح ٣٣٧٩).

فالوقوف على رؤوس الأي من كمال القراءة، ولو تلا بضع آيات بنفس واحد صحَّ وجاز^(١).

٢١ - من السنَّة: أن يُسبَّح عند آية التَّسْبِيح، ويتعوَّذ عند آية العذاب، ويسأل عند آية الرَّحمة:

ودليل ذلك ما ورد في حديث حذيفة رضي الله عنه وصلاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: «... ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ هِمْرَانَ فقرأها، يقرأ مترسلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ...» الحديث^(٢).

قال النووي رحمته الله: «فيه استحباب هذه الأمور لكل قارئ في الصلوة وغيرها، ومذهبنا استحبابه للإمام والمأموم والمنفرد»^(٣).

بل هذا مذهب جماهير أهل العلم - رحمهم الله - أن هذا السؤال والاستعاذة والتسبيح مستحب لكل قارئ سواء كان في الصلوة أم في خارجها.

وخالف في ذلك أبو حنيفة رحمته الله، فقال: يُكره ذلك في الصلوة، والصواب قول الجمهور^(٤).

قال الحسين بن علي الكرايسي^(٥) رحمته الله: «بِتُّ مع الشافعي غير ليلة، فكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمات، وكان لا يمرُّ بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا تعوَّذ منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المسلمين. قال: فكانما جُمِعَ له الرجاء

(١) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٥٣٦/١) (ح ٧٧٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٦٢).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١٩).

(٥) هو الحسين بن علي بن يزيد الكرايسي، البغدادي (أبو علي) الفقيه، صاحب الشافعي، قال ابن حجر رحمته الله: «صدوق، فاضل، تكلم فيه أحمد لمسألة اللفظ». كان من بحور العلم، ذكياً، فطناً، فصيحاً لِيناً. وقع بينه وبين الإمام أحمد هجران بسبب مسألة التلغظ بالقرآن، فهجره لذلك العلماء. توفي سنة (٢٤٨هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/١٦٧)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/٧٩ - ٨٢).

والرُتبة جميعاً»^(١).

٢٢ - من السُّنة: الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس:

* والأصل فيه: ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنَ»^(٢) عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ»^(٣).

* وعلة الإمساك عن القراءة: يبينها النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها - حيث قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَلْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ. فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ، لَعَلَّهُ يَلْهَبُ يَسْتَفْرِزُ»^(٤) قَيْسَبُ نَفْسَهُ»^(٥).

وهو إرشاد لطيف منه ﷺ، وفيه تتبين سماحة الإسلام ويُسر تكاليفه، وفيه درء مفسدة عظيمة عن قارئ القرآن، أو المصلي حتى لا يدعو على نفسه من حيث أراد الخير وهو لا يشعر بذلك، وفيه صيانة للقرآن الكريم عن الهدرمة والكلام المعجم^(٦).

٢٣ - من السُّنة: السُّجود عند المرور بآية سجدة:

من آداب تلاوة القرآن أن يسجد عند تلاوة الآيات التي فيها سجود اقتداءً بالنبي ﷺ، سواء كان الوقت وقت نهى أم غيره؛ لأنَّ سجود التلاوة من ذوات الأسباب.

- (١) تهذيب الكمال (٣٧٦/٢٤)؛ تاريخ بغداد (٦٣/٢)؛ تاريخ مدينة دمشق (٣٩١/٥١)؛ تاريخ الإسلام (٣٠٩/١٤)؛ سير أعلام النبلاء (٣٥/١٠).
- (٢) (فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنَ): أي استغلق ولم يتطرق به لسانه؛ لغلبة النعاس. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧٥/٦).
- (٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: أَمُرُّ مَنْ نَعَسَ فِي صَلَاتِهِ، أَوْ اسْتَعْجَمَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، أَوْ الذُّكْرُ بَانَ يَرْقُدُ (٥٤٣/١) (ح ٧٨٧).
- (٤) (يَسْتَفْرِزُ) معنى يستغفر هنا: يدعو. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧٤/٦).
- (٥) رواه مسلم، الكتاب والباب نفسهما (٥٤٢/١) (ح ٧٨٦).
- (٦) انظر: كتاب الآداب (ص ٣٣).

فضائل سجود التلاوة:

مما ورد في فضائل سجود التلاوة: ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ»^(١) فَسَجَدَ اهْتَزَل الشَّيْطَانُ يَبْكِي. يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ»^(٢). (وفي رواية أبي كريب: يَا وَيْلِي). أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ. وَأَمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ»^(٣).

الذكر الولد في سجود التلاوة:

مما ورد عن النبي ﷺ في سجود التلاوة ما يلي:

* ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ، يقول في سجود القرآن بالليل، يقول في السجدة مراراً: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ»^(٤).

* وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً: «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا مِنْكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وَزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي مِنْكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ»^(٥).

(١) (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ) معناه: آية السجدة.

(٢) (يَا وَيْلَهُ): قال النووي رحمته الله: «هو من أدب الكلام. وهو أنه إذا عَرَضَ في الحكاية عن الغير ما فيه سوء، واقتضت الحكاية رجوع الضمير إلى المتكلم، صرف الحاكم الضمير عن نفسه تصاوفاً عن صورة إضافة السوء إلى نفسه». «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧١/٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٧/١) (ح ٨١).

(٤) رواه أبو داود (٦٠/٢) (ح ١٤١٤) واللفظ له. وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨٣/١) (ح ٥٦٣)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/٣٤٢) (ح ٨٠٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي».

وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٦٥) (ح ١٢٥٥).

(٥) رواه الترمذي (٢/٤٧٢) (ح ٥٧٩) واللفظ له. وابن خزيمة في «صحيحه» (١/٢٨٢) (ح ٥٦٢)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٦/٤٧٣) (ح ٢٧٦٨)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/٣٤١) (ح ٧٩٩) وقال: «حديث صحيح، رواه مكِّيُون، لم يُذكر واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي».

* وفي حديث علي بن أبي طالب عليه السلام، مرفوعاً: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ لَمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(١).

حُكْمُ سَجُودِ التَّلَاوَةِ:

١ - جمهور أهل العلم على أن سجود التلاوة مستحب وليس بواجب، على اختلاف بينهم في أعداد هذه الآيات التي يُسجد عندها.

ودليل سُنِّيَةِ سَجُودِ التَّلَاوَةِ:

* ما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالنَّجْمِ﴾. فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا»^(٢).

* وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد، وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة، قرأ بها، حتى إذا جاء السجدة، قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ، فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ رضي الله عنه.

وَزَادَ نَافِعٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلَّا أَنْ نَشَاءَ»^(٣).

٢ - وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أن سجود التلاوة واجب.

ودليل وجوبه: قوله تعالى: «فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّا قَرِئْنَا عَلَيْهِمُ الذُّرَّكَ لَآ يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠ - ٢١].

= وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ١٨٠) (ح ٤٧٣).

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٥) (ح ٧٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: من قرأ السجدة ولم يسجد (١/ ٣٢٢) (ح ١٠٧٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: من رأى أن الله تعالى لم يوجب السجود (١/ ٣٢٣) (ح ١٠٧٧).

وَرَدَّ النَّووي رحمته على ما استدلَّ به أبو حنيفة قائلًا: «وأما الجواب عن الآية التي احتجَّ بها أبو حنيفة رحمته فظاهر؛ لأنَّ المراد ذمُّهم على ترك السُّجود تكديماً، كما قال تعالى بعده: ﴿بِالَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]»^(١).

سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ:

مَنْ استمع إلى قارئٍ، فقرأ آيةً فيها سجدة، فالمستحبُّ ألاَّ يسجدَ هذا المستمع حتى يسجدَ القارئ؛ لأنَّه بمثابة الإمام في هذا السُّجود.

ودليل ذلك:

* ما جاء عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ عَلَيْنَا السُّورَةَ فِيهَا السُّجْدَةُ، فَيَسْجُدُ وَتَسْجُدُ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُنَا مَوْضِعَ جَبْهَتِهِ»^(٢).

* وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه لِتَمِيمِ بْنِ حَذَلَمٍ^(٣) - وَهُوَ عَلَامٌ - فَقَرَأَ عَلَيْهِ سَجْدَةً، فَقَالَ: «اسْجُدْ، فَإِنَّكَ إِمَامُنَا فِيهَا»^(٤).

قال النَّووي رحمته: «إذا سجدَ المستمعُ مع القارئِ، لا يرتبطُ به، وله الرُّفْع من السُّجود قبله»^(٥).

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ سجد لسجود القارئ (١/٣٢٣) (ح ١٠٧٥).

(٣) هو تميم بن حذلم الضبي، الكوفي (أبو سلمة) قال ابن حجر رحمته: «ثقة، من الثانية». أدرك الجاهلية، ووفد في عهد أبي بكر رضي الله عنه. من أصحاب عبد الله بن مسعود، أدرك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وسمع منهما.

انظر: تقريب التهذيب (١/١٣٠)؛ الإصابة في تمييز الصحابة (١/٣٧٧).

(٤) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ سجد لسجود القارئ (١/٣٢٣)، قال ابن حجر رحمته: «هذا الأثر وصله سعيد بن منصور، من رواية مغيرة عن إبراهيم... وقد رُوِيَ مرفوعاً، أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن عجلان عن زيد ابن أسلم... ورجاله ثقاتٌ إلاَّ أنه مُرسَلٌ». «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/٧١٨).

وانظر: تغليق التعليق، لابن حجر (٢/٤١٠)؛ مصنف ابن أبي شيبة (١/٣٧٩) (رقم ٤٣٦٣)؛ المراسيل، لأبي داود (١/١١٢).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٨٢).

لا يلزم السامع أن يسجد مع القارئ:

* عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن عثمان رضي الله عنه مرَّ بقاصِّ فقرأ سجدةً لیسجد معه عثمان، فقال عثمان رضي الله عنه: «إنما السجودُ على من استمع، ثم مضى ولم يسجد»^(١).

قال الكرمانى رضي الله عنه: «والفرق بينهما: أن المستمع: من كان قاصداً للسمع مُصغياً إليه. والسامع: من أتفق سماعه من غير قصدٍ إليه»^(٢).

* وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: مرَّ سلمان رضي الله عنه على قومٍ فُعود فقرأوا السجدة فسجدوا، فقيل له؟ فقال: «ليس لهذا غدونا»^(٣).

«أي: ما غدونا لأجل السماع، فكأنه أراد بيان أننا لم نسجد؛ لأننا ما كنا قاصدين السماع»^(٤).

٢٤ - القدر المستحب في ختم القرآن:

وردت عدة أحاديث في مدة ختم القرآن، فأقل ذلك ثلاثة أيام، وأوسطه سبعة أيام أو عشرة، وأكثره قيل: أربعون يوماً. وقيل: في السنة مرتين؛ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم عَرَضَ على جبريل عليه السلام في السنة التي قبض فيها مرتين^(٥).

ومن هذه الأحاديث:

* ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ، وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فَقُلْتُ: بَلَى. يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَلَمْ أَرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ - ثُمَّ أَخْبَرَهُ عَنِ الصَّيَامِ - ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «وَأَقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»^(٦). قَالَ: قُلْتُ: يَا

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٤٤) (رقم ٥٩٠٦).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧/١٠٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٤٥) (رقم ٥٩٠٩). قال ابن حجر رضي الله عنه: «وإسناده صحيح».

«فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/٥٥٨) وانظر: صحيح البخاري (١/٣٦٥)؛ ومصنف ابن أبي شيبة (١/٣٦٧) (رقم ٤٢٢٣).

(٤) المصدر السابق (٧/١٠٨).

(٥) انظر: الاتقان في علوم القرآن (ص ٢٦٠).

(٦) أي: اختمه.

نَبِيِّ اللَّهِ! إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَأَقْرَأْ فِي كُلِّ حَشْرَيْنِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَأَقْرَأْ فِي كُلِّ حَشْرٍ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَأَقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَيَّ ذَلِكَ»^(١).

* وعن عبد الله بن عمرو: أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فِي كَيْفَ يُمْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: «فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا»، ثُمَّ قَالَ: «فِي شَهْرٍ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي حَشْرَيْنِ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي خَمْسِ حَشْرَةٍ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي حَشْرٍ»، ثُمَّ قَالَ «فِي سَبْعٍ»^(٢).

ولذلك قال إسحاق بن إبراهيم كَثْفَةً: «ولا نحبُّ للرجل أن يأتي عليه أكثر من أربعين يوماً ولم يقرأ القرآن؛ لهذا الحديث»^(٣).

* وعن عبد الله بن عمرو أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِي كَيْفَ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: «فِي شَهْرٍ» قَالَ: «إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ، وَتَنَاقَصَهُ حَتَّى قَالَ: «أَقْرَأْ فِي سَبْعٍ» قَالَ: «إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ»»^(٤).

وهذا نصرٌ صريحٌ في أنه لا يُختم القرآن في أقلِّ من ثلاثة أيام^(٥).

حَلَّةُ النَّهْيِ عَنِ الْخَتْمِ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ:

حَلَّلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ بِعَلَّتَيْنِ:

الأولى: عدمُ الفقه.

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: في كَيْفَ يُمْرَأُ الْقُرْآنَ (١٦٢٧/٣) (ح ٥٠٥٤)؛ ومسلم، واللفظ له، كتاب الصَّيَامِ، باب: النَّهْيُ عَنِ صَوْمِ الدَّمْرِ... (٨١٣/٢) (ح ١١٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٦/٢) (ح ١٣٩٥)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٦٢) (ح ١٢٤٣).

(٣) أورده الترمذي عقب حديث رقم: (٢٩٤٦) (١٩٦/٥).

(٤) رواه أبو داود (٥٤/٢) (ح ١٣٩٠)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٦١) (ح ١٢٣٩).

(٥) عون المعبود (١٨٧/٤).

الثانية: قوله لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «فَإِنْ لِرِزْوَجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرِزْوَجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرِجْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١).

فالرجل عليه مسؤولية تجاه أسرته ومنزله وضيافته، وكذلك عليه الرِّفق بنفسه، وختم القرآن في أقل من ثلاث على حساب ذلك غالباً.

بل هناك وظائف شرعية أخرى كالجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وإصلاح الناس، والتي هي من فروض الكفاية، ومن أفضل الأعمال الصالحة، والأمة لا تستغني عن جهود أبنائها في ذلك.

ففي التفريع لتلاوة القرآن على هذا النحو تعطيل لهذه الوظائف، خاصة في هذا العصر^(٢). ولتبقى - أيضاً - في النفس بقية من الطاقة تنجز بها مبادئ القرآن.

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في ختم القرآن:

لم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قرأ القرآن كله في ليلة، ولم يقرأه كذلك في أقل من

ثلاث:

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «... وَلَا أَحْلَمُ نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ...»^(٣).

* وعنهما رضي الله عنهما قالت: «كَانَ صلى الله عليه وسلم لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ»^(٤).

قال الألباني^(٥) رحمته الله: «ختم القرآن في أقل من ثلاث خلاف

(١) رواه مسلم (٨١٣/٢) (ح ١١٥٩) وقد تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تحزيب القرآن، لمحمد بن عبد الله الدويش، مجلة البيان (عدد: ٤٢) (صفر ١٤١٢هـ) (ص ٥١ - ٥٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل (١/٥١٤) (ح ٧٤٦).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/٣٧٦) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم» (ص ٢٨١)؛ وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/٦٠٠) (ح ٢٤٦٦) وقال من إسناده: «وهذا إسناد فيه ضعف... لكن يشهد للحديث: (تَهَيَّأَ صلى الله عليه وسلم عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ لَمْ يَقْفَهُ»؛ واحتج به في «صفة الصلاة» (ص ١٢٠)؛ وصححه في «صحيح الجامع» (٢/٨٧٨) (ح ٤٨٦٦).

(٥) هو المحدث محمد ناصر الدين بن نوح الألباني نسبة إلى أصله، من علماء الحديث المعاصرين المشهورين، ولد في أشقودره - عاصمة ألبانيا - سنة (١٣٣٣هـ) والده كان

السُّنَّة»^(١). ونحن متعبِّدون بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ ﷺ وهدية، الموصل إلى رضوان الله ومحبته، مع ما نُكِبُّه - في نفوسنا - من تقدير وإكبار وإجلال لسلف الأمة.

ولمَّا ذَكَرَ الثَّوَوِيُّ تَكْلُفَةَ عَادَاتِ السَّلَفِ فِي خَتْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَكَرَ مَنْ كَانَ يَخْتَمُهُ فِي سَبْعِ قَالَ: «وَهَذَا فِعْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ السَّلَفِ»^(٢).

وَمِثْلُهُ قَالَ السُّيُوطِيُّ تَكْلُفَةَ: «وَهَذَا أَوْسَطُ الْأُمُورِ وَأَحْسَنُهَا، وَهُوَ فِعْلُ الْأَكْثَرِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ»^(٣).

تَخْرِيجُ فِعْلٍ مَنَ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِ:

وَرَدَتْ آثَارٌ فِي خَتْمِ الْقُرْآنِ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَتَابِعِيهِمْ فِي خَتْمِهِمْ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، كَعِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ؓ، حَيْثُ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ يُوتِرُ بِهَا، وَرُؤْيٍ عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ ؓ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ؓ أَنَّهُمَا خَتَمَا الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ^(٤).

فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ يُحْمَلُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ تَكْلُفَةَ حَيْثُ قَالَ: «فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنَ الصَّحِيحِ عَنِ السَّلَفِ مَحْمُولٌ: إِذَا عَلَى أَنَّهُ مَا بَلَغَهُمْ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مِمَّا تَقَدَّمَ»^(٥)، أَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا بِقُرْؤُونِهِ مَعَ هَذِهِ السَّرْعَةِ^(٦)، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي فِتْرَةٍ حَمَاسٍ وَكَثْرَةِ نَشَاطٍ، أَوْ وَقْتٍ فَاضِلٍ كَرَمَضَانَ وَنَحْوَهُ، فَأَرَادُوا اسْتِمَارَهُ لَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لَهُمْ فِي سَائِرِ الْعَمْرِ.

عالمًا في المذهب الحنفي، وقد فرّت أسرته بدينها من حُكْمِ الْمَلِكِ أَحْمَدَ زَوْغُو، وَاسْتَقَرَّتْ فِي دِمَشْقَ، وَفِيهَا تَلَقَّى الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَخْذِهِ عَنِ الْوَالِدِ، ثُمَّ إِنَّهُ عَكَفَ عَلَى دِرَاسَةِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فَبَرَزَ فِيهِ أَخْذًا بِالْمَذْهَبِ السَّلْفِيِّ، وَلَهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، تُوَفِّيَ فِي مَدِينَةِ عَمَّانَ سَنَةَ (١٤٢٠هـ).

انظر: إتمام الأعلام، د. نزار أباطة ومحمد رياض الملاح (ص ٤١٦).

(١) السلسلة الصحيحة (٥/٦٠٠). (٢) الأذكار (ص ١٥٣).

(٣) الإتيقان في علوم القرآن (ص ٢٥٩).

(٤) انظر: سنن الترمذي (٥/٩١٩٦)، عقب حديث رقم: (٢٩٤٦).

(٥) وهو الذي اختاره الألباني تَكْلُفَةَ قَالَ: «وَلَا يُشْكَلُ عَلَى هَذَا مَا ثَبِتَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ مِمَّا هُوَ خِلَافُ هَذِهِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، فَإِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهَا لَمْ تَبْلُغْهُمْ».

«السلسلة الصحيحة» (٥/٦٠١).

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٦٠).

ولذلك قال ابن رجب رحمته: «إنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات الفاضلة كشهر رمضان، خصوصاً الليالي التي تُطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المُفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحبُّ الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناماً لفضيلة الزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدلُّ عمل غيرهم»^(١).

وقال النووي رحمته: «وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يومٍ وليلة»^(٢).

وقال الألباني رحمته: «أحسن الإمام الترمذي برواية هذا الخبر، والذي بعده (خبر عثمان بن عفان، وسعيد بن جبير) بصيغة التضعيف؛ لأنَّ الرُّكعة مهما طالت لا يمكن أن يُقرأ فيها القرآن الكريم كاملاً، فضلاً عما في ذلك من مخالفة لسنة رسول الله ﷺ في الركوع والسُّجود والقيام، وحاشا لسيدنا عثمان أن يفعل مثل ذلك»^(٣).

الجمع بين رواية (السبع) ورواية (الثلاث) في الختم:

قد يُشكل على البعض ورود بعض الأحاديث - في تحديد مدة ختم القرآن - بسبعة أيام، وبعضها بثلاثة أيام. وإزالة هذا الإشكال المُتوقع، من المناسب جداً أن أوردَ كلاماً نقيساً لابن تيمية رحمته، حيث قال في هذا الشأن: «وأما رواية مَنْ روى: (مَنْ قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه) فلا تُنافي رواية التسيب، فإنَّ هذا ليس أمراً لعبيد الله بن عمرو، ولا فيه أنه جعلَ قراءته في ثلاث دائماً سنة مشروعة، وإنما فيه الإخبار بأنَّ مَنْ قرأه في أقل من ثلاث لم يفقه، ومفهومهُ مفهوم العدد، وهو مفهوم صحيح، أنَّ مَنْ قرأه في ثلاث فصاعداً فحُكْمُه نقيض ذلك، والتناقض يكون بالمخالفة، ولو من بعض الوجوه.

فإذا كان مَنْ يقرؤه في ثلاث أحياناً قد يفقهه حصل مقصود الحديث، ولا

(٢) الأذكار (ص ١٥٤).

(١) لطائف المعارف (ص ١٦٦).

(٣) ضعيف سنن الترمذي (ص ٣٥٧).

يلزم إذا شُرِعَ فِعْلُ ذَلِكَ أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مُستحبة؛ ولهذا لم يُعلم في الصحابة على عهده مَنْ دَاوَمَ على ذلك، أعني على قراءته دائماً فيما دون السَّبْعِ، ولهذا كان الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقرؤه في كلِّ سَبْعٍ^(١).

التفصيل الحسن في مقدار الختم:

ذَكَرَ بعض المحققين من أهل العلم قواعدَ وضوابطَ عامة في مسألة ختم القرآن الكريم، وفصلوا في ذلك بما يتناسب وحال القارئ، من جهة الأعباء والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، وقدراته العلمية، والوقت المهيأ له للقراءة، وغير ذلك من الأمور، ومما جاء في ذلك: ما ذَكَرَهُ الغزالي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال: ففي الختم أربع درجات: الختم في يوم وليلة، وقد كَرِهَهُ جماعة، والختم في كلِّ شهر، كلُّ يوم جزء من ثلاثين جزءاً، وكأنه مبالغته في الاقتصار، كما أن الأول مبالغته في الاستكثار، وبينهما درجتان معتدلتان: إحداهما: في الأسبوع مرة، والثانية: في الأسبوع مرتين، تقريباً من الثلاث...

والتفصيل في مقدار القراءة: أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل، فلا ينبغي أن يُنْقِصَ عن ختمتين في الأسبوع، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر، أو من المشتغلين بِنَشْرِ العلم، فلا بأس أن يُقتصر في الأسبوع على مرة، وإن كان نافذَ الفكر في معاني القرآن، فقد يكتفي في الشهر بمرة؛ لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل^(٢).

ثم أُنْتَهِيَ بما قاله النووي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال: «والمختار: أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدرٍ يحصلُ له كمالُ فهمٍ ما يقرأ، وكذا مَنْ كان مشغولاً بِنَشْرِ العلم، أو فضل الحكومات بين المسلمين، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة للمسلمين، فليقتصر على قدرٍ لا يحصل له بسببه إخلالٌ بما هو مرصّد له، ولا فوت كماله، ومن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه، من غير

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤٠٧/١٣). (٢) إحياء علوم الدين (١/٢٧٦).

خروج إلى حدّ الملل أو الهزيمة في القراءة»^(١).

وأختم بما جاء في (مختصر منهاج القاصدين): «ومنهم - يعني السلف - مَنْ كان يختم في ثلاث، ومنهم مَنْ كان يختم في أسبوع، ومنهم مَنْ كان يختم في كلِّ شهر، اشتغالاً بالتدبُّر أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوع من التَّعبُد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا.

وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمَّة، ولا يُؤذيه في بدنه، ولا يفوت معه الترتيل والفهم»^(٢).

٢٥ - مشروعية «تحزيب القرآن»:

تحزيب القرآن من السنن المهجورة - بل المجهولة - عند كثير من طلاب العلم، فضلاً عن حاشية الناس. في حين كان الأمر متواتراً ومعلومًا عند السلف الصالح، فقلَّما نقرأ في ترجمة أحدهم إلَّا ونجد أنه كان يختم القرآن في كذا وكذا»^(٣).

تعريف «الجزب»:

قال ابن فارس تَكْتَبُ: «الحاء والزَّاء والباء أصلٌ واحد، وهو تجمُّع الشيء. فمن ذلك: الجزبُ: الجماعة من الناس، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ جِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ رَئِوْنٌ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. والطائفة من كلِّ شيءٍ جزبٌ»^(٤).

وقال ابن الأثير تَكْتَبُ: «الجزبُ: ما يجعله الرَّجل على نفسه من قراءة، أو صلاة، كالورد. والجزبُ: التَّوبَةُ في وُرُود الماء»^(٥).

ومعنى ذلك: أن يجعل المسلم لنفسه نصيباً يومياً يقرؤه ويتعاهد نفسه عليه، بحيث يختم القرآن في كلِّ أربعين يوماً، أو في شهر، أو عشرين يوماً، أو خمسة عشر، أو عشرة، أو سبعة، أو غير ذلك.

(١) الأذكار (ص ١٥٤).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لأحمد بن محمد المقدسي (ص ٥٥).

(٣) انظر: تحزيب القرآن (ص ٤٠).

(٤) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٩١)، مادة: (حزب).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٧٦)، مادة: (حزب).

* والأصل في مشروعية «تحرزيب القرآن»: الروايات المتقدمة في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وتقدم أيضاً أن أكثر السلف الصالح يهتمون القرآن في (سبع).

* وجاء تحديد هذا التحزيب في قول أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه: «سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ تُحَرِّبُونَ^(١) الْقُرْآنَ؟». قالوا: «ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِخْدَى عَشْرَةً، وَثَلَاثَ عَشْرَةً، وَجِزْبُ الْمُفْصَلِ وَحْدَهُ»^(٢).

وفي (هون المعبود) في شرح الحديث: «كيف تُحَرِّبُونَ الْقُرْآنَ»: كيف تجعلونه المنازل. والجزب: هو ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة. (قالوا: ثَلَاثٌ) أي البقرة، وآل عمران، والنساء. فهذه السُّورُ الثلاثة مَنزِلٌ واحدٌ من سَبْعِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ. (وَخَمْسٌ) مِنَ الْمَائِدَةِ إِلَى الْبَرَاءَةِ. (وَسَبْعٌ) مِنْ يُونُسَ إِلَى النَّحْلِ. (وَتِسْعٌ) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْفِرْقَانِ. (وَإِخْدَى عَشْرَةً) مِنَ الشُّعْرَاءِ إِلَى بَسِّ. (وَثَلَاثَ عَشْرَةً) مِنَ الصَّافَاتِ إِلَى الْحَجَرَاتِ. (وَجِزْبُ الْمُفْصَلِ وَحْدَهُ) مِنْ قَافٍ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ كَانَ تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ مَشْهُورًا عَلَى هَذَا التَّمَطِّ الْمَعْرُوفِ الْآنَ»^(٣).

التَّحْرِيبُ بِالسُّورِ لَا بِالْأَجْزَاءِ:

تحدث ابن تيمية رحمته الله عن هذه المسألة بإسهاب، واختار أن التحزيب

(١) (تحرزبون): من التحزيب: وهو تجزئة القرآن، واتخاذ كل جزء حزباً له.

(٢) رواه أبو داود (٥٥/٢) (ح ١٣٩٣)، واللفظ له. وابن ماجه (٤٢٧/١) (ح ١٣٤٥)، وأحمد في «المسند» (٩/٤) (ح ١٦٢١١). وفي سننه: عثمان بن عبد الله ابن أوس الثقفي. قال ابن حجر في «التقريب»: «مقبول». وقال الذهبي في «الميزان»: «محلل الصدق». وذكره ابن حبان في «الثقات». وحسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢٧٦/١)؛ وابن حجر كما في «الفتوحات»، لابن علان (٢٢٩/٣)؛ واحتج به ابن تيمية - في حديثه عن التحزيب، كما في «مجموع الفتاوى» (٤٠٨/١٣ - ٤٠٩). وانظر: تخريج الأرنؤوط في «جامع الأصول» (٤٧٥/٢)، وتخرجه الوادعي في «تفسير ابن كثير» (١٨/١)؛ وضغفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (ص ١٣٦) (ح ٢٩٧)؛ و«ضعيف سنن ابن ماجه» (ص ١٠٠) (ح ٢٨٣).

(٣) (١٩٠/٤).

المشروع هو أن يكون بالسور وليس بالأجزاء، أو الأحزاب. وذلك للأمور الآتية:

أولاً: أنَّ المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم هو التحزيب بالسور، لا بالأجزاء، واستدلَّ لذلك بما جاء عن أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه ^(١)، وهذا يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، في أن المسنون عندهم قراءته في سبع، ولهذا جعلوه سبعة أحزاب، ولم يجعلوه ثلاثة، ولا خمسة ^(٢).

ثانياً: أنَّ الأجزاء والأحزاب مُخلَّطة، وفي حديث أوس أنهم حزَّبوا القرآن بالسور، قال ابن تيمية رحمته الله: «وهذا معلوم بالتواتر؛ فإنه قد علم أن أول ما جُزئ القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين، وثلاثين، وستين. هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السورة، وأثناء القصة ونحو ذلك، كان في زمن الحجاج وما بعده، ورُوي أن الحجاج أمر بذلك. ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك» ^(٣).

ثالثاً: أنَّ هذه التحزيبات المُخلَّطة تتضمَّن - دائماً - الوقف على بعض الكلام المتَّصل بما بعده، وتتضمَّن أيضاً الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه، ثمَّ يأتي القارئ - في اليوم الثاني - مبتدئاً بمعطوف، كقوله تعالى: ﴿وَالنَّمَسْتُكَ مِنْ أَلْسَانِهِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ [النساء: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ إِلَىٰ وَرَسُولِهِ...﴾ [الأحزاب: ٣١]. وأمثال ذلك.

وتتضمَّن كذلك الوقف على بعض القصة دون بعض - حتى في كلام المتخاطبين - ثمَّ يحصل الابتداء - في اليوم الثاني - بكلام المجيب، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَقْرَبُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

ومثلُ هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي؛ ولهذا لو ألحق بالكلام عطف، أو استثناء، أو شرط، ونحو ذلك - بعد طول الفصل بأجنبي - لم يسغ ذلك بلا نزاع ^(٤).

(١) وقد تقدَّم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٤٠٨/١٣ - ٤٠٩).

(٣) المصدر نفسه (٤٠٩/١٣).

(٤) انظر: المصدر نفسه (٤١٠/١٣ - ٤١١).

رابعاً: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانت عادته الغالبة أن يقرأ - في الصَّلَاة - بسورة كاملة كـ «ق» ونحوها، وكذا عادة أصحابه رضي الله عنهم، فكان ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ بـ «يونس»، و«يوسف»، و«النحل». وأمَّا القراءة بأواخر السُّور وأوساطها فلم يكن غالباً عليهم.

قال ابن تيمية رحمته الله: «وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد، كان ذلك من جنس تجزئته بالسُّور أيضاً تقريب، فإنَّ بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض في الحروف، وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض، والافتتاح بما فَتَحَ اللهُ به السُّورة، والاختتام بما خَتَمَ به، وتكميل المقصود من كلِّ سورة ما ليس في ذلك التَّحزيب.

وفيه أيضاً من زوال المفاسد الذي في ذلك التَّحزيب ما تقدَّم التَّنبيه على بعضها»^(١).

وعلى كلِّ حال: لا يليقُ بطلاب العلم والدُّعاة إلى الله تعالى - الذين يحملون في صدورهم همَّ الإصلاح، والتَّغيير، ودعوة النَّاس للخير - ألا يكون لهم نصيب من كتاب الله تعالى يلتزمون به قلُّ أو كثر.

ومهما ادَّعى الواحد منهم كثرة المشاغل، فهي دعوى تحتاج إلى بيَّنة، وهو دليل على قلة اهتمامه بتزكية نفسه، والتَّزود بالتَّقوى، فمتى كانت تلاوة القرآن، وإصلاح النَّفس، وعبادة الله تعالى ممَّا لا يُفعل إلا وقت الفراغ؟^(٢).

ثمرات التَّحزيب:

* في التَّحزيب تحقيقٌ لهديه تعالى في المداومة على العمل الصَّالح، وكان تعالى يقول: «أَحَبُّ الْأَهْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(٣). وفيه تأسُّ بالسُّلف الصَّالح رضي الله عنهم.

* وفيه أنَّ العبد يُكتب له حظه إذا شغَّله عنه مرض، أو سفر؛ لقوله تعالى:

(١) المصدر نفسه (١٣/٤١٤).

(٢) انظر: تحزيب القرآن (ص ٥٣ - ٥٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام اللَّيْلِ وغيره (١/٥٤١) (ح ٧٨٣).

«إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ يَمْلُ مَا كَانَ يَمْعَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(١).

* وفيه تعاهد للقرآن العظيم، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًا مِنَ الْإِبِلِ مِنَ عُقْلِيهَا»^(٢).

٢٦ - مشروعية «دعاء ختم القرآن»:

الأصل في دعاء ختم القرآن ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «كَانَ إِذَا خَتَمَ الْقُرْآنَ جَمَعَ أَهْلَهُ فِدْعَاءً»^(٣). وجاء مثل ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين، فدعاء ختم القرآن مأثور من عمل السلف الصالح.

ولا يوجد دعاء بألفاظ مخصوصة عند ختم القرآن، وكثرة أدعية ختم القرآن المنتشرة والمتداولة بين الناس ليست دليلاً على مشروعيتها، وليس هناك نص مرفوع إلى النبي ﷺ تقوم به حجة في التزام دعاء يقال عند ختم القرآن الكريم. ومن أشهر الأدعية المنتشرة بين الناس (دعاء ختم القرآن العظيم) لابن تيمية، وهو منسوب إليه، ولا يصح نسبه إليه بحال^(٤).

موضع دعاء الختم خارج الصلاة:

لقد استقصى الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله - مرويات دعاء ختم القرآن، وأقوال أهل العلم فيها، بما قد لا يوجد في مكان آخر، وقال - في خلاصة ما توصل إليه:

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: يُكْتَبُ لِلْمُسَافِرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَمْعَلُ فِي الْإِقَامَةِ (٩٢١/٢) (ح٢٩٩٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (١٦٢١/٣) (ح٥٠٣٣).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهدة» (ص٢٧٩) (رقم ٨٠٩)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٢٨) (رقم ٣٠٠٣٨)؛ وابن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص١٠٩)؛ والدارمي في «سننه» (٥٦٠/٢) (رقم ٣٤٧٤)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١٤٠/١) (رقم ٢٧)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤٢/١) (رقم ٦٧٤)؛ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٢/٧): «رجالها ثقات» وقال ابن علان في «شرح الأذكار» (٢٤٤/٣): «بإسناد الصحيحين».

(٤) انظر: الأجزاء الحديثية، د. بكر بن عبد الله أبو زيد (ص٢٣٩).

«وعليه: فإن خلاصة النتيجة الحُكْمِيَّة في هذين المقامين تتكوّن في أمرين:

الأول: أن دعاء القارئ لختم القرآن خارج الصلّاة، وحضور الدعاء في ذلك، أمر مأثور من عمل السلف الصّالح من صدر هذه الأمة، ...

الثاني: أن دعاء ختم القرآن في الصلّاة، من إمام أو منفرد، قبل الرُّكُوع أو بعده، في (التراويح) أو غيرها: لا يُعرف ورود شيء فيه أصلاً عن النبي ﷺ، ولا عن أحدٍ من صحابته مُسنداً...»^(١).

أمور لا تُشرع عند الختم:

ذكر الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله - سبعة أمور تتعلّق بالختم، لا يصحُّ فيها شيء عن النبي ﷺ، ولا عن صحابته رضي الله عنهم، وهي على النحو التالي:

١ - إكمال الختم وتتمّته. ومعناه: أن يقرأ المأموم ما فات الإمام من الآيات، وأن يُعيد الإمام - بعد الختم - ما فاته من الآيات.

٢ - استحباب ختمه في مساء الشتاء، وصباح الصيف.

٣ - وضلُّ ختمه بأخرى بقراءة الفاتحة، وخمس آيات من سورة البقرة.

٤ - تكرار سورة الإخلاص ثلاثاً.

٥ - التكبّير في آخر سورة الضُّحى إلى آخر سورة الناس داخل الصلاة وخارجها. ولم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ.

٦ - صيام يوم الختم.

٧ - دعاء الختم داخل الصلّاة^(٢).

فكلُّ هذه الأمور وأمثالها ممّا لا تقوم به حُجّة، فالصحيح عدم مشروعيتها.

(١) الأجزاء الحديثية (مجلد)، ضمن خمس رسائل، منها: مرويات دعاء ختم القرآن الكريم (ص ٢٩٠).

(٢) انظر: تصحيح الدعاء (ص ٢٩٠ - ٢٩١).

المبحث الرابع

فضائل تلاوة القرآن

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التلاوة تجارة رابحة.

المطلب الثاني: تَنَزَّلُ السَّكِينَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْمَلَائِكَةُ لِلتَّلَاوةِ.

المطلب الثالث: احتياط صاحب التلاوة.

المطلب الرابع: التلاوة حلبة لأهل الإيمان.

المطلب الخامس: التلاوة كلُّها خير.

فضائل تلاوة القرآن

تمهيد:

كان رسول الله ﷺ يُكثر من تلاوة القرآن العظيم، فكان يقرؤه قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، ومتوضئاً، ومُحْدِثاً، وفي سيره وركوبه، وسائر أحواله. وهذه من الأعمال التي كان يعملها رسول الله ﷺ أحياناً لبيان جوازها، ولكن يُؤخَذُ منها أنه ﷺ كان يقرأ القرآن في سائر أحواله. وقد حَثَّ النبيُّ ﷺ أصحابه على قراءة القرآن بصفة فردية أو جماعية، وفي البيوت، وفي المساجد.

وكان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه إلى قراءة القرآن في الطُرُقَات بلسان حاله، فنلاحظ أن آيات كثيرة نزلت عليه ﷺ في طريق سفره فكان يقرأ بها، وهي دعوة غير مباشرة منه ﷺ إلى الاقتداء به في القراءة حتى في الطريق.

وأما دعوته ﷺ إلى القراءة بِوَرْدٍ يَوْمِي، فنجدها في قوله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»^(١).

وفي هذا دعوة منه ﷺ إلى ملازمة الوَرْدِ اليومي من قراءة القرآن العظيم.

وَكُلُّ هذا يريد به ﷺ حَثُّ أُمَّتِهِ عَلَى الْإِكْتِثَارِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ ليعيش معهم في كلِّ شؤون حياتهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً^(٢).

وفضائلُ تلاوة القرآن العظيم كثيرة ومباركة، تعود بالخير على صاحبها في الدنيا والآخرة، ولو يعلم المسلمون ما في التلاوة من الفضائل والمغانم لما

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: جامع صلاة الليل (١/٥١٥) (ح٧٤٧).

(٢) انظر: يعلمهم الكتاب التعامل مع القرآن الكريم (ص٤٢ - ٤٣).

تركوا كتاب الله تعالى من بين أيديهم، يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، والحديث عن أمم هذه الفضائل نجده في المطالب الآتية:

المطلب الأول

التلاوة تجارة رابحة

١ - يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٠﴾ لِيُؤْتِيَهُمَ أَجْرَهُم مِّنْ فَضْلِنَا إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠]. فهذا ثناء من الله تعالى على قراء القرآن العظيم.

قال القرطبي تَلَاةً: «هذه هي آية القراء العالمين»^(١). فقد أخبر الله تبارك وتعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً أنهم يرجون عند الله تعالى ثواباً لا بد من حصوله.

وكان مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ تَلَاةً^(٢)، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء»^(٣).

ومعنى: ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوته وهي شأنهم ودينتهم، حتى صارت بسمّة لهم وعنواناً^(٤).

فهذا ثناء من الله تعالى على قراء القرآن العظيم أنهم يستمرون على تلاوته ويداومون عليها، فهم يتلون ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتبّعها واستخراجها^(٥).

(١) تفسير القرطبي (١٤/٣٤٥).

(٢) هو مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ (أبو عبد الله) الحرشي العامري البصري، أحد أئمة التابعين، فقيه، عابد، مُجَابِ الدَّعْوَةِ، له فضل وورع وعقل وأدب، قال العجلي: «كان ثقة لم ينحُ بالبصرة من فتنة ابن الأشعث إلا هو وابن سيرين». توفي سنة (٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/١٨٧ - ١٩٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٥٦٧).

(٤) انظر: الكشاف (٣/٦٢١)؛ تفسير أبي السعود (٧/١٥١).

(٥) انظر: فتح القدير (٤/٣٤٨)؛ تفسير السعدي (٤/٢١٦).

فهؤلاء الضالكون، يرجون بأفعالهم الصالحة: ﴿يَحْتَسِرُونَ لَنْ تَكْبُرُوا﴾ أي: لن تكسد ولن تهلك.

يقال: بارت السوق إذا كسدت، وباز الطعام إذا فسد^(١).

وجاءت صفة هذه التجارة الرباحة بأنها: ﴿لَنْ تَكْبُرُوا﴾ أي: لن تهلك بالخسران أصلاً، للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدنيوية الدائرة بين الربح والخسران؛ لأنه اشتراء باقي بغان، والإخبار بأنهم يرجون ذلك من أكرم الأكرمين، وغدً مقطوع ومضمون بحصول مرجوهم^(٢).

فهذه تجارة من أجل التجارات، وأعلها، وأفضلها، ألا وهي رضا الرحمن جلّ جلاله، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه^(٣).

فهل من مُشَمِّرٍ إلى الجنة بالإكثار من تلاوة القرآن؛ فلنها تجارة رابحة ومضمونة عند أكرم الأكرمين القائل في كتابه العزيز: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: ليوقيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تحطّر لهم، ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ﴾، أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم^(٤).

فالله سبحانه وغد أهل القرآن العاملين به بعظيم الأجر وأن يزيدهم من لذه تفضلاً وتكرماً، وهذه الزيادة لا يعلم مقدارها إلا الله ذو الفضل العظيم.

٢ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ «آلِفٌ» حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا مٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣٢/٢٢)؛ تفسير السمرقندي (٥٣٢/٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١٥١/٧). (٣) انظر: تفسير السعدي (٢١٧/٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٥٦٧/٦).

(٥) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر (١٧٥/٥) (ح ٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب» وصححه الحاكم، ووافقه

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «تَعَلَّمُوا هَذَا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّكُمْ تُؤَجَّرُونَ بِتِلَاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الزَّيْلُ﴾ وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَا مٌ وَبِيَمٍ».

وفي رواية أخرى أنه قال: «أَلِفٌ وَلَا مٌ وَبِيَمٍ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً»^(١).

قال المباركفوري رحمته الله: «والحرف يُطْلَقُ عَلَى حَرْفِ الْهَجَاءِ، وَالْمَعَانِي، وَالْجُمْلَةِ الْمَفِيدَةِ، وَالْكَلِمَةِ الْمَخْتَلَفِ فِي قِرَاءَتِهَا، وَعَلَى مُطْلَقِ الْكَلِمَةِ»^(٢).

ويشير هذا الحديث العظيم إلى عذة أمور:

أولاً: أَنَّ فِي تِلَاوَةِ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تعالى عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَهَذَا هُوَ أَقْلُ التَّضَاعَفِ الْمَوْعُودِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].
 ﴿وَأَلْفٌ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ يَسْئَلُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وَلَاشَكَّ أَنَّ زِيَادَةَ الْأَجْرِ وَمِضَاعَفَتَهُ تَنْتَاسِبُ وَحَالَ الْقَارِئِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّوْبَتِ وَالْمُتَابَعَةِ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

ولذا قال أبو ذر رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا وَأَزِيدُ. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاؤُهُ سَبْعَةَ مِثْقَالِهَا. أَوْ أَهْفِئْرًا»^(٣).

= الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٩/٣) (ح ٢٣٢٧)؛ «صحيح الجامع»: (١١٠٣/٢) (ح ٦٤٦٩).

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن»، باب: فضل قراءة القرآن والاستماع إليه (ص ٢٥)، والدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (٢/٣٠٢) (رقم ٣٣٠٨)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١٤٠) (رقم ٨٦٥٨)؛ والقرطبي في «فضائل القرآن» (ص ١٦٩) (رقم ٦٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه»، كتاب فضائل القرآن، باب: ثواب من قرأ حروف القرآن (١٠/٤٦٢) (رقم ٩٩٨٣).

وأورده الألباني في: «السلسلة الصحيحة» (٢/٢٦٧) (رقم ٦٦٠).

وقال: د. إبراهيم علي السيد في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» (ص ٤٠): «إسناده حسن، فيه عمر بن عبيد صدوق، وبقية رجاله ثقات».

(٢) تحفة الأحوذى (٨/١٨٢).

(٣) رواه مسلم. كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الذكر والدعاء، والتقرب إلى الله (٤/٢٠٦٨) (ح ٢٦٨٧).

قال النووي رحمته: «معناه أن التضعيف بعشرة أمثالها لا بد منه بفضل الله، ورحمته، ووعده الذي لا يُخلف، والزيادة بعد بكثرة التضعيف إلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة، يُحصلُ لبعض الناس دون بعض على حسب مشيئته تعالى»^(١).

ولا نكاد نجد ذكراً ينال صاحبه مثل هذا الأجر به كما ينال من يتلو القرآن، فكم من الحسنات ينالها من قرأ سطرأ أو وجهاً أو جزءاً من كتاب الله؟! وإذا علمنا أن الناس يتنازعون يوم القيامة على حسنة واحدة يُثقلون بها موازينهم أدر كنا عظمة هذا الأجر الذي ينتظر من يتلون كتاب الله حق تلاوته.

فيا عجباً لهذا الطالب الذي يستغرق - صابراً أو متصبِّراً - في دراسة كتاب مقرر عليه عشرات الساعات، وربما العديد من الأيام والأسابيع، ثم يُعيدهُ ويلخصه ويراجعه، وقد يحفظ مُعظمهُ غيباً أو شبه غيباً؛ ليحصل على الدرجة الكاملة يحقق بها جزءاً من الثَّجَّاح في أمر دنيوي، وقد لا ينجح في مسعاه، ثم تجده زاهداً في كتاب الله، غير صابرٍ على قراءته وتدبر معانيه، أليس من الجهل وعمى البصيرة - إذن - أن ينصرف المسلم عن تلاوة القرآن العظيم، وفيه من الخيرات والبركات الدنيوية والأخرية ما فيه؟ وهي مضمونة ومكتوبة له عند ربِّ العالمين.

ثانياً: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ﴾ [هود: ١١٤]. ويقول في الثَّانِيين العاملين: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. فبفضل ما يتلوه المسلم من كتاب الله تعالى، وبما يكتبه من حسنات مضاعفة، قد يمحو الله ما اكتسب من أوزار ومعاصي.

فكلُّ ابن آدم خاطئ، ولا أحدٌ ينجو من ارتكاب سيئة أو سيئات، أو الوقوع في ذنب صغير أو كبير، فالمسلم بحاجة دائمة ليكفر عن ذنبه، بل ويبدل الله الكريمُ سيئاته حسنات، خاصة إذا توافرت منه شروط التوبة من جهة، وشروط التلاوة المطلوبة من جهةٍ أخرى.

ثالثاً: كلما ازداد المؤمن استكثاراً من التلاوة ازداد رُقياً عند الله ﷻ. وتحوّل من صفة ومنزلة إلى منزلة أعلى وأعظم:

فمن تميم الداربي رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ»^(١).

قال المناوي رحمه الله: «أي: عبادتها»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَامَ بِمِئَةِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَائِمِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْتَدِرِينَ»^(٣).

ومعنى: «كُتِبَ مِنَ الْقَائِمِينَ» أي: من القائمين الخاشعين المصلين.

ومعنى: «كُتِبَ مِنَ الْمُقْتَدِرِينَ» أي: المالكين مالاً كثيراً، والمراد كثرة الأجر. وقيل: ممن أُعْطِيَ أَجْرًا عَظِيمًا»^(٤).

وقد يبدو لأوّل وهلة أنّ قراءة ألف آية في اليوم من الأمور الصعبة، ولكن عندما نعلم أن تلاوتها لا تستغرق من أحدنا أكثر من ساعة ونصف تقريباً، بتلاوة مُتَأَنِّية ندرك أن ذلك ليس من الصعوبة في شيء.

فأخبر جزءين في القرآن الكريم: (تبارك. وهم) قرابة ألف آية^(٥).

رابعاً: إنّ تلاوة القرآن العظيم تزداد وتعمم إذا كانت في الصلاة، كما مرّ بنا في حديث عبد الله بن عمرو رحمه الله الآنف الذكر.

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٠٣/٤) (ح١٦٥٥٥)؛ والدارمي في «سننه» (٣٣٧/٢) (ح٢٤٥٠)؛ والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٥٣) - وهو في «عمل اليوم والليلة» (٧١٧)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٣/٢) (ح٦٤٦٨).

(٢) فيض القدير (٥٩٥١/١١).

(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٨١/٢) (ح١١٤٤)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٦/٣١٠) (ح٢٥٧٢)؛ وأبو داود في «سننه» (٥٧/٢) (ح١٣٩٨)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٣/١) (ح١٢٤٦).

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٩٢/٤).

(٥) بلغ عدد آيات جزءي «تبارك، وهم» برواية حفص عن عاصم الكوفي رحمه الله: (٩٩٥)، فإذا أضفنا عدد آيات سورة الفاتحة - وهي ركن في الصلاة - تجاوز العدد (١٠٠٠) آية. ولا يعني ذلك أن يقتصر المسلم على تلاوتها في صلاته دون غيرها.

ذلك أن الثَّالِي في الصَّلَاة يجمع أكثر من أجر في وقت واحد، فله أجر الصَّلَاة، وأجر الذِّكْر، وأجر التَّلَاوة، ويتضاعف ذلك مع التَّدْبِير والخشوع وحضور القلب.

وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ الأجرَ الكبير الذي يفوز به القارئ في صلاته بِمِثَالٍ جميلٍ مُعَبَّرٍ:

فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَجِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَحِدَّ فِيهِ ثَلَاثَ خِلْفَاتٍ»^(١) عِظَامَ سِمَانٍ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «ثَلَاثُ آيَاتٍ يقرأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خِلْفَاتٍ عِظَامَ سِمَانٍ»^(٢).

فلأن يقرأ المسلم آية من كتاب الله في صلاته خير له من أن يتصدَّق بناقية حامل عظيمة سميئة، وآيتين خير له من ناقتين، وثلاثاً خير له من ثلاث. وكأنما تلد الحسنات الحسانات، والله يُضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم. نسال الله الكريم من فضله وجوده وكرمه^(٣).

المطلب الثاني

تَنْزُلُ السَّكِينَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَلَائِكَةُ لِلتَّلَاوَةِ

بما ورد في فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وتعلُّمه ومدارسته، وبخاصة إذا كان ذلك في المسجد الذي هو مهوى أفئدة المؤمنين، حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَلَّسُونَ»^(٤) بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ»^(٥)، وَهَشِيْبَتُهُمْ

(١) (خِلْفَاتٍ): الخلفات الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها. ثم هي عشار. والواحدة خليفة وعشراء. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨٩/٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة (٥٥٢/١) (ح ٨٠٢).

(٣) انظر: أنوار القرآن (ص ٧٩ - ٨٤).

(٤) (يتدلَّسون): يقرؤونه ويتعمَّدون تلاوته. وقيل: التدارسُ قراءة بعضهم على بعضٍ تضحيجاً لألفاظه، أو كشفاً لمعانيه. انظر: تحفة الأحوذني (٢٦٨/٨)؛ النهاية في غريب الحديث (١١٣/٢)، مادة: (درس).

(٥) (السَّكِينَةُ): الوفاء والثاني والسكون. وقيل: الرَّحْمَةُ. وقيل: خلُقٌ رقيق كالرَّيح والهواء.

الرَّحْمَةِ^(١) وَحَفَّتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ^(٢)، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ جِئَهُ^(٣).

هذا الحديث من أعظم البشارات التي يُبشِّرُ بها النبي ﷺ المجتمعين لتلاوة القرآن وتدارسه، فقد رَغِبَهُمُ في مدارسته وحَثَّهُمُ على ذلك لما فيه من عزِّهم وشرفهم، وصلاح أحوالهم، ولما فيه من الأجر العظيم عند الله تعالى، سواء أكان اجتماعهم في المسجد أم في غيره من المدارس أو البيوت.

قال النووي رحمته: «وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد. وهو مذهبنا، ومذهب الجمهور،... ويلحق بالمسجد في تحصيل الفضيلة الاجتماع في مدرسة، ورباط، ونحوها إن شاء الله تعالى»^(٤).

ويدلُّ عليه حديثُ أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما: «أَنْهَمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَحَشِيَّتَهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ جِئَهُ»^(٥).

وما أظنُّ مجلساً من مجالس الخير تتكاثر فيه البركات، وتنهمر عليه الرِّحْمَاتُ، ويعود على المسلمين بالأجر الجزيل، والفضل العظيم، كمجلس قرآنٍ فيه تَدَارُسٌ وتَعَاهُدٌ وتَعَلُّمٌ وتعليم، ومَنْ حضره نال أربع جوائز عظيمة، وهي كالاتي:

الجائزة الأولى: تَفَرُّلُ الشَّكِينَةِ عَلَيْهِمُ:

إِنَّ أَوَّلَ مَا يُتَحَفُّ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمَجْتَمِعُونَ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدْبِيرِهِ، نَزُولُ

= «النهاية في غريب الحديث» (٣٨٦/٢)، مادة: (سكن).

(١) «حشيتهم الرحمة»: أي غطتهم الرحمة. وغشاه تغشياً إذا غطاه، وغشي الشيء إذا لابه.

«النهاية في غريب الحديث» (٣٦٩/٣)، مادة: (غشي).

(٢) «حفتهم الملائكة»: أي دارت حولهم.

«النهاية في غريب الحديث» (٤٠٨/١)، مادة: (حفت).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٢٠٧٤/٤) (ح ٢٦٩٩).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٤/١٧).

(٥) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٢٠٧٤/٤) (ح ٢٧٠٠).

السكينة عليهم، وهي الطمأنينة والراحة النفسية، فلا يصيبهم ما يملأ قلوب الآخرين من قلق واضطراب وأمراض نفسية وعقيد ومخاوف جعلت حياة هؤلاء جحيماً لا يُطاق^(١).

ومعنى السكينة: السكون والطمأنينة التي يطمئن إليها القلب ويسكن بها عن الرعب. وقيل: هي الرحمة. وقيل: الوقار. وقيل: هي ملائكة الرحمة^(٢).

قال ابن حجر **تَفَتُّهُ**: «والذي يظهر أنها مقولة بالاشتراك على هذه المعاني، فيحمل كل موضع وردت فيه على ما يليق به»^(٣).

وقال النووي **تَفَتُّهُ**: «المختار أنها شيء من المخلوقات فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة»^(٤).

وقد تنزلت السكينة لأحد الصحابة وهو يقرأ القرآن:

فمن البراء بن عازب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطْنَيْنِ^(٥)، فَتَفَتَّتَهُ^(٦) سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَذْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ^(٧)، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «بَلِّغْ السَّكِينَةَ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ»^(٨).

وفي لفظ قال البراء بن عازب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ ذَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَظَنَرَ إِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ. قَالَ: فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**. فَقَالَ: «اقْرَأْ، فَلَنْ أِفْنَاهَا السَّكِينَةَ تَنَزَّلَتْ هِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ»^(٩).

(١) انظر: ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٥).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٧/٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٨٢/٦).

(٤) (شَطْنَيْنِ): بفتح الشين المعجمة والطاء، تثنية شطن، وهو الحبل الطويل. وإنما شدّه بشطنين لقوته وشِدْته. «النهاية في غريب الحديث» (٤٧٥/٢)، مادة: (شطن).

(٥) (تَفَتَّتَهُ): أي علته وقربت منه. «النهاية في غريب الحديث» (٣٦٩/٣)، مادة: (غشا).

(٦) (يَنْفِرُ): أي يشب ويحول. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨٢/٦).

(٧) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة الكهف (١٦١٥/٣) (ح ٥٠١١).

(٨) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (٥٤٨/١) (ح ٧٩٥).

جاء في (تحفة الأحوذى) عن الطيبي رحمته: «فإن المؤمن تزداد طمأنينته بأمثال هذه الآيات إذا كُوِّفَ بها»^(١).

وهذا الرجل الذي كان يقرأ القرآن قيل: هو أَسِيدُ بْنُ خُضَيْرٍ رضي الله عنه، كما سيأتي حديثه قريباً أنه كان يقرأ سورة البقرة، وفي هذا الحديث كان يقرأ سورة الكهف، وهذا يدل على تعدد القصة^(٢).

وكثيراً ما يمتنُّ الله جلَّ جلاله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى عباده المؤمنين بتنزل السكينة عليهم؛ لأنها فضلٌ عظيم من الله تعالى، وراحةٌ عظيمة للمؤمن، مثال ذلك ما كان في صلح الحديبية، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فقد امتنَّ الله تعالى على عباده المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم.

وهي: السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المبحن المقلبة التي تُشوش القلوب وتُضعِفُ النفوس. فَمِنْ نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يُثبته، ويربط على قلبه، ويُنزِل عليه السكينة، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه.

فالصَّحابة رضي الله عنهم، لما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، من تلك الشُّروط التي ظاهرها أنها غضاضةٌ عليهم وخطٌّ من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس.

فلَمَّا صَبَرُوا عليها، ووطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم^(٣).

والقلوب كثيراً ما تمتلئ بالهموم والأحزان والاضطرابات، فإذا ما جلس المؤمن مع إخوته يتحلَّقون حول كتاب الله تعالى ويتدارسونه فيما بينهم زال كلُّ ذلك عنهم ونزلت عليهم السكينة.

فأين أولئك الذين يلتجئون إلى العبادات النَّفسية؛ ليتخلصوا من همومهم وآلامهم النَّفسية التي تُحاصرهم، أين هم من المجالس التي تنزل على أصحابها

(١) تحفة الأحوذى (١٥٦/٨).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٧/٩).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٤/٥).

السُّكِينَةَ، فليفروا من مجالس المعاصي والآثام والموبقات إلى مجالس النور والسُّكِينَةِ؛ ليفسّلوا قلوبهم، ويُطهّروا أنفسهم، ويرتاحوا من آلامهم^(١).

الجانزة الثانية: تغشاهم الرحمة:

الرَّحْمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ، بَلْ تَغْشَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَأَهْلُ هَذَا الْمَجْلِسِ هُمْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وجزاء أهل الإحسان عند الله عظيم، فَإِنَّ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤]. ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٣ - ٤٤].

والله تعالى يُجِبُّهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ورحمة الله تعالى خير لهم مما يجمعه أهل الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. عند ذلك نعلم يقيناً أن ما يجنيه أهل مجلس التلاوة والمدارسة من الخير العظيم لا يوازيه كلُّ شيء يجمعه أهل الدنيا من الحطام الرّائل.

وقد سَمَى اللهُ تعالى وحيه إلى أنبيائه بالرحمة، كما قال تعالى مُخْبِراً عَنْ نُوحٍ ﷺ: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَيَّ يَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَأَنزَلُ بِهِ سَلَاطِينَ لِيُصَلِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَدْبَرْتُ لَكُمْ دُبْرِيَّ فَرْحَمْتُمْ﴾ [هود: ٦٨]. يشير إلى ما اختصه الله تعالى من الوحي والعلم والحكمة.

وكذلك قال صالح ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣].

ومن باب أولى أن يُسَمَّى القرآن العظيم بالرحمة، فقد قال الله تعالى لنبية الكريم ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]^(٢).

وإذا كانت رحمة الله قد وسعت كلُّ شيء، وأحاطت بكلُّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فهي بِأَنَّ تَسَعَ أَهْلَ الْقُرْآنِ

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ١٠٧ - ١٠٨).

(٢) انظر: النهج الأسى في شرح أسماء الله الحسنى (١/٧٨).

وَتَلَاةَ أَحَقُّ وَاجِدِرُ^(١).

الجانزة الثالثة: تخفهم الملائكة:

فتخفهم الملائكة الكرام بأجنتها تشريفاً وتعظيماً لهم، ولَمَّا اجتمعوا عليه.

وقد تنزلت الملائكة الكرام ودنت من الصحابي الجليل أسيد بن حضير رضي الله عنه وهو يقرأ القرآن الكريم: فعن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس^(٢)، فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فأنصرفت، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تُصيبه، فلما اجتره^(٣) رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير». قال: فأشفقتُ يا رسول الله أن تظأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعتُ رأسي فأنصرفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة^(٤) فيها أمثال المنصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذلك». قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنت لصورتك، ولو قرأت لأصبحت ينظرُ الناسُ إليها، لا تتوازي منهم»^(٥).

قال ابن حجر رحمته الله: «قال النووي: في هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة

(١) انظر: المصدر السابق (ص ١٠٩ - ١١٠).

(٢) «جالت الفرس»: أي وثبت واضطربت. قال في هذه الرواية: «جالت» فانت الفرس وهو صحيح؛ لأن الفرس يُطلق على الذكر والأنثى.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٣).

(٣) «فلما اجتره»: بجيم ومثناة وراء ثقيلة، والضمير لولده، أي: اجتر ولده من المكان الذي هو فيه حتى لا تظأ الفرس. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٦٤).

(٤) «الظلة»: هي ما بقي من الشمس. كسحاب، أو سقف بيت. «صحيح مسلم» (٥٤٨/١).

(٥) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٣/١٦١٧) (٨٠١٨)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (١/٥٤٧) (ح ٧٩٦).

للملائكة، كذا أطلق، وهو صحيح، لكن الذي يظهر التقييد بالصالح مثلاً والحسن الصوت، قال: وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة. قلت: الحكم المذكور أعم من الدليل، فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة بصفة خاصة، ويحتمل من الخصوصية ما لم يذكر، وإلا لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكل قارئ^(١).

وتنزلت الملائكة كذلك في مواقف الرسول ﷺ والمؤمنين في قتال الكافرين، وهي من أكرم المواقف عند الله تعالى: ﴿بَلِّغْ إِن تَصِيرُوا تَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وكذلك تنزل في ليلة القدر، أعظم الليالي عند الله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وهي كذلك تنزل لتحف المؤمنين، وهم يتلون القرآن العظيم ويتدارسونه فيما بينهم، وتنزل معها المغفرة والرحمة ورضى الله تعالى^(٢).

لجائزة الرابعة: يذكُرُهُمُ اللهُ فيمن عنده:

ومعنى: «ذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ جِنْدُهُ» أثنى عليهم، أو أثنى عليهم فيمن عنده من الأنبياء والملائكة الكرام^(٣).

وأى مكانة أكرم وأعظم من أن يذكر الله جلُّ جلاله وتقدست أسماؤه عبده الفقير الضعيف فيمن عنده في الملا الأعلى!

فمن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَا جِنْدُ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنِ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلَأِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأِ خَيْرٍ مِنْهُ»^(٤).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨١/٩).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١١٠).

(٣) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/٢٣٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الذكر والدعاء (٤/٢٠٦٨) (ح ٢٦٧٥).

ولقد ندب الله عباده المؤمنين إلى ذكره فقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا الْاَذْكَرَ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذكُرُ الله إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ.
وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: اذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِمَغْفِرَتِي ^(١).

فإِذَا عَلِمَ الْمَسْلُومُ أَنَّ عَظِيمًا مِنَ الْعِظْمَاءِ ذَكَرَهُ أَمَامَ حَاشِيَتِهِ أَوْ خَاصَّتِهِ بِخَيْرٍ وَأَتَى عَلَيْهِ، أَلَا تَمْتَلِي نَفْسَهُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، وَيَسْتَبْشِرُ بِذَلِكَ؟
وَاللهُ الْمِثْلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكَيْفَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَتَنَبَّأُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى؟ أَلَا يَسْتَبْشِرُ وَيُسْرَهُ؟
فإنَّ هَذَا مِنْ أَحْظَمِ الْحَوَافِزِ وَالذُّوْفَاعِ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى مَجَالِسِ الْقُرْآنِ الْمُبَارَكَةِ تِلَاوَةً وَتَدْرِيسًا وَتَدْبِيرًا وَعَمَلًا.

فهنيئاً لأهل القرآن بهذا الفضل العظيم والمنزلة الرفيعة، وعَجَباً مَنزُ يَهْدُ وَيَتَكَاسَلُ أَوْ يُعْرَضُ عَنِ مَجَالِسِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ^(٢).

المطلب الثالث

اغْتِبَاطُ صَاحِبِ التَّلَاوَةِ

١ - اغْتِبَاطُ التَّالِيِ لِلْقُرْآنِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ ^(٣): رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارُهُ لَهُ فَقَالَ: لَبِئْسَ أُوتَيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَدَجُلُ آتَاءَ اللهُ مَالاً فَهُوَ يَهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَبِئْسَ أُوتَيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ» ^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٩/١).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص ١١١)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٥).

(٣) «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»: الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه، والغبط: أن يتمنى أن يكون له مثلها ولا يتمنى زوالها، والمراد بالحسد هنا: الغبطة. النهاية: في غريب الحديث (٢٨٣/١)، مادة: (حسد).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن (١٦١٩/٣).

وفي لفظ آخر مرفوعاً: «لَا تَحَاسَدُ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ...» الحديث^(١).

ومعنى: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ».

«أي: لا رُخْصَةَ في الحسد إلا في خصلتين، أو لا يَحْسُنُ الحسدُ إن حَسُنَ، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين، كأنه قيل: لو لم يحصل إلا بالطريق المذموم لكان ما فيهما من الفضل حاملاً على الإقدام على تحصيلهما به، فكيف والطريق المحمود يمكن تحصيلهما به؟»^(٢).

قال النووي تَفْهِيماً: «قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي، ومجازي. فالحقيقي: تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع التصوص الصحيحة، وأما المجازي: فهو الغبطة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحديث: لا غِبْطَةَ محبوبَةً إلا في هاتين الخصلتين، وما في معناهما»^(٣).

فهذا الحديث يدلُّ دلالة واضحة على أن صاحب القرآن - الذي يتلوه آناه اللَّيْلُ وآناه النَّهَارُ - في غِبْطَةٍ، أي في فَرَحٍ وَحَسَنٍ حال، فينبغي أن يكون شديد الاغتراب بما هو فيه، وَيُسْتَحَبُ تَغْيِيطُهُ بذلك، يقال: غَبَطَهُ يَغْبِطُهُ بكسر الباء غِبْطاً؛ إذا تمنى مثل ما هو فيه مِنَ النِّعْمَةِ، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمنى زوال نعمة المحسود منه سواء حصلت لذلك الحاسد أم لا، وهذا مذموم شرعاً، وهو أوَّلُ معاصي إبليس حين حَسَدَ آدَمَ على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام^(٤).

والغِبْطَةُ ليست بحرام، بل رُبُّمَا كانت واجبة أحياناً، أو مندوبة، أو مباحة في أحيان أخرى، والله تعالى يقول: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

(١) رواه البخاري، كتاب التمني، باب: تمنى القرآن والعلم (٤/٢٢٦١) (ح ٧٢٣١).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩٢/٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٣٣٨).

(٤) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٢٠١).

ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَفْزَعٍ مِّنْ زَيْكِكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. والمسابقة منافسة، والمنافسة غبطة.

ولكن مجرد الثمني والغبطة لا يكفي بحال من الأحوال مادام المسلم قادراً على أن يكون خبيراً مما هو فيه، وآتاه الله تعالى من الوسع والطاقة والأسباب التي تُعينه على تحصيل القرآن والعلم الشرعي، ثم قد يتمنى فقط فهذا الثمني لا يُقدّم ولا يُؤخر^(١).

٢ - اغتباط القائم بالقرآن:

فمن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَحَطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ»^(٢).

وعن يزيد بن الأَخْنَسِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَنَافَسَ بَيْنَكُمْ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ أَحَطَاهُ اللَّهُ ﷻ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَحَطَانِي بِمِثْلِ مَا أَحَطَىٰ فَلَانًا، فَأَقُومَ بِهِ كَمَا يَقُومُ بِهِ...» الحديث^(٣).

قال ابن حجر رحمته الله: «والمراد بالقيام به العمل به مطلقاً، أعم من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه، والحكم والفتوى بمقتضاه»^(٤).

وهذا يُذكرنا بقول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مَائَاتَ آيَاتٍ وَهُمْ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢٥٢ - ٢٥٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن (١٦١٩/٣) (ح ٥٠٢٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٠٤/٤) (ح ١٧٠٠٧).

وقال مُحَقِّقُ الْمَسْنَدِ (١٦٨/٢٨) (ح ١٦٩٦٦): «صحيح لغيره».

وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠٥/١) (ح ٦٣٦): «حسن صحيح».

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٢١٩ - ٢٢٠).

والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فيمن آمن من أحمبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعيد، وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿يِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، مئبعة نبي الله فهي ﴿قَائِمَةٌ﴾، أي: مستقيمة عادلة. من قولك: أقمت العود فقام، أي استقام.

﴿يَتْلُونَ مَا كُنْتَ آتُو مَالِكَةَ آتِيْل وَهَمْ يَتَجُدُونَ﴾ أي: ساعاته، واحدها: إنى كعنى، أو إنو كفنو، أو إنى كنى. والمقصود أنهم يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم^(١).

قال ابن عاشور رحمته: «وجملة ﴿وَهَمْ يَتَجُدُونَ﴾ حال، أي يتهجدون في الليل بتلاوتهم كتابهم، فقيدت تلاوتهم الكتاب بحالة سجودهم. وهذا الأسلوب أبلغ وأبين من أن يقال: يتهجدون؛ لأنه يدل على صورة فعلهم»^(٢).

ولقد اتنى النبي صلى الله عليه وسلم على جماعة الأشعرين لكثرة قراحتهم القرآن بالليل، فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأحرف أصوات رُفَقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ^(٣) بِالْقُرْآنِ، حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَحْرَفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ، بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ. وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرُ مَنَازِلَهُمْ حِينَ تَزَلُّوا بِاللَّيْلِ»^(٤).

قال النووي رحمته: «فيه دليل لفضيلة الأشعرين، وفيه أن الجهر بالقرآن في

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١١٤/٢)؛ تفسير النسفي (١٧٣/١)؛ التسهيل لعلوم التنزيل (١/١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٩٥/٣).

(٣) (رُفَقَةُ الْأَشْعَرِيِّينَ): الرُفَقَةُ بضم الراء وكسرهما والأشعر الضم، وهم الجماعة المترافقون. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٧/٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر (١٢٨٤/٣) (ح ٤٢٣٧)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأشعرين رضي الله عنهم (١٩٤٤/٤) (ح ٢٤٩٩).

اللَّيْلِ فَضِيلَةً، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِذَاءٌ لِنَانِمٍ، أَوْ لِمَصْلُومٍ، أَوْ غَيْرِهِمَا، وَلَا رِيَاءً^(١).

وقال أيضاً: «وإنما رَجُحَتْ صلاةُ اللَّيْلِ وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشَّاعِلَاتِ والمَلْهِيَاتِ، والتَّصَرُّفِ فِي الْحَاجَاتِ، وَأَصْوَنَ مِنَ الرِّيَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُحَبَّطَاتِ، مَعَ مَا جَاءَ الشَّرْخُ بِهِ مِنْ إِجْبَادِ الْخَيْرَاتِ فِي اللَّيْلِ، فَإِنَّ الْإِسْرَاءَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَيْلًا»^(٢).

فهنيئاً لمن يُكَيِّرُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، وَلَيْسَتْ بِشَرِّهِ بِمَجِيءِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَشْهَدُ لَهُ بِالْخَيْرِ وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ: فَمَنْ بُرِيذَةً بِنِ الْحُصْبِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرُّجْلِ الشَّاجِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَهْرَفْتُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَظْمَأْتِكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسَهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنْ كُنْتُ تَاجِرٌ مِنْ وَدَاهِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَدَاهِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخَلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ»^(٣).

فالقرآن لا يتخلَّى عن صاحبه الذي صجبه في اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وَفِي الصَّبْفِ وَالشِّتَاءِ، فَإِذَا هُوَ يَبْرُزُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ، وَكَأَنَّهُ يَتَمَثَّلُ بِصُورَةِ قَارَتِهِ الَّذِي اتَّعَبَ نَفْسَهُ بِالسَّهْرِ فِي اللَّيْلِ، وَالصُّومِ فِي النَّهَارِ. وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى مَدَى مَا أَنْفَقَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ مِنْ جُهْدٍ، فَأَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ التَّعَبُ وَالشُّحُوبُ^(٤).

المطلب الرابع

التلاوة حلية لاهل الايمان

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَفْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأَمْزُجَةِ»^(٥)، وَيَنْعُمُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦١/١٦). (٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٨٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٣٨/٥) (ح ٢٣٠٠٠)، وإسناده حسن في المتابعات والشواهد، وقد سبق تخريجه وشرح ألفاظه الغريبة (ص ٤٠٤ - ٤٠٥).

(٤) انظر: شرح سنن ابن ماجه (ص ٢٦٨)؛ أنوار القرآن (ص ١٧٩).

(٥) الأَمْزُجَةُ: بضم الهمزة والرَّاءِ، بينهما مشاة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة: شجر يملو، ناعم =

لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الثَّمَرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حَلْوٌ...^(١) الحديث.

ما أروعُ بلاغةَ الرسولِ الأعظم ﷺ في حثِّ الناسِ على قراءة القرآن والعمل به عن طريق ضرب الأمثلة المحسوسة التي تُقَرِّبُ المعنى وتُحَفِّزُ الانتباه.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قيل: خَصَّ صِفَةَ الْإِيمَانِ بِالطَّعْمِ بِالصِّفَةِ التَّلَاوَةِ بِالرِّيْحِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْأَزْمَ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْقُرْآنِ إِذْ يُمَكِّنُ حَصُولَ الْإِيمَانِ بِدُونِ الْقِرَاءَةِ، وَكَذَلِكَ الطَّعْمُ الْأَزْمُ لِلْجَوْهَرِ مِنَ الرِّيْحِ فَقَدْ يَذْهَبُ رِيحُ الْجَوْهَرِ وَيَبْقَى طَعْمُهُ.

ثم قيل: الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تَجْمَعُ طِيبَ الطَّعْمِ وَالرِّيْحَ كَالْتَفَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ يُتَدَاوَى بِقَشْرِهَا وَهُوَ مَفْرَحٌ بِالْخَاصِيَةِ، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ حَبِّهَا دَهْنٌ لَهُ مَنَافِعٌ، وَقِيلَ: إِنَّ الْجِنَّ لَا تَقْرُبُ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْأُتْرُجُ، فَنَاسِبٌ أَنْ يُمَثَّلَ بِهِ الْقُرْآنُ الَّذِي لَا تَقْرُبُهُ الشَّيَاطِينُ، وَغِلَافُ حَبِّهِ أَبْيَضٌ فَيَنَاسِبُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ، وَفِيهَا أَيْضاً مِنَ الْمَزَايَا كِبَرُ جِزْمِهَا وَحَسَنُ مَنَظَرِهَا وَتَفْرِيحُ لَوْنِهَا وَلِينُ مَلْمَسِهَا، وَفِي أَكْلِهَا مَعَ الْإِلْتِذَازِ طِيبُ نَكْهَةِ، وَدِبَاغٌ مَعْدَةٌ، وَجُودَةٌ هَضْمٌ»^(٢).

أحوال المؤمن مع القرآن:

المؤمنون - كما يُصنَّفُهُمُ الْحَدِيثُ - دَرَجَاتٌ، وَحَالُهُمْ مَعَ الْقُرْآنِ مُتَفَاوِتَةٌ، فَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ طَيِّبُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، كَالْأُتْرُجَةِ فِي طَيِّبِ طَعْمِهَا وَرَائِحَتِهَا، وَكَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرِيحُ وَيُسْرُّ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَكَذَلِكَ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يُسْرُونَ بِصَوْتِهِ وَالِاسْتِمَاعَ لَهُ.

= الأغصان والورق والتمر، وثمره كالبلمون الكبار، وهو ذهبي اللون، زكي الرائحة، حامض الماء. انظر: لسان العرب (٨٤/٩)، المعجم الوسيط (ص ٤).

وجاء في «القاموس المحيط» (٣٦٤/١): «الأترج والأترجة والترنجة والترنج معروف، وهي أحسن الثمار الشجرية وأنفسها عند العرب».

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تُجاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ (٢٣٦٣/٤) (ح/٧٥٦٠)؛ ومسلم، واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن (٥٤٩/١) (ح/٧٩٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٤/٩). وانظر: تحفة الأحوذني (١٦٨/٨)؛ حاشية السندي على سنن النسائي (١٢٥/٨).

أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فإنه يفقد صفةً هامةً وهي طيب الظاهر، فمثلته كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، وهذا نقصٌ في شخصيّة المسلم لا بد من تداركه بالإقبال على القرآن العظيم تلاوةً وحفظاً وتدبيراً.

وطيب الطعم هنا كناية عن قوّة الإيمان في قلب المؤمن وصحة المعتقد، لكن بعض المؤمنين رغم نقاء قلوبهم وصحة اعتقادهم، يبقى عطره محتبساً في قلبه وصدوره، لا يتعدى أثره إلى غيره، وما ذاك إلا لإعراضه عن تلاوة القرآن وتدبيره كما ينبغي.

فالمؤمن الحقّ يتميز بالقرآن ويرتقي بالقرآن إذا تلاه بشروطه، وعمل به، والتزمه منهج حياة، وسبيل دعوة وإرشاد، فعند ذلك يتكامل الباطن والظاهر، كما يتكامل في الأترجة طيب طعمها، وطيب رائحتها، وحسن منظرها.

وكما لا يتصور أن ينفصل في الأترجة طيب طعمها عن طيب نشرها وعطرها - في الأعم الأغلب - كذلك لا يتصور أن ينفصل إيمان المؤمن عن عمله وسلوكه، ومنه تلاوة القرآن والتزامه منهج حياة.

وكذلك لا يتصور أن ينفصل القرآن عن المؤمن أبداً، فيصبح القرآن في وادٍ والمؤمن في وادٍ، ومن هنا يمكن أن نفهم الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]؛ فما بين الهجرة إلى القرآن، والهجرة عن القرآن، يظهر التفاوت بين طيب الطعم مع طيب الرائحة، وبين طيب الطعم وغياب الرائحة.

ففي هذا الحديث الشريف دعوة منه ﷺ إلى كل مؤمن ومسلم أن يتكامل باطنه مع ظاهره، ومخبره مع مظهره، واعتقاده مع سلوكه، ولا يتحقق ذلك إلا بملازمة المؤمن لتلاوة القرآن وتدبيره والعمل به^(١).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٨٩ - ٩٢)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٦ - ١٧).

المطلب الخامس التلاوة كلها خير

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهرُ بالقرآن» ^(١) مع السفرة ^(٢) الكرام البررة ^(٣)، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ^(٤)، وهو عليه شاق له أجران ^(٥)، ^(٦).

وفي لفظ آخر من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو يشتد عليه، فله أجران» ^(٧).
ومن ظاهر الحديث يتبين أن القراء صنفان من حيث جودة التلاوة وإتقانها، ومن حيث الثواب المترتب عليها، وهما:

١ - الماهر بالقرآن:

فالحديث يحمل بشارة عظيمة لمن تعلم القرآن وأتقن تلاوته وأكثر منها حتى أصبح ماهراً فهو مع السفرة وهم الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ لهداية الناس، أو

- (١) (الماهر بالقرآن): هو الحاذق الكامل الحفظ، الذي لا يتوقف ولا تشق عليه القراءة، لجودة حفظه وإتقانه.
- (٢) (مع السفرة): السفرة جمع سافر، ككتابة وكاتب. والسافر: الرسول. والسفرة: الرسل؛ لأنهم يُنفرون إلى الناس برسالات الله. وقيل: هم الملائكة، سُئوا بذلك؛ لأنهم يتزلون بوحى الله وما يقع به الصلاح بين الناس، كالتفسير يُصلح بين القوم، وكذلك أهل القرآن يُصلح الله بهم المجتمع.
- (٣) (البررة): أي المطيعون لله، مأخوذ من البر وهو الطاعة.
- (٤) (ويتتعتع فيه): هو الذي يتردد في تلاوته؛ لضعف حفظه.
- (٥) (له أجران): أجر بالقراءة، وأجر بتتبعه في تلاوته ومشقته.
- انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٤ - ٨٥)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦٩٣/٨)؛ شرح السنة، للبخاري (٤/٣٠).
- (٦) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (١/٥٥٠) (ح٧٩٨).
- (٧) رواه أبو داود، كتاب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠) (ح١٤٥٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/٢٧٢) (ح١٢٩٠).

الملائكة المقربين؛ لانتصافه بصفتهم التي تشرقوا بها، وهي حُلُّ كتاب الله تعالى وتبليغه، والإكثار من ذكر الله تعالى^(١).

ويبقى لنا أن نعرف مَنْ هو الماهر؟

هل الماهر بالقرآن الذي يُجيد تلاوته فقط، ولا شيء وراء ذلك؟ وهل مَنْ فعل ذلك يستحقُّ هذه المنزلة العظيمة؟!

لِنَسْتَمِعَ إِلَى الْقَرطِيبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ وهو يصف لنا الماهرَ بالقرآن، لنذكر أن نيل هذه المرتبة الرفيعة يحتاج إلى مشقَّة وصبر وعمل متواصل حتى ينالها، فيقول: «ولا يكون ماهراً بالقرآن حتى يكون عالماً بالفرقان، وذلك بأن يتعلَّم أحكامه، فيفهم عن الله تعالى مراده وما فرض عليه، ويعرف المكيَّ من المدني، لِيُفَرِّقَ بَيْنَ مَا خَاطَبَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَمَا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ فِي آخِرِ الْإِسْلَامِ، وَمَا افْتَرَضَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَمَا زَادَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَرَائِضِ فِي آخِرِهِ، وَيَعْرِفَ الْإِعْرَابَ وَالْغَرِيبَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَسْهُلُ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ مَا يَقْرَأُ، وَيُزِيلُ عَنْهُ الشُّكَّ فِيمَا يَتْلُو، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي السُّنَنِ الْمَأْثُورَةِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَبْصُرُ الطَّالِبُ إِلَى مَرَادِ اللهِ تَعَالَى وَهِيَ تَفْتَحُ لَهُ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ فَتَحاً»^(٢).

٢ - الذي له أجران:

مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَكِرْمِهِ وَتَيْسِيرِهِ الْقُرْآنَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ كُلَّ مَنْ يُقْبَلُ عَلَى الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَيَتْلُوهُ وَيَتَدَبَّرَهُ فَإِنَّ لَهُ أَجْراً عَظِيماً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، سِوَاهُ أَكَّانَ مَاهِراً بِالْقِرَاءَةِ أَمْ مُتَعَمِّعاً فِيهَا قَدْ جَاهَدَ نَفْسَهُ وَاسْتَدْتَّ عَلَيْهِ التَّلَاوَةَ فَلَهُ أَجْرَانِ، : أَجْرٌ عَلَى التَّلَاوَةِ، وَأَجْرٌ عَلَى الْمَشَقَّةِ.

وهل يعني هذا أن مَنْ له أجران أكثر ثواباً من الماهر بالقرآن؟

يُجِيبُنَا عَلَى هَذَا السُّؤَالِ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ يَقُولُ: «وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الَّذِي يَتَمَتَّعُ عَلَيْهِ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ أَكْثَرَ مِنَ الْمَاهِرِ بِهِ، بَلِ الْمَاهِرُ أَفْضَلُ، وَأَكْثَرُ أَجْراً؛ لِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ وَهُوَ أَجْرٌ كَثِيرَةٌ.

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٥)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ١٩).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (ص ٨٣ - ٨٤).

ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يَلْحَقُ به مَنْ لَمْ يَغْتَنِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَفِظَهُ، وَإِتْقَانَهُ، وَكَثْرَةَ تِلَاوَتِهِ وَرَوَايَتِهِ، كَاعْتِنَانِهِ حَتَّى مَهَرَ فِيهِ^(١).

«وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمَضَافَةَ لِلْمَاهِرِ لَا تُحْصَى، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَثَرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَأَكْثَرَ، وَالْأَجْرُ شَيْءٌ مُقَدَّرٌ، وَهَذَا لَهُ أَجْرَانِ مِنْ تِلْكَ الْمَضَاعِفَاتِ»^(٢).

وَالْمَاهِرُ نَفْسُهُ كَانَ الْقُرْآنُ مُتَتَعِّمًا عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَفَّى بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ شَبَّهَ بِالْمَلَائِكَةِ^(٣).

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ هَلْ يَرْضَى الْمُسْلِمُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ شَاقًّا، وَأَنْ يَلْقَى عَلَى الدَّوَامِ صَعُوبَةً فِي تِلَاوَتِهِ، وَيَتَتَعَّبُ فِيهِ؟

إِذَا كَانَتِ التَّلَاوَةُ شَاقَّةً عَلَيْهِ فَهَذَا يُؤْجِرُ عَلَى مُجَاهَدَتِهِ، وَيُقْبَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ بَذَلَ جُهِدَهُ وَوَسَعَهُ وَطَاقَتَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَمَا آتَاهَا، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَبَدًا أَنْ يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِهَذِهِ الْحَالِ وَيَقْنَعُ بِضَعْفِهِ إِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى بَذْلِ الْمَزِيدِ.

وَالْعَتَبُ كُلُّ الْعَتَبِ عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُتَعَبُّونَ فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَهُوَ عَلَيْهِمْ شَاقٌّ بِاخْتِيَارِهِمْ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَإِجَادَةِ الْقِرَاءَةِ، أَوْ أَنَّهُمْ بِمَثْنٍ حَمَلِ شَهَادَاتٍ عِلْمِيَّةٍ عَالِيَةٍ.

لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ مُقَرَّرُونَ بِذَلِكَ، وَمَرَدُّ تَفْرِيطِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى أَمْرَيْنِ أَحْسَنَهُمَا سَيِّئٌ:
١ - إِمَّا أَنَّهُمْ أَهْمَلُوا كِتَابَ اللَّهِ ابْتِدَاءً، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، فَصَعِبَتْ عَلَيْهِمُ التَّلَاوَةُ وَأَصْبَحَتْ شَاقَّةً؛ لِأَنَّ فَايِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ. فَهَمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوهُ الْبَتَّةَ.

٢ - أَوْ أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا التَّلَاوَةَ ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهَا وَهَجَرُوهَا، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَزَهَدُوا فِي الْأَجْرِ وَشَقَّتْ عَلَيْهِمُ التَّلَاوَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا عَلَى خَطَرٍ كَبِيرٍ إِذَا لَمْ يَتَدَارَكُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَهُمْ أَوْفَرُ النَّصِيبِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٣٢٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/٢٣٠).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ٨٣).

وإذا كان هذا حال أهل العربية الذين أكرمهم الله تعالى بها، ونزل القرآن بلسانهم، فلا عتب، ولا عجب إذا على غير العرب من المسلمين إذا شقَّ عليهم القرآن وتغنَّوا في تلاوته.

لكنَّ الواقعَ خلاف ذلك، فإن كثيراً من إخواننا المسلمين من غير العرب في بقاع الأرض كُلِّها، يتلون كتاب الله تعالى، وهم مَهْرَةٌ في ذلك، والآلاف من هؤلاء يحفظونه عن ظهر قلب، بل أصبحوا معلِّمين له، وربما أتوا إلى بلادٍ عربية ليعلِّموا أولادَ العرب القرآنَ الكريم، وهو فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وفي هذا الحديث إيعاء قويٌّ، بأنَّ المسلم لا ينبغي له في أيِّ حال كان، أن ينصرف عن تلاوة القرآن العظيم، سواء أكان من المَهْرَةِ الْمُتَقِينِ المتمكِّنين من التلاوة، أم كان ضعيف القُدرة على تحصيل ذلك، فيتخذ ضعفه حُجَّةً في الإعراض عن التلاوة.

ولا ريب أن كثرة الممارسة والمحاولة الجادَّة ستؤدِّي إلى حُسْنِ التلاوة، وربما حُسْنِ الحفظ فيما بعدُ، وهو أمرٌ مُجْرَبٌ، ويسير على من يتره الله عليه، ووقَّفه لذلك^(١).

الفصل السادس

هجر حفظ القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره.

المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن.

المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن.

المبحث الرابع: حُكم حفظ القرآن ونسيانه.

المبحث الأول

حفظ القرآن وتيسيره

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف حفظ القرآن.

المطلب الثاني: تيسير حفظه على جميع الألسنة.

المطلب الأول تعريف حفظ القرآن

أولاً: «الحفظ» لغة:

جاء الحِفظُ في اللغة مصدرًا مشتقًا من الفعل «حَفِظَ»، وقد ذكر عدد من علماء اللغة لهذا الفعلٍ ومشتقاته استعمالات عديدة، وهي على النحو التالي:

• قال ابن فارس ثلاثة: «الحاء والفاء والطاء أصلٌ واحد، يدلُّ على مراعاة الشيء»^(١).

• والحِفظُ: نقيض النسيان، وهو: التَّعاوُدُ وقلة الغفلة. يُقال: حَفِظَ الشيءَ حِفْظًا، ورجل حافظ من قوم حُفَاطٍ^(٢).

• وحفظ الشيء حِفْظًا: حَرَسَهُ، وَحَفِظَهُ: اسْتَظْهَرَهُ.

والتَّحْفِظُ: التَّيَقُّظُ وقلة الغفلة. وَتَحَفَّظَ الكِتَابَ: اسْتَظْهَرَهُ شيئاً بعد شيءٍ^(٣).

• والحفظ - بمعنى عدم النسيان - له مرادفات جِدَّة:

يُقال: قرأ فلان القرآن على ظَهْر لسانه، وعن ظَهْر قلبه، أي: حَفِظَهُ. وَظَهَرَ اللِّسَانَ وَظَهَرَ القَلْبَ كنايةً عن الحفظ من غير كتاب، ولهذا يُقال: اسْتَظْهَرَهُ، أي: حَفِظَهُ وقرأه ظاهرًا^(٤).

حفظ القرآن يتضمَّن أموراً ثلاثة:

١ - ضبط الصُّورة المُدرَكة^(٥) بحيث يمكن أداؤها من غير كتاب.

(١) معجم مقاييس اللغة (٣٠٩/١)، مادة: (حَفِظَ).

(٢) انظر: لسان العرب (٢٤٢/٣)، مادة: (حَفِظَ).

(٣) انظر: مختار الصحاح (ص٧٦)، مادة: (حَفِظَ).

(٤) انظر: لسان العرب (٢٧٩/٨)، مادة: (ظَهَرَ)؛ المعجم الوسيط (ص٥٧٨)، مادة: (ظَهَرَ).

(٥) انظر: التعريفات، لعلي الجرجاني (ص١٢٠)، مادة: (حَفِظَ).

٢ - المواظبة والمعاهدة للمحفوظ .

٣ - عدم النسيان^(١) .

استعمالات «الحفظ» في القرآن:

سوف نَعْرِضُ للمعاني التي تتعلق بموضوع البحث على النحو الآتي:

١ - يأتي الحفظ بمعنى التَّعَهُدِ والصِّيَانَةِ والرَّهَابَةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَّا لَهُمْ لَحْفُظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقول إخوة يوسف: ﴿وَتَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٩]^(٢).

٢ - يأتي الحفظ بمعنى الأمانة، ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿اجْمَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].

٣ - يأتي الحفظ بمعنى الرِّقَابَةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].

ثانياً: «حفظ القرآن» اصطلاحاً:

من خلال الاستعراض اللغوي لمادة «حِظَ»، ومشتقاتها في الآيات القرآنية، وما ذَكَرَهُ بعض أهل العلم في هذا الشأن، نستطيع أن نُقَرِّرَ: بأنَّ «حِظَ» القرآن» يعني:

حَمَلَهُ، واستظهاره، وقراءته عن ظهر قلب، وعلى ظهر اللسان، والمواظبة والمعاهدة للمحفوظ، وصيانته ورعايته من الغفلة أو النسيان.

تميُّز حافظ القرآن عن غيره من الحفَّاط:

يتميُّز حافظ القرآن عن غيره من حُفَّاط الحديث، أو حُفَّاط الأشعار، أو الحكَم، أو الأمثال، أو النُّصوص الأدبية ونحوها، بأمرين أساسيين:

الأوَّل: استكمال القرآنِ كُلِّه حفظاً وضبطاً:

فلا يُسَمَّى من حفظ نصف القرآن أو ربعه - مثلاً - حافظاً إلا إذا أكمل

(١) انظر: كيف تحفظ القرآن الكريم، د. عبد الرب نواب الدين (ص ٤٠).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ١٣١)، مادة: (حفظ).

حفظه . وإلا صحَّح أن يُسَمَّى جميع المسلمين حَفَظَةً للقرآن، إذ لا يخلو مسلم من جَفَظَ شيء من كتاب الله .

الثاني: صيانة المحفوظ من النسيان:

فمن حَفِظَ القرآن ثم نسيه أو نسي جُلَّهُ أو بعضه إهمالاً وغفلةً لغير عذر - ككبر أو مرض - لا يُسَمَّى حافظاً، ولا يستحقُّ لقبَ (حامل القرآن الكريم)؛ لأنه إذا صحَّ رواية الحديث بالمعنى، وجاز تحوير بعض الشعر والنثر الأدبي - مثلاً - فَمِثْلُ هذا ممتنع في حفظ القرآن العظيم^(١).

المطلب الثاني

تيسير حفظه على جميع الألسنة

إنَّ من أعظم ما امتنَّ به الله ﷻ على المسلمين أن يَسَّرَ حفظ القرآن والنطق به على ألسنتهم، يتساوى في ذلك العالم الذي وصل إلى أرقى درجات العلم، والإنسان العاُمِّي الذي يحبُّ القرآن ويتعلَّق به، كما يتساوى في ذلك أيضاً العربيُّ الفصيح، والأعجميُّ إذا توجه إلى حفظ كتاب الله، ولولا لُطف الله تعالى بالناس، وتيسير القرآن للذكر بلسان رسول الله ﷺ لما استطاع أحد أن يتحمَّل حفظ آية من كتاب الله تعالى، وأتَى له الإطاقة لأنوارها وإشعاعاتها؟! ولولا ذلك لما ذكر الله تعالى مسألة تيسير القرآن العظيم بلسان النبيِّ الكريم ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]^(٢).

كما أشار الله تعالى إلى عظم نعمه على عباده بأن يسَّرَ لهم جَفَظَ القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَسَّرْنَا: هَوَّنَا قِرَاءَتَهُ»^(٣).

(١) انظر: كيف تحفظ القرآن الكريم (ص ٤٠ - ٤١).

(٢) انظر: تيسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ، د. عبدو بن علي الحاج، مجلة الأحمدية (عدد ١٥) (رمضان ١٤٢٤هـ) (ص ٢٢٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٣/١٥٤٧).

«أي: سهّلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالبٍ لحفظه
فَيَعَانُ عليه؟»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَهَذَا مِنْ مُذَكَّرٍ﴾ «أي: فهل من مُشْعِظٍ به، حافظٍ له؟
والاستفهام هنا بمعنى الأمر، أي احفظوه واتعظوا به، وليس يُحَفِّظُ من كُتِبَ الله
عن ظَهْرِ قَلْبٍ غَيْرِهِ»^(٢).

والتيسير: إيجاد البُسر في الشيء، سواء كان فعلاً، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ
اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أم قولاً كقوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٌ يَنْزِلُ عَلَيْكَ لِتُلْقِيَهُمْ
بِتَذْكَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وسبب تيسيره: أنه نزل بأفصح اللغات وأبينها، وجاء على لسان أفضل
الرسل ﷺ.

ومعنى تيسيره: يرجع إلى تيسير ما يراد منه، وهو فهم السامع المعاني التي
عناها المتكلم به بدون كلفة على هذا السامع ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل
للأذن بلا إذن.

وهذا التيسر يشمل الألفاظ والمعاني.

فأما الألفاظ: لأنها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب،
أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة.
وأما المعاني: فبوضوحها ووفرتها، ويتولد معانٍ من معانٍ آخر كلما كرر
المتدبر تدبره في فهمها^(٣).

والمثال في هذه الآية الكريمة يجد أن الله تبارك وتعالى أكد تيسير حفظ
كتابه بمؤكدات متعددة قوية، منها: القسم ﴿وَلَقَدْ يَنْزَلْنَا﴾، ومنها: التعبير بنون
العظمة ﴿يَنْزَلْنَا﴾، ومنها: تكرار هذه الآية أربع مرات في سورة القمر.
والواقع المشاهد يُصدِّقُ هذا التيسير، فقد حفظ القرآن حُفَاطٌ لا يُحصون
عدداً في كلِّ جيلٍ ومن كلِّ قبيل، لا يُخطئ أحدهم في كلمة ولا حرف، سواء

(١) تفسير القرطبي (١٧/١٣٤).

(٢) تفسير الجلالين (ص ٧٠٦).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/٣٤٤) (٢٧/١٨٠ - ١٨١).

كانوا غريباً أم عَجَمًا، وأكثرَ الحَفَاطِ العَجَمَ لا يعرفون من العربية شيئاً، وربما قرأ الواحد منهم القراءات السَّبْعَ والعشر عن ظهر قلب^(١).

وقد حدَّ أبو الحسن الماوردي تَكَلُّفَ هذا الأمرِ وَجْهًا من وجوه إعجاز القرآن العظيم وخصائصه التي تَمَيَّز بها عن سائر كتب الله تعالى، فقال: «مِنْ إعجازه تيسيره على جميع الألسنة، حتى حَفِظَه الأعجميُّ الأَبْكم، ودار به لسان القبطيِّ الأَلْكن، ولا يُحفظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنة البكم كجريها به، وما ذاك إلا بخصائص إلهية فَضَّله بها على سائر كتبه»^(٢).

ومع هذا التيسير فإنَّ حِفْظَ القرآن من السهل الممتنع، سهلٌ حَفِظَه، ممتنعٌ ثباته في القلب بسهولة ويُسر، فلا بدُّ من تعاهده حتَّى لا يضيع حَفِظَه من الصُّدور. فأين المتعاهدون لكتاب الله تعالى؟ هذه هي المشكلة!

حِفْظُ القرآن ميسرٌ دون سواه من الكتب السابقة:

قال الرَّاظي تَكَلُّفًا: «ولم يكن شيء من كتب الله تعالى يُحفظ عن ظهر القلب غير القرآن»^(٣).

ورُوِيَ: «أَنَّ كُتُبَ أهل الأديان - نحو التَّوراة والإنجيل - لا يتلوها أهلها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن»^(٤)، «غير موسى، وهارون، ويوشع بن نون، وعزير ﷺ ومن أجل ذلك أفتننوا بعزيرٍ لَمَّا كُتِبَ لهم التَّوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت»^(٥).

قال سعيد جبير تَكَلُّفًا: «ليس من كُتُبِ الله تعالى كتاب يُقرأ كلُّه ظاهراً إلا القرآن»^(٦).

والذي يُوَيِّد هذا التَّوجُّه ويؤكدُه: أَنَّ الكتب الرِّبانيَّة نزلت كاملةً دفعةً واحدة، ولم يُؤمر أهلها بحفظها كما أمرت هذه الأُمَّة بحفظ القرآن، ولم يتعهد الله تعالى بحفظها لهم كما تعهد بحفظ القرآن.

(١) انظر: كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها (ص ٨٣ - ٨٤).

(٢) أعلام النبوة (ص ٦٩). (٣) التفسير الكبير (٣٨/٢٩).

(٤) الكشاف (٤/٤٣٦). وانظر: تفسير النسفي (٣/١٧٢٦)؛ تفسير القرطبي (١٧/١٣٤).

(٥) تفسير القرطبي (١٧/١٣٤). (٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومقتضيات الحفظ: أن يُحفظ في الصدور والسطور، وكُلِّما كان الحفظ في الصدور والسطور كان أوثق وأدعى للبقاء، ولذلك اجتمعت في القرآن العظيم كل أسباب الحفظ.

ولولا أن يسّر الله حفظ القرآن الكريم في الصدور لما حُفِظَ عن ظهر قلبٍ على مرّ العصور، وكرّ الدهور، وتعاقب الأجيال، ولما وُجد حافظٌ لكتاب الله تعالى، بل ولا سورةٍ من سوره أو آيةٍ من آياته^(١).

هجر الحفظ نوعان:

وأما هجر حفظ القرآن، فهو نوعان:

الأول: هجره ابتداءً: بعدم حفظه، وبالزهد في تعلمه، والمسؤولية تقع فيه على وليّ الأمر؛ وذلك لأنه لا بدّ من أن يوجّه أبناءه لحفظ القرآن، خاصّة في بداية مراحل العمر.

كما أنّ هناك مسؤولية عامّة تقع على ولاة أمور المسلمين - والمقصود: حكومات الدول الإسلامية - وذلك برصد الميزانيات الماليّة، وفتح مدارس تحفيظ القرآن، ومتابعتها، تعظيماً لكتاب الله، وأنّ التقاعس في هذا الشأن هو من هجر القرآن.

الثاني: هجره بعد حفظه: وذلك بالانشغال عنه، وعدم تعاهده فيؤدّي إلى تفلّته، وهي مسؤولية كلّ فردٍ عن نفسه.

المبحث الثاني

آداب حفظ القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: آداب أثناء الحفظ.

المطلب الثاني: آداب بعد الحفظ.

اداب حفظ القرآن

تمهيد:

لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آدَابٌ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَوْهَا، وَعَلَيْهِمْ وَاجِبَاتٌ يَجِبُ أَنْ يُتَّقَلَوْهَا، حَتَّى يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ حَقًّا، وَلِذَا حَذَّرَ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ عَدَمِ الْإِتِمَاعِ خَفِظَةَ كِتَابَ اللَّهِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالْآدَابِ الْمُرْعِيَّةِ، وَالْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْيَكُونُوا فِتْنَةً لِفَيْرِهِمْ مِنَ الْجَهَالِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَجْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ أَخْلَاقُهُ صَارَ فِتْنَةً لِكُلِّ مُفْتُونٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَمِلَ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا تَحْسُنُ بِمِثْلِهِ اقْتَدَى بِهِ الْجَهَالُ.

فَإِذَا عَيَّبَ عَلَى الْجَاهِلِ، قَالَ: فَلَانَ الْحَامِلِ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلَّ هَذَا، فَحَنُّ أَوْلَى أَنْ نَفْعَلَهُ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِعَظِيمٍ، وَثَبَّتَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَلَا عَذْرَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وَإِنَّمَا حَدَانِي عَلَى مَا بَيَّنْتُ مِنْ قَبِيحِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ نَصِيحَةً مِنِّي لِأَهْلِ الْقُرْآنِ؛ لِيَتَخَلَّقُوا بِالْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ، وَيَتَخَلَّفُوا عَنِ الْأَخْلَاقِ الذَّنِيئَةِ، وَاللَّهُ يُوَفِّقُنَا وَإِيَّاهُمْ لِلرَّشَادَةِ»^(١).

وَمِنْ جَمَلَةِ هَذِهِ الْآدَابِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرِفَ بَلِيلَهُ إِذَا النَّاسُ نَامُوا، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطَرُونَ، وَبِوَرَعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلُطُونَ، وَبِتَوَاضُعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَبِعِزِّهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِيكَاثِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ»^(٢).

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٤٥ - ٤٦).

(٢) رواه أحمد في «الزهده» (ص ١٦٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٢٩)؛ والسخاوي في «جمال القراء» (ص ٢٨)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/٢٣١) (رقم ٣٥٥٨٤)؛ والنوري في «التبيان» (١/٢٩)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٢١)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٥٠) (رقم ٣٠).

ونظراً لسلوك كثير من الحفاظ مسلماً غير صحيح أثناء مرحلة الحفاظ أو بعده، قمت بتقسيم هذه الآداب إلى قسمين، وهي على النحو التالي.

المطلب الأول آداب أثناء الحفاظ

١ - الإخلاص لله تعالى :

لا يخفى أن الإخلاص وإرادة وجه الله تعالى شرطاً لصحة العمل وقبوله إن كان عبادياً محضاً؛ كالصلاة والصيام والحج وغيرها، كما أنه شرط للثواب ونيل الأجر في الأمور المباحة؛ كالنوم والأكل وحسن معاشرمة الخلق وغيرها في حال احتسابها.

وبما أن قراءة القرآن وحفظه من الأمور العبادية المحضة؛ فإنها لا تقبل عند الله تعالى إلا بالإخلاص، وهي داخلة في مثل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَسِرًّا وَلَا نَجْوًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»^(١).

فيجب على الراغب في حفظ كتاب الله تعالى أن يخلص نيته في طلبه، وليراقب كل نفسه، هل أراد بحفظه للقرآن وجه الله تعالى أم أراد به أعراضاً دنيوية فانية؟ وقد تساءل - عن ذلك - أبو حامد الغزالي رحمه الله قائلاً:

«كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَحْيَيْتَهَا بِتَكَرُّرِ الْعِلْمِ وَمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَحَرَمْتِ عَلَيَّ نَفْسِكَ الثُّومَ؛ لَا أَعْلَمُ مَا كَانَ الْبَاعِثُ فِيهِ؟ إِنْ كَانَ نَيْلَ عَرْضِ الدُّنْيَا، وَجَذَبَ حُطَامِهَا وَتَحْصِيلَ مَنَاصِبِهَا، وَالْمُبَاهَاةَ عَلَى الْأَقْرَانِ وَالْأَمْثَالِ، فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وَيْلٌ لَكَ، وَإِنْ كَانَ قَصْدُكَ فِيهِ إِحْيَاءَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَهْدِيَةَ أَخْلَاقِكَ، وَكَسْرَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَطُوبَى لَكَ ثُمَّ طُوبَى لَكَ، وَلَقَدْ صَدَّقَ مَنْ قَالَ شِعْرًا:

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب: من أشرك في عني غير الله (٤/٢٢٨٩).
(ح٢٩٨٥).

سَهْرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ وَبِكَأُزْمَنْ لِيُغَيِّرَ فَعْبِكَ بَاطِلٌ^(١)
فلا بدّ من تصحيح العمل قبل الشروع فيه.

وأوضح ابن جماعة^(٢) نكتة كيفية تحسين التّبة بقوله: «حسن التّبة في طلب العلم، بأن يقصد به وجه الله تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرّض لما أعدّه الله لأهله من رضوانه وعظيم فضله»^(٣).

ويبين الشوكاني نكتة تأثير حسن التّبة والإخلاص في تسهيل الأمور على طلاب العلم بقوله: «إنّ لحسن التّبة وإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في هذا المعنى، فمن تعكّست عليه بعض أموره من طلبة العلم، أو صعّبت عليه مقاصده، فليعلم أنّه بذنبه أصيب، وبعدم إخلاصه عُوقب، أو أنّه أصيب بشيء من ذلك محنة له وابتلاء واختباراً؛ لينظر كيف صبره واحتماله، ثم يُفيض الله عليه بعد ذلك من خزائن الخير ما لم يكن بحسابه، ولا يبلغ إليه تصوّره، فليعضّ على العلم بناجذه، ويشدّ عليه يده، ويشرخ به صدره، فإنّه لا محالة واصل إلى مراده إن شاء الله»^(٤).

شِدَّةُ الْإِخْلَاصِ عَلَى النَّفْسِ:

الإخلاص شديد على النفوس، ولذلك لما قيل لسهل بن عبد الله التستري نكتة: «أي شيء أشدّ على النفس؟ قال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب»^(٥).

(١) أيها الولدُ المُحبُّ، للغزالي (ص ١١).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم الكنعاني، الحموي، الشافعي (بدر الدين) مفسر، فقيه، أصولي، متكلم، محدث. ولد بحماة سنة (٦٣٩هـ)، وولي القضاء بالقدس، والديار المصرية، ودمشق، وجمع بين القضاء وشميخة الشيوخ والخطابة، توفي بالقاهرة سنة (٧٣٣هـ)، ودُفن قريباً من الإمام الشافعي. ومن تصانيفه الكثيرة: «المنهل الروي في علوم الحديث النبوي»، و«إيضاح الذليل في قطع حجج أهل التعطيل»، و«تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام» وغيرها.
انظر: الدرر الكامنة (٣/ ٢٨٠ - ٢٨٣).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم (ص ٦٨). (٤) أدب الطلب ومنتهاى الأدب (ص ١٣٣).

(٥) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨١)؛ مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

وقال سفيان الثوري رحمته: «ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليّ من نيتي؛ إنها تقلبُ عليّ»^(١).

ومن علامات الإخلاص: «استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء»^(٢) ثواب الأعمال في الآخرة»^(٣).

ويبين الغزالي رحمته أنَّ العمل بغير نية عناء، فقال: «ظهر بالأدلة والعيان، أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للتناق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء؛ وقد قال الله تعالى في كلِّ عملٍ كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقِيمَتَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مِّنْهُ﴾ [الفرقان: ٢٣]»^(٤).

الحذر من الانقطاع عن الحفظ لعدم خلوص النية:

إنَّ من تلبس إبليس على من أراد أن يشتغل بحفظ القرآن أن يُسأل له الانقطاع عما هو فيه من الخير بسبب عدم خلوص النية، فإنَّ حُسن النية مرجو لمن اشتغل بحفظ كتاب الله - إن شاء الله - ببركة هذا الحفظ.

وقد ورد عن الحسن البصري وسفيان الثوري - رحمهما الله - أنهما قالا: «طلبنا العلم للدنيا فجرنا إلى الآخرة»^(٥).

وقال ابن المبارك رحمته: «طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا»^(٦).

وقال حبيب بن أبي ثابت رحمته: «طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نية، ثم

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (٣١٧/١) (رقم ٦٩٢).

(٢) الاقتضاء: الطلب.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/٣٦٢).

(٥) فتح المغيب شرح ألفية الحديث، للسخاوي (٢/٣١٧).

(٦) هو الإمام الجليل: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولاهم، المروزي

(أبو عبد الرحمن) إمام أهل عصره في العلم والتقى والصلاح والفضل والرياسة، ومن

مشاهير أئمة الحديث الحفاظ الثقات، وصفه ابن عيينة قائلاً: «كان فقيهاً عالماً عابداً

زاهداً شيخاً شجاعاً شامراً». توفي ب (هيت) منصرفه من الغزو سنة (١٨١هـ)، وعمره

(٦٣). انظر: تهذيب التهذيب (٥/٣٨٢).

(٧) صفة الصفوة (٤/١٤٥).

(٨) هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسديّ بالولاء (أبو يحيى) الكوفي. تابعي ثقة فقيه

جاءت النية والعمل بعده^(١).

فهذه الآثار ونحوها تُحْمَل - في معناها - على ما ذكره ابن جماعة كَثْفَةً: «قبل معناه: فكان عاقبته أن صار لله؛ ولأن إخلاص النية لو شُرِّطَ في تعليم المبتدئين فيه، مع عُسرهِ على كثير منهم، لأدَّى ذلك إلى تفويت العلم على كثير من الناس^(٢)». فكيف بهذا الزمان الذي نعيش فيه، مع ندرة الإخلاص وقلَّة أهله، وقلَّة الرَّاغبين في طلب العلم الشرعي وحفظ القرآن؟

٢ - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته:

على مَنْ أراد أن يحفظ القرآن أن يستشعر عظمته، ويستحضر عظمة الله في نفسه، فيقبل على القرآن العظيم محبباً له، ومؤثراً له على غيره؛ لذا فعلى مَنْ شَرَعَ في حفظ القرآن أن يراعي الأمور التالية:

* الشعور بأن القرآن كلام ربِّ العالمين غير مخلوق، كلام مَنْ ليس كمثله شيء - سبحانه - له أبلغ الأثر في الإقبال على حفظه، فعظمة القرآن مأخوذة من عظمة المتكلم به، ولا أعظم من الله تعالى، وبالتالي فلا أعظم ولا أقدس من كلامه سبحانه^(٣).

* وتذكُّر أن القرآن يهدي للطريقة التي هي أسدُّ وأعدلُّ وأصوب في العقائد والأخلاق والأعمال، والسياسات، والصناعات، والأعمال الدنيوية والدنيوية^(٤)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الاسراء: ٩].

* وإدراك الأمر الذي نزل من أجله القرآن العظيم، وهو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقال أيضاً: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ لِأَنَّكَ إِتَّخِجَ النَّاسَ مِن الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِنَّ صِرْطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

= جليل، كان مفتي الكوفة قبل حماد بن أبي سليمان. توفي سنة (١١٩هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/١٥٠)؛ سير أعلام النبلاء (٥/٢٨٩).

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٦٧) (رقم ١٨١٨).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص ٤٧ - ٤٨).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص ٤٥).

(٤) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص ١٤٦ - ١٤٧).

• وتذكر أن القرآن كتاب مبارك، كما وصفه الله تعالى بأنه مبارك في أربعة مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. فهو مبارك في أصله؛ لأنه كلام الله، ومبارك في حامله - جبريل عليه السلام، ومبارك في محله - قلب رسول الله ﷺ^(١)، ووجوه البركة فيه شملت منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين^(٢).

• استشعار مدى الحفاوة بهذا القرآن العظيم، ويكفل ما يحاط به من زمان ومكان، فمن عظمة القرآن عظمة الشهر الذي أنزل فيه (شهر رمضان)، فهو أفضل الشهور، وعظمة الليلة التي أنزل فيها (ليلة القدر)، فهي خير الليالي، وعظمة الرسول الذي أنزل عليه (إمام الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم). ولعظمة القرآن الكريم عظم حامله في صدره، وفُضِّلَ على غيره، ويكفي في بيان مقدار عظمة القرآن، وصف الله تعالى له بالعظمة في مثل قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَائِنْتَك سَبَا مِنْ الْمَنَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

٣ - معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه:

حفظ القرآن العظيم هو الأصل في تلقيه، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُورِ الْآيَاتِ أَوْثَرًا أَلْمِزَةً﴾ [المنكبات: ٤٩]. فقد أكرم الله تعالى هذه الأمة بأن جعل قلوب صالحها أوعية لكلامه، وصدورهم مصاحف لحفظ آياته.

وقال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ - كما جاء في الحديث القدسي: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ»^(٣). فمعنى ذلك: أن القرآن العظيم محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مر الزمان^(٤).

قال ابن الجوزي^(٥) رحمه الله: «ثُمَّ إِنَّ الْاعْتِمَادَ فِي نَقْلِ الْقُرْآنِ عَلَى حِفْظِ

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/١١٤٧). (٢) انظر: روح المعاني (٧/٢٢١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٧) (ح ٢٨٦٥).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٢٠٤).

(٥) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي، ثم الشيرازي، الشافعي (أبو الخير)، -

القلوب والصُّدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خُصِيصة من الله تعالى لهذه الأمة^(١).

وحَفِظَ القرآن العظيم فيه تأسُّرٌ بالسُّلف الصَّالح، فهو أصل الأصول، والمعوَّل عليه في جميع الأمور، وهو مرجعٌ أساس لسائر المناهج والعلوم، فكانوا لا يبدؤون إلا به، وما إنْ نقرأ في ترجمة أحدٍ من أهل العلم إلا ونرى في سيرته: حَفِظَ القرآن الكريم، ثم ابتدأ بطلب العلم^(٢).

وكان كثير من السُّلف - رحمهم الله - يرفضون تدريس الحديث وغيره من العلوم للحديث؛ حتى يحفظ القرآن أولاً.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «كان السُّلف لا يُعَلِّمُونَ الحديث والفقهِ إلا لمن يحفظ القرآن»^(٣).

وعَدَّ ابنُ جماعة رَحِمَهُ اللهُ الأدبَ الأوَّلَ من آداب طالب العلم: «أن يبتدئ بكتاب الله العزيز، فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه؛ فإنه أصل العلوم وأُمتها وأهمُّها»^(٤).

٤ - الرُّغبة القويَّة الصادقة:

الرُّغبة القويَّة الصادقة لها أكبر الأثر في الإقبال على الحفظ والاستمرار فيه وتحمل مشاقه، إذ بدون ذلك يخور الإنسان ويتهاون، ويكون الأمر مجرد أمنية وحُلْم يقظة.

= يُعرف بابن الجزري، مقرئ، مجوِّد، محدِّث، حافظ، مشارك في بعض العلوم. ولد في دمشق سنة (٧٥١هـ)، وتفقَّه بها وطلب الحديث والقراءات، وعمر مدرسةً للقراء سُمِّيَتْ: دار القرآن، وأقرأ الناس. وله تصانيف كثيرة منها: «النشر في القراءات العشر»، و«التمهيد في التجويد»، و«تذكرة العلماء في أصول الحديث»، و«الأربعون المعوالي». توفي بشيراز سنة (٨٣٣هـ). انظر: طبقات القراء، لابن الجزري (٢/٢٤٧ - ٢٥١).

(١) النشر في القراءات العشر (٦/١).

(٢) انظر: الكلمات الحسان فيما يُعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ٤٣ - ٤٦). حفظ القرآن الكريم (ص ١٠ - ١٢).

(٣) المجموع (٣٨/١).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (ص ١٦٦ - ١٦٧).

والدافع الذاتي ذو أهمية بالغة في إكمال حفظ القرآن، حيث نجد أن كثيراً من الناس انقطعوا عن الحفظ وتخلّفوا بسبب فقدّم لهذا الدافع، فربّما كان الدافع للحفظ هو إلحاح الوالدين أو المدرسة دون اندفاع ذاتي، فإنّه لن يستمرّ طويلاً، ولا بدّ أن يصاب بالفتور.

ويزداد الدافع الذاتي: بتذكّر أجرٍ ومنزلةِ حفظة القرآن الكريم، ومجالس القرآن، وإذكاء روح التنافس المشروع في الحلقة، أو البيت، أو المدرسة^(١).

وحينما يتهيأ هذا الدافع الذاتي ترى المرأة لا يفتر عن النظر في كتاب الله، ولا يَمَلُّ من تلاوته، وهذا هو حال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من حفظة القرآن على مرّ الزمان^(٢).

٥ - التقلُّل من الدنيا:

التعلُّق بالدنيا وشهواتها وملذّاتها يُضَيِّع على المسلم جُلّ وقته، ويجعله دائم الفكر فيها، مستغرق الهمّ في تحصيلها والإكثار منها، فمتى يحفظ شيئاً من كتاب الله من كان هذا حاله؟

والله تعالى ذمّ الذين اتبعوا شهواتهم، فسفلتهم عمّا خلّقوا له من طاعة الله وعبادته، وتوعدهم بالنفي في قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ خَلْفٌ كَأَشْرَارِ الْكَافِرِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا الْأَشْرَارَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مریم: ٥٩].

ويُبين سبحانه أنّ من أراد الدنيا وجعلها همّه الوحيد قد ينالها، ولكن مصيره الهلاك في الآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِئِنْ تُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

فكيف يركن المسلم إلى الدنيا؟ وهي دار ممرّ لا دار مقر، ومنزل عبور لا مقعد حبور، وهي خيال طيف أو سحابة صيف، وقد رضي النبي ﷺ

(١) انظر: ورتل القرآن ترتيلاً (ص ٨٣).

(٢) انظر: مُرشِد الحيران إلى طرق حفظ القرآن الكريم، لأحمد مصطفى الطهطاوي (ص ٥٦)؛ نحو منهجية عملية في حفظ القرآن الكريم، فيصل البعداني، مجلة البيان (عدد: ٧٣) (رمضان ١٤١٤هـ) (ص ٤٥ - ٥٢).

وأصحابه ﷺ من هذه الدنيا بالكفاف، فلم ينعموا بها، ولم يبذلوا أوقاتهم وأعمارهم في تحصيلها كما نفع، بل يرضون منها بأقل القليل.

يقول النبي ﷺ: «قَدْ أَلْفَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَدَرَقَ كَفَافًا»^(١)، وَقَعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»^(٢).

عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْ لَا آيَاتِي فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ - إلى قوله - ﴿الزَّيْبِ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠]. إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانُوا يَسْأَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانُوا يَسْأَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانُوا يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشَيْخِ بَطْنِهِ، وَيَحْضَرُ مَا لَا يَحْضَرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»^(٣).

وقد استنبط ابن حجر رحمه الله عدة فوائد من قول أبي هريرة ﷺ قَالَ: «وفيه الحثُّ على حفظ العلم، وفيه أنَّ التَّقَلُّلَ مِنَ الدُّنْيَا أَمَكُنٌ لِحِفْظِهِ، وفيه فضيلة التَّكْسُّبِ لِمَنْ لَهُ عِيَالٌ، وفيه جواز إخبار المرء بما فيه من فضيلة إذا اضْطُرَّ إلى ذلك، وأمين من الإعجاب»^(٤).

هذا هو فقه أبي هريرة ﷺ بملازمته للنبي ﷺ على شَيْخِ بَطْنِهِ فقط ليحفظ الحديث، فأصبح حافظ الأمة بلا منازع؛ لأنه جَمَعَ هَمَّهُ فِي الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ.

ولا يعني ذلك: أَنْ يَعْتَزَلَ الدُّنْيَا - مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْفَظَ الْقُرْآنَ - وَيَتْرَكَ الْعَمَلَ فَيَعِيشُ عَالَةً عَلَى النَّاسِ، فَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَهُمْ أَعْمَالٌ يَتَكْسِبُونَ مِنْهَا أَرْزَاقَهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ.

قال ابن المبارك رحمه الله: «لَا يَتَمُّ طَلْبُ الْعِلْمِ إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: بِالْفَرَاغِ، وَالمَالِ، وَالْحِفْظِ، وَالْوَرَعِ»^(٥).

(١) قال في النهاية (٤/١٩١): «الكفاف: هو الذي لا يُفَضَّلُ عَنِ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ».

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (٢/٧٣٠) (ح ١٠٥٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: حفظ العلم (١/٦٤) (ح ١١٨).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٢٨٥).

(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٢٧١) (رقم ١٧٣٢).

والمقصود من ذلك: أن يتطلع طالب العلم إلى معالي الأمور، فيعمل عملاً دنيوياً ليتحصّل منه على قوت عياله، ثم يُفرِّغ بقيّة أوقاته للعلم والحفظ والدراسة، فلا تشغله الدنيا ومغرياتها عن مقصوده الأسمى - حفظ كتاب الله، وطلب العلم الشرعي، وتعليم الناس - وأن يصبر ويتصبّر على خشونة العيش وقلة المال^(١).

عن يحيى بن أبي كثير^(٢) كَلَّمَهُ قال: «سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: لَا يُسْتَظَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَسْمِ»^(٣).

وقال إبراهيم الحربي^(٤) كَلَّمَهُ: «أَجْمَعَ عَقْلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ: أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعْمِ، وَأَنَّ مَنْ آتَرَ الرَّاحَةَ فَاتَتْهُ الرَّاحَةُ، فَمَا لِمُصَاحِبِ اللَّذَاتِ وَمَا لِدَرَجَةِ وَرَاثَةِ الْأَنْبِيَاءِ»^(٥).

٦ - الدُّعَاءُ وَالِاتِّجَاءُ إِلَى اللَّهِ:

الدُّعَاءُ هو روح العبادة، والالتجاء إلى الله تعالى والرُّكُونُ إلى جانبه يُهَوِّنُ كُلَّ أَمْرٍ عَسِيرٍ، وَحَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّفَقُّهُ فِي دِينِهِ، عَطِيَّةٌ وَهَبَةٌ، يَهَبُهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، فَكَثُرَ مِنْ سُؤَالِهِ وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ وَالْفَهْمِ وَالْعَمَلِ بِمَا تَعَلَّمَ، فَإِنَّ مَنْ أَدَامَ قَرَعَ الْبَابِ أَوْشِكَ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ»^(٦).

(١) انظر: الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ١٥٨ - ١٦٣).

(٢) هو يحيى بن أبي كثير الطائي - مولاهم - أبو نصر، اليمامي. قال ابن حجر: «ثقة ثبت، لكنه يئدلس ويؤزل». من الطبقة الخامسة، أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم. توفي سنة (١٣٢هـ). انظر: تقريب التهذيب (١/٣٥٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: أوقات الضلوات الخمس (١/٤٢٨).

(٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشر بن عبد الله بن ديسم الحريري، البغدادي، ولد سنة (١٩٨هـ)؛ وتفقه على الإمام أحمد، فكان من نجباء أصحابه. قال الخطيب: «كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً لملله، قيماً بالأدب». توفي سنة (٢٨٥هـ).

انظر: طبقات الحفاظ (١/٢٦٣)؛ طبقات الحنابلة (١/٨٦).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/١٤٢).

(٦) انظر: الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص ١٣٤).

وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا سَاءَلْتُ عَبْدِي عَنِ قَائِنِي قَرِيبًا أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فالله تعالى قريب بعلمه وسمعه وقدرته ومعونته، لا يخيب رجاء مَنْ دعاه وألتجأ إليه، والقلوب في حاجة شديدة إلى رزق الله تعالى من العلم والهدى، كما هو الحال في قوت الأجساد، ولذلك قال ابن تيمية رحمته: «وكما أن الله ملائكة موكلة بالسحاب والمطر، فله ملائكة موكلة بالهدى والعلم، هذا يرزق القلوب وقوتها، وهذا يرزق الأجساد وقوتها»^(١).

فالدعاء وسيلة مهمة لا يخيب صاحبها، خاصة إذا أخلص قلبه، ونيته لربه في حفظ كتابه، ودعا بقلب حاضر، ودعاء مشروع، وانتفت في حقه موانع الإجابة كأكل الحرام ونحوه، فإن الله تعالى جواد كريم، برّ رحيم.

المطلب الثاني

آداب بعد الحفظ

١ - الخوف من الوقوع في الرياء:

إن أول ما يفعله الحافظ - بعد أن من الله تعالى عليه بحفظ كتابه - أن يخاف على نفسه من الوقوع في الرياء ومحبة المدح والثناء من الناس، وطلب الجاه والمترلة عندهم، بأن يظهر لهم أنه قد أكمل حفظ القرآن وأجاده، وهذا ما خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته بقوله: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَضْعَرُّ» قالوا: وما الشُّرْكَ الْأَضْعَرُّ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم لَهُمْ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَهْمَالِهِمْ: انْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوِنُونَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»^(٢).

والمرائي بالقرآن مُعَرِّضُ نَفْسِهِ لِلْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ... وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَىٰ

(١) مجموع الفتاوى (٤١/٤).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤٢٨/٥) (ح ٢٣٦٨٠)؛ وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٠/١) (ح ٣٢٢).

به، فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا حَبِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَيَّ وَجْهِي حَتَّى أَلْقِيَ فِي النَّارِ^(١).

وما هو الأجرى تَلَفُّتُهُ يُحذِّرُ حَفَاطَ الْقُرْآنِ مِنَ الْمِيلِ إِلَى حُسْنِ الشُّنَاءِ وَالجِهَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فيقول:

«ينبغي لمن رزقه الله حُسْنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّهُ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ، فَلْيَعْرِفْ قَدْرَ مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ، وَلْيَقْرَأْ لِلْمَخْلُوقِينَ، وَلْيَحذِرْ مِنَ الْمِيلِ إِلَى أَنْ يُسْتَمَعَ مِنْهُ؛ لِيَحْظِيَ بِهِ عِنْدَ السَّامِعِينَ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا، وَالْمِيلِ إِلَى حُسْنِ الشُّنَاءِ وَالجِهَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، وَالصَّلَاتِ بِالْمُلُوكِ دُونَ الصَّلَاتِ بِعَوَامِ النَّاسِ، فَمَنْ مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى مَا نَهَيْتُهُ عَنْهُ، خِفْتُ أَنْ يَكُونَ حُسْنُ صَوْتِهِ فَتَنَةً عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُ حُسْنُ صَوْتِهِ إِذَا خَشِيَ اللَّهَ ﷻ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَكَانَ مَرَادُهُ أَنْ يُسْتَمَعَ مِنْهُ الْقُرْآنُ؛ لِيَتَّبِعَ أَهْلُ الْغَفْلَةِ عَنْ غَفْلَتِهِمْ، فَيَرْغَبُوا فِيهَا رَغْبَةً لِيُحِبُّوا اللَّهَ ﷻ، وَيَتَّبِعُوا عَمَّا نَهَاهُمْ^(٢)».

كيف الخلاص من الرِّياء؟

هذا سؤال مهمٌ يَرُدُّ عَلَى بَالِ كُلِّ حَافِظٍ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ، وَيَخْشَى عِقَابَهُ، وَلَا نَجْدَ جَوَاباً شَافِئاً - فِي هَذَا الشُّأْنِ - إِلَّا عِنْدَ الطَّبِيبِ الْحَافِظِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، ابْنِ الْقَيْمِ تَلَفُّتُهُ حَيْثُ قَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ الْإِخْلَاصُ فِي الْقَلْبِ وَمَحَبَّةُ الْمَدْحِ وَالشُّنَاءِ وَالطَّمَعُ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ، إِلَّا كَمَا يَجْتَمِعُ الْمَاءُ وَالنَّارُ، وَالضَّبُّ وَالْحَوْتُ».

فَإِذَا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِطَلْبِ الْإِخْلَاصِ، فَأَقْبِلْ عَلَى الطَّمَعِ أَوَّلًا، فَادْبِخْهُ بِسَكِينِ الْيَأْسِ، وَأَقْبِلْ عَلَى الْمَدْحِ وَالشُّنَاءِ، فَازْهَدْ فِيهِمَا زُهْدَ عُشَاقِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ. فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكَ ذَنْبُ الطَّمَعِ وَالزُّهْدِ فِي الشُّنَاءِ وَالْمَدْحِ، سَهَّلَ عَلَيْكَ الْإِخْلَاصَ.

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: من قاتل للرِّياء والشُّمعة استحق النار (١٥١٤/٣) (ح ١٩٠٥).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص ٧٩).

فإن قلت: وما الذي يُسهّل عليّ ذبْح الطَّمع، والرُّهْدُ في الثَّناء والمدح؟

قلت: أما ذبْح الطَّمع، فيسهّله عليك: عِلْمُكَ بِقِيْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُطْمَعُ فِيهِ إِلَّا وَبِإِذْنِ اللَّهِ وَحُدَّةِ خَزَائِنِهِ، لَا يَمْلِكُهَا غَيْرُهُ، وَلَا يُؤْتِي الْعَبْدَ مِنْهَا شَيْئاً سِوَاهُ. وَأَمَّا الرُّهْدُ فِي الثَّناءِ وَالْمَدْحِ، فيسهّله عليك: عِلْمُكَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَنْفَعُ مَدْحَهُ وَيُزِيْنُ، وَيَضْرِبُ دَمَهُ وَيَشِينُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ حَمْلِي زَيْنٌ، وَإِنْ دَمِي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَلِكَ اللَّهُ ﷻ»^(١).

فازهد في مدح مَنْ لَا يَزِينُكَ مَدْحُهُ، وَفِي ذَمِّ مَنْ لَا يَشِينُكَ ذَمُّهُ، وَارْغَبْ فِي مَدْحِ مَنْ كُلُّ الرُّزِينِ فِي مَدْحِهِ، وَكُلُّ الشُّيْنِ فِي ذَمِّهِ. وَلَنْ يُقَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَمتى فَقدت الصَّبْرَ وَالْيَقِينِ، كُنْتَ كَمَنْ أَرَادَ السَّفْرَ فِي الْبَحْرِ فِي غَيْرِ مَرْكَبٍ^(٢).

٢ - الخشية من العُجب بالنفس والتَّعالي على الخلق:

تعريف العُجب:

* جاء في (لسان العرب): «العُجْبُ: الرُّهُوُ، وَوَجَلٌ مُعْجَبٌ: مَرْهُوٌ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا»^(٣).

* وجاء في (المعجم الوسيط): «العُجْبُ: الْكِبْرُ وَالرُّهُوُ»^(٤).

* وقال الغزالي رحمته: «العُجْبُ: اسْتِعْظَامُ النِّعْمَةِ وَالرُّكُونُ إِلَيْهَا مَعَ نِسْيَانِ إِضَافَتِهَا إِلَى الْمُتَنِيعِ»^(٥).

* وسئل ابن المبارك رحمته عن العُجْبِ، فقال: «أَنْ تَرَى أَنَّ عِنْدَكَ شَيْئاً لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِكَ». وَسئل عَنِ الْكِبْرِ، فقال: «أَنْ تَزْدِرِي النَّاسَ»^(٦).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤٨٨/٣) (ح٤١٦٠٣)؛ والنسائي في «الكبرى» (٤٦٦/٦) (ح١١٥١٥)؛ والترمذي (٣٨٧/٥) (ح٣٢٦٧)، وقال: «حسن غريب». وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٣/٣) (ح٣٢٦٧).

(٢) الفوائد (ص٢١٨ - ٢١٩). (٣) (٥٢/٩)، مادة: (عجب).

(٤) (٥٨٤/٢). (٥) إحياء علوم الدين (٧٣١/٣).

(٦) انظر: تذكرة الحفاظ (٢٧٨/١)؛ البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠٣/٦) (رقم ٨٢٦٠)؛ تاريخ الإسلام (٢٢٩/١٢)؛ سير أعلام النبلاء (٤٠٧/٨).

حُكْمُ الْمُعْجَبِ:

المُعْجَبُ مُحَرَّمٌ وَمِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، بَلْ عَدَّهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مِنَ الشَّرْكِ الْمَحْبُطِ لِلْعَمَلِ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحُّ مَطَاعٍ، وَهَوَى مُتَّبِعٍ، وَإِضْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(١).

وَقَدْ خَافَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْمُعْجَبِ أَكْبَرَ مِنْ خَوْفِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَمُومِ الذُّنُوبِ - غَيْرِ الشَّرْكِ - فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذَيِّبُونَ، لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ الْمُعْجَبُ الْمُعْجَبُ»^(٢).

قَالَ الْمُنَاوِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَلَّةٍ تَكَرَّرَ لَفْظَةُ (الْمُعْجَبِ) فِي الْحَدِيثِ: «كَرَّرَهُ زِيَادَةً فِي التَّنْفِيرِ، وَمِبَالِغَةً فِي التَّحْذِيرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاصِيَ يَعْتَرِفُ بِنَقْصِهِ فَيُرْجَى لَهُ التُّوبَةُ، وَالْمُعْجَبَ مَفْرُورٌ بِعَمَلِهِ فَتُوبَتُهُ بَعِيدَةٌ»^(٣).

الفرق بين الرياء والمعجب:

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُوضِعاً هَذَا الْفَرْقَ: «وَكَثِيراً مَا يَفْرُقُ النَّاسُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالْمُعْجَبِ، فَالرِّيَاءُ مِنْ بَابِ الْإِشْرَاقِ بِالْمَخْلُوقِ، وَالْمُعْجَبُ مِنْ بَابِ الْإِشْرَاقِ بِالنَّفْسِ، وَهَذَا حَالُ الْمُسْتَكْبِرِ، فَالْمَرَاتِي لَا يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» وَالْمُعْجَبُ لَا يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: «وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». فَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» خَرَجَ عَنِ الرِّيَاءِ، وَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ: «وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» خَرَجَ عَنِ الْإِعْجَابِ»^(٤).

لماذا يقع الحافظ في برائن المعجب؟

الحافظ المعجب استعظم ما بذل من أسباب لتحصيل حفظ القرآن الكريم،

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣٢٨/٥) (ح ٥٤٥٢)؛ وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٥/١) (ح ٣٠٤٥)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٤١٢/٤) (ح ١٨٠٢).

(٢) رواه القضاة في «مسند الشهاب» (٣٢٠/٢) (ح ١٤٤٧)؛ وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٣٨/٢) (ح ٥٣٠٣)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٢٦٣/٢) (ح ٦٥٨).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (٣١٢/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧٧/١٠).

ونسي أو تناسى أن الله تعالى هو الذي هداه لذلك وسهّله عليه ووفّقه إليه، ولولا إحسانه وفضله ﷺ لما تمكّن أحد من حفظ القرآن أو بعضه.

والواجب على - هذا الحافظ - أن ينسب النعمة إلى مُسبِّبها وخالقها تبارك وتعالى، ويعترف بفضله عليه أن وفّقه وأكرمه وأعانته على حفظ القرآن العظيم.

لماذا يقع الحافظ في مستنقع الكِبْرِ؟

والحافظ المتكبر اعتقد - في قرارة نفسه - أنه بَلَغَ مرتبةً في الكمال لم يبلغها مَنْ حوله، فَيُعْجَبُ بنفسه أولاً، ثُمَّ يكون العُجْبُ مطيةً إلى التُّعَالِي على مَنْ حوله، واحتقارهم وتجهيلهم، وربما أتاه الشَّيْطَانُ ونفخ في صدره، وقال: أتممتَ حفظَ القرآن، فأنت حافظُ زمانك، وخيرٌ من فلان وفلان، وأنت من أهل الله وخاصته، وأنت المُقَدَّمُ في الإمامة والإمارة، والمرتفع في درجات الجنة، فهذا هو خُلُقُ الشَّيْطَانِ وتكبره في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وينسى - هذا المتكبر على الناس بحفظه - ما ورد من النصوص في التحذير من ذلك، ومنها:

ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(١).

وما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»^(٢).

٣ - الحذر من الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي:

لا ريب أن الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي سبب مباشر في المصائب التي تنزل على

(١) رواه أبو داود (٥٩/٤) (ح ٤٠٩٠)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/٥١٧) (ح ٤٠٩٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٠/٤) (ح ١٩٩٨)؛ وأبو داود (٥٩/٤) (ح ٤٠٩١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٧٧/٢) (ح ١٩٩٨)؛ و«صحيح سنن أبي داود» (٥١٧/٢) (ح ٤٠٩١).

العباد، وأن نسيان القرآن بعد حفظه من أعظم المصائب، ولذا قال النبي ﷺ: «لا تُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ، فَمَا فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَغْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ. وَقَرَأْ: ﴿وَمَا أَسْبَغُكُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]»^(١).

* قال الضُّحَّاكُ بن مزاحم تَلَفُّةً: «ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه، إلا بذنب يُحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَسْبَغُكُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب»^(٢).

آثار في التحذير من المعاصي:

كان السلف الصالح - مع حرصهم على ضبط ما حفظوه من القرآن - يحاسبون أنفسهم ويلومونها على التقصير والخطأ، ويعززون سبب ذلك إلى ذنوبهم وخطاياهم:

* قال جعفر بن سليمان الضُّبَيْعِيُّ تَلَفُّةً^(٣): «كان مالك بن دينار من أحفظ الناس للقرآن، وكان يقرأ علينا كل يوم جزءاً من القرآن حتى يختم، فإن أسقط حرفاً قال: بذنبٍ مِنِّي، وما الله بظلامٍ للعبيد»^(٤).

* وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها»^(٥).

* وسأل رجل الإمام مالكا تَلَفُّةً فقال: «يا أبا عبد الله، هل يصلح لهذا الحفظ شيء؟ قال: إن كان يصلح له شيء فترك المعاصي»^(٦).

(١) رواه الترمذي (٣٧٧/٥) (ح ٣٢٥٢)؛ وحسنه الألباني في: «صحيح الجامع» (١٢٧٨/٢) (ح ٧٧٣٢).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٠٤)؛ وابن المبارك في «الزهد» (٢٨/١) (رقم ٨٥)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٤/٢) (رقم ١٩٦٥)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٢)، وقال محققه (أبو إسحاق الحويني): «سنده جيد».

(٣) هو جعفر بن سليمان الضُّبَيْعِيُّ البصري (أبو سليمان) من الطبقة الثامنة، ثقة، أخرج له البخاري ومسلم، قال ابن حجر: «صدوق زاهد، لكنه كان بنشيع»، توفي سنة (١٧٨هـ). انظر: تقريب التهذيب (١/١٣١).

(٤) حلية الأولياء (٦/٢٨٨).

(٥) رواه أحمد في «الزهد» (١/١٥٦)؛ وابن المبارك في «الزهد» (٢٨/١) (رقم ٨٣).

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٥٨) (رقم ١٧٨٣).

• وأوصى بذلك وكيعُ بن الجراح **كَتَّفَةً** (١) فقال: «استمعينوا على الحفظ بترك المعاصي» (٢).

• ومن آثار المعاصي - التي أوردها ابن القيم **كَتَّفَةً** قوله: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المُضِرَّةُ بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله».

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفى ذلك النور.

ولما جلس الشافعي بين يدي مالكٍ وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إنني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تُظفئه بظلمة المعصية» (٣).

• وجاء في (فتح الباري) عن القرطبي **كَتَّفَةً** - أن من حقوبة ارتكاب المعاصي الرجوع إلى الجهل بعد العلم: «مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ فَقَدْ عُلَّتْ رُبَّتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يَحْفَظْهُ، فَإِذَا أَخْلَبَ بِهِذِهِ الرُّبَّةَ الدُّنْيَا حَتَّى تَزْحِزِحَ عَنْهَا نَاسِبٌ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ تَرْكَ مَعَاهِدَةِ الْقُرْآنِ يُفْضِي إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْجَهْلِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الْجَهْلِ بَعْدَ الْعِلْمِ شَدِيدٌ» (٤).

شبهة:

قد يقول قائل: كيف يكون الوقوع في المعاصي، وترك الطاعات سبباً في نسيان القرآن وتفئته من صدر حامله، ونحن نرى حُفَاطاً للقرآن يرتكبون الأمور المحرمة كشرب الدخان قبل وأثناء التلاوة، وارتكاب البدع المتنوعة، ومنهم من بدت عليه أمارات الفسق والفجور، وربما يكون منهم من هو إمام في الزينج

(١) هو أبو سفيان، وكيع بن الجراح بن مليح الرُّؤاسي، الكوفي، إمام حافظ ثقة ثبت، فقيه ورع عابد، رحل وكتب وجمع وصنف وحدث وأفكر وبت، كان مولده سنة (١٢٨هـ)، وتوفي سنة (١٩٦هـ).

انظر: تهذيب التهذيب (١٢٣/١١)؛ مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان (١٧٣/١).

(٢) طبقات الحنفية (١/٥٤٠).

(٣) الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي (ص ١٠٣ - ١٠٤).

(٤) (٨٦/٩).

والضلال، أو جاهل بالقرآن ومعانيه، وكثير من هؤلاء لا يعلمون شيئاً عن تفسيره، ولا ينفذون أحكامه، وهم الحاملون له، وربما قرأه بعضهم على قبور الأموات؛ لأجل التأكل به؟!

فكيف يكون ذلك في ضوء ما تقدم؟

ردّها:

هؤلاء الحُفَاطُ الفسقة لم يعرفوا قيمة ما تحمّلوه من كتاب الله، فحالهم وبألّ عليهم وفتنة لغيرهم، وهم مُسْتَدْرَجُونَ بهذا الحفظ من حيث لا يشعرون، ولا يكون في حفظهم نفعٌ ولا بركة غالباً، ولو أنّهم عَظَمُوا القرآنَ الذي في صدورهم لانكسروا إخبائاً وخشوعاً وخوفاً، ومسارة لمرضاة ربّهم تبارك وتعالى^(١).

وما أحسن ما قاله التابعي الجليل مالك بن دينار **تَلَفَّتْ**: «إنّ العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً»^(٢).

ولا أجد لحال هؤلاء مثلاً، إلا ما قاله محمد بن السمّك **تَلَفَّتْ**: «كم من مُدَكِّرٍ بالله ناسي لله، وكم من مُخَوِّفٍ بالله جريء على الله، وكم من داعٍ إلى الله فارٌّ من الله، وكم من تالٍ كتاب الله مُنْشِخٍ من آيات الله»^(٣).

آثار في بيان العلم النافع:

العلم النافع هو الذي يورث خشية الله تعالى، ويدعو إلى العمل، فما زال العلم يدعو العمل، فإنما أجب وإلا ارتحل، وفي ذلك آثار كثيرة عن الصّحابة الكرام **رضي الله عنهم**، ومنها:

ما ورد عن الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعود **رضي الله عنه**، حيث قال: «ليس

(١) انظر: مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن (ص ٤٨).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٤٣٤/٥٦). وانظر: حلية الأولياء (٣٧٢/٢)؛ شعب الإيمان، للبيهقي (٢٩٤/٢)؛ تاريخ الإسلام (٢١٧/٨)؛ اقتضاء العلم العمل (٣٢/١).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٣/٢) (رقم ١٩١٦). وانظر: حلية الأولياء (٨/٢٠٦)؛ صفة الصفوة (١٧٥/٣)؛ إحياء علوم الدين (٦٣/١).

العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية^(١).

وما ورد عن حذيفة رضي الله عنه، أنه قال: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله تعالى»^(٢).

وأمثال هؤلاء - أي: الحفَاطِ السابقِ ذكر حالهم - أراد الله تعالى أن يُقيم عليهم الحجة بما حفظوه، وما حملوه في صدورهم من غير عمل به، وتعظيم له، وتأدب معه، كما قال النبي ﷺ: «... وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»^(٣).

قال النووي رحمته الله: «معناه ظاهر، أي: تتشعق به إن تلوته، وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»^(٤).

وهناك فرق بين العلم الذي في القلب، والعلم الذي على اللسان، كما قال الحسن البصري رحمته الله: «الْعِلْمُ عِلْمَانٍ: فَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ؛ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ؛ فَذَلِكَ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ»^(٥).

ليعلم المصير على المعصية أن علمه وبال عليه، وأن حفظه حجة عليه لا له، وأي قيمة لهذا الحفظ مع عصيانه، وانغماسه في الفجور، ويخشى على من هذا حاله أن تُبدد حسناته، وتكون هباءً منثوراً، وقد جاء عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ يَمَامَةَ بَيْضاً، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ ﷻ هَبَاءً مَثُوراً». قَالَ ثُوبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَلَا نَكُونُ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٣١)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣١٨٠) (رقم ١٧٩٧٨)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٢١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/١٣٩) (رقم ٣٤٧٩٩)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٨١)؛ وعلي بن الحسن في «تاريخ مدينة دمشق» (١٢/٢٨٩)؛ والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجبة» (٢/٥٧٨) (رقم ٥٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (١/٢٠٣) (ح ٢٢٢٣).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/١٠٢).

(٥) رواه الدارمي في «سننه» (١/٩٨) (رقم ٣٦٤)؛ ولا يصح مرفوعاً، فقد ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/٥١) (ح ٦٨)؛ و«السلسلة الضعيفة» (ح ٣٩٤٥).

جِلْدَيْكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(١).

وقال ﷺ: «أَكْثَرُ مُتَافِيي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا»^(٢).

وهؤلاء هم علماء الشوء، وأصحاب الأهواء، الذين لا يعملون بما يعلمون، يبيعون دينهم بدنياهم طمعاً في منصب، أو جاه، أو مال، ويحللون الحرام، فالرّبأ عندهم حلال، ولا يسئونه رباً؛ بل هو عائد استثماري، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣).

وقد خاف النبي ﷺ على أمته من هؤلاء بقوله: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُتَافِيٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»^(٤).

«أي كثيرِ علم اللسان، جاهلِ القلب والعمل، اتّخذ العلمَ حِرْفَةً يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة يتعزّز ويتعاطم بها، يدعو الناس إلى الله ويفرّ هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويُظهِر للناس التَّنَسُّك والتَّعَبُّد، ويُسَارر ربّه بالمعظائم، إذا خلا به ذنب من الذنّاب، لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذّر منه الشارع ﷺ هنا، حذراً من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بتن باطنه وجنانه»^(٥).

فالعلم النافع: هو الذي وقع في القلب، ثمّ ظهر على اللسان، وأثمر العمل الصالح، وأورث خشية الله وتقواه، أمّا الذي يتعلّم العلم؛ ليتأكل به ويتعزّز به

(١) رواه ابن ماجه (١٤١٨/٢) (ح٤٢٤٥)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٨٤/٣) (ح٣٤٤٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٧٥/٢) (ح٦٦٣٧)؛ وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٦/٢) (ح٧٥٠)؛ و«صحيح الجامع» (٢٦٣/١) (ح١٢٠٣).

(٣) الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص١٢٢).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٢٢/١) (ح١٤٤٣)؛ والطبراني في «الكبير» (٢٣٧/١٨) (ح٥٩٣)؛ والبيزار في «مسنده» (٤٣٤/١) (ح٣٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٧/١): «رجال رجال الصحيح». وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٣/١) (ح١٥٥٤)؛ و«السلسلة الصحيحة» (١١/٣) (ح١٠١٣).

(٥) فيض القدير (١٩١٨/٤).

عند النَّاسِ، فهو بمعزل عن خشية الله تعالى؛ لأنَّ العلم جرى على لسانه ولم يستتر في قلبه، فهذا هو عين ما حذَّر منه النَّبِيُّ ﷺ في الحديث^(١).

٤ - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه:

أرشد النَّبِيُّ ﷺ أمته إلى ضرورة المراجعة المستمرة لكتاب الله تعالى، وتعاهد المحفوظ من الآيات والسُّور، وشدَّد على ذلك، وضرَّب لهم الأمثلة المحسوسة ليبين أثر التعاهد في تثبيت الحفظ في قلب حامله؛ لأنَّ القرآن عزيز، لا يبقى في صدور مَنْ يهمله، وهذا من عِزِّته، وقد ورد عن النَّبِيِّ ﷺ أحاديث كثيرة في التَّنبية على ضرورة المراجعة والمدارسة، منها ما يلي:

١ - عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ»^(٢)، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»^(٣).

قال ابن بطال تَفْهيمًا: «هذا الحديث يوافق الآيتين؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا بِكَ قَوْلًا قَبْلَ هَذَا﴾ [المزمل: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِالمحافظة والتَّعاهد بَسْرَ له، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ تَقَلَّبَتْ مِنْهُ»^(٤).

٢ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُنْسَى مَا لِأَحَدِهِمْ

(١) انظر: تحفة الأحوذى (٧/٢٧٨).

(٢) أي: جلدُّوا عهدَه بملازمة تلاوته لئلا تنسوه. انظر: تحفة الأحوذى (٨/٢١٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٣/١٦٢١) (ح ٥٠٣٣)، ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأمر بتعهد القرآن (١/٥٤٥) (ح ٧٩١).

والتَّعَهُدُ: المراجعة والمعاودة.

وَالْإِبِلُ الْمُتَقَلِّبَةُ: هي الإبل التي سُئِلَتْ بِالعقال لئلا تهزَّب. والوقال: حَبِيلٌ صَغِيرٌ يُشَدُّ بِهِ سَاعِدُ البَجِيرِ إِلَى فَخِذِهِ مَلَوِيًّا. وَغَضَّ الإِبِلُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ الحَيوانِ الإنْسِي نَفورًا، وَفِي تحصيلها بعد استمکان نفورها صعوبة.

انظر: جامع الأصول (٢/٤٤٨) فتح الباري (٩/١٠٠).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/١٠٢).

يَقُولُ: نَسِيْتُ آيَةَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ^(١)، بَلْ هُوَ نُسِيٌّ، اسْتَذَكِرُوا الْقُرْآنَ، فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيلاً^(٢) مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعْمِ بِمَقْلِبِهَا^(٣).

و«سبب الذم: ما فيه - أي اللفظ - من الإشعار بعدم الاعتناء بالقرآن، إذ لا يقع النسيان إلا بترك التعاهد وكثرة الغفلة، فلو تعاهدته بتلاوته والقيام به في الصلاة لدام حفظه وتذكره، فإذا قال الإنسان: نسيْتُ الآيةَ الفلانية. فكأنما شهد على نفسه بالثغريط، فيكون متعلق الذم ترك الاستذكار والتعاهد؛ لأنه الذي يورث النسيان»^(٤).

الحكمة من تفلت القرآن من الصدور:

شأت حكمة الله تعالى أن يتفلت حفظ القرآن من الصدور - إذا لم تكن هناك معاهدة دائمة مستمرة للمحفوظ - ولعل من أبرز الحكيم في ذلك:

* الابتلاء والامتحان لقلوب العباد؛ لكي يتميز القلب المتعلق بالقرآن دائماً، من القلب الذي تعلق به وقت الحفظ، ثم فترت همته وانصرف عنه حتى نسيه.

* تقوية دافع المسلم إلى الإكثار من تلاوة القرآن؛ لينال أجراً عظيماً بكل حرف يتلوه، ولو أنه حفظ فلم ينسَ لما احتاج إلى كثرة التلاوة، ومن هنا كان خوف نسيان الحفظ نعمةً قد لا يدرك المسلم أهميتها إلا بعد التأمل والتفكير في هذا الشأن، والله تعالى أعلم^(٥).

(١) آيَةُ كَيْتٍ وَكَيْتٍ: جاء في (فتح الباري) (١٠٠/٩): «قال القرطبي: كيت وكيت يُعْبَرُ بهما عن الجمل الكثيرة، والحديث الطويل، ويثقلهما: ذيت وذيت. وقال ثعلب: كيت للأفعال، وذيت للأسماء». وانظر: عمدة القاري (٤٨/٢٠).

(٢) أَشَدُّ تَفْصِيلاً مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعْمِ بِمَقْلِبِهَا: «التفصي: الانفصال. وهو بمعنى الرواية الأخرى: «أشدُّ تفلتاً». والتنعّم: أصلها الإبل والبقر والغنم. والمراد هنا: الإبل خاصة؛ لأنها التي تُثقل». «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧٧/٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن؛ باب: استذكار القرآن وتعاهده (١٦٢١/٣) (١٦٢١ ح ٥٠٣٢)؛ ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: الأمر بتعهد القرآن (٥٤٤/١) ح (٧٩٠).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٠١/٩).

(٥) انظر: خصائص القرآن الكريم (ص ١٧٧)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص ٧٤).

٣ - عن عبد الرحمن بن شبل الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِذَا حَلِمْتُمُوهُ، فَلَا تَقْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْبِرُوا بِهِ»^(١).

في هذا الحديث حث النبي ﷺ أمته على حفظ القرآن وتعلمه، وأرشدهم إلى الطريقة المثلى في الحفاظ عليه: وهي ألا يغلو فيه، وألا يتجافوا عنه بالابتعاد والهجر، وألا يستغلوه لمصالح دنيوية.

فالتلُّو في القرآن: هو المبالغة في التجويد، أو الإسراع في القراءة بحيث يمنعه عن تدبر المعنى.

والجفاء عنه: هو ترك تعاهده والابتعاد عن تلاوته. فالجفاء: هو البعد عن الشيء.

والتأكل به: هو أن يُجعل له عوضاً من سحت الدنيا^(٢).

آثار في الحث على مراجعة الحفظ:

وقد اقتفى السلف الصالح رضي الله عنهم نهج نبيهم ﷺ، واسترشدوا بوصاياه، من تعاهد القرآن، ومداومة مدارسته؛ كي لا يتفلت منهم، وقد وردت عنهم آثار كثيرة، فيها التثبيح على التدارس والمدارسة لما حفظوه، والمداومة على ذلك.

* قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يذرس»^(٣).

* وقال ابن وهب رضي الله عنه: «قيل لأخت مالك بن أنس: ما كان شغل مالك في بيته؟ قالت: المصحف والتلاوة»^(٤).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤٤٤/٣) (ح ١٥٧٠٤)؛ والبيهقي في «السنن» (١٧/٢) (ح ٢١٠٣)؛ وعبد بن حميد في «مسنده» (١٢٩/١) (ح ٣١٤)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣٨٧/١٠) (ح ١٩٤٤٤)؛ قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٠١/٩): «سنده قوي». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٨/٧): «رجال ثقاة». وقال محققو المسند (٢٤/٤٣٧) (ح ١٥٦٦٦): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) انظر: عمدة القاري (٢٦٤/٢١)؛ عون المعبود (١٣٢/١٣)؛ فتح القدير (٦٤/٢).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٣٦/١) (رقم ٤٦٥).

(٤) تهذيب الأسماء، للنووي (٣٨٥/٢).

* وقال أبو عبد الله جعفر بن محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلوب تُرَبُّ، والعلم غرسها، والمذاكرة ماؤها، فإذا انقطع عن التُّرْب ماؤها، جفَّتْ غرسها»^(١).

* وعن محمد بن القاسم بن خلاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «الاحتفاظ بما في صدر الرُّجُلِ أولى من دُرُسِ دَفْتَرِهِ، وحرَفٌ تحفظه بقلبك أنفع من ألف حديثٍ في دفترِكَ»^(٢).

* ولَمَّا قِيلَ لِلأصمعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣): «كَيْفَ حَفِظْتَ وَنَسِيَ أَصْحَابُكَ قَالَ: دَرَسْتُ وَتَرَكُوا»^(٤).

* وقال الخطيب البغدادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥):

«وينبغي أن يُرَاعِيَ ما يحفظه، ويستعرض جميعه كلِّما مضت له مدَّة ولا يُفْقِلُ ذلك، فقد كان بعض العلماء إذا علِّمَ إنساناً مسألةً من العلم سأله عنها بعد مدَّة، فإنَّ وَجَدَهُ قد حفظها علِّمَ أنه محبٌّ للعلم فأقبل عليه وزاده، وإن لم يره قد حفظها، وقال له المتعلِّمُ كنتُ قد حفظتها فأنسىتها، أو قال كتبتها فأضعتها، أعرض عنه ولم يعلمه»^(٦).

(١) المصدر السابق (٢٧٨/٢) (رقم ١٨٤٧).

(٢) المصدر نفسه (٢٦٦/٢) (رقم ١٨١٥).

(٣) هو أبو سعيد، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي، المعروف بالأصمعي، عالمٌ بالحديث والفقه والعربية، وثقه الأئمة. ولد سنة (١٢٢هـ)؛ من أهل البصرة. وقدم بغداد في أيام هارون الرشيد، ومن تصانيفه الكثيرة: «نوادير الأعراب»، و«تاريخ العرب قبل الإسلام»، و«الأجناس في أصول الفقه». توفي بالبصرة سنة (٢١٦هـ)، وعمره (٨٨) سنة.

انظر: تهذيب التهذيب (٤١٥/٦)؛ طبقات النُّحاة (١٩٩/٢).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٦٧/٢) (رقم ١٨١٦).

(٥) هو الحافظ الناقد، محدث الوقت (أبو بكر) أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي، ولد سنة (٣٩٢هـ) سمع الحديث صغيراً، وارتحل وجمع وصنَّف حتى صار أحفظ أهل عصره، من كبار الشافعية، ومن تصانيفه الكثيرة: «الكفاية في معرفة علم الرواية»، و«شرف أصحاب الحديث»، و«المُتَّقِ والمُفْتَرِق»، و«الصُّحاح العوالي». توفي ببغداد سنة (٤٦٣هـ).

انظر: طبقات الشافعية (٣٦/٢)؛ سير أعلام النبلاء (٢٠٨/١١).

(٦) الفقيه والمتفقه (٢٠٣/٢).

المبحث الثالث

فضائل حفظ القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: علو درجة الحافظ.

المطلب الثاني: الحافظ مُقَدَّم في الدنيا والآخرة.

المطلب الثالث: فضائل متنوعة للحافظ.

فضائل حفظ القرآن

تمهيد:

لم يترك النبي ﷺ أمراً فيه تشجيع على حفظ القرآن العظيم إلا سلكه، فكان يُفاضل بين أصحابه الكرام في حفظ القرآن، فيعقد الرّاية لأكثرهم حفظاً. وإذا بعث بعتاً جعل أميرهم أحفظهم للقرآن، وإمامهم في الصّلاة أكثرهم قراءةً للقرآن، ويُقدّم للحد في القبر أكثرهم أخذاً للقرآن، وربّما زوج الرّجل على ما يحفظه في صدره من القرآن، وهذا هو محور حديثنا من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

علو درجة الحافظ

حين يدخل المؤمنون الجنّة فإنّ حافظ القرآن له شأن آخر، حيث يعلمو غيره في درجات الجنّة لتعلو منزلته، وترتفع درجته في الآخرة، كما ارتفعت في الدّنيا، ويتبين ذلك جلياً من خلال عدّة أحاديث:

١ - ارتفاع منزلة الحافظ:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ^(١): اقْرَأْ وَارْتَقِ^(٢)، وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُّ فِي الدُّنْيَا^(٣)، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ هِنْدٌ آخِرُ

(١) (صاحب القرآن): أي حافظه عن ظهر قلب أو حافظ بعضه الملازم لتلاوته مع التدبّر لأياته، والعمل بأحكامه، والتأدّب بأدابه.

(٢) (اقْرَأْ وَارْتَقِ): أمر من رقى يرقى، أي: اصعد درج الجنّة بمقدار ما حفظته من آي القرآن.

(٣) (وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُّ فِي الدُّنْيَا): أي لا تستعجل في قراءتك فالترتيل في الجنّة لمجرد

آية تَقْرُؤَهَا»^(١).

أفاد الحديثُ التَّريُّبُ في حفظ القرآن، وتخصيصُ الصَّاحِبِ في الحديثِ بالحافظ عن ظهر قلب دون التَّالِي من المصحف تكريماً له وتشريفاً.

قال ابن حجر الهيتمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الخبر المذكور خاصٌّ بمن يحفظه عن ظهر قلب، لا بمن يقرأ بالمصحف؛ لأنَّ مجرد القراءة في الخطِّ لا يختلف النَّاسُ فيها ولا يتفاوتون قَلَّةً وكثرةً، وإنما الذي يتفاوتون فيه كذلك هو الحفظ عن ظهر قلب، فلهذا تفاوتت منازلهم في الجَنَّةِ بحسب تفاوت حفظهم، ومما يؤيد ذلك أيضاً أنَّ حِفْظَ القرآن عن ظهر قلب فرض كفاية على الأُمَّة، ومجرد القراءة في المصحف من غير حفظ لا يسقط بها الطلب، فليس لها كبير فضل كفضل الحفظ، فتعيَّن أنَّه - أعني الحفظ عن ظهر قلب - هو المراد في الخبر، وهذا ظاهر من لفظ الخبر بأدنى تأمل، وقول الملائكة له: اقرأ وارقْ صريح في حفظه عن ظهر قلب كما لا يخفى»^(٢).

الغَنَمُ بِالْغُرْمِ:

والغورُ بهذه المنزلة له شروط، يوضحها الألباني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: «ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط أن يكون حفظه لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدُّنيا والدُّرهم والدِّينار، وإلا فقد قال ﷺ: «أَكْثَرُ مَنْ أَقْبَى قُرْأُوهَا»^(٣)،^(٤).

فيا لها من سعادة للحافظ المُخلص إذا قيل له: اقرأ وارقْ ورتلْ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تَقْرُؤَهَا. تُرى إلى أين يرقى؟

التَّلَذُّذُ: إذ لا عَمَل ولا تكليف هناك، وفيه إشارة إلى أنَّ الجزء على وفق الأعمال كَمِيَّة وكيفية. انظر: عون المعبود (٤/٢٣٧)؛ تحفة الأحوذى (٨/٢٣٢)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص ٧١).

(١) رواه أبو داود (٧٣/٢) (ح ١٣٦٤)، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (١/٢٧٥) (ح ١٣٠٠): «حسن صحيح».

(٢) الفتاوى الحديثية (ص ١٥٦).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٧٥/٢) (ح ٦٦٣٧)، وقال محققو المسند (١١/٢١٣) (ح ٦٦٣٧): «إسناده حسن». وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/٣٨٦) (ح ٧٥٠).

(٤) السلسلة الصحيحة (٥/٣٨٤).

جاء في (عون المعبود) عن الطيبي رحمته: «إِنَّ التَّرْقِيَّ يَكُونُ دَائِمًا، فَكَمَا أَنَّ قِرَاءَتَهُ فِي حَالِ الْإِخْتِمَامِ اسْتَدْعَتْ الْإِفْتِتَاحَ الَّذِي لَا انْقِطَاعَ لَهُ، كَذَلِكَ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ وَالتَّرْقِيَّ فِي الْمَنَازِلِ الَّتِي لَا تَنْتَاهِي، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ لَهُمْ كَالنَّسْبِيعِ لِلْمَلَأَنِكَةِ لَا تَشْغَلُهُمْ مِنْ مَسْتَلذَّاتِهِمْ بَلْ هِيَ أَحْظَمُ مَسْتَلذَّاتِهِمْ»^(١).

تنبيه على أثر ضعيف:

قال الخطابي رحمته: «جاء في الأثر»^(٢): «أَنَّ عِدَّةَ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى قَدْرِ دَرَجِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لِلْقَارِئِ: اِرْقُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ مَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ اسْتَوْفَى قِرَاءَةَ جَمِيعِ الْقُرْآنِ اسْتَوْلَى»^(٣) «عَلَى أَقْصَى دَرَجِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَ جِزَاءً مِنْهَا كَانَ رَقِيَّهُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ، فَيَكُونُ مَتَهَى الثَّوَابِ عِنْدَ مَتَهَى الْقِرَاءَةِ»^(٤).

٢ - عِدَّةُ كِرَامَاتٍ لِلْحَافِظِ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ»^(٥)، فَيَلْبَسُ نَاجِ الْكِرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيَلْبَسُ حُلَّةَ الْكِرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنِّي، فَيَقَالُ: اقْرَأْ وَلِزِقْ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»^(٦).

يَبَيِّنُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ يَرْفَعُ شَأْنَ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ يَطْلُبُ

(١) عون المعبود (٤/٢٣٧ - ٢٣٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٢٠) (رقم ٢٩٩٥٢) عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: «دَخَلْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا فَضَّلَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ مِنْ دَخَلِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتْ: إِنَّ عِدَّةَ دَرَجِ الْجَنَّةِ عَلَى عِدَّةِ آيِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ دَخَلِ الْجَنَّةَ أَفْضَلَ مِنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ». قَالَ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٥/٢٨٣): «وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: إِنَّ إِسْنَادَ هَذَا الْأَثْرِ ضَعِيفٌ».

(٣) الأولى أن يعبر بلفظ الحديث (ارتقى)؛ لأن كلمة (استولى) تُوحى بالفهر والغلبة والاستيلاء، وأهل الجنة ليسوا كذلك.

انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ٤٦).

(٤) معالم السنن، (٢/١٣٦). وانظر: عون المعبود (٤/٢٣٧)، تحفة الأحوذى (٨/٢٣٢).

(٥) (پارٲ حلو): الظاهر أنه أمر من التحلية، يقال: خليت أحليه تحلية إذا ألبنته الجلية. والمعنى: يلبس زينة. انظر: تحفة الأحوذى (٨/٢٣٢).

(٦) رواه الترمذى (٥/١٧٨) (ح ٢٩١٥)، وقال: «حسن صحيح». وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذى» (٣/١٠) (ح ٢٣٢٨).

من الله تعالى أن يُزَيَّنَ صاحبه ويحلَّيه ويلبسه تاج الكرامة ويرضى عنه ﷺ جزاءً وفاقاً، فكما أرضى صاحب القرآن كتابَ الله في الدنيا بقيامه به، وعمله به، وتدبيره، والدعوة إليه؛ فإنَّ القرآن يسأل الله تعالى أن يرضى عن عبده الحافظ للقرآن العامل به.

ففي هذا الحديث جِدَّةٌ كراماتٍ لحافظ القرآن وهي:

الإِنعام عليه بتاج الكرامة، وحُلَّة الكرامة، فهو يُعرف بها يوم القيامة بين الخلائق، وهي علامةٌ على كرامةٍ لابسهما ومكانته عند الله ﷻ.

وهذا التاج وهذه الحُلَّة وسام شرف ورفعة، يتميز بها أصحاب القرآن عن غيرهم من المؤمنين، وجدير بمن لبس هذا التاج وهذه الحُلَّة أن يكون رفيع الثَّرجة عالي المقام.

وإذا كان العبد في الدنيا يزهو ويفتخر ويمتلئ إعجاباً وخيلاء إذا ما خلَّع عليه سلطاناً أو ملكاً خِلعةً ما، فما بالك بصاحب القرآن يوم القيامة إذا أنعم عليه مولاه، خالقُ الخلق جميعاً، ومَلِكُ النَّاسِ وإلَّهُمَّ بهذه النُّعمة العظيمة، والمنزلة الرُّفِيعَة، وألبسَهُ تاجَ الكرامة، وحُلَّةَ الكرامة على أعين الخلائق.

ما بالك بالسَّعادة والغبطة والفرح الذي يملأ قلبه.

وأعظَمُ من ذلك كُلُّه: رضا الله عنه، ثم يُزاد على كلِّ ذلك بكلِّ آية حَسَنَة، فضلاً عن رفيعه درجات في الجنة بعدد الآيات التي يحفظها من القرآن.

قال ابن الجوزي رحمته الله - في فضائل حملة القرآن العظيم، وجزائهم عند الله

تعالى:

وَيَعُدُّ: فَالْإِنْسَانَ لَيْسَ يَشْرُفُ	إِلَّا بِمَا يَحْفَظُهُ وَيَعْرِفُ
لِذَلِكَ كَانَ خَامِلُوا الْقُرْآنِ	أَشْرَافَ الْأُمَّةِ أُولِي الْإِحْسَانِ
وَأَنَّهَمُ فِي النَّاسِ أَهْلُ اللَّهِ	وَإِنْ رَبَّنَا بِهِمْ يُبَاهِي
وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ عَنْهُمْ وَكَفَى	بِأَنَّهُ أَوْزَنَهُ مَنْ اضْطَفَى
وَهُوَ فِي الْأُخْرَى شَافِعٌ مُشْفَعٌ	فِيهِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ يُسْمَعُ
يُعْطَى بِهِ الْمُلْكُ مَعَ الْخُلْدِ إِذَا	تَوَجَّهَ تاجَ الْكِرَامَةِ كَذَا
يَقْرَأَ وَيَرْقَى فَرَجَ الْجَنَانِ	وَأَبْوَاهُ مِنْهُ يُكْسَبَانِ

فَلْيُخْرِصِ السَّعِيدُ فِي تَخْصِيلِهِ وَلَا يَمَلْ قَطُّ مِنْ تَرْتِيلِهِ^(١)

فهل يعي المسلمون فضائل حفظ القرآن، ويُقبلون عليه بشوق، ورغبة، ونهم، ويُربون على ذلك أبناءهم؟

ويا للأسف إن أكثرهم يتسابقون على دنياهم أضعاف تسابقهم إلى آخرتهم. وقد حذرنا الله تعالى الدنيا ومتاعها فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظَلَمُونَ قَبِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

فمن أظلم ممن زهد في كتاب ربه، فأعرض عنه حفظاً وفقهاً وتلاوة ودراسة وعملاً^(٢).

٣ - الحافظ مع السَّفرة الكرام البررة:

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرِّرَةِ»^(٣).

هؤلاء السَّفرة الكرام اختارهم الله تعالى، وشرفهم بأن تكون بأيديهم الصُّحف المطهرة، قال تعالى: ﴿يُحْفَظُ مَا نَكَّرَ ﴿١٥﴾ تَرْوَعُوهُ مُطَهَّرَةً ﴿١٦﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٧﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦].

مغزى معية السَّفرة:

ومعنى كون الحافظ مع السَّفرة يحتمل أمرين:

الأول: أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السَّفرة؛ لأنصافه بصفته من حنل كتاب الله تعالى. فأنزل منازلهم الرفيعة، وأسكن مقاماتهم العالية من جوار الحق تعالى: ﴿إِنَّ لِلتَّقِيَيْنَ فِي جَنَّاتٍ وَتَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْبَدٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

الثاني: أنه عاجلٌ بعملهم وسالكٌ مسلكهم^(٤).

(١) طيبة النشر في القراءات العشر (ص ٣١).

(٢) انظر: فضائل سور القرآن الكريم (ص ٦٤)، أنوار القرآن (ص ٢٦٢ - ٢٦٣)، فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة (ص ٤٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة ﴿بِسْمِ﴾ (٤/ ١٨٨٢) (ح ٤٦٥٣).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٤)، عون المعبود (٤/ ٢٣٠)، تحفة الأحوذى.

«وما نفتأ نرى النَّاسَ اليومَ يفتخرون حين يُنسبون إلى عظيم من العظماء، أو رجل يحمل الشُّهرة والاسم اللامع ولو كان ذلك في ميدان الرياضة أو اللهو الباطل، فهيناً لهؤلاء ما اختاروه من هوانٍ لأنفسهم، وهيناً لحفظة كتاب الله حين اختاروا أن يكونوا مع الشفرة الكرام البررة»^(١).

المطلب الثاني

الحافظ مُقَدَّمٌ في الدُّنيا والآخرة

١ - الحفَّاظ هم الأولى بالإمارة:

يرفع القرآن العظيم من شأن صاحبه في الدنيا؛ لحفظه إياه، فصاحب القرآن هو أعلى النَّاسِ نسباً، وأشرفهم منزلةً، وأرفعهم قدراً، وهكذا يجب أن يُعامل، وهذا ما كان عليه السلف الصالح من إكرام لصاحب القرآن، واعترافي بفضله، وتقديم على غيره؛ حتَّى في منصب الإمارة، وإن كان مولى من مواليتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فممنزَّ رفعمهم الله تعالى بالقرآن عبد الرَّحمن بن أبزى الخزاعي رضي الله عنه، وهو من أواخر صغار الصحابة، كان مولى لنافع بن عبد الحارث، وكان في عهد عمر رجلاً، وكان على خراسان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢).

فَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ؛ أَنَّ نَافِعَ بْنَ الْحَارِثِ لَيْقِي عُمَرَ بِمِصْرَانَ. وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ. فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنُ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ. وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنْ نَبِيكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»^(٣).

إِنَّ قَارِئَ الْقُرْآنِ، الْعَالِمَ بِأَحْكَامِهِ، رَفِيعُ الْقَدْرِ، عَظِيمُ الْمَنْزَلَةِ، يَفُوقُ غَيْرَهُ

= (١٧٤/٨)، فيض القدير (٦٠٩٩/١٢).

(١) حفظ القرآن الكريم (ص ٢٥).

(٢) انظر: الإصابة (١٤٩/٤)، التفریب (٤٧٢/١)، سير أعلام النبلاء (٢٠١/٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٥٥٩/١)

وإن كان أشرف منه نسباً، أو أعظم جاهاً، فهذا مولى من الموالي لا جاء له، ولا مال، ولا حسب، ولا مكانة علياً في المجتمع، وربما كان في السلم الاجتماعي دون غيره بمقاييس أهل الدنيا، ولكنه بمقاييس القرآن شيء آخر، وله مقام آخر.

فقد رفعه القرآن من مقام المولى إلى مقام الولاية، وعلمه بالقرآن أهله لأن يحكم ويقضي بين الناس، وتكون له الكلمة النافذة، والرأي المسموع في المجتمع.

وها هو ذا عمر رضي الله عنه يعرف لهذا العالم بالقرآن والحافظ له مكانته وفضله، فإذا به يُقرُّ نافعاً على اختياره، ويذكر قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَاماً» الحديث^(١).

وليس اعتراف عمر رضي الله عنه هو مثار العجب، فإن عمر رضي الله عنه أولى الناس بأن يعترف بفضل صاحب القرآن، ولكن العجب كل العجب ممن ولّاه على مكة، وفي هذا إشارة إلى ما وصل إليه المجتمع المسلم من تحقيق الكرامة الإنسانية على وجهها الصحيح، إذ لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

٢ - الحُفَظاء هم الأولى بالإمامة:

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ...»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلْيَبْرُواهُمْ أَحْتَمُمْ، وَأَحْتَمُمْ بِالْإِمَامَةِ أَقْرَبُهُمْ»^(٣).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢٤٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَنْ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ (١/٤٦٥) (ح ٦٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَنْ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ (١/٤٦٤) (ح ٦٧٢).

وهذا مقام آخر من مقامات الأفضلية للمحافظ، بأن قُدِّمَ على كُلِّ مَنْ حضر في المسجد للصلاة.

فالأكثر قرآناً هو المُقَدَّمُ في إمامة الصَّلَاة وإن كان مولى:

عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَدِمَ المُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ العَصْبَةَ - مَوْضِعَ بَقْبَاءَ - قَبْلَ مُقَدِّمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَانَ يُؤْمِنُهُمْ سَالِمٌ، مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا»^(١).

زاد الهيثم بن خالد الجهني: «وَفِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ»^(٢).

قال ابن حجر رحمته الله: «ووجه الدلالة منه إجماع كبار الصحابة القرشيين على تقديم سالم عليهم، وكان سالم المذكور مولى امرأة من الأنصار فاعتقته، وكان إمامته بهم كانت قبل أن يُعتق، ...»

وإنما قيل له مولى أبي حذيفة؛ لأنه لازمٌ أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بعد أن اعتق فتبناه، فلما نُهوا عن ذلك قيل له مولاة...

وقوله: (وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا) إشارة إلى سبب تقديمهم له مع كونهم أشرف منه^(٣).

والأكثر قرآناً هو المُقَدَّمُ في إمامة الصَّلَاة وإن كان صبيّاً مميّزاً:

عن عمرو بنِ سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ:

لَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا، فَقَالَ: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّئْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا». فَتَنظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي،

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: إمامة العبد والمولى (٢١٩/١) (ح ٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود (١٦٠/١) (ح ٥٨٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/١١٧) (ح ٥٥٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/٢٤١).

لَمَا كُنْتُ أَتَلَّقِي مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعٍ سِنِينَ^(١)...

قال ابن حجر تَلَقَّتهُ: «وفي الحديث حُجَّةٌ لِلشَّافِعِيَّةِ فِي إِمَامَةِ الصَّبِيِّ الْمُمَيَّزِ فِي الْفَرِيضَةِ، وَهِيَ خِلَافِيَّةٌ مَشْهُورَةٌ وَلَمْ يُنْصَفْ مِنْ قَالِ إِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِاجْتِهَادِهِمْ، وَلَمْ يُظَلِّعِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا شَهَادَةٌ نَفِيَّةٌ، وَلِأَنَّ زَمَانَ الْوَحْيِ لَا يَقَعُ التَّقْرِيرُ فِيهِ عَلَى مَا لَا يَجُوزُ»^(٢).

٣ - الْحَفَاطُ هُمُ أَصْحَابُ الشُّورَى:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا»^(٣).

٤ - الْحَفَاطُ هُمُ الْمَقْدَّمُونَ فِي الْبِرْزَخِ:

وَكَمَا أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَ حَافِظِ الْقُرْآنِ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ أَعْلَى شَأْنُهُ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالتَّقْدِيمِ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أَحَدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ». فإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، فَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

قال ابن حجر تَلَقَّتهُ: «وفيه فضيلة ظاهرة لقارئ القرآن، ويلحق به أهل الفقه والزهد وسائر وجوه الفضل»^(٥).

ومع أن مقام الشهادة فوق كل مقام، ومع أن النبي ﷺ شهد لقتلى أحد عند الله تعالى بالصدق فيما عاهدوا عليه، وشهد لهم بالجنة، إلا أنه في غمرة

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: من شهد الفتح (١٢٩٩/٣) (ح ٤٣٠٢).

(٢) المصدر السابق (٣٠/٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «خُذِ الْقُرْآنَ وَأَمْرًا بِالْقُرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكِبْرِيَاءِ» [الأعراف: ١٩٩] (١٤٢٠/٣) (ح ٦٤٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: اللحد والشق في القبر (٤٠١/١) (ح ١٣٥٣).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢١٣/٣).

هذه الفضائل للشهداء، لم يَنْسَ ﷺ الشهيد الأكثر حفظاً للقرآن في تقديمه في اللحد.

فصاحب القرآن، والأكثر أخذاً للقرآن، له الأفضلية حتى بين الشهداء، لعظمة القرآن الذي في صدره، وما تقديم الرسول ﷺ له في اللحد إلا زَمْزٌ لتقدمه على مَنْ سواه من الشهداء في الأجر والثواب، وفي المكانة والجنَّة.

وإذا كان التفاضل بالقرآن بين الشهداء، فالتفاضل به بين الأحياء ولا شك أكبر وأعظم: «وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَشَكُّونَ» [المطففين: ٢٦]. فلْيَتَأْمَلِ المسلم هذا الأمرَ جيداً، ويقف عنده طويلاً، وَمِنْ ثَمَّ يقوده للعناية بالحفظ والإكثار منه والصبر عليه^(١).

المطلب الثالث

فضائل متنوعة للحافظ

١ - الحُفَاطُ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ:

من تمام إكرام الله تعالى لحملة كتابه أن جعلهم من أهله وخاصته، وهو شرف عظيم، وتكريم لحفَاط القرآن لا يُدانيه أيُّ شرف يسعى إليه الناس في الدنيا؛ ذلك أن العبد الضعيف يُصبح من أهل الله وخاصته، ولا شك أن أهل الله وخاصته، هم أقرب الناس إلى نيل رحمته، وكرامته، ومحَبَّته، والقرب منه تعالى. فهو فضلُ الله يؤتیه مَنْ يشاء، والله واسع عليم.

عن أنس بن مالك رضي عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ^(٢) مِنْ النَّاسِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٣).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢٥٠).

(٢) (أهْلِينَ): جَمْعُ أَهْلٍ، جُمِعَتْ بِالْبَاءِ وَالنُّونِ لِكُونِهَا مَلْحَقًا بِجَمْعِ الْمَذْكَرِ السَّلَامِ، وَنُسِبَتْ بِالْبَاءِ لِكُونِهَا اسْمَ إِنْ مَوْخَرٍ.

(٣) رواه ابن ماجه في «المقدمة» (٧٨/١) (ح ٢١٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢/١) (ح ١٧٨).

والمقصود بأهل الله وخاصته في الحديث المذكور:

هم حفظة القرآن، العاملون به، هم أولياء الله، والمُختصون به اختصاص أهل الإنسان به.

وقيل: هم الذين يختصون بخدمته، فإنه لما قرَّبهم واختصهم كانوا كأهله، ومنه قيل لأهل مكة: أهل الله، لما كانوا سكان بيته وما حوله كانوا كأهله^(١).

وإذا اختص المخلوق أحداً من المخلوقين قرَّبه منه وأفاضَ عليه من إكرامه وعطائه ومحَبته الشيء الكثير، فما الظنُّ بالله الكريم - وله المثل الأعلى في السماوات والأرض - مالبك المَلِك ذي الجلال والإكرام.

فأكْرَمَ به من فضل، وأعْظَمَ بها من مكانة ومنزلة بطمح إليها كلُّ مؤمن، وتصبو إليها كلُّ نفس تريد وجهَ الله الكريم ورضوانه وجنته.

فلينتسب كلُّ إنسان لما يتمنى ويرغبُ من أهل المال أو الجاه أو المناصب أو الشهرة، ولتُجِدِ القواميس بكلِّ وصفٍ وثناءٍ، فهل تأتي بأكمل مآ وُصِفَ به حملة كتاب الله: «أهل الله وخاصته»؟^(٢).

٢ - إكرام الحافظ في الدنيا:

إكرام حافظ القرآن الكريم من إجلال الله تعالى وتعظيمه؛ لعظيم حرمة الحافظ ومنزلة عند الله تعالى.

فمن أبي موسى الأشعريؓ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ خَيْرَ الْعَالِي فِيهِ»^(٣)

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (١/٨٣)، لسان العرب (١١/٢٨)، شرح سنن ابن ماجه (١/٢٠)، فيض القدير (٥/٢٣٤١، ٢٠٦٠).

(٢) انظر: حفظ القرآن الكريم (ص ١٥)، أنوار القرآن (ص ٢٣٩).

(٣) (خير الغالي فيه): الغلو هو التشديد ومجاوزة الحد، والمعنى: خير المتجاوز الحد في العمل بالقرآن، وتتبع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه، وفي حدود قراءته ومخارج حروفه. وقيل: الغلو المبالغة في التجويد، أو الإسراع في القراءة، بحيث يمنعه عن تدبير المعنى.

والجافي عنه^(١)، وإِكْرَامَ فِي السُّلْطَانِ الْمُقْبِطِ^(٢).

وسُمِّيَ الحَافِظُ حَامِلًا لِلْقُرْآنِ: لِمَا يَتَحَمَّلُهُ مِنَ المَشَاقِّ الكَثِيرَةِ وَالتِّي تَزِيدُ عَلَى الأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ^(٣)، فَحَقُّ لَهُ أَنْ يُكْرَمَ وَيُعْظَمَ وَيُجَلَّ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ تَجْبِيلًا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى، ذَلِكَ أَنَّ الحَافِظَ قَدْ حَوَى صَدْرُهُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ هُنَا يَنْبَغِي إِكْرَامُهُ وَإِنْزَالُهُ المِثْرَةَ اللَّاتِقَةَ بِهِ.

٣ - ثناء الله تعالى على الحُفَاطِ:

مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى حَفَاطَ كِتَابِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِأَنْ جَعَلَ كِتَابَهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِهِمْ، وَفِي هَذَا مَنَقِبَةٌ عَظِيمَةٌ لَهُمْ، دُونَ غَيْرِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المكبوت: ٤٩].

«أَي فِي صُدُورِ العُلَمَاءِ بِهِ وَحُقَافِهِ، وَهَمَا مِنْ خِصَائِصِ الْقُرْآنِ، كَوْنِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ الإِعْجَازِ، وَكَوْنِهِ مَحْفُوظًا فِي الصُّدُورِ بِخِلَافِ سَائِرِ الكُتُبِ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَعْجِزَاتٍ وَلَا كَانَتْ تُقْرَأُ إِلَّا مِنَ المَصَاحِفِ»^(٤).

«وَوَصَفَهُم بِالْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُمْ مَيَّزُوا بِأَفْهَامِهِمْ بَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ، وَكَلَامِ البَشَرِ وَالشَّيَاطِينِ»^(٥).

فَهؤلاءِ الحُفَاطُ «سَادَةُ الخَلْقِ، وَعُقْلَاؤُهُمْ، وَأُولُو الأَبَابِ مِنْهُمْ، وَالكُمَّلُ مِنْهُمْ. فَإِذَا كَانِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فِي صُدُورِ أمْثَالِ هؤلاءِ، كَانُوا حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ»^(٦).

فَكَفَى بِحَافِظِ الْقُرْآنِ فِخْرًا وَشَرَفًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمَهُ وَجَعَلَهُ مِنْ أَسْبَابِ

(١) (والجافي عنه): أي غير المتباعد عن القرآن، المُعْرِضُ عَنْ تِلَاوَتِهِ، وَإِحْكَامِ قِرَاءَتِهِ، وَمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ.

وقيل: الجفاء أن يتركه بعد ما عَلِمَهُ، لَا سَبِيحًا إِذَا كَانَ نَبِيًّا؛ فَإِنَّهُ عُدَّ مِنَ الكِبَائِرِ.

انظر: عون المعبود (١٣/١٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٦١) (ح ٤٨٤٣)؛ وَحَسَنُهُ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/٩١٨) (ح ٤٠٥٣).

(٣) انظر: عون المعبود (١٣/١٩٢). (٤) تفسير النسفي (٣/٢٦١).

(٥) تفسير القرطبي (١٣/٣٥٤). (٦) تفسير السعدي (٤/٦٧).

حُفِظَ الْقُرْآنُ؛ ذَلِكَ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مَحْفُوظَةٌ فِي الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ حِفْظِ الدِّينِ، وَوَسَائِلِ حِفْظِ الشَّرِيعَةِ.

فَلَوْ تَطَرَّقَ تَحْرِيفٌ مَّا - جَدَلًا - إِلَى السُّطُورِ فَأَتَى لَهُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصُّدُورِ.

٤ - الْحِفَاطُ لَا تَحْرِقُهُمُ النَّارُ:

إِنَّ أَعْظَمَ مَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ أَنْ يُزَحِّزَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ النَّارِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى حِفَاطَ كِتَابِهِ بِنَجَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ وَعَدِمَ إِحْرَاقَ إِجْسَادِهِمُ الظَّاهِرَةَ فِيهَا؛ لِعِظْمَةِ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَمَنْ عُقِبَ بِنِجَاتِهِ عَلَيْهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَّا أَكَلَتْهُ النَّارُ»^(١).

فَلَوْ صُوِّرَ الْقُرْآنُ وَجُعِلَ فِي إِهَابٍ وَأُلْقِيَ فِي النَّارِ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ، وَلَا أَحْرَقَتْهُ بِيَرَكَتِهِ، فَكَيْفَ بِالْمُؤْمِنِ الْمَوَاطِبَ لِقِرَائَتِهِ وَتِلَاوَتِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ؟

وَقِيلَ: الْمَعْنَى مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ لَمْ تَحْرِقْهُ نَارُ الْآخِرَةِ، فَجَعَلَ جِسْمَ حَافِظِ الْقُرْآنِ كِإِهَابٍ لَهُ^(٢).

وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رَوَاهُ أَبُو الْفَضْلِ الرَّازِي^(٣) بِسَنَدِهِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَأَلْتُ الْأَضْمَعِيَّ عَنْهُ، قَالَ: يَعْنِي فِي إِنْسَانٍ. أَرَادَ مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ مِنْ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١٥٥/٤) (ح١٧٤٥٦)؛ وَالتَّطْبِرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٣٠٨/١٧) (ح٨٥٠)؛ وَابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ» (٣٢/١)؛ وَحُسَيْنُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢/٩٥٣) (ح٥٢٨٢).

(٢) انْظُرْ: فِيضُ الْقَدِيرِ (٥١٠٤/١٠).

(٣) هُوَ أَبُو الْفَضْلِ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ بُنْدَارِ الْعَجَلِيِّ، الرَّازِيَّ، الْمَقْرِيَّ. وُلِدَ بِمَكَّةَ سَنَةَ (٣٧١هـ) وَنَشَأَ بِهَا، وَكَانَ أَبُوهُ عَالِمًا نَفَّذَ شَيْخًا لِلْحَرَمِ. قَالَ السُّمَعَانِيُّ: «كَانَ (أَبُو الْفَضْلِ) مَقْرَنًا فَاضِلًا، كَثِيرَ التَّصَانِيفِ، حَسَنَ السِّيَرَةِ، زَاهِدًا، مُتَعَبِّدًا، خَشِيئَ الْعَيْشِ، قَانِعًا، يُقْرَأُ وَيُسْمَعُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ». وَيَبْدُو أَنَّ تَصَانِيفَهُ الْكَثِيرَةَ فُقِدَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كِتَابُ: «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ». تُؤَقَفُ بِكَرْمَانَ (وَلَايَةِ مَشْهُورَةَ بَيْنَ فَارَسِ وَسَجِسْتَانَ وَخِرَاسَانَ) سَنَةَ (٤٥٤هـ). انْظُرْ: سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٣٥/١٨)؛ مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ (٤/٤٥٤)؛ مَقْدَمَةُ كِتَابِهِ: «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ»، تَحْقِيقٌ وَتَخْرِيجٌ: د. عَامِرُ حَسَنٍ صَبْرِي (ص٩ - ١٦).

المسلمين وحفظه إياه لَمْ تَحْرِقْهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ أَلْقَيْ فِيهَا بِالذُّنُوبِ، كما قال أبو أمامة رضي الله عنه: «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تُفَرِّقُوا هَذِهِ الْمَصَاحِفَ الْمُعَلَّقَةَ»^(١)، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنِ»^(٢).

قال أبو عبيد رضي الله عنه: «وَجْهٌ هَذَا عِنْدَنَا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْإِهَابِ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَجَوْهَهُ الَّذِي قَدْ وَعَى الْقُرْآنِ»^(٣).

وقال الزُّبَيْدِيُّ^(٤) رضي الله عنه في شرحه لأثر أبي أمامة رضي الله عنه: «أَيَّ حَفِظَهُ وَتَدَبَّرَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، فَمَنْ حَفِظَ أَلْفَاظَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ فَهُوَ غَيْرُ وَاِعٍ لَهُ»^(٥).

وقد «ضُرِبَ الْمَثَلُ بِالْإِهَابِ وَهُوَ جِلْدٌ لَمْ يُدْبَغْ؛ لِأَنَّ الْفَسَادَ إِلَيْهِ أَسْرَعَ وَلَقَّحَ النَّارُ فِيهِ أَنْفَذَ؛ لِيُسَبِّهِ وَجَفَاهُ، بِخِلَافِ الْمُدْبُوعِ لِلْيَتِيهِ».

والمعنى: لو قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ فِي إِهَابٍ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ بِبِرْكَةِ مَجَاوِرَتِهِ لِلْقُرْآنِ، فَكَيْفَ بِمُؤْمِنٍ تَوَلَّى حِفْظَهُ وَالْمَوَاطَبَةَ عَلَيْهِ، وَالْمَرَادُ نَارَ اللَّهِ الْمَوْقِدَةَ الْمُمَيَّزَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

قال الطَّبَيْبِيُّ: وَتَحْرِيرُهُ أَنْ التَّمْثِيلَ وَارِدٌ عَلَى الْمَبَالِغَةِ وَالْفَرَضِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدْلًا» [الكهف: ١١٠]، أَي يَنْبَغِي وَيَحْتَقُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَوْ كَانَ

(١) لعل المقصود: الحث على فضيلة حفظ القرآن عن ظهر قلب، والله أعلم.

(٢) رواه الرازي في «فضائل القرآن وتلاوته» (ص ١٥٤) (رقم ١٢٥)؛ والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٨٧/١) (رقم ٢٧٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣٣/٦) (رقم ٣٠٠٧٩)؛ والدارمي في «سننه» (٣٠٦/٢) (رقم ٣٣١٩)؛ وصحح إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (٧٩/٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٥٤).

(٤) هو أبو الفيض، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الزُّبَيْدِيُّ، الملقَّب بمرتضى، لغوي، نحوي، محدث أصولي. أصله من واسط (في العراق)، ولد في الهند سنة (١١٤٥هـ)، ومنشأه في زبيد (بالبمن)، رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتهر فضله، وكان به الملوك، توفي بالقاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ)؛ من تصانيفه الكثيرة: «تاج العروس في شرح القاموس»، و«إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء العلوم للغزالي»، و«بلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب» وغيرها.

انظر: معجم المؤلفين (٦٨١/٣)؛ الأعلام (٧٠/٧).

(٥) إتحاف السادة المتقين (٤٦٥/٤).

في مثل هذا الشيء الحقيير الذي لا يُؤْتَهُ به، ويُلقى في النار ما مسته، فكيف بالمؤمن الذي هو أكرمُ خَلْقِ الله، وقد وهاه في صدره، وتفكَّر في معانيه، وهَمِلَ بما فيه، كيف تمسُّه، فضلاً عن أن تحرقه^(١).

فهنيئاً لمن حَفِظَ كتابَ الله تعالى فجمعه في صدره، وعَمِلَ بما فيه، هنيئاً له بهذه البشارة في النجاة من النار، وهذا من أعظم فضائل حفظ القرآن الكريم. فهل من مُشْمَرٍ؟

المبحث الرابع

حُكْمُ حَفِظِ الْقُرْآنِ وَنَسْيَانِهِ

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم حفظ القرآن.

المطلب الثاني: حكم نسيان القرآن.

المطلب الأول

حكم حفظ القرآن

حِفْظُ الْقُرْآنِ فَرْضٌ كَفَايَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ :

حِفْظُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ كَامِلاً - عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ - فَرْضٌ كَفَايَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ بِالْإِجْمَاعِ^(١)، فَإِنَّ قَامَ بِذَلِكَ قَوْمٌ سَقَطَ الْإِثْمُ عَنِ الْبَاقِينَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ السُّيُوطِيُّ تَلْفِظاً: «اعلم أن حِفْظَ الْقُرْآنِ فَرْضٌ كَفَايَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ؛ صَرَّحَ بِهِ الْجُرْجَانِيُّ فِي الشَّافِيِّ، وَالْعَبَادِيُّ، وَغَيْرَهُمَا.

قَالَ الْجُوَيْنِيُّ: وَالْمَعْنَى فِيهِ أَلَّا يَنْقَطِعَ عَدَدُ التَّوَاتُرِ فِيهِ، فَلَا يَنْتَرِقُ إِلَيْهِ التَّجْدِيدُ وَالتَّحْرِيفُ، فَإِنَّ قَامَ بِذَلِكَ قَوْمٌ يَتَلَفَعُونَ هَذَا الْعَدَدَ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَالْأُيُومُ الْكُلُّ»^(٢). وَيَحْصُلُ فَرْضُ الْكَفَايَةِ بِحِفْظِ جَمِيعِ الْقُرْآنِ مِنْ شَخْصٍ وَاحِدٍ^(٣).

حُكْمُ حِفْظِ الْقُرْآنِ عَلَى أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ :

١ - يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حِفْظُ مَا تَصِيحُّ بِهِ صَلَاتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ بِالْإِجْمَاعِ^(٤). وَهُوَ الْفَاتِحَةُ، وَمَقْدَارُ مَا يَجْزِي بَعْدَهَا - عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِوَجُوبِ الْقِرَاءَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَقْرَّرَةِ فِي الشَّرِيعَةِ: أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ

(١) انظر: الدر المختار، للحصكفي (١/٥٣٨)؛ الإقناع (١/١٤٨)؛ منتهى الإرادات (١/١٠٤)؛ فضائل القرآن، لابن كثير (ص٧١)؛ كشاف القناع (١/٤٢٨)؛ مطالب أولي النهى (١/٦٠٢)؛ الفتاوى الكبرى (١/٢١٢ - ٢١٣)؛ حاشية الروض المربع (٢/٢٠٧)؛ نيل المآرب (١/١٦٨).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (١/٢٤٧). وانظر: البرهان في علوم القرآن (١/٤٥٦)؛ المنشور في القواعد، للزركشي (٣/٣٥).

(٣) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٤٥٢).

(٤) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (ص١٥٦)؛ الفواكه الدواني (٢/١٢٤)؛ شرح الزرقاني على مختصر خليل (٧/١٨)؛ فتح الباري (٨/٧٠٢)؛ آداب المشي إلى الصلاة (ص٣١)؛ حاشية الروض المربع (٢/٢٠٧).

واجب، والصلاة واجبة ولا تتم إلا بالفاتحة، ومقدار ما يجزئ بعدها - عند من يقول بوجوبه^(١).

٢ - أما بقية القرآن فحفظه مستحب بالإجماع^(٢).

جاء في (حاشية الروض المربع): «يستحب حفظ القرآن إجماعاً، وفيه فضل عظيم، وحفظه فرض كفاية إجماعاً... ويجب منه ما يجب في الصلاة اتفاقاً»^(٣).

٣ - وحفظ القرآن الكريم متأكد في حق طلاب العلم الشرعي أكثر من غيرهم، ولذا كان ابن عبد البر تكلفه يقول: «ولا أقول: إن حفظه (القرآن) كله فرض، ولكن أقول: إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالماً»^(٤).

حفظ القرآن الواجب والمستحب مقدم على غيره:

حفظ القرآن الواجب مقدم على غيره من العلوم الواجب تعلمها، فأما ما لم يجب حفظه من القرآن فيقدم عليه ما وجب على المكلف تعلمه عيناً، كتعلم ما أمره الله به وما نهاه عنه، ويبقى الحفظ المستحب للقرآن مقدماً على غيره من العلوم الأخرى غير الواجبة عيناً^(٥).

وينبغي على طالب العلم: أن يصرف عنايته أولاً إلى حفظ كتاب الله تعالى، ثم يترقى إلى بقية العلوم والفنون الأخرى إن أراد التوفيق والنجاح، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن^(٦).

وعن ابن عبد البر تكلفه أنه قال: «طلب العلم درجات ومناقل ورُتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف - رحمهم الله - ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل، ومن تعداه مجتهداً زل، فأول العلم حفظ كتاب الله ﷻ

(١) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص ١١).

(٢) انظر: الإقناع (١/١٤٨)، آداب المشي إلى الصلاة (ص ٣١).

(٣) (٢/٢٠٧).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٦٧).

(٥) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٢).

(٦) انظر: المجموع (١/٦٩).

وتفهّمه، وكلُّ ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه^(١).

حكم تحفيظ القرآن للصبيان:

يُستحبُّ تحفيظُ القرآن للصبيان؛ لأنه منهج السلف الصالح مع أبنائهم، وخير شاهدٍ على ذلك:

١ - ما ورد عن سعيد بن جبيرة رضي الله عنه قال: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ الْمُفْضَلُ هُوَ الْمُحْكَمُ».

قال: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ»^(٢).

قال ابن كثير رضي الله عنه: «فيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُستحباً أو واجباً؛ لأنَّ الصبي إذا تعلّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يُصَلِّي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشدُّ علوقاً بخاطره، وأرسخ وأثبت، كما هو المعمود من حال الناس»^(٣).

٢ - ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: «سَلُونِي عَنِ التَّفْسِيرِ؛ فَإِنِّي حَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا صَغِيرٌ»^(٤).

فالحفظ في الصغر أسهلُّ منه في الكبر، وأشدُّ علوقاً بالذهن، ورسوخاً وثباتاً في القلب، وعقلُ الصغير ما زال بكرةً لم يُثقل بأعباء الحياة ومنغصاتها التي تؤثر على إمكانية الحفظ، فيحفظون من القرآن ما لا يثقل عليهم ويجعلهم يملئون القرآن، وتتاح لهم فرصة ممارسة اللُّعب؛ لتجديد نشاطهم وهمتهم^(٥).

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٦٧/٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: تعليم الصبيان القرآن (١٦٢٢/٣) (رقم ٥٠٣٥).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٢٦).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٤/٩)؛ قال ابن حجر: «أخرجه ابن سعيد وغيره بإسناد صحيح».

(٥) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٣ - ٤٥٤).

المطلب الثاني

حُكْم نسيان القرآن

الإعراض عن تعاهد القرآن، وهدم الاعتناء بذلك، نهاون كبير، وتفريط شديد، بحق كتاب الله تعالى، الذي أنزله الله ﷻ؛ ليقراه الناس، ويتعاهدوه، ويعملوا وفق أحكامه^(١).

وقد حكى الله تعالى شكايَةَ الرُّسُولِ ﷺ لِرَبِّهِ هَجْرَانِ قَوْمِهِ لِلْقُرْآنِ، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَنْزِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقد مضى - في بداية البحث - معنى قوله: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي: أنه متروك بالكلية، فلم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثروا بوعيده^(٢).

وقد قرَّرَ جَمْعُ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ: بأنَّ في الآية تلويحاً إلى أن الواجب على المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن؛ كي لا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم، فإنَّ ظاهره ذمُّ الهجر مطلقاً^(٣).

آثار في التحذير من نسيان القرآن:

* عن أبي العالية رضي الله عنه أنه قال: «كُنَّا نَعُدُّ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، أَنْ يَتَعَلَّمَ الرَّجُلُ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَنَامَ عَنْهُ، حَتَّى يَنْسَاهُ»^(٤).

* وجاء عن ابن سيرين رضي الله عنه - بإسنادٍ صحيح - في الذي ينسى القرآن: «كَانُوا يَكْرَهُونَهُ، وَيَقُولُونَ فِيهِ قَوْلًا شَدِيدًا»^(٥).

(١) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص ٢٢١).

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول (ص ٤٢ - ٤٦).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٤/٢١٥)؛ تفسير أبي السعود (٦/٢١٥)؛ روح المعاني (١٩/١٣ - ١٤)؛ تفسير الثعالبي (٣/١٣٤).

(٤) رواه أحمد في «الزهدة» (١/٣٠٣)؛ وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٣/٢١٢)؛ وابن حجر في «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» (١٤/٤٠٩) (رقم ٣٥٠٢)، وقال في «فتح الباري» (٩/٨٦): «إسناده جيد».

(٥) أورده ابن حجر رضي الله عنه في «فتح الباري» (٩/٨٦) وصححه.

* وعن طلق بن حبيب^(١) تَلَفَّه، أنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ مِنْ غَيْرِ عَدْرِ، حُطَّ عَنْهُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةٌ، وَجَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَخْصُومًا»^(٢).

* وقال ابن المُنادي^(٣) تَلَفَّه: «مَا زَالَ السَّلَفُ يُرْهَبُونَ نَسِيَانَ الْقُرْآنِ بَعْدَ الْحِفْظِ؛ لَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّنْقِصِ»^(٤).

نسيان القرآن نوعان:

النوع الأول: الذي ينشأ لاشتغاله بأمرٍ دنيويٍّ - ولا سيما إن كان محظوراً^(٥) - حتى يؤدي بصاحبه إلى إهمال مراجعة القرآن، وترك تلاوته، وهذا هو المنموم الذي ورد فيه الوعيد.

وليس المقصود (بالأمر الدنيوي): بذل الوقت في كسب قوته، فهذا مأمور به، ولكن المقصود هو الإفراط، واللهاث وراء الدنيا وشهواتها، بحيث يتعلق قلبه بها، مما يؤدي إلى هجر القرآن^(٦).

(١) هو طلق بن حبيب العنزي، بصري ثقة، زاهد كبير من العلماء العاملين، حدث عن ابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وغيرهم. كان طيب الصوت بالقرآن، براً بوالديه، قال طاووس: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، وَكَانَ مَثْنٍ يَخْشَى اللَّهَ». مات طلق قبل المئة.

انظر: سير أعلام النبلاء (٦٠١/٤)؛ معرفة الثقات (٤٨٢/١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٤/٦) (رقم ٢٩٩٩٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/٣٦٠) (رقم ٥٩٧٠).

(٣) هو أبو الحسين، أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن أبي داود ابن المُنادي، البغدادي، ولد سنة (٢٥٦هـ). عالم مشارك في كثير من العلوم، وكان الغالب عليه علوم القرآن. قال أبو عمرو الداني: «مقرئ جليل في غاية الإتقان، فصيح اللسان، عالم بالآثار، نهاية في علم العربية، صاحب سنة، ثقة مأمون». من مصنفاته الكثيرة، «ناسخ القرآن ومنسوخه»، و«اختلاف المدد»، و«دعاء أنواع الاستعاذات من الآفات والعايات». توفي سنة (٣٣٦هـ).

انظر: تاريخ بغداد (٦٩/٤)؛ سير أعلام النبلاء (٨٩/١٠).

(٤) متشابه القرآن العظيم، لابن المُنادي (ص ٥٢).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٥/٩).

(٦) انظر: خصائص القرآن الكريم (ص ١٨٢).

وقد سُئِلَ أبو الحسن القاسبي^(١) تَكَلُّفُهُ عَمَّنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، فَأَجَابَ قَاتِلًا: «وَأَمَّا سَوَالُكَ عَمَّنْ تَعَلَّمَ، ثُمَّ ضَيَّعَهُ حَتَّى نَسِيَهُ، فَإِنَّ كَلَانَ تَضْيِيعِهِ إِيَّاهُ زَاهِدَةٌ فِيهِ - لَيْسَ بِغَالِبٍ عَلَيْهِ عَمَلٌ يَقُومُ لَهُ بِهِ عَذْرٌ - فَهُوَ الَّذِي أَخْشَى عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ قَدْ جَاءَ فَيَمْنُ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، فَهِيَ نِعْمَةٌ كَفَّرَهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فَيَمْنٌ تَعَمَّدُ التَّشَاغُلَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِنْ كَانَ تَشَاغُلُهُ عَنْهُ بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ السُّفَهَاءِ كَانَ أَشَدَّ.

وما يُدْرِيكَ أَنَّ ذَلِكَ النِّسْيَانَ إِنَّمَا أَصَابَهُ عَقُوبَةٌ؛ لِاسْتِغْثَالِهِ عَنْهُ بِسُوءِ الْاِكْتِسَابِ، فَكَانَ اِكْتِسَابُهُ السُّوءَ ذَنْبًا مِنْهُ عُجِّلَتْ لَهُ عَقُوبَتُهُ، بِأَنَّ نَيْبِي الْقُرْآنَ بَعْدَ مَا حَفِظَهُ^(٢).

النُّوعُ الثَّانِي: الَّذِي لَا يَنْشَأُ عَنْ تَقْصِيرٍ وَإِهْمَالٍ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاتِجٌ عَنْ ضَعْفِ الذَّاكِرَةِ، أَوْ تَقَدُّمِ السَّنِّ، أَوْ اِلْتِغَالِ بِأُمُورٍ لَا طَاقَةَ لَهُ فِي دَفْعِهَا، وَلَا سَيِّمًا إِنْ كَانَ نِسْيَانَهُ عَنْ اِشْتِغَالٍ بِأَمْرٍ دِينِيٍّ كَالْجِهَادِ - كَمَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ حَجَرٍ^(٣)، وَكَذَا تَعَلَّمَ الْعِلْمَ الْوَاجِبَ أَوْ الْمُنْدُوبَ، وَيَمْتَلِئُهُ اِلْتِغَالُ بِتَعْلِيمِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَدْخُلُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي هَجْرِ الْحِفْظِ الْمَنْمُومِ.

وقد نقل ابن رشيد المالكي^(٤) تَكَلُّفُهُ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ، بِقَوْلِهِ: «لَا إِثْمَ عَلَى

(١) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن خلف المعافري، الفروي، القاسبي، المالكي، ولد سنة (٣٢٤هـ)، كان حافظاً للحديث والعلل، بصيراً بالرجال، عارفاً بالأصلين، رأساً في الفقه، دينياً نقيماً، وكان ضريراً، مُصَنِّفًا بِقِطْعًا، وَكُتِبَتْ فِي نَهَايَةِ الصُّحَّةِ، وَكَانَ يَضْبِطُهَا لَهُ ثِقَاتٌ أَصْحَابِيَّةٌ، مِنْ تَصَانِيفِهِ: «المهد في الفقه وأحكام الديانة»، و«المنقذ من شبه التأويل»، و«ملخص الموطأ». توفي بالقيروان سنة (٤٠٣هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (٣/٢٦٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٧/١٥٨).

(٢) آداب المعلمين والمتعلمين، لابن سحنون (ص ٢٧٨).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٥).

(٤) هو أبو الوليد، محمد بن أحمد بن أحمد بن رُشد القرطبي، المالكي، قاضي قرطبة، شيخ المالكية، كان فقيهاً، عالماً، حافظاً للفقه، مُقَدِّمًا فِيهِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ عَصْرِهِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، سَهْلُ اللَّقَاءِ، مَعَ الدِّينِ وَالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ (وهو المعروف بابن رُشد الجد)، وحفيده فيلسوف زمانه، ويعرف بابن رشيد الحفيد. عاش الجد سبعين سنة، وتوفي سنة (٥٢٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٠١).

من ترك المعاهدة على درس القرآن غفلةً عن ذلك، واشتغالاً بما سواه من الواجبات والمندوبات، حتى نسي منه سورةً أو آيةً، بإجماع من أهل العلم^(١).

الفرق بين السهو العارض والنسيان الدائم:

هناك فرق بين النسيان الذي ينشأ عن التقصير وإهمال الحفظ، وبين السهو العارض الذي هو أمرٌ جُبِلَ عليه الإنسان، فهذا السهو غير مستبعد ولا مستغرب، ناهيك أن يكون مستنكراً، وقد قيل: الإنسان منحلُّ النسيان، وعليه يُحمل قول القائل:

وما سُمي الإنسانُ إلا لنسيهِ ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ^(٢)

وكيف يُستنكر مثل هذا، وقد قال الله تعالى - لإمام الحفاظ وسيدهم ﷺ: ﴿سَتَقْرَبُكَ فَلَا تَنسَوْا ۙ إِنَّمَا مَا نَسَىٰ أَهْلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [الأعلى: ٦ - ٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إلا ما أراد الله أن ينسيكهُ لِنَسِيِّهِ، وقيل: لما جُبِلَتْ عليه من الطباع البشرية لكن ستذكره بعد»^(٣).

ومعنى الآية: سنحفظ ما أوحيناه إليك من القرآن، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً. وهي بشارَةٌ عظيمة من الله تعالى للنبي ﷺ، أن الله ﷻ سيعلمه علماً لا ينساه.

إلا ما شاء الله مما اقتضت حكمته تعالى أن يُنسيكهُ لمصلحةٍ، وحكمةٍ بالغة^(٤).

وعز عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورةٍ بالليل فقال: «بَرَحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، كُنْتُ أَنْسِيْتُهَا مِنْ سُورَةٍ كَذَا وَكَذَا»^(٥).

(١) فتاوى ابن رشد (٢/٧٧٣).

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١/١٢٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٥).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٥/٤٠٣ - ٤٠٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نسيان القرآن، وهل يقول: نسيْتُ آيةً كذا

وكذا (٣/١٦٢٢) (ح٥٠٣٨).

نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن نوحان:

قال الإسماعيلي^(١) **تَلَاثَةٌ**: «النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين: أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية، وعليه بدلُ قوله ﷺ - في حديث ابن مسعود، في السهو: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنَسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»^(٢). والثاني: أن يرفقه الله عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته، وهو المشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى: «سَتَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى ۗ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» [الأعلى: ٦ - ٧].

قال: فأما القسم الأول: فعارضُ سريعُ الزوال؛ لِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩].

وأما الثاني: فداخِلٌ في قوله تعالى: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا» [البقرة: ١٠٦]^(٣).

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر **تَلَاثَةٌ** - في شرحه للحديث - قوله: «وفي الحديث: حُجَّةٌ لِمَنْ أَجَازَ النِّسْيَانَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فيما ليس طريق البلاغ مطلقاً، وكذا في طريقة البلاغ لكن بشرطين: أحدهما: أنه بعد ما يقع منه تبليغه، والآخر: أنه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكُّره، إمَّا بنفسه وإمَّا بغيره... فلَمَّا قَبِلَ تبليغه: فلا يجوز عليه النسيان أصلاً...

وفي الحديث أيضاً: جواز رفع الصوت بالقراءة في الليل، وفي المسجد،

(١) هو أبو بكر، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي، الجرجاني، كبير الشافعية بناحيته، ولد سنة (٢٧٧هـ)، قال الحاكم: «كان الإسماعيلي واحد عصره، وشيخ المحدثين وأجلهم في الرياسة والمرومة والشجاء، ولا خلاف بين علماء الفريقين وعقلاهم فيه». من تصانيفه: «الصحیح على شرط البخاري»، «الفرائد»، «الموالي» وغيرها. توفي بجرجان سنة (٣٧١هـ).

انظر: طبقات الحفاظ (٣٨٢/١)؛ تذكرة الحفاظ (٩٤٧/٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان (١٤٦/١) (ح ٤٠١)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: السهو في الصلاة والسجود له (١/٤٠٢) (ح ٥٧٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٥/٩ - ٨٦).

والدعاء لَمْ يَحْضَلْ له من جهته خير، وإن لم يقصدِ المحصول منه ذلك^(١).

فالذي حصل للنبي ﷺ هو من السهو العارض بمقتضى بشريته ﷺ، ومن حصل له ذلك في حفظه فلا يُلام، وهو أمرٌ ملازم للبشر، ولذلك قال ابن رشد **تَلَفُّةٌ**: «فلو كان نسيانُ شيءٍ من القرآن ذنباً لما نسيه رسول الله ﷺ، وليس النسيانُ لشيءٍ من القرآن أو غيره بكسبٍ للعبد^(٢)؛ إذ لا يكون بقصده واختياره، فيأثم بفعله، وإنما يَأْتُمُ بأن يفعل ما يُنسيه الله به ذلك على الوجه المنهَى عنه، وذلك بَيِّنٌ من قولِ النبي ﷺ: «بِسْمَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةً كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ يُنْسَى^(٣)»، فنهى ﷺ أن يقول رجل: نَسِيتُ، فيُضِيفُ إلى نفسه ما ليس من كسبه، وأمره أن يقول: أنَسِيتُ^(٤)».

فالحريص على حفظ القرآن، وهو دائمٌ على تلاوته، إلا أن النسيان يغلبه، فنسيانه عارضٌ، وليس بدائم، ولا يدخل في الذم، بدليل: حديث عائشة **رَضِيَ**^(٥). قال سفيان بن عيينة **تَلَفُّةٌ**: «ليس من اشتهر بحفظ شيءٍ من القرآن، وتَفَلَّتْ منه بناسٍ، إذا كان يُحِلُّ حلاله، ويُحَرِّمُ حرامه^(٦)».

والخلاصة: أن النسيان المذموم، هو ما أشار إليه ابن حجر الهيثمي **تَلَفُّةٌ** بقوله: «المراد بالنسيان المحرَّم: أن يكون بحيث لا يُمكنه مُعاودةُ جَفْظِهِ الأوَّلِ إلا بعد مزيد كُفْلَةٍ وَتَعَبٍ؛ لِذَهَابِهِ عن حافظته بالكُلِّيَّةِ، وأما النسيان الذي يُمكنُ معه التذَكُّرُ بمجرد السَّماعِ أو إعمالِ الفِكرِ، فهذا سهوٌ، لا نسيانٌ في الحقيقة، فلا يكون مُحَرِّماً^(٧)».

(١) المصدر نفسه (٨٦/٩).

(٢) أي: بمقدور العبد واختياره.

(٣) رواه البخاري - بالفاظٍ مُقاربة. انظر: كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاونه (١٦٢١/٣).

(٤) فتاوى ابن رشد (٧٧٦/٢).

(٥) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (١٤٩/٣)؛ تفسير الطبري (٣١/١٦)؛ مرقاة المفاتيح (٧٢/٥).

(٦) التذكار في أفضل الأذكار (ص ٢١٤). وانظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٣٢/١٤)؛ الاستذكار (٤٨٩/٢).

(٧) الفتاوى الفقهية الكبرى (٣٦/١).

حُكْم نسيان القرآن:

ذكر جَمَعَ من أهل العلم: أن نسيان القرآن، أو شيء منه - بعد حفظه - ذنبٌ عظيم، بل صرَّح بعضهم: بأنه كبيرة من الكبائر، ومن هؤلاء: الرافعي، والثوري. وتبعهم في ذلك: السيوطي، وابن حجر الهيتمي، والمناوي.

قال ابن حجر تَلَفُّهُ: «واختلف السلف في نسيان القرآن، فمنهم مَنْ جعل ذلك من الكبائر»^(١).

وقال السيوطي تَلَفُّهُ: «نسيانه كبيرة، صرَّح به النووي في الروضة وغيرها»^(٢).

وقال ابن حجر الهيتمي تَلَفُّهُ: «عَدُّ نسيانِ القرآنِ كبيرةً، هو ما جرى عليه الرافعي وغيره»^(٣).

ويُبين المناوي تَلَفُّهُ سَبَبَ كونِ النسيانِ كبيرةً، بقوله: «لأنه (أي: النسيان) إنما نشأ عن تشاغله عنها (أي: الآيات القرآنية) بلهو أو فضول، أو لاستخفافه بها، وتهاونه بشأنها، وعدم اكتراثه بأمرها، فيعظم ذنبه عند الله؛ لاستهانة العبد له، بإعراضه عن كلامه»^(٤).

وقال أيضاً: «نسيانُ القرآنِ كبيرةٌ، ولو بَعْضاً منه، وهذا لا يناقضه خَبَرُ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ)^(٥)؛ لأنَّ المعدود هنا ذنباً، التَّخْرِيطُ في محفوظه،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨٦/٩).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (ص ٢٦٠).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٥٧). وانظر: الفتاوى الفقهية الكبرى (١/٣٦ - ٣٧).

(٤) فيض القدير (٤/٣١٣).

(٥) قال الألباني تَلَفُّهُ في «إرواء الغليل» (١/١٢٣): «المشهور في كتب الفقه والأصول، بلفظ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي...) ولكنه مُنْكَرٌ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ المعروف: ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس مرفوعاً، بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ...». رواه ابن ماجه (١/٦٥٩) (ح ٢٠٤٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/١٧٩) (ح ١٦٧٧)؛ وعند الطبراني في «الأوسط» (٨/١٦١) (ح ٨٢٧٣) عن ابن عباس مرفوعاً، بلفظ: «وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ...» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٦٥٩) (ح ٣٥١٥).

بعدم تعاهده وقرضه^(١).

وذكر الزركشي **تَلَفُّهُ** أَنْ اللهُ **تَلَفُّهُ** تَوَعَّدَ الْمُغْرِضَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ تَعَلَّمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ^(٢).

والمراد بنسيان القرآن - الذي هو كبيرة من الكبائر: هو الناتج عن التشاغل بالدنيا، واللهاث وراء شهواتها، وترك تلاوة القرآن واستذكاره، كما تقرّر سابقاً.

النسيان الذي يُعذر صاحبه:

إذا انشغل العبد بالعلم الواجب أو المندوب، وترتب على ذلك نسيان شيء من القرآن المحفوظ، فلا يُعَدُّ صاحبه أثماً، وقد مضى أن ابن رشد المالكي **تَلَفُّهُ** نقل إجماع أهل العلم على ذلك^(٣)، كَمَنْ يَنْشَغِلُ بِتَعْلِيمِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَسَاجِدِ أَوْ الْمَدَارِسِ أَوْ الْجَامِعَاتِ وَنَحْوِهَا، وَكَذَلِكَ الْمَعْلَمُونَ الْمُنْشَغَلُونَ بِالْعُلُومِ الْوَاجِبَةِ أَوْ الْمُنْدُوبَةِ. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَيْضاً الْمُنْشَغَلُونَ بِفُرُوضِ الْكِفَايَاتِ كَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنَحْوِهَا^(٤).

وقد نقل ابن حجر الهيتمي **تَلَفُّهُ** عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَحَلَّ كَوْنِ نَسْيَانِ الْقُرْآنِ كَبِيرَةً مَشْرُوطٌ بِأَنْ يَكُونَ عَنِ تَكَاسُلٍ وَتَهَاوُنٍ، وَهَذَا احْتِرَازٌ عَمَّا لَوْ اشْتَغَلَ عَنِ الْقُرْآنِ بِمَرَضٍ مَانِعٍ مِنَ الْقِرَاءَةِ، وَعَدَمُ التَّائِيْمِ بِالنَّسْيَانِ حِينَئِذٍ وَاضِحٌ؛ لِأَنَّهُ مَغْلُوبٌ عَلَيْهِ، لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهِ^(٥).

(١) فيض القدير (٣١٣/٤). وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٣٥٨/٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤٥٨/١).

(٣) انظر: فتاوى ابن رشد (٧٧٣/٢)؛ مطالب أولي النهى (٦٠٥/١).

(٤) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٤٥٤).

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص ٢٥٨).

الفصل السابع

هجر تدبُّر القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التدبُّر وأهميته وحُكمه.

المبحث الثاني: أسباب هجر تدبُّر القرآن.

المبحث الثالث: الأمور المعينة على تدبُّر القرآن.

المبحث الرابع: ثمرات تدبُّر القرآن.

المبحث الأول

التدبُّر وأهميَّته وحُكمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف تدبُّر القرآن.

المطلب الثاني: أهميَّة تدبُّر القرآن.

المطلب الثالث: حُكم تدبُّر القرآن.

المطلب الأول تعريف تدبّر القرآن

أولاً: «التدبّر» لغة:

جاء التدبّر في اللّغة مصدرأ مشتقأ من الفعل الماضي (تدبّر)، وقد ذكر جماعة من علماء اللّغة لهذا الفعلٍ ومشتقّاته استعمالات عديدة، وسوف نعرّض للمعاني التي تتعلّق بموضوع البحث، وهي على النحو الآتي:

• التدبّر: مصدرٌ فعله الماضي: تدبّر. وهو فعلٌ مزيدٌ، اشتقّ من الفعل المجرّد الماضي: دبّر. ومضارعه: يدبّر، والمصدر: دبّرأ ودبّورأ^(١).

• ودبّر النهار أو الصيف: انصرم، مضى وانقضى.

• ودبّر الشيء: جاء بعده وخلفه.

• وتدبّر الأمر تدبّراً: نظّر في أدباره، أي: عواقبه، وتفكّر فيه.

• والتدبّر: النظر في أدبار الأمر. وهو يعني: التأمل في عواقبه، أو ما يزول إليه^(٢).

• وتدبّر الأمر: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. أي: ألم يتفهموا ما حُوطبوا به في القرآن العظيم^(٣).

وخلاصة التدبّر - في أصل اللّغة: هو النظر في عاقبة الأمر والتفكّر فيه، بحيث يشمل أواخر دلالات الكلم ومراميهِ البعيدة^(٤).

(١) انظر: معجم مقاييس اللّغة (١/٤٣١)، مادة: (دبّر).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص١٠١)، مادة: (دبّر)؛ لسان العرب (٤/٢٨٠)، مادة: (دبّر).

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص٤٩٩)، مادة: (دبّر).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٥/٢٩٠)؛ تفسير الطبري (١/٨٧)؛ قواعد التدبّر الأمثل

لكتاب الله، د. عبد الرحمن بن حسن حنكة (ص١٠).

ثانياً: «تدبر القرآن» اصطلاحاً:

قال الآلوسي رحمته: «واصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعاقبه»^(١).

وقال السعدي رحمته - في معنى تدبر القرآن: «هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك»^(٢).

والخلاصة في «معنى تدبر القرآن»:

تفهم معاني الفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة أو ضمنياً، وما لا تتم تلك المعاني إلا به من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخشوعه لأوامره ونواهيه، وأخذ العبرة منه^(٣).

المطلب الثاني

أهمية تدبر القرآن

تبرز أهمية تدبر القرآن العظيم في أمور كثيرة، يأتي في مقدمتها أن تدبر القرآن وتفهم علومه من التصحح لكتاب الله تعالى، وقد أشار إلى هذا المعنى أهل العلم، منهم ابن رجب رحمته بقوله: «وأما التصحح لكتاب الله: فيشده حبه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره، والوقوف عند تلاوته؛ لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعد ما يفهمه».

وكذلك الناصح من العباد يتفهم وصية من ينصحه، وإن ورد عليه كتاب منه غني بفهمه؛ ليقوم عليه بما كتبت به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب ربه يعني بفهمه؛ ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثم ينشر ما فهم في العباد، ويؤيد

(٢) تفسير السعدي (١/١٨٩).

(١) روح المعاني (٥/٩٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/٥٠١)؛ التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص ١٤٥)؛ القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي (ص ٣٢)؛ تدبر القرآن، لسليمان بن عمر السنيدي (ص ١١).

دراسته بالمحبة له، والتخلق باخلاقه، والتأدب بأدابه^(١). وهناك أمور أخرى تُبرز لنا أهمية تدبر القرآن الكريم، وهي على النحو التالي:

أولاً: حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

القلب فيه وحشة لا تُزال إلا بالأنس بكتاب الله تعالى، والتأمل في آياته، وفيه قلق وخوف لا يؤمنه إلا السكون إلى ما بشر الله تعالى به عباده، وفيه فاقة لا يغيثها إلا التزود من حكم القرآن ومواعظه وعبره، وفيه حيرة واضطراب لا ينجيها منها إلا الاعتصام بكتاب الله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّرْغُطَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ يُفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

ولقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين من مغبة التماذي في هجر القرآن، فتكون نتيجة فسوة القلوب، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَلَا تَأْتِيهِمُ الْأُمْدُ فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبُرَتْ بَنِيهِمْ فَصَوُّوا﴾ [الحديد: ١٦].

قال محمد بن كعب رضي الله عنه: «كانت الصحابة بمكة مُجذبين فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقسفت قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا^(٢). والعتاب لعامة المؤمنين أخرى وأولى.

والأصل أن قلوب المؤمنين وجلودهم تخشع وتخضع وترق وتسكن وتطمئن عند ذكر الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ لَغْوِيٍّ كِتَابًا مُّقْتَصِبًا مَّتَانِي تَقْشِيرٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فمن أراد أن يخشع قلبه، وينشرح صدره، فلا غنى له عن التذكر والتأمل في الآيات الكريمة، ولا يكن همّه - إذا افتتح السورة - أن يقول في نفسه: متى أختتمها.

قال الأجرى رضي الله عنه: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان

(١) جامع العلوم والحكم (٢٠٩/١).

(٢) تفسير القرطبي (٢٥٠/١٧)؛ تفسير الثعالب (٢٤١/٩).

كالمرأة يرى بها ما حَسُنَ من فعله وما قَبِحَ فيه، فما حَذَرَهُ مولاه حَذَرَهُ، وما خَوْفَهُ به من عقابه خافَهُ، وما رَغِبَ فيه مولاه رَغِبَ فيه ورجاه.

فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وجززاً، ومن كان هذا وَصَفَهُ نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خيرٍ في الدنيا والآخرة^(١).

وكان القرآن له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعزَّ بلا عشيرةٍ، وأنسٍ بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة - إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوهُ؟ ولم يكن مراده: متى أختتم السورة؟

وإنما مراده: متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى اعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة^(٢).

وقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب واستقامته، ولا شيء أنفع للعبد في معاشه وأقرب إلى نجاته في معاده من تدبُّر القرآن العظيم، وفي هذا الشأن يقول ابن القيم **رَكَّبَهُ**: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكير؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوالِ العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبَّة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والثوكل والرِّضا والتَّعويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يَزْجُرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فسادُ القلب وهلاكه.

فلو هَلِمَ النَّاسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها. فإذا قرأه بتفكيرٍ، حتَّى إذا مرَّ بآيةٍ وهو محتاج إليها في شفاءِ قلبه، كرَّرها ولو مائة مرَّة ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكيرٍ وتفهُمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُمٍ، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصولِ الإيمان ودُّوقِ حلاوةِ القرآن... فقراءة القرآن بالتفكير هي أصلُ صلاح القلب^(٣).

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٣٩ - ٤٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٨ - ١٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/١٨٧).

وأكد ذلك في موضع آخر، فقال:

«فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبير القرآن، وإطالة التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلق العبد على معالم الخير والشر... وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه... تعطيه قوة في قلبه، وحياء، وسعة، وانسراحاً، وبهجة وسروراً، فيصير في شأن الناس في شأن آخر... وفي تأمل القرآن وتدبيره أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد»^(١).

ثانياً: الدخول فيمن أثنى الله عليهم بتدبير القرآن:

أثنى الله ﷻ - في مواضع كثيرة من القرآن - على من تدبر كلامه وتأثر به، وبين أن ذلك صفة عباد الله الخاشعين، ومن هذه المواضع:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَرْجِعُوا فِي قُلُوبِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ رَزَقْنَا كَرِيمًا ﴿٣﴾﴾ (الأنفال: ٢ - ٤).

ووجه زيادة إيمانهم - عند سماع القرآن: هو أنهم ألقوا السمع للقرآن، وأحضروا قلوبهم لتدبره، فعند ذلك ازداد إيمانهم ويقينهم.

فالتدبر يحدث رغبة الخير، واشتياقاً إلى كرامة الله تعالى لهم، ووجلاً من عقوباته، وزجراً عن معاصيه، وكل هذا مما يزداد به الإيمان^(٢).

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَتَّبِعُونَ لِي لَآ آتِيَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ أُولَٰئِكَ لَلَّذِينَ لَبِثُوا لَمَّا مَضَىٰ قَبْلَهُمْ مَا يَكُنُ عَلَيْهِمْ يَنْزِيلٌ وَلَٰذَلِكَ سَجُنًا ﴿١٥﴾ وَقَوْلُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَان وَعْدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦﴾ وَيَحْسُرُونَ لِلَّذِينَ لَبِثُوا ﴿١٧﴾ وَيَزِيدُهُمْ خُسْرًا﴾ (الإسراء: ١٥ - ١٧).

تبيّن الآية الكريمة أن الذين أوتوا العلم هم الذين يتأثرون عند سماع مواضع القرآن؛ بسبب تدبيرهم لآياته، وفيه إشارة إلى أن من لم يتأثر بالقرآن فهو جاهل لا يستحق وصف العلم.

(١) مدارج السالكين (١/٤٥١ - ٤٥٣). (٢) انظر: تفسير السعدي (٢/١٨٨).

وَكَرَّرَ ذِكْرَ الْخُرُودِ لِلذَّقَانِ؛ لِاخْتِلَافِ السَّبَبِ: فَالْأَوَّلُ: لِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ. وَالثَّانِي: لِلبَّكَاءِ بِتَأْثِيرِ مَوَاقِعِ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَزِيَادَةِ خُشُوعِهِمْ^(١).

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُنزِّلُ الْكِتَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال القرطبي رحمه الله: «فكانت حالهم (أي: رسول الله ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم) عند المواضع: الفهم من الله، والبكاء خوفاً من الله؛ ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِنَّا سَوِّمُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا لِنُنزِلَهُمْ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، ومن لم يكن كذلك، فليس على هديهم ولا على طريقتهن، فمن كان مستتاً فليستن^(٢)».

ثالثاً: عدم التمرُّض إلى الذمِّ لترك التدبُّر:

فقد ذمَّ الله تعالى حال مَنْ هجر تدبُّر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدبِّر القول في صيغ مختلفة، وأحوال متنوعة، ومنها:

١ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَآءٍ مِّن قَبْلِهِمْ فَمَسَوْنَ فِي الْآيَاتِ الْكِبْرَىٰ﴾ [النساء: ٨٢]، [محمد: ٢٤].

قال القرطبي رحمه الله: «عاب المنافقين بالإعراض عن التدبُّر في القرآن، والتفكُّر فيه، وفي معانيه^(٣)».

وزاد الشنقيطي رحمه الله الأمر بيانياً، بقوله: «ما تضمنته الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على مَنْ أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة... ومعلوم أن كُلَّ مَنْ لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم - أي تصفُّحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها - فإنه مُعرض عنها، غير متدبِّر لها، فيستحقُّ الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات - إن كان الله أعطاه فهماً يقدرُ به على التدبُّر...»

وهذه الآيات المذكورة تدلُّ على أن تدبُّر القرآن وتفهمه، وتعلُّمه، والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين...

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤/١٨٤).

(٢) تفسير القرطبي (٧/٣٦٦).

(٣) المصدر نفسه (٥/٢٩٠).

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه، والعمل به، وبالسنّة الثابتة المبيّنة له، من أعظم المنايير وأشنعها^(١).

٢ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

أنكر الله تعالى على الكفار عدم تفكيرهم في القرآن، وتأملهم في مواضعه وعبره، وتدبرهم لآياته. فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكنّ المصيبة التي أصابتهم هو إعراضهم عن تدبر القرآن.

وهذا يدلُّ على أنّ تدبر القرآن يدعو إلى كلِّ خير، ويحصم من كلِّ شر^(٢).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

[الفرقان: ٣٠].

قال ابن كثير **تَفَهُتَ**: «وترك تدبره وتفهمه من هجرانه»^(٣).

وقال ابن القيم **تَفَهُتَ**: «هجر القرآن أنواع... ثم ذكر منها - هجر تدبره

وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به»^(٤).

٤ - مثل الله تعالى اليهود مع التوراة أقيح تمثيل، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ

حُمِلُوا التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَآفَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال أبو بكر الطرطوشي **تَفَهُتَ**: «فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من

أهل ملتنا، ثم لا يفهمه، ولا يعمل به»^(٥).

٥ - جاء في وصف الخوارج، قوله **تَفَهُتَ**: «يَفْرُقُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ

حُلُوفَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرُهُمْ»^(٦).

قال النووي **تَفَهُتَ** - في المراد بذلك: «ليس حظهم من القرآن إلا مروره

(١) أضواء البيان (٧/٢٥٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧١/١٨)؛ تفسير السعدي (٥/٣٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/١٢٠).

(٤) الفوائد (ص١٢٣).

(٥) الحوادث والبدع (ص١٠١).

(٦) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحد بعد إقامة

الحجة عليهم (٤/٢١٦٤) (ح٦٩٣١).

على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب^(١). والتعقل والتدبر يقود إلى العمل. وقال الزركشي **تَلَفُّةٌ**: «ذمهم بإحكام الفاظه، وترك التثمهم لمعانيه»^(٢).

٦ - عن ابن مسعود **رضي الله عنه** قال: «لا تهذؤوه (القرآن) هذؤ الشجر، ولا تنثروه نثر الدقل؛ ففوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»^(٣).

٧ - عن أبي جَمْرَةَ **رضي الله عنه**، قال: «قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرثلتها؛ أحب إلي من أن أقرأ كما تقول»^(٤).

المطلب الثالث

حكم تدبر القرآن

أوجب الله تعالى التدبر والتفكير وإمعان النظر؛ لفهم معاني آيات الكتاب العزيز، وعاب على المنافقين إعراضهم عن تدبر القرآن والتفكير فيه وفي معانيه في عدة مواضع من القرآن، ومنها:

١ - قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢].

٢ - قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالهَا» [محمد: ٢٤].

٣ - قوله تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا فِيهِ وَتَلَكُمُ الْآيَاتِ» [ص: ٢٩].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٠٥). (٢) البرهان في علوم القرآن (١/٤٥٥).

(٣) رواه البغوي في «تفسيره» (٤/٤٠٧)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ١٩) (رقم ١)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/٢٥٦) (رقم ٨٧٣٣)؛ وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٣٥)؛ والسيوطي في «الإتقان» (١/٢٨٢).

(٤) رواه ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٣٦)، وقال محققه (أبو إسحاق الحويني): «إسناده صحيح». ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٧٤)؛ والأجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٨٩).

إطباق المفسرين على وجوب تدبر القرآن :

دلّت هذه الآيات - وما في معناها - على وجوب تدبر القرآن العظيم، وقد أطبق على ذلك جمهور المفسرين، وهذه بعض النقول الواردة عنهم في هذا الشأن:

* قال الطبري رحمته: «في حثّ الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في أي القرآن من المواعظ والبيّنات... ما يدلُّ على أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجّب عنهم تأويله من آية؛ لأنه محالٌّ أن يُقال لمن لا يفهم ما يقال، ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به... إلّا على معنى الأمر، بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به»^(١).

* واستنبط القرطبي رحمته - من قوله تعالى: ﴿يَتَذَبَّرُونَ﴾ وجوب معرفة معاني القرآن^(٢). وقال رحمته: «ودلّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ على وجوب التدبر في القرآن؛ ليُعرف معناه»^(٣).

وقال ابن عطية الأندلسي رحمته - في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وهذا أمرٌ بالنظر والاستدلال^(٤).

* وقال أبو السعود رحمته: «إنكارٌ واستقباح؛ لعدم تدبرهم القرآن، وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان»^(٥).

* وقال الشوكاني رحمته: «ودلّت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أنّ قلوبهم أقفالها على وجوب التدبر للقرآن؛ ليُعرف معناه، والمعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني، قويّ المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها»^(٦).

(١) تفسير الطبري (٤٥/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٩٢/١٥)؛ أضواء البيان (٤٤٨/٧).

(٣) تفسير القرطبي (٢٩٠/٥). وانظر: تفسير ابن كثير (٥٠٣/١) (١٨٠/٤)؛ تفسير السعدي (١٨٩/١).

(٤) تفسير ابن عطية (٨٣/٢). وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١٤٩/١).

(٥) تفسير أبي السعود (٢٠٧/٢). وانظر: فتح القدير (٣٨/٥).

(٦) فتح القدير (٤٩١/١).

• وقال السيوطي **تَلَقُّهُ**: «وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً: فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم؛ كالطبِّ والحساب، ولا يستشرونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم»^(١).

• وقال الزركشي **تَلَقُّهُ**: «وبالجملة؛ فالقرآن كله لم يُنزله تعالى إلا ليُفهمه، ويُعلِّم ويُفهم، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون»^(٢).

ومع هذه الكثرة الكاثرة من النصوص الأمرة بتدبر القرآن العظيم، والتفكير في معانيه، وإمعان النظر فيه، والتأمل عن الإعراض عنه، وكذلك الأقول الواردة عن علماء التفسير في وجوب تدبر القرآن، نجد أن غالب المسلمين اليوم قد اكتفوا: بالفاظ يردونها، وأنغام يلحنونها في المآتم والمقابر والدور، وبمصاحف يحملونها أو يودعونها تركة في البيوت، ونسوا أو تناسوا: أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبر آياته وتفهمها، والتأدب بها، والوقوف عند أوامرها، والبعد عن نواهيها ومساخطها^(٣).

(١) الإتيان في علوم القرآن (٢/٤٦٩). (٢) البرهان في علوم القرآن (٢/١٤٥).

(٣) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٨).

المبحث الثاني

أسباب هجر تدبُّر القرآن

أسباب هجر تدبُّر القرآن

تمهيد:

إذا كان كثير من المسلمين قد هجروا تلاوة القرآن أو سماعه أو حفظه، فإن الأكثر منهم قد هجروا تدبُّره هَجْرًا لم تعرفه الأئمة من قبل، وحتى الذين يواظبون على تلاوة القرآن أو حفظه؛ ما هو نصيبهم من تدبُّر المتلو والمحفوظ، وما أثر القرآن في قلوبهم؟

ولا ريب أن هجر التدبُّر له أسباب كثيرة ومتنوعة، تختلف من هاجرٍ لآخر، ولربما اجتمع أكثر من سبب في شخصٍ واحد، وسيكون الحديث عن أهم هذه الأسباب كما يلي:

أولاً: الإصرار على الذنوب:

إصرار العبد على الذنب، وارتكابه إياه من أعظم الأسباب التي تحول دون تدبُّر القرآن، وفهم معانيه، فينبغي لمن أراد تدبُّر القرآن أن يبتعد عن الذنوب والمعاصي، ولا سيَّما التي لها اتصال مباشر بأدوات ووسائل التدبُّر وهي: القلب والسمع واللسان والبصر، فانهماك هذه الجوارح في الحرام يُعطلها عن تدبُّر القرآن، والانتفاع به، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ آمَنَّا وَقَدْ فَرَّمْنَا وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فالأكنة: غطاء للقلب، تمنعه من فهم القرآن، والوقر: غطاء للأذن، يمنع من سماع القرآن، والحجاب: غطاء للعين، يمنع من رؤية الحق^(١).

وتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، والقلب المريض لا يتنفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم (ص ٩٣).

يَكْسِبُونَ ﴿ [المطففين: ١٤] ^(١) .

فالإصرار على الذنوب من أعظم ما يصدُّ عن أتعاط القلب، وانشراح الصدر لمواظب القرآن، وحكمه وأحكامه، والله تعالى يقول: ﴿سَأْمُرِفَ عَنَّا ابْنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الاعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة رحمته الله: «أنزغ عنهم فهم القرآن» ^(٢)، «فلا يفهمونه، ولا يجدون له حلاوة ولا لذة؛ وذلك أن الفهم نور، إذا ورد على القلب دنس المعاصي ارتحل النور، فتجبر عن فهمه» ^(٣).

وزاد ابن قدامة رحمته الله الأمر وضوحاً، فقال: «وليتخلَّ التالي عن موانع الفهم، ومن ذلك: أن يكون مُصِراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدته، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراعى في المرأة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرأة» ^(٤).

ومن أعظم ما يصدُّ القلب عن تدبر القرآن العظيم: تعلقه بشهوات الدنيا، وتمكُّن البدع منه، وفي ذلك يقول الزركشي رحمته الله: «اعلم أنه لا يحصل للتأخر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو هو مُصِراً على ذنب، أو غير متحقِّق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على مُفسِّر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجُبٌ وموانعٌ، بعضها أكد من بعض» ^(٥).

ثانياً: انشغال القلب:

القلب المشغول عن القرآن بغيره لا يتأثر به؛ لتشغبه في أودية الدنيا، وغفلته عن تدبر كتاب الله، وكيف يحصل له ذلك، وهو قلب غائب ليس

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ١٥٥).

(٢) رواه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٦٢)؛ والطبري في «تفسيره» (٩/٦٠).

(٣) نواذر الأصول في أحاديث الرسول (١/١٨٢).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (ص ٥٦ - ٥٧). وانظر: إحياء علوم الدين (١/٢٨٤).

(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/١٨٠ - ١٨١).

بحاضر، وقد تحدّث ابن القيم **تَثَلُّةً** عن أنواع القلوب حال سماع القرآن، فقال: «الناس ثلاثة: رجل قلبه مَيّت... الثاني: رجل له قلب حيّ... لكنّه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضاً لا تحصل له الذّكرى. والثالث: رجل حيّ القلب مستعد، تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السّمع، وأحضر القلب، ولم يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمٍ ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القِسم هو الذي ينتفع بالآيات»^(١).

فحضور القلب وعدم انشغاله شرط في الانتفاع والتّدكّر بالقرآن الكريم، وفي ذلك قال ابن القيم **تَثَلُّةً** - أيضاً: «فلذا حصل المؤثّر: وهو القرآن. والمحلّ القابل: وهو القلب الحيّ. وَوَجِدَ الشَّرْطَ: وهو الإصغاء. وانتفى المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حَصَلَ الأثر: وهو الانتفاع والتّدكّر»^(٢).

ثالثاً: الجهل باللّغة العربيّة:

أنزل الله ﷻ القرآن العظيم بلسان عربيّ مبين، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا رَبِّيَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ نَزْلًا فِي رُوحِ الْأَمِينِ ﴿١٥٦﴾ عَلَن قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٥٧﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وسبب تنزله باللّغة العربيّة: هو أنّها «أفصح اللّغات، وأبينها، وأوسعها، وأكثرها تادية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللّغات»^(٣).

وإذا كان القارئ لا يعرف شيئاً عن لغة العرب، ولا يدرك أساليب كلامهم فأنى له أن يتدبّر القرآن، ويعقل عن الله تعالى الخطاب، وهو سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]. ويقول تعالى: ﴿كِتَابٌ قُرْآنٌ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: ٣].

(١) مدارج السالكين (١/٤٤٢).

(٢) الفوائد (ص ٦). وانظر: تدبر القرآن (ص ٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٤٦٧).

أهمية معرفة العربية لتدبر القرآن:

إن جزءاً كبيراً من معاني ألفاظ القرآن وتراكيبه لا يؤدي إلا باللسان العربي ولا يفهم إلا به، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «التفسير على أربعة أوجه: وَجْهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسيرٌ لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»^(١).

وهذا الذي جعل ابن تيمية رحمته الله يقول: «ومعلوم أن تعلم العربية؛ وتعليم العربية فرضٌ على الكفاية، وكان السلف يؤدّبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونضليح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة»^(٢).

وقد جعل أهل العلم معرفة العربية شرطاً لمن أراد تفسير القرآن، قال الإمام مالك رحمته الله: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»^(٣).

وقال ابن عطية رحمته الله: «إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع»^(٤).

وعن الغاية من تعلم اللغة العربية يقول ابن تيمية رحمته الله: «والعربية إنما احتاج المسلمون إليها؛ لأجل خطاب الرسول بها، فإذا أُعْرِضَ عن هذا الأصل، كان أهل العربية بمنزلة أصحاب المعلقات السبع، ونحوهم من حطب جهنم»^(٥).

فالمقصود الأعظم من تعلم اللغة العربية: هو معرفة كلام الله تعالى، وكلام

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٢/١) (رقم ٧١)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥١/٢). وانظر: تفسير ابن كثير (٧/١)؛ مجموع الفتاوى (٣٨٤/١٣)؛ البرهان في علوم القرآن (٧٤/٢) (١٦٤/٢)؛ الإتيان في علوم القرآن (٤٨٠/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٢/٣٢).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٥/٢) (رقم ٢٢٨٧). وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢٧٤/٢)؛ الإتيان في علوم القرآن (١٦٠/٢)؛ الإتيان في علوم القرآن (٢٧٤/٢).

(٤) تفسير ابن عطية (٤٠/١)؛ تفسير القرطبي (٢٤/١).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠٧/١٣).

رسوله ﷺ، وَمَنْ فاته تحقيق هذا المقصد، فقد أمضى عمره في غير ما طائل، بل ربّما كان تعلمه حجّة عليه، كحال الذين يتعلّمون العربيّة للظعن في القرآن وعلوم الشريعة من المستشرقين وأذئابهم^(١).

المفاسد المترتبة على الجهل باللّغة:

من المفاسد المترتبة على جهل القارئ - أحياناً - بقواعد اللّغة العربيّة: ما ورد عن ابن أبي مليكة^(٢) رضي الله عنه، أنّه قال: «قَدِمَ أعرابيٌّ في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مَنْ يُقرئني ممّا أنزل على محمدٍ رضي الله عنه؟ قال: فأقرأه رجل «براءة»؛ فقال: (أَنْ الله بريء من المشركين ورسوله). بالجِرِّ، فقال الأعرابيُّ: أَوْقَدْ برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمرَ مقالة الأعرابيِّ فدعاه فقال: يا أعرابيُّ أتبرأ من رسول الله رضي الله عنه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسألت مَنْ يقرئني، فأقراني هذا سورة «براءة»، فقال: (أَنْ الله بريء من المشركين ورسوله)؛ فقلتُ: أَوْقَدْ برئ الله من رسوله، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ؛ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: «أَنْ الله برئ من المشركين وَرَسُولُهُ» [التوبة: ٣]. فقال الأعرابيُّ: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه؛ فأمر عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ألا يُقرئ النَّاسَ إلا عالِمٌ باللّغة، وأمر أبا الأسود^(٣)

(١) انظر: تدبر القرآن (ص ٩١ - ٩٢).

(٢) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة - بالتصغير - الإمام الحجّة، مدني، أدرك ثلاثين من أصحاب النبي رضي الله عنه، ثقة، فقيه، من الثالثة. وكان عالماً مفتياً، صاحب حديث وإتقان، توفي سنة (١١٧هـ)، وعمره (٨٠ سنة).

انظر: تقريب التهذيب (٤٣١/١)؛ سير أعلام النبلاء (٨٨/٥).

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلي، من كبار التابعين، مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، معدود من الفقهاء والشعراء والفرسان والأمراء والأشراف والنحويين، من أصحاب علي رضي الله عنه، وهو أوّل مَنْ وَضَعَ النَحْوَ، ونَقَطَ المصحف، سكن البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، وولي إمارتها في أيام علي رضي الله عنه، وشهد مع صفين، له شعر جيد مطبوع، توفي سنة (٦٧هـ) على الأصح. انظر: معرفة النقات (٤٨٤/١)؛ الإصابة في تمييز الصحابة (٥٦١/٣)؛ معجم الأدباء (٤٣٦/٣).

فَمَنْ جهل أصول اللُّغة العربية وقواعدها، ولم يميِّز الفاعل من المفعول مثلاً، ونحو ذلك ممَّا يتوقَّف عليه فهم سياق الآيات - من جهل ذلك كله - كيف يفهم قوله تعالى: ﴿وَلَاذِ ابْتِئَازِ إِزْمِعِرَ رَوْهُ يَكْلَبُنَّو فَاَنْتَهَنُّ قَالَ إِي جَاوَلِكَ لِلنَّاسِ إِيَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]^(٣).

رابعاً: ترك التدبُّر تورُّعاً:

من النَّاس مَنْ يترك تدبُّر القرآن خوفاً من القول على الله تعالى بغير علم، ويعتقد أن تدبُّر القرآن مهمة المفسرين والعلماء، فيكتفي بالقراءة هاجراً تدبُّر القرآن، ظاناً أن هذا هو الورع مع كتاب الله تعالى، ولا ريب أن هذه مكيدة من مكاييد الشيطان حتى يصرِّف النَّاس عن الانتفاع بتدبُّر آيات القرآن، وفي ذلك يقول ابن هبيرة^(٤) **تخلُّف**: «ومن مكاييد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبُّر القرآن؛ لعلَّه أن الهدى واقع عند التدبُّر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلَّم في القرآن تورُّعاً»^(٥).

وأنكر ابن القيم **تخلُّف** على مَنْ هذا حاله بقوله: «ومن قال: إن له تأولاً لا

- (١) المشهور: أن الذي أمر أبا الأسود بوضع النحو هو عنِّي **رضي**، ولعلَّه: أير قبل ذلك من عمر **رضي**. انظر: سبب وضع علم العربية، للسيوطي (ص ٣٠).
- (٢) رواه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٢٩)؛ وأورده القرطبي في «تفسيره» (١/٢٤)؛ وعلاء الدين المتقي في «كتر العمال» (٢/١٤٣).
- (٣) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص ١٥٨).
- (٤) هو أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، الدُّوري، البغدادي، الحنبلي، المشهور بـ (الوزير ابن هبيرة) أديب، نحوي، لغوي، مؤرِّخ، فقيه، مقرئ، ولد سنة (٤٩٩هـ). قال ابن كثير: «صنَّف كتباً مفيدة... وكان على مذهب السلف في الاعتقاد... وكان من خيار الوزراء، وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم». من مصنفاته: «الإفصاح عن معاني الضحاح»، و«العبادات على مذهب أحمد بن حنبل»، و«تلخيص إصلاح المنطق لابن السكيت». توفي مسموماً ببغداد سنة (٥٦٠هـ)، وعمره (٦١) سنة، وغسَّله ابن الجوزي. انظر: البداية والنهاية (١٢/٢٥٠)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/٢٤٥).
- (٥) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٢٧٣).

فهمه، ولا نعلمه، وإنما تتلوه متعبدين بالفاظه؛ ففي قلبه منه حَرَجٌ^(١).

ويزيد الشاطبي^(٢) تَلَفُّةَ الأمرِ جلاءً - بما لا يوجد في مكانٍ غيره - قائلاً: «فمن حيث كان القرآنُ مُعْجِزاً أفحم الفصحاءُ، وأعجز البلغاءُ أن يأتوا بمثله؛ فذلك لا يُخرجه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، مُبَسِّراً للفهم فيه عن الله ما أَمَرَ بِهِ ونهى، لكن بشرط الدُّرْبَةِ في اللسان العربي... إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يُطاق، وذلك مرفوع عن الأمة.

وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه؛ إذ من العَجَبِ إيرادُ كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب، مفهوم معقول، ثم لا يقدر البشرُ على الإتيان بسورةٍ مثله... وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القر: ١٧]...

وعلى أيِّ وجهٍ فُرضَ إعجازه؛ فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ لِأَنَّكَ مُبْرَكٌ يُذَكِّرُ الْبَاطِلِينَ وَلِيذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبُّر والتفهُّم^(٣).

وفند الشنقيطي تَلَفُّةَ قولٍ متأخري الأصوليين، الذين قَصَرُوا مهمةَ تدبُّر القرآن على العلماء المجتهدين دون غيرهم، فقال: «قول متأخري الأصوليين: إن تدبُّر القرآن العظيم وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا لمجتهد خاصة... قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحقُّ الذي لا شك فيه: أن كلَّ مَنْ له قُدْرَةٌ من المسلمين على التعلُّم والتفهُّم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلُّمهما، والعمل بما عَلِمَ منهما...»

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ١٤٤).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، الأصولي، الحافظ، المالكي، المحقق، المجتهد، المشهور بالشاطبي، له استنباطات جليلة، وفوائد لطيفة، مع الحرص على أتباع السنة، واجتناب البدعة، وله مصنفات نفيسة، منها: «الموافقات في أصول الفقه»، و«الاعتصام»، و«المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية». توفي سنة (٥٧٩٠هـ).

انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكي (ص ٤٦ - ٥٠).

(٣) الموافقات (٣/٣٤٦ - ٣٤٧).

ومما يوضح ذلك: أن المخاطبين الأولين به، الذين نزل فيهم، هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مُستكبراً لشروط الاجتهاد المقررة... فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاضطلاح الأصولي، لَمَا وَثِقَ اللهُ الكفارَ، وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولَمَا أقام عليهم الحجة به...

فالقول: بمنع العمل بما عَلِمَ من الكتاب والسنة حتى يُحصَلَ رتبة الاجتهاد المطلق؛ هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن... ولتَعَلَّمْ: أن كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك... فكلُّ آية من كتاب الله قد عَلِمَ ما جاء فيها من النبي ﷺ، ثم من الصحابة، والتابعين، وكبار المفسرين^(١).

وهناك فرق بين التدبُّر، وبين تفسير مراد الله واستنباط الأحكام الشرعية - والتي هي مهمة العلماء الراسخين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتدكُّر، والادِّكار، والاتِّعاظ، ومحاسبة النفس، لا يعذر أحدٌ في تركها^(٢).

خامساً: هجر كتب التفسير:

مَنْ هَجَرَ كتب التفسير ولم يطالعها، ولم يعرف أسباب النزول أو الناسخ من المنسوخ، ونحو ذلك من علوم القرآن، كيف يحصل له تدبُّر القرآن؟ ومتى يوفق إلى المعنى المراد؟

ولا غَرُّوْا أَنْ تَعْجَبَ الطَّبْرِيُّ تَعَجُّباً مِمَّنْ أَرَادَ التَّلَذُّذَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ تَفْسِيرَ آيَاتِ الْمَتَلَوَّةِ، فَقَالَ: «إِنِّي أَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ، كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ»^(٣).

وصاحب هذا المنهج لا يسلم - غالباً - من الخطأ في فهم الآيات، والاستدلال بها، أو الخطأ في تطبيق بعض الآيات والعمل بها.

ومما يدلُّ على ذلك: ما ورد عن أسلمَ أبي عمرانَ الشَّجِيبيِّ، قَالَ: كُنَّا

(٢) انظر: تدبر القرآن (ص ٥٦).

(١) أضواء البيان (٧/٢٥٨ - ٢٦٤).

(٣) معجم الأدباء (٥/٢٥٦).

بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَهُمْ أَوْ أَكْثَرَ؛ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أَنْزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِينَا - مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ؛ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقْمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا! فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ - يَزِدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَإِضْلَاجَهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَةَ.

فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ^(١).
والشاهد من هذا الإيراد: أن بعض التابعين تأول الآية على غير مراد الله تعالى - وهم من أفضل القرون، وأقرب إلى عصر التنزيل - فكيف بزماننا حيث صارت الألسن أقرب إلى الأعجمية منها إلى العربية؛ فما أحوجنا إلى الرجوع إلى كتب التفسير بالمأثور؛ ليحصل لنا فهم كلام الله ﷻ^(٢).

سادسا: للتشاغل بكثرة لتلاوة:

لا ريب أن الآيات والأحاديث والآثار الواردة في فضائل التلاوة تُشجع

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٩/١١) (ح ٤٧١١)؛ والحاكم في «المستدرک» (٣٠٢/٢) (ح ٣٠٨٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» وواقفه الذهبي. والترمذي - واللفظ له (٢١٢/٥) (ح ٢٩٧٢) وقال: «حسن صحيح غريب». وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٢/٣) (ح ٢٩٧٢)؛ وفي «السلسلة الصحيحة» (١٨/١) (ح ١٣).

(٢) للاستزادة في معرفة بعض الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض. انظر: تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء، لابن تيمية؛ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنيطي.

على الإكثار منها، ويعضد ذلك اقتصار كثير من المذكرين والوعاظ على الروايات المنقولة عن السلف في كثرة القراءة، وعدد الختمات في وقت وجيز، مع إعراضهم عن نقل نهى السلف عن سرعة القراءة، وإعراضهم كذلك عما ورد عن السلف في تعظيم شأن التدبر والحض عليه، وما أثير عنهم من تفاعلهم ووقوفهم عند معاني الآيات.

ففي الحث على التدبر آيات، وأحاديث، وأحوال للسلف، أكثر عدداً من مثيلاتها الدالة على فضل القراءة، بل أقوى حججاً وأهمق أثراً، لو تأملها الناس لما اقتصروا على التلاوة، ولما هجروا تدبر القرآن، قال النووي **كثافة**: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تُحصَر، وأشهر من أن تُذكر»^(١). فاستحباب كثرة التلاوة لا ينبغي أن يؤدي إلى ترك التدبر، ولذا جاء النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث؛ من أجل التدبر والتأثر والانتفاع بالآيات.

فكثرة التلاوة المؤدية إلى هجر التدبر حالة ليست بمحمودة بل هي من تلبس إبليس على القراء، وفي ذلك يقول ابن الجوزي **كثافة**: «وقد لبس على قوم بكثرة التلاوة، فهم يهئون هذا، من غير ترتيب ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة»^(٢).

وقال أيضاً: «وقد رأيت من يجمع الناس ويقبض شخصاً ويقراً في النهار الطويل ثلاث ختمات؛ فإن قصر عيب، وإن أتم مدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه، ويربهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثواباً، وهذا من تلبسه؛ لأن القراءة ينبغي أن تكون لله تعالى لا للتحسين بها، وينبغي أن تكون على تمهل، وقال **عقيل**: «لِقَرَأَةٍ عَلَى الْكَاثِرِ عَلَى مَكْحُونٍ» [الإسراء: ١٠٦]، وقال: «وَرَبِّيَ الْقَرْمَانَ رَتِيلًا» [المزمل: ٤]»^(٣).

(١) الأذكار (٨٧/١). وانظر: البيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٢)؛ المجموع (١٨٧/٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٣٨).

(٣) تلبس إبليس (ص ١٧٥).

المبحث الثالث

الأُمور المعينة على التدبُّر

الأمور المعينة على التدبّر

تمهيد:

مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَاسْتَشْعَرَ أَنَّهُ خَطَابٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مُوجَّهٌ إِلَيْهِ، يَحْمَلُ فِي طَيَّاتِهِ مَفَاتِيحَ سَعَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ إِنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَهُ سَيَتَغَيَّرُ حَالُهُ إِلَى أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ لَا مُحَالَةَ، فَمَثَلُ هَذَا الشَّخْصِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى وَسَائِلِ تَعِينِهِ عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ مَهَيِّئاً لِلْمَضِيِّ نَحْوِ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الصُّعْبِ عَلَيْنَا - فِي الْبَدَايَةِ - أَنْ نَكُونَ كَذَلِكَ؛ بِسَبَبِ مَا وَرَثْنَا مِنْ أَنْمَاطِ التَّعَامُلِ الْخَاطِئِ مَعَ الْقُرْآنِ، مِمَّا جَعَلَ بَرِزْخاً بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ.

وَهُنَاكَ سَبِيلٌ لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ يُحَصِّلُ بِهَا مَنْ أَرَادَ التَّدَبُّرَ مُبْتِغَاهُ، وَيَجْنِي بِهَا قَلْبُهُ لَطَائِفَ وَمَعَارِفَ وَأَحْوَالاً مَا كَانَ لِيَحْصَلَ عَلَيْهَا، بَلْ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ عَلَى بَالٍ؛ وَيَدُونَ هَذِهِ السُّبُلَ - الْمُسَاعَدَةَ عَلَى التَّدَبُّرِ - سَيَتَعَثَّرُ دُونَ غَايَتِهِ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مُبْتِغَاهُ، وَإِنْ أَدْرَكَ شَيْئاً فَإِنَّمَا هُوَ قَلِيلٌ، لَا يَشْفِي عِلِيلاً وَلَا يَرْوِي غَلِيلاً، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الزَّرْكَشِيُّ **كَلْفَةً**: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ، وَفَهْمٌ، وَتَقْوَى، وَتَدَبُّرٌ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ لَذَّةِ الْقُرْآنِ شَيْئاً»^(١).

أَمَّا وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ: فَإِنَّا - لِكَيْ نَصِلَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ لَذَّةِ الْقُرْآنِ - نَحْتَاجُ مَعْرِفَةَ السُّبُلِ الْمُعِينَةِ عَلَى التَّدَبُّرِ، وَهِيَ تَنْطَلِقُ مِنْ قَاعِدَةٍ: «تَسْيِيرُ الْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ»، فَمَا دَامَ الْقُرْآنُ مُبَسَّرًا لِلذِّكْرِ فَلَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ وَسَائِلُ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ مُبَسَّرَةً، وَلَكِنْ نَحْتَاجُ مَتْنًا إِلَى جِدِّ وَاجْتِهَادٍ، وَبِذَلِّ وَعِزِّمْ وَصَبْرٍ، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/١٧١).

عوام الناس الذين حفظهم من القرآن تلاوته، ولا علم لهم بتفسيره، الذي هو مفتاح التدبير^(١).

وما يأتي تفصيلاً لأهم سبل تدبر القرآن العظيم:

١ - تحسين التلاوة:

أمر الله تعالى بترتيل القرآن - الباعث على تدبره وتفهمه - في قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]. وحث رسول الله ﷺ على التغني بالقراءة وتحسينها، في قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «المطلوب شرعاً، إنما هو التحسين بالصوت، الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد للطاعة»^(٣).

وبيّن القرطبي رحمه الله أن الترتيل طريق إلى التدبر، في قوله: «الترتيل أفضل من الهدأ؛ إذ لا يصح التدبر مع الهدأ»^(٤).

«والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني... فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب، وكمال المعرفة»^(٥).

وكذا قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر وغيره... لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب»^(٦).

وأيد ذلك السيوطي رحمه الله بقوله: «تسّر القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم»^(٧).

والسبب في كراهة جمهور أهل العلم القراءة بالألحان: «لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم»^(٨).

والله تعالى تعبد الناس بتدبر القرآن، كما تعبدتهم بالتلاوة، قال الله تعالى:

(١) انظر: العودة إلى القرآن (ص ١٦٧)؛ تدبر القرآن (ص ٩٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: «وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ لَجَّهْرُوا بِهِ» [الملك: ١٣] (٤/ ٢٣٥١) (ح ٧٥٢٧).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٩٥).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ١٥٤ - ١٥٤).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٤٦).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٠).

(٧) الإتيان في علوم القرآن (١/ ٢٨٣).

﴿ كَتَبَ آزَلَتُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا يُدَبَّرُونَ مَائِيهِ. وَتَذَكَّرَ أَوْلُوا الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [ص: ٢٩]. فالمقصود الأعظم من إنزال القرآن، هو التدبُّر والتفكير في آياته، والعمل به؛ لا مجرد التلاوة مع الإعراض عنه^(١).

٢ - قراءة الليل:

مما يعين على تدبُّر القرآن، والتأمل في آياته ومواعظه وعبره، صلاة الليل والقراءة فيه، وفي ذلك يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ نَافِثَةَ أَتَيْلٍ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: هو أجدر أن يفقه في القرآن»^(٢)؛ «لأن قيام الليل أصوب قراءة، وأصح قولاً من النهار؛ لسكوت الأصوات في الليل، فيتدبَّر في معاني القرآن»^(٣).

وذكر ابن عاشور رحمته الحكمة من اختصاص الليل بالقيام، فقال: «والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ، وتفهم معانيها؛ للهدوء الذي يحصل في الليل، وانقطاع الشواغل... وأعون على المزيد من التدبُّر»^(٤).

ومن أجل ذلك كان جبريل عليه السلام يدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل ليلة من رمضان، قال ابن حجر رحمته - عن هذه المدارس المباركة: «المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية»^(٥).

شواهد على فضل قراءة الليل:

من أوضح الشواهد الدالة على فضل قراءة القرآن بالليل:

- (١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص ٢١٥).
- (٢) رواه أبو داود (٣٢/٢) (ح ١٣٠٤)، والبيهقي في الكبرى (٥٠٠/٢) (ح ٤٤١٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٥٧/١) (ح ١٣٠٤).
- (٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٣٣/٤).
- (٤) التحرير والتنوير (٢٤٥/٢٩ - ٢٤٦).
- (٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٥/٩).

* ثناء الله تعالى على تلاوة الليل: ﴿... يَتْلُونَ مَا كُنْتَ آتُوهُم بِاللَّيْلِ...﴾ [آل عمران: ١١٣].

* وقوله ﷺ - عن شفاعة القرآن لصاحبه يوم القيامة: «... وَتَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنْعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ...»^(١).

٣ - الإنصات عند سماعه:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن؛ كي ينتفعوا به، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح^(٢)، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٤].

والمعنى - كما قال الطبري رحمه الله: «أصغوا سمعكم؛ لتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه؛ لتعقلوه، وتتدبروه، ولا تلهوا فيه فلا تعقلوه...؛ ليرحمكم ربكم بآعظكم بمواعظه، واعتباركم بعبده»^(٣).

فالملازم للاستماع والإنصات - عند تلاوة القرآن - سينال «خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدىً متزايداً، وبصيرة في دينه»^(٤).

«وإن العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبر، لا مجرد التلاوة والترتمم - يُنبئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى؛ ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة؛ ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم؛ ما لا تُدانيه رياضةٌ أخرى، أو معرفة، أو تجريب»^(٥).

٤ - خسن الابتداء والوقف:

مما يُعين على تدبر القرآن والتفكير في معانيه، مراعاة حسن الابتداء والوقف أثناء التلاوة، وهناك بعض الآيات لها تعلق بما قبلها أو بعدها، وكثير من القراء

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٧٤/٢) (ح ٦٦٢٦)؛ وابن المبارك في «مسنده» (٥٩/١) (ح ٩٦)؛ والحاكم في «المستدرک» (٧٤٠/١) (ح ٢٠٣٦)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٠/٢) (ح ٣٨٨٢)؛ و«صحيح الترغيب» (٥٧٩/١) (ح ٩٨٤).

(٢) انظر: فتح القدير (٢/٢٨٠).

(٣) تفسير الطبري (٦/٢٠١).

(٤) في ظلال القرآن (٣/١٤٢٦).

(٥) تفسير السعدي (١/٣١٤).

لا يُراعون حسن الابتداء أو الوقف، ولا يتفكرون في ارتباط الكلام بعضه ببعض، ولا يتأملون معاني الآيات، بل جُلَّ عملهم هو التقيّد بالأعشار والأحزاب والأجزاء، ممّا يَفُوتُ فُهْمٌ كثير من الآيات على وجهها الصحيح.

نماذج من الابتداء والوقف الممنوع:

فمن أمثلة الأجزاء: قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ [النساء: ٢٤].
 وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْبِيئُ قَيْسٍ...﴾ [يوسف: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿فَبَا كَاتِ جَوَابَ قَوْمِهِ...﴾ [المنكحوت: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَنُ يَفْتَنُ مِنْكَ بِقَوْلِهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [الأحزاب: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَدِيلِهِ مِنْ جُنُودٍ أَلْسَمَوْا...﴾ [يس: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ [فصلت: ٤٧].

ومن أمثلة الأحزاب: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَمْدُودَةٍ...﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُكُمْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥].

قال النووي تَلَفُظًا: «فكلُّ هذا وشبهه، ينبغي ألا يُبدأ به ولا يُوقف عليه؛ فإنه متعلّق بما قبله، ولا يفترون بكثرة الفاعلين له من القراء الذين لا يُراعون هذه الأداب، ولا يتفكرون في هذه المعاني...»

ولهذا المعنى قالت العلماء: قراءة سورة قصيرة بكمالها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال^(١).

٥ - فهم المعاني:

ذمَّ الله تعالى مَنْ أَعْرَضَ عَنْ فَهْمِ كِتَابِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَقْفَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

والجهل بمعاني القرآن يصرف عن تدبُّره وتلذُّذ القلب بقراءته، وفي ذلك يقول الطَّبْرِي تَلَفُظًا: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذُّ بقراءته؟!؟»^(٢).

(١) البيان في آداب حملة القرآن (ص ١٥١ - ١٥٢). وانظر: تلخيص القرآن (ص ٣١ - ٣٧).

(٢) معجم الأدباء (٢٥٦/٥).

وقد تعجب القرطبي رحمته أيضاً - ممن قصد التدبر والعمل بالقرآن مع جهله بمعناه، قائلاً: «وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدره، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا»^(١).

وفي هذا السياق يقول ابن الجوزي رحمته: «كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث... ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً، وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها... وإنما الفقه استخراج من الكتاب والسنة، فكيف يستخرج من شيء لا يعرفه؟!»^(٢).

والقرآن العظيم قد بُسِّرت معانيه كما بُسِّرت ألفاظه، قال السعدي رحمته - مُعلقاً على قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» [القمر: ١٧].
«ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معني، وأبينه تفسيراً. فكل من أقبل عليه، يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه...»

ولهذا كان علم القرآن، حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق. وهو العلم النافع، الذي إذا طلبه العبد، أُعِين عليه»^(٣).

وتعلم معاني القرآن أولى من تعلم حروفه، وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية رحمته: «دخل في معنى قوله: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٤) تعليم حروفه ومعانيه جميعاً؛ بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان كما قال جندب بن عبد الله، وعبد الله ابن عمر وغيرهما:

(٢) تليس إبليس (ص ١٤٥).

(١) تفسير القرطبي (١/٢١).

(٣) تفسير السعدي (٥/١٣٩).

(٤) رواه البخاري. كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/١٦٢٠).

تعلّمنا الإيمان، ثمّ تعلمنا القرآن، فزددنا به إيماناً^(١).

والفرق بين معرفة الألفاظ والمعاني، كالفرق بين الليل والنهار، وفي ذلك يقول إياس بن معاوية^(٢) كَلِمَةً: «مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْرِفُونَ التَّفْسِيرَ: كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلًا، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مَصْبَاحٌ، فَتَدَاخَلْتَهُمْ رَوْعَةٌ لَا يَدْرُونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ: كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمَصْبَاحٍ، فَقَرَأُوا مَا فِي الْكِتَابِ»^(٣).

وقد أحسن القائل:

إِنَّ الْعُلُومَ وَإِنْ جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَتَاجُهَا مَا بِهِ الْإِيمَانُ قَدْ وَجِبَا
هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، اللَّهُ يَحْفَظُهُ وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمُ فَرْجِ الْكُرْبَا
وَإِنَّهُمْ يَفْهَمُ كِتَابَ اللَّهِ، فِيهِ أَتَتْ كُلُّ الْعُلُومِ، تَدْبِيرُهُ تَرَّ الْعَجْبَا^(٤)

٦ - الوقوف عند المعاني:

والمقصود بذلك: أن يقف القارئ عند المعنى فلا يتجاوزوه إلى غيره، متأملاً له، ومفكراً فيه.

ومن أبلغ الشواهد وأوضحها: ما رواه حذيفة رضي الله عنه - حيث قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْتَبَحَ الْبَقْرَةَ... ثُمَّ انْتَبَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ انْتَبَحَ آلَ جُمُرَانَ فَقَرَأَهَا. يَقْرَأُ مُتْرَسِلاً، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعْوِذٍ تَعَوَّذَ. ثُمَّ رَكَعَ...»^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٤٠٣/١٣).

(٢) هو التابعي الجليل إياس بن معاوية بن قرّة بن إياس المزني (أبو وائلة) البصري، القاضي المشهور بالذكاء. قال ابن حجر: «ثقة، من الخامسة». ولجده ضحية، وقال ابن خلكان: «هو اللسن البليغ، والألمعي المنصب، والمعدود مثلاً في الذكاء والفظنة، ورأساً لأهل الفصاحة والرّجاحة». توفي سنة (١٢٢هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١١٧/١)؛ وفيّات الأعيان (٢٤٧/١).

(٣) تفسير ابن عطية (٤٠/١)؛ تفسير القرطبي (٢٦/١).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤١/١).

(٥) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٥٣٦/١) (ح ٧٧٢).

وصِفةُ الوقوف عند المعاني: «أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب»^(١).

وينبغي للتالي: أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [الأنعام: ١]، فليعلم عظمته، ويتلمح قدرته في كل ما يراه، وإذا تلا: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ» [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم،... وإذا تلا أحوال المكذابين، فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امثال الأمر...

وينبغي لتالي القرآن: أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يُردَّ بها السمر^(٢) بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد، كاتبه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب، ويعمل بمقتضاه^(٣).

٧ - ترديد الآية المؤثرة في القلب:

مما يُعين على تدبُّر القرآن والتفكير في معانيه، ترديد الآية المؤثرة في القلب، وهذا التردد من أبرز صور الوقوف عند المعاني، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا، وَالآيَةُ: ﴿إِنْ مَدَدْتُمْ فَأَنْتُمْ عِبَادٌ وَإِنْ تَفَرَّقْتُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّهْبِيُّ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»^(٤).

قال ابن القيم رحمته الله: «فلو عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ، لاشتغلوا بها عن كل ما سواه، فإذا قرأه بتفكير حتى إذا مرَّ بآية - وهو محتاج إليها في شفاء

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/٢٨٣).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص ٥٦).

(٤) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١/٢٧١) (ح ١٢٠)؛ والنسائي (١٧٧/٢) (ح ١٠١٠)؛ وابن ماجه (١/٤٢٩) (ح ١٣٥٠)؛ والحاكم في «المستدرک» (١/٣٦٧) (ح ٨٧٩) وقال: «صحيح، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/٣٣٠) (ح ١٠٠٩)؛ و«صحيح سنن ابن ماجه» (١/٤٠١) (ح ١١١٨).

قلبه - كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكير وتفهم، خير من قراءة ختمه بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن^(١).

وقال ابن قدامة رحمته: «وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليردّها»^(٢).

وقال بشر بن السري^(٣) رحمته: «إنما الآية مثل الثمرة، كلما مضغتها استخرجت حلاوتها». فحدث به أبو سليمان، فقال: «صدق؛ إنما يؤتى أحدكم من أنه إذا ابتداء السورة أراد آخرها»^(٤).

نماذج من ترديد الآية:

وردت نقول كثيرة ومتنوعة عن السلف الصالح في ترديدهم لبعض الآيات، ومن أبرزها ما يلي:

* عن مسروق^(٥) رحمته: «أن تبيماً الداري عليه ردد هذه الآية حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢١]»^(٦).

(١) مفتاح دار السعادة (ص ١٨٧).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص ٥٦).

(٣) هو بشر بن السري (أبو عمرو) الألو، البصري، سكن مكة، وسُمي بالآلوه؛ لأنه كان يتكلم بالمواعظ. قال ابن حجر: «كان واعظاً، ثقة، متقناً، طعن فيه برأي جهم، ثم اعتذر وتاب، من الثامنة». وقال أبو حاتم: «ثبت، صالح». أخرج له السنة، توفي سنة (١٩٥هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/١٢٣)؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٢/٢٩).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/٤٧١).

(٥) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوداعي (أبو عائشة) الكوفي، من كبار أئمة التابعين وفقهائهم، ثقة عابد. أخرج له السنة، توفي سنة (٦٣هـ).

انظر: تقريب التهذيب (٢/٢٤٢).

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/٥٠) (رقم ١٢٥١)؛ وابن المبارك في «الزهد» (ص ٣١) (رقم ٩٤)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٤٢٦). وانظر: مختصر قيام الليل (ص ١٥١)؛ النيان في آداب حملة القرآن (ص ١١٠).

وكذا قام بها الربيع بن خثيم^(١) كَلْفَةٌ^(٢).

* عن عباد بن حمزة^(٣) كَلْفَةٌ قال: «دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَيْنَا وَعَيْنَا وَعَيْنَا عَنَابَ التَّمْوَرِ﴾ [الطور: ٢٧]، فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيدُ وَتَدْعُو، قَالَ عِبَادُ: فَذَهَبْتُ إِلَى السُّوقِ فَفَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ، وَهِيَ فِيهَا بَعْدُ، تَسْتَعِيدُ وَتَدْعُو»^(٤).

* عن رجلٍ - من أصحاب الحسن البصري^{رضي الله عنه} كَلْفَةٌ قال: «بيننا أنا ذات ليلة عند الحسن فقام من الليل يصلي، فلم يزل يردد هذه الآية، حتى أسخز: ﴿وَلَا تَسُدُّوا عَيْنَ اللَّهِ لَا تَحْضُوا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلما أصبح، قلنا: يا أبا سعيد، لم تكن تُجاوِزُ هذه الآية سائر الليلة، قال: إن فيها مُعْتَبَرًا، ما ترفع طرفاً ولا ترد، إلا وقع على نعمة، وما لا نعلم من نعم الله أكثر»^(٥).

قال الثوري كَلْفَةٌ: «وقد بات جماعة من السلف، يتلو الواحد منهم الآية الواحدة، ليلة كاملة أو معظمها، يتلونها عند القراءة»^(٦).

وقال ابن القيم كَلْفَةٌ: «وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصُّبْحِ»^(٧).

(١) هو الربيع بن خثيم بن عائد بن عبد الله الثوري التميمي (أبو يزيد) الكوفي، من كبار التابعين وزهادهم، قال ابن حجر: «ثقة، عابد، مخضرم. من الثانية». من خيار أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، توفي سنة (٥٦٣هـ).

انظر: تقريب التهذيب (٢٠٦/١)؛ معرفة القمات (٣٥١/١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٢٤/٢) (رقم ٨٣٧١) (١٤٥/٧) (رقم ٣٤٨٤٧).

(٣) هو عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي، القرشي، المدني أخو عبد الملك، قال ابن حجر: «ثقة، من الثالثة». روى عن جدته أبيه أسماء، وأختها عائشة، ابنتي الصديق رضي الله عنه. انظر: تقريب التهذيب (٢٨٩/١)؛ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للشخاوي (١١/٢).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥/٢) (رقم ٦٠٣٧). وانظر: مختصر قيام الليل (ص ١٤٩)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١١).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (١٥٩/١) (رقم ٥٣). وانظر: مختصر قيام الليل (ص ١٥١).

(٦) الأذكار (ص ٨٧). وانظر: المجموع (١٨٧/٢)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٨).

(٧) مفتاح دار السعادة (ص ١٨٧).

٨ - معرفة أساليب القرآن:

مَنْ لم يعرف أساليب القرآن، سيجد نفسه غريباً عن آيات القرآن، وتراكيب جُمَله، وسبعاني لفهما ما يعاني، ومعرفة هذه الأساليب ممَّا يعين على تدبُّر القرآن، وهي كثيرة ومتنوعة، من أبرزها ما يلي:

* ختم الآيات بأسماء الله الحسنى؛ ليدل على أن الحُكْم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم^(١).

* ومن أساليب القرآن: احتواؤه على أحسن طرق التعلُّيم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر طريق وأوضحه، ومن أبرز أنواع تعليمه العالي: ضرب الأمثال، فتوضَّح المعاني النافعة، وتُمثِّل الأمور المحسوسة؛ كأنها تُرى رأي العين، وهذا من عناية الله تعالى ولطفه بعباده^(٢).

وقد ذَكَر الزُّرْكَشِي رحمته اثنين وأربعين أسلوباً من أساليب القرآن؛ منها: التوكيد، والحذف، والتقديم، والاستطراد، والالتفاف، والتضمين، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، والتوسُّع، والإعراض، والثورية، والطباق^(٣)....

* ومن أساليب القرآن: الوصف الحي بالصُّورة المحسوسة، والحركة المتجدِّدة النَّابضة بالحقيقة، فإذا الحوادث والقصاص والمناظر شاخصة حاضرة، فإذا انضم إليها الحوار استوت للقارئ عناصر التأثير فينسى أن هذا كلامٌ يتلى، أو مَثَل يُضرب، فيتفاعل مع الحدث، لا مع حكاية الحدث، وهذه سمة القرآن، وهي معجزة من معجزاته^(٤).

* ومن أساليب القرآن: الحذف. وقد ذكر ابن القيم رحمته أمثلة على ذلك، فقال: «هو - سبحانه - يذُكَّر جوابَ القَسَم تارةً، وهو الغالب، وتارةً يحذفه، كما يَحْذِفُ جوابَ (لو) كقولهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَصَلُّونَ عَلِمَ الْيَقِينُ﴾ [التكوير: ٥]،

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص ٥١).

(٢) انظر: المصدر نفسه (ص ٦٥).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٣٩٧) وما بعدها.

(٤) انظر: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب (ص ٣٦، ٢٤١).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْمَانًا سُبِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ومثله هذا حذفه من أحسن الكلام؛ لأن المراد: أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولاً عظيماً... وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبة، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها، يقول أحدهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا^(١).

* ومن أساليب القرآن: الالتفات، وهو - كما قال الزركشي تلميحاً: «نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر نظرية واستدراغاً للسامع، وتجديداً لنشاطه، وصيانةً لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سماعه»^(٢).

والالفتات له أنواع كثيرة، ومنها:

الالفتات من المتكلم إلى الخطاب، كقوله: ﴿إِنَّا فَتَنَّا لَكَ فَتَنًا نُبِينًا ۖ لِيَبْتَلِيَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١ - ٢]، ولم يقل: لنغفر لك.

من المتكلم إلى الغيبة، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاكَ الْكُوثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١ - ٢]، ولم يقل: فصل لنا.

من الخطاب إلى المتكلم، كقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَجٌ مُكْرَمٌ إِنَّا رَسُولُنَا يُكْتُبُونَ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [يونس: ٢١].

من الخطاب إلى الغيبة، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجِهْتُمْ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٢]، ولم يقل: وجرين بكم.

من الغيبة إلى المتكلم، كقوله: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨ - ٨٩].

من الغيبة إلى الخطاب، كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آسَوْدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]^(٣).

* ومن أساليب القرآن في الحث:

١ - التذكير بالأمر وعظمته.

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ٣ - ٤). (٢) البرهان في علوم القرآن (٣/٣١٤).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٣/٣١٥ - ٣٢٤).

٢ - التشويق للأجر وكثرته، كقوله تعالى: ﴿بِأَيِّ آيَاتِنَا مَا نُنَادُوا هَلْ أَتَاكُمُ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُحِبُّونَ﴾ [الصافات: ١٠].

٣ - التذكير بمنزلة المأمور وحاجته إلى ربه.

٤ - التهييج، قال ابن كثير **تَلَفُّةٌ** - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ﴾ [غافر: ٥٥]. «هذا تهيج للأمة على الاستغفار»^(١).

٥ - الاعتبار بحياة الأنبياء وأعيان الصالحين.

* ومن أساليب القرآن في التهييج: التوبيخ للفعل، أو التهكم بأصحابه أو السخرية منهم، أو ذكر عاقبة من فعله في الدنيا، أو وصف خسارته في الآخرة، أو عطفه على ما هو أشنع منه، وما هو مكروه عند النفوس، أو الاعتبار بالأمم الظالمة وأعيان المعاندين.

قال القرطبي **تَلَفُّةٌ** - عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجَارِ يَتَحَمَّلُ لِنَفْسِهِ﴾ [الجمعة: ٥]. «وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه؛ لأننا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»^(٢).

* ومن الأساليب المشتركة في الحث والتوبيخ: التشبيه، والكناية، والتضمين، والمقارنة، والقصر، والتأكيد، والتخصيص، والتفصيل والإجمال، والتقديم والتأخير، والاتفاقيات، والتلميح، وضرب الأمثال، وبيان الحكمة، وختم الآية بما يناسبها من أسماء الله وصفاته، وختم السور بما يناسبها^(٣).

* ومن أساليب القرآن: اختلاف مساق إيراد القصر، بقول الشاطبي **تَلَفُّةٌ** عن ذلك: «وبالجملة: فحيث ذُكِرَ قَصْرُ الأنبياء - عليهم السلام - كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون؛ فإنما ذلك تسلية لمحمد - عليه الصلاة والسلام - وتثبيت فؤاده؛ لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له، على أنواع مختلفة، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصة

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٩٤).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٨٥).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٢٨٤) وما بعدها. مناهل العرفان في علوم القرآن

(ص ٢٧٧ - ٣٠٢).

الواحدة بحسب اختلاف الأحوال^(١).

ما يعين على التدبُّر إجمالاً:

- بالإضافة إلى ما تقدم - وحتى لا يطول بنا الحديث - هناك أمور كثيرة تُعين المسلم على تدبُّر القرآن، تُجمل فيما يلي:
- ١ - النظرة الكلية الشاملة للقرآن.
 - ٢ - النظرة التفصيلية في سياق الآية: تركيبها - معناها - نزولها - غريبها - دلالاتها.
 - ٣ - الالتفات للأهداف الأساسية للقرآن.
 - ٤ - تدارس القرآن: كما دارس رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام؛ للإفادة منه، فهذه المدارس، أعظم ما يُعين المسلم على فهم القرآن وتدبُّره.
 - ٥ - الثقة المطلقة بالنص القرآني، وإخضاع الواقع المخالف له.
 - ٦ - ملاحظة البُعد الواقعي للآية؛ بحيث يجعل من الآية مُنطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.
 - ٧ - معايشة معاني الآيات، وإيحاءات النص، وظلاله ولطائفه.
 - ٨ - ملاحظة الشخصية المستقلة للسورة.
 - ٩ - التمكن من أساسيات علوم التفسير.
 - ١٠ - تصوُّر حال الدعوة عند نزول الآيات^(٢).
 - ١١ - العودة المتجددة للآيات، وعدم الاقتصار على التدبُّر مرّة واحدة؛ فالمعاني تتجدد.
 - ١٢ - الاستعانة بالمعارف والثقافات الحديثة.
 - ١٣ - القراءة في الكتب المتخصصة في هذا الموضوع^(٣).

(١) الموافقات (٣/٨٥٩). وانظر: تدبر القرآن (ص ١٣٢ - ١٣٩).

(٢) انظر: تدبر القرآن (ص ١٠٠ - ١٠٣).

(٣) ومن أبرزها: البرهان في علوم القرآن. الإتيقان في علوم القرآن. مناهل العرفان في علوم القرآن. القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله،

وبعد: فما درجة أهمية تدبر القرآن في عقولنا؟ وما نسبة التدبر في واقعنا العملي فيما نقرؤه في المسجد قبل الصلوات؟ وهل نحن نربي أبناءنا وطلابنا على التدبر في جلق القرآن؟ أم أن الأهم الجفط وكفى، بلا تدبر ولا فهم؛ لأن التدبر يُؤخر الحفظ؟

ما مقدار التدبر في دروس العلوم الشرعية في المدارس، خاصة دروس التفسير؟ وهل يربي المعلم طلابه على التدبر، أم على حفظ معاني الكلمات فقط؟ تُرى: ما مرتبة دروس التفسير في جلق العلم في المساجد: هل هي في رأس القائمة، أم في آخرها - هذا إن وجدت أصلاً؟

ما مدى اهتمامنا بالقراءة في كتب التفسير من بين ما نقرأ؟ ومتى نقتنع أن فوائد التدبر وأجزءه أعظم من التلاوة كهذا الشعر؟ أسئلة تبحث عن إجابة؛ فهل من مُجيب؟^(١).

١ - لعبد الرحمن حبنكة الميداني. دراسات قرآنية، لمحمد قطب. قواعد التفسير (رسالة دكتوراه)، د. خالد بن عثمان السبت. مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح الخالدي. (١) انظر: تدبر القرآن.. لماذا وكيف؟، إبراهيم بن عبد الرحمن التركي، مجلة انبيان (عدد ١٤٤) (شعبان ١٤٢٠هـ) (ص ٢٣).

المبحث الرابع

ثمرات تدبُّر القرآن

ثمرات تدبُّر القرآن

تلاوة القرآن العظيم لها ثمار حسنة تعود على القارئ، في الدنيا والآخرة، لكنَّ التدبُّر يضاعف هذه الثمار.

وهي ثمار عديدة لا يمكن حصرها في هذه العجالة، ومن أبرزها ما يلي:

١ - تعميق جذور الإيمان:

تدبُّر آيات القرآن الكريم يجعل المؤمن يزداد يقيناً بأنه من عند الله تعالى، إذ إنَّ المتدبُّر له، والمتأمل فيه، يستعرض القرآن العظيم من أوّله إلى آخره، فلا يجد فيه أدنى اختلاف أو تناقض، فلا يجد آية تُعارض أخرى أو تنقضها، بل ولا يجد لفظة يمكن استبدالها بأخرى، وإنما يسير على نسق واحد من أوّله إلى آخره، فيشعر المتأمل له أنَّ مصدره واحد، وأنَّه من لدن حكيم خبير، وأنَّه لو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافاً كثيراً، وتناقضاً كبيراً.

وهو ما أشار إليه السَّعدي رَحْمَةً بقوله: «ومن فوائد التدبُّر لكتاب الله: أنَّه بذلك، يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنَّه كلام الله؛ لأنَّه يراه، يُصدِّق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكَم والقِصَّة والأخبار، تُعاد في القرآن؛ في عدَّة مواضع، كلُّها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً. فبذلك يُعلم كمال القرآن، وأنَّه من عند مَنْ أحاط علَّمه بجميع الأمور»^(١).

وهذا اليقين يحقِّق الثبات على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وبذلك تتعمَّق جذور الإيمان في القلب، وتزداد رسوخاً.

والتدبُّر المُثمر يعمل أيضاً على تركيز الانتباه في الصَّلَاة وخارجها ممَّا يُعيد

وسوسة الشيطان التي تحول بين المؤمن وشعوره بالخشوع والخضوع لله تعالى، فيكون من المفلحين الخاشعين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

أما غير المؤمن فالتدبر يدفعه - إن كان منصفاً موقفاً - إلى الإيمان بالله، والاعتقاد بأن القرآن العظيم تنزيل من رب العالمين، فيخرج بذلك من دائرة الإلحاد والشك، إلى رحاب الإيمان واليقين، ومن ظلمات الضلالة والجهل، إلى نور الهداية والمعرفة.

والمُنْتَحِرُّ من قيود التقليد والعتاد يزحزحه التدبر عن العقيدة الفاسدة؛ فيحقق لنفسه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

والتدبر - في جميع الأحوال - يشفي الصدور من شكوك تعترى المرتابين، ويشفي النفوس من أمراض كثيرة ومتنوعة، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] (١).

٢ - معرفة الرب جل جلاله:

ومن أعظم نعمات تدبر القرآن: أنه يُعَرِّفُ بِالرَّبِّ تعالى، وعظيم سلطانه وقدرته، وعظيم تفضله على المؤمنين (٢).

وهذا ما أشار إليه السعدي رحمته عن فوائد التدبر: أنه * يُعَرِّفُ بِالرَّبِّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص.

* وَيُعَرِّفُ الطَّرِيقَ الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدم عليه.

* وَيُعَرِّفُ العَدُوَّ، الذي هو العدو على الحقيقة؛ والطَّرِيقَ الموصلة إلى العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

* وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً، وعملاً، وبصيرة (٣).

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص ١٩٤).

(٢) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص ١٨). (٣) تفسير السعدي (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧).

٣ - تحقيق العبودية لله تعالى:

من ثمرات تدبر القرآن: أنه وسيلة لمعرفة ما يريد الله منا، وكيفية عبادته تبارك وتعالى، ومعرفة ما أنزل الله إلينا؛ لأن القرآن العظيم منهج حياة، أنزله الله ﷻ، وهو أساس التشريع الذي يجب على العباد أن يتدبروه، ويلتزموا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه؛ ليحققوا عبادة الله تعالى^(١).

وفي هذا الشأن يقول ابن القيم رحمته: «فلا تزال معانيه:

* تَهْفُضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتَحْذَرُهُ وَتَخَوْفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

* وَتَعْتُهُ عَلَى التَّصْمُرِ وَالتَّخَفُّفِ لِبِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ.

* وَتَهْدِيهِ فِي ظُلْمِ الْأَرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ.

* وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طَرِيقِ الْبِدْعِ وَالْأَضَالِيلِ.

* وَتَبْعَتُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ.

* وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا لئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَبْقَعَ فِي الْعِنَاءِ الطَّوِيلِ.

* وَتُبَيِّنُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالتَّمِيلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ.

* وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصَّعَابَ وَالْعُقُوبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ.

* وَتُنَادِيهِ - كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ، وَوَنَى فِي سِيرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَالْحَاقِ الْلُحَاقَ وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَتَخَذُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سِيرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَاثِنِ الْعَدُوِّ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ فَاعْتَصِمْ بِاللَّهِ، وَاسْتَعِزْ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكيم والفوائد، وبالجملة: فهو أعظم الكنوز^(٢).

(١) انظر: كيف تدبر القرآن، لغواز أحمد زمزلي (ص ٨٣).

(٢) مدارج السالكين (١/٤٥٢ - ٤٥٣).

٤ - التَّدْبِيرُ غِذَاءٌ وَعِلَاجٌ وَسِلَاحٌ:

ومن ثمرات تدبّر القرآن: أنّه غذاءٌ للرُّوح، وعلّاجٌ يشفي النفوس من عللها، ويكسيها المناعة القويّة - إذا أحسن المؤمن تدبّره، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّسْقِئًا ۖ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤].

فهذا التَّدْبِيرُ يُخْرِجُ المتدبّر من الحيرة والقلق النفسي؛ ليسكب فيه الشعور بالطمأنينة والاستقرار، كما يرحّزه من حال التّعاسة إلى السعادة وراحة البال.

كما أنّ التَّدْبِيرُ سلاحٌ يدفع الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع من الدّاخل والخارج، حيث يُستعملُ في جهاد النفس، ومقاومة المنافقين، وجهاد الكافرين على حدّ قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ، جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّجِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]. فالله تبارك وتعالى أمر أن يُجاهد الكفّار بالقرآن جهاداً كبيراً، ويكون هذا الجهاد بِحُجُجِ القرآن وأدلّيته وبراهينه، وهو جهادٌ أنبيائيّ ورسليّ وخاصّته من عباده، الذين تدبّروا آيات الكتاب العزيز وجاهدوا بها أعداءه^(١).

وفي هذا الشأن يقول الطبري رحمته: «جاهدتم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويذعنوا للعمل بجميعة طوعاً وكرهاً»^(٢).

وأكد ذلك أبو السُّعود رحمته بقوله: «فإنّ دعوة كلّ العالمين - على الوجه المذكور - جهاد كبير، لا يُقَادَرُ قدره كماً وكيفاً»^(٣).

ومفتاح هذا الجهاد الأكبر: هو تدبّر القرآن العظيم؛ لأنّ أعداء المسلمين لم يتسلطوا ويحكموا عليهم القبضة إلا عندما هجروا تدبّر القرآن، ولم يلتزموا بما جاء فيه^(٤).

(٢) تفسير الطبري (١١/٣٠).

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥).

(٣) تفسير أبي السُّعود (٦/٢٢٥).

(٤) انظر: دعوة إلى تدبّر القرآن الكريم (ص ١٩٦).

٥ - التَّدْبُرُ فِيهِ تَرْبِيَةٌ لِلْعَقُولِ:

معرفة ما أنزل الله تعالى من أعظم ما يُرَبِّي العقول ويجعلها تفهم الحقائق النافعة فتتَّبِعُها، والضَّارَّة فتجتنبها؛ فلا تميل بها الأهواء والأغراض والخيالات والخرافات الضَّارَّة المفسدة للعقول.

وليس العقل هو الذكاء، وقوة الفطنة، والفصاحة اللفظية، وإنما العقل الصحيح هو أن يَعْقَلَ العبد - في قلبه - الحقائق النافعة، عقلاً يُجِيبُ بمعرفتها، ويميز بينها وبين ضدها، ويعرف الرَّاجِح من الأمور فيؤثره، والمرجوح أو الضَّار فيتركه^(١).

قال السُّعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وُسِّمِيَ الْعَقْلُ عَقْلاً؛ لِأَنَّهُ يَعْقِلُ بِهِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَنْعَقِلُ بِهِ عَمَّا يَضُرُّهُ... فَمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِالْخَيْرِ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، أَوْ نَهَاهُ عَنِ الشَّرِّ فَلَمْ يَتْرَكْهُ، دَلَّ عَلَى عَدَمِ عَقْلِهِ وَجَهْلِهِ»^(٢).

والتَّدْبُرُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ:

فتدبُّر القرآن يُعِين على فهم المراد من كلام الله تعالى، ويفسح أمام العقل آفاق العلم والمعرفة؛ فيكتسب قارنه معارف جديدة، وَيُلِمُّ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وتزِيدُ حصيلته اللُّغوية فهماً وتعبيراً، ويتحدَّث ويكتب بطلاقة وبشكلٍ صحيح مؤثِّر على الآخرين.

قال السُّعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عند قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» [يوسف: ٢]. «وَأَنْزَلَهُ بِهَذَا اللِّسَانِ لِتَعْقِيلِهِ وَنَفْهَمِهِ، وَأَمَرْنَا بِتَدْبِيرِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ لِعِلْمِهِ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَدْبِيرَهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، مُحْضَلٌ لِلْعِلْمِ وَالْأَسْرَارِ»^(٣).

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَإِنَّ فِي تَدْبِيرِ كِتَابِ اللَّهِ مِفْتَاحاً لِلْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ، وَبِهِ يُسْتَنْجَى كُلُّ خَيْرٍ، وَتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ جَمِيعُ الْعِلْمِ»^(٤).

(١) انظر: كيف تدبِّر القرآن (ص ٨٣). (٢) تفسير السُّعدي (١/٥٧).

(٣) المصدر نفسه (١/١٢)؛ «مقدمة تفسير السُّعدي».

(٤) المصدر نفسه (١/٣٧٦).

والتدبر فيه صقل للمواهب، وتنمية للقدرات العقلية:

فنمو فيه قوة الملاحظة، ومَلَكة التفكير، وترتفع قدرته على معالجة الأمور، ويصبح حكماً عاقلاً عند اختلاف الآراء والأفكار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ١٩].

ومن اعتاد تدبر القرآن تنمو عنده ملكة تأمل النصوص القولية والكتابية، لتصبح ملازمة له. فيختار العبارات المناسبة في أقواله وكتابه لِيُثَمِّمَ دون التباس، أو احتمال تأويلات تُخْرِجُهَا عن الغرض المقصود.

كما أن تلك العادة الحميدة تدفعه إلى التدقيق بما يسمع أو يكتب من نصوص، فيمحص الأمر، ويتجنب ما يوقعه فريسةً لكيد الكائدين، ومكر الماكرين، وطمع الظالمين على الصعيد الفردي والذولي، في التحدث أو عند صياغة العقود الشخصية أو المعاهدات والاتفاقيات والقرارات^(١).

أما بعد: فهذه بعض ثمرات التدبر الزاكية، فأين نحن منها؟ فما تحصن عبد من الشيطان بمثل ما تحصن به مُتدبر القرآن، فهو أفضل الذكر، وبالذكر يخنس الشيطان ويهرب.

فمن أراد أن يكون في حصن حصين، ودرع متين، فلا غنى له عن تدبر القرآن العظيم.

ولا غرور أن يتسامل ابن القيم **رحمته** - في صيغة استنكارٍ وتوبيخ - عن حال من هجر تدبر نصوص الوحي، إذ يقول: «سبحان الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباس العلم من مشكاته من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟! قنعوا بأقوال استنبطتها معاوِلُ الآراء بفكرٍ، وتقطّعوا أمرهم بينهم لأجلها زُبراً، وأوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً؛ فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً.

درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهدته عندهم

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص ١٩٧).

فليسوا يعمرونها، ووقعت ألويتها وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفلت كواكب التيرة من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحبونها، وكسفت شمسُه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقديها، فليسوا يتصرونها^(١).

(١) مدارج السالكين (١/٥)؛ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (١/٤١).

الفصل الثامن

هجر العمل بالقرآن

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن.

المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن.

المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن.

المبحث الرابع: الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم يتواصون بالعمل بالقرآن.

المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم بالقرآن.

المبحث الأول

وجوب العمل بالقرآن

أولاً: معنى العمل بالقرآن:

القرآن العظيم دستور المسلمين، ومنهاج حياتهم، به تستقيم حياة الفرد والمجتمع؛ ارتضاه الله ﷻ ليكون لهم، بل وللعالم أجمع منهج حياة، فقدمه على الخلق بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]. فَرَسَمَ لَهُمِ الْمَنْهَجَ، وَحَدَّدَ لَهُمِ الطَّرِيقَ حَتَّى قَبْلَ خَلْقِهِمْ لِتَسْتَقِيمَ حَيَاتِهِمْ؛ لِذَا فَالْغَايَةُ الْأَسَاسُ مِنْ نَزُولِهِ الْعَمَلُ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي، فَهُوَ لَيْسَ كِتَابًا لِلْقِرَاءَةِ فَحَسْبَ، بَلْ جَعَلَهُ اللَّهُ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ؛ لِيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَيَلْتَزِمُوا حُدُودَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]. فَمَنْ ابْتَغَى مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرَ مَا أَنْزَلَ لِأَجَلِهِ فَقَدْ تَكَبَّرَ سِوَا السَّبِيلِ، وَضَلَّ عَنِ هُدًى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

والعمل بالقرآن يعني أن يتخذ المسلم شريعة ومنهاجاً في حياته، فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، ويحتكم إليه في كلِّ شؤونه الخاصة والعامة، فيصبح يرى كأنه قرآن يمشي على الأرض، وهذا ما أشارت إليه أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بقولها: كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ، أَي: بِتَطْبِيقِهِ لآيَاتِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَدَابِهِ وَتَجَنُّبِهِ نَوَاهِيهِ.

ولأهمية العمل بالقرآن نجد كثيراً من الآيات تربط بين الإيمان والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ مَا صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ وَإِنَّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَخَالِدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا لَّحِقًا بِالَّذِينَ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والحقُّ أنَّ القرآنَ الكريمَ مليءٌ بالآياتِ الدَّالةِ على أنَّ الغرضَ الأساسَ من نزوله إنما هو العملُ بما جاء فيه .
ولذلك لا يُؤجر صاحب القرآن الأجر الكامل المستوفى، إلا بعد تطبيقه واقماً معاشاً في الحياة، والاهتداءً بهديه المبارك، والعمل به آتاء الليل وأطراف النهار.

التحليل من التشبُّه باليهود:

إنَّ من أعظم أسباب شقاء اليهود هو أنَّهم اكتفوا بقراءة التوراة وسماعها دون أن يتبع ذلك عمل فشبَّههم الله تعالى بالحمير . فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم وَافِقَةٌ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي ذلك يقول ابن القيم **رحمته**: «فَقَاسَ سَبْحَانَهُ مَنْ حَمَلَهُ كِتَابَهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَيَتَدَبَّرَهُ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ خَالَفَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَحْمِلْهُ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ، فَقَرَأَتْهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفْهَمٍ، وَلَا اتِّبَاعٍ وَلَا تَحْكِيمٍ لَهُ وَعَمِلَ بِمُوجِبِهِ، كَحِمَارٍ عَلَى ظَهْرِهِ زَامِلَةٌ أَسْفَارٍ لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَحَفْظُهُ مِنْهَا حَمَلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ لَيْسَ إِلَّا، فَحَفْظُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ كَحَفْظِ هَذَا الْحِمَارِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهِ، فَهَذَا الْمَثَلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضُرِبَ لِلْيَهُودِ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لِمَنْ حَمَلَ الْقُرْآنَ فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ، وَلَمْ يَرِعْهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ»^(١).

فهؤلاء اليهود حُمِّلوا التوراة، أي: عَلِمُوهَا وَكُلَّفُوا الْعَمَلَ بِهَا، ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا وَلَمْ يَتَفَعَّلُوا بِمَا فِيهَا، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كِتَابًا يَتَعَبُ فِي حَمَلِهَا وَلَا يَتَضَعُ بِهَا»^(٢).

وسبب فمهم: أنهم «اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التوراة دون فهم، وهم يحسبون أن ادخار أسفار التوراة، وانتقالها من بيتٍ إلى بيتٍ، كافٍ في التبجح بها»^(٣).

(١) الأمثال في القرآن الكريم (ص ٢٦ - ٢٧).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٨/٩٥) تفسير البيضاوي (٥/٣٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/١٩١).

وعن أبي الترداء رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال:

«هذا أولُ ما يُختلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْبُرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ».

فقال زيادُ بنُ لبيدِ الأنصاري رضي الله عنه: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا، وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ وَالله، لَنَقْرَأَهُ، وَلَنَقْرَأَهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا؟ قَالَ: نِكَلْتِكَ أُمَّكَ^(١) يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لِأَعُدُّكَ مِنْ قَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ هَذِهِ الثُّورَاءُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُعْنِي عَنْهُمْ؟^(٢).

فرسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الأمة إلى العمل بالقرآن بعد قراءته وفهمه، لا إلى الاختصار على القراءة فحسب، فيفعلون كما فعل بنو إسرائيل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَايٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وقال القرطبي رحمته الله: «وَالْأَمَايِيُّ: جَمْعُ أَمَيَّةٍ وَهِيَ التَّلَاوَةُ»^(٣).

وَيُنَبِّهَنَا الْقُرْطُبِيُّ رحمته الله إِلَى أَمِيَّةِ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ - بَعْدَ فَهْمِهِ، فَيَقُولُ: «وَيُنَبِّئُنِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، فَيَفْهَمُ عَنِ اللَّهِ مَرَادَهُ وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِ، فَيَتَتَمَّعُ بِمَا يَقْرَأُ، وَيَعْمَلُ بِمَا يَتْلُو، فَمَا أَقْبَحَ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَتَلَوَّ فَرَائِضَهُ وَأَحْكَامَهُ عَنِ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَا يَتْلُو، فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِمَا لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ؟ وَمَا أَقْبَحَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ فِقْهِ مَا يَتْلُوهُ وَلَا يَدْرِيهِ، فَمَا مِثْلُ مَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ إِلَّا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا»^(٤).

وْغَالِبُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا تَلَاوَتَهُ!

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم من أفعال طائفة تأتي من بعدهم يقرؤون القرآن، غير أن القراءة لا تتعدى حناجرهم، وتبقى في حيز الأصوات بلا عمل،

(١) أي: فقدتك، وأصله الدعاء بالموت، ثم يستعمل في التعجب.

انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي (٤٤٩/٧).

(٢) رواه الترمذي (٣١/٥) (٢٦٥٣)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧/٢) (ح٢١٣٦).

(٤) المصدر نفسه (٢١/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/٢).

فقال: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تَخْفِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَفْرُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوفَهُمْ، أَوْ حَتَّاجِرُهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

ثانياً: وجوب العمل بالقرآن:

يترتب على كون القرآن العظيم كلام الله تعالى وجوب العمل بما ورد فيه، وما دل عليه من أحكام، وحرمة العدول عنه إلى غيره.

ومن اعتقد جواز مخالفة القرآن فيما دل عليه من أحكام فقد كفر؛ لأنه أجاز مخالفة الله ﷻ، وإجازة مخالفة سبحانه ردة واضحة؛ لأنها تعني أن يُرد على الله كلامه^(٢).

يقول ابن حزم رحمته الله: «ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله إلينا، والذي أئزمتنا الإقرار به، والعمل بما فيه... وجب الانقياد لما فيه، فكان هو الأصل المرجوع إليه...»

ولا خلاف بين أحد من الفرق المنتمية إلى المسلمين من أهل السنة، والمعتزلة، والخوارج؛ والمرجئة، والزيدية، في وجوب الأخذ بما في القرآن^(٣).

ويقول أيضاً: «فالكل مأمورون باتباع قرآنه... فمن أجاز خلاف ذلك فقد أجاز خلاف الله تعالى، وهو ردة صحيحة لا مزية فيها»^(٤).

هجر العمل بالقرآن له حالان:

وينبغي أن يُفَرَّقَ: بين من يُخالف أحكام القرآن، وهو لا يعتقد أن غيرها خير منها، ولا يُفَرِّقُ بِجَوَازِ مُخَالَفَتِهَا، وبين من يُخالف أحكام القرآن، من مُنْطَلَقِ عِلْمِ صَلَاحَتِهَا، وأنه يجوز العدول عنها إلى غيرها.

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (٤/٢١٦٤) (ح٦٩٣١).

(٢) انظر: أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي (١/٤٢٢، ٤٣١).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/٩٢). (٤) المصدر نفسه (٤/٥٥٢).

فالأوّل: خاص، وليس كافرًا؛ لأنّه لا يعتقد جواز مخالفة الله ﷻ في أحكامه، ولا أنّ غيرها خير منها. مع أنّه مُقصر في عدم الالتزام بها.
والثاني: كافر مرتد؛ لأنّه يعتقد أنّ أحكام الله لا يجب العملُ بها وتطبيقها، لعدم صلاحيتها، وأنّ غيرها خير منها^(١).

ثالثًا: الأدلّة على وجوب العمل بالقرآن:

وردت آيات عدّة في كتاب الله تعالى تُوجِبُ العملَ به، ومنها ما يأتي:
١ - قوله تعالى: ﴿إِنِّع مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ وأُمَّته مِنْ بعده أن يقتدي بكتاب الله تعالى، ويقضي أثره، ويعمل به؛ لأنه حقٌّ لا مرية فيه مِنْ واحدٍ أحد^(٢).
وأمره تعالى كذلك ألا يشغل قلبه وخاطره بهؤلاء المشركين المعاندين، وليشتغل بعبادة الله تعالى واتّباع ما أوحى إليه^(٣).

قال ابن عاشور رحمته: «والاتباع في الأصل اقتفاء أثر الماشي، ثمّ استعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَسَنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠].
ثمّ استعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع، فهو الاتّمار،...
فيجوز أن يكون الاتّباع في الآية مراداً به دوام الامتثال لما أمر به القرآن^(٤)».

ولا ريب أنّ النبي ﷺ قد اتّبع ما أوحى إليه من ربه خير اتّباع، وأولى القرآن العظيم كلّ عناية وتقدير، ودعا النَّاسَ كافةً إلى الله تعالى، وشملت دعوته المباركة جميع الأوقات والأزمان، وكافة الظروف والأحوال، فجزاه الله تعالى خير ما جرى به جميع الأنبياء عن أممهم.

(١) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص ٣٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٦٤/٢)؛ تفسير البغوي (١٢١/٢)؛ تفسير السمرقندي (٤٩٢/١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦٠/٧)؛ فتح القدير (١٥٠/٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥٨/٦ - ٢٥٩).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْمُخْذِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وفي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ باتباع الوحي والتزويل، فإن أصابه مكروه بسبب هذا الاتباع، فليصبر عليه إلى أن ﴿يَخُذَ اللَّهُ﴾ فيه بالحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُخْذِينَ﴾^(١).

والمعنى: تمسك بما أنزله الله إليك، واثبت على العمل بمقتضاه، واصبر على مخالفة الناس لك، حتى يفتح الله بينك وبينهم بحكمه، وعدله، ورحمته، وهو خير الفاتحين^(٢).

قال السعدي رحمه الله - في تفسير الآية: «﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾ علماً، وعملاً، وخالاً، ودعوةً إليه. ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أغلى أنواع الصبر، وأن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دم على ذلك، واثبت. ﴿حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُخْذِينَ﴾ فإن حكمه، مشتمل على العدل الثام، والقسط الذي يُحمد عليه. وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان^(٣).

٣ - قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أمر الله تعالى الناس جميعاً أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، وهو كتاب الله تعالى فيحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويمتلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، ولا يخرجوا عما جاءهم به الرسول ﷺ إلى غيره، ليكونوا قد عللوا عن حكم الله ﷻ إلى حكم غيره. ودلت هذه الآية الكريمة: على ترك اتباع الآراء، مع وجود النص، من كتاب أو سنة^(٤).

قال السعدي رحمه الله - في تفسير الآية: «﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم﴾ أي: الكتاب

(١) انظر: الضير الكبير (١٧/١٤٠ - ١٤١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٣٦). (٣) تفسير السعدي (٢/٣٨٤ - ٣٨٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/١٦١)، تفسير ابن كثير (٣/٤٣٠).

الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يُتِمَّ تربيته لكم،
فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن أثبتموه، كملت تربيتكم، وتمت عليكم
النعمة، وهُدِيتُمْ لأحسن الأعمال والأخلاق، ومعاليها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون
لأجلها الحق.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكركم وعرفتم المصلحة، لما آثرتم الضار على
النافع، والعدو على الولي^(١).

٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا أَحْسَنَ مَّا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَكُمُ الْمَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

ولا ريب أن القرآن العظيم أحسن ما أنزل إلينا من ربنا تبارك وتعالى، فله
الحمد والمنة، والسنة مينة له وموضحة، لكن هذه النعمة الجليلة تستوجب الشكر
العملي لا الشكر اللفظي، فقد هدد من لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا بقوله
تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

قال ابن عطية رحمته: «معناه أن القرآن العزيز تضمن عقائد نبوية، وأوامر
ونواهي منجية، وعِدَاتٍ على الطاعات والبرِّ، وحدوداً على المعاصي، ووعيداً
على بعضها، فالأحسن أن يسلك الإنسان طريق التفهم والتحصيل، وطريق
الطاعة، والانتهاز والعفو في الأمور، ونحو ذلك، فهو أحسن من أن يسلك طريق
الغفلة والمعصية، فيجد أو يقع في الوعيد»^(٣).

فالمقصود إذاً من إنزال القرآن العظيم: العمل بمقتضاه، لا تلاوته باللسان
وترتيله فقط، ثم نبذ بعد ذلك، كما فعل ذلك فريق من عصاة أهل الكتاب،
فَدَمَّهم الله تعالى على فعلهم الشنيع، وشَهَّرَ بهم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِّن عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّؤُا بِرِيبٍ مِّنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ أَتَىٰ
وَرَاءَهُمْ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

(٢) انظر: أضواء البيان (٧/٣٠٠ - ٣٠١).

(١) المصدر السابق (٢/٩٥ - ٩٦).

(٣) تفسير ابن عطية (٤/٥٣٧).

أي: اطرح طائفةً منهم كتابَ الله الذي بأيديهم، ممَّا فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، وتركوا العمل به.

وأصلُ التَّبِيدِ: الطَّرْحُ والإلقاء، ومنه سُمِّيَ اللَّقِيطُ مَتَّبِوْدًا، ومنه سُمِّيَ النَّبِيدُ، وهو الثَّمَرُ والزَّيْبُ إذا طُرِحَا في الماء^(١).

فالله تعالى أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ كِتَابِهِ وَالْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهُ، لَكِنَّا - ويا للأسف - تركناه كما تركت اليهود والنصارى - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى.

فبقيت أشخاص المصاحف لا يُبَالَى بما فيها من كلام الله تعالى وأوامره العظيمة؛ لغلبة جهلنا، ولطلب الرياسات، ولاتباع الأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢).

والماتمل في الآيات السابقة، يلحظ أمرين مهمين:

١ - الأيتان الأولى والثانية جاءتا بلفظ: «أَتَّبِعْ» وهو أمر من الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والسنة، والأمر له أمر لأمته من بعده، ولا مُخَصَّصَ لِلْأَتْبَاعِ.

٢ - الأيتان الثالثة والرابعة جاءتا بلفظ: «وَأَتَّبِعُوا» وهو أمر مباشر من الله تعالى إلى الناس جميعاً بالاتباع، وترك إظهار الوساطة في الأمر - وهو الرسول ﷺ - لتقوم على الناس الحججة، فلا يأتي متفلسف ومتأول ليقول: إن الأمر للرسول ﷺ ليس أمراً لأمته، فهكذا قطع عليهم الطريق، والأمر يقتضي الوجوب، كما هو المعلوم من لغة العرب، ولا صارفت له.

فهذا يدل دلالة واضحة على وجوب اتباع كتاب الله تعالى، والعمل بمقتضاه.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٣٧).

المبحث الثاني

فضائل العمل بالقرآن

أعظم جزاء ينتظر العامل بالقرآن العظيم هو الجنة. والجنة درجات، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢].

أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عملِهِ، يُبَلِّغُهُ اللهُ إِيَّاهُ، وَيُثِيبُهُ بِهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا^(١).

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أهدَمَهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللهُ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَهْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٢).

وقد وَعَدَ اللهُ تعالى مَنْ عَمِلَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر سبحانه عن فلاح مَنْ تَمَسَّكَ بِعَهْدِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا فِي الْعَاجِلَةِ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَحْسَنِ الْجَزَاءِ، وَهَذَا بَعَكْسٌ مِّنْ لِهَ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْبُرْزَخِ، وَنَسِيَانِهِ فِي الْعَذَابِ بِالْآخِرَةِ»^(٣).

ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياةً طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط أكثر الناس في مسمى الحياة حيث يظنونها التثعم في أنواع المآكل

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٨٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله (٢/٨٦٤) (ح: ٢٧٩٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (ص: ٤٤).

والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال، والتفتن بأنواع الشهوات.

ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين الإنسان وبين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فأين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورزقي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو منشرح الصدر، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح ب صدره ويقول: فزت ورب الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتى يلقى قوته من يده، ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى أكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقول الآخر - مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيف، ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً، وربما قال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب^(١).

وفضائل العمل بالقرآن العظيم كثيرة ومتنوعة، بعضها في الدنيا، وبعضها في الآخرة، ومنها ما يأتي:

١ - الهداية في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

فهذا أمر تكريم من الله ﷻ لنبيه الكريم محمد ﷺ أن يبشر الذين يستمعون القرآن، ثم يقودهم هذا الاستماع، إلى العمل به وتطبيقه.

وفي معنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قولان:

الأول: يستمعون القول على العموم، فيتبعون القرآن؛ لأنه أحسن الكلام.

الثاني: أن ﴿الْقَوْلَ﴾ هو القرآن. أي: يستمعون القرآن، فيتبعون بأعمالهم أحسنه من العفو، والصفح، واحتمال الأذى، الذي هو أحسن من الانتصار،

(١) انظر: المصدر نفسه (ص ٣٥ - ٣٦).

ونحو ذلك^(١). كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَابَتْ لَهُمْ أَعْيُنُهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا بِمَا عُرِضَتْ بِهِمْ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

ومعنى قوله: ﴿أَوَّلَيْكَ الَّذِينَ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ﴾: أي: المُتَّصِفُونَ بهذه الصِّفَةِ الجَلِيلَةِ - وهي العمل بكتاب الله - هم الذين هداهم الله تعالى للذِّينِ الحَقِّ، ومحاسن الأمور، فهداهم لأحسن الأخلاق والأعمال، وَضَمِنَ لَهُمُ أَلَّا يَضَلُّوا فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقُوا فِي الآخِرَةِ بِسُوءِ الحِسَابِ.

قال ابن عباسي رضي الله عنه: «ضَمِنَ اللهُ تَعَالَى لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَلَّا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ هُدَىٰ فَمِنَ آتِيجٍ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]^(٢).

وقال أيضاً: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ، هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الحِسَابِ». ثُمَّ تَلَا الآيَةَ نَفْسَهَا^(٣).

ومعنى قوله: ﴿وَأَوَّلَيْكَ هُمُ أَوْلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾:

«أي: هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم، ومنازعة الهوى، المستحقون للهداية لا غيرهم، وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى، وقبول النفس^(٤)».

فالذي لا يُمَيِّزُ بَيْنَ الأَقْوَالِ حَسَنِيهَا وَقَبِيحِيهَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ العُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَالَّذِي يُمَيِّزُ لَكِنْ شَهْوَتُهُ تَغْلِبُهُ أحياناً، فَيَبْقَى عَقْلُهُ تَابِعاً لَشَهْوَتِهِ، كَانَ نَاقِصَ العَقْلِ.

فهؤلاء أهل العقول الرَّاكِيَةِ، وَالْفِطْرُ المَسْتَقِيمَةُ مِنْ لُبِّهِمْ وَحَزْبُهُمْ عَرَفُوا الحَسَنَ وَغَيْرَهُ، فَاتَّرَوْهُ، وَتَرَكَوْهُ مَا سِوَاهُ، فَهَذِهِ عِلْمَةُ العَقْلِ الصَّحِيحِ، نَسَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ^(٥).

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٣/١٩٣).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية (٤/٥٢٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/٢٧٥)، تفسير ابن كثير (٤/٤٩).

(٤) تفسير أبي السعود (٧/٢٤٨). (٥) انظر: تفسير السعدي (٤/٣١٦).

٢ - الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ قَاتِبٌ وَأَنْقُورٌ لَكُمْ تُرْمَوْنَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

هذه الآية الكريمة تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ اقصرَّ سبيلٍ وأوضحه لنيل رحمة الله تعالى، هو اتباع هذا الكتاب العظيم، علماً وعملاً.

ومعنى الآية: إنَّ ﴿هَذَا﴾ الذي نُلتِيت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ لكثرة منافع الدُّنْيَا والدُّنْيَوِيَّةِ.

والفاء في قوله تعالى: ﴿قَاتِبٌ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ عظمة هذا الكتاب، وكونه منزلاً من الله جلُّ جلاله، وفيه ما فيه من المنافع الدُّنْيَوِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، هذا كُلُّه موجب لاتباعه، والعمل به^(١).

قال ابن عاشور **تَلَفُّهُ**: «وافتح الجملة باسم الإشارة، وبناء الفعل عليه، وجعل الكتاب الذي حَقُّه أن يكون مفعول ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ مبتدأ، كُلُّ ذلك للاهتمام بالكتاب والتثويه به...»

وتفريع الأمر باتباعه على كونه مُنَزَّلاً من الله، وكونه مباركاً، ظاهر: لأنَّ ما كان كذلك لا يتردد أحد في اتباعه...

ومعنى: ﴿أَنْقُورٌ﴾ كونوا مُتَّصِفِينَ بِالتَّقْوَى. وهي الأخذُ بِدِينِ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِهِ.

وفي قوله: ﴿لَكُمْ تُرْمَوْنَ﴾ وَحَدُّ عَلَى اتِّبَاعِهِ، وتعريضٌ بِالوَعِيدِ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ^(٢).

فهذا ترغيب من الله تعالى لعباده، أن يتبعوا هذا الكتاب المبارك، ويعملوا به؛ رجاء أن تنالهم رحمته في الدنيا والآخرة.

٣ - الْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

قال الله تعالى: ﴿قَالِيبٌ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّجِبُوا الْوَدَى الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٢٠١/٣). (٢) التحرير والتنوير (١٣٣/٧).

فقد شبّه الله تعالى القرآنَ بالنور الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهرُ في ضوئه الحقُّ، ويتميز عن الباطل، ويُميز به بين الهدى والضلال، والحسن والقيح. وشبّه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال الساري في الليل؛ إذا رأى نوراً يلوح له أتبعه، لإعلمه اليقيني أنه يجد عنده منجاةً من المخاوف وأضرار السير.

فيجب على كلِّ مسلم أن يستضيء بنور القرآن العظيم، فيعتقد عقائده، ويحلُّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويمتثل أوامره، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله، ولا ينبغي لمسلم بعد هذا كُله أن تعمى بصيرته عن هذا النور العظيم^(١).

فمن استجاب لهذا النور، وأتبعه، وعمل بما فيه، فهو المفلح الفائز بالمطلوب في الدنيا والآخرة، الطافر بخيريهما والتأجي من شرهما، نسال الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين.

٤ - تكفير السيئات وإصلاح البال:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ حَقِّهِ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم، وبواطنهم، وظواهرهم»^(٢).

﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ حَقِّهِ﴾ هذا من عطف الخاص على العام. قال سفيان الثوري ثقة: «يعني لم يخالفوه في شيء»^(٣). ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ «يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم، وقيل: أي أن القرآن هو الحق من ربهم، نسخ به ما قبله»^(٤).

وثمره هذا الإيمان الصحيح، وهذا الاتباع الكامل للقرآن، والعمل به، أمران عظيمان:

أولهما: تكفير السيئات:

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ «صغارها وكبارها، وإذا كُفرت عنهم سيئاتهم نجوا من

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٨٠)؛ التحرير والتنوير (٨/٣١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٧٣).

(٣) تفسير البغوي (٤/١٧٧).

(٤) تفسير القرطبي (١٦/٢٢٤).

عذاب الدنيا والآخرة^(١). «وقيل: سترَ بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها وتوبتهم»^(٢).

ثانيهما: إصلاح البال:

«وَأَسْلَحَ بِكُلِّمْ» أي: «أصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة أن أورثهم نعيم الأبد، والخلود الدائم في جناته»^(٣).

وقيل: «أصلح دينهم، ودنياهم، وقلوبهم، وأعمالهم، وأصلح ثوابهم بتتميته وتركيبته، وأصلح جميع أحوالهم»^(٤).

ولا ريب أن إصلاح البالِ نعمةً كبرى، ومِنَّةٌ عظيمة، تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. وفي ذلك اطمئنان لهم، وراحة كبيرة، وثقة بالله تعالى في ثوابهم العاجل والأجل.

ومتى صلح البال، استقام السلوك والعمل، واطمأن القلب، وتنزلت عليه السكينة، ورضيت النفس، واستتمت بالأمن والإيمان، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع^(٥).

والسبب المباشر لهذا الجزاء المبارك أنهم: «اتَّبَعُوا لِمَنْزِلِ رَبِّهِمْ» [محمد: ٣]. أي: أنهم عملوا بهذا القرآن العظيم الصادر «مِنْ رَبِّهِمْ» الذي ربَّاهم بنعمته، ودبرهم بلطفه، فربَّاهم تعالى بالحق فاتبعوه، فعند ذلك صلحت أمورهم. فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحةً باقيةً ثوابها^(٦).

فهذه هي بعض فضائل العمل بالقرآن العظيم، وحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن العمل بكتابه، وحسن الجزاء على ذلك، إنه سميع مجيب.

(١) تفسير السعدي (١/٧٨٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٦/٣٩).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٦/٣٢٨١).

(٤) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٥) الكشاف (٤/٣١٩).

(٦) تفسير السعدي (١/٧٨٤).

المبحث الثالث

النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن

إن خير من عمل بكتاب الله تعالى، وطبقه في ظاهره وباطنه، وأصبح خلقاً له هو نبينا وقدوتنا محمد ﷺ، الذي أنشأ الله تعالى على خلقه ونعته بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَمَنَّ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد بيئت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الآية أوضح بيان، عندما سألتها سعد بن هشام بن عامر فقال لها: «يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألسنت تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»^(١).

قال النووي رحمته الله: «معناه: العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بأدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته»^(٢).

وقال ابن كثير رحمته الله - في تفسير الآية: «ومعنى هذا أنه ﷺ، صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين^(٣) عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين. فما قال لي: أف

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٥١٣/١) (ح٧٤٦).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٦٨/٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: حُسن الخلق والشجاء (١٩٠٨/٤) (ح٦٠٣٨) ومسلم، كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً (١٨٠٤/٤) (ح٢٣٠٩).

قَطًّا، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَهُ. وَكَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا^(١).

وخلاصة القول: إنَّ جميع ما فُضِّلَ في القرآن العظيم من مكارم الأخلاق، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان مُتَحَلِّيًا بِهِ^(٢).

ولم يقتصر ﷺ على ذلك، بل كان يَحُثُّ أصحابه الكرام، وأُمَّته من بعدهم على العمل بالقرآن العظيم، ويؤكد على ذلك بصور مختلفة، مرَّةً بالترغيب في ثواب العمل بالقرآن، وأخرى بالترهيب من معبَّة ترك العمل بالقرآن، ومن أقواله المباركة في ذلك ما يأتي:

١ - عن الثَّوَالِيسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقَدَّمَهُ^(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالْجُمُرَانِ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَثْنَالٍ، مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: «كَانَهُمَا هَمَامَتَانِ^(٤) أَوْ ظَلَّتَانِ سَوْدَاوَلَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقُ^(٥)، أَوْ كَانَهُمَا حِرْزَانِ^(٦) مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ^(٧)، تُحَاجَّانِ عَنِ صَاحِبَيْهِمَا^(٨)».

(١) تفسير ابن كثير (١٦٤/٨).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٥٤/٤).

(٣) تَقَدَّمَهُ: تَقَدَّمَهُ.

(٤) وفي رواية أخرى عند مسلم: «كَانَهُمَا هَمَامَتَانِ». قال أهل اللغة: الغمامة والغبابة كلُّ شيء أظلم الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. قال العلماء: المراد: أنَّ ثوابهما يأتي كغمامتين. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢٣١/٦).

(٥) (بَيْنَهُمَا شَرْقُ): هو بفتح الرَّاءِ، وإسكانها. أي: ضياء ونور. وممن حكى فتح الرَّاءِ وإسكانها: القاضي وآخرون. والأشهر في الرَّوَايةِ واللُّغَةِ الإسكان.

(٦) وفي رواية أخرى عند مسلم: «أَوْ كَانَهُمَا فِرْزَانِ». الفِرْزَانِ والحِرْزَانِ، معناهما واحد. وهما قطيعان وجماعتان. يُقال في الواحد: فرق وحزق وحزيفة.

(٧) (مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ): جمع صَافَةٌ، وهي من الطُّيور ما يسط أجنتها في الهواء.

انظر: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على مسلم (٥٥٣/١).

(٨) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/٥٥٤) (ح ٨٠٥).

فالقرآن العظيم يشفع لصاحبه الذي كان يعمل به في الدنيا، وفي مقدمة ذلك سورة البقرة وآل عمران، تتقدّمان في الشفاعة، والدُّود عن حافظهما، والعامل بهما خصوصاً؛ لكثرة ما تحويان من أحكام وأمر عظام. وهذا من أعظم فوائد العمل بالقرآن^(١).

٢ - عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأَ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأَثْرُجَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأَ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالثَّمَرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأَ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأَ الْقُرْآنَ كَالجَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ، أَوْ خَيْبٌ، وَرِيحُهَا مُرٌّ»^(٢).

في هذا الحديث تبيّن لنا فضيلة حافظ القرآن العامل بما فيه، وأنّ المقصود من التلاوة هو العمل بما دلّ عليه القرآن، لا مجرد تلاوته^(٣).

قال ابن بطّال رحمته الله - في شرحه للحديث: «قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله، ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه، وكان على نيّة التقرّب. وشبّهه بالريحانة حيث لم يتنفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت، وهو الحلق، ولا اتصل بالقلب»^(٤). الذي هو موطن الاعتبار، فكيف يعمل بالقرآن من هذا حاله^(٥).

فالقرآن العظيم لا تفتح أسراره، ولا يتنفع به إلا من يعمل به، ويتحرّك به؛ لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرؤه لمجرد الثبرك! أو الدّراسة الفنيّة أو العلميّة!، أو لمجرد تتبّع الأداء البياني فيه!

فالقرآن العظيم لم يتنزّل ليكون مادة دراسة على هذا النحو؛ إنّما تنزّل

(١) انظر: هذا القرآن في مائة حديث نبوي، د. محمد زكي محمد خضر (ص ٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: إنّ من رآه بقراءة القرآن، أو تأكل به، أو فجزّ به (١٦٢٨/٣) (ح ٥٠٥٩).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٥).

(٤) المصدر نفسه (١٣/٦٥٧).

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٣).

ليكون مادة عمل وتوجيه^(١).

٣ - سُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَوْصَى؟ فَقَالَ: لَا، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الْوَصِيَّةُ، أَوْ أُبْرُوا بِالْوَصِيَّةِ؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللَّهِ^(٢).

قال ابن حجر رحمته الله: «أي: بالتمسك به، والعمل بمقتضاه»^(٣).

وقال أيضاً: «فإذا أتبع الناس ما في الكتاب؛ عملوا بكل ما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم به، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]»^(٤).

ولهذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوصي أمته من بعده بأفضل من اتباع كتاب الله؛ لكونه أعظم وأهم من المال والخلافة - على أهميتهما - فمن أتبع كتاب الله لن يضل أبداً، بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي قال فيه: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتكم به لئن تضلوا بغدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وهديتي أهل بيبي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٥).

وأخرجه مسلم من وجوه آخر وألفظه:

«ألا أيها الناس! فإنما أنا بشرٌ بوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين^(٦): أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به» فحث على كتاب الله، ورغب فيه^(٧).

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/١٩٤٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب: الوصية (٢/٨٤٢) (رقم ٢٧٤٠).

(٣) (٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥/٤٤٣).

(٥) رواه الترمذي (٥/٦٦٣) (ح ٣٧٨٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/٢٢٧) (ح ٢٩٨٠).

(٦) (ثقلين): سُميا ثقلين: لعظمتها وكبير شأنهما. وقيل: لثقل العمل بهما.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٨١).

(٧) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤/١٨٧١) (ح ٢٤٠٨).

فكتاب الله تعالى إن عمل به الناس واستمسكوا به، كفاهم كل شيء، قال تعالى: ﴿أَوْزَرَ بِكَيْبِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُذَكَّرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن شافعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاجِلٌ^(١) مُصَدِّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَةً إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»^(٢).

ومعنى الحديث: أن من اتبع القرآن وعمل بما فيه، فإنه شافع له مقبول الشفاعة، في العفو عن زلاته وسقطاته، فمن جعله أمامه بالعمل به، قادة إلى الجنة. ومن ترك العمل به، وجعله خلف ظهره، أئيم على إساءته، ومُصَدِّقٌ عليه فيما يُرْفَعُ مِنْ مَسَاوِيهِ، وعند ذلك يسوقه إلى النار^(٣).

فهذه الأحاديث تدلُّ دلالة واضحة، على وجوب اتباع القرآن العظيم، والعمل به، فأين نحن من هذه التحذيرات النبوية المباركة، حتى نفوز بسعادة الدنيا والآخرة. اللهم اجعل هذا القرآن حُجَّةً لنا، لا علينا.

- (١) (ماجِلٌ): أي مُجَادِلٌ ومُدَافِعٌ، وقيل: ساع مُصَدِّقٌ، من قولهم: محل فلان إذا سعى به إلى السلطان. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣٠٣/٤)، مادة: (مجل).
- (٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/١٠٤٥٠)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٨/٤)؛ وابن عدي في «الكامل» (١٢٧/٣) عن ابن مسعود.
- ورواه ابن حبان في «صحيحه» (١٦٧/١)؛ والبيهقي في «الشعب» (٢٠١٠/٢) عن جابر؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨١٨/٢) (ح ٤٤٤٣)؛ و«الصحیححة» (٣١/٥) (ح ٢٠١٩).
- (٣) انظر: فيض القدير (٤٣٩٩/٨)، النهاية في غريب الحديث (٣٠٣/٤)، مادة: (مجل).

الصحابة رضي الله عنهم يتواصلون بالعمل بالقرآن

اقتنى الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً ومن تبعهم بإحسان هذا النهج القويم، فكانوا يتواصلون فيما بينهم على أهمية العمل بكتاب الله تعالى، والحذر من ترك العمل به، ومن وصاياهم المباركة في ذلك ما يأتي:

١ - قال عمر رضي الله عنه: «لا يغررُكم من قرأ القرآن؛ إنما هو كلام نتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به»^(١).

٢ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا»^(٢).

٣ - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول: قد علمت فما عملت فيما علمت»^(٣).

٤ - عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يا معشر القراء^(٤) استقيموا^(٥)، فقد سبقتم سبقاً بعيداً»^(٦).

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص ٧١) (رقم ١٠٩).

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (١١٥/١) (رقم ٣٦٦)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٥/٧) (رقم ٣٤٥٤٧)؛ والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص ٢٣) (رقم ١٠)، وقال مُحققه (العلامة الألباني): «موقوف حسن».

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص ٤١) (رقم ٥٣)، وقال مُحققه: «موقوف حسن الإسناد».

(٤) (القراء): جمع قارئ، والمراد بهم العلماء بالقرآن والسنة العباد.

(٥) (استقيموا): أي اسلكوا طريق الاستقامة، وهو كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلاً وتركاً.

(٦) (فقد سبقتم سبقاً بعيداً): أي ظاهراً، ووصفه بالبعد؛ لأنه غاية شأ السابقين، والمراد أنه خاطب بذلك من أدرك أوائل الإسلام، فإذا تمسك بالكتاب والسنة سبق إلى كل خير؛ لأن من جاء بعده إن عمل بعلمه لم يصل إلى ما وصل إليه من سبقه إلى الإسلام، ولأفوه أبعد منه حساً وحكماً.

فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا^(١)، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا^(٢).

٥ - قال الفضيل بن عياض^(٣) **كَلَّفَهُ**: «إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا. قِيلَ: كَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟ قَالَ: أَيُّ لِيُجْلُوا حَلَالَهُ، وَيُحْرَمُوا حَرَامَهُ، وَيَأْتِرُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَسْتَهُوا عَنْ نَوَاهِيهِ، وَيَقْفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ^(٤)».

وبمقدار العمل بالقرآن، وتطبيقه في واقع الحياة، والاهتداء بهديه، يكون الأجر، وهذا ملحوظ حتى في قوانين البشر الناقصة، فكيف بكلام الله تعالى، الذي يصفه ﷺ بقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]. ويقول تعالى عنه: ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وَمَبَّ أَنْ رَجُلًا حَفِظَ قَانُونَ بَلِيهِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، ثُمَّ هُوَ يُخَالِفُ هَذَا الْقَانُونَ، وَلَا يِيَالِي بِتَطْبِيقِهِ وَالِاتِّزَامَ بِهِ، فَهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، أَوْ يَقْبَلُ مِنْهُ؟ أَوْ طَبِيبًا تَعَلَّمَ قَوَانِينَ الطَّبِّ وَفَهَمَهَا وَوَعَاهَا، ثُمَّ عَالِجُ الْمَرْضَى بِخِلَافِ مَا تَعَلَّمَ، فَمَاذَا تَكُونُ النَّتِيجَةُ؟

فإذا كان هذا ملاحظاً في القوانين الاجتهادية الأرضية، فما الظن بكتاب الله، الذي يُتَعَبَّدُ بتلاوته وبسماحه وبتدارسه؟ ولا يكتمل هذا التَّعَبُّدُ، والأجر المُتَرْتَّبُ عليه، إلا إذا تلازم مع العمل والتطبيق.

وما يُجَدِّي مسلماً حفظ سورة النور بأكملها، ويعلم جزاء الزَّانِي والقاذف،

(١) (فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا): أي خالفتم الأمر المذكور، وكلام حذيفة رضي الله عنه متترج من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا جَزَائِلًا مِمَّنْ فَتَرَكْنَا مَا خَلْفَنَا وَأَنْحَرْنَا لَأَسْبَغْنَا فِي يَوْمِئِذٍ لِبَسَائِلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

جميع ما دُكِّرَ في شرح أثر حذيفة. انظره في: فتح الباري (٣١٦/١٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٤/٢٢٧٤) (رقم ٧٢٨٢).

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، الزاهد العابد المُجاوِر بحرم الله، ثقة، أخرج له البخاري ومسلم وغيرهما، ولد بسمرقند، وتوفي سنة (١٨٧هـ). انظر: وفيات الأعيان (٤/٤٧ - ٥٠)؛ تقريب التهذيب (١١٣/٢).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العزم بالعمل» (ص ٧٦) (رقم ١١٦).

فإذا هو يقترف هذه الكبائر عياداً بالله من ذلك! هل يُنجيه حفظه من العقوبة؟^(١).

ولقد أحسن القائل:

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ، وَلَمْ تُعَذَّرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلٌ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هَذَا فَلَيْتَمَا يُصَدِّقَ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ قَاعِلٌ^(٢)

وعوداً على ذي بدء: يتبين لنا مما تقدم أنَّ المقصود الأول من تعلم القرآن وحفظه وتدبره، هو العمل به.

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلَ بِهِنَّ»^(٣).

(١) انظر: أنوار القرآن (ص ٢١١).

(٢) انظر: اقتضاء العلم العمل (ص ٥٥).

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير (١/٣٦)، وقال مُحَقِّقُوهُ: «إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ».

مبحث الخامس

نماذج من عمل الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن

إِنَّ مَنْ يَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يَرَى عَجَبًا مِنْ الْعَجَبِ، فَلَمْ يَشْهَدْ التَّارِيخَ رَجَالًا عَقَدُوا عَزْمَهُمْ عَلَى تَنْفِيزِ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ، كَمَا شَهِدَ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، بَلْ كَانُوا يُقْبَلُونَ عَلَى الْقُرْآنِ إِقْبَالَ الطَّمَانِ عَلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ، يَتَلَوْنَ آيَاتِهِ وَيَتَدَبَّرُونَهَا، وَيَنْفِذُونَ أَحْكَامَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِمِثَابِهَا، وَيَعْمَلُونَ بِمَحْكَمِهَا، وَيَتَأَثَّرُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

* وَهَذِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْحَوَادِثِ تُشِيرُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ رضي الله عنهم وَسَعِيهِمْ لِلْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ امْتِثَالًا لِلْأَمْرِ، وَاجْتِنَابًا لِلنَّهْيِ:

١ - لَمَّا جَرَتْ حَادِثَةُ الْإِفْكِ، وَتَكَلَّمَ نَاسٌ فِي عَائِشَةَ الصَّدِيقَةَ رضي الله عنها كَانَتْ مِمَّنْ تَكَلَّمَ فِيهَا بِسَطْحِ بْنِ أُنَاثَةَ، وَهُوَ رَجُلٌ فَقِيرٌ ذُو قَرَابَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يُنْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ الْخَاصِّ، تَقُولُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رضي الله عنها فِي ضَمَنِ سِيَاقِ حَدِيثِ الْإِفْكِ: «... فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رضي الله عنه، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى بَسْطِحِ بْنِ أُنَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى بَسْطِحِ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالسَّكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعْتُ إِلَى الثَّفَقَةِ الَّتِي كَانَتْ تُنْفِقُ عَلَيَّ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا مِنْهُ أَبَدًا»^(١).

فَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لَمَّا قَرَأَ الْآيَةَ وَفَهَمَهَا عَمَلٌ بِمَا فِيهَا، وَأَعَادَ الثَّفَقَةَ عَلَى مَنْ

(١) رواه البخاري مُطَوَّلًا، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ (٣/ ١٤٨٨) (ح ٤٧٥٠).

تكلّم في عرضه وآذاه في ابنته زوج النبي ﷺ، بل حلف بالله تعالى ألا ينزع منه النفقة أبداً، فأين نحن من هذه الأخلاق العظيمة، والقذوات المباركة؟

٢ - عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلّكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعوا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قديم ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أخفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافاً، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بغد هذه الآية حتى يستغفمه^(١).

أي: حتى يستغفمه رسول الله ﷺ عدة مرات.

٣ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْحِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أُخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ الثَّغْرِ الَّذِينَ يُذَيِّبُهُمْ عُمَرُ ﷺ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّاناً.

فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أُخِيهِ: يَا ابْنَ أُخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ^(٢)، فَاسْتَأْذَنَ لِي عَلَيْهِ^(٣)، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تُحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ ﷺ حَتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...» الآية (٣/١٥٣٧) (ح ٤٨٤٥).

(٢) (هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ): هذا من جملة جفاء عينة، إذ كان من حقّه أن ينعته بأمر المؤمنين، ولكنه لا يعرف منازل الأكاابر.

(٣) (فَأَسْتَأْذِنُ لِي عَلَيْهِ): أي في خلوة، وإلا فعمر ﷺ لا يحتجب إلا وقت خلوته وراحته، ومن ثم قال له: (سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ)، أي: حتى تجتمع به وحده.

تعالى قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْقَوَّ وَأَمْرٌ بِالْمَرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْبُهْلِيَّةِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عَمْرُ ﷺ حِينَ تَلَّهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ ^(١)، ^(٢).

ليت الأئمة - حكاماً ومحكومين - تكون وقافة عند كتاب الله تعالى، إذا ذكروا تذكروا، كحال الفاروق ﷺ.

٤ - عن زيد بن ثابت ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَلَى عَلَيْهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَوْدَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِزُّ أُولِي الْقَصْرِ وَالْجَاهِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

فجاءه ابن أم مكتوم ﷺ وهو يبملها علي، قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ. وَكَانَ أَعْمَى. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَفَخَذَهُ عَلَى فِخْذِي، فَتَمَلَّتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فِخْذِي، ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عِزُّ أُولِي الْقَصْرِ﴾ ^(٣).

حتى صاحب العذر لم يعذر نفسه من الجهاد لاستشعاره أهمية العمل بالقرآن العظيم، وتنفيذ أوامره، فيأتي رسول الله ﷺ متوسلاً متأثراً، يحلف بالله العظيم أن لو ملك القدرة لخرج، حتى أكرمه الله تعالى وأنزل فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، في هذا الاستثناء لأصحاب الأعداء: ﴿عِزُّ أُولِي الْقَصْرِ﴾.

وإذا كانت هذه الطائفة من الحوادث قد عبرت عن مدى حرص الصحابة ﷺ على العمل بالقرآن واتباع ما فيه، فإنها تدل دلالة قطعية على عظمة تربيتهم أيضاً، ولكننا نلاحظ أنها لم تخرج عن كونها تُعبر عن صور لتصرفات فردية قام بها أصحابها ﷺ، ولكن هناك طائفة أخرى من الأخبار تُعبر عن عظمة التربية النبوية، وهي تربية جماعية، جاءت كلها مُعبّرة عن استجابة جماعية لأوامر الله تعالى، ومنها:

(١) (وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ): أي يعمل بما فيه ولا يتجاوز.

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٣١٧ - ٣١٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿خُذِ الْقَوَّ وَأَمْرٌ بِالْمَرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْبُهْلِيَّةِ﴾ (٣/١٤٢٠) (رقم ٤٦٤٢)، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٤/٢٢٧٤) (رقم ٧٢٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَوْدَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣/١٣٩٨) (ح ٤٥٩٢).

١ - عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنًا، وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبَلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ»^(١).

فهؤلاء الصُّحابة الكرام رضي الله عنهم لَمَّا سَمِعُوا مَنْ يُخْبِرُهُمْ بِآيَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ لَمْ يَنْتَهَوْا حَتَّى يَفْرغُوا مِنْ صَلَاتِهِمْ، بَلْ وُلُّوا وَجُوهَهُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَبَاشِرَةً؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَتَطْيِيقًا لِمَا جَاءَهُمْ فِي الْقُرْآنِ.

٢ - قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «مَا كَانَ لَنَا خَمْرٌ غَيْرَ فَضِيخِكُمْ هَذَا الَّذِي تَسْمُونَهُ الْفَضِيخَ، فَإِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ وَفُلَانًا وَفُلَانًا إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَهَلْ بَلَّغْتُمْ الْخَبِيرَ؟ فَقَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ، قَالُوا: أَهْرَقَ هَذِهِ الْقِلَالَ يَا أَنَسُ، قَالَ: فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا وَلَا زَاجِعُوهَا بَعْدَ خَبْرِ الرَّجُلِ»^(٢).

هرعوا رضي الله عنهم مَبَاشِرَةً إِلَى الْعَمَلِ وَالتَّطْيِيقِ، امْتِثَالًا لِلأَمْرِ وَاجْتِنَابًا لِلنَّهْيِ، وَأَهْرَقُوا دَنَانَ الْخَمْرِ، وَمَا رَجَعُوا إِلَيْهَا أَبَدًا.

٣ - عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «يَرْحُمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولَى، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. شَفَقْنَ مُرُوطَهُنَّ^(٣) فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»^(٤)،^(٥).

(١) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في القبلة (١٤٦/١) (ح ٤٠٣)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٣٧٥/١) (ح ٥٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿إِنَّا لَنَنظِرُكَ وَالنَّبِيَّ وَالْأَسْوَ وَالْأَرْقَمَ بِحَسَبِ مَنَ عَمَلِ النَّبِيِّ﴾ [المائدة: ٩٠] [١٤٠٨/٣] (ح ٤٦١٧).

(٣) (المُرُوطُ): جمع مرط، وهو الإزار، وقيل: هو كلُّ ثوبٍ غير مخيط، أي: شققن كساءهن. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦٢١/٨)؛ لسان العرب (٤٠/٧)، مادة: (مرط).

(٤) (فَاخْتَمَرْنَ بِهَا): أي غطين وجوههن، وصفة ذلك: أن تضع الخمار على رأسها، وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التَّقْنَعُ. قال الفراء: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها، وتكشف ما قدامها، فأمرن بالاستتار، والخمار للمرأة كالعمامة للرجل. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦٢١/٨).

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (١٤٩٢/٣) (ح ٤٧٥٨).

وفي رواية أخرى تقول عائشة رضي الله عنها: «أخذن أزرنهن فشققنهن من قبل الخواشي، فأخترن بها»^(١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: «لما نزلت ﴿يَدِينَكِ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ الْغُرَبَانَ مِنَ الْأَكْمِيَّةِ»^(٢).

وهكذا كانت نساؤهم، كرجالهم، يسارعن إلى امتثال أمر الله تعالى: ﴿وَلْيَصْرِقْنَ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُوبِهِنَّ﴾، وأمره تعالى: ﴿يَدِينَكِ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾. فلا ينتظرن شراء خُمُرٍ جديدة، ولا ينتظرن العودة للمنازل، بل يسارعن فيشققن مروطن ويلقبنها على جيوبهن رضي الله عنهم أجمعين.

(١) رواه البخاري، الكتاب نفسه، والباب نفسه (١٤٩٢/٣) (ح ٤٧٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٦١/٤) (٤١٠١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/

٧٧٣) (ح ٣٤٥٦).

الفصل التاسع

هجر التحاكم إلى القرآن

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن.
- المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن.
- المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.
- المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

المبحث الأول

أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن

إن الناظر في القرآن العظيم يجد أن الآيات التي تدلُّ على وجوب التحاكم إلى ما أنزل الله تعالى كثيرة، وقد وردت بأساليب متعدّدة في الدلالة على وجوب احتكام الناس جميعاً؛ حكماً ومحكومين إلى ما أنزل الله تعالى، وهي على النحو التالي:

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿إِن نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

خاطب الله تعالى المؤمنين في حالة اختلافهم في شيء من أمر دينهم فيما بينهم، أو فيما بين ولاة أمرهم - فتنازعوا في ذلك - أن يردّوا معرفة حكم ذلك المختلف فيه إلى كتاب الله تعالى، فإن وجدوا لله تعالى في كتابه حكماً اتبعوه، وإلا ففي سنة رسول الله ﷺ. فهذا هو علامة التصديق بالله تعالى وباليوم الآخر^(١).

وفي الآية دليل «على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله، ولا باليوم الآخر»^(٢).

وكما أن الآية تُوجب التحاكم إلى شرع الله تعالى؛ على الراعي والرعية سواء، فإنها أيضاً تفيد تحريم التحاكم إلى غير شرع الله؛ لأن ما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ردّوا الخصومات والاختلافات

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٣٨٥).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٢٦٣).

إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فالإيمان لا يجيز الرد إلى غيرهما^(١).

ولا يعني ذلك أن نرد المتنازع فيه إلى ظواهر نصوص الكتاب والسنة فقط، بل المراد منه الرجوع إلى الشريعة بروحها ومقاصدها في صورتها الشاملة، كما فهمها السلف الصالح، وألا فإن حرفية النص التي يتمسك به أهل الظاهر، وجمود الفهم الذي يقف عنده أهل الغلو، ليس مراداً في ذلك^(٢).

وفي الآية «أمرٌ برّد كل ما تنازع الناس فيه - من أصول الدين وفروعه - إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ففيهما الفضل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما، أو إيماء، أو تنبيهاً، أو مفهوماً، أو عموم معنى يقاس عليه، وما أشبه ذلك»^(٣).

ويستفاد من الآية الكريمة عدة أمور، ومنها:

١ - أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام، ولا يُخرجهم ذلك عن الإيمان، إذا ردّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شرّطه الله عليهم.

٢ - أن قوله تعالى: «فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَكَوْنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ تَنْبِئُوا، أَوْ تَنْبِئُوا»^(٤) ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين، دقّه وجلّه، جليّه وخفيّه.

٣ - أن الناس أجمعوا على أن الرد إلى الله وإلى رسوله: إلى كتابه، وإلى الرسول نفيه في حياته، وسنته بعد وفاته.

٤ - أنه جعل الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين، فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتهي بانتفاء الآخر^(٥).

الآية الثانية:

قوله تعالى: «إِنَّمَا تَرَى إِلَى الْكُفْرِ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّامِنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٨٥)؛ أضواء البيان (١/٩٢ - ٩٣).

(٢) انظر: الحكم والنحاكم في خطاب الوحي (١/١٧١).

(٣) تفسير السملدي (١/٣٦٢).

(٤) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٥١ - ٥٣).

مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ
 أَن يُضِلَّهُمْ خَطْوًا بِعِيدٍ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَسَالَمُوا إِنَّا مَّا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ
 الْمُتَوَفِّيْنَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿النساء: ٦٠ - ٦١﴾.

معنى الطَّاغُوت:

أصل الطَّاغُوت: طَفَّوْتُ، من قول القائل: «طغى فلان يطغوه» إذا عدا قَدْرَه
 فتجاوز حدّه، كجبروت من التجبر، ثم نُقلت لأمه فجعلت عيناً، وحولت عينه
 فجعلت مكان لايه^(١).

ومعنى الطَّاغُوت في الاستعمال الشرعي: هو ما ذكره ابن جرير رَكَّبَهُ بأنّه:
 «كلُّ ذِي طَغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ، فَعَبْدٌ مِنْ دُونِهِ، إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عِبَدَهُ، وَإِمَّا بِطَاعَةٍ
 مِنْ عِبْدِهِ لَهُ، إِنْسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْبُودَ، أَوْ شَيْطَانًا، أَوْ وَثَنًا، أَوْ صِنْمًا، أَوْ كَاتِنًا
 مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ»^(٢).

والطَّاغُوت كلمة يراد بها المفرد أحياناً - كما في هذه الآية - ويراد بها
 الجَمْع في أحيان أخرى - كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ
 الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. والمعنى: أولياؤهم الطَّوَاغِيتُ^(٣).

ويلاحظ في الآية:

١ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَرْعَمُونَ﴾، أَي: يَدْعُونَ الْإِيمَانَ إِذْ لَوْ كَانُوا مِنْ
 أَهْلِ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، لَمَا تَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَدَلَّ عَلَى ادْعَائِهِمْ
 الْإِيمَانَ، وَهْمٌ كَاذِبُونَ.

قال ابن القيم رَكَّبَهُ: «فجعل الإعراض عمّا جاء به الرسول، والالتفات إلى
 غيره، هو حقيقة التَّفَاقُ»^(٤).

٢ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَجَّلَ عَلَى الْمُتَوَلِّينَ لِلطَّوَاغِيتِ، وَالْمُتَحَاكِمِينَ إِلَيْهِمْ،

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٣٠٨)، مادة: (طغى).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص ٣٠٨)؛ تفسير القرطبي (٣/٢٨٢).

(٤) مختصر الصواعق المرسلّة لابن القيم، لمحمد الموصلي (٢/٣٥٣).

وضف الكفر، في حين أن المطلوب منهم أصلاً الكفر بالطاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾. ومن لوازم الإيمان بالله تعالى، الكفر بالطاغوت، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والخلاصة:

أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ دَلَّتْ عَلَىٰ وَجوب التَّحَاكُمِ إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ عِلَّةٍ وَجوه:

- ١ - أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَرَضِيَ بِالْعِبَادَةِ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتَّبِعٍ، أَوْ مَطَاعٍ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^(١).
- ٢ - أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَىٰ الطَّاغُوتِ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ.

٣ - أَنَّ الْمُعْرَضَ عَنْ حُكْمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَدْ حُكِمَ بِنِفَاقِهِ، فَإِذَا ضَمَّ إِلَىٰ ذَلِكَ مَنَعَ النَّاسِ مِنَ التَّحَاكُمِ إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، كَانَ هُوَ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا^(٢).

٤ - اِعْتِبَارِ ادِّعَاءِ الْإِيمَانِ، مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَىٰ غَيْرِ شَرَعِ اللَّهِ، مَجْرَدِ زَعْمِ بَاطِلٍ.

٥ - أَنَّ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ تَكْلِيفٌ مَأْمُورٌ بِهِ.

٦ - أَنَّ إِرَادَةَ التَّحَاكُمِ إِلَىٰ الطَّاغُوتِ نَاتِجَةٌ عَنِ إِرَادَةِ الشَّيْطَانِ الْإِضْلَالِ لِأَوْلَادِكَ الْمُتَحَاكِمِينَ إِلَيْهِ^(٣).

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(١) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٤٩ - ٥٠)؛ فتاوى اللجنة الدائمة (١/٥٤٢).

(٢) انظر: الحكم بنير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود (ص ٨٥).

(٣) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٧٣).

التحاكم إلى شرع الله مرتبط بالإيمان ارتباط السبب بالمسبب، فالمؤمنون مؤمنون؛ لإسلامهم وتسليمهم بحكم رسول الله ﷺ، الذي يحكم به عن وحي الله، والكافرون كفار؛ لإيمانهم واستسلامهم - قلباً وقالباً - لشرائع الطواغيت، وهذه قضية من مسلمات هذا الدين، التي أكدها الله تعالى في كتابه، بل أقسم في الآية عليها، وأكدها بمؤكدات كثيرة، مما يثبت ويؤكد: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع أموره^(١).

والآية الكريمة صريحة في منطوقها: في إفادة أن التحاكم إلى ما أنزل الله، من الواجبات التي يختل الإيمان بالإخلاق بها، ويستتقص بالانتقاص منها^(٢).

قال ابن القيم رحمته عن هذه الآية: «أقسم سبحانه بتفسيه المقدسة، قسماً مؤكداً بالتفي قبله، على عدم إيمان الخلق، حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم، من الأصول والفروع، وأحكام الشرع، وأحكام المعاد، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم، حتى ينتفي عنهم الحرج - وهو ضيق الصدر - وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً، حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم، وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة والاعتراض»^(٣).

ولنستمع إلى كلام نفيس ودقيق للشوكاني رحمته عند تفسيره للآية نفسها، حيث قال: «وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشع له الجلود، وترجف له الأفئدة، فإنه أولاً أقسم سبحانه بتفسيه، مؤكداً لهذا القسم بحرف التفي بأنهم لا يؤمنون، فنفي عنهم الإيمان - الذي هو رأس مال صالح عباده الله - حتى تحصل لهم غاية؛ هي تحكيم رسول الله ﷺ».

ثم لم يكتب سبحانه بذلك، حتى قال: «ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتُمْ» فضم إلى التحكيم أمراً آخر، هو عدم وجود حرج، أي: حرج في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافياً، حتى يكون من صميم القلب، عن رضى واطمئنان، وانتلاج قلب، وطيب نفس.

(٢) انظر: المصدر السابق (١/١٧٨).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢١١).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص ٢٧٠).

ثم لم يكتب بهذا كله، بل ضمَّ إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ أي: يُذعنوا وينقادوا ظاهراً وباطناً.

ثم لم يكتب بذلك، بل ضمَّ إليه المصدر المؤكَّد فقال ﴿تَسْلِيماً﴾ فلا يثبت الإيمان لعبيد، حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قُضي عليه، ويسلم لحكم الله وشرعه، تسليماً لا يخالطه ردُّ، ولا تشوبه مخالفة^(١).

والآية الكريمة تربط التَّحَاكِمَ بالذَّهْنِ كُلِّهِ، من إسلام وإيمان وإحسان: «فالتَّحْكِيمُ: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتَّسْلِيمُ: في مقام الإحسان»^(٢).

«فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها»^(٣).

الآية الرَّابِعَةُ:

قوله تعالى: ﴿أَفَتَعْتَبِرُ أَمَّا أَجْتَنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْرَبَهُمُ الْكِتَابَ يَمْلِكُونَ أَنَّهُ مَرْزُقٌ مِّن رَّبِّكَ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ

الحَكَمُ هو الحاكم الذي يفصل في القضايا والخصومات، والحَكَمُ أبلغ من الحاكم، إذ لا يستحقُّ التسمية بالحَكَمِ إلا مَنْ يحكم بالحق^(٤).

و«الحَكَمُ» من أسماء الله تعالى الحسنى؛ لقوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» الحديث^(٥).

ولمَّا كان الله ﷻ هو الحَكَمُ الحقُّ، فقد استنكرت الآية أن يُتغنى غيره في التَّحَاكِمِ، وهذا الاستنكار أفاد وجوب التَّحَاكِمِ إليه سبحانه.

ويلاحظ هنا: أنَّ النُّظْمَ الكريم قد قرَنَ تنزيلَ الكتاب بوصفِ الحقِّ، ممَّا يدلُّ على أنَّ اتِّخَاذَ حَكَمٍ دونه هو من الباطل، بل من أبطل الباطل.

(١) فتح القدير (١/٧٣٠).

(٢) تفسير السعدي (١/١٨٥).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ١٣٤)، مادة: (حكم).

(٤) رواه أبو داود (٢٨٩/٤) (ح ٤٩٥٥)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٧/٢) (ح ٥٠٤)؛ والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٢/١) (ح ٨١١)؛ وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢١٦/٣) (ح ٤٩٥٥)؛ و«صحيح الأدب المفرد» (ص ٣٠٢) (ح ٦٢٣).

قال أبو السعود تَلَقَّةٌ في معنى الآية: «**أَفْتَرًا**» الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مُقَدِّرٍ يقتضيه الكلام، أي: قُلْ لهم: أُمِيلُ إلى زخارف الشياطين، فابتغى حَكْمًا غيرَ الله تعالى، يحكم بيننا . . .

«**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا**» أي: مُبَيَّنًا فيه الحقُّ من الباطل، والحلال من الحرام، وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبقَ في أمور الدين شيء من التخليط والإيهام، فأبى حاجةً بعدَ ذلكٍ لِحَكْمٍ غيرِ الله؟ وهذا - كما ترى - صريح في أنَّ القرآن الكريم، كافٍ في أمر الدين، مُغْنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله^(١).

الآية الخامسة:

قوله تعالى: «**وَقُولُوا مَنَّا يَا أَهْلَ الْبُيُوتِ وَالرَّسُولِ وَالطَّعَنَّا ثُمَّ بَرَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ مَنَّا وَمَا أَوْلَيْنَاكَ يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ يُحْكَمَ بَيْنَهُمْ إِنَّا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ**» (١٧) **وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّا يَأْتِرَ بِنَا وَإِلَيْهِ مَدِينَتُهُ** (١٨) **أَبَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَلِ انْتَابُوا أَمْ يَخْتَفُونَ أَنْ يَصِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (١٩) **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** [النور: ٤٧ - ٥١].

وصفت الآية الكريمة المستجيبين لحكم الله ورسوله، بالإيمان والفلاح، وجيء بصيغة الحصر (إنما)؛ لدفع أن يكون مخالِفَ هذه الحالة فيه شيء من الإيمان، وإن قال بلسانه: إنه مؤمن.

ودلالة الآية على وجوب التحاكم إلى الله والرسول واضحة: بشانها على القائمين به، ومدحها لهم، ووعداها إيَّاهم بالفوز والفلاح، وواضح أيضاً من ذمها للمعرضين عن التحاكم إلى الرسول، ووصفها إيَّاهم بالظلم، والمرض، والرَّيَّة^(٢).

(١) تفسير أبي السعود (٣/١٧٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٨٣).

وجوب إجابة القاضي المسلم:

وقد استنبط العلماء من الآية: وجوب إجابة القاضي المسلم، واعتبروا الرضى بما يحكم، رضى بحكم الله في الحقيقة، إذا كان قضاؤه مستقى من الشريعة وحدها.

وممن صرح بذلك القرطبي رحمته حيث قال: «هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم؛ لأن الله سبحانه ذم من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فأبى، بأقبح الذم فقال: ﴿أبَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ قال ابن خويندر منداد: واجب على كل من دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق»^(١).

وتبعه - في حكاية التصريح - الشوكاني رحمته حيث قال: «في هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي، العالم بحكم الله، العادل في حكمه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام، العالمين بحكم الله، العارفين بالكتاب والسنة، العادلين في القضاء، هو حكم الله، وحكم رسوله، فالداعي إلى الثامك إليهم، قد دعا إلى الله وإلى رسوله، أي: حكيمهما»^(٢).

مسألة: هل المعرض عن مجلس الحاكم المسلم، كالمعرض عن نفس حكم الشريعة؟

جوابها: الأمر يحتاج إلى تفصيل في هذه المسألة، وهو يرجع إلى حال المتحاكم، وحال الحاكم، فقد يكون المعرض عن مجلس الحاكم معرضاً عن شخصه، لا عن التشريع الذي يحكم به، وحال هذا يختلف عن حال الطاعن في الأحكام، التي يصدر عنها الحاكم.

وقد حكى ابن عاشور رحمته - هنا التفصيل - بقوله: «ولا يخالف الرسول في حكمه شرع الله تعالى، ولهذا كانت الآية خاصة بحكم الرسول ﷺ، فأما الإعراض عن حكم غير الرسول فليس بكفر، إذا جوزَّ المعرضُ على الحاكم: عدم إصابته حكم الله تعالى، أو عدم العدل في الحكم...»

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) فتح القدير (٤/٦٦).

ثُمَّ إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ التَّقَاضِي لَدَى قَاضِي يَحْكُم بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ:

قَدْ يَكُونُ: لِلطَّمَن فِي الأحْكَامِ الإِسْلَامِيَّةِ، الثَّابِت كَوْنِهَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ كَفْرٌ؛ لِذُلُوعِهِ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَإِنَّ آلِهَتَهُمْ أَتْرَابٌ﴾ [النور: ٥٠].

وَقَدْ يَكُونُ: لِمَجْرُودِ مِتَابَعَةِ الهَوَى، إِذَا كَانَ الحُكْمُ المَخَالِفَ لِلشَّرْعِ، مِلَانِمًا لِهَوَى المَحْكُومِ لَهُ، وَهَذَا فَسُوقٌ وَضَلَالٌ، كَشَأْنِ كُلِّ مَخَالِفَةٍ يُخَالِفُ بِهَا المَكْتَلَفَ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ؛ لِاتِّبَاعِ الأَعْرَاضِ الذَّنْبِيَّةِ.

وَقَدْ يَكُونُ: لِلطَّمَن فِي المَحَاكِمِ، وَظَنُّ الجَوْرِ بِهِ، إِذْ كَانَ غَيْرَ مَعْصُومٍ، وَهَذَا فِيهِ مَرَاتِبٌ بِحَسَبِ التَّمَكُّنِ مِنَ الإِنْتِصَافِ مِنَ المَحَاكِمِ وَتَقْوِيمِهِ^(١).

الآية السادسة:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فِي هَذَا الآيَةِ إِشَارَةٌ بِاللُّغَةِ الرَّوْعَةِ؛ فَقَدْ قَرِنَ اللَّهُ ﷻ بَيْنَ كَوْنِهِ صَاحِبَ الحُكْمِ الذِّي يُرْجَعُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ كَوْنِهِ هُوَ الرَّبُّ - سُبْحَانَهُ - فَلَمَّا اتَّصَفَ - جَلٌّ وَعَلَا - بِصِفَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ: مِنْ قُدْرَةِ عَالِي الخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالعَطَاءِ وَالمَنْعِ، وَسَائِرِ صِفَاتِهِ الَّتِي لَا يُنْكَرُهَا إِلَّا جَاحِدٌ كَافِرٌ بِهِ - سُبْحَانَهُ - اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْدَهُ الحُكْمُ.

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ - صِفَاتٍ مَنْ يَسْتَحَقُّ أَنْ يَكُونَ الحُكْمُ لَهُ، وَأَسْهَبَ الشَّنْقِطِيُّ تَكَلُّفًا فِي بَيَانِ ذَلِكَ؛ بِمَا لَا تَجِدُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمِمَّا قَالَ: «فَمِنَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَوْضَحَ بِهَا تَعَالَى صِفَاتٍ مَنْ لَهُ الحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ، قَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، ثُمَّ قَالَ مَبِينًا صِفَاتٍ مَنْ لَهُ الحُكْمُ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾ فَالْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ جَمَلٌ لَكُرْتِنَ أَنْفُسِكُمْ أَنْزَجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَنْزَجًا يَنْدُرُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْثِيلُهُمْ مَوْتٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٠ - ١٢].

فَهَلْ فِي الكُفْرَةِ الفِجْرَةِ المَشْرُوعِينَ لِلنُّظْمِ الشَّيْطَانِيَّةِ، مَنْ يَسْتَحَقُّ أَنْ يَوْصَفَ

بأنه الربُّ الذي تُفَوِّضُ إليه الأمور، ويَتَوَكَّلُ عليه، وأنه فاطر السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، أي: خالِقُهُمَا ومَخْتَرُهُمَا على غير مثالٍ سابق، وأنه هو الذي خَلَقَ للبشر أزواجاً...!؟

فعلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَتَفَهَّمُوا صِفَاتَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُشْرَعَ وَيُحَلَّلَ وَيُحَرَّمَ، وَلَا تَقْبَلُوا تَشْرِيعاً مِنْ كَافِرٍ خَسِيسٍ حَقِيرٍ جَاهِلٍ ...

ومن الآيات الدَّالَّةُ على ذلك، قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ غَيْبٌ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْبَئُكُمْ بِهِمْ وَأَنْسِجُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾ [الكهف: ٢٦].

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنْ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؟! وَأَنْ يُبَالِغَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ لِإِحَاطَةِ سَمْعِهِ بِكُلِّ الْمَسْمُوعَاتِ، وَبَصَرِهِ بِكُلِّ الْمُبْصَرَاتِ؟! وَأَنْهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ دُونَهُ مِنْ وَلِيٍّ؟! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوقاً كَبِيراً.

ومن الآيات الدَّالَّةُ على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَثَرًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنْهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ؟! وَأَنْ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ؟! وَأَنْ الْخِلَاقَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ؟! تَبَارَكَ رَبُّنَا، وَتَعَاظَمَ وَقُدَّسَ، أَنْ يُوصَفَ أَخْسَرَ خَلْقِهِ بِصِفَاتِهِ ...

ومنها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَوَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فهل فِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنْهُ يَفْضُلُ الْحَقَّ، وَأَنْهُ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ؟! ومنها، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَا لِلَّهِ أَدَبٌ لَكُمْ أَنْ عَزَا اللَّهُ فَعَلْتُمْ﴾ [يونس: ٥٩].

فهل في أولئك المذكورين مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنْهُ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الرِّزْقَ لِلْخِلَاقِ، وَأَنْهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَحْلِيلٌ وَلَا تَحْرِيمٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟! لِأَنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ مَنْ خَلَقَ الرِّزْقَ وَأَنْزَلَهُ، هُوَ الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ، بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ. سُبْحَانَهُ جَلًّا وَعِلا، أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ^(١).

الآية السابعة:

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِبَيْنِهِمْ وَإِنَّ الْفَالِغِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

هذه الآية الكريمة موجبة للتحاكم إلى شرع الله، من حيث إنكارها على الذين لا يتبعون ما شرع الله من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطين الجن والإنس، من تحريم ما لم يحرم الله، أو تحليل ما لم يحلله^(١).

وأتباع شرائع هؤلاء الشياطين هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة، ومع ذلك سميت ديناً، ولكنه دين مضاف لدين الله؛ لأنه يقوم على العمل للدنيا، فأصحابها لا يعلمون، ولا يعملون إلا لها^(٢).

وحتى لو كان هؤلاء المطيعون للشركاء يريدون بطاعتهم نوعاً من العبادة والقربى، فإن ذلك غير مقبولٍ منهم، بل مردود عليهم؛ لأن الله تعالى لا يُعبد إلا بما شرع، لا بما شرع الطواغيت، وزين الشياطين.

وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية رحمته: «ومن اعتقد أن لأحد - من جميع الخلق، علمائهم، وعبادهم، وملوكهم - خروجاً عن أتباعه (ﷺ) وطاعته، وأخذ ما بُعث به من الكتاب والحكمة، فهو كافر، فيجب التفريق بين العبادات الإسلامية الإيمانية النبوية الشرعية التي يُحبها الله ورسوله، وعبادته المؤمنون، وبين العبادات البدعية الضلالية الجاهلية، التي قال الله فيها: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٩٧/٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٨٨).

(٢) انظر: التفسير الكبير (١٤٠/٢٧). (٣) مجموع الفتاوى (٥٩/٢٧ - ٦٠).

أسباب هجر التحاكم إلى القرآن

تمهيد:

أظهر القرآن العظيم خبايا المعرضين عن شرع الله تعالى وحُكْمِهِ، وهنك أسرارهم، وكشف نواياهم، وأنزلت فيهم آيات من كتاب الله موضحةً هويّتهم، وفاضحةً دخاللهم، ومتحدثةً عن أسباب إعراضهم، وكوامن نواياهم.

قال ابن القيم رحمته - في مَعْرِضِ حديثه عن المعرضين المعترضين على شرع الله تعالى وأمره وحُكْمِهِ:

* فمنهم: معترضون بآرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرّم الله تعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صحّحه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

* ومنهم: المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، وهؤلاء في حظوظ أخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينه، واغتالوا بها القلوب، واقتطعوا عن طريق الله.

* ومنهم: أهل الاعتراض بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات، التي قدموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا بها شرعه وعدله وحدوده، وقالوا: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة. فجمعت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه، طاغوتاً يتحاكمون إليه^(١).

ومن العجيب أن أسباب الإعراض عن حكم الله - كما عرضها القرآن -

(١) مدارج السالكين (٢/٦٩ - ٧٠) «بتصرف يسير».

تُشعر بأنَّ نفسيَّات المعرضين - في كلِّ زمانٍ ومكانٍ - واحدة، ومقولاتهم متشابهة، فلا نكاد نلمح جديداً في مواقف معرضي الأُمس، ولهذا فإنَّ حُكْم الشَّرائع في المعرضين واحدة، منذ فجر التَّاريخ، وإلى نهايته^(١).

وهذه أهمُّ أسباب هجر التَّحاكم إلى القرآن، كما كشفها الكتاب العزيز، وهي على النحو التَّالي:

السبب الأوَّل: كراهية ما أنزل الله:

عندما تنحرف الفطرة، وتعمى البصيرة، يُصبح الإنسان مُحبباً لما أبغض الله، ومُبغضاً لما أحبَّ الله، وقد يبلغ هذا البغض والكره حدّاً يصل بالمرء إلى أن يكره أن يُذكر الله تعالى أمامه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. فلا عجب بمشَّن هذه أحوالهم، أن نرى البغضاء قد طفحت من قلوبهم على ألسنتهم؛ لثَغْبَرٍ عن مدى كراهيتهم لما أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولفَرَط كراهة المعرضين لما أنزل الله؛ فإنَّهم يكرهون إحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل، ويكرهون أن يُتَمَّ الله نورَ الإسلام على العالمين، ويكرهون أن يُظهِرَ الله دينه على الدِّين كلِّه، ولكنَّ الله تعالى بادلهم كرهاً بكَرِهٍ، فعاملهم بما يكرهون، وأجرى سنَّته على غير ما يشتهون، كما قال تعالى: ﴿إِيجِبْ لِقَافِ الْبَطْلِ وَتَوَّ كِرَهُ الْمَجْرُومِ﴾ [الأنفال: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّ فُودُهُ وَتَوَّ كِرَهُ الْكُفْرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمَدِينِ وَبَيْنَ لَقِي يُظهِرُ عَلَى الْبَيْنِ كَلِمَةٍ وَتَوَّ كِرَهُ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَيُحِبُّ اللَّهُ الْحَقَّ يَكْتُمُونَهُ وَتَوَّ كِرَهُ الْمَجْرُومُونَ﴾ [يونس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَلْفَهُ مِنْ قُرْبِهِ وَتَوَّ كِرَهُ الْكُفْرُونَ﴾ [الصف: ٨].

صور من الكراهية:

وهذه الكراهية لما أنزل الله تعالى، تتخذ صُوراً شتى، ومن ذلك:

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٩٥).

* كراهية ما أنزل الله، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَمَقَامَ لَمْ وَأَنْزَلَ أَعْتَلَهُمْ ۝﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿ [محمد: ٨ - ٩].

* كراهية الحق المبين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَافِقُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

* كراهية الجهاد في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١].

* كراهية الإنفاق في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

* كراهية مَنْ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا زَلْنَاكَ إِلَّا الْوَيْتُ هُمْ أَرَادُوا كِبَادًا بَدِيًّا وَأَرَادُوا لَكُم مِّنْ فَضْلِنَا مِنْ فَضْلِنَا بَلْ نَقَلَكُم مِّنْ كَذِبِكُمْ﴾ [هود: ٢٧].

* أنهم يُحِبُّونَ وَيَتَّبِعُونَ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَتْلُو بِرِزْوَانِهِ﴾ [محمد: ٢٦].

* الأَعْجَبُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِي لَا يَرْضَى إِلَّا عَمَّنِ اتَّبَعَ دِينَهُ وَشَرَعَهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

والكراهية لما أنزل الله تعالى تنعكس آثارها في صُورٍ شتى، نراها في سلوك المعرضين، مثل الضد عن سبيل الله: بالبدن وبالمال وباللسان، والطمع في حُكْمِهِ، والشك في عدله، والاستهزاء بحدوده، والإيذاء للمؤمنين العاملين بدينه، والساعين لإقامة شرعه.

وكراهية ما أنزل الله تعالى، تصل بأهلها إلى أنهم: ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ [محمد: ٢٦].

كراهية ما أنزل الله في العصر الحاضر:

وما أكثر الذين يكرهون ما أنزل الله تعالى في عصرنا، ومن يُطِيعُونَ مَنْ

* والشأن نفسه مع عاد، قوم هود عليه السلام: ﴿فَأَمَّا عَلٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِمَغْرِبِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَن أَسَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [نصفت: ١٥].

* والمشهد ذاته يتكرر مع شعيب عليه السلام لما دعا قومه إلى الحق: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي إِلَهِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

* أما موسى عليه السلام فلم يواجه أحد من الأنبياء استكباراً مثل الذي واجهه من أهل عصره؛ لأن فرعون كان إمام المستكبرين، وتبعه على ذلك قومه وجنوده، وقد حكى الله تعالى هذا الاستكبار في عدة مواضع، منها: قوله تعالى: ﴿فَدْرَبْنَا بِمُتَكَبِّرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَفَرَعُونَ إِلَهُ فَرَعُونَ وَمَلَأْنَاهُ بِبِائِسَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٥٦﴾ إِلَهُ فَرَعُونَ وَمَلَأْنَاهُ بِبِائِسَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٦].

وكذلك كان شأن جنود فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِمَغْرِبِ الْحَقِّ وَقَالُوا لَنُنَالَنَّ هَٰؤُلَاءِ لَٰئِنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

* وكما كان الاستكبار والعلو هو الباعث الذي حدا بأهل الضلال من الأمم السابقة إلى محادة الله تعالى والإعراض عن شرعه وحكمه، كان شأن أهل الضلال في هذه الأمة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾ [الشورى: ١٣].

أي: شق عليهم وعظّم ما يدعوهم إليه عليه السلام من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامتثال أمره، واجتناب نهيه^(١).

* وقد بلغ من استكبار المشركين على عهد رسول الله عليه السلام أن قالوا: ﴿تَوَلَّآ نُزُلًا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ رَزَيْنَا رَبَّنَا﴾ فكشف الله تعالى السر، وبين السبب في هذه الجراءة، فقال: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

* وقد كشف القرآن العظيم - في وضوح - أن السبب وراء جدال المجادلين في آيات الله، هو ذلك الداء الغضال: الكِبْر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آفَافَهُمْ يُنَادُونَ أَنَّهُمْ مُطَّلَعُونَ أَنتَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِو فَأَسْتَوِذ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ التَّكْبِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

إنهم يتكبرون على الشريعة استنكافاً للانضواء تحت حُكْمِهَا، أو حُكْمِ الْمُتَّبَعِ بِهَا، كما حكى ذلك الرَّازِي تَلَفُّهُ فقال: «إنما يحملهم على هذا الجدل الباطل كِبْرٌ فِي صُدُورِهِمْ، فَذَلِكَ الْكِبْرُ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى هَذَا الْجِدَالِ الْبَاطِلِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَوْ سَلَمُوا بِنُبُوتِكَ لَرَمَهُمْ أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ يَدِكَ وَأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ؛ لِأَنَّ النُّبُوتَ تَحْتَهَا كُلُّ مُلْكٍ وَرِيَاسَةٍ، وَفِي صُدُورِهِمْ كِبْرٌ لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونُوا فِي خِدْمَتِكَ»^(١).

* كذلك بين القرآن الحكيم أن أسباب استخفاف المعرضين بآيات الله واستهزائهم بها ذلك الكِبْرُ الرَّابِضُ فِي صُدُورِهِمْ. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا لَكُمْ وَبَدَأُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ لَوْلَا فَتْوَانَا لَكُنْتُمْ لِلْكَافِرِينَ فِي أَعْيُنِنَا صَرِيحِينَ لَوْلَا أَنَّا لَكُنَّا لِلْكَافِرِينَ حَرِيمًا﴾ [النحل: ٢٢ - ٢٤]^(٢).

السبب الثالث: اتباع الهوى:

للهوى تسلط على النفس - إذا أطيع - لا يكاد يقاومه شيء في القلب، فكلما أطاع المرء هواه، استحكم هذا الهوى في قلبه، فيصبح هو شرعه ودينه، وحُكْمُهُ وَقَضَائِهِ، بَلْ يَصْبِحُ الْهَوَى الْإِلَهًا مَطَاعًا. كما قال تعالى: ﴿الْفَرَمِيَّتْ مَنِي أَنْتَظِدْ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَسْأَلُهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ وَخَمَّ عَلَى تَوْبِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد سُمِّيَ الْهَوَى بِذَلِكَ: «لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»^(٣). نسأل الله السلامة والعافية.

(١) التفسير الكبير (٦٩/٢٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٩٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص ٥٢٤)، مادة: (هوى).

الهوى والحق ضدان لا يجتمعان:

ولا يمكن لإنسان أن يجمع بين تعظيم الحق وتقديم الهوى، فإنه إن عظم الحق قدمه، وإن قدم هواه عظمه. ومن عظم هواه ضل عن شرع الله وهُده، تانها في غياب الشهوات والشبهات.

ونستطيع أن نجزم بأن أتباع الهوى من أعظم أسباب عدم الاستجابة لله تعالى، والاحتكام إلى شرعه القويم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِخَيْرِ هُدًى مِّنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصر: ٥٠].

تحليل القرآن من أتباع الهوى:

ولهذا نجد القرآن العظيم قد حذر من أتباع الهوى كثيراً، في معرض حديثه عن حتمية أتباع شرع الله.

* فعندما استخلف الله ﷺ داود عليه السلام وجعله ملكاً وحاكماً، حذره من أتباع الهوى؛ لأن أتباع المنزل وأتباع الهوى ضدان لا يجتمعان، قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُونَ إِنَّمَا جَعَلْتَنكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وهي وصية من الله تعالى لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل، ولا يعدلوا عنه إلى الأهواء المضلة عن سبيل الله^(١).

* وقد نزه الله تعالى النبي ﷺ ابتداءً من أن ينطق عن الهوى، فضلاً أن يعمل به، أو يحكم بمقتضاه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

* ومع ذلك توجه الخطاب إليه ﷺ بالألا يتبع أهواء أحد من الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَدْبُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. والخطاب يتعداه ﷺ إلى أمته، إذ هو معصوم من أتباع أهواء الناس^(٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٥/٥).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٩/٧).

* وأمره أن يستقيم على الشريعة المنزلة بعيداً عن أهوائهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيمَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَنْجِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَكَى الْمُنُوتِ﴾ [الجنابة: ١٨ - ١٩].

وأمره أن يُقيم معالم الأحكام والحدود في حياة الناس، فقال سبحانه: ﴿وَلَئِن آخَضْنَا بَيْنَهُمْ مَاءً أُنزِلَ فَذَلَّخُوا أَهْوَاءَهُمْ وَاحْتَدَرْتُمْ أَن يُفْسِدُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

* والناس جميعاً يفسدهم اتباع الهوى، بل الكون كله يفسد لو سارت الأمور فيه على مقتضى الهوى؛ لأن الأهواء لا ضابط لها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْهَوَىٰ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَنزَلْنَاهُنَّ بِذِكْرِهِمْ فَهَمَّ عَنِ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]. والمعنى: «لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أهوائهم واختلافها»^(١).

السبب الرابع: إيثار المتاع للعاجل:

ومن أسباب الإعراض عن حُكم الله تعالى: استيلاء حب الدنيا وشهواتها على قلوب المعرضين، حتى يؤثرها على ما في الآخرة من رزق كريم، ونعيم مقيم. ولهذا جعل القرآن العظيم المتهاونين في أحكام الله مؤثرين الثمن القليل. قال الله تعالى - لبني إسرائيل: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولِي كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلاً وَرَأَيْتُمْ فَآتِقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

نماذج من إيثار العاجل:

ولما كانت شهوات المستبدين في كل زمانٍ جامحة، ورغباتهم مستعرة، ناصبوا شرائع الله العداة؛ لظنهم أنها تتعارض مع إطلاق مصالحهم الدنيوية العاجلة.

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٩٦). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢٠٦).

* فهؤلاء قوم شعيب عليه السلام يقولون له: «يَسْتَعِيبُ أَمْوَالَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَبْنُدُ مَبَاوِئَنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ أَلْيَبُ الرِّبِيدِ» [هود: ٨٧].
والمعنى: أدينك بأمرك بذلك، ويمنعنا من التصرف في أموالنا حسب ما نشاء من البخس والتطفيف، وقد تراضينا فيما بيننا بذلك؟^(١).

* وقوم لوط عليه السلام عادوا دعوة الحق؛ لعلمهم أنها تحول بينهم وبين مستنقع الرجس والرديلة الذي غرقوا فيه. قال تعالى: «فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ كَانُوا أَنهَرُوا مَا لُوطٍ مِنْ قَرِينِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ» [النمل: ٥٦].

* وقد تمكنت تلك الأثرة في مشركي العرب حتى كادوا يؤيسون رسول الله صلى الله عليه وسلم من هدايتهم، فنزل القرآن يصبره ويسليه: «ذُبْحًا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» ① ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتُوا وَيَبْهَمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» [الحجر: ٢ - ٣]. أي: اتركهم يا محمد صلى الله عليه وسلم يأكلوا ويتمتعوا بديناهم، ويشغلهم الأمل بطول العمر عن الإيمان والاتباع، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم هذا^(٢).

وهكذا كانت أمراض الدنيا حاجزاً بين الناس - في كل زمان - وبين اتباع الشرائع، فإنهم - لجهلهم - يظنون أن الشرائع الربانية ستحرمهم منها. ناسين أن الله وحده يُوسِّع الأرزاق ويبسطها لمن يشاء، ولكنهم فرحوا بالحياة الدنيا فرحاً أوجب أن يطمئنون بها، ويغفلوا عن الآخرة رغم حقارة الدنيا في جنب الآخرة^(٣). قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ. وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْلِيَّكَ لَهُمْ أَلْقَنَهُ وَلَمْ يَسُوهُ النَّارِ» ② اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا لِلْآخِرَةِ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ» [الرعد: ٢٥ - ٢٦].

السبب الخامس: الخوف الفتوهم:

أشكال الخوف لدى الإنسان متنوعة، فقد يخاف من المجهول، أو يخاف من المستقبل، أو يخاف من انقضاء العمر، أو فوات الرزق، أو ضياع السلطان والجاه، أو يخاف أن تنزل به مصيبة في نفسه وأهله وماله..

(١) انظر: زاد المسير (٤/١١٥). (٢) انظر: تفسير الجلالين (ص ٣٣٨).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤/٧٦ - ٧٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢٠٩).

لكنَّ العبد الخائف من الله تعالى يجد في شرع الله الأمان والاطمئنان.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَسْرِحُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

أما العبد الذي لا يخاف الله تعالى فإنه لا يتورع عن الظلم، وأكل الحرام، وانتهاك المحرمات الظاهرة منها والباطنة، متبعاً غيّه وهواه؛ لذا فإنه لا يجد لنفسه أماناً في الشريعة؛ لما في قلبه من الشك والريبة، حيث إن ماله حرام، وجاهه قد بُني على السُّحت والباطل، ومصالحه مرهونة باستمرار الظلم، فهو يخشى الشريعة على رزقه، وجاهه، وسلطانه، إن رضي بأن تُحكّم فيه.

نماذج من الخوف المُتوهم:

* والعلّة ذاتها ظهرت في اليهود، فالله تعالى أنزل عليهم التوراة ليحصل لهم الأمن والهداية بتحكيماها، فكان بعضهم يخشى الناس فلا يعمل بها أو ببعضها، أو لا يبلغها خوفاً من حدوث مرهوب، أو فوات مطلوب، فحكى الله ﷻ شأنهم، ووجهنا حتى لا نقف أثرهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِلُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْا وَلَا تَسْتُرُوا بِعَيْنِكُمْ إِنَّمَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وفي ذلك يقول أبو السعود بثلاثة: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، وأما حُكّام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة دون العبارة...

ولما كان مدار جرائتهم على ذلك خشية ذي سلطان، أو رغبة في الحفظ الذنيوية، نُهوا عن كلٍّ منهما صريحاً. أي: إذا كان شأنهما كما ذُكِر فلا تخشوا الناس كائناً مَنْ كانوا، واقتدوا - في مراعاة أحكامها وحفظها - بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم^(١).

* والذين أعرضوا عن شرع الله لخوفهم من الناس، يسارعون في موالة

(١) تفسير أبي السعود (٤٢/٣).

أعداء الله على حساب الشريعة والدين، ويتعللون في ذلك بالخوف منهم، أو من الزمان أن يدور بالجذب والغلبة على المسلمين، فلا يمنُّ الكفار بالعباء والإمداد.

وقد فضح الله تعالى هذه الطوية الخبيسة - في معرض التعجب والإنكار - على من يتحاكم إلى حكم الجاهلية، محذراً المؤمنين من الوقوع في هذه الموالاة المحظورة، فقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ يَتَوَلَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُدْعَوْنَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَقُ أَنْ نُؤَيِّبَنَّكَ دَابَّةً فَحَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ أَوْ آتِيَ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيمًا ﴿المائدة: ٥٠ - ٥٢﴾^(١).

* وأعجب العجب وأنكر المنكر من يتدرع بأمر عجيب، وهو خوفه الحيف والجور من أحكم الحاكمين، الذي لا يظلم مثقال ذرة. وها هو القرآن يحكي حال مرضى القلوب: ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَلَمَّا تُمَّ بِتَوَكُّلٍ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا دَعَوْنَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا مِن بَيْنِهِمْ فَوَقَّحْنَا فِيهِمْ مَرَضًا وَسَوَّغُوا فِيهِمْ عَمَلَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا لِيُكْفِرُوا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَكُمْ لَمَمٌ فَاتُوا إِلَيْهِ مُذْنِبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَلِيَّا لِيُؤْتُوا أَمْ يَحْشَرُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا فَجَعَلْنَاهُمْ أَقْوَامًا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا أَن نَّأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّمَا كَانُوا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضًا فَجَعَلْنَاهُمْ سَوَآءًا فَعَلُوا صِدْقًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُنْفَكُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ رَبَّهُ فَقَالَ لِلَّهِ هُمُ الْفَاهِرُونَ ﴿النور: ٤٧ - ٥٢﴾. إنهم في شك من عدل الله، وسوء ظنُّ به سبحانه، وكلها أسباب خفية تقود إلى الإعراض عن شريعة الله، تعالى الله عما يفترى الظالمون علواً كبيراً^(٢).

السبب السادس: التقليد المذموم:

التقليد في اللغة: جعلُ القلادة في العنق^(٣).

ويتقسم إلى نوعين: جائز وغير جائز.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٢٠٨).

(٢) انظر: الحكم والنحاكم في خطاب الرحي (١/٢١٣).

(٣) انظر: مختار الصحاح (ص ٢٥٩)، مادة: (قلد).

فالجائر: هو تقليد العميِّ عالماً أهلاً للفتوى، في نازلةٍ من التوازل.

وغير الجائر: هو الأخذ بمذاهب الآخرين من غير بيّنة، ولا دليل. وقد ذمَّ الله تعالى هذا النوع من التقليد في غير موضعٍ من كتابه^(١).

نماذج من التقليد المذموم:

* من أشدَّ أنواع التقليد المذموم هو متابعة الناس في الأحكام الشرعية من غير دليل شرعي، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُؤُفَيْنَهُمْ أَزْوَاجًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

وقد سُئل حذيفة رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: «أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم، ولا يصلون لهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً أحلّه الله لهم حرّموه، فذلك كانت ربوبيتهم»^(٢).

قال ابن القيم رحمته الله - واصفاً فتنة التقليد التي أصابت العالم الإسلامي: «تالله إنها فتنةٌ عمّت فأعمّت، ورمت القلوب فأضمت»^(٣)، ربا عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً، ولما عمّت بها البلية، وعظمت بسببها الرزية، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعدّون العلم إلا إياها، فطالب الحق من مظانّه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون، نصبوا لمن خالفهم في طريقهم الخبائل، وبتقوا له الغوائل، ورمّوه عن قوس الجهل والبغي والعدا»^(٤).

(١) انظر: أضواء البيان (٥٢٨/٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٥/٦) (رقم ١٦٦٥٣).

(٣) الإضماء: أن تقتل الصيد مكانه. يُقال: رمى فأضمى: أي أصاب مفتلاً. ومنه ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً أتاه فقال إني أرمي الصيد فأضمي أو أنبي، فقال: «كل ما أضمت، ودغ ما أنميت». والإضماء: أن ترمي الصيد فيغيب عنك فيموت ولا تراه وتجدّه ميتاً، وإنما نهى عنها؛ لأنك لا تدري هل ماتت برميك أو بشيء غيره.

انظر: سنن البيهقي الكبير (٢٤١/٩) (رقم ١٨٦٨٠)؛ مصنف عبد الرزاق (٤٦٠/٤) (رقم ٨٤٥٥)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٤/٣)، مادة: (صما)؛ لسان العرب (٤٦٩/١٤)؛ مادة: (صما).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٦/١ - ٧).

* وقد نعى الله تعالى على أقوام مترفين سلوك مسلك التقليد المشين، فقال عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَىٰهِ وَأَنَّا عَلَىٰ الْمَثَلِ مُخْتَلِفُونَ ۗ قُلْ أَوْلُوا أَتُؤْتُونَ جُنُثَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ مِثَابَةً ۗ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٤]. فالذي منعهم من الاهتداء هو سبب الاقتداء.

* ولما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَذِهِ الصَّائِلُ إِلَيْيَ أَنْتُمْ لِمَا عَنَيْتُمْ﴾، كان جوابهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادَةً﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٣].

* وتقليد الآباء بغير برهان من الله تعالى ضلال، وقد حكى القرآن حال جيل من الأبناء، قلدوا آباءهم بغير هدى من الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِنَّا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُخَوِّفُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ عَلَىٰ الْمَثَلِ مُخْتَلِفُونَ ۗ قُلْ أَوْلُوا أَتُؤْتُونَ جُنُثَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ مِثَابَةً ۗ قُلْ أَوْلُوا أَتُؤْتُونَ جُنُثَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ مِثَابَةً ۗ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فهذه أنواع من التقليد الأعمى في العقائد والتشريعات، ذمها الله تعالى في كتابه، ولذلك قال الشنقيطي رحمه الله: «وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعمهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليديين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة دنياء فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة.

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه»^(١).

وعلى آية حال: فإن الإعراض عن أحكام الله متوقع ومنتظر من الذين لا يعقلون، فالعقل السليم يهدي إلى الشرع القويم، إذا بحث عنه^(٢).

وقد وقع المسلمون - إلا من رحم الله - في هذا التقليد الأعمى، فاستمدوا قوانينهم وأنظمتهم من الغرب - اليهود والنصارى - وغيره، وتناسوا عن قصد، وعن غير قصد - أحياناً - شرعهم الذي ارتضاه لهم ربهم، فوصل بهم الحال إلى ما هم عليه من الهوان والضباع.

(١) أضواء البيان (٧/٥٢٣).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢١٩).

المبحث الثالث

الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بما أنزل الله.
- المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله.

المطلب الأول

الآثار الدنيوية للحكم بما انزل الله

أولاً: الاستخلاف والتّمكين:

إذا أقام العباد دين الله تعالى، وخلص الله تحاكمهم في السر والعلانية، فإن الله سبحانه يقويهم ويشد من أزرهم حتى يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ومكن لهم، وهي سنة إلهية ماضية نجدها في قصص شتى في كتاب الله تعالى.

نماذج من الاستخلاف والتّمكين:

* فهذا يوسف عليه السلام صار من أهل الاستخلاف والتّمكين، بعد أن ابتلي فأبلى بلاء حسناً، وظهر أنه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنَّا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

* وهذا موسى عليه السلام كان حريصاً على أن يظهر لقومه هذه السنة الماضية، عندما خافوا بطش فرعون وقومه، فيقول لهم: ﴿أَسْتَوِينَا بِأَهْلِهِ وَأَصِرُوا إِنَّا فِي الْأَرْضِ لَإِلَهٌ يُّورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْمَوْجِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أي: العاقبة الحسنة ستكون لكم بإرث الأرض، شريطة أن تكونوا من المتقين، بإقامة شرع الله في الأرض^(١).

ولما استبطؤوا العاقبة، واستأخروا النصر، نبههم موسى عليه السلام إلى سنة الاستخلاف: ﴿عَن رَّبِّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِزُّكُمْ وَتَسْتَكْبِرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقُولُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثم أنجز الله تعالى لهم ما وعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ

يُظَلِرْ أَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُتَعَدُونَ ﴿الأنعام: ٨٢﴾. وقال تعالى: ﴿وَلِيَسْبِلْتُمْ إِلَىٰ بَيْتِ اللَّهِ حُرِّفَهُمْ أَنَّمَا تُعْبُدُونَ لَا يَشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا﴾ [النور: ٢٥].

ولا يُتَصَوَّر تحقيق أمة للإخلاص في العبودية، والخلوص من الشرك، وبالتالي الشعور بالأمن والاستقرار إلا بإقامة شرع الله كاملاً غير منقوص، وإلا فإن الأمم المنحرفة عن شرع الله يُحيط بها الخوف والقلق من جميع جوانبها؛ لأن الأمن والأمان قد سُلب منها، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْتَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعْتَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ١٠٠].

في حين أن الله سبحانه امتزَّ على المؤمنين بالأمن في مظنة الخوف؛ لما انقادوا لحكم الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدُوا إِيْمَانَهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَقَدْ جُودُوا السَّنَابِتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]. والسكينة: هي الطمأنينة.

قال ابن كثير رحمه الله: «وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله»^(١).

وإذا امتثل الناس شرع الله، وطبقوا أحكامه، ضمنوا الأمن التام في أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، فما من حدٍّ من الحدود، ولا شرعة من الشرائع إلا وتُحَفَظُ بسببها ضرورة من الضرورات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.

وقوانين البشر الوضعية لا تُحَرِّزُ أَمْنًا، ولا تُوفِّرُ استقراراً، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلامية، فالدُول - قديماً وحديثاً - تُنفق الأموال الطائلة، وترصد الميزانيات الهائلة؛ لتأمين الدّاخل والخارج، ومع ذلك لا يحصل للناس من الأمان عُشْرُ معشار ما يمكنهم تحصيله، لو أنهم أقاموا حدّاً من حدود الله تعالى، كحدِّ السرقة مثلاً^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٧/٣٣١).

(٢) انظر: المصدر السابق (١/٦٧٧).

ثالثاً: النصر والفتح:

الأعداء يترصون بالأمة الإسلامية الدوائر، والله تعالى قد ضمن لهذه الأمة - إذا استقامت على شرعه - أن ينصرها على أعدائها بعزته وقوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَبْغِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ عَيْبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]. والمعنى: لينصرن الله ﷻ من ينصر دينه، ومن ينصر أوليائه، وينتصر لشرعه في الأولين والآخرين، كما نصر المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقيصرة الرُّوم، وأورثهم أرضهم وديارهم^(١).

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف؛ بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة، أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

وإن الكثيرين ليشفقون من أتباع شريعة الله والسير على هداها، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش، يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِن تَبِيعَ الْمَدَنِيِّ مَعَكَ تَنَخَّطَفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصر: ٥٧]. فلما أتبعته هدى الله، سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن، أو أقل من الزمان^(٢).

وسنة الله تعالى ماضية في نصر من ينصر دينه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَعْيُنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. أي: «هو حقٌ أوجب علي نفسه الكريمة، تكريماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤]»^(٣).

ولهذا فإن حال الأمة من النصر والعزة، أو عدمها، يعتبر مقياساً دقيقاً، وميزاناً للحكم على مقدار امتثالها - رُعاة ورعية - لشريعة الله ظاهراً وباطناً.

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٧٠٤).

(١) انظر: روح المعاني (١٧/١٦٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/٣٣٨).

وإلى جانب تأييد الله تعالى بالنصر على الأعداء؛ فإنه تعالى يمنُّ على المؤمنين بفتح أرض العدو، وإخضاعها لحكم الله، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا...﴾ [النصر: ١ - ٢]. وقال جلُّ شأنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۗ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمِّدَ بِنِعْمَتِهِ غَلَابَةً عَلَيْكَ وَهَدِيكَ سَبِيلًا مُسْتَقِيمًا ۗ وَنُصِّرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٣]. فبالاستجابة للشريعة، يُستجلب الفتح، ويُستنزَل النصر، وتُسْتَفْتَح الأرض.

فأيُّ مسؤولية تلك التي تقع على عاتق الأمة - حكاماً ومحكومين - في تحكيم شريعة الله؟ إنها مسؤولية عظيمة على العامة تحاكماً وإذعاناً، وعلى ولاة الأمر - من الحكَّام والعلماء والقضاة - حُكماً وتبلياناً، فهؤلاء أخصُّ في المسؤولية؛ بما حُمِّلوا وتحَمَّلوا من تبعه الولاية والقيادة^(١).

وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمته الله: «إذا خرج ولاة الأمور عن هذا (أي عن التحاكم إلى الكتاب والسنة) فقد حَكَمُوا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسهم بينهم... وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول، كما قد جرى هذا مرّة بعد مرّة، في زماننا وغير زماننا، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلِّك مسلك مَنْ أَيْدَهُ اللَّهُ وَنَصَرَهُ، ويجتنب مسلك مَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهَانَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ الَّذِينَ إِن مَنَّكُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]. فقد وعد الله بنصر مَنْ ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله؛ لا نصر مَنْ يحكم بغير ما أنزل الله، ويتكلَّم بما لا يعلم^(٢).

رابعاً: العزُّ والشرف:

دوام النصر والفتح بقاء للعزِّ والشرف، وكما لا يُنال ذلك النصر إلا بنصر دين الله، فلا يُطال هذا الشرف إلا بالاعتزاز والانتساب لكتاب الله الذي به

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٦٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٨٨).

تشرف الأمة، وبه يعلو ذكورها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. والمراد بالذكر هنا: هو الشرف، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. والمعنى: أي فيه شرفكم وصيبتكم^(١). وقال تعالى في آخر الآية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام: للتوبيخ والتثريب. والمعنى: أفلا تعقلون ما فضلتم به على غيركم^(٢).

فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمسكها بدينها وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضي الله عنه: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَهَمَّا نَطْلُبُ الْعِزَّ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ»^(٣). فهناك ارتباط وثيق بين حال الأمة الإسلامية عزاً وذللاً، مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، وما ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه.

ومن أراد العزة فليتعزز بطاعة الله تعالى^(٤)؛ لأن مصدرها من الله تعالى، فليطلبها من مصدرها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهذه العزة كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للأحقيق شريطة أن يقتضوا أثرهم في تعظيم حرمة الله، وتطبيق شرعه، والاعتزاز بدينه.

والمسلمون اليوم ليسوا مخيرين بين الاعتزاز بكتاب الله أو الاعتزاز بغيره، بل هم مسؤولون عن أخذهم الكتاب بقوة، ورفع رايته بعزة، والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿فَأَسْتَمِعُ بِالْأَيْمَنِ الَّتِي أَنْتَ إِتَىكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣]. «والاستمسك: شدة المنسك،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٥/٣)؛ تفسير أبي السعود (٥٨/٦).

(٢) انظر: زاد المسير (٣٤١/٥)؛ فتح القدير (٤٠٠/٣).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٣٠/١) (رقم ٢٠٧)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين... ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. ورواه الهيثمي في «الزواجر» (١٤٤/١)؛ والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٥١/٣) (رقم ٤٣٩٣)؛ وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٠/٣) (رقم ٢٨٩٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥٩/٦).

فالسُّين والتَّاء فيه للتأكيد^(١). أي: استمسك بالذي أوحى إليك من الآيات والشرائع، سواء عجلنا لك الموعود، أو أخرناه إلى يوم القيامة^(٢).

والمعنى: خذ بالقرآن المنزل؛ فإنه الحقُّ الهادي إلى الصُّراط المستقيم، الذي فيه شرفٌ لك ولقومك، وسوف تُسألون عنه يوم القيامة، وكيف كنتم في القيام بحقه، وتعظيمه، والعمل به، والاستجابة له، وشكر هذه النعمة العظيمة^(٣).
والأمة اليوم تفتقد من العزة إلى القدر الذي فقدته من دينها، ولن يعود لها هذا إلا بالاستمسك بكتاب ربها، وتطبيقه في واقع الحياة^(٤).

خامساً: بركة العيش ورغده:

الحياة الطيبة، والعيش الرغيد، أكبر من مجرد طعام طيب، أو ملابس حسن، أو مركب مريح، أو مسكن فسيح، أو زوجة حسناء، فكل ذلك لا يوفر السعادة الحقة، إلا إذا أضيف إليه بركة من عند الله تعالى، مما لا تستجلب إلا بطاعة الله، وإقامة شرعه، تلك البركة التي لم توضع في قليل إلا كثرته، ولا في صغير إلا عظمته، ولا في طيب إلا وضاعفت في طيبه.

وكلُّ الناس ينشد هذه البركة، ويتطلّع إلى الحياة الطيبة، ولكنهم ليسوا جميعاً يوفقون إلى سلوك الطريق القويم إلى ذلك، ولذا دعا الله المؤمنين إلى الاستجابة لله ورسوله ﷺ، وإقامة شريعته حتى ينالوا هذا المطلب النفيس^(٥).

وأكثر الأمم نأت بأنفسها عن الاستجابة لله تعالى، ولرسوله الكرام ﷺ، فارتفعت عنهم البركة، وضاعت أعمارهم سدى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ويا للأسف لم يؤمنوا ويتقوا، فأخذوا بالعقوبات، ونزع البركات، وكثرة الآفات، والآية الكريمة تعدُّ المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركات، متى ما حققوا معنى الإيمان والتقوى^(٦).

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٢٦٠). (٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤٨/٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٢٣٠)؛ تفسير السفي (٤/١١٥).

(٤) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٦٨٦).

(٥) انظر: المصدر نفسه (١/٦٨٨). (٦) انظر: تفسير السعدي (٢/١٣٨).

سادساً: الهداية والتثبيت:

الذين يتكبرون على التحاكم إلى شرع الله المنزل، يفوتون على أنفسهم نعمة عظيمة، يمنحها الله تعالى للمقادير إلى أمره، المتحاكمين إلى شريعته، ألا وهي الهداية والتثبيت على الحق، وما أعظمها من نعمة، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا ٦﴾ وَإِنَّا لَآتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا آجْرًا عَظِيمًا ٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾

[النساء: ٦٥ - ٦٨].

والأمر الذي وُهِطوا به، وُوهِدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة، والالتقياد التام للرسول ﷺ، فلو أنهم امتثلوا ما أمروا به؛ لثبت الله تعالى أقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم^(١).

وفي حصول التثبيت والثبات للمؤمنين وزيادته، يقول السعدي رحمه الله: «فإن الله يُثَبِّت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وُهِدوا به. فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنواهي، والمصائب. فيحصل لهم ثبات، يوفقون به لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا، أو الشكر. فينزل عليه معونة من الله، للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية، حتى يألها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات»^(٢).

وفي ظل المجتمع المُحتكم إلى الشريعة، تتفتح النوافذ بنسمات العلم النافع، وتفتق القرائح بطرق العمل الصالح؛ فيسهل على الناس قصد الهداية،

(٢) المصدر السابق (١/٣٦٦).

(١) انظر: فتح القدير (١/٧٣٢).

يقول ابن عاشور رحمته - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: «أي لَفَتَحْنَا لَهُمْ طُرُقَ الْعِلْمِ وَالْهُدَايَةِ؛ لِأَنَّ تَصَدِّيهِمْ لِامْتِثَالِ مَا أَمَرُوا بِهِ هُوَ مَبْدَأُ تَخْلِيَةِ النَّفُوسِ عَنِ التَّلَمُّقِ بِأَوْهَامِهَا وَعَوَائِدِهَا، الْحَاجِبَةِ لَهَا عَنِ ذِكْرِ الْحَقَائِقِ، فِإِذَا ابْتَدَؤُوا يَرْفُضُونَ هَذِهِ الْمَوَاقِعَ، فَقَدْ اسْتَعَدُّوا لِتَلَقِّي الْحِكْمَةِ وَالْكَمَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، فَفَاضَتْ عَلَيْهِمُ الْمَعَارِفُ تَتْرَى، بِدَلَالَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَبِتَيْسِيرِ اللَّهِ صَعْبَهَا بِأَنْوَارِ الْهُدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّاعَةَ مِفْتَاحَ الْمَعَارِفِ، بَعْدَ تَعَاطِي أَسْبَابِهَا»^(١).

الخلاصة:

نستخلص مِنَّا سَبْقَ أَنَّ تَحْكِيمَ شَرَعِ اللَّهِ فِي حَيَاتِنَا يَنْعَكِسُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِصُورَةٍ إِيْجَابِيَّةٍ مَبْشُرَةٍ؛ فَهُوَ يُوَدِّي إِلَى تَحْقِيقِ الْاسْتِقْرَارِ الدَّخْلِيِّ وَالْعَدْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَالْأَمْنِ الْمَادِيِّ وَالتَّنْفِيسِ، حَيْثُ يَلْتَزِمُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ وَاجِبَاتِ تَجَاهِ اللَّهِ وَتَجَاهِ الْآخَرِينَ، وَإِلَّا تَعَرَّضَ بِمُقْتَضَى هَذَا الشَّرْعِ إِلَى الْعُقُوبَةِ الْمَسْتَحَقَّةِ عَلَى حَسَبِ جُرْمِهِ، وَفِيهِ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِقِيَمَتِهِ وَبِإِنْسَانِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ شَخْصٍ وَآخَرَ مَهْمَا عَلَا فِي الرُّتْبَةِ، أَوْ دَنَا فِي الْمَنْزَلَةِ، فَالْكَلُّ أَمَامَ شَرَعِ اللَّهِ سَوَاءٌ.

وَكذَلِكَ يُوَدِّي تَحْكِيمَ شَرَعِ اللَّهِ إِلَى قُوَّةِ هَذَا الْمَجْتَمَعِ وَهَذَا الْبَلَدِ الْمُطَبَّقِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَجَاهِ آيَةٍ قُوَّةٍ أُخْرَى؛ لِأَنَّهُ يَسْتَمُدُّ قُوَّتَهُ مِنَ اللَّهِ تعالى وَهَنَا مَعْنَى إِيْمَانِي عَظِيمٍ، وَهُوَ مَدَى الثِّقَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا فِي طَيِّبَاتِهِ الْمُسْلِمُ تَجَاهِ رَبِّهِ، فِإِذَا مَا حَقَّقْنَا الثِّقَةَ بِاللَّهِ تعالى وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْعِزَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَالتَّنْصُرِ، وَأَنَّهُ الرُّكْنُ الشَّدِيدُ الَّذِي نَأْوِي إِلَيْهِ إِذَا أَصَابْنَا مَكْرُوهًا، عَلَى قَدْرِ هَذِهِ الثِّقَةِ فِي اللَّهِ، وَعَلَى قَدْرِ هَذَا الْيَقِينِ، يَكُونُ التَّمْكِينُ وَالتَّنْصُرُ وَقُوَّةَ الْمَجْتَمَعِ.

المطلب الثاني

الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله

أولاً: الفلاح والفوز:

الفلاح والفوز في الآخرة، امتداد للفلاح والفوز اللذين يحرزهما المؤمنون في الدنيا، باحتكامهم لشرع الله تعالى، وفي ذلك يقول المولى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١ - ٥٢].

فهذا هو حال المؤمنين في كل مكان وزمان، إذا دُعوا إلى كتاب الله تعالى، وحُكِمَ رسوله صلى الله عليه وسلم، يقولون بلسان حالهم ومقالهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: أجبنا من دعانا إلى حكم الله ورسوله، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج. قال ابن عاشور رحمته الله: «وفيه تعريض بالمنافقين، إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بغيرها من كلمات الإعراض والارتياب»^(١).

ومن أجل ذلك حُصِرَ الفلاح في المؤمنين؛ لأنَّ الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حُكِمَ الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله^(٢). ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه به، وحكما به، وترك ما نهيا عنه، ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فيما يستقبل، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ والفوز: هو الظفر بالمطلوب الصالح. والمعنى: هم الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة^(٣). وقيل: الفائز من نجا من النار، وأدخل الجنة^(٤).

وقيل: هم الفائزون بالنعيم الدنيوي والأخروي، لا من عداهم^(٥).

فقد جمعت هذه الآية الكريمة أسباب الفوز في الدنيا والآخرة، وهي:

- (١) المصدر نفسه (١٨/٢٢٠).
 (٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٨٥).
 (٣) انظر: تفسير القرطبي (١٢/٢٩٥).
 (٤) انظر: فتح القدير (٤/٦٨).
 (٥) انظر: تفسير السعدي (٣/٤١٠).

طاعة الله ورسوله، وخشية الله، وتقواه^(١).

ثانياً: المغفرة وتكفير السيئات:

تحكيم الشريعة مظنة توبة التائبين في الدنيا، وقبول هذه التوبة في الآخرة، بالمغفرة ومحو السيئات، وكان النبي ﷺ يُبايع المؤمنين والمؤمنات على أمور، هي في مضمونها إثبات لموقف التحاكم إلى الشريعة، والخضوع لها.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى الْأَلْأَمْثَرِ كَمَا بَايَعْتُمُ اللَّهُ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِيَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ حَاقَبَهُ». فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ^(٢).

قال ابن حجر كثيلاً: «ويستفاد من الحديث: أن إقامة الحد كفاً للذنوب، ولو لم يتب المحدود، وهو قول الجمهور. وقيل: لا بد من التوبة، وبذلك جزم بعض التابعين، وهو قول للمعتزلة، ووافقهم ابن حزم، ومن المفسرين: البغوي، وطائفة يسيرة، واستدلوا باستثناء من تاب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]. والجواب في ذلك: أنه في عقوبة الدنيا، ولذلك قُيدت بالقدرة عليه^(٣).

وهذه البيعة كانت على الامتثال لسائر شرائع الإسلام، وما لم يُذكر في هذه المبايعة كالصلاة، والزكاة، وسائر أركان الدين، وشعائر الإسلام؛ لوضوح أمره واشتباره^(٤).

وتكفير السيئات مَكْسَبٌ أُخْرَوِيٌّ عَظِيمٌ، لا يمكن للناس إدراكه إلا بالتحاكم

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٢١/١٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حُبُّ الأنصار (٣٠/١) (ح١٨).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩٤/١).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٢٤١/٨).

إلى الشريعة الإسلامية، وأما محبة الطواغيت والتحاكم إليها لا تغفر الذنوب، بل نستجلبها.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستغفر للمؤمنين إذا هم بايعوه على السمع والطاعة، والرضى بحكم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّنَّ وَلَا يَزِينَنَّ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَتَّبِعْنَكَ فِي مَكْرُوفٍ فَأَبَيْهُنَّ وَقَسَّيْنَهُنَّ لَمَنْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢]. أي: مُبَالِغٌ فِي الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَيَغْفِرُ لِلْمُبَايِعِينَ، وَيَرْحَمُهُمْ إِذَا وَفُوا مَا بَايَعُوا^(١).

ثالثاً: الأجر العظيم:

المنحاكمون إلى شرع الله، لا ينجون بالمغفرة من السيئات فحسب، بل يظفرون بأجرٍ عظيم، وثوابٍ كبير جزاء ذلك.

فبعد أن بين المولى تبارك وتعالى حُكْمَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ الرَّسُولُ ﷺ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُوتَ حَتَّىٰ يُحْكَمُواكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ [النساء: ٦٥].

أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَتَلَوْا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَّيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

فبين النظم الحكيم عاقبة تحكيم الرسول ﷺ، والانقياد لما يَحْكُمُ بِهِ، والانتعاض بما يَعْظُ بِهِ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾ أي: لكان هذا الانقياد لما يَحْكُمُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ولكان أشدَّ تبيئاً لقلوبهم على الإيمان.

وماذا يكون لهم من جزاء بعد هذا التثبيت؟

هو ما هو جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد نُحِمَّ الأجرُ العظيم بنسبة عطائه إلى الله تعالى بنون العظمة، وفي ذلك

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٦٩٥).

يقول الرّازي تَعَلُّهُ: «إنه تعالى جَمَعَ في هذه الآية قرائن كثيرة، كلُّ واحدةٍ منها تدلُّ على عِظَمِ هذا الأجر.

أحدهما: أنه ذَكَرَ نفسه بصيغة العِظَمَةِ، وهي قوله: ﴿لَأَيُّتِيَهُمْ﴾، وقوله: ﴿مِنْ لُدْنًا﴾. والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على عِظَمَةِ عند الوَعْدِ بالعِطِيَةِ، دلَّ ذلك على عِظَمَةِ تلك العِطِيَةِ.

وثانيها: قوله: ﴿مِنْ لُدْنًا﴾، وهذا التَّخْصِصُ يدلُّ على المبالغة، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لُدْنًا عَلَمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وثالثها: أن الله تعالى وصفَ هذا الأجرَ بالعظيم، والشَّيء الذي وصفه أعظمُ العِظَماء بالعِظَمَةِ، لا بدُّ وأن يكون في نهاية الجلالة، وكيف لا يكون عِظِيماً، وقد قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: (فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)^(١)،^(٢).

رابعاً: مرافقة الأنبياء والصدِّيقين:

سَمَى الله تبارك وتعالى التَّحَاكُمَ إلى الرسول (طاعة) وجعل عاقبتها معيةً كريمة، ومقاماً كريماً، في صحبةٍ كريمة، في جوار الله الكريم، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٠﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ رَبِّكَ وَكَفَى بِإِنَّهُ عَليماً﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

والمعنى: أن كلَّ مَنْ يُطِيعِ الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليهما على الوجه المذكور في الآيات، من قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يُلَاحِقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ يَتَكَلَّمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ رَبِّكَ وَكَفَى بِإِنَّهُ عَليماً﴾ [النساء: ٥٩ - ٧٠]. فله أحسن الجزاء، وأحسن العاقبة، في الدنيا والآخرة. فسياق الآيات كلها في التَّحَاكُمِ إلى الله والرسول قولاً وعملاً.

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة (٢/

١٠٠٢) (ح ٣٢٤٤) ١، ومسلم، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها (٤/٢١٧٤) (ح ٢٨٢٤).

(٢) التفسير الكبير (١٠/١٣٥). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٦٩٧).

وَحَقُّ لَمَنْ أَقَامَ هَذَا التَّحَاكُمَ عَلَى مَا يَرِيدُ اللهُ تَعَالَى، أَنْ يَرْفِيَ صُغْدًا مَعَ هَذِهِ الصُّحْبَةِ الْمُبَارَكَةِ، فِي الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى؛ لِأَنَّ النَّبِيِّينَ وَالصُّدِّيْقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ هُمْ خَيْرُ مَنْ أَطَاعَ اللهُ تَعَالَى ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَأَقَامَ شَرِيعَتَهُ وَوَحَدَهُ، فَمَنْ حَذَا حَذُوهُمْ خُشِرَ مَعَهُمْ، وَصَحِبَهُمْ فِي الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ طَرِيقٌ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا^(١).

(١) انظر: المصدر نفسه (٦٩٩/٢).

المبحث الرابع

الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله.

المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله.

المطلب الأول

الأثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله

كما أن تحكيم الشريعة تعمر به الدنيا، وتطيب به الآخرة، فبالانحراف عنها تتكدر الدنيا، وتضيع الآخرة، فليس هناك مغول هدم أشدّ خطراً على دين الناس ودنياهم، من الخضوع لشرائع الجاهلية الأبقية عن الله، وإنّ الحكام المُبدلين لشريعة الله والمنحرفين عنها، ليدخلون على الناس أنواعاً من الفتن والمحن، بقدر ما يخرجون بهم عن حُكم اللطيف الخبير ﷻ.

فالفتن والمحن تظلل تتوالى على الناس تثرى، حتى تطال جميع أوجه حياتهم، فتحيل رخاءها شقاء، وأمنها خوفاً، وعذوبتها عذاباً، وأفراحها أتراحاً.

وإنّ آثار تلك الانحرافات عن شرع الله، لتبدو على الحياة في وجهتها الدنيوية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وتصيب بشرها محاسنها، وتُسوّه معالمها. وبذلك تتحوّل الحياة إلى فتنة في الدنيا والآخرة، والله تبارك وتعالى حذّرنا من مخالفة الأوامر الشرعية، في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن كثير رحمه - في تفسيرها: «أي: فليحذرو وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً أو ظاهراً» ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، من كفر، أو نفاق، أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك^(١).

وإنّ المجتمعات التي تُسلم قيادتها للحكام المُبدلين، يُضحى بها، كما ضحّت هي بشريعة الله، وتنازلت عنها أمام عتبات البرلمانات، وهياكل التشريع الوضعي، وهي تدفع ضريبة التخلي عن الحكم بما أنزل الله، من أموالها وأعراضها، وعقول أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبية والمادية، ذلك إلى

(١) تفسير ابن كثير (١٠١/٦).

جانب ما يجزئه التخلّي عن الحكم بما أنزل الله، من الجوع، والخوف، وضنك العيش، وغضب الله في الدنيا والآخرة^(١).

وفيما يلي استعراض لبعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الحياة الدنيا:

أولاً: قسوة القلوب:

تحريف الشريعة أو الانحراف عنها، يوقعان في قسوة القلوب، وقد ضرب الله تعالى لنا المثل باليهود الذين انحرفوا، وحرفوا في كلام الله، وكيف كانت عاقبتهم السيئة، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ يَتُنَفَّهِمْ لِمَتْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً يَجْرُؤُونَ الْعَكَادَةَ عَنِ مَوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. ومعنى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً﴾: أي: ضلّبة، لا تعي خيراً، ولا تفعله. والقاسية والعاتية بمعنى واحد^(٢).

وقيل: «جعلت قلوبهم غليظة، لا تُجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يُرغبهم تشويق، ولا يُزعجهم تخويف»^(٣).

فهم لما نقضوا ميثاق الله على السمع والطاعة، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتاب الله على غير ما أنزله، وحملوه غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثم تركوا العمل به رغبةً عنه؛ جعل الله قلوبهم قاسية، فلا يتعظون بموعظة؛ لغلظها وقساوتها^(٤).

وهذا من أعظم العقوبات أن يُخذل القلب، ويُمنع الألفاظ الربّانية، ولا يزيده الهدى والخير إلا شراً^(٥).

وهكذا الشأن في كلِّ مَنْ عدل عن شرع الله، مُحكماً عقله وهواه؛ فجزاؤه أن يُطبع على قلبه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثْرَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ بِنُورِ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]^(٦).

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٠٥، ٧١٠).

(٢) تفسير القرطبي (٦/١١٥). (٣) تفسير السعدي (١/٢٢٥).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٤). (٥) انظر: الكشاف (١/٦٥٠).

(٦) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧١٤).

ثانياً: الضلال عن الحق:

اتباع الأهواء وتقديمها على أحكام الله تعالى، يوقع في الضلال عن سبيل الحق، ولهذا أمر الله ﷻ نبيه داود ﷺ أن يحكم بالحق المنزل من عند الله تعالى، ونهاه أن يتبع الأهواء المضلّة عن سبيل الحق، فقال تعالى: ﴿يَنْذَرُؤُا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ومعلوم أن نبي الله داود ﷺ لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وبيناهم؛ ليشرع لهمهم»^(١).

والله تعالى حذر أهل الكتاب أن يقلدوا بعضهم في الأهواء المضلّة الصادة عن الحق، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي وِبَعِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. لكنهم أوغلوا في الضلال، بل جمعوا بين الضلال والإضلال^(٢).

ومن نواياهم العدائية - التي حذر الله تعالى منها - أنهم يحبون أن يروا هذه الأمة على غير هداية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْرِكُونَ الذَّلِيلَةَ وَيُريدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكُنْ بِأَقْوَابِكُمْ بِأَنفُسِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٥]. وهذا يحتم على الأمة - حتى لا تقع فيما وقع فيه أهل الكتاب - أن تنقاد لقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ، حتى لا تهوى في غيابهب الضلال مثلهم.

كيف وقد جاء التحذير الصريح، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أي: «ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله، فما أمر الله هو المتبع، وما أراد النبي هو الحق، ومن خالفهما في شيء فقد ضلّ

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٢٤١).

(١) أضواء البيان (٧/٢٨).

ضلالاً مبيناً؛ لأن الله هو المقصد، والثبني هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصد، ولم يسمع قول الهادي، فهو ضالٌ قطعاً^(١).

وسبب الوقوع في هذا الضلال البين: أنه «ترك الصراط المستقيم، الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم. فذكر أولاً، السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان. ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال»^(٢).

ثالثاً: الوقوع في النفاق:

يبتلى بالنفاق من يضمرون الكراهية لشرع الله تعالى، حتى تصير قلوبهم مريضة بهذا النفاق، فيحاولون جهدهم أن يخفوا نفاقهم، طائنين أن ذلك أمرٌ ممكن، ولكن يأبي الله تعالى إلا أن يفضح المنافقين بفلتات ألسنتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَانَهُمْ ۗ﴾ ﴿٣٠﴾ وَكَوْنًا لَأُرْسِلَنَّكُمْ فَمَقْرَنَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠].

والأصغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد، والحقد، والعداوة للإسلام وأهله، القائمين بنصره^(٣).

واللأم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: جواب قَسِمٍ محذوف^(٤). ولحن القول: ما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، بالتحريض أو التورية، ومنه قيل للمخطئ: لاجن؛ لعدله بالكلام عن سمت الصواب^(٥).

والنفاق سبب ومسبب في الوقت ذاته؛ فهو سبب للإعراض عن حكم الله تعالى، فلا يعرض عن حكم الله وسنة رسوله ﷺ إلا منافق عامرٌ قلبه بالنفاق، ولا يحارب الشريعة وأحكامها إلا من امتلأ قلبه - ابتداءً - بالنفاق، وهو مسبب أيضاً، فمن أعرض عن حكم الله وشرعه عن تقليد أعمى للغرب أو لغيره فلا

(١) التفسير الكبير (١٨٣/٢٥).

(٢) المصدر السابق (١٥٣/٤). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧١٥/٢).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٠١/٢٦).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (١٠١/٨)، الكشاف (٣٣٠/٤).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١٨١/٤)؛ تفسير أبي السعود (١٠١/٨).

يأمن على نفسه أن يقع في التفاق وإن كان - ابتداء - غير منافق.

إنَّ شأن المنافقين الدائم هو الاستهزاء بالشريعة وحمليتها، والإعراض عنها أنزل الله تعالى، والصدُّ عن سبيله، وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض، حتى قال قائلهم: والله لو ددت أنني قُدمتُ، فجلدت مائة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزَّؤُمْ إِنَّا أَنَا اللَّهُ نُخْرِجُ مَا نَحْذَرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَاهُمُ وَابْنُوهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٧﴾ لَا تَمْنُونَّ إِنَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْمِكُمْ إِن تَتُوبَ عَنْ ظُلْمَتِكُمْ نُصَلِّبْكُمْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٦] (١).

ومن أبرز صفات المنافقين الإعراض عن أحكام الشريعة، والتحاكم إلى الطاغوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٧﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِالْبَلَاءِ مِنْ اللَّهِ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ - ٦٢].

أي: كيف يكون حالهم وقت إصابة المصيبة إياهم، بافتضاحهم بظهور نفاقهم؛ بسبب ما عملوا من الجنایات، التي من جملتها: التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عن حُكْمِكَ؟ (٢).

رابعاً: الحرمان من التوبة:

أشدُّ ما يُمكن أن يعاقب به الإنسان في هذه الدنيا، أن يُحرَم من التوفيق للتوبة، والقرآن العظيم بيِّن أنَّ من الأعمال التي تُعرض فاعلها للحرمان من التوبة: تحريف ما أنزل الله، وإخضاعه للهوى أخذاً أو ردّاً، وهو عين ما فعله أعداء الله من كفار أهل الكتاب، وأوليائهم المنافقين، قال الله تعالى - مواسياً رسوله الكريم ﷺ حتى لا يحزن، ولا يأسى على أمثال هؤلاء الشرذمة: ﴿يَتَأَيَّبُهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٨٧)؛ تفسير القرطبي (١٨١/٨).

(٢) تفسير أبي السمود (٢/١٩٥). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧١٦/٢).

تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَيَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَمُونَ لِلْكَذِبِ سَكَمُونَ لِقَوْمٍ مَّخْرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ
بِخَيْرُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُوْتَوْهُ
فَلْتَحَدِّثُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ
اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ فِي الدُّنْيَا جِزْيًا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «نزلت هذه الآيات الكريمة في المسارعين في الكفر،
الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ:
﴿يَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، أي: اظهروا الإيمان باللسان،
وقلوبهم خرابٌ خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء
الإسلام وأهله»^(١).

والجريمة التي اقترفها هؤلاء: هي انحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعضها
تارة، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدنيئة، فجاءت
عقوبتهم متلائمة مع فظاعة جرمهم - الحرمان من الثوبة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ
اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أن الله تعالى حتم عليهم ألا يتوبوا من ضلالهم
وكفرهم، فلم يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرْ - من دنس الكفر، ووسخ الشرك - قلوبهم بطهارة
الإسلام، ونظافة الإيمان، فيتوبوا»^(٢).

وقد ذكر الرازي رحمه الله عدَّة أوجه في عدم طهارة قلوبهم، فقال: «أحدها: لم
يُرِدِ اللهُ أَنْ يُبَدِّلَ قُلُوبَهُمْ بِاللِّطَافِ؛ لِأَنَّ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي تِلْكَ اللَّطَافِ؛
لَأَنَّهَا لَا تَنْجِعُ فِي قُلُوبِهِمْ. وثانيها: لم يرد الله أن يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْخُرْجِ وَالنِّعْمِ
وَالْوَحْشَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ. وثالثها: أن هذا استعارة عن سقوط وقعه عند الله تعالى،
وأنه غير مُلْتَبِتٌ إِلَيْهِ؛ بِسَبَبِ قِيحِ أَعْمَالِهِ، وَسُوءِ أَعْمَالِهِ»^(٣).

ودلَّت الآية الكريمة: «على أن مَنْ كَانَ مَقْصُودَهُ بِالتَّحَاكُمِ إِلَى الْحُكْمِ
الشَّرْعِيِّ، اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَأَنَّهُ إِنْ حُكِمَ بِهِ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ بِهِ سَخَطَ، فَإِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَدَمِ طَهَارَةِ قَلْبِهِ. كَمَا أَنَّ مَنْ حَاكَمَ وَتَحَاكَمَ إِلَى الشَّرْعِ، وَرَضِيَ بِهِ، وَافَقَ

(٢) تفسير الطبري (٤/٣٠٩).

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٣٦).

(٣) التفسير الكبير (١١/١٨٤).

هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب. ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قولٍ رشيد، وعملٍ سديد^(١).

كما دلت على الخزي لليهود والمنافقين: فبالإضافة لعدم طهارة قلوبهم فإن هناك خزيًا يلاحقهم ويحيط بهم من جميع الجهات، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾. فخزي اليهود: فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصر الله تعالى، في إيجاب الرجم، وأخذ الجزية منهم.

وخزي المنافقين: هنك أستارهم بإفلااح الرسول ﷺ على كذبهم، وخوفهم من القتل^(٢).

خامساً: الصّدُّ عن سبيل الله:

إن الصّد الأكبر عن سبيل الله هو أحد الآثار القبيحة للحكم بغير ما أنزل الله، فالمعرض عن كتاب الله ﷻ لا يكفيه إعراضه عن حكم الله، ولا يُرضيه تجنيبه لشرع الله في حياته، بل يتعدى ذلك إلى أن يكون داعيةً إلى غير شرع الله، منادياً بقوانين وضعيةٍ مُدافِعاً عنها، مُستميئاً في التعليل لها، ليس هذا فحسب، بل يُنكر على مَنْ يُطالب بتحكيم شرع الله، ويقف في وجههم بكل ما لديه من قوة، مُستخدماً الإعلام في التشهير بهم والصاق التهم الكاذبة: من الإرهاب والأصولية، وغيرها من المصطلحات، بل والتعدّي عليهم - أحياناً - بوحشية وقسوة، والزُجُّ بهم في غياهب السجون، وبهذا يكون صادّاً عن سبيل الله. وهناك ارتباط وثيق بين الانحراف عن شرع الله تعالى، والصّد عن سبيله، فعلاقتهما ببعض علاقة السبب بالمسبب، ففي الأجواء البعيدة عن حكم الله ورسوله، تنهياً الفرصة لأكبر صد عن سبيل الله.

قال الله ﷻ - عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتباع شرع الله، بما التهاوا به من أمور الدنيا الخسيسة، صادّين الناس عن الإسلام: ﴿أَشْرَوْا بِعَابَتِ اللَّهِ فَمِمَّا قَلِيلًا فُصِّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩]^(٣).

(١) تفسير السعدي (١/٤٨٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١١/١٨٥)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧١٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٣٩).

وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدث القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿فَظَلِمَ بَيْنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُجَلَّتْ لَهُمْ وَبَصَدَتْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ كَمَلًا ذَلِيلًا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۗ لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْوَالِدِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الرَّاكِبَاتُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُعْطِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦٢].

ففرق توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم؛ لتعاطبهم الرشوة على الحكم، فصدوا الناس عن الدين، إضافة إلى أكلهم الربا، وأموال الناس بالباطل. وفي مقابلهم فريق استحقوا الأجر العظيم؛ لإيمانهم بالشريعة المنزلة، ثم إيمانهم بالشريعة الحقنة الناسخة، فكانوا مثلاً يقتدى بهم^(١).

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله، والضد عن دينه، استحق الضادون عن سبيله اللعنة والقرود من رحمته. قال تعالى: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۗ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٥].

إن الحاكمين والمتحاكمين إلى غير ما أنزل الله تعالى، هم على رأس هؤلاء الظالمين، فكم أخرجوا أناساً من الدين، وكم أضاعوا الآخرة على كثير من العالمين، فهم مستحقون لهذه اللعنة؛ لأنهم مسؤولون عن جانب كبير من الضياع والتهب الذي تعانيه البشرية كلها^(٢).

سادساً: غياب الأمن وانتشار الفوضى:

لو تأملنا وصف القرآن العظيم للإنسان بمعزل عن الإيمان، لوجدناه حجاباً: فهو ضعيف أمام المغريات، ونسي للإحسان، وظلوم في الحقوق، وكفار للنعم، ومجادل بالحق أو الباطل، وعجول متسرّع، وناكر للفضل، وبخيل بما عنده، وشديد في الخصومة، وشره في جلب الخير لنفسه، وقنوط إذا عجز عن جلب هذا الخير، وهلبج جزع إذا أصيب بضر، أو ألم به شر، وهو ضان بالخير إذا

(١) انظر: المصدر نفسه (٥٨٥/١).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٧٢٠/٢).

تحصل عليه، والطغيان هو الصفة السائدة في الإنسان، في معزل عن شرع الرحمن: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦١﴾ أَنْ رَأَاهُ مُتَشَفِّعًا ﴿٦٢﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧].

ولا يمكن أن تواجه طباع هذا المخلوق إلا بشريعة من عند خالقه: ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وكيف نتخيل مجتمعاً يُترك فيه الإنسان كالوحش الضاري، أو السبع الكاسر، دونما شريعة تطهر قلبه وجوارحه، فيقترب من صفات الملائكة، بعد أن كان - قبل أن يُطهر بها - أدنى إلى صفات الشياطين.

إن تحقيق الأمن في المجتمعات مرتبط بتطبيق شرع الله، فقد خص الله ﷻ من طبقت شرعه، وحقق شريعته بالأمن، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُتَسَدِّدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمنازل في حال المجتمعات الغير محكومة بحكمة الشريعة وضبطها للأمور يرى: كثرة القتل، والاعتصاب، واستباحة الأموال بكل الطرق والأشكال، وانتشار الفواحش والزنا، والفجور والخنا، والإدمان، واللصوئية، والجاسوسية، والتشاجر، والتنافس، والتحاسد، والشح، والبخل، والجهل، والظلم، وهذا كله من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

وهذا ما يريد الراغبون عن حكم الله إشاعته في الذين آمنوا، بتعطيلهم حكم الشريعة الإلهية التي تضبط - وحدها - النفس البشرية العاتية.

والمشرهون والحاكمون بأحكام الشرائع الوضعية هم قطعاً ممن يحبون أن تشيع هذه الفواحش والمنكرات في الدين آمنوا، وقد توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فهؤلاء يحاربون الله ورسوله على علم؛ لأن قوانينهم تجعل من الظلم شريعة، فهي تحمي الزناة، والبنائة، والقتلة، والسراق، ويضرب الشيخ صلاح أبو إسماعيل^(١) ركلة مثلاً لنوع من الظلم المقتن، الذي أحدثه الظالمون في حياة

(١) هو صلاح أبو إسماعيل، أحد علماء الأزهر، ولد سنة (١٣٤٦هـ) انتخب نائباً في مجلس

المسلمين قَسراً وقَهراً، فيقول: «ما رأي القانون الوضعي في رجل دخل بيته، ففوجئ برجل يزني بامرأته، على فراش الزوجية داخل بيته، فعلى ذم الزوج في عروقه، وأراد قتل الزاني، فكانت يد الزاني أسرع فقتل الزوج...»

أتعرف - أيها القارئ الكريم - ما حُكَم القانون الوضعي في هذا؟!... إن هذا الزاني يخرج بريئاً من جريمتي الزنا والقتل كليهما!

أما خروجه من جريمة الزنا؛ فلأن الزوج وحده هو الذي يملك أن يرفع دعوى الزنا ضد زوجته، وقد قُتل! وليس ذلك الحق لأبيها، أو لأخيها، أو لولدها، أو لأحد غير الزوج القَتيل. وأما خروجه من جريمة القتل؛ فلأنه كان في حالة دفاع عن النفس! ولذلك لا يُقتل، ولا يُرجم، ولا يُجلد!

فهل رأيت - أيها القارئ الكريم - ديناً يُقرُّ هذا البلاء؟!... إن القوانين في مضر تُقرُّ هذا البلاء^(١).

فوضى الاعتداء على الأموال:

وإذا تُركت التدابير الشرعية لحماية ممتلكات الناس، فإن الإجراءات الوضعية لا تُفلح في توفير الحماية لها، بل إنها تفتح أبواب السلب والنهب، أمام مرضى التكبُّب بالحرام، فتنتفح شهية السُّراق، وتنمو خبرات المختلسين، وتنتعش رغبات المحتكرين، وتحاول القوانين الوضعية - يائسة - أن تقضي على الجريمة، فلا تزيدها إلا شيوفاً بإجراءاتها الخرقاء، فالسُّجون - المكتظة بالمجرمين - تصير أكبر المعاهد التعليمية لفنون النَّصَب، واللوان الإجرام.

يقول الشيخ أحمد شاکر^(٢) كَلِمَةً - بعد أن بيَّن كيف تعاوَنَ المنافقون

* الشعب المصري، فرغ شعار: «أعطني صوتك؛ لنصلح الدنيا بالدين». وكان ينادي بتطبيق الشريعة الإسلامية، وضرب المثل في إنفاق المال لخدمة العلم والدين، اشتهر بالخطابة والمحاضرات والندوات، وقام العلمانيين والشيوعيين. ومن مؤلفاته: «اليهود في القرآن». توفي في أبو ظبي سنة (١٤١٠هـ). انظر: إتمام الأعلام (ص ٢٠١).

(١) نقلاً عن: أحكام إسلامية.. إداة القوانين الوضعية. للمستشار محمد عبد الحميد غراب (ص ١٧).

(٢) هو المحدث أبو الأشبال، أحمد بن محمد شاکر بن أحمد بن عبد القادر من آل أبي علباء، انتهى نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ولد بالقاهرة سنة (١٣٠٩هـ).

والمستعمرون، في إدخال القوانين الوضعيَّة، إلى ديار المسلمين، فأشاعوا فيها الفتن: «... فكان عن هذا أن امتلأت السُّجون في بلادنا وحدها بمئات الألوف من اللُّصوص؛ بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسَّرقة ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الدَّاء المُشْتَرِي...»

وأنهم جاؤوا في التَّطبيق يلتمسون الأعذار من (علم النَّفس) لكلِّ لَصْرٍ بِحَسَبِهِ، ثم زاد الأمر شراً أن يكتب اللُّصوص أنفُسهم كلاماً، يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون (المحامون) عنهم المقامات التي توردهم النَّار، يعلمون أن الجريمة ثابتة فلا يحاولون إنكارها، بل يحاولون التَّهوين من شأنها، بدراسة (نفسية المجرم وظروفه)!!^(١).

فوضى الاعتداء على الأعراس:

وأما الفوضى في الأعراس والأنساب، تحت المظلة الوضعيَّة المُضلة، فحدِّث ولا حرج، فإنَّ التدابير الشرعية الصَّارمة التي من شأنها أن تُحافظ على عفة المجتمع وطهارته من سُعار الشَّهوات، وتحاول أن تُطفئ أوارها، هذه التدابير يلغيها القانون الجائر الموضوع بجرَّة قلم، فمنَّ للعفة يحميها في ديار المسلمين، ومنَّ للطَّهارة يحرسها، ومنَّ للجريمة يُحاصرها، إذا حُرمت هذه الدِّيار من حُكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا يَقُولُ قَوْلًا﴾ (المائدة: ٥٠).

وإذا قيل لهم: لماذا تُصرون على هذا البلاء، ولم تنشئون بهذه الشرائع المُفسدة؟ قالوا: نريد أن نتحرر كما تحرر الغرب، ونتقدَّم كما تقدَّم الغرب، ونقدِّم الرفاه والسعادة لشعبنا كما قدَّم الغرب! وهي كمقالة أسلافهم الضَّالين الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ

كان والده (محمد شاکر) أعظم شیوخه أثراً في حياته. فقد وجهه إلى دراسة علم الحديث، تولى القضاء في مصر أكثر من ثلاثين سنة، وكان مجتهداً ولم يكن مقلداً. توفي سنة (١٣٧٧هـ).

من مصنفاته: «نظام الطلاق في الإسلام»، و«عمدة التفسير» لم يكمله.

انظر ترجمته بتوسُّع في مقدِّمة كتابه: كلمة الحق. بقلم أخيه (محمود بن محمد شاکر).

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاکر (١٤٧/٤).

التَّوْفِيقِينَ يُصُدُّونَ عَنْكَ شُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿النساء: ٦١ - ٦٢﴾.

والمعجيب: أن هؤلاء المعاندين، يعلمون - قبل غيرهم - ما الذي جنَّته
حضارة الغرب، القائمة على الاعتداء على سلطة الله وحُكمه، ويُدركون إلى أي
درَكٍ سفلت، وإلى أيِّ حالةٍ وصلت! (١).

سابعاً: انتشار العداوة والبغضاء:

يعيش النَّاسُ فِي ظِلِّ دِينِ اللَّهِ فِي نِعْمَةٍ مِنَ الْإِخَاءِ وَالْأَلْفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ إِحْسَانًا إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل
عمران: ١٠٣).

ولقد وَعظَنَا اللهُ تَعَالَى مِنَ الشَّبْهِ بِحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، لَمَّا اسْتَكْبَرُوا عَنِ
الْإِذْعَانِ التَّامِّ لِشَرَائِعِ اللَّهِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ وَقَعَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ فِيمَا بَيْنَهُمْ.
فَالْيَهُودُ لَمَّا خَالَفُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكذَّبُوهُ، وَلَمْ يَنْقَادُوا لِشَرِيعَتِهِ؛
أَخْبَرَ اللهُ ﷻ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَجْتَمِعُ، بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَهُمْ دَائِمًا؛ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا
شَرِيعَةَ الْحَقِّ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِمَّا تَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَبِّكَ ظُلْمًا وَمُكَفَّرًا
وَأَلْتَمِنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِنْ يَوُرُّ الْيَأْسُ﴾ [المائدة: ٦٤] (٢).

والتَّصَارِيحُ بِتَرْكِهِمْ بَعْضَ مَا ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ، ثُمَّ بِتَكْبِيرِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ
النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ كَعَاقِبَةِ إِخْوَانِهِمُ الْيَهُودِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا فَسَدْنَا وَجَدْنَا آلِهَتَهُمْ فَسَدُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَآخَرْنَا بَيْنَهُمْ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِنْ يَوُرُّ الْيَأْسُ وَسَوْفَ يُنَازِلُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
[المائدة: ١٤] (٣).

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أَي: هَبَّجْنَا. وَقِيلَ:
أَلْصَقْنَا بِهِمْ؛ مَاخُذُ مِنَ الْغِرَاءِ. يُقَالُ: غَرَبْتُ بِالشَّيْءِ إِذَا أَلْصَقْتُ بِهِ كَالْغِرَاءِ (٤).

(١) انظر: الحكم وانحازم في خطاب الوحي (٢/٧٢٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٧٥). (٣) انظر: المصدر نفسه (٣/٨٢).

(٤) انظر: لسان العرب (١٠/٦٣)، مادة: (غراء).

فالعداوة والبغضاء ألصقت بهم، فيما بينهم وبين بعض، أو فيما بينهم وبين اليهود^(١).

والظاهر: أنها واقعة بين طوائف النصارى، وهي تستيع الوقوع بينهم وبين طوائف اليهود عن طريق الأولى.

قال ابن كثير تلميحاً في تفسير الآية: «أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يُكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكلُّ فرقة تُحرِّم الأخرى، ولا تدعها تليج مَعْبِدَها، فالملكيَّة^(٢) تُكفِّر اليعقوبية^(٣)، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية^(٤) والأريوسية^(٥)، كلُّ

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١٧/٦).

(٢) الملكيَّة: هم أصحاب «ملكا» الذي ظهر في بلاد الرُّوم. وقيل: نسبة إلى «ملك الرُّوم». وهم يقولون: إنَّ الكلمة أتحدت بجسد المسيح، وتدرَّعت بناسوته. ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة. وصرَّحوا بإثبات التثليث، وقد أخبر عنهم القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَحْتَوِي﴾ [المائدة: ٧٣].

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم (١/٥٣)؛ الملل والنحل، للشهرستاني (٦٢/٢).

(٣) اليعقوبية: يُنسبون إلى «يعقوب البراذعي» وكان راهباً في القسطنطينية، ويقولون: إنَّ المسيح هو الله تعالى نفسه. وإنَّ الله - تعالى عن عظيم كُفْرِهِم - قُتِل وضُيَّب، وإنَّ العالم بقي ثلاثة أيام بلا مُدبِّر، والفلك بلا مُدبِّر، ثم قام ورجع كما كان، وأنه - تعالى - كان في بطن مريم محمولاً به.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/٤٩)؛ الملل والنحل (٢/٦٦).

(٤) النسطورية: هم أتباع «نسطور الحكيم» الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرَّف في الأناجيل بحُكم رايه، فقال: إنَّ الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، وأتحدت الكلمة بجسد عيسى ﷺ، كظهور النَّقْش في الخاتم. كما قالوا: إنَّ مريم لم تلد الإله، وإنَّما ولدت الإنسان، وإنَّ الله تعالى لم يلد الإنسان، وإنَّما ولد الإله - تعالى الله عن كفرهم - كما يقولون: إنَّ اتِّحاد الله بعيسى لم يكن باقياً حال ضلِّبه.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/٤٩)؛ الملل والنحل (٢/٦٤).

(٥) الأريوسية: هم أصحاب «أريوس» وكان قسيساً بالإسكندرية. ومن قوله: التوحيد المُجرَّد، وأنَّ عيسى ﷺ عبْد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلُق السموات والأرض. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/٤٧).

طائفة تُكْفَرُ الأخرى في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد»^(١).

مسألة: قد يقول قائل:

كيف أغريت بينهم العداوة والبغضاء، وقد تألبوا على المسلمين؟

جوابها: يُجيبنا على ذلك ابن عاشور رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال: «إِنَّ العداوة ثابتة بينهم في الدُّنْيَا بانقسامهم فِرَقاً... وذلك الانقسام يَجْرُؤُ إليهم العداوة، وَخَذَلْ بعضهم بعضاً. ثُمَّ إِنَّ دَوْلَهُمْ كانت منقسمةً ومتحاربة، ولم تَزَلْ كذلك، وَإِنَّمَا تَأَلَّبُوا في الحروب الصليبية على المسلمين، ثُمَّ لم يلبثوا أَنْ تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن.

وكم ضاعت مساهي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة، وتأليف اتحاد بينهم، وكان اختلافهم لُظْفاً بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أَنْ اتَّفَقَهُمْ على أُمَّةٍ أُخْرَى، لا يَنَافِي تَمَكَّنَ العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقاباً لهم على نسيانهم ما ذُكِّرُوا بِهِ»^(٢).

تحذير الأمة الإسلامية من العداوة:

والأمة الإسلامية وغَظَّها اللهُ تعالى بالعداوة المُلقاة فيما بين طوائف اليهود والنصارى، حتى لا تقع فيما وقعوا فيه، فالرعية تُلقى بينهم العداوات إذا رغبت عن شرع الله، وفي ذلك يقول ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا»^(٣).

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في موضع آخر: «وإذا خرج ولاية الأمور عن هذا (أي: عن الحكم بين الناس بالكتاب والسنة) فقد حَكَمُوا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسهم بينهم...»

وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول، كما قد جرى مثلاً هذا مرة بعد مرة في زماننا، وغير زماننا»^(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٣/٨٣). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/٦٦ - ٦٧). (٣) مجموع الفتاوى (٣/٤٢١).

(٤) المصدر نفسه (٣٥/٣٨٨).

وقد نعوذُ النبي ﷺ من مغبة ترك الحكم بغير ما أنزل الله، وعَدَّ ذلك من
أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ
الْمُهَاجِرِينَ اخْمَسُوا إِذَا ابْتُلِيْتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

... وَمَا لَمْ تَحْكُمُوا أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَتَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَمَلَ اللَّهُ
بِأَسْمِهِمُ بَيْنَهُمْ^(١).

ثامناً: الحرمان من النصر والتَّمكين:

المسلمون إذا تعاطوا أسباب النصر، وكانوا له أهلاً، وتوكلوا على الله
تعالى وحده، وعملوا بمقتضى سُنَّته في خلقه، فلا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِغَلْبَتِهِمْ، في حين
أنَّه تعالى إذا خذلهم - بما كسبت أيديهم من العصيان - فلا أخذَ يَمُنْكَ لَهُمْ
نصراً، ولا يدفع عنهم ضرراً، ومصداق ذلك في كتاب الله سبحانه: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ
اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمُ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]^(٢).

وليس شيء أدهى للخذلان، وللحرمان من النصر والتَّمكين؛ مِثْلُ هَجْرِ
التَّحَاكُمِ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَدْمِ نَصْرِهَا فِي الْأَرْضِ، وَيُعْتَبَرُ ذَلِكَ إِخْلَالاً
بشَرطِ النَّصْرِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والمعنى: إِنْ تَنَصَرُوا دِينَ اللَّهِ وَشَرِيعَتَهُ، بِالْعَمَلِ بِهَا، وَتَعْظِيمِهَا،
يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ وَيُثَبِّتْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَعْدَائِكُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ
مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ^(٣).

(١) رواه ابن ماجه والنَّفْظُ لَهُ (١٣٣٢/٢) (ح ٤٠١٩)؛ وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٥٨٣/٤) (ح ٨٦٢٣) وَقَالَ: «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يَخْرُجَاهُ» وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ. وَحَسَنُ الْأَبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣١٦/٣) (ح ٣٢٦٢)؛ وَالسَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ (٢١٦/١) (ح ١٠٦).

(٢) انظر: تفسير المنار (٣٠٧/٤)؛ الْحَكْمُ وَالتَّحَاكُمُ فِي خُطَابِ الْوَحْيِ (٧٣٩/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٥/٤).

قال الرّازي رحمه الله: «بيّن في هذه الآية: أنّ من نصره الله فلا غالب له. فيحصل من مجموع هاتين المقدّمتين، أنّ من اتقى الله، فقد فاز بسعادة الدنيا والآخرة؛ فإنّه يفوز بسعادة لا شقاوة معها، وبعزّ لا ذلّ معه، ويصير غالباً لا يغلبه أحد، وأمّا من أتى بالمعصية؛ فإنّ الله يخذله، ومن خذله الله، فقد وقع في شقاوة، لا سعادة معها، وذلّ لا عزّ معه»^(١).

وقد نصّ القرآن العظيم على كيفيّة نصر الدّين والشريعة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا الْأَرْضَ أَعَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْوُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والآية الكريمة تدلّ - كما قال الشنقيطي رحمه الله: «على أنّ الذين لا يقيمون الصلّاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرّون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتّة...»

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثمّ يقولون: إنّ الله سينصرنا، مغرورون؛ لأنهم ليسوا من حزب الله، الموعودين بنصره، كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله: نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تُقام حدوده في أرضه، وتُمثّل أوامره، وتُجتنب نواهيه، ويُحكّم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ^(٢).

الخلاصة:

ومما سبق نستخلص أنّ الإعراض عن حكم الله وشرعه يورد المجتمعات موارد التهلكة؛ ففي الدّاخل: يؤدّي إلى تفشّي الجريمة، وضياع الأخلاق، وانتشار الرذيلة، ومن ثمّ ضياع الأمن والاستقرار، والذي هو من أعظم النعم التي يُنعم بها الله ﷻ على من اتّبع رضوانه، وما حال المجتمعات الإسلاميّة المُجنبّة لشرع الله عتاً ببعيد.

وفي مواجهة الأمة لغيرها من الأمم، وعلى المستوى العالمي: نجد أنّ الأمة

(١) التفسير الكبير (٥٦/٩).

(٢) أضواء البيان (٧/٤٥١ - ٤٥٢).

عندما تتعد عن شرع الله، تضيع هيتها ومكانتها، ويُسْتَهان بها، ولا يأبه لها ولا لكثرة أعدادها؛ ذلك لأن أعداءها قد علموا ما هم عليه من ضعف الصلة بربهم ففقدوا عنصر قوتهم الأوحد، وركنوا إلى الدنيا، وإلى قدراتهم المادية، وهم عالة على غيرهم في ذلك، فعلموا قوتهم الحقيقية ومدى ضعفها فهانت في نظرهم.

المطلب الثاني

الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله

عظم القرآن الحكيم من هول العقاب الذي ينتظر أعداء الله المبدلين لشرعه، المفترين على دينه - تحليلاً وتحريماً - بغير سلطان من الله، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَا اللَّهُ أَدْبَرَ لَكُمْ أَرْعَ عَلَى اللَّهِ تَقْوَةٌ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩ - ٦٠].

ففي هذه الآيات الكريمات: «أنكر الله تعالى على من حرّم ما أحلّ الله، أو أحلّ ما حرّم الله، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها. ثمّ توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنّهم أن يُضنّع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟»^(١).

فهذا استفهام يراد منه تهويل وتفظيع العقاب الأليم، الذي ينتظر المفترين، المتقولين على الله، المبدلين لشرعه، ولذا نُكّر وأبهم، فمصيرهم هو أسوأ المصير، وعقابهم هو أوخم العقاب^(٢).

«وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب، وتنتظمهم جميعاً، فما ظنّهم يا ترى؟ ما الذي يتصوّرون أن يكون في شأنهم يوم القيامة؟ وهو سؤال تذوّب أمامه حتّى الجبال الصلدة الجاسية»^(٣).

وفيما يلي استعراض لبعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الدار الآخرة:

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤/١٥٧).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٩٠).

(٣) في ظلال القرآن (٣/١٨٠٢).

أولاً: الإهانة عند قبض الأرواح:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ جَانِبِ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُهُمْ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِمْ لِيُذَمِّرَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ يُضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨].

هذه الآيات الكريمة تهتد وتتوعد نوعاً من المنحرفين عما أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداء الله - كاليهود والنصارى - في بعض ما يأمرون به، والآيات تصفهم بالردة بسبب ذلك الفعل، وتتوعدهم بمصير مظلم، وعذاب مؤلم، يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى من مفارقة الدنيا^(١).

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يُضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ﴾ «أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتغصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب»^(٢).

قال ابن عاشور تكملة: «والمقصود: وعيبتهم بأنهم سيجعل لهم العذاب، من أول منازل الآخرة، وهو حالة الموت، ولما جعل هذا العذاب محققاً وقوعه، رتب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاماً مُستعملاً في معنى تعجب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة، إذ لا يُتعجب إلا من أمر غير معهود، والسياق يدل على الفظاعة...

والجَمْع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله، وكرامتهم رضوانه، مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر: للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء، مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأن ضربهم أديبارهم، مناسب لكرامتهم رضوانه؛ لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإديبار...

والإحباط: إبطال العمل، أي: أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٠/٢٦)؛ تفسير القاسمي (٦/٢٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٣٢٣).

المؤمنين، من قول كلمة التوحيد، ومن الصلاة، والزكاة، وغير ذلك^(١).
مشهد آخر من الإهانة:

وقال الله سبحانه - في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّارِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ أَيُّومٍ تُجْرَتُونَ عَذَابَ الْهُونِ يَمَا كُنْتُمْ قَوْلُونَ عَلَى اللَّهِ عَيْبٌ لِّمَن لَّمْ يَأْتِيهِمْ بَشِيرٌ وَلَا نَذِيرٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿وَمَنْ﴾ مؤصلة مراد به الجنس، أي: كلٌّ من افترى أو قال، وليس المراد فرداً معيناً، فالذين افتروا على الله كذباً، هم المشركون؛ لأنهم حللوا وحرّموا بهوهم، وزعموا أن الله أمرهم بذلك^(٢).

والآية الكريمة تتناول أصنافاً من المنحرفين عن الشريعة المطهرة:

فهي تتعرض للمتنبئين الذين ادّعوا أن الله قد أوحى إليهم، أمثال مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح زوجة مسيلمة^(٣).

وتتناول أيضاً كلّ من كان على شاكلتهم ممن أعرض عن الفقه والسنن، وما كان عليه السلف من السنن، فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكّمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، وفي هذا يقول القرطبي رحمه الله: «هذا القول زندقة وكفر، يُقتل فاعله، ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هُذُ الأحكام»^(٤).

فالآية تحكي أحوال هؤلاء عند معاينة الموت، والخروج من الدنيا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّارِ﴾ أي: شدائده وسكراته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بالعذاب ومطارق الحديد؛ لقبض أرواحهم.
﴿أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، أي هاتوا

(١) التحرير والتنوير (٩٩/٢٦ - ١٠١).

(٢) المصدر نفسه (٢٢١/٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤١/٧).

(٤) المصدر نفسه (٤٢/٧). وانظر: الحكم والنحاكم في خطاب الرّوح (٧٦٢/٢).

أرواحكم، والأمر للإهانة والإرهاق؛ إغلاظاً في قبض أرواحهم، ولا يتركون لهم راحة، ولا يعاملونهم بلين، وفيه إشارة إلى أنهم يجزعون فلا يلفظون أرواحهم، وهو على هذا الوجه، وعيد بالآلام عند التزع جزءاً في الدنيا على شركهم^(١).

﴿الْيَوْمَ نُجْزِيكَ عَذَابَ الْهَوْنِ﴾ أي: الهوان؛ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عِبْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ﴾ أي: تتعظمون وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته^(٢).

ثانياً: الوحشة في الحشر:

في الآية السابقة بين النظم الحكيم عاقبة الانحراف عن شرع الله تعالى عند معاينة الموت ومغادرة الدنيا، والآية التالية لها تستأنف بيان حالهم في الحشر: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَزَقْنَاكُمْ مِمَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال القرطبي رحمه الله: «هذه عبارة عن الحشر...

والمعنى: جئتمونا واحداً واحداً، كل واحد منكم منفرداً بلا أهل، ولا مال، ولا وليد، ولا ناصر، ممن كان يصاحبكم في القمي^(٣).

فمن اغترابهم ووحشتهم في الحشر: أنهم منزلون عن كل ما كانوا يعتزون به في الحياة الدنيا من أموال، وأولاد، وجاؤ، وأنصار.

ثالثاً: الأكل من النار وغضب الجبار:

قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْفَوْنَ بِهَا نَفْسًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْعَذَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَهِيمٍ﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٦].

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/٤٣ - ٤٤).

(١) التحرير والتنوير (٦/٢٢٣).

(٣) المصدر نفسه (٧/٤٤).

بعد أن تحدّثت الآيات عن بعض أحكام الشريعة، مثل: تحريم أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به. توعّدت من يكتمون أحكام هذه الشريعة، مقابل ثمنٍ قليل يأكلونه؛ لأنّ كتمان الشريعة، يستلزم أنواعاً من الانحراف عنها^(١).

فهؤلاء الذين يكتمون الحقّ المنزّل - لقاء ثمنٍ رخيص - إنّما يأتون حراماً يعذبهم الله عليه بنار جهنّم، يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقة يأكلونها يوم القيامة، جزاء ما اقترفوا من أكل الرّشوة على الدّين^(٢).

وسمّى الله تعالى ما أكلوه في بطونهم ناراً: «لأنّ هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنّما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرّمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم»^(٣).

غضب الجبار أعظم من النار:

والذي أعظم عليهم من عذاب النار: هو غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ» أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، إذ ليس لهم أعمالٌ تصلح للمدح والرّضا، والجزاء عليها، بل يعذبهم عذاباً أليماً؛ لأنهم نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، وعن التّحاكم إليه في الدّنيا، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة.

فما أصبرهم على النار:

وقد ذكر أهل التّأويل - رحمهم الله -^(٤) عدّة معاني في قوله تعالى: «فَمَا أَصْبَرْتُمْ عَلَى النَّارِ»:

١ - مذهب جمهور المفسّرين أنّ (ما) للتّعجب؛ وهو مردود إلى المخلوقين^(٥)، كأنه قال: اعجبوا من صبرهم على النار، ومكثهم فيها!

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٣٩). (٣) تفسير السعدي (١/١٣٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/٩١-٩٢)؛ زاد المسير (١/١٥٣)؛ تفسير القرطبي (٢/٢٤٠-٢٤١).

(٥) لأنّ التّعجب: استعظام الشيء، وخفاء حصول السّبب، وهو مستحيل في حقّ الله تعالى.

٢ - ما لهم والله عليها من صبرٍ، ولكن ما أجراهم على النار، إذ يعملون عملاً يؤدي إليها!

٣ - أن (ما) استفهامٌ معناه التوبيخ. والمعنى: أي شيء صبرهم على عمل أهل النار؟

٤ - ما أقلّ جزعهم من النار؛ فجعل قلة الجزع صبراً، وهذا على وجه الاستهانة بهم، والاستخفاف بأمرهم.

وهذه الآيات المباركات وإن كانت تتوعد - أصلاً - علماء اليهود الذين مردوا على كتمان الحق المنزل - إذا خالف أهواءهم، أو أهواء ساداتهم - إلا أن وعيدها يشمل كل من عمل عملهم، وكان على شاكلتهم، كما قرره القرطبي ثقة بقوله: «وهذه الآية وإن كانت في الأخبار، فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك؛ بسبب دنيا يصيها»^(١).

رابعاً: العذاب المهين:

ذكر العزيز الحكيم جوانب من أحكام الشريعة في صدر سورة النساء، والمتمثلة في: بيان أموال اليتامى، وأحكام الأنكحة، وأحوال الموارث والوصايا ثم ذكر بعد ذلك: الوعد والوعيد، ترغيباً في الطاعة، وترهيباً من المعصية، فقال سبحانه: ﴿يَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذه أحكام الله قد بينها لكم؛ لتعرفوها، وتعملوا بها ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في متابعة حدوده، والعمل بها كما أمره الله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، فهذا هو الوعد.

أما الوعيد: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالَّذِي فِيهَا وَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا شَيْئاً﴾ [النساء: ١٤]. فكل من اعتدى على حدود الله تعالى مكذباً، أو جاحداً، أو مُبدلاً، أو مُبغضاً، فهو متوعد بهذا العذاب المهين؛ لكونه غير ما حكم الله به، وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم

(١) تفسير القرطبي (٢/٢٣٩).

الرُّضَا بما قَسَمَ اللهُ، وِحْكَمَ به، ولهذا يُجَازِيه بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمَقِيمِ^(١).

مسألة: هل يُنْهَمُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنْ مُطْلَقِ الْعَصِيَانِ، مُوجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ؟

جوابها: يُجَبِّئُنَا عَلَى ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ رَكَّةً، حَيْثُ يَقُولُ: «وَالْعَصِيَانُ: إِنْ أُرِيدَ بِهِ الْكُفْرُ، فَالْخُلُودُ عَلَى بَابِهِ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْكِبَائِرُ، وَتَجَاوَزَ أَوْامِرَ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْخُلُودُ مُسْتَعَارٌ لِمُدَّةٍ مَّا. كَمَا تَقُولُ: خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ.

وَقَالَ زُهَيْرٌ^(٢): وَلَا خَالِدًا إِلَّا الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا^(٣)»^(٤).

وَيُجَلِّي السُّعْدِيُّ رَكَّةً الْأَمْرَ بَيَانًا بِقَوْلِهِ: «وَيَدْخُلُ فِي اسْمِ الْمَعْصِيَةِ، الْكُفْرُ فَمَا دُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي، فَلَا يَكُونُ فِيهَا شَبَهًا لِلْخَوَارِجِ الْقَائِلِينَ بِكُفْرِ أَهْلِ الْمَعَاصِي...»

وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ الْمُتَوَاتِرَةُ، عَلَى أَنَّ الْمُوَحَّدِينَ، الَّذِينَ مَعَهُمْ طَاعَةُ التَّوْحِيدِ، غَيْرُ مُخَلَّدِينَ فِي النَّارِ. فَمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ، مَانِعٌ لَهُمْ مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا^(٥).

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٥٩).

(٢) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح بن قرزة بن الحارث، المُرْزَبِي، المُضَرِّي، وُلِدَ فِي بِلَادِ «مُرْزَبَةَ» بِنَوَاحِي الْمَدِينَةِ، حَكِيمُ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: كَانَ لَزُهَيْرٍ فِي الشُّعْرِ مَا لَمْ يَكُنْ لغيره، كَانَ أَبُوهُ شَاعِرًا، وَخَالَه شَاعِرًا، وَأَخْتُهُ سُلْمَى شَاعِرَةٌ، وَابْنَاهُ كَعْبٌ وَبُجَيْرٌ شَاعِرَيْنِ، وَأَخْتُهُ الْخَنْسَاءُ شَاعِرَةٌ. وَكَانَتْ قِصَائِدُهُ تُسَمَّى «الْحَوْلِيَّاتِ» لِأَنَّهُ كَانَ يَنْظُمُ الْقَصِيدَةَ فِي شَهْرِ، وَيُنْقَحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي سَنَةٍ. تُوَفِّي سَنَةَ (١٣) قَبْلَ الْهَجْرَةِ. انظُرْ: كَشْفُ الظُّنُونِ عَنِ أَسَامِي الْكُتُبِ وَالْفُنُونِ، لِمَصْطَفَى الْقَسْطَنْطِينِيِّ (١/٧٦٤)، مَقْدَمَةٌ دِيْوَانِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى، لِأَكْرَمِ الْبَسْتَانِيِّ.

(٣) صَفَّرَ هَذَا الْبَيْتَ:

أَلَا لَا أَرَى عَلَى الْحَوَادِثِ بَاقِبًا

(٤) تفسير القرطبي (٥/٨٦).

(٥) تفسير السعدي (١/٣٢٨).

الخاتمة

وبعد:

فهذا ما وفَّقني الله إليه، ويُسِّره لي في هذا البحث: «هجر القرآن العظيم» ويمكن استخلاص أبرز نقاطه وأهم نتائجه فيما يأتي:

أولاً: في مباحث «الباب الأول»:

١ - إن «هجر القرآن» يعني الأمور الآتية:

أ - ترك الإيمان به، وعدم الالتفات إليه كليّة.

ب - القول الشبهي في القرآن، والرُّعْم الباطل بأنه سِحْرٌ أو سِحْرٌ أو أساطير الأولين، وهذا القول القبيح في حقّ القرآن من الاستهزاء به.

ج - الإعراض والبُعْد عن القرآن، وعدم سماعه، ورَفْع الأصوات بالهذيان إذا قُرئَ لتلا يُسْمَع.

د - ترك العمل به وعدم امتثال أوامره، وعدم اجتناب زواجره.

هـ - ترك تحكيّمه والاحتكام إليه.

و - ترك تدبُّره وتفهُّمه.

ز - ترك تلاوته وحفظه أو نسيانه بعد حفظه.

ح - ترك الاستشفاء والتداوي به.

ط - الحَرَج الذي في الصُّدور منه.

٢ - حُكْمُ هجرِ القرآن العظيم:

يختلف حُكْمُ هجرِ القرآن الكريم باختلاف نوع الهجر، وحالِ الهاجر:

أ - فإن كان هَجْرُ القرآن بترك الإيمان به، أو الإعراض عنه، وعدم التحاكم إليه بالكلية، أو اللغو فيه، فهذا كفر ضراح.

ب - وإن كان الهجر متعلقاً بعدم العمل به - مع الإيمان به، والإقرار بأنه كلام الله تعالى يجب أتباعه - فذلك معصية يتوقف كونها كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها.

ج - وإن كان الهجر بمعنى ترك التلاوة، أو ترك التدبر، أو ترك الحفظ، أو ترك الاستشفاء به - مع القدرة على ذلك - ولم يفعل، فهو مؤاخذاً على فعله بحسب نوع تقصيره في ذلك.

ثانياً: في مباحث «الباب الثاني»:

من نتائج «الفصل الأول»:

١ - من «مظاهر التكذيب بالقرآن»:

الكفر به، والاستكبار عنه، والشك فيه، والتكذيب به، والجحود به، والاستهزاء به وبتعاليمه، وتبديله وتحريفه، والإعراض عنه ونبذه، وترك الاحتكام إليه، وكتمانه، والاختلاف فيه، والجدال فيه، والصدُّ عنه، والنهي عنه، والغفلة عنه، وترك العمل به، وادّعاء نسخه، وادّعاء نقصه، ومضاهاته ومعارضته.

٢ - أجمع علماء المسلمين على كُفْر مَنْ أنكر القرآن العظيم، أو كَذَبَ به، أو جحد منه حرفاً، أو زاد فيه حرفاً، أو بذل حرفاً منه بحرفٍ آخر مكانه.

٣ - أهل الكتاب - في مشارق الأرض ومغاربها - مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه العظيم الذي هو حُجَّةٌ عليهم، كما هو حُجَّةٌ على غيرهم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن بذلك إيمانٍ إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلدٌ في النار.

من نتائج «الفصل الثاني»:

١ - من «أساليب الكُفَّار في استهزائهم بالقرآن» ما يأتي:

أ - الاستهزاء والضحك حال سماع القرآن.

ب - التعجب من عدم نزول الوحي عليهم.

ج - ادّعاؤهم بأنَّ القرآن إفكٌ مفترى، وأساطير الأولين.

د - استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء.

هـ - التندر بالله وآياته.

٢ - الاستهانة - عياداً بالله - بالمصحف، أو بشيء منه، ولها صور متعدّدة: كاتّخاذ الفأل منه، أو الاتّكاء والتوسّد عليه، أو إتلافه وتمزيقه، أو الكتابة عليه، أو إدخاله في أماكن التخلّي، أو الوصية بدفنه مع الميّت في قبره، أو إلقائه في القاذورات، أو بلّهُ بالريق، أو بلع شيء منه، أو تخطيه، أو تركه على الأرض، أو اتّخاذه وتعليقه للبركة من غير قراءة فيه، أو تلويثه، أو جحد شيء منه، أو وطئه بالرجل أو مدّها إليه، أو الجلوس عليه، أو وضع شيء فوقه، أو سبه، أو الاستخفاف به، إلى غير ذلك من الصّور الكثيرة.

٣ - المسلمون كلّهم مُجمعون على وجوب احترام كلام الله تعالى، وتعظيمه، وصيانتها من العيوب والنقائص، فالاستهزاء بكلام الله تعالى، أو كتابه، أو محاولة إسقاط حرمة ومهابته، كفر صريح لا يُنازَعُ فيه أحدٌ، ولو كانت آية واحدة.

من نتائج «الفصل الثالث»:

١ - من «مظاهر سماع القرآن لدى الكفّار» ما يأتي:

أ - الإعراض عن سماع القرآن.

ب - الاستكبار عن سماع القرآن.

ج - التواصي بعدم سماع القرآن.

د - البطش بمن يقرأ القرآن.

هـ - التعامي والتصام عن القرآن.

و - الاستهزاء حال سماع القرآن.

ز - الضّجر والتأفّف.

ح - بُغض سماع القرآن وكرامية قارنه.

ط - التهاون والتغافل عن سماع الوحي.

٢ - من «مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين» ما يأتي:

أ - التشاغل بالغناء عن استماع القرآن.

ب - سماع القرب.

ج - ائشاعل عن اسامع القرآن .

٣ - من «آءاب اسامع القرآن» ما ياءى :

أ - اعظم المءكلم .

ب - اسامعار عظمة الكلام وعلوه .

ج - اضور القلب عند السماع .

ء - اءبر المسموع .

هـ - افهم الآيات المسموعة .

و - اءلخلى عن موانع الفهم .

ز - أن يُقءر - فى نفسه - أنه المقصوء بكل آية اسمعها .

ح - اءاثر بالآيات المسموعة .

ط - اءرقى فى اسامع القرآن .

ي - اءبرؤ من الءول والقوة الءال السماع .

٤ - من «فضائل اسامع القرآن» ما ياءى :

أ - اسامع القرآن سبب لرحمة الله تعالى .

ب - اسامع القرآن سبب لهءاية اءقلين .

ج - اسامع القرآن سبب لءشوع القلب وبكاء العين .

٥ - الإعراض عن اسامع القرآن بالكلية ينافى الإيمان وعضاءه، بل هو

ءقبة اءفاق الأكبر الذى ءكاه الله تعالى عن المنافقين .

٦ - قء يُعرض المسلم - أءياناً - عن اسامع القرآن العظيم، أو عن تلاوته

- مع إقراره بأنه كلام الله تعالى يجب اءباعه - وىكون سبب الإعراض هو

اءكاسل، أو ضعف الإيمان، أو الاشءغال عنه بمالٍ أو بنين أو لعبٍ ولهوٍ

ءمءابة البء الفضائى ونءوه .

فمن المءقق عليه - فىما سبق - أنها معصية لله، مؤاخذ بسببها؛ لأنه قَصْر

وأعرض باءءاره، وىتوقف كون هذه المعصية كبيرةً أو صغيرةً على نوع المءالفة

ءاتها .

من نتائج «الفصل الرابع»:

١ - من «آداب معلّم القرآن» ما يأتي:

أ - الاستقامة على دين الله تعالى.

ب - حُسْنُ الخُلُق مع المتعلّمين.

ج - بذل النصيحة للمتعلّمين.

د - التدرُّج في التعليم والتربية.

هـ - الرِّفْق بالمتعلّمين.

و - الصبر على المتعلّم.

٢ - من «آداب متعلّم القرآن» ما يأتي:

أ - تطهير القلب.

ب - الزُّهد في الدنيا.

ج - التواضع للمعلّم.

د - الدُّعاء للمعلّم والاعتراف بفضله.

هـ - اختيار المعلّم الأصح والأعلم.

و - التّكبير إلى مجلس الدّرس.

ز - التحلّي بالأدب في مجلس التعليم.

٣ - من «فضائل تعلّم القرآن وتعليمه» ما يأتي:

أ - مُعلِّمُ القرآن ومتعلِّمُه متشَبَّهٌ بالملائكة والرُّسل.

ب - خيرُ النَّاسِ وأفضلُهم من تعلّم القرآن وعلمه.

ج - تعلّم القرآن وتعليمه خيرٌ من كنوز الدنيا.

د - تعلِيمُ القرآن من التّعقُّب المتعدي، فمن علِمَ آيةً كان له ثوابها ما ثلثت.

٤ - من «أحكام تعلّم القرآن وتعليمه» ما يأتي:

أ - تعلّم القرآن وتعليمه فرض كفاية على المسلمين، إلا ما نصَّح به الصلاة

من القرآن - وهو الفاتحة - بالإجماع.

- ب - الراجع في حُكم تعليم القرآن لغير المسلم: الجواز إذا رُجِي إسلامه، وعدمُ جواز تعليمه إذا لم يُرَجَّ إسلامه.
- ج - الراجع في حُكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن: الجواز عند الحاجة، وعدمُ جواز الأخذ عند عدمها؛ لما في ذلك من الجمع بين الأدلة وإعمالها جميعاً.

٥ - من «همة السلف في تعليم القرآن» ما يأتي:

- أ - ترك الأوطان لأجل تعليم القرآن.
- ب - تأسيس مدارس وخلق تحفيظ القرآن.
- ج - احتساب أجر التعليم عند الله تعالى.
- ٦ - من «همة السلف في تعلم القرآن» ما يأتي:
- أ - الرحلة من أجل تعلم القرآن.
- ب - ملازمة الشيوخ وعرض القراءة عليهم.
- ج - تحمُّل الشدائد والصعاب بغية تعلم القرآن.
- د - ترك الوطن والمال من أجل تعلم القرآن.

من نتائج «الفصل الخامس»:

١ - من «الأمور المبتدعة في التلاوة» ما يأتي:

التنطع والوسوسة في مخارج الحروف، والخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحن العجم، والقراءة بالحن أهل الفسق والفجور، وقراءة الأنغام والتمطيط، والتحزين والتطريب، والتحريف، والترعيد، وهذه كهذا الشعر، والقراءة في مجلس شرب الدخان، والقراءة والإقراء بشواذ القراءات، وجمع القراءات في مجلس واحد، والتزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة، وقراءة القرآن عند القبر.

٢ - من «أسباب هجر التلاوة» ما يأتي:

الانشغال بالدنيا، وضعف الهمة، والجهل بشمات قراءة القرآن، وتقديم العلوم الأخرى على قراءة القرآن، والحرب المعلنة على القرآن واللغة.

٣ - من «آداب وأحكام تلاوة القرآن» ما يأتي:

إخلاص النية لله تعالى، والعمل بالقرآن، وإجلاله وتعظيمه، وتلاوته على طهارة، واختيار الوقت والمكان المناسبين، وحُسن الجلسة واستقبال القبلة، وتنظيف الفم بالسواك، والاستعاذة والبسملة عند افتتاح التلاوة، وحضُر الفكر أثناءها، واستحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة، واستحباب تحسين الصوت بالقرآن، والنهي عن القراءة بالألحان المُطرَّبة، ووجوب التدبُّر، واستحباب البكاء أثناء التلاوة، واستحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتب عليه مفسدة، واستحباب اتصال التلاوة وعدم قطعها، وإحسانُ الابتداء والوقف أثناء التلاوة، والوقوف عند رؤوس الآيات من السُّنة، وكذلك الإمساك عن القراءة عند غلبة الثعاسر، والشُّجود عند المرور بأية سجدة، والنهي عن الختم في أقلّ من ثلاث، والتحزيب بالسُّور لا بالأجزاء، وموضع دعاء الختم خارج الصلاة لا داخلها.

٤ - من «فضائل تلاوة القرآن» ما يأتي:

أ - التلاوة تجارة رابحة عند أكرم الأكرمين.

ب - تنزل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة.

ج - التلاوة كلها خير: فلا ينبغي للمسلم أن ينصرف عنها، سواء كان من المهرة المثقنين، أم كان من المتفتحين، فيتخذ ضعفه حجة في الإعراض عنها.

د - المؤمن الذي يقرأ القرآن طيب الظاهر والباطن، والمؤمن الذي لا يقرؤه يفقد صفة هامة وهي طيب الظاهر، وهذا نقص في شخصيته لا بدّ من تداركه بالإقبال على التلاوة.

من نتائج «الفصل السادس»:

١ - هجر حفظ القرآن نوعان:

النوع الأوّل: هجره ابتداءً: بعدم حفظه، وبالزُّهد في تعلّمه.

النوع الثاني: هجره بعد حفظه: وذلك بالانشغال عنه، وعدم تعامده فيؤدّي إلى تفلته.

٢ - آداب حفظ القرآن نوعان:

النوع الأوّل: آداب «أثناء الحفظ» وتمثّل فيما يلي:

أ - الإخلاص لله تعالى .

ب - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته .

ج - معرفة أنّ الأصل في تلقّي القرآن حفظه .

د - الرّغبة القويّة الصادقة .

هـ - التّخلُّل من الدُّنيا .

و - الدُّعاء والالتجاء إلى الله .

التّوحيُّم الثّاني: آداب «بعد الحفظ» وتمثّل فيما يلي:

أ - الخوف من الوقوع في الرّياء .

ب - الخشية من العُجب بالنّفس والتّعالي على الخلق .

ج - الحذر من الذُّنوب والمعاصي .

د - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه .

٣ - من «فضائل حفظ القرآن» ما يأتي:

أ - علوّ درجة الحافظ في الآخرة:

* منزلته عند آخر آية يقرؤها .

* يُلبس تاج الكرامة، وحُلة الكرامة، ويفوز بالرّضى .

* الحافظ مع السفارة الكرام البررة .

ب - الحافظ مُقدّم في الدُّنيا والآخرة: فهو أولى النّاس بالإمارة، وبالإمامة

في الصّلاة، وفي الشورى، وفي البرزخ .

ج - حَمَلَة القرآن هُم أهل الله وخاصته، وتكريمهم من إجلال الله تعالى،

ولا تحرقهم النَّار يوم القيامة .

٤ - من «أحكام حفظ القرآن ونسيانه» ما يأتي:

أ - جفّظ القرآن كاملاً فرض كفاية على الأُمَّة بالإجماع .

ب - يجب على كلِّ مسلمٍ جفّظ ما تصحُّ به صلواته من القرآن

بالإجماع .

وأما بقية القرآن فجعّظه مستحبٌّ إجماعاً . وهو متأكّد في حقِّ طلاب العلم

الشرعي أكثر من غيرهم. ويُستحبُّ تحفيظ القرآن للصبيان؛ لأنه منهج السلف الصالح مع أبنائهم.

ج - نسيان القرآن نوحان:

النوع الأول: الذي ينشأ لاشتغاله بأمرٍ دنيوي، وهذا هو المذموم الذي ورد فيه الوعيد.

النوع الثاني: الذي لا ينشأ عن تقصير وإهمال، وإنما هو ناتج عن ضعف الذاكرة، أو تقدم السن، أو الانشغال بأمورٍ لا طاقة له في دفعها.

د - نسيان القرآن أو شيء منه - بعد حفظه - ذنب عظيم، وصرح بعض أهل العلم أنه من الكبائر.

هـ - إذا انشغل العبد بالعلم الواجب أو المندوب، وترتب على ذلك نسيان شيء من القرآن المحفوظ، فلا يُعَدُّ صاحبه آثمًا.

من نتائج «الفصل السابع»:

١ - من «أهمية تدبُّر القرآن» ما يأتي:

أ - أن قراءة القرآن بالتفكير والتدبُّر هي أصل صلاح القلب واستقامته.

ب - ليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التأمل في معاني آياته.

ج - أتى الله تعالى - في مواضع كثيرة - على مَنْ تدبَّر كلامه وتأثر به، وذمَّ مَنْ هجر التدبُّر، ولم يفقه الآيات، ولم يدبِّر القول في صبيغ مختلفة، وأحوال متنوعة.

د - إطباق جمهور المفسرين على وجوب تدبُّر القرآن العظيم.

٢ - من «أسباب هجر التدبُّر» ما يأتي:

الإصرار على الذنوب، والجهل باللُّغة العربية، وانشغال القلب وتشعبه في أودية الدنيا، وترك التدبُّر تورُّعاً، وهجر كتب التفسير، والتشاغل بكثرة التلاوة.

٣ - من «الأمور المعينة على التدبُّر» ما يأتي:

تحسين التلاوة، والإنصات عند السماع، والقراءة في جوف الليل، وحسن

الابتداء والوقف، وفهم المعاني، والوقوف عندها، وترديد الآية المؤثرة في القلب، ومعرفة أساليب القرآن.

٤ - من «ثمرات التدبُّر» ما يأتي:

أ - تعميق جذور الإيمان.

ب - معرفة الرَّبِّ جلَّ جلاله.

ج - تحقيق العبوديَّة لله تعالى.

د - التدبُّر غذاءٌ وعلاجٌ وسلاح.

هـ - التدبُّر فيه تربيةٌ للعقول، وصقلٌ للمواهب، وتنميةٌ للقدرات العقلية،

وهو مفتاح كلِّ خير.

من نتائج «الفصل الثامن»:

١ - المقصود الأعظم من تعلُّم القرآن، وتلاوته، وحفظه، وتدبُّره، هو

العمل به.

٢ - ترك العمل بالقرآن له حالان:

الحال الأوَّل: أن يُخالف أحكام القرآن، وهو لا يعتقد أن غيرها خيرٌ منها،

ولا يُقرُّ بجواز مخالفتها، فهذا عاصٍ مؤاخَذٌ بعصيانه، وليس كافراً.

الحال الثاني: أن يُخالف أحكام القرآن، من مُنْطَلَقِ عدم صلاحيتها، وأنه

يجوز العدول عنها إلى غيرها، فهذا كافراً مرتدُّ.

٣ - جميع ما فُصِّلَ في القرآن العظيم من مكارم الأخلاق، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ

كان متحلِّياً به، بل صار امتثال القرآن - أمراً ونهياً - سجيَّةً له، وخُلُقاً تَطَّلَبُه.

٤ - القرآن العظيم لا تفتح أسراره، ولا يتنفع به، إلا مَنْ يعمل به.

٥ - من «فضائل العمل بالقرآن»:

الهداية، والرَّحمة، والفلاح، وتكفير السَّيِّئات، وإصلاح البال في الدُّنيا

والآخرة.

من نتائج «الفصل التاسع»:

١ - من «أسباب هجر التَّحَاكِمِ إِلَى الْقُرْآنِ» ما يأتي:

أ - كراهية ما أنزل الله .

ب - الاستكبار .

ج - اتباع الهوى .

د - إثارة المتاع العاجل .

هـ - الخوف المُتوقم .

و - التقليد المذموم .

٢ - من «الآثار الذنوبية الحسنة للحكم بما أنزل الله» ما يأتي :

أ - الاستخلاف والتمكين .

ب - الأمن والاستقرار .

ج - النصر والفتح .

د - العزُّ والشرف .

هـ - بركة العيش ورَعْدَه .

و - الهداية والتثبيت .

٣ - من «الآثار الأخروية الحسنة للحكم بما أنزل الله» ما يأتي :

أ - الفلاح والفوز .

ب - المغفرة وتكفير السيئات .

ج - الأجر العظيم .

د - مرافقة الأنبياء والصديقين .

٤ - من «الآثار الذنوبية السيئة للحكم بغير ما أنزل الله» ما يأتي :

أ - قسوة القلوب .

ب - الضلال عن الحق .

ج - النفاق في النفاق .

د - الحرمان من التوبة .

هـ - الصدُّ عن سبيل الله .

و - غياب الأمن وانتشار الفوضى .

ز - انتشار العداوة والبغضاء .

ح - الحرمان من النصر والتمكين .

هـ - من «الآثار الأخروية السيئة للحكم بغير ما أنزل الله» ما يأتي :

أ - الإهانة عند قبض الأرواح .

ب - الوحشة في الحشر .

ج - الأكل من الثَّارِ وغضب الجبَّار .

د - العذاب المهين .

وفي الختام: أسأل الله العظيم ربَّ العرشِ الكريم أنْ ينفع بهذا الجهد، وأنْ يُبارك فيه، وأنْ يغفر لي كُلَّ خطأ، أو سهو، أو تقصير.

وأعوذُ به تعالى من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسمع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

- أولاً: منهج الفهارس.
- ثانياً: فهرس الأحاديث.
- ثالثاً: فهرس الآثار.
- رابعاً: فهرس تراجم الأعلام.
- خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها.
- سادساً: فهرس الفروق اللغوية.
- سابعاً: فهرس الأشعار.
- ثامناً: فهرس الأماكن.
- تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية.
- عاشراً: فهرس الآداب.
- حادي عشر: فهرس الفضائل.
- ثاني عشر: فهرس البدع.
- ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع.
- رابع عشر: المحتوى.

أولاً: منهج الفهارس

تم إعداد الفهارس وفقاً للمنهج التالي:

- ١ - اعتماد رسم الحروف والألفاظ لإيرادها مع ما بعدها حسب الترتيب الألفبائي.
- ٢ - عدم الاعتداد ب(أل) التعريف إلا مع لفظ الجلالة، وعدم الاعتداد بلفظة: «ابن - ابنة - أبو - أم».
- ٣ - الاعتداد بالواو وحرف الجر والباء الزائدة.
- ٤ - عدم التفريق بين: «أَنْ - إِنْ - أَنْ - إِنْ».
- ٥ - عدم التفريق بين همزتي الوصل والقطع.
- ٦ - الهمزة التي على الواو أو الألف أو النبرة اعتُبرت همزة.
- ٧ - اعتبار (لا) حرف مستقل.
- ٨ - فهرس أطراف الحديث ضَمَّن الأحاديث القولية والفعلية والتقريرية، وكذا أوصاف النبي ﷺ. وضمَّن كذلك الأحاديث القدسية مع الإشارة إليها.
- ٩ - في «فهرس الألفاظ ومعانيها» جُرِّدَت الكلمة إلى أصلها، واعتُبر الترتيب الألفبائي.
- ١٠ - في «فهرس الأشعار» اعتُمد الترتيب حسب القافية، واستثنى من ذلك: «الأرجوزة المنبّهة» و«منظومة طيبة النشر»؛ لأنهما لم تلتزما بقافية واحدة، ومنع من تقطيعهما عدم تمام المعنى إذا انفرد كلُّ بيتٍ لحاله، خاصةً في مسائل العقيدة.
- ١١ - في فهارس «الأحكام الفقهية، والآداب، والفضائل، والبدع» اعتُبر الترتيب الموضوعي، والترتيب حسب أرقام الصفحات ما أمكن.

- ١٢ - في «ثبت المصادر والمراجع» قُدِّمَ اسم الكتاب الأقل في عدد الكلمات إذا اشترك عدة كتب في جزء من الاسم مثال: «فضائل القرآن»، «فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاوته وحملته» قُدِّمَ الأول. وإذا اتفق كتابان في الاسم تمَّ اعتماد اسم المؤلف وفقاً للترتيب الألفبائي.
- ١٣ - في «المحتوى» تمَّ اعتماد الفهرس التفصيلي؛ لتعمَّ الفائدة المرجوة منه.

ثانياً: فهرس الأحاديث

طرف الحديث

الصفحة

(١)

- أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ٤٠٧
- أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل ٤٢٨
- إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ٣٠
- إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها ٣٠
- إذا زحرفتم مساجدكم ١٨٠
- إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن ٤١٥
- إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان ٤١٦
- إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم ٥٠٠
- إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ٣١٨
- إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً ٤٢٩
- إذا نرس أحدكم في الصلاة فليرقد ٤١٥
- أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ ١٥٩
- أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جمل ٣٩٠
- اقرأ علي ٢٤٩
- اقرأ فلان! إنها السكينة تنزلت عند القرآن ٤٤٠
- اقرأ يا ابن حضير ٤٤٣
- اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً ٤١١
- اقرأوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم ٨٢
- اقرأوا القرآن وابتغوا به الله ٧٢
- أكثر منافقي أمي قرآؤها ٤٩٥ ، ٤٨٧
- ألا إن كلكم مناج ربه ٤١٠
- ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر ٥٨٩
- ألا وإن في الجسد مضغة ٣٠٨

- ٤١٦ اللهم اكتب لي بها عندك أجراً
- ٤١٦ اللهم لك سجدت وبك آمنت
- ٤١٩ ألم أخبز أنك تصوم الدهر
- ١٩٨ إن أحدكم ليتكلم بالكلمة
- ٣٤٣ إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله
- ٣٤٢ إن أخذتها أخذت قوساً من نار
- ٤٨٧ إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق
- ٤٧٨ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر
- ٣٣٧ ، ٣٢٠ إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه
- ٥٠٠ ، ٤٩٩ إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً
- ٣٨٢ إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال
- ٤٧٨ ، ٢٩٣ إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه
- ٢٦٧ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن
- ٥٩٦ أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ...﴾
- ٣٣٦ أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن
- ٧٨ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجدل في القرآن
- ٢٦٥ إن العبد إذا تسوك ثم قام
- ١٩٧ إن العبد ليتكلم بالكلمة
- ٥٨٠ إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين
- ٤٤٩ ، ٣٣١ إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة
- ٣٤٢ إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها
- ٥٠٣ إن لله أهلين من الناس
- ٣٢٧ إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته
- ٥٠٤ إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم
- ٤٠٩ إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي
- ٤٦٩ أنا أغنى الأغنياء عن الشرك (قدسي)
- ٤٤٤ أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني (قدسي)
- ٣٩٦ أنزلت عليّ آتفاً سورة
- ٢٨١ انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه

الصفحة	
٥١٧ إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون
٤٧٣ إنما بعثك لأبئليك (قدسي)
٣٣٠ إنه بلغني أنكم تريدون أن تتقلوا قرب المسجد
٣٩١ إني كرهت أن أذكر الله ﷻ إلا على طهر
٥٨٩ إني تارك فكيم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي
٤٤٨ إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن
٣١ إني لأعلم إذا كنت عني راضية
٥٨٩ أوصى بكتاب الله
٤٣٨ أوجب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات
٣٢٤ أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان
٣٢٣ أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان
٢٦٧ أين كنت
٥٠٢ أيهم أكثر أخذاً للقرآن

(ب)

٥١٨ ، ٤٨٨ بشر ما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت
٤٠٤ بادروا بالأعمال خصالاً ستاً
٦٣٦ بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً
٣٣٩ بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل

(ت)

٤٢٩ تعاهدوا القرآن
٤٨٨ تعاهدوا هذا القرآن
٤٩٠ تعلموا القرآن فإذا علمتموه فلا تغلوا فيه
٣٣٨ تعلموا القرآن فإنه شافع يوم القيامة
٧٢ تعلموا القرآن وسلوا الله به الجنة
٨٣ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية
٤٤٠ تلك السكينة تنزلت القرآن
٢٦٥ تلك الملائكة دنت لصوتك

(ث)

٤٨١ ثلاث مهلكات: شح مطاع
-----	----------------------------

ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً ٤١٤

(ج)

الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ٤١٠

الجدال في القرآن كفر ٧٦

جمرة بين كتفيك تقلدتها ٣٤٢

(ح)

الحمد لله، كتاب الله واحد ٧١

(خ)

خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ٥٨٦

خذوا القرآن من أربعة ٣٣٨

خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٥٥٣ ، ٣٥٣ ، ٣٣٧ ، ٣٢٠

(ذ)

ذاك الله ﷻ ٤٨٠

الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام ٤٥٢

(ر)

رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحته ٣٩٢

رفع عن أمي الخطأ والنسيان ٥١٩

(ز)

زينوا القرآن بأصواتكم ٤٠٢

(س)

سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ٣٩٥

سجد النبي ﷺ بالنجم ٢٧٤

سجد وجهي للذي خلقه ٤١٦

سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب (الطور) ٢٧٤

سمعت النبي ﷺ يقرأ (والتين والزيتون) ٤٠١

السواك مطهرة للفم ٣٩٤

(ص)

صلوا صلاة كنا في حين كنا ٥٠١

الصفحة
٥٥٤ صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح ب(البقرة)

(ع)

٣٠٤ علّموا ويسروا ولا تعسروا

(ف)

٥٨٦ فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن

٤٢١ إن لزوجك عليك حقاً

٢٧١ فرغت يا أبا الوليد؟

٢٦٤ فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد

٣٧٦ فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن

٤٢٠ في أربعين يوماً

٤٢٠ في شهر

٦٣٨ فيها ما لا عين رأت

(ق)

٣٩٠ قال: انطلق، فانطلقنا

١٧٤ قال رجل في غزوة تبوك في مجلس

٥٥٥ قام النبي ﷺ بأية حتى أصبح يرددها

٤٧٦ قد أفلح من أسلم

٥٩٠ القرآن شافع مشفع

٨٠ القرآن يُقرأ على سبعة أحرف

٤١٧ قرأت على النبي ﷺ (والنجم) فلم يسجد فيها

(ك)

٣٩٤ كان رسول الله ﷺ يتكى في حجري وأنا حائض

٣٣٦ كان رسول الله ﷺ يُشغل فإذا قدم رجل مهاجر

٣٣٦ كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور

٣٣٦ كان رسول الله ﷺ يعلمنا القرآن فإذا مرّ بسجود

٤١٣ كان رسول الله ﷺ يُفطع قراءته

٤٢١ كان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث

٣٩٤ كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك

٤١٩ كان النبي ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد

٣٩٩ كان يقرأ بالسورة فيرتلها
٣٩٩ كان يمد مدّاً
٣٩٩ كانت مدّاً
٤٨٢ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري (قدسي)
٢٩ كنت نهيتكم عن زيارة القبور

(ل)

٤٨٦ لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات
٢٨٣ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن
٤٠٢ لم يأذن الله نسيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن
٢٦٦ لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة
٥٠٦ لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار
٤٨١ لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر
٥٤٩ ، ٤٠٢ ، ٨٧ ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن

(م)

٤١٠ ما أذن الله نسيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن
٣٤٤ ماذا معك من القرآن
٥٨٨ المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة
٤٥٢ الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة
٨٥ مثل البيت الذي يذكر الله فيه
٨٦ مثل الذي يذكر ربه
٤٩٨ ، ٨٦ مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له
٤٤٩ مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة
٨٦ مثل المنافق الذي يقرأ القرآن
٧٩ المرء في القرآن كفر
٣١٠ من أتى إليكم معروفاً فكاثنوه
٣٤٢ من أخذ على تعليم القرآن قوساً، قلده
٣٢٥ من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة
٢٧٥ من أنتم؟
٢٩٤ من تعلم علماً مما يتنقى به وجه الله

الصفحة	
٤٣٥	من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد (قدسي)
٣٢٦	من جاء مسجدي هذا لم يأت إلا لخير
٣١٨	من دعا إلى هدى كان له من الأجر
٣٢٨	من دل على خير فله مثل أجر فاعله
٣٢٩	من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها
٢٩٥	من طلب العلم ليجاري به العلماء
٣٢٨	من علم آية من كتاب الله ﷻ
٣٢٥	من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً
٤٣٧	من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين
٤٣٧	من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة
٤٣٤ ، ٤١١	من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة
٧٣	من قرأ القرآن فليسأل الله به
٤٢٣	من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه
٤٣٢	من نام عن حزبه أو عن شيء منه
٣٧٨	من هذه؟
٢٩	المهاجر من هجر ما نهى الله عنه

(هـ)

٥٧٤	هذا أوان يختلس العلم من الناس
٣٤٥	هل إلا هذا؟

(و)

١٦٦	والذي نفس محمد بيده!
٣٠٥	والصبر ضياء
٤٨٦	والقرآن حجة لك أو عليك
٤٢١	ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة
٤٣٨ ، ٢٦٥ ، ٢٤٦	وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله إلا
٣٤٤	وما أدراك أنها رقية
٥٥١	ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل
٣٣٢	ويكسى والداه حلتين، لا تقوم لهم الدنيا وما فيها

(لا)

٧٧	لا تجادلوا في القرآن
٨٥	لا تجعلوا بيوتكم مقابر
٤٤٦	لا تحاسد إلا في اثنتين
٤٨٣	لا تصيب عبداً نكبةً فما فوقها أو دونها إلا بذنب
٣٧٩	لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل
٤٤٧	لا تنافس بينكم إلا في اثنتين
٢٨	لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة
٢٩	لا تهجروا ولا تدابروا
٤٤٧	لا حسد إلا على اثنتين
٤٤٥	لا حسد إلا في اثنتين
٢٧	لا هجرة بعد الفتح، ولكن
٢٧	لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث
٤٨٢	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر
٤٣٩	لا يقعد قوم يذكرون الله ^{عز وجل} إلا حفتهم الملائكة

(ي)

٥٨٧	يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به
٣٣٨	يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه
٣٠٣	يا عائشة! إن الله رفيق
٥٠٠	يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله
٦٥٦	يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن
٤٩٦	يجيء القرآن يوم القيامة، فيقول
١٥٩	يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر
٧٥	يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم
٥٧٥، ٧٤	يخرج في هذه الأمة قوم تحقرون
٥١٦	يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية
٤٩٤	يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق
٥٣٠	يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوهم

ثالثاً: فهرس الآثار

<u>الصفحة</u>	<u>صاحبه</u>	<u>طرف الأثر</u>
		(١)
٣٥١	عمر بن الخطاب	ابدؤوا بحمص
١٨١	ابن عباس	أنفروا به السارق
٤٧٧	إبراهيم الحربي	أجمع عقلاء كل أمة: أن النعيم لا يدرك بالنعيم
	محمد بن القاسم بن خلاد	الاحتفاظ بما في صدر الرجل أولى من درس دفتره
٤٩١		
٩٦	أبو عبد الرحمن السلمي	أخذنا القرآن عن قوم
٢٩٣	الفضيل بن عياض	أخلصه وأصوبه
٥٤	ابن عباس	إذا أخرج من القبر خرج بصيراً
١٧٨	مجاهد	إذا تئابت وأنت تقرأ القرآن
٤٨٤	وكيع بن الجراح	استعينوا على الحفظ بترك المعاصي
٤١٨	ابن مسعود	اسجد فإنك إمامنا فيها
٥٠٧	أبو أمامة	اقرأوا القرآن ولا تفرنكم هذه المصاحف
٣٥٧	ابن عباس	اكتب
٥١٦	ابن عباس	إلا ما أراد الله أن ينسيكه لتنسى
٣٩٥	علي بن أبي طالب	إن أفواهكم طرق للقرآن
٤١٧	ابن عمر	إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء
٥٥٦	مسروق	أن تميماً الداري <small>رضي الله عنه</small> ردّد هذه الآية
٥١٢	سعید بن جبیر	إن الذي تدعونه المفضل هو المحكم
٤٨٥	مالك بن دينار	إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه
٣٠٠	ابن جبیر	إن مما يهمني
٤٧٦	أبو هريرة	إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة
٣١٢	ابن سيرين	إن هذا العلم دين
٩٤	الحسن البصري	إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان

طرف الأثرصاحبهالصفحة

٩٤	أبو موسى الأشعري	إن هذا القرآن كائن لكم ذخراً
٩٧	ابن مسعود	إن هذا القرآن مآدبة الله
٩٦	أويس القرني	إن هذا المجلس يشاه ثلاثة نفر
٦٣١	عمر بن الخطاب	إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام
١٨٢	أبو العالية	أنت أصغر منها
١٨٢	أبو العالية	أنت أصغر والأم
٥٥٦	بشر بن السري	إنما الآية مثل التمرة
٥٩١	أبو الدرداء	إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول:
٤١٩	عثمان بن عفان	إنما السجود على من استمع
٥٩٢	الفضيل بن عياض	إنما نزل القرآن ليعمل به
٣٠٠	ابن مسعود	إنما هذه القلوب أوعية
٤٨٣	ابن مسعود	إنني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها
٣٩٥	عائشة	إنني لأقرأ حزبي وأنا مضطجعة على سريري

(ب)

٤٨٦	حذيفة	بحسب المرء من العلم أن يخشى الله تعالى
٩٨	قتادة	البلد الطيب: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه
٩٨	مجاهد	البلد الطيب: يتفقه المطر فينبت
٥٥٧	الحسن البصري	بيننا أنا ذات ليلة عند الحسن
٥٩٧	ابن عمر	بيننا الناس بقاء في صلاة الصبح

(ت)

٤١٢	ابن عمر	تدري فيما أنزلت؟
٤٩	علي بن أبي طالب	تزاوروا وتدارسوا الحديث
٥٩١	ابن مسعود	تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا
٢٩٨	عمر بن الخطاب	تعلموا العلم
٣٠١	أبو العالية	تعلموا القرآن
٤٣٥	ابن مسعود	تعلموا هذا القرآن
٥٣٩	ابن عباس	التفسير على أربعة أوجه
٥١٢	ابن عباس	توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين

<u>الصفحة</u>	<u>صاحبه</u>	<u>طرف الأثر</u>
		(ج)
٣٣٠	ابن عباس	جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ
		(ح)
٣٠٣	ابن عباس	حلماء فقهاء
		(خ)
٣٢٧	ابن مسعود	خذها، فوالله لهي خير مما على الأرض
		(د)
٥٥٧	عبّاد بن حمزة	دخلت على أسماء ؓ وهي تقرأ
		(ذ)
٤٤٥	ابن عباس	ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه
		(ر)
٣٥٤	أبو عبد الرحمن السلمي	رؤه، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً
		(س)
٤٢٦	أوس بن حذيفة	سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن
٣٠٠	علي بن أبي طالب	سلوني
٥١٢	ابن عباس	سلوني عن التفسير
٩٧	معاذ بن جبل	سيلى القرآن في صدور أقوام
		(ض)
٥٨٢	ابن عباس	ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل
		(ط)
	الحسن البصري وسفيان الثوري	طلبنا العلم للدنيا فَجَرَّنا إلى الآخرة
٤٧١	ابن المبارك	طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا
٤٧١	حبيب بن ثابت	طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نية، ثم جاءت النية
		(ع)
٣٥٧	مجاهد	عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات

طرف الأثرصاحبهالصفحة

العلم علمان
علمني مما علمك الله
الحسن البصري
عمرو بن قيس الملائي

(ف)

فإن كنت فاعلاً لا بد، فاقراه
فقال النجاشي
فلما أنزل الله هذا في براءتي
ابن عباس
أم سلمة
عائشة

(ق)

قدم عيينة بن حصن
القلوب تُرِبُّ والعلم غرسها
عمر بن الخطاب
جعفر بن محمد

(ك)

كاد الخيران أن يهلكا
كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى
كان القراء أصحاب مجلس عمر
كانوا كما نعتهم الله ﷻ
كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف
كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً
كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان
كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم
الرجل القرآن ثم ينام عنه
كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام
كنت أسمع الحديث من ابن عباس
كيف تركت الأشعري
ابن أبي مليكة
ابن مسعود
ابن عباس
أسماء بنت أبي بكر
إبراهيم النخعي
ابن سيرين
جندب بن عبد الله
أبو العالية
أبو العالية
ابن جبير
عمر بن الخطاب

(ل)

لأن اقرأ البقرة في ليلة
لقد أتى علينا حين، وما نرى أن
لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً
لقد عشت برهة من دهري
لما أمرنا بالصدقة
لما قدم المهاجرون الأوّلون العضة
ابن عباس
عمر بن الخطاب
مجاهد
ابن عمر
أبو مسعود
ابن عمر

الصفحة	صاحب	طرف الأثر
٥٩٨	أم سلمة	لما نزلت: ﴿يَذَرِكْنَ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾
٣٥٧	ابن مسعود	لو أعلم أن أحداً تبلغنيه الإبل
٣٥٧	أبو الدرداء	لو أعيتني آية من كتاب الله ﷻ
٣٢٦	ابن مسعود	لو جعل لأحد خمس فلانصر
٤٨٥	ابن مسعود	ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية
٤١٩	سلمان	ليس لهذا غدونا
٥١٨	سفيان بن عيينة	ليس من اشتهر بحفظ شيء وتفلت منه بناسٍ

(م)

٩٧	قتادة	ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلا بزيادة
٤٧١	سفيان الثوري	ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي
٥٧٩	أنس بن مالك	ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا
٤٨٣، ٣٠١	الضحاك	ما من أحد تعلم القرآن فسيه إلا بذنب
٣٠١	مالك بن دينار	ماذا زرع القرآن في قلوبكم
٥٥٤	إياس بن معاوية	مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التفسير
٢٧٠	ابن عباس	المراد به القرآن
٢٧٠، ٢٥١	التيمي	من أوتي من العلم ما لم يبيكه
٥١٤	طلق بن حبيب	من تعلم القرآن ثم نسيه
٣٢١	عيسى بن عيسى	من عليم وعلم يدعى في الملكوت عظيماً
٥٨٢	ابن عباس	من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله
٩٣	زاذان	من قرأ القرآن يتأكل به الناس

(هـ)

٢٥٠	عمر بن الخطاب	هذا السجود فأين البكي؟
٣٩٩	ابن مسعود	هَذَا كَهَذَا الشَّعْر؟
٤٣٣	مطرف بن عبد الله	هذه آية القراء

(و)

٣٥٦	ابن مسعود	والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا
٤٠٨	الحسن البصري	والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن
٥٥٠	ابن عباس	وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ هو أجدر أن يفقه في القرآن

<u>الصفحة</u>	<u>صاحبه</u>	<u>طرف الأثر</u>
٢٦٩	أبو الدرداء	الوجل في القلب كإحراق السعفة
(لا)		
٤١٣	الفضيل بن عياض	لا تستوحش طرق الهدى لقله أهلها
٥٣١	ابن مسعود	لا تهذوه هذ الشفر
١٨١	سعيد بن المسيب	لا تقولوا مصيحف
٤٧٦	ابن المبارك	لا يتم طلب العلم إلا بأربعة أشياء
٥٩١	عمر بن الخطاب	لا يفرركم من قرأ القرآن
(ي)		
٥٤٠	عمر بن الخطاب	يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟!
٩٩	ابن عباس	يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن
٤١٧	عمر بن الخطاب	يا أيها الناس، إنا نمر بالسجود
٥٤٤	أبو أيوب الأنصاري	يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية
٥٩١	حذيفة	يا معشر القراء استقيموا
٥٩٧	عائشة	يرحم الله نساء المهاجرات الأول
٣٢٧	ابن مسعود	يقتسمون ميراث محمد ﷺ
٤٦٨ ، ٢٩٧	ابن مسعود	ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله

رابعاً: فهرس تراجم الاعلام

الاسم	الشهرة	الصفحة
(١)		
إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشر	إبراهيم الحربي	٤٧٧
إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم	ابن فرحون	١٩٨
إبراهيم بن محمد بن السري	الزجاج	٤٨
إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي	الشاطبي	٥٤٢
إبراهيم بن يزيد بن شريك	التيمي	٩٩
إبراهيم بن يزيد بن قيس	الأسود النخعي	١٨٢
أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس	الإسماعيلي	٥١٧
أحمد بن أحمد بن سلامة	القليوبي	١٩٦
أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن أبي داود	ابن المنادي	٥١٤
أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد	الإمام أحمد	٣١١
أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام	ابن تيمية	١٤٧
أحمد بن علي بن ثابت	الخطيب البغدادي	٤٩١
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	ابن حجر	٢٨
أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب	ابن فارس	١٨
أحمد بن قاسم العبادي	العبادي	٢٠٥
أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن	ابن عقدة	٣٥٤
أحمد محمد شاکر بن أحمد	أبو الأشبال	٦٥١
أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر	ابن حجر الهيثمي	٣٦
إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة	السدي	٩٨
إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء	ابن كثير	٣٢
أصحمة بن أبحر	النجاشي	٢٧٩
أويس بن عامر بن جزء المرادي	أويس القرني	٩٦
إياس بن معاوية بن قره بن إياس	أبو وائلة	٥٥٤

<u>الصفحة</u>	<u>الشهرة</u>	<u>الاسم</u>
		(ب)
٥٥٦	-	بشر بن السريّ الأفوه البصري
٣٦٨	-	بكر بن عبد الله أبو زيد
٣٠٦	-	أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي
		(ت)
٤١٨	-	تميم بن حذلم الضبي
		(ج)
٤٨٣	-	جعفر بن سليمان الضُّبمي
٢٤٠	جعفر الصادق	جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي
		(ح)
٤٧١	-	حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي
٣٥٢	-	الحجاج بن يوسف بن الحكم
٩٤	-	الحسن بن يسار البصري
٧٨	الحليمي	الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم
٤١٤	الكرائيسي	الحسين بن علي بن يزيد
٣١	الطبيي	الحسين بن محمد بن عبد الله
١٩	الراغب الأصفهاني	الحسين بن محمد بن المفضل
٥٠	البغوي	الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء
٧٩	الخطابي	حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب
		(ر)
٦٥	-	رؤبة بن عبد الله بن العجاج
٥٥٧	-	الربيع بن خُثيم بن عائذ الثوري التميمي
١٨٢	أبو العالية	رفيع بن مهران الرياحي
		(ز)
٦٦٤	-	زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن قرّة
٣٦٠	-	زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد
١٤٨	ابن نجيم	زين الدين بن إبراهيم بن محمد

<u>الاسم</u>	<u>الشهرة</u>	<u>الصفحة</u>
(س)		
سعید بن جبیر بن هشام الأسدي	-	٣٠٠
سعید بن المسيب بن حزن بن أبي وهب	-	١٨١
سفيان بن سعید بن مسروق	سفيان الثوري	٢٣٤
سفيان بن عيينة بن أبي عمران	-	٨٨
سليمان بن مهران الكاهلي	الأعمش	٣١٤
(ش)		
شعبة بن الحجاج بن الورد	-	٣٨٢
(ص)		
صلاح أبو إسماعيل	-	٦٥٠
(ض)		
الضحاك بن مزاحم الهلالي	-	٣٠١
(ط)		
طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب	-	٣١٤
طلق بن حبيب العنزري	-	٥١٤
(ظ)		
ظالم بن عمرو بن سفيان	أبو الأسود الدؤلي	٥٤٠
(ع)		
عاصم بن بهدلة	ابن أبي النجود	٣٠٦
عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام	-	٥٥٧
عبد الرؤف بن علي بن زين العابدين	المنائي	٢١١
عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين	أبو الفضل الرازي	٥٠٦
عبد الرحمن بن أحمد بن رجب	ابن رجب	٣٠٥
عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري	السيوطي	٣٣٨
عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي	ابن الجوزي	٥١
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر	السعدي	٣١١
عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل	الرافعي	٣٦
عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك	القشيري	٢٩٣

الاسم	الشهرة	الصفحة
عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة	ابن قدامة المقدسي	١٤٥
عبد الله بن أبي جمرة السبني	ابن أبي جمرة	٢٩٤
عبد الله بن حبيب بن ربيعة	أبو عبد الرحمن السلمي	٩٦
عبد الله بن شداد بن الهاد	-	٤٠٨
عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل	الدارمي	٢٥١
عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة	-	٥٤٠
عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي	ابن المبارك	٤٧١
عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي	الأصمعي	٤٩١
عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان	ابن بطة	١٤٦
عتبة بن ربيعة بن عبد شمس	-	٢٧١
عثمان بن سعيد	أبو عمرو الداني	٢٩١
عكرمة البربري	أبو عبد الله المدني	١٢٩
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم	ابن حزم الظاهري	١٤٦
علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن	الكساني	٣٥٨
علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال	ابن بطال	٨٧
علي بن عقيل بن محمد بن عقيل	ابن عقيل الحنبلي	٢٠٦
علي بن محمد	الماوردي	٢٩٩
علي بن محمد بن خلف المعافري	أبو الحسن القاسبي	٥١٥
علي بن محمد بن عبد الرحمن	الأمدي	١٤٣
عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان	-	٣٥٤
عمرو بن قيس الملائي	-	٣١٠
عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي	القاضي عياض	٨٩
(ف)		
البفضل بن عياض بن مسعود بن بشر	-	٥٩٢
(ق)		
القاسم بن سلام الهروي	أبو عبيد	٨١
القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد	الشاطبي	٣٣٢
قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي	-	٦٥

الاسم	الشهرة	الصفحة
مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر	الإمام مالك	٤٠٤
مالك بن دينار البصري	-	٣٠١
المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم	ابن الأثير	٧٧
مجاهد بن جبر.	-	٤٤
محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة	ابن جماعة	٤٧٠
محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد	ابن رشد	٥١٥
محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة	الأزهري	١٩٥
محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح	القرطبي	٦٣
محمد بن أحمد بن جزى الكلبي	ابن جزى	٢٥٥
محمد بن أحمد بن حمزة	الرملي	٤٠٥
محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز	الذهبي	٢٩٥
محمد بن أحمد بن علي البغدادي	الخطاب	٣٥٣
محمد بن إدريس القرشي	الإمام الشافعي	١٩٩
محمد بن إسحاق بن خزيمة	ابن خزيمة	٣٥٩
محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة	البخاري	٣٠٣
محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز	ابن عابدين	٢٥٧
محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي	الشنقيطي	٥١
محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد	ابن القيم	٣٢
محمد بن جرير بن يزيد	الطبري	٢٦
محمد بن حبان بن أحمد بن حبان	ابن حبان	٨٠
محمد بن الحسين بن عبد الله	الأجري	٩٣
محمد بن سيرين البصري	ابن سيرين	٣١٢
محمد بن صبيح الحداد المغربي	أبو عثمان الحداد	١٤٤
محمد الطاهر بن عاشور	ابن عاشور	٢٣
محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بهادر	المباركفوري	٧٣
محمد بن عبد الرزاق الحسيني	الزبيدي	٥٠٧
محمد بن عبد القوي بن بدران	ابن عبد القوي	٢٠١
محمد بن عبد الله بن بهادر المصري	الزركشي	٢٠٢
محمد بن عبد الله بن محمد	ابن العربي	١٩١

(م)

الصفحة	الشهرة	الاسم
٥٨	الشوكاني	محمد بن علي بن محمد بن عبد الله
١٣١	الرازي	محمد بن عمر بن حسين القرشي
٣٥١	-	محمد بن كعب بن سليم القرظي
٨٣	أبو حامد الغزالي	محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي
٤٧٣	ابن الجزري	محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي
٧٦.	أبو السعود	محمد بن محمد بن مصطفى العمادي
٢٠٢	ابن مفلح	محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي
٤٢١	الألباني	محمد ناصر الدين بن نوح الألباني
٢٥٨	المروزي	محمد بن نصر بن الحجاج
٣١٣	ابن الأخرم	محمد بن النضر بن مر بن الحر
٣٦٧	أبو بكر الطرطوشي	محمد بن انوليد بن خلف بن سليمان
١٩٦	الفيروزآبادي	محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم
١٢٩	أبو حيان	محمد بن يوسف بن علي
٣٧٢	الحُصري	محمود بن خليل الحُصري
٣٥	الأنوسي	محمود بن عبد الله الحسيني الأنوسي
١٢١	الزمخشري	محمود بن عمر بن محمد
٥٥٦	-	مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني النوادعي
٤٣٣	-	مطرف بن عبد الله بن الشخير
٣١٢	-	المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث
١١٣	ابن السمعاني	منصور بن محمد بن عبد الجبار
		(ن)
٢٢	أبو رويم الأصبهاني	نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم
١١٢	السمرقندي	نصر بن محمد السمرقندي
٤٠٠	-	نصر بن عمران الضبيعي
		(و)
٤٨٤	-	وكيع بن الجراح بن ملبح الرُؤاسي
		(ي)
٥٤	الفراء	يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور
٣١١	-	يحيى بن سعيد القطان

<u>الصفحة</u>	<u>الشهرة</u>	<u>الاسم</u>
٢٧	النووي	يحيى بن شرف بن مري بن حسن
٤٧٧	-	يحيى بن أبي كثير الطائي
٥٤١	ابن هبيرة	يحيى بن محمد بن هبيرة
٣٥٩	-	يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي
٢٤١	-	يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني
٢٠٣	ابن عبد الهادي	يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن
١٤٤	ابن عبد البر	يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر

خامسا: فهرس الألفاظ ومعانيها

اللفظ والمعنى

الصفحة

حرف (ا)

مادة .أ ت ر ج .:

الأترجُ: بضم الهمزة والراء، بينهما مشاة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة: شجر يملو،
ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كاللَّيْمون الكبار، وهو ذهبي اللون، زكيُّ
الرائحة، حامض الماء.

٤٥٠ ، ٤٤٩

مادة .أ ز ز .:

أزيز الجرجل: صوت غليانه، ومنه الأز، وهو الإزعاج.

٤٠٧

وأزيز الرّخي: صوتها وحرارتها.

٤٠٨

مادة .أ ف ك .:

الإفك: الكذب، وهو: أشد الكذب.

١٢٠

مادة .أ ه ب .:

الإهاب: جلد لم يُذْبغ.

٥٠٧

مادة .أ ه ل .:

أهلين: جمع أهل، جمعت بالياء والنون لكونها ملحفاً بجمع المذكر السالم.

٥٠٣

حرف (ب)

مادة .ب ر ر .:

البررة: المطيعون لله، مأخوذ من البر؛ وهو الطاعة.

٤٥٢

حرف (ت)

مادة .ت ع ت ع .:

يتعنت فيه: الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه.

٤٥٢

مادة ٠ ت ع س :-

١٢٣ التمسُّ: الهلاك والعتار، والسُّقوط والشَّر والبُعد والانحطاط.

حرف (ث)

مادة ٠ ت ك ل :-

٥٧٤ تَكَلَّتْكَ أَثْمُكَ: فقدتْكَ، وأصله الدَّعاء بالموت، ثم يُستعمل في التَّعجُّب.

حرف (ج)

مادة ٠ ج ح د :-

١٣٢ الجَحْدُ: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه.

١٣١ الجحود: ضد الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به أنه صحيح.

١٣٢ يقال: جحد الأمر، وجحد بالأمر جحداً وجحوداً: أنكره مع علمه به.

مادة ٠ ج ح م :-

١٣٠ الجحيم: النار الشديدة الإيقاد، يقال: جحَم فلان النار: إذا شدَّد إيقادها.

مادة ٠ ج د ل :-

٧٧ الجدل: مقابلة الحجَّة بالحجَّة.

٧٧ المجادلة: المناظرة والمخاصمة.

مادة ٠ ج ر ر :-

اجتره: بجيم ومثناة وراء ثقيلة، والضمير - في الحديث - لولده، أي: اجتره ولده

٤٤٣ من المكان الذي هو فيه حتى لا تطأه الفرس.

مادة ٠ ج ز أ :-

١٢٩ الجزاء: هو عوض العمل وما يقابل به من أجر أو عقوبة.

مادة ٠ ج و ل :-

٤٤٣ جالت الفرس: وثبت واضطربت، وانفوس يطلق على الذكر والأنثى.

حرف (ح)

مادة ٠ ح ز ب :-

٤٢٥ الحزب: الجماعة من الناس، والطائفة من كل شيء.

٤٢٥ والحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد.

- الصفحة
- ٤٢٥ والحزب: النوبة في ورود الماء.
- ٤٢٦ التحزيب: التجزئة، تخريب القرآن: تجزئة القرآن واتخاذ كل جزء حزباً له.
- ٣٠٢ ح ز ر: مادة ح ز ر: حزاورة: جمع خَزُورٍ وحزُور، وهو الذي قارب البلوغ.
- ٤٣٩ ح ف ف: مادة ح ف ف: حفتهم الملائكة: دارت حولهم.
- ٤٦٠ ح ف ظ: مادة ح ف ظ: حفظ: الحاء والفاء والظاء أصل واحد يدل على مراعاة الشيء.
- ٤٦٠ ح ف ظ: حفظ الشيء حفظاً: حرصه، وحفظه: استظهره. والتحفظ: التيقظ وقلة الغفلة، وتحفظ الكتاب: استظهره شيئاً بعد شيء.
- ٤٦٠ الحفظ: نقيض النسيان، وهو: التعاهد وقلة الغفلة. يقال: حفظ الشيء حفظاً، ورجل حافظ من قوم حُفَاط.
- ١٧٤ ح ق ب: مادة ح ق ب: الحَقَب: بفتح الحاء والقاف: جبل يُشدُّ به الرَّحْلُ في بطن البعير.
- ٤٩٦ ح ل ل: مادة ح ل ل: خَلَه: أمر من التحلية، يقال: حليتُه أحليه تحلية: إذا ألبسته التحلية.
- ٧٤ ح ن ج ر: مادة ح ن ج ر: الحناجر: جمع حنجرة، وهي آخر الحلق مما يلي الفم.
- ٨٦ ح ن ظ ل: مادة ح ن ظ ل: الحنظل: نبت مفترش، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة.
- حرف (خ)
- ٢٩٣ ح ل ص: مادة ح ل ص: الإخلاص: أفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد.
- ٤٣٨ ح ل ف: مادة ح ل ف: خلفات: الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها، ثم هي عشار، والواحدة: خَلْفَةٌ وعشراء.

- مادة ٥٤ م ر: :
 ٥٩٧ اخْتَمَرْنَ: غَطَّيْنَ وجوههن .
- مادة ٥٤ خ و ض: :
 ١٧٥ الخوض: المشي في الماء، ثم استعمل في كلِّ دخول فيه تلوث وأذى .

حرف (د)

- مادة ٥٤ د ب ر: :
 ٥٢٤ ، ١٨٠ دَبَّرَ: هلك، يُقَالُ: دَبَّرَ القَوْمُ يَدْبِرُونَ دِياراً: هلكوا . وَادْبَرُوا: إذا وَلَّى أمرُهُمْ إلى آخِرِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ باقية .
- التدبُّرُ: مصدرٌ فَعَلَهُ الماضي: تَدَبَّرَ . وهو فَعَلٌ مزيدٌ، اشتقُّ من الفعل المجرَّد الماضي: دَبَّرَ . ومضارعه: يَدْبِرُ، والمصدر: دَبْرًا ودَبُورًا .
- ٥٢٤ وَدَبَّرَ الثَّهَارُ أو الصَّيْفُ: انصَرَمَ، مَضَى وانقَضَى .
- ٥٢٤ وَدَبَّرَ الشَّيْءَ: جاء بَعْدَهُ وخَلَفَهُ .
- ٥٢٤ وتَدَبَّرَ الأمرُ تَدَبُّراً: نَظَرَ في أدياره، أي: عواقبه، وتَفَكَّرَ فيه .
- ٥٢٤ والتَدَبُّرُ: النظرُ في أديار الأمر . وهو يعني: التأمُّلُ في عواقبه، أو ما يؤول إليه .

مادة ٥٤ د ق ل: :

- ٩٥ الدَّقْلُ: رَدِيءُ الثمرِ ويابسه، وهو: أردأُ التمر .

حرف (ذ)

مادة ٥٤ ذ ق ن: :

- ٢٥١ الأذقان: جمع دَقْنٍ، وهو مجتمع اللِّحْيَيْنِ

حرف (ر)

مادة ٥٤ ر ت ل: :

- ٣٩٨ ، ٣٣١ الترتيل: هو التَّائِي في القراءة والتَّمْهَلُ وتبيين الحروف والحركات .

مادة ٥٤ ر ج ل: :

- ٤٠٧ المِرْجَلُ: قِدْرٌ من نحاس، وقد يطلق على قِدْرٍ يطبخ فيها .

مادة ٥٤ ر ف ق: :

- ٤٤٨ الرُّفْقَةُ: بضم الراء وكسرهما، والأشهر الضم، هم الجماعة المترفقون .

مادة ر ق ي:-

٤٩٤ ارتق: أمر من الفعل رقى يرقى، أي: اصعد.

التراقي: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعنق، وهما ترقوتان

٤٠٠ من الجانبين.

مادة ر م ي:-

٧٥ الرميّة: هي الطريدة من الصيد.

مادة ر ه ب:-

الرهبان: جمع راهب، مثل ركبان جمع راكب، وفرسان جمع فارس، والراهب

من النصرى: المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، مشتق من الرهبة، وهي

٢٧٧ الخوف.

مادة ر و ح:-

الريحان: جنس من النبات، طيب الرائحة من الفصيلة الشفوية، وكل نبت طيب

٨٦ الرائحة، ويقال للمرأة: ريحانة.

حرف (ز)

مادة ز خ خ:-

٩٤ زخ: دفع، يقال: زخخته، أزخه زخاً: إذا دفعته.

مادة ز ل ق:-

٢٢٥ الزلق: بفتحتيْن - زَلُّ الرُّجُل من ملامسة الأرض من طين عليها أو دهن.

مادة ز ه ر:-

٣٢٤ زهاوين: سميتين مائلتين إلى البياض من كثرة السمز.

حرف (س)

مادة س ط ر:-

١١٨ الأساطير: الأباطيل، وهي جمع أسطورة: وهي البصّة المسطورة.

مادة س ط و:-

السطوة: شدة البطش، يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا بطش به وتناوله بالعنف

٥٨ والشدة.

مادة -س ف ر-:

السفرة: جمع سافر، ككتبه وكاتب. والسافر: الرسول. والسفرة: الرسل؛ لأنهم يُسَفِّرون إلى الناس برسالات الله. وقيل: هم الملائكة؛ سُمُوا بذلك؛ لأنهم ينزلون بوحي الله، وما يقع به الصلاح بين الناس، كالسفير يُضَلِّح بين القوم.

٤٥٢

مادة -س ك ن-:

السكينة: الرقار والتأني والسكون. وقيل: الرحمة. وقيل: خُلِّقَ رقيق كالريح والهواء.

٤٤٠

مادة -س م د-:

سامدون: لاهون، مستكبرون.

١٨٦

السُموذ: بمعنى الغناء على لفة جُمَيْر.

١٨٦

مادة -س م ر-:

السُّمَار: هم الجماعة الذين يتحدثون بالليل، مأخوذ من السُمَر، وهو: ظلُّ القمر، ومنه سُمرة اللُّون.

٤٨

مادة -س م ع-:

السَّماع: مصدر مشتق من الفعل سَمِعَ الذي يدل على إدراك الشيء بالأذن، يقال: سَمِعَ الشيء - بالكسر - سَمْعاً وَسَمَاعاً، ويجمع على أَسْمَاع، وجمع الأَسْمَاع: أَسَامِع.

٢١٠

حرف (ش)

مادة -ش ح ب-:

الشاحب: المتغير اللون لعارض من مرض، أو سفر، أو نحوهما.

٣٣١

مادة -ش ر ق-:

شَرَق: بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور.

٥٨٧

مادة -ش ط ن-:

شَطْنين: بفتح الشين المعجمة والطاء: تثنية شطن، وهو الحبل الطويل.

٤٤٠

حرف (ص)

مادة -ص ح ف-:

المصحف: اسم لكل مجموعة من الصحف المكتوبة، ضُمَّت بين دفتين.

١٩٥

المصحف: هو اسم للمكتوب فيه كلام الله تعالى بين الدفتين.

١٩٦

مادة ٥٧٥ ف ف ف:

الصُّفَّة: موضع مُظَلَّل من المسجد النبوي الشريف، كان فقراء المهاجرين يأوون

٣٢٣

إليه، وهم المستنون بأصحاب الصُّفَّة، وكانوا أضياف الإسلام.

٥٨٧

ضوآف: جمع صافئة، وهي الطيور، التي تبسط أجنحتها في الهواء.

حرف (ض)

مادة ٥٧٥ ض غ ن:

٦٤٥

الأضغان: جمع ضِغْن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد.

مادة ٥٧٥ ض ن ك:

٥١

الضنك: الضيق والشدة.

حرف (ط)

مادة ٥٧٥ ط غ ي:

الطاغوت: أصلها ظفؤ، من قول القائل: طفى فلان يطفؤ: إذا عدا قدره فتجاوز الحد.

٦٠٢

والطاغوت: هو كل ذي طغيان على الله، فعَبِدَ من دونه إما بقهر منه لمن عَبَدَه،

وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو

٦٠٢

صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.

حرف (ظ)

مادة ٥٧٥ ظ ل ل:

٤٤٣

الظَّلَّة: ما يقي من الشمس؛ كسحاب أو سقف بيت.

مادة ٥٧٥ ظ ل م:

١٣٣

الظالم: الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة.

حرف (ع)

مادة ٥٧٥ ع ج ب:

٤٨٠

العُجْب: الزُّهُو، ورجل معجب: مزهو بما يكون منه حسناً كان أو قبيحاً.

<u>الصفحة</u>	<u>اللفظ والمعنى</u>
	مادة «ع ض ي»: عفين: جمع عضو، وهو مشتق من قولك: عفتبت الشيء تعضيةً إذا فرقتة.
٦٥	وعفين: السحر، مفردها: عضة، وهي السحر بلسان قريش، ويقال للساحرة: العاضهة.
٦٦	مادة «ع ق ل»: العقال: جليل صغير يُشدُّ به ساعد البعير إلى فخذة.
٤٨٨	مادة «ع ه د»: التمهّد: المراجعة والمعاودة.
٤٨٨	

حرف (غ)

	مادة «غ ش ي»: غشي: غشيتهم الرحمة، أي: غطتهم الرحمة، وغشاه تغشيةً: إذا غطاه، وغشي الشيء: إذا لابه.
٤٣٩	تغشته: علته وقربت منه.
٤٤٠	مادة «غ ل و»: الغلو: التشدُّ ومجاوزة الحد.
٥٠٤	مادة «غ م ز»: الغمز: الإشارة بالجبون والحواجب.
١٧٤	مادة «غ م م»: الغمامة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما، والغياية نفسها.
٥٨٧	

حرف (ف)

	مادة «ف ر ق»: فرقان: قطيعان وجماعتان، وكذلك حزقان، يقال في الواحد: فرق، وجزق، وحزيقة.
٥٨٧	مادة «ف ر ض»: فرض: ألزم وأوجب وحتم.
١١٤	

- مادة ٠ ف ر ي، :
 افتراء: اختلقه من عند نفسه. ١٢٠
- الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد. ١٢٨
- مادة ٠ ف ص ص، :
 التَّفْصِي: الانفصال. ٤٨٩
- مادة ٠ ف و ق، :
 الفُوق: موضع الوتر من السهم. ٧٥
- حرف (ق)
- مادة ٠ ق د ح، :
 البَدْحُ: خشب السهم. ٧٥
- مادة ٠ ق ر أ، :
 القرآن: مصدر قرأ بمعنى تلا. ١٩٤
- وهو: كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر. ١٩٥
- مادة ٠ ق س س، :
 القَسِيسون: هم خطباء النصارى وعلمائهم، واحدهم: قسيس، وقسْر، وقد يجمع على قسوس. ٢٧٧
- مادة ٠ ق ط ط، :
 قَط الشيء: قطعة عَرَضاً. ١٧٩
- مادة ٠ ق ل د، :
 التَّمْلِيد: جعل الفلادة في العنق. ٦٢١
- مادة ٠ ق ل ص، :
 القلائص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة، وتُجمع على قلاص وقُلصُ. ٣٢٦
- مادة ٠ ق ن ت، :
 القانتين: جمع قانت، الطائعتين الخاشعتين. ٤٣٧

مادة - ق ي ن:

القينات: المغنيات.

٢٦٩

حرف (ك)

مادة - ك ف ف:

الكفاف: هو الذي لا يُفضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه.

٤٧٦

مادة - ك ن ن:

الأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء؛ لأنه يكن الشيء، أي: يحجبه.

٥٥

مادة - ك و م:

كؤماوين: مثى كوماء، فقلبت الهمزة في الشبة واواً، وناقاة كوماء: عظيمة السنام طويلته.

٣٢٣

حرف (ل)

مادة - ل ب س:

اللبس: هو الخلط، يقال: لبس الثوب يلبس لبساً، ولبس عليه الأمر يلبس لبساً،

١٥١

أي: خلط.

مادة - ل ح ن:

النحن: النحن والنحن واللحانة والنحانية: ترك الصواب في القراءة.

٣٦٦

مادة - ل غ و:

اللفو: القول الذي لا فائدة منه.

٦١

مادة - ل ق ن:

يلقن: يفهم ويحفظ.

٣٥١

مادة - ل م ز:

يلمزون: يعيرون.

١٧٦

اللمز: الاغتياب وتبع المعاب.

١٧٦

حرف (م)

مادة - م ح ل:

ماحل: مجادل ومدافع، وقيل: ساع مصدق، من قولهم: محل بفلان: إذا سعى

٥٩٠

به إلى السلطان.

- مادة م ر ق: المروق: الخروج، وقيل: هو الخروج السريع.
- ٧٥
- مادة م ر ط: المروط: جمع مِرْط، وهو الإزار، وقيل: هو كل ثوب غير مخيط.
- ٥٩٧
- مادة م ر ي: المراء: الجدال.
- ٧٩
- التماري والمُماراة: المجادلة على جهة الشك والريبة.
- ٧٩
- حرف (ن)
- مادة ن ب ذ: التَّبْدُ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمِّي اللقبط منبذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء.
- ٥٧٩
- مادة ن ش ج: النشيج: أشد البكاء، ونشج الباكي: غصَّ بالبكاء في حلقة من غير انتخاب، وقيل: النشيج: صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره.
- ٤٠٨
- مادة ن ع م: التَّم: الإبل والبقر والغنم.
- ٤٨٩
- مادة ن ف ث: النفث: الشَّعر، وسمي النفث شعراً؛ لأنه كالشيء ينفثه الإنسان من فيه مثل الرقية.
- ٣٩٥
- مادة ن ف خ: التَّنْخُ: الكبر؛ لأن المتكبر يتعظم ويجمع نفسه، فيحتاج أن ينفخ.
- ٣٩٥
- مادة ن ف ر: يَنْجُرُ: يشب ويجول.
- ٤٤٠
- مادة ن ك ب: نكبت الحجارة: لثمت الحجارة برجله وظفَّره، أي: آذته وأصابته.
- ١٧٤

مادة ن ك د:

النكد: الشيء القليل الذي لا ينفع.

٩٨

حرف (هـ)

مادة هـ ج ر:

الهجر: الهاء والجيم والرء أصلان، يدل أحدهما: على قطيع وقطع، والآخر: على شد شيء وربطه.

١٨

والهجر: ضد الزصل، والتهاجر: التقاطع.

١٨

وهجره يهجره هجرأ وهجراناً بالكسر: ضره وقطعه.

١٨

وهجر الشيء يهجره هجرأ: تركه وأغفله وأعرض عنه.

١٨

أهجر في منطبه، إذا أفحش. وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغي، والاسم: الهجر، بالضم.

١٩

وهجر يهجر هجرأ، بالفتح، إذا خلط في كلامه، وإذا هذى.

١٩

أهجرت بالرجل: استهزأت به، وقلت فيه قولاً قبيحاً.

١٩

التهجير والهاجرة: نصف النهار في القبط خاصة، وهجر تهجيراً: سار في الهاجرة.

٢٠

التهجير: المتروك.

٢٠

والتهجير: ييس الثب الذي كسرتة الماشية، وسمي بذلك: لأن الراعي يهجره.

٢٠

الهبجار: خيل يشد به الفحل فيصير سبياً لهجرانه الإبل.

٢٠

هبجار القوس: وترها.

٢٠

مادة هـ ذ ذ:

هذأ: الهذ والهذذ بفتح الهاء هو: سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هذ القرآن يهذه هذأ: إذا أسرع في قراءته وسرجه.

٣٣١

مادة هـ ز أ:

استهزأ: سخر، والهزه والهزؤ: السخرية.

١٧٠

الهزه: مزح في خفية.

١٧٠

الهزه: القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان.

١٧٠

ناقته تهزأ به: تسرع وتخفت.

١٧٠

مادة هـ م ز:-

هَمَز الشَّيْطَانِ هَمْزاً: هَمَسَ فِي قَلْبِهِ وَشَوَّاساً، وَهَمْزَاتِ الشَّيْطَانِ: خَطَرَاتِهِ الَّتِي يَخْطُرُهَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

٣٩٥

مادة هـ و ن:-

الهُونُ: الْهُوانُ وَالذُّلُّ.

١٢٩

حرف (و)

مادة و ج د:-

الوَجْدُ: الْمَحَبَّةُ وَالْهُوَى.

٢٣٠

مادة و ز ر:-

الْوَزْرُ: الْعُقُوبَةُ الثَّقِيلَةُ.

١٣٩

مادة و س د:-

الْوَسَادُ وَالْوَسَادَةُ: الْمَخْدَةُ، وَالْجَمْعُ: وَسَائِدٌ، وَقَدْ وَشَدَّتْهُ الشَّيْءُ فَتَوَسَّدَهُ: إِذَا جَمَلَتْهُ تَحْتَ رَأْسِهِ.

٢٠٢

مادة و ق ر:-

الْوَقْرُ: نَقْلُ السَّمْعِ الْمَانِعِ مِنْ وَصُولِ الصَّوْتِ إِلَى الصَّمَاخِ.

٥٥

الْوَقْرُ: الْحَمْلُ، يُقَالُ: جَاءَ يَحْمِلُ وَقْرَهُ، وَقَدْ أَوْقَرَ بَعِيرَهُ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ الْوَقْرَ فِي جَمَلِ الْبَغْلِ وَالْحَمَارِ.

٥٦

حرف (ي)

مادة ي ر ع:-

الْبِرَاعُ: الْقَصْبَةُ الَّتِي يُصْفَرُ بِهَا الرَّاعِي.

٢٢٩

سادساً: فهرس الفروق اللغوية

- الفرق اللغوي**
- الصفحة**
- ٨٣ الفرق بين المحكم والمتشابه: المحكم: هو ما وضع معناه، وقيل: ما عرف المراد منه، إما بالظهور، وإما بالتأويل. وقيل: هو المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال. المتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال، فالأسماء المشتركة؛ كالقرء، وكالذي بيده عقدة النكاح، وكاللمس. فالأول: متردد بين الحيض والطمهر، والثاني: متردد بين الولي والزوج، والثالث: بين الوطاء والمس باليد، وقيل: ما خفي معناه. وقيل: ما استأثر الله بعلمه؛ كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور.
- ١٣٣ الفرق بين التكذيب والحجود: التكذيب: يصدر عن اشتباه وشك في الأمر. الحجود: الجحود، والجحد، هو نفي ما في القلب ثباته وإثبات ما في القلب نفيه، وأن يجري على خلاف الحق بغير شبهة.
- ١٧١ الفرق بين الاستهزاء والمزاح: الاستهزاء: السخرية والاستخفاف، والمزاح في خفية لا يدري سامعه هل هو ملاطفة أم أذية؟ فالاستهزاء يكون بأذية. المزاح: فهو بغير أذية.
- ١٧٣ الفرق بين الغمز واللمز: الغمز: هو الإشارة بالجفون والحواجب على سبيل السخرية والاستهزاء. اللمز: هو تعيب الناس باللسان، وهو الاغتياب وتبع المعاب.
- ٢١٢ الفرق بين السماع والاستماع والإنصات: السماع: هو مجرد استقبال الأذن لذبذبات صوتية من مصدر معين، دون إعارتها انتبهاً مقصوداً فقد يكون بقصد أو بدون قصد.

الاستماع: هو مهارة يعطي فيها المستمع اهتماماً خاصاً، واهتماماً مقصوداً لما تتلقاه أذنه من أصوات؛ ليتمكن من استيعاب ما يقال، فنلاحظ هنا أن مرتبة الاستماع أعلى من السماع؛ لأن الاستماع لا بد فيه من القصد، ولذلك أمرنا الله تعالى عند تلاوة القرآن علينا بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ ولم يقل: «فاسمعوا».

الإنصات: هو المرتبة الأعلى؛ لأن فيه تركيزاً أعلى من الانتباه والإصغاء والسكون من أجل هدف محدد.

٤٤٦ الفرق بين الحسد والغبط:

الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة، فيتمنى أن تزول عنه، وتكون له دونه.
الغبط: أن يتمنى أن يكون له مثلها، ولا يتمنى زوالها.

٤٨١ الفرق بين الرياء والعجب:

الرياء: من باب الإشراك بالخلق، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِنَّا نَعْبُدُكَ﴾.
العجب: من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمعجب لا يحقق قوله: ﴿وإِنَّا نَسْتَعِينُكَ﴾.

٤٨٩ الفرق بين كيت وكيت، وذيت وذيت:

كيت وكيت: يعبر بهما عن الجمل الكثيرة، والحديث الطويل، وتكون للأفعال.
ذيت وذيت: فهي مثلهما، إلا أنهما يعبر بهما عن الأسماء.

٦٠٥ الفرق بين الحكم والحاكم:

الحكم: هو الذي يفصل في القضايا والخصومات، ولا تطلق إلا على من يحكم بالحق.

الحاكم: لا يشترط لإطلاقها أن يكون حاكماً بالحق.

٦٢٢ الفرق بين الإصماء والإنماء:

الإصماء: أن تقتل الصيد مكانه، يقال: رمى فأصمى، أي: أصاب مقتلاً.
الإنماء: أن ترمي الصيد، فيغيب عنك، فيموت ولا تراه وتجده ميتاً، وإنما نهى عنه - في الحديث - لأنك لا تدري هل مات برميك أو بشيء غيره.

سابعاً: فهرس الأشعار

الشعر

الصفحة

قافية (ا)

دايَنْتُ أروى والدُّبُونُ تُغْضَى وليس دينُ الله بالمُغْضَى ٦٦

قافية (ب)

وما نَبِيلُ المَطَالِبِ بالثَمَنِي ولكنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غَلَابَا ٣٥٦
وما اسْتَغْضَى على قَوْمِ مَنَالٍ إذا الإقْدَامُ كانَ لَهُم رِكَابَا

إنَّ العُلُومَ وإنْ جَلَّتْ مَحاسِنُها فتأجِبها ما بِهِ الإِيمانُ قَدْ وَجِبَا ٥٥٤
هُوَ الكِتابُ العَزِيزُ، اللهُ يَحْفَظُهُ وبعدَ ذِلكَ عِلْمٌ فَرَجَ الكُربَا
وَأَتْلُ بِفَهْمِ كِتابِ اللهِ، فِيهِ أَتَتْ كُلُّ العُلُومِ، تُذَبِّرُهُ نَرَّ العَجِبا

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لِإنْسِبيهِ ولا القَلْبُ إلا أَنَّهُ يَنْقَلِبُ ٥١٦

قافية (ظ)

سائِئِرُ إنْ خَبِثَتْ لَكُمْ كَلِماماً يُنْشَرُ في المِجامِيعِ مِنْ عِكاظِ ٢٨٢

قافية (ل)

لولا المَشَقَّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الجُودُ يُفْقِرُ، والإِقدامُ قِثالُ ٣٥٥

حُدُودُ حُرُوفِ الذِّكْرِ في لَفْظِ قارئِ يَحذِرُ وتَحْقِيقِ ودورِ مُرتِّلا ٣٧٠
فإِنِّي رأيتُ البعضَ يَتَلُو القرآنَ لا يُراعِي حُدُودَ الحِرفِ وَزَنا وَمَنزِلا
فمنهم بِتَرْقِيعِ ولِحنِ وَضَجَةِ ومنهم بِتَرْعِيدِ ونُوحِ تَبَدُّلا
فما كُلُّ مَنْ يَتَلُو القرآنَ يُقِيمُهُ ولا كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ مَجْمُلا
فقدْ نُطِقَ أَعْجامٌ وما اِخْتَرَعُوا به وَخُذْ نُطِقَ عَرَبٌ بِالفِصاحَةِ سؤِلا
فيا قارئِ القرآنِ أَجْمَلُ أَداءَهُ يُضاعِفُ لَكَ الرَّحْمَنُ أَجْراً فَأَجْزِلا

- فيا أيها القاري به مُثْمَسِكَا
هَينِئنا مَرِيثا وَالدَاك عَلِيهَنا
فَما ظَنُّكُم بِالْتَجَلِ عِنْدَ جِزائِهِ
- مُجَلًّا لَهُ فِي كُلِّ خالٍ مُبَجَّلًا
مَلابِسُ أَنْوارٍ مِنَ التَّاجِ وَالْحُلَا
أَوْلِيكَ أَهْلُ اللَّهِ وَالصَّفْوَةُ المَلَا
- سَهْرُ العُيُونِ لِغَيرِ وَجْهِكَ ضانِعٌ
إِذا العَلَمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كانَ حُجَّةً
فَإِنَّ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هَذا فَإِنا
- وَبُكاؤُهُنَّ لِغَيرِ فَقدِكَ باطِلٌ
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ المَذَلَّةِ ساعَةً
- ٤٧٠
- ٥٩٣
- ٣١٥
- قافية (ن)
- ضَحُوا بِأَشْمَطِ عُنوانِ السُّجودِ بِهِ
إِنَّ لَه عِبادًا قُظِنَنا
نَظَرُوا فِيها فَلَمّا عَلِمُوا
جَمَلوها لَجَّةً وَاتَّخَذُوا
- ١٩٥
- ٣٧٧
- قافية (ي)
- وَلَا خالِدًا إِلاَّ الجِبالِ الرُّواسِيا
٦٦٤
- ٣٠٩
- ٣٠٩
- ٢٩١
- وَمَنْ طَلَبَ العُلَا سَهْرَ اللَّيالي
يَغُوصُ البَحْرَ مِنْ طَلَبِ اللَّالي
- وَمَنْ سَمّا بِالفِهْمِ وَالنِّرايَةِ
وَأَشَقَدَ الطَّرِيقَ وَالْأنازِيا
وَعَلِمَ الخِطأَ وَالضُّوابِيا
وَمَيَّزَ الواهِيا وَالْمَعْرُوفِيا
- عَلَيْكَ، وَلَمْ تُعْزِزْ بِما أَنْتَ حابِلُ
يُضدِّقُ قَوْلَ المَرءِ ما هُوَ فاعِلُ
- قَطَعَ الزَّمانَ بِأَسْرِهِ مَذلُولًا
- ضَحُوا بِأَشْمَطِ عُنوانِ السُّجودِ بِهِ
- إِنَّ لَه عِبادًا قُظِنَنا
نَظَرُوا فِيها فَلَمّا عَلِمُوا
جَمَلوها لَجَّةً وَاتَّخَذُوا
- أَلا لا أرى على الحوادثِ باقياً
- العَلَمُ حَزَبٌ لِلْفَتى المُتعالِيا
- بَقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعاليِ
تَرُومُ العَلَمِ نَمَّ تَنامٌ لَيْلًا
مِنْ مَنظُومَةِ «الأَرْجوزَةِ المُنبِهة»:
- فَأَقْصَدُ شُيوخَ العَلَمِ وَالرُّوايَةِ
مَمَّنْ رَوَى وَقَيَّدَ الأَخْبارا
وَفِيهِمُ اللُّغابُ وَالإِغرابِيا
وَحَفِظَ الجِلافَ وَالْمَعْرُوفِيا

وجمع التفسير والأحكاما
وصحب الثناك والأخبارا
وأتبع السنة والجماعة
وجانب الأراذل المبتدعة

ومن عقود السنة الإيمان
وبالحديث المُنند المرؤي
فمن صحيح ما أتى به الأثر
نزل رُبنا بلا امجرأه
من غير ما خد ولا تكجيف
وزلقة المهين الجبار
يوم القيامة بلا ازدحام

من منظومة طيبة النشر:

وبعد: فالإنسان لير يشرف
نذاك كان خاملو القرآن
وأنهم في الناس أهل الله
وقال في القرآن عنهم وكفى
وهو في الأخرى شافع مشفع
يغطي به الملك مع الخلد إذا
نقرا وترقى ذرج الجنان
فليخرص السعيد في تحصيله

ولازم انخداق والأغلاما
وجانب الأذال والأشرارا
وقام لله بخسن الطاعة
واعمل بقول الفرقة المثبعة ٢٩٢

بكل ما جاء به القرآن
عن الأيمة عن النبي
وشاع في الناس قديماً وانتشر
في كل ليلة إلى السماء
سبحانه من قادر لطيف
وأننا نراه بالأبصار
كرؤية البدر بلا غمام

٤٩٧ إلا بما يحفظه ويغرف
أشراف الأمة أولي الإخنان
وإن ربنا بهم يباهي
بأنه أوزنه من اضطفى
فيه وقوله عليه يسمع
توجه نأج الكرامة كذا
وأنواه منه يكسبان
ولا يمل قط من ترتيله

ثامننا: فهرس الأماكن

<u>الصفحة</u>	<u>المكان</u>
٢٩٠	بئر جمل
٢٥٢	البصرة
٢٥٧	برك الغماد
٢٢٢	بُظحان
٢٨١	بِهامة
٢٨٥	الجزائر
٢٥٢ ، ٢٧٨	الجبشة
٢٥١	حمص
٢٥١	دمشق
١٨٧	الطائف
١٨٧	العُضبة
٢٢٢	العقيق
٢٨٢	عكاظ
٢٥١	عَمَواس
٢٥١	فلسطين
٢٥٢ ، ١٧٩	الكوفة
٥٤٤	مصر
٢٧٧	المدينة
٢٥٩	مرو
٢٥٩	مرو الزُوز
١٨٧	مكة
١٥٤	نجران
٢٨١	نَخْلَة
٢٣٦ ، ١٥٤	اليمن

تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية

<u>الحكم</u>	<u>الصفحة</u>
أولاً: أحكام تتعلق بالقرآن:	
١ - أحكام تعظيم القرآن والإيمان به:	
حكم هجر القرآن	٣٥
حكم تعظيم القرآن	٣٦
حكم مَنْ جحد منه حرفاً مجمماً عليه، أو زاد حرفاً	٣٦
حكم من استخف بالقرآن، أو بشيء منه، أو بالمصحف	٣٦
حكم من كذب بشيء مما جاء به من حكم أو خبر	٣٦
حكم من نفى ما أثبتته، أو أثبت ما نفاه، أو شك في شيء من ذلك	٣٦
حكم الجدل في القرآن والمراء فيه	٨٢ ، ٧٦
حكم الإيمان بالقرآن	١٠٤
حكم من أنكر القرآن، أو بعضه، ولو كانت آية واحدة، أو حرفاً واحداً	١٤٤
حكم من لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب	١٥٧
حكم من استهزا بكتاب الله، أو بسنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك أو تنقسه	١٩٨
حكم الهزل بالكفر	١٩٨
حكم من استهزا بالقرآن	١٩٧
٢ - أحكام التلاوة والاستماع:	
حكم قراءة القرآن في البيوت	٩٧
حكم أكل الثوم والبصل قبل التلاوة	١٧٨
حكم استقبال القبلة عند القراءة	١٧٨
حكم الاستماعة والبسملة عند الشروع في القراءة	١٧٨
حكم رفع الصوت عند سماع القرآن	٢٣٠
حكم الاستماع للقرآن حين يقرأ	٢٥٤
حكم الإعراض عن استماع القرآن	٢٥٨
حكم تلاوة القرآن على طهارة	٣٩٠

٣٩١ حكم تلاوة المحدث
٣٩٢ القراءة في الأماكن النظيفة
٣٩٢ حكم القراءة في الأماكن المستخبثة
٣٩٢ حكم التلاوة على الراحلة وفي الطريق
٣٩٣ حكم استقبال القبلة عند التلاوة
٣٩٤ حكم تنظيف الفم بالسواك وغيره
٣٩٥ حكم الاستعاذة عند افتتاح التلاوة
٣٩٦ حكم البسمة
٤٠١ حكم تحسين الصوت بالقراءة
٤٠٤ حكم القراءة بالألحان المطربة
٤٠٧ حكم البكاء أثناء التلاوة
٤٠٩ حكم الجهر بالقراءة
٤١٢ حكم قطع القراءة
٤١٥ حكم سجود التلاوة
٤١٨ حكم سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ
٤١٩ حكم السامع لقراءة فيها سجدة
٤١٩ حكم القدر المستحب في ختم القرآن
٤٢٥ حكم تحزيب القرآن
٤٢٩ حكم دعاء ختم القرآن
	٣ - أحكام تعلم القرآن وتعليمه :
٣٣٧ حكم تعلم القرآن وتعليمه
٣٣٩ حكم تعليم القرآن لغير المسلم
٣٤٠ حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن
٥١٠ حكم حفظ القرآن على الأمة
٥١٠ حكم حفظ القرآن على أفراد المسلمين
٥١٢ حكم تحفيظ القرآن للصبيان
٥١٣ حكم نسيان القرآن
	٤ - أحكام تدبر القرآن والعمل به :
٥٣١ حكم تدبر القرآن

٥٣٩ حكم تعلم وتعليم اللغة العربية
٥٧٢ حكم العمل بالقرآن
٦٠٣ حكم التحاكم إلى القرآن
٦٠٧ حكم إجابة القاضي المسلم
	ثانياً: أحكام تتعلق بالمصحف:
١٧٨ حكم الطهارة عند ملامسة المصحف
١٧٩ حكم تغيير اسم المصحف، ورسمه وحجمه
١٨٠ حكم زخرفة المصحف وتزيينه، وكتابه بأحد النقلين، أو الأعجمية
١٨١ حكم استبدال المصحف، أو توسده، أو رميه عند وضعه
 حكم تغيير كلمة (مصحف) إلى (مصحف)، وكلمة (مسجد) إلى (مسجد)،
١٨٢ وقولهم: سورة صغيرة
١٨٢ حكم وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه
 حكم حمله إلى الأماكن الممتهنة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي
١٨٢ نوع من أنواع الأقدار
 حكم كتابته على الأرض، أو حوائط المساجد وغيرها، أو الكتابة في حواشيه أو
١٨٣ جلده
٢٠١ حكم الانكاء على المصحف
٢٠٢ حكم توسد المصحف
٢٠٣ حكم إتلاف المصحف وتمزيقه
٢٠٤ حكم إدخال المصحف القبر
٢٠٤ حكم بلع شيء من المصحف
٢٠٥ حكم التبرك بالمصحف
٢٠٥ حكم تلويث المصحف
٢٠٦ حكم وطء المصحف
	ثالثاً: أحكام متفرقة:
٢٧ حكم الهجر بين المسلمين
٢٩ حكم زيارة القبور

عاشراً: فهرس الآداب

الموضوع

أولاً: آداب التعامل مع المصحف:

- ١ - نحاشي التصغير في اسمه و رسمه وحجمه ١٧٩
- ٢ - يُطالب من يكتبه بتحسين خطه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه ١٧٩
- ٣ - عدم إضافة شيء إليه، أو زخرفته، أو تحليته، أو كتابته بأحد النقدين، أو كتابته بالأعجمية، أو اتخاذهُ مُتَجَرِّأً ١٨٠
- ٤ - عدم استبداره، أو توسده، أو رميه عند وضعه أو مناولته، أو مد الرجلين إليه، أو التروُّح به، أو استعمال الشمال في تناوله وأخذه ١٨١
- ٥ - عدم تصغير اسمه، وألّا يُقال: سورة صغيرة ١٨١، ١٨٢
- ٦ - الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتهنة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقدار ١٨٢
- ٧ - الحذر من كتابته على الأرض أو الحوائط، أو الكتابة في حواشيه أو جلده ... ١٨٣
- ٨ - الحذر من استعماله في غير ما وضع له؛ كالتثقيب به، أو تعليقه كجزز، أو زينة، أو اقتنائه لمجرد التبرك به ١٨٣

ثانياً: آداب استماع القرآن:

- ١ - تعظيم المتكلم ٢٣٦
- ٢ - استشعار عظمة الكلام وعلوه ٢٣٦
- ٣ - حضور القلب عند السماع ٢٣٦
- ٤ - تدبر المسموع ٢٣٧
- ٥ - فهم الآيات المسموعة ٢٣٨
- ٦ - التخلي عن موانع الفهم ٢٣٨
- ٧ - أن يقدر - في نفسه - أنه المقصود بكل آية سمعها ٢٣٩
- ٨ - التأثر بالآيات المسموعة ٢٣٩
- ٩ - الثرقي في استماع القرآن ٢٤٠
- ١٠ - التبرؤ من الحول والقوة حال السماع ٢٤١

ثالثاً: آداب معلم القرآن ومتعلمه:

أ - آداب مشتركة بين معلم القرآن ومتعلمه:

- ١ - التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد ٢٩٠
٢ - الإخلاص لله تعالى ٢٩٢

ب - آداب معلم القرآن:

- ١ - الاستقامة على دين الله تعالى ٢٩٦
٢ - حسن الخلق مع المتعلمين ٢٩٨
٣ - بذل النصيحة للمتعلمين ٣٠٠
٤ - التدرج في التعليم والتربية ٣٠١
٥ - الرفق بالمتعلمين ٣٠٣
٦ - الصبر على المتعلم ٣٠٥

ج - آداب متعلم القرآن:

- ١ - تطهير القلب ٣٠٨
٢ - الزهد في الدنيا ٣٠٨
٣ - التواضع للمعلم ٣٠٩
٤ - الدعاء للمعلم والاعتراف بفضله ٣١٠
٥ - اختيار المعلم الأصح والأعلم ٣١٢
٦ - التبكير إلى مجلس الدرس ٣١٣
٧ - التحلي بالأدب في مجلس التعليم ٣١٣

رابعاً: آداب التلاوة:

- ١ - إخلاص النية لله تعالى ٣٨٩
٢ - العمل بالقرآن ٣٩٠
٣ - إجلال القرآن وتعظيمه ٣٩٠
٤ - تلاوة القرآن على طهارة ٣٩٠
٥ - اختيار الوقت المناسب ٣٩١
٦ - اختيار المكان المناسب ٣٩٢
٧ - حسن الجلوس واستقبال القبلة ٣٩٣
٨ - استحباب تنظيف الفم بالسواك ٣٩٤
٩ - اجتناب أكل الثوم والبصل قبل التلاوة ١٧٨

- ١٠ - الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
- ١١ - البسمة ٣٩٦
- ١٢ - حصر الفكر أثناء التلاوة ٣٩٧
- ١٣ - استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة ٣٩٨
- ١٤ - استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠١
- ١٥ - عدم القراءة بالألحان المطربة ٤٠٤
- ١٦ - وجوب تدبر القرآن ٤٠٦
- ١٧ - البكاء أو التباكي أثناء التلاوة ٤٠٧
- ١٨ - الجهر بالقرآن إذا لم يترتب عليه مفسدة ٤٠٩
- ١٩ - اتصال القراءة وعدم قطعها ٤١٢
- ٢٠ - أن يحسن الوقف والابتداء أثناء التلاوة ٤١٣
- ٢١ - الوقوف عند رؤوس الآيات ٤١٣
- ٢٢ - أن يُسبِّح عند آية التسبيح، وأن يتعوذ عند آية التعوذ، وأن يسأل عند آية الرحمة ٤١٤
- ٢٣ - الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس ٤١٥
- ٢٤ - السجود عند المرور بآية سجدة ٤١٥
- ٢٥ - مراعاة القدر المستحب في ختم القرآن ٤١٩
- ٢٦ - تحزيب القرآن ٤٢٥
- ٢٧ - دعاء ختم القرآن ٤٢٩

خامسا: آداب حفظ القرآن:

أ - آداب أثناء الحفظ:

- ١ - الإخلاص لله تعالى ٤٦٩
- ٢ - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته ٤٧٢
- ٣ - معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه ٤٧٣
- ٤ - الرغبة القوية الصادقة ٤٧٤
- ٥ - التقليل من الدنيا ٤٧٥
- ٦ - الدعاء والاتجاه إلى الله ٤٧٧

ب - آداب بعد الحفظ:

- ١ - الخوف من الوقوع في الرياء ٤٧٨

<u>الصفحة</u>	
٤٨٠	٢ - الخشية من العُجب بالنفس، والتعالي على الخلق
٤٨٢	٣ - الحذر من الذنوب والمعاصي
٤٨٨	٤ - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه

حادي عشر: فهرس الفضائل

الموضوع

أولاً: فضائل استماع القرآن:

- ٢٤٤ ١ - القرآن الكريم متعبد بسماعه
 ٢٤٥ ٢ - استماع القرآن سبب لرحمة الله
 ٢٤٦ ٣ - استماع القرآن سبب لهداية الثقلين
 ٢٤٩ ٤ - استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين
 ٢٤٩ ٤ - استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين

ثانياً: فضائل تعلم القرآن وتعليمه:

- ٣١٩ ١ - معلم القرآن ومعلمه مثبته بالملائكة والرسول
 ٣٢٠ ٢ - خير الناس من تعلم القرآن وعلمه
 ٣٢٣ ٣ - تعلم القرآن وتعليمه خير من كنوز الدنيا
 ٣٢٧ ٤ - من علم آية كان له ثوابها ما تليت
 ٣٣٠ ٥ - عظيم ثواب من يعلم الصغار القرآن

ثالثاً: فضائل تلاوة القرآن:

- ٤٣٣ ١ - التلاوة تجارة رابحة
 ٤٣٩ ٢ - تنزل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة
 ٤٤٤ ٣ - ذكر الله لهم فيمن عنده
 ٤٤٥ ٤ - اغتباط التالي للقرآن
 ٤٤٧ ٥ - اغتباط القائم بالقرآن
 ٤٤٩ ٦ - التلاوة حلية لأهل الإيمان
 ٤٥٢ ٧ - التلاوة كلها خير

رابعاً: فضائل حفظ القرآن:

- ٤٩٤ ١ - ارتفاع منزلة الحافظ
 ٤٩٦ ٢ - منح الحافظ كرامات متعددة
 ٤٩٨ ٣ - الحافظ مع السفارة الكرام البررة

الصفحة

٤٩٩	٤ - الحافظ مقدم في الدنيا والآخرة:
٤٩٩	أ - الحفاظ هم الأولى بالإمارة
٥٠٠	ب - الحفاظ هم الأولى بالإمامة
٥٠٢	ج - الحفاظ هم أصحاب الشورى
٥٠٢	د - الحفاظ هم المقدمون في البرزخ
٥٠٣	٥ - الحفاظ هم أهل الله وخاصته
٥٠٤	٦ - إكرام الحافظ في الدنيا من إجلال الله تعالى
٥٠٥	٧ - ثناء الله على الحفاظ
٥٠٦	٨ - الحفاظ لا تحرقهم النار

خامساً: فضائل تدبر القرآن:

٥٦٤	١ - تعميق جذور الإيمان
٥٦٥	٢ - معرفة الرب ﷻ
٥٦٦	٣ - تحقيق العبودية لله تعالى
٥٦٧	٤ - التدبر غذاء للروح
٥٦٧	٥ - التدبر علاج يشفي النفوس
٥٦٧	٦ - التدبر سلاح يدفع الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع من الداخل والخارج ...
٥٦٨	٧ - التدبر فيه تربية للعقول
٥٦٨	٨ - التدبر مفتاح كل خير
٥٦٩	٩ - التدبر صقل للمواهب وتنمية للقدرات العقلية

سادساً: فضائل العمل بالقرآن:

٥٨١	١ - الهداية في الدنيا والآخرة
٥٨٣	٢ - الرحمة في الدنيا والآخرة
٥٨٣	٣ - الفلاح في الدنيا والآخرة
٥٨٤	٤ - تكفير السيئات وإصلاح البال

سابعاً: فضائل الحكم بما أنزل الله:

أولاً: في الدنيا:

٦٢٦	١ - الاستخلاف والتنكين
٦٢٧	٢ - الأمن والاستقرار
٦٢٩	٣ - النصر والفتح

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٦٣٠	٤ - العز والشرف
٦٣٢	٥ - بركة العيش ورغده
٦٣٣	٦ - الهداية والتثبيت
	ثانياً: في الآخرة:
٦٣٥	١ - الفلاح والفوز
٦٣٦	٢ - المغفرة وتكفير السيئات
٦٣٧	٣ - الأجر العظيم
٦٣٨	٤ - مرافقة الأنبياء والصديقين

ثاني عشر: فهرس البدع

الموضوع	الصفحة
١ - التنطع في القراءة والوسوسة في مخارج الحروف	٣٦٥
٢ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحن المعجم	٣٦٦
٣ - القراءة بالحن أهل الفسق والفجور	٣٦٧
٤ - قراءة الأنعام والتمطيظ	٣٦٨
٥ - قراءة التحزين والتطريب	٣٦٨
٦ - قراءة التحريف	٣٦٨
٧ - قراءة الترعيد	٣٦٩
٨ - هذه كهذه الشعر	٣٧٠
٩ - القراءة بالإدارة	٣٧٠
١٠ - قراءة القرآن في مجلس شرب الدخان	٣٧١
١١ - القراءة والإقراء بشواذ القراءات	٣٧١
١٢ - جمع القراءات في مجلس واحد	٣٧١
١٣ - قول السامع للقارئ: «الله - الله»	٣٧٢
١٤ - التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة	٣٧٢
١٥ - قراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء	٣٧٣
١٦ - قراءة الفاتحة عند شرط خطبة الزواج، واعتقادهم أن قراءتها عهد لا ينقض، أو أنها تعدل أربعة وأربعين يمينا	٣٧٣
١٧ - قول بعضهم بعد قراءة القرآن: الفاتحة	٣٧٣
١٨ - قول بعضهم: الفاتحة على روح فلان	٣٧٣
١٩ - قراءة الفاتحة بعد الدعاء	٣٧٣
٢٠ - قراءة الفاتحة بعد صلاة الفريضة	٣٧٣
٢١ - قراءة الفاتحة جهراً بعد التسليم من صلاة الجنازة	٣٧٣
٢٢ - قراءة الفاتحة عند رأس الميت	٣٧٣
٢٣ - قراءة الفاتحة عند المرور بالمقابر	٣٧٣
٢٤ - قراءة القرآن عند القبر	٣٧٣

ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن وما يتبعه:

- ١ - الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودهاته: سامي بن وديع عبد الفتاح. (رسالة ماجستير في التفسير) - جامعة آل البيت، الأردن.
- ٢ - الإثقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق وتخريج: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٣ - الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم: دراسة ونقد د. إبراهيم علي السيد علي عيسى. دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٤ - الأحكام الشرعية لقراءة القرآن الكريم: د. محمود أحمد الأطرش. دار الإيمان، الإسكندرية.
- ٥ - الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم: أ.د. عبد العزيز بن محمد الحجيلان. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
- ٦ - أحكام القرآن: محمد بن عبد الله بن العربي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، لبنان.
- ٧ - أخلاق حملة القرآن: محمد بن الحسين الأجرّي. تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٨ - الأرجوزة المنبّهة على أسماء القراء والرؤاة وأصول القراءات وعقد البيانات بالتجويد والدلالات: أبو عمرو الداني. تحقيق: محمد بن مجقان الجزائري، دار المعني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٩ - أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: د. عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
- ١٠ - أسلوب السخرية في القرآن الكريم: د. عبد الحلیم حنفي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ١١ - الأمثال في القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية (منتخب من أعلام الموقعين). تحقيق: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- ١٢ - أنوار القرآن: مصطفى الحمصي. مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ١٣ - بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم: جمع وتخريج: يسري السيد محمد. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٤ - بدع القراء القديمة والمعاصرة: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار الفارق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ١٥ - البذور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ١٦ - البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.
- ١٧ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة بدون.
- ١٨ - بيان إحصاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إحصاز القرآن، للخطابي، والرماني، والجرجاني: حمد بن محمد الخطابي. تحقيق: د. محمد زغلول سلام وآخرين، دار المعارف، مصر، ١٣٧٦هـ.
- ١٩ - التبيان في آداب حملة القرآن: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: نبيل بن منصور البصارة، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٢٠ - التبيان في أقسام القرآن: ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه شاهين، دار الكتاب العربي.
- ٢١ - تدبر القرآن: سليمان بن عمر السندي. المنتدى الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
- ٢٢ - التذكار في أفضل الأذكار: محمد بن أبي بكر القرطبي. دراسة وتحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٢٣ - التسهيل لتأويل التنزيل (سورة البقرة): مصطفى بن العدوي. دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٢٤ - تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني): محمود الألوسي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٥ - تفسير البغوي (معالم التنزيل): الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: خالد بن عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٦ - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي. دار الفكر، بيروت.

- ٢٧ - تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- ٢٨ - تفسير ابن جُزَي (التسهيل لعلوم التنزيل): محمد بن أحمد بن جُزَي الكلبي. تحقيق: محمد عبد المنعم وإبراهيم عطوه، أم القرى للطباعة، القاهرة.
- ٢٩ - تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٣٠ - تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير): عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ٣١ - تفسير ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد الرازي. تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
- ٣٢ - تفسير أبي حيان (البحر المحیط): محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- ٣٣ - تفسير الرازي (التفسير الكبير): محمد بن عمر بن الحسين الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٣٤ - تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وهيون الأقاويل في وجوه التأويل): محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة بدون.
- ٣٥ - تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السعدي. تقديم: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ. (عدد الأجزاء ١).
- ٣٦ - تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السعدي. دار المدني، جدة، الطبعة بدون، ١٤٠٨هـ. (عدد الأجزاء ٥).
- ٣٧ - تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): محمد بن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٨ - تفسير السمرقندي (بحر العلوم): نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي. تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.
- ٣٩ - تفسير السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني. تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٤٠ - تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور): عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

- ٤١ - تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي. أخبار اليوم، القاهرة.
- ٤٢ - تفسير الشنيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن): محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنيطي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٤٣ - تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير): محمد بن علي بن محمد الشوكاني. اعتنى به: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٤٤ - تفسير الصنعاني: عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٤٥ - تفسير الطبري (جامع البيان عن وجوه تأويل أي القرآن): محمد بن جرير الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٤٦ - تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير): محمد الطاهر ابن عاشور. مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٤٧ - تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤٨ - تفسير القاسمي (محاسن التأويل): محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٤٩ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تحقيق وتخریج: د. محمد إبراهيم الحفناوي ود. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٥٠ - تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ. (عدد الأجزاء: ٤).
- ٥١ - تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق: جماعة من الباحثين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ. (عدد الأجزاء: ٨)
- ٥٢ - تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم): محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ٥٣ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: أ. د. وهبة الزحيلي. دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- ٥٤ - التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية: د. عبد العزيز الدردير موسى. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- ٥٥ - تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٥٦ - تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): علي بن أحمد الواحدي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٥٧ - التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ.
- ٥٨ - التصوير الفني في القرآن: سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١٣هـ.
- ٥٩ - تقريب وتهذيب تفسير الطبري: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٦٠ - الثمر الداني من صحيحة الألباني في فضائل القرآن وأحكامه: إبراهيم المناوي. القاهرة، الطبعة بدون.
- ٦١ - جمال القراءة وكمال الإقراء: محمد بن علي بن عبد الصمد السخاوي. تحقيق: د. علي حسين النواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٦٢ - حديث القرآن عن القرآن: محمد بن عبد الرحمن الرأوي. مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٦٣ - جِزْز الأمانى ووجه الشَّهاني في القراءات السبع: القاسم بن فيزْه بن خلف الشاطبي. دار الكتاب النفيس، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
- ٦٤ - حفظ القرآن الكريم: محمد بن عبد الله الدويش. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- ٦٥ - حق التلاوة: حسني شيخ عثمان. دار المنارة، جدة، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٨هـ.
- ٦٦ - حق القرآن الكريم على الناس: يوسف علي بديوي. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٦٧ - الحكم والتحاكم في خطاب الوحي: عبد العزيز مصطفى كامل. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٦٨ - خصائص القرآن الكريم: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي. رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ.
- ٦٩ - دراسات في علوم القرآن الكريم: د. فهد الرومي. مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- ٧٠ - دراسات قرآنية: محمد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١١هـ.
- ٧١ - دهوة إلى تدبر القرآن الكريم: مختار شاکر کمال. دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٧٢ - دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية. تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ٧٣ - رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم: د. محمد جمعة عبد الله. جامعة أم القرى بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٧٤ - السبعة في القراءات: أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي. تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- ٧٥ - طيبة النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد بن علي ابن الجزري. ضبطه وراجعه: محمد تميم الزعبي، دار الهدى، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ٧٦ - عظمة القرآن الكريم: محمود بن أحمد الدوسري. دار ابن الجزري، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ٧٧ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاکر. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٧٨ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف الحلبي (ت ٧٥٦هـ). تحقيق: محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٧٩ - العودة إلى القرآن لماذا وكيف: د. مجدي الهلالي. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٨٠ - غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- ٨١ - فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق بن حسن القنوجي. وُضِعَ حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- ٨٢ - فتح الرحمن في بيان هجر القرآن: محمد آل عبد العزيز ومحمود الملاح. دار طيبة الخضراء، مكة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- ٨٣ - الفتوحات الربانية في الآيات القرآنية: د. عبد الباري محمد داود. دار نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- ٨٤ - فضائل القرآن: جمع وترتيب إبراهيم عبد المنعم الشربيني. دار ابن كثير، الزقازيق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

- ٨٥ - فضائل القرآن: أحمد بن شعيب بن علي النسائي. تحقيق: سمير الخولي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٨٦ - فضائل القرآن: جعفر محمد الفريابي. تحقيق وتخريج: د. يوسف عثمان جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ٨٧ - فضائل القرآن: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق وتخريج: مجموعة من الباحثين، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٨٨ - فضائل القرآن: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق وتخريج: أبو إسحاق الحويني الأثري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- ٨٩ - فضائل القرآن وتلاوته وخصائص ثلاثه وحملته: عبد الرحمن بن أحمد الرازي. تحقيق وتخريج: د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٩٠ - فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة: محمد موسى نصر. دار اليقين، البحرين، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- ٩١ - فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة: محمد بن أيوب بن الضريس البجلي. تحقيق: عروة بدير، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٩٢ - فقه قرآنة القرن الكريم: سعيد يوسف. مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٩٣ - فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن: د. أحمد سالم ملحم. دار التفائس، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٩٤ - في ظلال القرآن: سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٠٧هـ.
- ٩٥ - قاهدة في فضائل القرآن: ابن تيمية. دراسة وتحقيق: د. سليمان بن صالح القرعاوي، مكتبة الظلال، الأحساء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٩٦ - القرآن الكريم تاريخه وآدابه: إبراهيم علي عمر. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٩٧ - القرآن الكريم رؤية تربوية: د. سعيد إسماعيل علي. دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٩٨ - قرآنكم يا مسلمون: إبراهيم بن محمد الضبيعي. مطابع البادية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

- ٩٩ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله: د. عبد الرحمن بن حسن حبنكة. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ١٠٠ - القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ١٠١ - الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن: محمد بن مصطفى بن شعيب. مكتبة آل ياسر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ١٠٢ - كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها: د. نور الدين عتر. دار الرؤية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٠٣ - كيف تحفظ القرآن الكريم: عبد الرب نواب الدين. مكتبة ابن القيم، المدينة النبوية، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ١٠٤ - كيف نتأدب مع المصحف: محمد رجب فرجاني. دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٣هـ.
- ١٠٥ - كيف نتدبر القرآن: فواز أحمد زمرلي. دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ١٠٦ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم: د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٠٧ - كيف نحيا بالقرآن: نبيه زكريا عبد ربه. دار الحرمين، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ١٠٨ - مباحث في علوم القرآن: مناع القطان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة والثلاثون، ١٤١٨هـ.
- ١٠٩ - الْمُتَحَفُّ فِي أَحْكَامِ الْمَصْحَفِ: د. صالح بن محمد الرشيد. مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١١٠ - مختصر تفسير البغوي: د. عبد الله بن أحمد علي الزيد. دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١١١ - المدروس والكتاتيب القرآنية وفتات تربوية وإدلوية: سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١١٢ - المدخل لدراسة القرآن الكريم: أ. د. محمد بن محمد أبو شهبة. غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١١٣ - مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن الكريم: أحمد مصطفى الطهطاوي. دار الفضيلة، القاهرة.

- ١١٤ - مرويات دعاء ختم القرآن: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١١٥ - المصاحف: عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
- ١١٦ - معاني القرآن: يحيى بن زياد الفراء. تحقيق: د. إبراهيم الدسوقي، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٨٩م.
- ١١٧ - مع القرآن وحملته في حياة السلف: عبيد بن أبي نفيع الشعبي. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- ١١٨ - مفاتيح للتعامل مع القرآن: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ١١٩ - من أسرار عظمة القرآن: د. سليمان بن محمد الصغير. دار ابن الأثير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٢٠ - مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني. المكتبة المصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٢١ - منجد المقرئين ومرشد الطالبين: محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري. اعنتي به: علي بن محمد العمران، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ١٢٢ - منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم: د. بدر بن ناصر البدر. دار الهدى النبوي، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١٢٣ - مهارات التدريس في الحلقات القرآنية: د. علي بن إبراهيم الزهراني. دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٢٤ - نحو أداء متميز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم: سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي. مطابع أضواء البيان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ١٢٥ - النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد بن علي ابن الجزري. تحقيق: علي الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة بدون.
- ١٢٦ - النصيحة لكتاب الله: د. حافظ بن محمد الحكمي. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ١٢٧ - نظم الدرر في تناسب الآي والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ١٢٨ - نَقَطُ المصاحف: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني. تحقيق: د. عزة حسن، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

- ١٢٩ - هذا القرآن في مائة حديث نبوي: د. محمد زكي محمد خضر. الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
- ١٣٠ - ورتل القرآن ترتيلاً: د. أنس أحمد كرزون. مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر. الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
- ١٣١ - يعلمهم الكتاب، التعامل مع القرآن الكريم: محمد خير الشغال. دار أفنان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ثانياً: كتب الحديث وعلومه:
- ١٣٢ - الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان البستي. بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، مؤسسة الرسالة، دمشق، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١٣٣ - أحكام الجنائز وبدورها: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.
- ١٣٤ - الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ١٣٥ - الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار: يحيى بن شرف النووي. دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ١٣٦ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ١٣٧ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق وتخرّيج: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة الدليل، الجبيل الصناعية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١٣٨ - التاريخ الصغير (الأوسط): محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، مكتبة دار التراث، حلب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
- ١٣٩ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ١٤٠ - الترهيب والترهيب من الحديث الشريف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ.
- ١٤١ - تغليق التعليق على صحيح البخاري: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبد الرحمن القرقي، المكتب الإسلامي، بيروت، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

- ١٤٢ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- ١٤٣ - تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: علي بن محمد الكناني. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- ١٤٤ - تنوير الحوائك شرح موطأ الإمام مالك: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. المكتبة التجارية، مصر، ١٣٨٩هـ.
- ١٤٥ - التيسير بشرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي. مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- ١٤٦ - جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق وتخرير: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ١٤٧ - جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ١٤٨ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- ١٤٩ - حاشية السندي على سنن النسائي: أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي. (مطبوع مع سنن النسائي)، اعنتى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ١٥٠ - خلق أفعال العباد: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل البخاري. تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض، ١٣٩٨هـ.
- ١٥١ - الرحلة في طلب الحديث: أحمد بن علي أبو بكر البغدادي. تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
- ١٥٢ - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: يحيى بن شرف النووي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ.
- ١٥٣ - الزهد: أحمد بن محمد بن حنبل. تحقيق: محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ١٥٤ - الزهد: عبد الله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٥٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض، عدة طبعات مختلفة التاريخ.

- ١٥٦ - سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث، بيروت. بدون تاريخ.
- ١٥٧ - سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. تحقيق وتخريج: مجموعة من الباحثين. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ١٥٨ - سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٥٩ - سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور. تحقيق: د. سعد بن عبد الله آل حميد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٦٠ - السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
- ١٦١ - السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: د. عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ١٦٢ - سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت. بدون تاريخ.
- ١٦٣ - شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- ١٦٤ - شرح السندي على سنن ابن ماجه: أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي. تحقيق: خليل مأمون شبيحا، دار المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ١٦٥ - صحيح الأدب المفرد للبخاري: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق، الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٦٦ - صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد علي القطب، مكتبة الميكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١٦٧ - صحيح الترمذي والترهيب: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ١٦٨ - صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ١٦٩ - صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد البستي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ١٧٠ - صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري. تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

- ١٧١ - صحيح سنن الترمذي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١٧٢ - صحيح سنن أبي داود باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ١٧٣ - صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- ١٧٤ - صحيح سنن النسائي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ١٧٥ - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ١٧٦ - صحيح مسلم بشرح النووي: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: خليل مأمون شيبعا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ.
- ١٧٧ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- ١٧٨ - الملل المتناهية في الأحاديث الواهية: عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد عبد الحق الأثري، دار العلوم الأثرية، باكستان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
- ١٧٩ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري: محمود بن أحمد العيني. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٨٠ - عون المعبود شرح سنن أبي داود: محمد شمس الحق العظيم آبادي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ١٨١ - فريب الحديث: القاسم بن سلام أبو عبيد الهروي. تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- ١٨٢ - الفتاوى الحديثية: أحمد بن حجر الهيتمي. مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ١٨٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مكتبة دار الفيحاء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٨٤ - الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (مع مختصر شرحه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني): كلاهما تأليف أحمد عبد الرحمن البنا. دار الشهاب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٨٥ - فتح المغيب شرح ألفية الحديث: محمد بن عبد الرحمن السخاوي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

- ١٨٦ - فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري: فضل الله أحمد الجيلاني. تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، دار المعالي، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ١٨٧ - فيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي. تحقيق: حمدي الدمرداش محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٨٨ - كتاب الجهاد: عبد الله بن المبارك. تحقيق: نزيه حماد، التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.
- ١٨٩ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ١٩٠ - كشف المُشكَل من حديث الصحيحين: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: علي بن حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ.
- ١٩١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي المتقي بن حسام. الدين الهندي. تحقيق: بكري حياتي وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.
- ١٩٢ - لسان الميزان: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.
- ١٩٣ - المجروحين: محمد بن حبان البستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب.
- ١٩٤ - مجمع البحرين في زوائد المعجمين: علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: عبد القدوس محمد نذير، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٤م.
- ١٩٥ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- ١٩٦ - مختصر قيام الليل: محمد بن نصر المروزي. اختصار: أحمد بن علي المقرئ، (ت: ٨٤٥هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ١٩٧ - المدخل إلى كتاب الإكليل: محمد بن عبد الله الحاكم. تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية.
- ١٩٨ - المراسيل: أبو داود سليمان بن الأشعث. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٩٩ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن سلطان القاري. تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- ٢٠٠ - المستدرک علی الصحیحین: محمد بن عبد الله الحاکم. دراسة وتحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة، بیروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٠١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل الشیبانی. مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاریخ.
- ٢٠٢ - مسند الإمام أحمد بن حنبل (الموسوعة الحدیثیة): تحقیق وتخريج: جماعة من الباحثین، بإشراف شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بیروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٢٠٣ - مسند البزار (البحر الزخار): أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. تحقیق: د. محفوظ الرحمن زین الله، مكتبة العلوم والحکم، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢٠٤ - مسند الشاميين: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقیق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بیروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠٥ - مسند الشهاب: محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي. تحقیق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بیروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- ٢٠٦ - مسند الطيالسي: سليمان بن داود الطيالسي (ت: ٢٠٤هـ). دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢١هـ.
- ٢٠٧ - مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي. تحقیق: حسين سليم أحمد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٠٨ - مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي. تحقیق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بیروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠٩ - مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: أحمد بن أبي بكر الكناني. تحقیق: محمد المتقي الكشناوي، دار العربية، بیروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٢١٠ - مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة. تحقیق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢١١ - المطالب العالیة بزوائد المسانيد الثمانية: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقیق: د. سعد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٢١٢ - مصنف عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقیق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بیروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٢١٣ - معالم السنن: حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي. تحقیق: أحمد محمد شاکر ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة، بیروت، بدون تاریخ.

- ٢١٤ - معجم الطبراني الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ٢١٥ - معجم الطبراني الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ٢١٦ - المُعلِّم بفوائد صحيح مسلم: محمد بن علي المازري. تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- ٢١٧ - موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثية: مجموعة من الباحثين. مجلة الحكمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٢١٨ - نوادر الأصول في أحاديث الرسول: محمد بن علي أبو عبد الله الحكيم الترمذي. تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- ثالثاً: كتب العقيدة وما يتبعها:
- ٢١٩ - الإبانة عن شريعة الفرقه الناجية ومجانبة الفرق الملمومة: ابن بطة الحنبلي. تحقيق: رضا بن نسان معطي، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢٢٠ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٢١ - الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد: د. صالح بن فوزان الفوزان. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
- ٢٢٢ - أعلام النبوة: علي بن محمد الماوردي. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢٣ - الإيمان أركانه حقيقته نواقضه: د. محمد نعيم ياسين. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٢٢٤ - الإيمان بالكتب: محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٢٢٥ - البابية عرض ونقد: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
- ٢٢٦ - البهائية نقد وتحليل: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
- ٢٢٧ - التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
- ٢٢٨ - تهليل رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات: محمد بن إسماعيل الرشيد. مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٢٩ - التجانية: علي بن محمد الدخيل. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

- ٢٣٠ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: أحمد عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: علي سيد المدني، مطبعة المدني، مصر.
- ٢٣١ - الخُبَّة في بيان المحبَّة وشرح عقيدة أهل السنة: أبو القاسم الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، محمد أبو رحيم، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٣٢ - الحركات الباطنية: د. محمد بن أحمد الخطيب. دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٩م.
- ٢٣٣ - حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة: موفق الدين ابن قدامة. تحقيق: عبد الله الجديع، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٢٣٤ - الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٢٣٥ - الدررة فيما يجب اعتقاده: علي بن أحمد بن حزم الظاهري. تحقيق: أحمد الحمد وسعيد الفزقي، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٢٣٦ - الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الفئانات: أبو عمرو الداني. تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٢٣٧ - ركائز الإيمان: محمد قطب. دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٢٣٨ - الزواجر عن اقتراف الكبائر: أحمد بن محمد الهيتمي. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٢٣٩ - شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. تحقيق: أبي هاجر زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٢٤٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النساني، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ٢٤١ - الشيعة والسنة: إحسان إلهي ظهير. إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الثلاثون، ١٤٠٥هـ.
- ٢٤٢ - الصارم المسلول على شاتم الرسول: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: محمد الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٢٤٣ - الفصل في الملل والأهواء والنحل: علي بن أحمد بن حزم الظاهري. تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر، د. عبد الرحمن عميرة، مكتبات عكاظ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

- ٢٤٤ - كشف أسرار الباطنية: أبو الفضائل الحماوي اليماني. دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ٢٤٥ - مختصر الصواعق المرسله لابن القيم: اختصره: محمد بن الموصللي، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٢٤٦ - مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعه: د. ناصر بن عبد الله القفاري. دار طيبة، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ.
- ٢٤٧ - الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ٢٤٨ - النهج الأسى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد بن حمد الحمود. مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٢٤٩ - نواقض الإيمان القولية والمعملية: د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ٢٥٠ - هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م.

رابعاً: كتب الفقه وأصوله:

- ٢٥١ - الأحكام في أصول الأحكام: علي بن حزم الأندلسي. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٥٢ - الأحكام في أصول الأحكام: علي بن محمد الأمدي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
- ٢٥٣ - الاختيارات الفقهية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. رتبها على الأبواب: علي ابن محمد البعلبي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- ٢٥٤ - الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي. تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معروض، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٢٥٥ - أصول الفقه الإسلامي: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٥٦ - إهانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين: أبو بكر بن محمد الدمياطي السيد البكري. دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
- ٢٥٧ - الإقناع: موسى الحجاوي المقدسي. دار المعرفة، بيروت.
- ٢٥٨ - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: علي بن سليمان المرادوي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- ٢٥٩ - البحر الرائق في شرح كنز الدقائق: زين العابدين بن إبراهيم المعروف بـ «ابن نجيم الحنفي». دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ٢٦٠ - البحر المحيط في أصول الفقه: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تحقيق: د. محمد محمد نامر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٢٦١ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: علاء الدين الكاساني. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- ٢٦٢ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ.
- ٢٦٣ - بلغة السالك لأقرب المسالك: أحمد بن محمد الصاوي. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ٢٦٤ - تحفة الفقهاء: علاء الدين السمرقندي، (ت: ٥٣٩هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٢٦٥ - تحفة المحتاج بشرح المنهاج: أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٢٦٦ - تعظيم قدر الصلاة: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: د. عبد الرحمن الفريواني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٦٧ - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: محمد عرفة الدسوقي. تحقيق: محمد عليش، دار الفكر، بيروت.
- ٢٦٨ - حاشية الروض المربع شرح زاد المستنقع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي. الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.
- ٢٦٩ - حاشية ابن عابدين (رد المختار على الدر المختار): محمد أمين الشهير بـ «ابن عابدين». دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.
- ٢٧٠ - حاشية القليوبي على منهاج الطالبين: أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة.
- ٢٧١ - حواشي التحفة: حاشية عبد الحميد الشرواني، وحاشية أحمد بن قاسم العبّادي بهامش تحفة المحتاج بشرح المنهاج. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٢٧٢ - خصائص الشريعة الإسلامية: د. عمر بن سليمان الأشقر. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ٢٧٣ - الدر المختار شرح تنوير الأبصار: محمد علاء الدين الحصكفي. مكتبة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

- ٢٧٤ - دليل الطالب على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل: مرعي بن يوسف الحنبلي. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ.
- ٢٧٥ - روضة الطالبين وعمدة المفتين: يحيى بن شرف النووي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٢٧٦ - شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان: ملا علي قاري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٢٧٧ - الفتاوى البرززية: محمد بن محمد بن شهاب المعروف بـ «ابن البرزاز». مطبوع بهامش الجزء الرابع والخامس والسادس من الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
- ٢٧٨ - فتاوى ابن رشد: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي. جمع وتحقيق: د. المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٢٧٩ - الفتاوى الفقهية الكبرى: أحمد بن حجر الهيتمي. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- ٢٨٠ - فتاوى قاضي خان: حسن الأوز جندي (ت: ٥٩٢هـ). مطبوع بهامش الجزء الأول والثاني والثالث من الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- ٢٨١ - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: ترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٢٨٢ - الفتاوى الهندية في مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان: الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
- ٢٨٣ - فتح الجواد بشرح الإرشاد: أحمد بن حجر الهيتمي. طبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.
- ٢٨٤ - الفروع: محمد بن مفلح المقدسي. تحقيق: حازم القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٢٨٥ - الفقيه والمتفقه: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- ٢٨٦ - الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: أحمد بن غنيم النفراوي المالكي. دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ٢٨٧ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (العز بن عبد السلام). تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، أم القرى للطباعة والنشر. بدون تاريخ.

- ٢٨٨ - الكافي: عبد الله بن قدامة المقدسي. المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- ٢٨٩ - الكافي في فقه أهل المدينة: يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: محمد محمد أجد ولد قاديك الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
- ٢٩٠ - كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: أحمد عبد الحلیم بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الرياض، الطبعة الثانية.
- ٢٩١ - كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي. تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- ٢٩٢ - المبسوط: محمد بن أحمد السرخسي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.
- ٢٩٣ - مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر: عبد الله بن محمد بن سليمان المعروف بـ «داماد أفندي». دار إحياء التراث العربي.
- ٢٩٤ - المجموع شرح المهذب للشيرازي: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: محمد المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة.
- ٢٩٥ - المحلى بالآثار: علي بن أحمد بن حزم. تحقيق: أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ٢٩٦ - المختار: عبد الله بن محمد بن مودود الموصلی. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٥هـ.
- ٢٩٧ - مختصر اختلاف العلماء: أحمد بن محمد الطحاوي المعروف بـ «الجصاص». تحقيق: د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ٢٩٨ - مختصر الفتاوى المصرية، لابن تيمية: اختصار محمد بن علي البعلي. تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان.
- ٢٩٩ - المدونة الكبرى: الإمام مالك بن أنس، رواية سحنون التنوخي، دار صادر، بيروت.
- ٣٠٠ - مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: ابن حزم الظاهري. اعتنى به: حسن أحمد إسبر، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٣٠١ - المستصفي من علم الأصول: محمد بن محمد الغزالي. شركة المدينة المنورة، جدة، الطبعة الأولى.
- ٣٠٢ - مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: مصطفى السيوطي الرحبياني. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.

- ٣٠٣ - المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: أحمد بن يحيى الونشريسي. مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب، ١٤٠١هـ.
- ٣٠٤ - مفتي ذوي الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام: يوسف بن عبد الهادي الحنبلي. تحقيق: أشرف عبد المقصود، دار أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- ٣٠٥ - المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٠٦ - مفتي المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: محمد الخطيب الشربيني. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٠٧ - متهى الإيرادات في جمع المقنع مع التفتيح وزيادات: محمد بن أحمد الفتوحي. الشهير بـ «ابن النجار». تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، عالم الكتب.
- ٣٠٨ - المهذب في فقه الإمام الشافعي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي. دار الفكر، بيروت.
- ٣٠٩ - الموافقات في أصول الشريعة: إبراهيم بن موسى الشاطبي. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٣١٠ - الموسوعة الفقهية: مجموعة من الباحثين بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. مطابع دار الصفوة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٣١١ - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: محمد بن أحمد الرّملي. الشهير بـ «الشافعي الصغير». دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ٣١٢ - الهداية شرح بداية المبتدي: علي بن أبي بكر المرغيباني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.
- خامساً: المعاجم والموسوعات ونحوها:
- ٣١٣ - أساس البلاغة: محمود بن عمر انزمخشري. تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
- ٣١٤ - تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- ٣١٥ - ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة: الطاهر أحمد الزاوي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة.
- ٣١٦ - التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني. تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

- ٣١٧ - التوقيف على مهمات التعاريف: عبد الرؤوف بن علي المناوي. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- ٣١٨ - الجامع المفهرس لأطراف الأحاديث النبوية: سليم بن عيد الهلالي. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- ٣١٩ - الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: د. حسين محمد فهمي الشافعي. دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٣٢٠ - القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.
- ٣٢١ - لسان العرب: محمد مكرم بن منظور. دار صادر ودار بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ.
- ٣٢٢ - مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق الرازي. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.
- ٣٢٣ - المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي المقرئ. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- ٣٢٤ - معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٣٢٥ - معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- ٣٢٦ - معجم الشعراء: عبد الستار أحمد فراج المرزباني. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.
- ٣٢٧ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٣٢٨ - معجم المناهي اللفظية: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
- ٣٢٩ - المعجم الموضوعي لأيات القرآن الكريم: صبحي عبد الرؤوف عَصْر. دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ٣٣٠ - المعجم الوسيط: جماعة من الباحثين. المكتبة الإسلامية، تركيا، أصدره مجمع اللغة العربية بمصر.
- ٣٣١ - المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق وضبط: محمد خليل عيتاني. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- ٣٣٢ - موسوعة نضرة النعيم: مجموعة من المختصين. دار الوسيلة، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- ٣٣٣ - النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجَزْرِي. تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة بدون.
- سادساً: كتب التاريخ والتراجم والسيره والرجال:
- ٣٣٤ - إتمام الأعلام: د. نزار أباطة ومحمد رياض المالح. دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- ٣٣٥ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب: ابن عبد البر القرطبي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة بدون.
- ٣٣٦ - الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: علي محمد الجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٣٣٧ - الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- ٣٣٨ - الأنساب: عبد الكريم بن محمد السمعاني. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٣٣٩ - البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير. دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٣٤٠ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٣٤١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٣٤٢ - تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٤٣ - تاريخ الثقات: أحمد بن عبد الله العجلي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٤٤ - التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: السيد هشام الندوي، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند.
- ٣٤٥ - تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل: أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي. تحقيق: عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

- ٣٤٦ - تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد الذهبي. دار إحياء التراث العربي عن مطبوعات دائرة المعارف العثمانية.
- ٣٤٧ - تقريب التهذيب: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٣٤٨ - تهذيب الأسماء واللغات: يحيى بن شرف النووي. إدارة المطبعة المنيرية، بيروت.
- ٣٤٩ - تهذيب التهذيب: أحمد بن حجر العسقلاني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٣٥٠ - تهذيب الكمال: يوسف بن الزكي أبو الحجاج المزني. تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- ٣٥١ - الثقات: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي. تحقيق: شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
- ٣٥٢ - الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي. دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ.
- ٣٥٣ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي. مير محمد كتب خانة، كراتشي.
- ٣٥٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني. دار الريان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧هـ.
- ٣٥٥ - الخصائص الكبرى: جلال الدين عبد الرحمن أبو الفضل السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٣٥٦ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن حجر العسقلاني. دار الجيل، بيروت.
- ٣٥٧ - دلائل النبوة: إسماعيل بن محمد الفضل التيمي الأصبهاني. تحقيق: محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٣٥٨ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين علي البيهقي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٥٩ - الدُّبَّاجُ المُنْهَبُ في معرفة أعيان علماء المنهَب: إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٦٠ - ذهل التقييد في رواة السنن والمسانيد: محمد بن أحمد أبو الطَّيِّبِ الفاسي. تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- ٣٦١ - ذيل طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن شهاب الدين المعروف بـ «ابن رجب الحنبلي». دار المعرفة، بيروت.
- ٣٦٢ - الرياض النضرة في مناقب العشرة: محمد بن جرير الطبري. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٣٦٣ - سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.
- ٣٦٤ - سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي): محمد بن إسحاق بن يسار. تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.
- ٣٦٥ - السيرة النبوية: إسماعيل بن كثير. تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- ٣٦٦ - السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٣٦٧ - شذرات الذهب: عبد الحي بن العماد الحنبلي. طبعة المكتبة التجارية الكبرى، بيروت.
- ٣٦٨ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض بن موسى اليحصبي. تحقيق: علي محمد الجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٣٦٩ - صفة الصفوة: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٣٧٠ - طبقات الحفاظ: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٣٧١ - طبقات الحنابلة: محمد بن أبي يعلى، أبو الحسين. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- ٣٧٢ - طبقات الشافعية الكبرى: أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي. تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.
- ٣٧٣ - الطبقات الكبرى (لابن سعد): محمد بن سعد. دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ.
- ٣٧٤ - طبقات المفسرين: محمد بن علي الداودي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ٣٧٥ - العبر في خبر من خبر: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- ٣٧٦ - الكامل في التاريخ: ابن الأثير. تحقيق: أبو الفداء الكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- ٣٧٧ - الكامل في ضعفاء الرجال: عبد الله بن عدي الجرجاني. تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ٣٧٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- ٣٧٩ - اللباب في تهذيب الأنساب: عز الدين بن الأثير الجزري. مكتبة المتنبي، بغداد.
- ٣٨٠ - معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٣٨١ - معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم: أحمد بن عبد الله العجلي. تحقيق: عبد العليم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣٨٢ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأصهار: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ٣٨٣ - الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة: مجموعة من الباحثين. مجلة الحكمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٣٨٤ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- ٣٨٥ - الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ٣٨٦ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

سابعاً: كتب متنوعة:

- ٣٨٧ - آداب المشي إلى الصلاة: محمد بن عبد الوهاب. مكتبة المعارف، الرياض.
- ٣٨٨ - آداب المعلمين والمتعلمين: محمد بن عبد السلام بن سعيد بن سحنون. دار المعارف، القاهرة.
- ٣٨٩ - أباطيل وأسمار: محمود شاكر. القاهرة، مطبعة المدني، الطبعة الثانية.
- ٣٩٠ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. المطبعة النموذجية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.
- ٣٩١ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (للغزالي): محمد بن عبد الرزاق الزبيدي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، بدون.

- ٣٩٢ - أحكام إسلامية إيدانة للقوانين الوضعية: المستشار محمد عبد الحميد غراب. دار الاعتصام، القاهرة.
- ٣٩٣ - إحياء علوم الدين: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. دار المعرفة، بيروت.
- ٣٩٤ - أدب الدنيا والدين: علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ). تحقيق: ياسين محمد السّواس. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ٣٩٥ - أدب الطلب ومنتهى الأدب: محمد بن علي بن محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: عبد الله يحيى السريحي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.
- ٣٩٦ - الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد. ترجمة: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٧٤م.
- ٣٩٧ - أهلام الموقعين عن رب العالمين: محمد ابن قيم الجوزية. رثبه وضبطه محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ٣٩٨ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ٣٩٩ - اقتضاء العلم العمل: أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ (الخطيب البغدادي). تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ.
- ٤٠٠ - أيها الولد المحب: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- ٤٠١ - البحث العلمي: د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة. بدون ذكر لدار النشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٤٠٢ - تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام: إبراهيم بن علي بن فزحون المالكي. تحقيق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ٤٠٣ - تحكيم القوانين: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.
- ٤٠٤ - تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم: محمد بن إبراهيم بن جماعة. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة بدون.
- ٤٠٥ - تصحيح الدعاء: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٤٠٦ - قلبيس إبليس: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

- ٤٠٧ - جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد البر القرطبي. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
- ٤٠٨ - جنود البلاء: عبد الله التل. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
- ٤٠٩ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٤١٠ - الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية: محمد فهمي عبد الوهاب. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٤١١ - الحوادث والبدع: أبو بكر محمد الطُّرطُوشي. اعتنى به: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٤١٢ - الخنجر المسموم الذي طُعن به المسلمون: أنور الجندي. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ٤١٣ - الرسالة القشيرية في علم التصوف: عبد الكريم بن هوازن القشيري. تحقيق: معروف مصطفى رزق، المكتبة المصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- ٤١٤ - زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤١٠هـ.
- ٤١٥ - السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات: محمد بن عبد السلام الشقيري. تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، الطبعة الأولى.
- ٤١٦ - ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن بن حنكة الميداني. دار العلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ.
- ٤١٧ - علو الهمة: محمد أحمد إسماعيل المقدم. مكتبة الكوثر، الرياض. الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٤١٨ - عودة الحجاب: محمد أحمد إسماعيل المقدم. دار طيبة، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤٢٥هـ.
- ٤١٩ - الفصحى لغة القرآن: أنور الجندي. دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ٤٢٠ - الفوائد: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق وتخریج: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٤٢١ - قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدو أهله: جلال العالم. الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- ٤٢٢ - القصص والمذكرين: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

- ٤٢٣ - القومية والغزو الفكري: محمد جلال كشك. دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.
- ٤٢٤ - كتاب الآداب: فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب. دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ٤٢٥ - كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: محمد ابن قيم الجوزية، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٤٢٦ - كلمة الحق: أحمد محمد شاكر. دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٤٢٧ - لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها: د. إبراهيم بن محمد أبو عباة. دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤٢٨ - المجالسة وجواهر العلم: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ٤٢٩ - مختصر منهاج القاصدين: أحمد بن محمد المقدسي. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٩هـ.
- ٤٣٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.
- ٤٣١ - المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات: محمد بن محمد بن محمد المالكي المعروف بـ «ابن الحاج». دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- ٤٣٢ - المرأة ومكانتها في الإسلام: أحمد عبد العزيز الحصين. مكتبة الإيمان، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
- ٤٣٣ - المسؤولية: د. محمد أمين المصري (ت: ١٣٩٧هـ). دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- ٤٣٤ - مفتاح دار السعادة: محمد ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤٣٥ - من القصص النبوي: محمد صالح المنجد. دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٤٣٦ - نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف: جمال الدين محمد الجبشي. دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

ثامنا: بحوث في القرآن:

- ٤٣٧ - أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي: عندليب بنت أحمد عبد الله. (رسالة ماجستير) تخصص علم النفس التربوي، جامعة اليرموك، الأردن.
- ٤٣٨ - الإهجاز التأثيري للقرآن الكريم: د. محمد عطا أحمد يوسف. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، (عدد: ٣٦)، (شعبان ١٤١٩هـ).
- ٤٣٩ - تعريب القرآن: محمد بن عبد الله الدويش. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ٤٢)، (صفر ١٤١٢هـ).
- ٤٤٠ - تدبر القرآن لماذا وكيف: إبراهيم بن عبد الرحمن التركي. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ١٤٤)، (شعبان ١٤٢٠هـ).
- ٤٤١ - تفسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ: د. عبدو بن علي الحاج. مجلة الأحمدية، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، (عدد: ١٥)، (رمضان ١٤٢٤هـ).
- ٤٤٢ - المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم: د. حازم سعيد حيدر. بحث مقدم لندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه، المدينة المنورة، ٣، ٦/٧/١٤٢١هـ.
- ٤٤٣ - من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، (عدد: ٥١)، (ربيع أول ١٤١٨هـ).
- ٤٤٤ - نحو منهجية علمية في حفظ القرآن الكريم: فيصل بن علي البعداني. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ٣٧)، (رمضان ١٤١٤هـ).

رابع عشر: المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة:	٥
* أهمية الموضوع	٥
* أسباب اختيار الموضوع	٧
* خطة البحث	٨
* منهج البحث	١١
* شكر وتقدير	١٢
الباب الأول: معنى (الهجر) وذمُّ فاعليه	
الفصل الأول: معنى (هجر القرآن)	١٧
المبحث الأول: تعريف «الهجر» لغة	١٨
* خلاصة القول في معاني الهجر ومشتقاته	٢٠
المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر	٢٢
١ - انترك والإعراض	٢٢
٢ - الإفحاش في القول	٢٢
٣ - الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ لأجل الدين	٢٣
٤ - هجر الزوجة في الفراش	٢٥
٥ - الانفراد والعزلة والابتعاد	٢٥
المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر	٢٧
١ - التهاجر بين المسلمين	٢٧
٢ - الهجرة لأجل الدين	٢٧
٣ - ترك ما نهى الله عنه	٢٨
٤ - القول الباطل	٢٩
٥ - ترك فراش الزوج	٣٠
٦ - ترك اسم الحبيب	٣١

٣٢ المبحث الرابع: المقصود به (هَجْر القرآن)
٣٥ المبحث الخامس: حُكْم هَجْر القرآن
٣٩ الفصل الثاني: ذَمُّ هَجْر القرآن
٤٢ المبحث الأول: الآيات الدالة على ذَمِّ هَجْر القرآن
٤٢ * تمهيد
٤٣ المطلب الأول: الشكوى العظيمة
٤٤ * اختلاف المفسرين في معنى اتِّخَاذ القرآن مهجوراً
٤٤ ١ - التَّرك كلياً
٤٤ ٢ - الإعراض والبعد عن القرآن وعدم سماعه
٤٤ ٣ - القول السيِّئ في القرآن
٤٥ ٤ - الهذيان وفُحش القول
٤٥ * شبهة وردُّها
٤٦ المطلب الثاني: السَّمْرُ الفاحش
٤٨ * معنى (السُّمَار)
٤٩ المطلب الثالث: الإعراض عن القرآن
٤٩ * المراد بالذِّكر
٥٠ * المراد بالمعيشة الضَّنك
٥٢ * المراد بالغمى
٥٥ المطلب الرابع: الظلم الأعظم
٥٥ * المراد بالآيات
٥٦ * شبهة وردُّها
٥٧ المطلب الخامس: الوجوه العابسة
٥٧ * المراد بالآيات
٥٧ * المراد بالْمُنكَّر
٥٨ * المراد بالسُّطُو
٥٩ * جزاء مَنْ هَجَرَ القرآن
٦٠ المطلب السادس: الاستكبار على القرآن
٦١ المطلب السابع: اللُّغو الباطل
٦١ * المراد بعدم سماع القرآن

- ٦١ * المراد باللُّغُو في القرآن
- ٦٢ * أسلوب خسيس
- ٦٣ * موقف المؤمنين
- ٦٣ * المطلب الثامن: التقسيم الجائر
- ٦٣ * المراد بالمُقتسمين
- ٦٥ * المراد ببعضين
- ٦٩ * المبحث الثاني: الأحاديث الدالة على ذم هجر القرآن
- ٧٠ * من صور هجر القرآن
- ٧١ * المطلب الأول: تعجُّل أجر القرآن
- ٧٤ * المطلب الثاني: عدم الانتفاع بقراءة القرآن
- ٧٦ * المطلب الثالث: القرآن بين الجدال فيه والجدال عنه
- ٧٦ * معنى (الجراء)
- ٨٠ * ما ينبغي عند الاختلاف
- ٨٠ * الوقاية من الجدال والجراء
- ٨٢ * المطلب الرابع: أتباع المشابه وترك المُحكّم
- ٨٣ * اختلاف المفسرين والأصوليين في معنى المُحكّم والمشابه
- ٨٥ * المطلب الخامس: ترك قراءة القرآن في البيوت
- ٨٦ * المطلب السادس: أحوال المناق مع القرآن
- ٨٧ * المطلب السابع: ترك التثغني بالقرآن
- ٨٨ * اختلاف أهل العلم في معنى (يتغنى)
- ٩١ * المبحث الثالث: آثار السلف في ذم هجر القرآن
- ٩٢ ١ - ذمُّ التَّأْكُلِ بِالْقُرْآنِ
- ٩٤ ٢ - وَيَلُ لِمَنْ تَبِعَهُ الْقُرْآنِ
- ٩٤ ٣ - ذمُّ مَنْ خَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ
- ٩٥ ٤ - هَجْرُ تَلْبِئِ الْقُرْآنِ
- ٩٦ ٥ - الْقُرْآنُ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ خُسَارًا
- ٩٧ ٦ - الْقُلُوبُ الْمَرْضَى لَا تَجِدُ لَذَّةً لِلْقُرْآنِ
- ٩٧ ٧ - الْقَلْبُ الْخَرِبُ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ
- ٩٨ ٨ - الْقَلْبُ الْخَيْثُ كَالْأَرْضِ الْخَيْثِ

- ٩٩ الجهل بالقرآن يؤدي إلى الاختلاف ثم الاقتتال ٩٩
- الباب الثاني: انواع الهجر
- ١٠٣ الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به) ١٠٣
- ١٠٤ المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته ١٠٤
- ١٠٤ أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن ١٠٤
- ١٠٥ * القرآن رحمة الله بعباده ١٠٥
- ١٠٦ * المزايا التي حُصِرَ بها القرآن عن الكتب السابقة ١٠٦
- ١٠٧ ثانياً: ما يقتضيه الإيمان بالقرآن ١٠٧
- ١٠٩ * ثمرات الإيمان بالقرآن ١٠٩
- ١١٠ المبحث الثاني: الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن ١١٠
- ١١٠ - الآية الأولى ١١٠
- ١١١ * مسألة وجوابها ١١١
- ١١١ - الآية الثانية ١١١
- ١١١ - الآية الثالثة ١١١
- ١١٢ - الآية الرابعة ١١٢
- ١١٣ - الآية الخامسة ١١٣
- ١١٤ - الآية السادسة ١١٤
- ١١٤ - الآية السابعة ١١٤
- ١١٦ - الآية الثامنة ١١٦
- ١١٦ - الآية التاسعة ١١٦
- ١١٧ المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن ١١٧
- ١١٧ - الآية الأولى ١١٧
- ١١٨ - الآية الثانية ١١٨
- ١١٩ - الآية الثالثة ١١٩
- ١٢٠ - الآية الرابعة ١٢٠
- ١٢٠ - الآية الخامسة ١٢٠
- ١٢١ - الآية السادسة ١٢١
- ١٢١ - الآية السابعة ١٢١
- ١٢٢ - الآية الثامنة ١٢٢

الصفحة	
١٢٣	- الآية التاسعة
١٢٣	* سبب كراهية الكفار للقرآن
١٢٥	المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن
١٢٦	* تمهيد
١٢٧	المطلب الأول: الكفر الصريح بالقرآن
١٢٨	المطلب الثاني: الاستكبار عن القرآن
١٢٨	* من أنواع الاستكبار عن القرآن
١٣٠	المطلب الثالث: التكذيب الصريح بالقرآن
١٣١	المطلب الرابع: الجحود بالقرآن
١٣٢	* من أمثلة الجحود بالقرآن
١٣٣	* جزاء الجحود
١٣٥	المطلب الخامس: طلبهم تبديل القرآن
١٣٦	المطلب السادس: تبعير القرآن
١٣٧	* جزاء تبعير الكتاب
١٣٨	المطلب السابع: الإعراض عن القرآن
١٣٨	* جزاء الإعراض عن القرآن
١٣٩	* طوائف أعرضت عن القرآن
١٤٢	المبحث الخامس: حكم التكذيب بالقرآن
١٤٢	* كيف وصل القرآن إلينا
١٤٣	* مغزى التواتر
١٤٣	* ما يعنيه إنكار القرآن
١٤٤	* الإجماع على كفر مَنْ أنكر القرآن
١٤٨	* لماذا كان الحكم مُجمِعاً عليه
١٤٩	المبحث السادس: أهل الكتاب وتكليفهم بالقرآن
١٥٠	المطلب الأول: علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق
١٥٠	- الدليل الأول
١٥٢	- الدليل الثاني
١٥٣	- الدليل الثالث
١٥٣	- الدليل الرابع

الصفحة	
١٥٤	- الدليل الخامس
١٥٤	- الدليل السادس
١٥٥	- الدليل السابع
١٥٦	- الدليل الثامن
١٥٧	المطلب الثاني: كُفْر مَنْ لَمْ يُؤْمِن بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
١٥٧	- النص الأول
١٥٩	- النص الثاني
١٦١	- النص الثالث
١٦٢	- النص الرابع
١٦٣	- النص الخامس
١٦٥	- النص السادس
١٦٧	الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به)
١٦٩	المبحث الأول: تعريف الاستهزاء
١٧٠	المطلب الأول: تعريف الاستهزاء
١٧٠	أولاً: (الاستهزاء) لفة
١٧٠	* خلاصة المعنى اللغوي
١٧١	ثانياً: (الاستهزاء) اصطلاحاً
١٧٢	المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء
١٧٢	أولاً: السُّخْرِيَّة
١٧٣	ثانياً وثالثاً: الضُّحْك والغمز
١٧٤	رابعاً وخامساً: الخوض واللعب
١٧٥	سادساً: اللَّمَز
١٧٧	المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن
١٧٨	أولاً: ملاحظة آداب التلاوة والالتزام بها
١٧٩	ثانياً: التأدب مع المصحف
١٨٤	المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن
١٨٤	- الأسلوب الأول: الاستهزاء والضحك حال سماع القرآن
١٨٦	- الأسلوب الثاني: التعجب من عدم نزول الوحي عليهم
١٨٧	- الأسلوب الثالث: ادّعاؤهم بأن القرآن إفك مفترى، وأساطير الأولين

- ١٨٩ - الأسلوب الرابع: استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء
- ١٩٠ - الأسلوب الخامس: التذُّر بالله وآياته
- ١٩١ * عاقبة الاستهزاء بالقرآن
- ١٩٣ المبحث الرابع: حُكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف
- ١٩٤ المطلب الأول: الفرق بين القرآن والمصحف
- ١٩٤ أولاً: معنى القرآن
- ١٩٤ * (القرآن) لغة
- ١٩٥ * (القرآن) اصطلاحاً
- ١٩٥ ثانياً: معنى المصحف
- ١٩٥ * (المصحف) لغة
- ١٩٦ * (المصحف) اصطلاحاً
- ١٩٧ * الفرق بين القرآن والمصحف
- ١٩٧ المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن
- ١٩٨ * الإجماع على كفر الاستهزاء بالقرآن
- ٢٠٠ * عقوبة المستهزئين بكلام الله تعالى
- ٢٠١ المطلب الثالث: حكم الاستهانة بالمصحف
- ٢٠١ * صور من الاستهانة بالمصحف
- ٢٠١ - الصورة الأولى: الاتكأ والتوسُّد على المصحف
- ٢٠٣ - الصورة الثانية: إتلاف المصحف وتمزيقه
- ٢٠٣ * الحالات التي يجوز فيها إتلاف المصاحف
- ٢٠٤ - الصورة الثالثة: إدخال المصحف في أماكن التخلُّي
- ٢٠٤ - الصورة الرابعة: إدخال المصحف في القبر
- ٢٠٤ - الصورة الخامسة: بلع شيء من المصحف
- ٢٠٥ - الصورة السادسة: التبرُّك بالمصحف
- ٢٠٥ - الصورة السابعة: تلويث المصحف
- ٢٠٦ - الصورة الثامنة: وطء المصحف
- ٢٠٧ الفصل الثالث: هجر استماع القرآن
- ٢٠٩ المبحث الأول: تعريف السَّماع وأنواعه
- ٢١٠ المطلب الأول: تعريف السَّماع

- أولاً: (السمع) لغة: ٢١٠
- استعمالات (السمع) في القرآن ٢١٠
- ثانياً: (السمع) اصطلاحاً ٢١١
- ثالثاً: الفرق بين (السمع) و(الاستماع) و(الإنصات) ٢١٢
- السمع أهم حاسة للتلقي ٢١٢
- المطلب الثاني: أنواع السمع ٢١٣
- النوع الأول: السمع المرضي ٢١٣
- السمع المرضي يمرُّ بثلاث مراحل ٢١٣
- النوع الثاني: السمع المنهي عنه ٢١٥
- النوع الثالث: السمع المباح ٢١٥
- المطلب الثالث: أقسام الناس في سماع القرآن ٢١٥
- الصنف الأول: مُعرض مُمتنع عن سماع القرآن ٢١٥
- الصنف الثاني: سبغ الصوت ولم يفقه المعنى ٢١٦
- الصنف الثالث: فقه المعنى ولم يقبله ٢١٦
- الصنف الرابع: سبغ القرآن سماعاً ففهِم وقبولاً ٢١٧
- المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن ٢١٩
- المطلب الأول: مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار ٢٢٠
- أبرز مظاهر هجر سماع القرآن لدى الكفار ٢٢٠
- ١ - الإعراض عن سماع القرآن ٢٢٠
- ٢ - الاستكبار عن سماع القرآن ٢٢١
- ٣ - التواصي بعدم سماع القرآن ٢٢٢
- ٤ - البطش بمن يقرأ القرآن ٢٢٣
- ٥ - التعامي والتصام عن القرآن ٢٤٣
- ٦ - الاستهزاء حال سماع القرآن ٢٢٤
- ٧ - الضجر والتأفف ٢٢٤
- ٨ - بغض سماع القرآن وكراهية قارئه ٢٢٥
- ٩ - التهاون والتغافل عن سماع الوحي ٢٢٦
- المطلب الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين ٢٢٧
- أبرز مظاهر هجر سماع القرآن لدى المسلمين ٢٢٧

- ٢٢٧ ١ - التشاغل بالغناء عن استماع القرآن
- ٢٣٠ ٢ - سماع الطرب
- ٢٣١ ٣ - التشاغل عن استماع القرآن
- ٢٣٣ المبحث الثالث: آداب استماع القرآن
- ٢٣٤ * أمر الله النبيين والمؤمنين بالاستماع
- ٢٣٥ * أبرز آداب استماع القرآن
- ٢٣٦ ١ - تعظيم المتكلم
- ٢٣٦ ٢ - استشعار عظمة الكلام وعلوه
- ٢٣٦ ٣ - حضور القلب عند السماع
- ٢٣٧ ٤ - تدبُّر المسموع
- ٢٣٧ * أحوان الناس في انتفاعهم بالقرآن
- ٢٣٨ ٥ - نفهم الآيات المسموعة
- ٢٣٨ ٦ - التخلّي عن موانع الفهم
- ٢٣٨ * موانع فهم القرآن
- ٢٣٩ ٧ - أن يُقدَّر - في نفسه - أنه المقصود بكلّ آية سمعها
- ٢٣٩ ٨ - التأثير بالآيات المسموعة
- ٢٤٠ ٩ - الترقّي في استماع القرآن
- ٢٤٠ * درجات القراءة والسماع ثلاث
- ٤٤١ ١٠ - التبرُّؤ من الحول والقوّة حال السماع
- ٢٤٣ المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن
- ٢٤٤ * القرآن مُتعبّد بسماعه
- ٢٤٥ المطلب الأول: استماع القرآن سبب لرحمة الله
- ٢٤٦ المطلب الثاني: استماع القرآن سبب لهداية الثقلين
- ٢٤٩ المطلب الثالث: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين
- ٢٥٣ المبحث الخامس: حكم الاستماع للقرآن وحكم الإعراض عنه
- ٢٥٤ المطلب الأول: حكم الاستماع للقرآن
- ٢٥٤ * (مسألة) ما هي الأحوال التي يجب فيها الاستماع والإنصات للقرآن ..
- ٢٥٦ * (مسألة) هل وجوب الإنصات مطلق أم مقيد
- ٢٥٧ * الاستماع للقرآن يدور حكمه بحسب المقام الذي يُقرأ فيه

- المطلب الثاني: حُكم الإعراض عن استماع القرآن ٢٥٨
- أولاً: الإعراض عن استماع القرآن مع عدم الإيمان به ٢٥٨
- ثانياً: الإعراض عن استماع القرآن مع الإيمان به ٢٦٠
- المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن ٢٦١
- المطلب الأول: الإعجاز التأثيري للقرآن ٢٦٢
- * دراسة معاصرة تُثبت تأثير القرآن ٢٦٣
- المطلب الثاني: أثر استماع القرآن في الملائكة ٢٦٤
- المطلب الثالث: أثر استماع القرآن في النبي ﷺ ٢٦٦
- المطلب الرابع: أثر استماع القرآن في المؤمنين ٢٦٧
- المطلب الخامس: أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه ٢٧١
- * أمثلة تأثير القرآن في قلوب أعدائه وخصومه ٢٧١
- ١ - تأثر عتبة بن ربيعة بالقرآن ٢٧١
- ٢ - تأثر زعماء المشركين بالقرآن ٢٧٢
- ٣ - تأثر الطفيل بن عمرو بالقرآن ٢٧٣
- ٤ - تأثر جبير بن مطعم بالقرآن ٢٧٤
- ٥ - حادثة سجود المشركين مع المسلمين ٢٧٤
- ٦ - تأثر أهل المدينة بالقرآن ٢٧٥
- المطلب السادس: أثر استماع القرآن في النصارى ٢٧٥
- * السبب في ذكر اليهود مع المشركين ٢٧٦
- * السبب في اقتراب موثة النصارى من المسلمين ٢٧٧
- * تأثر القيسيين والرهبان بسماع القرآن ٢٧٨
- * المقصود بفيض العين ٢٧٨
- * تأثر النجاشي وأساقيته بسماع القرآن ٢٧٨
- المطلب السابع: أثر استماع القرآن في الجن ٢٧٩
- * الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن ٢٨٠
- * فوائد ذكرها ابن حجر من تأثر الجن بالقرآن ٢٨٢
- الفصل الرابع: هجر تعلم القرآن وتعليمه ٢٨٥
- المبحث الأول: مظاهر هجر تعلم القرآن وتعليمه ٢٨٦
- أولاً: مظاهر هجر تعلم القرآن ٢٨٦

- ٢٨٧ ثانياً: مظاهر هجر تعليم القرآن
- ٢٨٩ المبحث الثاني: آداب مُعَلِّم القرآن ومُتَعَلِّمه
- ٢٩٠ المطلب الأول: آداب مشتركة بين معلِّم القرآن ومتعلِّمه
- ٢٩٠ ١ - التمسُّك بمنهج السلف في الاعتقاد
- ٢٩٢ ٢ - الإخلاص لله تعالى
- ٢٩٦ المطلب الثاني: آداب معلِّم القرآن
- ٢٩٦ ١ - الاستقامة على دين الله تعالى
- ٢٩٨ ٢ - حُسن الخُلُق مع المتعلِّمين
- ٣٠٠ ٣ - بذل النصيحة للمتعلِّمين
- ٣٠٠ * من وصايا المعلِّمين لطلابهم
- ٣٠١ ٤ - التدرُّج في التعليم والتربية
- ٣٠٣ ٥ - الرِّفق بالمتعلِّمين
- ٣٠٥ * من صور رفق المعلِّم بالمتعلِّم
- ٣٠٦ ٦ - الصبر على المتعلِّم
- ٣٠٦ * من صور الصبر على جفاء المتعلِّمين
- ٣٠٧ * من دواعي الصبر
- ٣٠٧ المطلب الثالث: آداب متعلِّم القرآن
- ٣٠٨ ١ - تطهير القلب
- ٣٠٨ ٢ - الزُّهد في الدُّنيا
- ٣٠٩ ٣ - التواضع للمعلِّم
- ٣١٠ * من صور تواضع المتعلِّمين لمشايخهم
- ٣١٠ ٤ - الدعاء للمعلِّم والاعتراف بفضله
- ٣١١ * من صور الدعاء للشيخ
- ٣١٢ ٥ - اختيار المعلِّم الأصح والأعلم
- ٣١٣ ٦ - التَّبكير إلى مجلس الدرس
- ٣١٣ ٧ - التحلِّي بالأدب في مجلس التعليم
- ٣١٣ * من مظاهر التأدُّب
- ٣١٤ * من أمثلة مراعاة المتعلِّم ظروف معلِّمه

- المبحث الثالث: فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه ٣١٧
- * ترغيب الإسلام في العلم ٣١٨
- المطلب الأول: معلِّم القرآن ومتعلِّمه مُتَشَبِّهٌ بالملائكة والرُّسُل ٣١٩
- المطلب الثاني: خيرُ الناس وأفضلُهُم مَنْ تعلَّم القرآن وعَلَّمه ٣٢٠
- * معنى (التعلُّم والتَّعليم) ٣٢٢
- * (مسألة) هل المقرئ أفضل من الفقيه ٣٢٢
- * (مسألة) هل المقرئ أفضل ممن هو أعظم غناءً في الإسلام ٣٢٢
- المطلب الثالث: تعلُّم القرآن وتعليمه خير من كنوز الدنيا ٣٢٣
- * سبب التمثيل بالإبل ٣٢٤
- * تعلُّم الخير وتعليمه كأجر حاج تاماً حجَّته ٣٢٥
- * معلِّم الخير ومتعلِّمه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ٣٢٦
- * الصحابة يحثون الناس على تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٢٦
- المطلب الرابع: مَنْ علَّمَ آيةً كان له ثوابها ما تليت ٣٢٧
- * للمفسرين قولان في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَرْهَمُ﴾ ٣٢٩
- المطلب الخامس: ثواب مَنْ يُعلِّم الصِّغار القرآن ٣٣٠
- * جزاء الوالدين ٣٣١
- المبحث الرابع: أحكام تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٣٥
- * تمهيد ٣٣٦
- المطلب الأول: حُكْم تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٣٧
- المطلب الثاني: حُكْم تعليم القرآن لغير المسلم ٣٣٩
- المطلب الثالث: حُكْم أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٠
- القول الأول: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤١
- القول الثاني: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٣
- القول الثالث: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة ٣٤٥
- * الترجيح ٣٤٦
- * ضوابط أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٦
- المبحث الخامس: همَّة السُّلَف في تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٤٩
- المطلب الأول: علوُّ همَّة المعلمين ٣٥٠
- * نماذج من علوِّ هممة المعلمين ٣٥٠

الصفحة	
٣٥٠	١ - ترك الأوطان لأجل تعليم القرآن
٣٥١	٢ - تأسيس مدارس وجلق تحفيظ القرآن
٣٥٢	٣ - لم تشغله الإمارة عن تعليم القرآن
٣٥٢	٤ - جلس لتعليم القرآن أربعين سنة
٣٥٣	٥ - علم القرآن أكثر من سبعين سنة
٣٥٣	٦ - لقن العميان دهرأ طويلاً
٣٥٤	٧ - احتساب أجر التعلیم عند الله تعالى
٣٥٥	المطلب الثاني: علو همة المتعلمين
٣٥٦	* نماذج من علو همة المتعلمين
٣٥٦	١ - الرّحلة من أجل تعلّم القرآن
٣٥٧	٢ - ملازمة الشيوخ وعرض القراءة عليهم
٣٥٨	٣ - الإقبال على الشيوخ والإفادة منهم
٣٥٨	٤ - تحمّل الشدائد والصّعاب بغية تعلّم القرآن
٣٥٩	٥ - تعلّم القرآن قبل علوم الشريعة الأخرى
٣٥٩	٦ - ترك الوطن والمال من أجل تعلّم القرآن
٣٦٠	٧ - حفظ القرآن بالروايات العشر
٣٦١	الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن
٣٦٣	المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن
٣٦٤	المطلب الأول: مظاهر هجر التلاوة
٣٦٥	المطلب الثاني: بدع التلاوة
٣٦٥	* أمور مبتدعة في التلاوة
٣٦٥	١ - التتلع في القراءة، والوسوسة في مخارج الحروف
٣٦٦	٢ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحن العجم
٣٦٧	٣ - القراءة بألحان أهل الفسق والفجور
٣٦٨	٤ - قراءة الأنغام والتعطيط
٣٦٨	٥ - قراءة التحزين والتطريب
٣٦٨	٦ - قراءة التحريف
٣٦٩	٧ - قراءة الترعيد
٣٧٠	٨ - هذه كهذه الشعر

- ٢٧٠ ٩ - القراءة بالإدارة
- ٢٧١ ١٠ - قراءة القرآن في مجلس شُرْب الدُّخَان
- ٢٧١ ١١ - القراءة والإقراء بشواذِّ القراءات
- ٢٧١ ١٢ - جَمْع القراءات في مجلس واحد
- ٢٧٢ ١٣ - قول السَّامِع للقارئ: (الله، الله)
- ٢٧٢ ١٤ - التزام قول (صدق الله العظيم) بعد التَّلاوة
- ٢٧٣ ١٥ - بدع قراءة الفاتحة
- ٢٧٣ ١٦ - قراءة القرآن عند القبر
- ٢٧٥ المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة
- ٢٧٦ * تمهيد
- ٢٧٦ المطلب الأول: الانشغال بالدنيا
- ٢٧٧ المطلب الثاني: ضعف الهمة
- ٢٧٨ * أدوية نبويَّة لعلاج ضعف الهمة
- ٢٧٩ * فوائد من الحديث ذكرها النووي
- ٢٨٠ المطلب الثالث: الجهل بثمرات قراءة القرآن
- ٢٨٠ * من ثمرات التلاوة
- ٢٨٢ المطلب الرابع: تقديم العلوم الأخرى على القرآن
- ٢٨٣ * سئل ابن تيمية عن الذي يُقَدَّم: حفظ القرآن أو العلم
- ٢٨٤ المطلب الخامس: الحرب المعلنة على القرآن واللغة
- ٢٨٤ * تصريحات الأعداء ضدَّ القرآن ولغته
- ٢٨٦ * أساليب الأعداء في محاربة القرآن ولغته
- ٢٨٧ المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن
- ٢٨٨ * تمهيد
- ٢٨٩ ١ - إخلاص النية لله تعالى
- ٢٩٠ ٢ - العمل بالقرآن
- ٢٩٠ ٣ - إجلال القرآن وتعظيمه
- ٢٩٠ ٤ - تلاوة القرآن على طهارة
- ٢٩١ ٥ - اختيار الوقت المناسب
- ٢٩٢ ٦ - اختيار المكان المناسب

- ٧ - حُسْنُ الْجِلْسَةِ واستقبال القبلة ٣٩٣
- * أفضل اتجاه استقبال القبلة ٣٩٣
- ٨ - استحباب تنظيف الفم بالسواك ٣٩٤
- ٩ - الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
- * للاستعاذة صيغتان ٣٩٦
- * البدء بالاستعاذة خاصٌّ بالقرآن الكريم ٣٩٦
- ١٠ - البسمة ٣٩٦
- ١١ - خسر الفكر أثناء التلاوة ٣٩٧
- ١٢ - استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة ٣٩٨
- * امثال النبي ﷺ أمر ربه في ترتيله للقرآن ٣٩٩
- * التحذير من الاستعجال في التلاوة ٣٩٩
- (مسألة) أيهما أفضل الترتيل وقلة القراءة أو السرعة مع كثرتها ٤٠١
- ١٣ - استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠١
- * أحاديث عدّة في استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠٢
- * بين الثغني المحمود والمذموم ٤٠٣
- ١٤ - النهي عن القراءة بالألحان المُطَرَّبَة ٤٠٤
- * أسباب تحريم الألحان المُطَرَّبَة ٤٠٥
- * بعض القراء يقرؤون القرآن على ألحان الأغاني ٤٠٦
- ١٥ - وجوب تدبر القرآن ٤٠٦
- ١٦ - استحباب البكاء أثناء التلاوة ٤٠٧
- * البكاء عند التلاوة من صفات الصالحين ٤٠٨
- * ليس المقصود بالبكاء الصُراخ والعميل والنحيب ٤٠٩
- * كلام ابن تيمية في أفضل أحوال البكاء ٤٠٩
- ١٧ - استحباب الجهر بالقرآن إذا لم ترتب عليه مفسدة ٤٠٩
- * أجر التلاوة مترتب على التلَفُظ بها ٤١١
- ١٨ - استحباب اتصال القراءة وعدم قطعها ٤١٢
- ١٩ - أن يُخِين الابتداء والوقف أثناء التلاوة ٤١٣
- ٢٠ - من السنة: الوقوف عند رؤوس الآيات ٤١٣

٢١ - من السنة: أن يُسَبَّح عند آية التسيب، ويتعوذ عند آية العذاب،

٤١٤ ويسأل عند آية الرحمة

٤١٥ ٢٢ - من السنة: الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس

٤١٥ ٢٣ - من السنة: السجود عند المرور بآية سجدة

٤١٦ • فضائل سجود التلاوة

٤١٦ • الذكر الوارد في سجود التلاوة

٤١٧ • حكم سجود التلاوة

٤١٨ • سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ

٤١٩ • لا يلزم السامع أن يسجد مع القارئ

٤١٩ ٢٤ - القدر المستحب في ختم القرآن

٤٢٠ • أحاديث عدّة في مدة الختم

٤٢٠ • علّة النهي عن الختم في أقلّ من ثلاث

٤٢١ • هدي النبي ﷺ في ختم القرآن

٤٢٢ • تخريج فعلٍ من ختم القرآن في أقلّ من ثلاث

٤٢٣ • الجنح بين رواية (الشئع) ورواية (الثلاث) في الختم

٤٢٤ • التفصيل الحسن في مقدار الختم

٤٢٥ ٢٥ - مشروعية (تحزيب القرآن)

٤٢٥ • تعريف (الجزب)

٤٢٦ • التحزيب بالسور لا بالأجزاء

٤٢٨ • ثمرات التحزيب

٤٢٩ ٢٦ - مشروعية (دعاء ختم القرآن)

٤٢٩ • موضع دعاء الختم خارج الصلاة

٤٣٠ • أمور لا تُشرع عند الختم

٤٣١ المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن

٤٣٢ • تمهيد

٤٣٢ • المطلب الأول: التلاوة تجارة رابحة

٤٣٣ • حديث: (من قرأ حرفاً) يشير إلى عدّة أمور

٤٣٨ • المطلب الثاني: تنزل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة

٤٣٩ • أربع جوائز للمجتمعين لتلاوة القرآن

- ٤٣٩ - الجائزة الأولى: تنزل السكينة عليهم
- ٤٤٢ - الجائزة الثانية: تغشاهم الرحمة
- ٤٤٧ - الجائزة الثالثة: تحفهم الملائكة
- ٤٤٤ - الجائزة الرابعة: يذكرهم الله فيمن عنده
- ٤٤٥ - المطلب الثالث: اغتباط صاحب التلاوة
- ٤٤٥ ١ - اغتباط التالي للقرآن
- ٤٤٦ * معنى: (لا حسد إلا في اثنتين)
- ٤٤٧ ٢ - اغتباط القائم بالقرآن
- ٤٤٩ * شهادة القرآن لقارنه يوم القيامة
- ٤٤٩ - المطلب الرابع: التلاوة حلية لأهل الإيمان
- ٤٥٠ * أحوال المؤمن مع القرآن
- ٤٥٢ - المطلب الخامس: التلاوة كلها خير
- ٤٥٢ ١ - الماهر بالقرآن
- ٤٥٣ * من هو الماهر بالقرآن
- ٤٥٣ ٢ - الذي له أجران
- ٤٥٣ (مسألة) هل الذي له أجران أكثر ثواباً من الماهر
- ٤٥٥ * لا ينبغي للمسلم أن ينصرف عن التلاوة
- ٤٥٧ - الفصل السادس: هجر حفظ القرآن
- ٤٥٩ - المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره
- ٤٦٠ - المطلب الأول: تعريف حفظ القرآن
- ٤٦٠ أولاً: (الحفظ) لفة
- ٤٦٠ * حفظ القرآن يتضمن أموراً ثلاثة
- ٤٦١ * استعمالات (الحفظ) في القرآن
- ٤٦١ ثانياً: (حفظ القرآن) اصطلاحاً
- ٤٦١ * تميز حافظ القرآن عن غيره من الحفاظ
- ٤٦٢ - المطلب الثاني: تيسير حفظه على جميع الألسنة
- ٤٦٣ * سبب تيسيره
- ٤٦٣ * معنى تيسيره
- ٤٦٣ * التيسر يشمل الألفاظ والمعاني

- ٤٦٣ * حفظ القرآن ميسر دون سواء من الكتب السابقة
- ٤٦٥ * هجر الحفظ نوعان
- ٤٦٧ المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن
- ٤٦٨ * تمهيد
- ٤٦٩ المطلب الأول: آداب أثناء الحفظ
- ٤٦٩ ١ - الإخلاص لله تعالى
- ٤٧١ * كلام أبي حامد الغزالي في نية طلب العلم
- ٤٧٠ * كيفية تحسين النية
- ٤٧٠ * تأثير الإخلاص في تسهيل الأمور
- ٤٧٠ * شدة الإخلاص على النفس
- ٤٧١ * الحذر من الانقطاع عن الحفظ لعدم خلوص النية
- ٤٧٢ ٢ - استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته
- ٤٧٣ ٣ - معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه
- ٤٧٤ * حفظ القرآن فيه ناسرٌ بالسلف الصالح
- ٤٧٤ ٤ - الرغبة القوية الصادقة
- ٤٧٥ * أهمية الدافع الذاتي في إكمال حفظ القرآن
- ٤٧٥ ٥ - التخلُّل من الدنيا
- ٤٧٦ * فوائد استنبطها ابن حجر من ملازمة أبي هريرة للنبي ﷺ
- ٤٧٦ * لا ينبغي لطالب العلم أن يترك التكسب
- ٤٧٧ ٦ - الدعاء والالتجاء إلى الله
- ٤٧٨ * القلوب محتاجة إلى رزق الله من العلم والهدى
- ٤٧٨ المطلب الثاني: آداب بعد الحفظ
- ٤٧٨ ١ - الخوف من الوقوع في الرياء
- ٤٧٩ * تحذير الحفاظ من الميل إلى الشئ
- ٤٧٩ * كيف الخلاص من الرياء
- ٤٨٠ ٢ - الخشية من العُجب بالنفس والتعالي على الخلق
- ٤٨٠ * تعريف العُجب
- ٤٨١ * حُكم العُجب
- ٤٨١ * الفرق بين الرياء والعُجب

- ٤٨١ * لماذا يقع الحافظ في براثن العُجب
- ٤٨٢ * لماذا يقع الحافظ في مستقع الكبر
- ٤٨٢ * نصوص في التحذير من الكبر
- ٤٨٢ ٣ - الحذر من الذنوب والمعاصي
- ٤٨٣ * آثار في التحذير من المعاصي
- ٤٨٤ * من عقوبة المعاصي الرجوع إلى الجهل بعد العلم
- ٤٨٤ * شبهة وردّها
- ٤٨٥ * آثار في بيان العلم النافع
- ٤٨٦ * الفرق بين علم القلب وعلم اللسان
- ٤٨٨ ٤ - تعاهد القرآن والحذر من نسيانه
- ٤٨٩ * الحكمة من تفلّت القرآن من الصدور
- ٤٩٠ * آثار في الحث على مراجعة الحفظ
- ٤٩٣ المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن
- ٤٩٤ * تمهيد
- ٤٩٤ * المطلب الأول: علو درجة الحافظ
- ٤٩٤ ١ - ارتفاع منزلة الحافظ
- ٤٩٥ * العثم بالقرم
- ٤٩٦ * تنبيه على أثر ضعيف
- ٤٩٦ ٢ - علة كرامات للحافظ
- ٤٩٨ ٣ - الحافظ مع السفرة الكرام البررة
- ٤٩٨ * مفزى معية السفرة
- ٤٩٩ * المطلب الثاني: الحافظ مُقدّم في الدنيا والآخرة
- ٤٩٩ ١ - الحفّاظ هم الأولى بالإمارة
- ٥٠٠ ٢ - الحفّاظ هم الأولى بالإمامة
- ٥٠٢ ٣ - الحفّاظ هم أصحاب الشورى
- ٥٠٢ ٤ - الحفّاظ هم المقدمون في البرزخ
- ٥٠٣ * المطلب الثالث: فضائل متنوّعة للحافظ
- ٥٠٣ ١ - الحفّاظ أهل الله وخاصته
- ٥٠٤ * المقصود بأهل الله وخاصته

- ٥٠٤ ٢ - إكرام الحافظ في الدنيا
- ٥٠٥ ٣ - ثناء الله تعالى على الحفظ
- ٥٠٦ ٤ - الحفظ لا تحرقهم النار
- ٥٠٩ المبحث الرابع: حُكْم حفظ القرآن ونسيانه
- ٥١٠ المطلب الأول: حُكْم حفظ القرآن
- ٥١٠ * جُفُظ القرآن فرض كفاية على الأمة
- ٥١٠ * حُكْم حفظ القرآن على أفراد المسلمين
- ٥١١ * حفظ القرآن الواجب والمستحب مُقَدَّم على غيره
- ٥١٢ * حُكْم تحفيظ القرآن للصبيان
- ٥١٣ المطلب الثاني: حُكْم نسيان القرآن
- ٥١٣ * آثار في التحذير من نسيان القرآن
- ٥١٤ * نسيان القرآن نوعان
- ٥١٦ * الفرق بين الشهو العارض والنسيان الدائم
- ٥١٧ * نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن نوعان
- ٥١٩ * حُكْم نسيان القرآن
- ٥٢٠ * النسيان الذي يُعذر صاحبه
- ٥٢١ الفصل السابع: هجر تدبُّر القرآن
- ٥٢٤ المبحث الأول: التدبُّر وأهميته وحُكمه
- ٥٢٤ المطلب الأول: تعريف تدبُّر القرآن
- ٥٢٤ أولاً: (التدبير) لغة
- ٥٢٥ ثانياً: (تدبير القرآن) اصطلاحاً
- ٥٢٥ المطلب الثاني: أهمية تدبير القرآن
- ٥٢٦ أولاً: حاجة القلب إلى تدبير القرآن
- ٥٢٦ * خشوع القلب وانسراح الصدر في التدبير
- ٥٢٧ * القراءة بالتدبير أصل صلاح القلب
- ٥٢٨ ثانياً: الدخول فيمنز أثنى الله عليهم بتدبير القرآن
- ٥٢٩ ثالثاً: عدم التعرُّض إلى الذم لترك التدبير
- ٥٣١ المطلب الثالث: حُكْم تدبير القرآن
- ٥٣٢ * إطباق المفسرين على وجوب تدبير القرآن

الصفحة	
٥٣٥	المبحث الثاني: أسباب هجر تدبر القرآن
٥٣٦	* تمهيد
٥٣٦	١ - الاصرار على الذنوب
٥٣٧	٢ - انشغال القلب
٥٣٨	٣ - الجهل باللغة العربية
٥٣٩	* أهمية معرفة العربية لتدبر القرآن
٥٤٠	* المفسد المترتبة على الجهل باللغة
٥٤١	٤ - ترك التدبر تورعاً
٥٤٢	* تنفيذ الشنقيطي قول متأخري الأصوليين في حصرهم التدبر في العلماء ...
٥٤٣	٥ - هجر كتب التفسير
٥٤٤	٦ - التشاغل بكثرة التلاوة
٥٤٥	* كثرة التلاوة بغير تدبر من تليس إبليس
٥٤٧	المبحث الثالث: الأمور المعينة على التدبر
٥٤٨	* تمهيد
٥٤٩	١ - تحسين التلاوة
٥٤٩	* سبب كراهة العلماء القراءة بالألحان
٥٥٠	٢ - قراءة الليل
٥٥٠	* شواهد على فضل قراءة الليل
٥٥١	٣ - الإنصات عند سماعه
٥٥١	٤ - حُسن الابتداء والوقف
٥٥٢	* نماذج من الابتداء والوقف الممنوع
٥٥٢	٥ - فهم المعاني
٥٥٢	* الجهل بالمعاني يصرف القلب عن التدبر والتلذذ بالتلاوة
٥٥٣	* القرآن يُسرت معانيه كما يسرت ألفاظه
٥٥٣	* تعلم معاني القرآن أولى من تعلم حروفه
٥٥٤	* الفرق بين معرفة الألفاظ والمعاني، كالفرق بين الليل والنهار
٥٥٤	٦ - الوقوف عند المعاني
٥٥٥	* صفة الوقوف عند المعاني
٥٥٥	٧ - ترديد الآية المؤثرة في القلب

- ٥٥٦ * نماذج من ترديد الآية
- ٥٥٨ ٨ - معرفة أساليب القرآن
- ٥٥٨ * أبرز أساليب القرآن
- ٥٦١ * ما يُعين على التدبر إجمالاً
- ٥٦٣ المبحث الرابع: ثمرات تدبر القرآن
- ٥٦٤ ١ - تعميق جذور الإيمان
- ٥٦٥ ٢ - معرفة الربِّ جلُّ جلاله
- ٥٦٦ ٣ - تحقيق العبودية لله تعالى
- ٥٦٧ ٤ - التدبر غذاء وعلاج وسلاح
- ٥٦٨ ٥ - التدبر فيه تربية للعقول
- ٥٦٨ * التدبر مفتاح كلِّ خير
- ٥٦٩ * التدبر فيه تنمية للقدرات العقلية
- ٥٧١ الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن
- ٥٧٢ المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن
- ٥٧٢ * معنى العمل بالقرآن
- ٥٧٣ * التحذير من التشبه باليهود
- ٥٧٥ * وجوب العمل بالقرآن
- ٥٧٥ * هجر العمل بالقرآن له حالان
- ٥٧٦ * الأدلة على وجوب العمل بالقرآن
- ٥٨٠ المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن
- ٥٨٠ * الجنة أعظم جزاء لمن يعمل بالقرآن
- ٥٨١ ١ - الهداية في الدنيا والآخرة
- ٥٨٣ ٢ - الرحمة في الدنيا والآخرة
- ٥٨٣ ٣ - الفلاح في الدنيا والآخرة
- ٥٨٤ ٤ - تكفير السيئات وإصلاح النبال
- ٥٨٦ المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن
- ٥٨٧ * النبي ﷺ يحث أمته على العمل بالقرآن
- ٥٩١ المبحث الرابع: الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم يتواصون بالعمل بالقرآن
- ٥٩٤ المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم بالقرآن

٥٩٤ * استجابة فردية
٥٩٦ * استجابة جماعية
٥٩٩ الفصل التاسع: هجر التحاكم إلى القرآن
٦٠٠ المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن
٦٠٠ - الآية الأولى
٦٠٠ - الآية الثانية
٦٠٢ * معنى الطاغوت
٦٠٢ * ما يُلاحظ في الآية
٦٠٣ * خلاصة ما دلت عليه الآية
٦٠٣ - الآية الثالثة
٦٠٥ - الآية الرابعة
٦٠٦ - الآية الخامسة
٦٠٧ * وجوب إجابة القاضي المسلم
٦٠٧ * (مسألة) هل المُعْرِض عن مجلس الحاكم المسلم كالمُعْرِض عن حُكْم الشريعة
٦٠٨ - الآية السادسة
٦٠٨ * صفات مَنْ يستحقُّ أَنْ يكون له الحُكْم
٦١٠ - الآية السابعة
٦١١ المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن
٦١١ * تمهيد
٦١٢ - السبب الأول: كراهية ما أنزل الله
٦١٢ * صور من الكراهية
٦١٣ * كراهية ما أنزل الله في العصر الحاضر
٦١٤ - السبب الثاني: الاستكبار
٦١٤ * نماذج من الاستكبار
٦١٦ - السبب الثالث: اتباع الهوى
٦١٧ * الهوى والحقُّ ضدَّان لا يجتمعان
٦١٧ * تحذير القرآن من اتِّباع الهوى
٦١٨ - السبب الرابع: إيثار المتاع العاجل

- ٦١٨ نماذج من إيثار العاجل *
 ٦١٩ - السبب الخامس: الخوف المُتَوَقَّم
 ٦٢٠ * نماذج من الخوف المُتَوَقَّم
 ٦٢١ - السبب السادس: التقليد المذموم
 ٦٢٢ * نماذج من التقليد المذموم
 ٦٢٢ * ابن القيم يصفُ فتنة التقليد التي أصابت العالم الإسلامي
 ٦٢٥ المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله
 ٦٢٦ المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بما أنزل الله
 ٦٢٦ أولاً: الاستخلاف والتمكين
 ٦٢٦ * نماذج من الاستخلاف والتمكين
 ٦٢٧ ثانياً: الأمن والاستقرار
 ٦٢٩ ثالثاً: النصر والفتح
 ٦٢٩ * سُنَّة الله ماضية في نصر من ينصر دينه
 ٦٣٠ رابعاً: العزُّ والشرف
 ٦٣١ * الأمة تستمد العزُّ والشرف من تطبيقها لأحكام الشريعة
 ٦٣٢ خامساً: بركة العيش وورعُهُ
 ٦٣٣ سادساً: الهداية والتثييت
 ٦٣٤ * الخلاصة
 ٦٣٥ المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله
 ٦٣٥ أولاً: الفلاح والنور
 ٦٣٦ ثانياً: المغفرة وتكفير السيئات
 ٦٣٧ * محبة الطواغيت والتحاكم إليها تستجلب الذنوب
 ٦٣٧ ثالثاً: الأجر العظيم
 ٦٣٨ رابعاً: مرافقة الأنبياء والصُّلَّيِّين
 ٦٤١ المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله
 ٦٤٢ المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله
 ٦٤٣ أولاً: قسوة القلوب
 ٦٤٤ ثانياً: الضلال عن الحق
 ٦٤٥ ثالثاً: الوقوع في التَّفَاق

- ٦٤٦ رابعاً: الحرمان من التوبة
- ٦٤٨ * الخزي لليهود والمنافقين
- ٦٤٨ خامساً: الصد عن سبيل الله
- ٦٤٩ سادساً: غياب الأمن وانتشار الفوضى
- ٦٥٠ * مثال لنوع من انظلم المُقْتَن
- ٦٥١ * فوضى الاعتداء على الأموال
- ٦٥٢ * فوضى الاعتداء على الأعراس
- ٦٥٣ سابعاً: انتشار العداوة والبغضاء
- ٦٥٥ * مسألة وجوابها
- ٦٥٥ * تحذير الأمة الإسلامية من العداوة
- * الحكم بغير ما أنزل الله من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء
- ٦٥٦ بين المسلمين
- ٦٥٦ ثامناً: الحرمان من النصر والتمكين
- ٦٥٧ * الخلاصة
- ٦٥٨ المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله
- ٦٥٩ أولاً: الإهانة عند قبض الأرواح
- ٦٦٠ * مشهد آخر من الإهانة
- ٦٦١ ثانياً: الوحشة في الحشر
- ٦٦١ ثالثاً: الأكل من النَّار و غضب الجبَّار
- ٦٦٢ * غضب الجبَّار أعظم من النَّار
- ٦٦٢ * فما أصبرهم على النَّار
- ٦٦٣ رابعاً: العذاب المهين
- ٤٦٤ * مسألة وجوابها
- ٦٦٥ الخاتمة:
- ٦٦٥ * أولاً: أهم نتائج مباحث الباب الأوَّل
- ٦٦٦ * ثانياً: أهم نتائج مباحث الباب الثاني
- ٦٦٧ الفهارس:
- ٦٧٩ * أولاً: منهج الفهارس
- ٦٨١ * ثانياً: فهرس الأحاديث

٦٨٩	• ثالثاً: فهرس الآثار
٦٩٥	• رابعاً: فهرس تراجم الأعلام
٧٠٢	• خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها
٧١٥	• سادساً: فهرس الفروق اللغوية
٧١٧	• سابعاً: فهرس الأشعار
٧٢٠	• ثامناً: فهرس الأماكن
٧٢١	• تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية
٧٢٤	• عاشراً: فهرس الآداب
٧٢٨	• حادي عشر: فهرس الفضائل
٧٣١	• ثاني عشر: فهرس البدع
٧٣٣	• ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع
٧٦٥	• رابع عشر: المحتوى